يلماز أوزتونا

تاريخ الدولة العثمانية

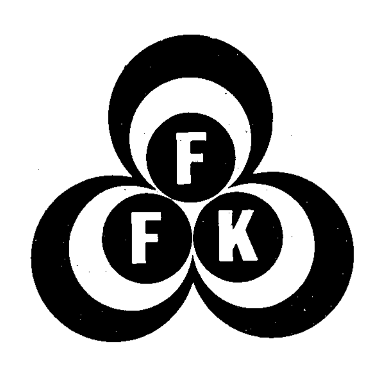
ترجمة
عدنان محمود سلمان

مراجعة وتنقيح
دكتور: محمود الانصاري

المجلد الأول

منشورات
مؤسسة فيصل للتمويل
تركيا
استانبول ـ ١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم



FAİSAL FİNANS KURUMU

FAISAL FINANCE INSTITUTION INC.

Kemeraltı Cad. 46 Tophane-İstanbul/TURKEY Phone: (1) 151 65 20 Fax: (1) 145 56 33 Telex: 25694 ffk tr. - 25729 ffk str. (For Exc.)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله
وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾

صدق الله العظيم
فصلت / ٣٣

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

مقـــدمـــة

يستهل المؤرخ النمساوى البارون فون هامر Baron Von Hammer – مؤلف أشهر كتب التاريخ العثمانى حتى يومنا هذا – مقدمة الأجزاء التسعة عشر لترجمة كتابه إلى اللغة الفرنسية* بالكلمات التالية :

« الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية واسعة . وهى ذات أهمية غير متناهية من الناحية التاريخية .. الإمبراطورية العثمانية أشبه ماتكون بمارد يقبض بأذرعه الجبارة على ثلاث قارات فى وقت واحد ، ولو أنها سقطت فى وقت من الأوقات – كأية إمبراطورية أخرى – فإن أنقاضها سوف تغطى قارات آسيا وإفريقية وأوربا . وحتى فى الوقت الحاضر (١٨٣٥) ، فإن الإمبراطورية العثمانية تحكم أقطارا « تفوق سعتها ماكانت تحكمه الإمبراطورية البيزنطية فى أوج عظمتها »[١] .

ويكتب Pené Herpin أحد المفكرين الفرنسيين الذين عاصروا الإمبراطورية العثمانية فى أوج عظمتها فيقول :

« تفوق قدرة تركيا اليوم (١٦٢٩) قدرة مجموع دول العالم أجمع »[٢]

---

* نشر هذا الكتاب عام ١٨٣٥ .

1) Histoire de L'empire Ottaman, جزء ١ ، باريس ، ١٨٣٥ ، ص ١ – ٢

2) Apalogie، جنيف ، ١٦٢٩ ، ص ٦

ومثل هذه الأفكار يسجلها المؤرخون والمفكرون المعاصرون الذين كتبوا بعد سقوط الدولة العثمانية ، فمثلاً يقول Margnthan آخر سفير للولايات المتحدة الأمريكية لدى الدولة العثمانية ، في كتاب Soliman لدوني (ص ٢٤٠) مايلي :

« أسس العثمانيون في آسيا وإفريقية وأوربا واحدة من أوسع الإمبراطوريات التي عرفها العالم »[٣] .

أما المستشرق الفرنسي Sovwaget فيقول : « لم يشهد التاريخ الإسلامي كياناً سياسياً قوياً ومستقراً كالإمبراطورية العثمانية . لقد كانت الإمبراطورية العثمانية هي الدولة الأكبر ، والأوسع ، والأكثر استقرارا . كانت تمتلك أكبر المصادر الاقتصادية في أوربا ، وكان جهازها الإداري في حد ذاته بناءً راسخا يخدم ويرعى مصالح الشعب العثماني . كان الأسطول العثماني يسيطر على كامل البحر الأبيض ، وكانت اسطمبول تبهر أنظار السياح الأوربيين كأكبر مركز للحضارة في العالم ، يضاف إلى ذلك كله التميز المتفرد للأتراك بالطاعة والنظام »[٤] .

ويؤكد المستشرق الألماني Babinger : « كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرى بحق »[٥] .

ونفس الكلمات تقريبا يسجلها Grausset من الأكاديمية الفرنسية ، حيث يقول : « كانت الإمبراطورية العثمانية دولة عالمية كبرى بحق »[٦] .

---

3) Downey, Soliman, N.Y, 1929

4) Sawaget, Intraduction à L'Histoire de L'Orient Musulman، باريس ١٩٤٣ ، ص ١٦٤

5) Balrnger, Mehmed der Eroberer، ميونخ ١٩٥٣ ، ص ٤٦٩

6) L'Empire du Levant، باريس ١٩٤٩ ، ص ٦٤٣

أما المؤرخ الإنجليزى Downey فيقول : « الدولة العثمانية هى إحدى أهم ظواهر التاريخ العالمى المذهلة جدا ، والخارقة للعادة ، فقد حاولت هذه الدولة أن تجمع حضارات البحر الأبيض كلها فى إمبراطورية واحدة »(7) .

ويقول الفيلسوف الإنجليزى Toynbee « الإمبراطورية العثمانية هى الدولة الوحيدة التى جمعت الشرق الأوسط تحت حكمها أطول حقبة فى التاريخ ، وذلك أمر لم توفق إليه الإمبراطورية الفارسية أو الرومانية أو العربية »(8) ، ويضيف تونبى إلى ذلك : إن كافة الأقوام الناطقة بالعربية اجتمعت تحت راية دولة واحدة ، ويسترسل قائلا : « إن أيا من الدول الأوربية الاستعمارية التى أخذت مكان الدولة العثمانية ، سواء إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا أو روسيا لم تتمكن من إدارة هذه الأقطار مدة طويلة وبطريقة مستقرة كما أدارتها الدولة العثمانية ، فهذه الدول عندما استولت على تلك الأقطار لم تلبث أن تركت أماكنها إلى الدول البلقانية والعربية خلال فترة قصيرة ، على الرغم من أن استيلاءها عليها كان بزعم إدارتها بصورة أرقى » ويضيف تونبى : إن إدارة الدولة العثمانية للشرق الأوسط كانت خير إدارة على مدى التاريخ وحتى يومنا هذا ، وإن الدولة العثمانية هى الوارث بحق للإمبراطورية الرومانية .

لقد أطلق المؤرخون المعاصرون على الأسلوب العثمانى الذى حكم الشرق الأوسط لعدة قرون مصطلح Pax Ottomana وهو يقابل Pax Romana وهو التعبير اللاتينى لمفهوم « النظام العالمى » الذى يرد ذكره فى دستور فاتح (قانون نامة) .

لقد كان من الممكن الاسترسال فى إيراد الكثير من كتابات المؤرخين الأجانب أو الأتراك التى تعالج موضوع نشأة الدولة العثمانية واتساعها ، غير أننا نكتفى بما أوردناه من نماذج .

---

7) Downey, Soliman, ١٩٢٩ نيويورك ، ص ٣٣

8) Toynbee, the Ottaman state and its place in the world, lieden 1974,P.15.

إننا نحسب – دون إدعاء أو إسرافـا – أنه يتعذر تفهم وإدراك الجمهوريـة التركية الحالية والعالم العربى وتكوينه دون معرفة التاريخ التركى ، بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول : إنه لايمكن إدراك سير التاريخ العالمى وتفهم البحوث التى دارت حوله دون معرفة التاريخ العثمانى ، والقارىء للتاريخ العالمى دون التعرف على التاريخ العثمانى كالسائر فى الظلام .

إن المشكلة الهامة والجادة هى حاجة جمهور الشباب والجماعات الأخرى إلى كتاب يحيط بالتاريخ العثمانى فى سلاسة ودون تقصير وبغير أخطاء متعمدة أو غير متعمدة ، ومن أجل هؤلاء ولسد هذا الفراغ .. كان اهتمامنا بتأليف هذا الكتاب الذى استغرق وقتا غير قليل .

واستكمالا للفائدة فقد حرصنا فى تأليفه على أمرين ، أولهما : السرد التاريخى للأحداث حتى وقت الانتهاء من تأليف الكتاب (١٩٨٥) وثانيهما : تناول موضوعات التشكيلات الثقافية والحضارة والفن العثمانى . ولم نهمل عند تحريره أى مصدر من المصادر الجغرافية والأدبية .

وحرصا على ألا تزداد صفحات الكتاب تضخما عما هى عليه، فقد آثرنا ألا نضع خرائط جغرافية فى المتن ، وإن كنا نوصى بشدة بأن يستصحب القارىء أطلس يضعه تحت يده وهو يطالع الكتاب .

ولعل تركيزنا على الجانب الثقافى من التاريخ العثمانى كان له مايبرره ، فلئن كان القارىء الأجنبى يجهل الثقافة العثمانية فإن الجيل التركى الحالى – مع الأسف – لايقل عن الأجنبى جهلا بمكتسبات ومعطيات هذه الثقافة على الرغم من أنه من أبنائها .

وأمر آخر كان يمثل جزءا من دوافعنا لتأليف هذا الكتاب ، ذلك هو أنه على الرغم من أن التاريخ العثمانى مايزال يمثل أحد التشكيلات السياسة للأمس القريب ، فإن المعروف عنه أقل بكثير من المعروف

عن الإمبراطوريات المناظرة كروما والخلافة العربية والإمبراطورية البريطانية ، ولاينسحب ذلك على الجانبين: السياسى والعسكرى من التاريخ العثمانى فحسب ، بل يمتد كذلك إلى الجانبين: الثقافى والحضارى فى التاريخ العثمانى .

إن تجربة نظام الدولة التركية التى اتخذت شكل الإمبراطورية التركية العربية على يد العثمانيين لَموضوع جدير بأن يكون أحد موضوعات الدراسات التاريخية الهامة .

وفى هذا الصدد قد تجدر الإشارة إلى أنه ينبغى على الأقطار العربية أن تهتم أكثر من غيرها - بعد الجمهورية التركية - بدراسة التاريخ العثمانى . وهنا يرد تحفظ على جانب كبير من الأهمية ، مؤداه أن التاريخ العثمانى الذى تعرفه الأقطار العربية قد حررته وصورته أقلام أجنبية موتورة ، ومن ثم فإن هذا التاريخ يأتى مزيفا متحيزا يجرد التاريخ العثمانى من كثير من عناصر العظمة والتميز ، وذلك بعينه هو الذى يدعونا اليوم إلى تنبيه المسلم المثقف إلى أن يقرأ ماكتبه الأجانب (الإنجليز والفرنسيون وغيرهم) ببصيرة يقظة وفكر ناقد .

وقد يصحح هذه المسألة ويقلل من أخطارها أن يكتب التاريخ العثمانى قلم تركى نابع من تركيا ذاتها ، ولايقدح ذلك فى أن الكتابة عن التاريخ مجال مفتوح للجميع ، وانشغال غير أبناء الشعب بكتابة تاريخ الشعب أمر محبب وجميل ، وإن كان يقفز إلى الذهن هنا أن أفضل وأرقى ماكتب عن التاريخ الألمانى حرره المؤرخون الألمان ، وينسحب ذلك بنفس المقدار على التاريخ الإنجلوسكسونى والتاريخ الروسى .. الخ ، ويساند هذه المقولة اعتبار مهم نستطيع أن نلاحظه فى أخطاء كتابة التاريخ التى قد لاتنشأ عن عمد وإنما عن عدم تفهم أو تمثل لقيم وعادات وثقافة وطريقة معيشة الشعب الذى يكتب عنه أو يؤرخ له ، ومن ثم فإننا نأمل فى أن يكون كتابنا هذا الذى يكتبه تركى من تركيا قد تحاشى الكثير من الهنات التى أشير إليها وحقق الغايات التى أشرنا إليها من قبل .

وإنه ليمكن القول دون مغالاة إنه يتعذر أن نتعرف على كيفية ظهور وتشكيل الدول العربية الحالية دون معرفة التاريخ الصحيح للدولة العثمانية ، ولقد حرصنا بالفعل فى هذا الكتاب على أن نركز البحث فى مواطن عديدة منه على الأقطار العربية . وعندما يطلع القارىء العربى على التاريخ العثمانى فإنه يكون بذلك قد اطلع على تاريخه هو لفترة أربعة قرون ، وسوف يتذكر وهو يقرأ النظام والدستور السياسي الذى عاشه شعبه لمدة أربعة قرون ، وسوف يقرأ كذلك مجريات الأحداث فى الإمبراطورية التى هى دولته ، ولاشك فى أنه سوف يجد إجابات شافية عن كثير من الأسئلة التى ثارت فى ذهنه ولم يجد لها جوابا من قبل .

وكم يحدونا الأمل فى أن يكون الكتاب شائعا بالنسبة للقراء جميعا على اختلاف جنسياتهم ، وأن يكون أكثر تشويقا للقارىء العربى بوجه خاص ؛ ذلك لأن القارىء العربى قد عاشت أمته فى ظل الدولة العثمانية عدة عصور يستوى فى ذلك من كان مقيما فى اليمن أو فى الجزائر ، وهذا أو ذاك كان أبوه أو جده واحدا من أفراد تلك الدولة ، شعر بشعورها ، وعاش مصيرها ، وشاركها فعالياتها ، وإن كانت هناك أمور أو حالات تعارضت فيها المصالح فمن حقه أن يعرف الأسباب والحقائق التى كانت وراء الاتفاق أو التعارض .

● ● ●

والمجلد الأول من هذا الكتاب يعرض التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية ، ملقيا الضوء على الإمبراطورية منذ ظهورها إلى انحلالها ، وحتى يسهل على القارىء تفهم كيفية ظهور العثمانية على مسرح العالم فقد قدمنا لذلك بتلخيص مجمل للمجريات التاريخية للأتراك قبل العثمانية وخارج النظام العثمانى .

أما المجلد الثانى من هذا الكتاب فيتناول الحضارة العثمانية بما يشتمل عليه مفهوم الحضارة من ثقافة وفن وأسلوب حياة .

وقبل أن نودع القارىء نريد أن نرد على نقد قد يثار ، ذلك أنه كان ينبغى لهذا الكتاب أن يتناول التاريخ الداخلى للقوميات التى ارتبطت طوال ستة قرون بالنظام العثمانى ، وأن يتناول كذلك الجوانب الثقافية والفنية لتلك القوميات ، ولكن ذلك كان غير ممكن لسببين أولهما : أن ذلك كان سوف يخرج بالكتاب عن الحجم الممكن المعقول ، وثانيهما : أن هذه الموضوعات قد تناولها بالفعل بدقة وعمق واستفاضة مؤرخو تلك القوميات ، ويكفى فى ذلك أن نشير إلى ماكتب عن أدب اللغة العربية فى تونس ، أو ماكتب عن الفن فى رومانيا فى العهود العثمانية .

أما القائمة البيلوجرافية التى يحتويها هذا الكتاب فإنها يمكن أن تعطى فكرة لطالب الدراسة فى التاريخ العثمانى عن مبلغ مانشر فى مختلف اللغات عن هذا الموضوع ، ومع أن القائمة البيلوجرافية فى كتابنا هذا لم تسجل كافة أسماء الكتب التى تمت الإفادة منها كمصادر وعلى الأخص تلك التى كانت منها على شكل مقالات ، فإنها على كل حال تفى بالغرض لأولئك الذين يرومون البحث والتعمق فى موضوع التاريخ العثمانى .

بقيت كلمة أخيرة تحتم الأمانة أن نثبتها ، تلك هى أن النظام العالمى العثمانى Pax Ottomana ، لم يستهدف يوما إنكار كيان أية قومية مهما صغرت ، ولم يعمل أو يفكر فى محوها ، بل على العكس من ذلك كان نظاما حريصا على أن يجعل من هذه القوميات تحت مظلته قوى فاعلة ومشاركة فى صنع السياسة والمدنية العثمانية .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

المؤلف



المبحث الأول

الأتراك قبل تأسيسهم الدولة العثمانية



الباب الأول

فترة قبل الإسلام

١) الأتراك :

الأتراك ، عرق أبيض عريض الجمجمة Braehyeephalic وغالبا مايطلق عليهم فى الكتب الأدبية لفظ « طورانى » (بالفرنسية : Touranien) وهم القوم الذين ينحدرون من فرع آلتاى Altay التابع لمجموعة أعراق أورال – آلتاى Ural-Altay . اللغة التركية كثيرة المقاطع ، تشتق كلماتها باضافة مقاطع إلى نهاية الكلمة الأصلية وهى لغة غنية جدا بصيغ أفعالها .

يدين الأتراك القدامى بدين كوك تنرى Gök Tenri (وباللغة التركية القديمة : كوك تنكرى Kök Tengri) . إلا أننا نجد الشامانية لدى القبائل التركية التى ابتعدت كثيرا وبقيت فى سيبيريا وظلت تحت تأثير مغل شامان .

ديانة كوك تنرى ، ليس لها نبى ، ولا كتاب مقدس ، ولامعبد ولاعبادة منظمة . لها معبود واحد (تك تنكرى) . وهو رب الأتراك فقط وليس ربا للعالمين كإله المسلمين .

السماء والأرض والماء مقدسة . يدفن الموتى ، يمكن تحنيطهم . تدفن معهم كذلك حاجياتهم الضرورية لاستعمالها فى الدار الأخرى .

لايجوز لأى فرد من المجتمع التركى أن يصبح عبدا أو جارية داخل مجتمعه التركى . يستخدم المجتمع التركى العبيد والجوارى من الأقوام الأجنبية . كل تركى حر وكلهم محاربون ، حتى المرأة تمتطى الحصان وتستعمل السلاح ولاتتحجب وتختلط بالرجال ولاتنفر منهم . لايربى الخنزير ولايؤكل لحمه إلا عند المجاعة . إن تربية الخنزير وأكل لحمه ، علامة للمغول . يهتم المجتمع التركى بالبكارة وعفة المرأة اهتماما كبيرا . اكرام النساء للغير وعدم الإكتراث بالبكارة ، علامة أخرى من علامات المغول . ان العقوبة الوحيدة لهتك العرض هى الإعدام . إلا إذا قبلت التى اعتدى عليها – وكانت سيدة غير متزوجة أو أرملة – الزواج ممن اعتدى عليها .

إن نظام المراتب المتسلسلة Hierarchy هو الأساس فى المجتمع التركى القديم ويستند على النظام العسكرى . لقد سلح هذا النظام المجتمع وجعل منه مخيما عسكريا يمكنه الوقوف حتى أمام أكبر جماعات الأعداء فى سبيل الذود عن الحرية والاستقلال أو بقصد الفتوحات .

إن سبب تنظيم الأتراك على هذه الشاكلة ، هو مواجهتهم منذ فجر التاريخ ، للصينيين الذين يفوقونهم عددا واضطرارهم إلى مجابهتهم فى معركة حياة أو موت . طبقة الأشراف جزء من المجتمع . أكثرية الضباط من الأشراف . تمنح رتبة الجنرالية ، إلى سلالة عائلة الخان أو الخاقان ، وفى حالات كثيرة خصصت لامراء الخاقانية – الذين يطلق عليهم اسم « تكين » Tegin و« شاد » Sad – والأمراء فقط هم الذين يمكن أن يصبحوا جنرالات . ولايستحسن انتسابهم إلى سلك آخر .

الأتراك القدامى ، عرق الأقاليم الباردة ، يقاومون البرد ، ويرتدون اللباس الخاص لاتقائه . يزاولون التزحلق ويستعملون المزالج ، لكن الأتراك الذين جاءوا إلى الشرق الأوسط وإلى تركيا ، فقدوا على مر الزمن هذه المقومات ، وأصبحوا يخشون البرد ويتحملون الحر .

تعلم الأتراك ، فى أوقات مبكرة جدا ، تطويع المعادن وصناعة الأسلحة وترويض الخيول والأغنام ، وخاصة للضرورات العسكرية . هم أمهر صناع الجلود

وأمهر الفرسان وأمهر مزيني الخيول في العالم . يرتدون الثوب والسروال والسترّ
وقد علموا ذلك أولا للصينيين ثم للرومانيين إبتداء من القرن ٥ الميلادى ، وأصبحوا
مؤسسى اللباس الأوربى بشكله الحالى . يطيل الرجل والمرأة من الأتراك شعره
ويدليه خلف ظهره أو يعطيه شكل ذيل الحصان . الشعر القصير واللحية الطويلة
هى علامات أخرى للمغول . يطيل الرجال الشارب ونادرا مايطيلون اللحية .

إن الأتراك القدامى المتهجنين (المختلطى المولد) لونهم فاتح وعيونهم زرق
(أزرق ، أخضر ، أخضر - أزرق ، كستنائى ، أصفر) ، يميلون إلى الشقرة ،
عيونهم ليست ممشوقة ولاكروية وعظام وجناتهم ليست بارزة . تلك هى علامات
المغول والصينيين . ويشاهد كذلك أتراك اختلطوا مع هذه الأقوام . وبالنسبة إلى
قانون مندل ، فان اللون الغامق يطغى على اللون الفاتح . يلد على الأغلب من الرجل
والمرأة ذوى العينين المختلفى اللون أحدهما غامق والآخر فاتح ، طفل غامق
العينين . وبالنسبة إلى لون البشرة ، يسرى القانون نفسه ، الأتراك ناصعو بياض
البشرة ، السمرة تبين الاختلاط بالأعراق الأخرى .

لايروق للأتراك البقاء فى مكان واحد ويسرهم الترحال . ولقد كانت هذه
الخاصية أحد أسباب ذهابهم إلى أقطار مختلفة جدا . أسسوا فى الأزمنة المبكرة
مدنا كبيرة وقلاعا أيضا . أكثرها اكتشف فى عصرنا . وقد كان الاعتقاد قبل
اكتشاف هذه الآثار ، أن الأتراك القدامى رحّل تماما .

يمتطون الخيل منذ صغرهم . يوضع الطفل ، وهو فى الرابعة من عمره وعلى
أقصى تقدير فى الثامنة ، على ظهر الحصان ويقوم والده بسحب الحصان ويجرى
به جولة بطيئة . ولايفارقون الحصان بعدها . « لذلك يقال عنهم إنهم ولدوا مع
الحصان » . ونتيجة لذلك ، لايهابون المسافات ويسوقون خيولهم إلى حدود
البحار المفتوحة والمحيطات ويقفون عندها . لايحبون البحر ولاالبحرية ، لكنهم
اضطروا إلى مزاولة الأمور البحرية عندما استوطنوا تركيا الحالية فى أواخر القرن
١١ . لاتوجد بحرية تقريبا لدى الأتراك خارج تركيا . هم أناس عاشوا فى السهول
القاحلة . ونادرا مايعيشون فى الجبال ، كذلك لايروق لهم العيش فى الغابات
كالمغول والسلاف ، يذهبون إلى الغابة للاصطياد فقط . آلاتهم الزراعية وأسلوب
الرى عندهم متقدم ، تعودوا بصعوبة على الزراعة ، لأنهم يفضلون أن يكونوا ملاك

أراضٍ فقط ، وقد استخدموا فى أراضيهم ، الأقوام الذين سيطروا عليهم . لكنهم يعشقون تربية الحيوانات . هم أساتذة فى تربية الخيول والأغنام . ان لحوم الخيل والأغنام غذاؤهم الذى لاغنى لهم عنه . ثم هم أضافوا إليها بعد ذلك الجمل (خاصة ذا السنامين) والبقر والجاموس . يشربون الـ « قيميز Kimiz » من المشروبات الكحولية (ويصنع من لبن الفرس) والشراب من الكروم . منع الإسلام المشروبات . يندر أن يشاهد القمار لدى الأتراك القدامى .

ليست لديهم أى أفكار إيجابية أو سلبية تجاه لغات أو أديان أو ثقافات أو اعراف وعادات الأقوام الأجنبية . لايحاولون اجبار الأقوام الأخرى على تعلم دينهم ولغتهم . يتقبلون بعد عدة أجيال دين ولغة الأكثرية فى الأقطار التى دخلوها كفاتحين وينصهرون فيها .

لهم رؤساء قبائل ، إلا أنه لغرض رئاسة اتحاد القبائل وخاصة اتحاد ولايات القبائل المتحالفة وحكمها ، يقتضى الأمر الحصول من الإله كوك تنكرى على السعد والبركة والقداسة Kut almak أما الإله Tengri فقد منح هذا السعد إلى السلالة المسماة آجين أوغوللرى Açinögullari فقط ولم يمنحه إلى سلالة تركية أخرى . إن كافة السلالات التركية الخاقانية اعتبارا من سلالة هون فى القرن الثالث ق . م وحتى بنى عثمان فى القرن ٢٠ ، ينحدرون من آجين أوغوللرى وسلالة متة Mete ، أما الذين ينحدرون من عائلة غيرها فإنهم يعتبرون غير شرعيين كما يعتبرون غاصبين لاتجب طاعتهم .

يعتبر الامبراطور التركى المسمى « خاقان » مؤلها ومقدسا ، هو ليس إلهاً تاماً ، ولكنه « شبيه الإله » . ان الخاقانية تتوارث من الأب إلى الأبن وعلى الأغلب يرثها الابن الأكبر ، وإن كان هذا لايعتبر قاعدة ، فقد يتمكن أمير من أمراء السلالة أن يدعى حقه فى العرش ، لأن سلالة متة منحها الإله « القداسة » Kut فإذا ماتفوق وتمكن من الجلوس على العرش ، فإنه يعتبر مختارا من قبل كوك تنكرى ، وعندئذ تلزم طاعته . وقد كان هذا النظام سبباً فى تجزئة الامبراطوريات التركية واضمحلالها بسرعة ، كما كان سببا كذلك فى تكوين نظام اقطاعى وشللى ؛ فالأمراء الآخرون الذين لم يعتلوا العرش ولم يصبحوا خاقان ، ويتولون صلاحيات الحاكم على الأقطار والأراضى الواسعة ، لايطيعون الخاقان إلا بنسبة اقتداره ،

ويتمردون عليه فى حالة ضعفه . وبموجب هذا النظام أيضا ، فإن الحاكم إن كان ذا إمكانية واقتدار ، فإنه ينهض بالدولة ويعلى شأنها ، أما إذا كان ضعيفا ، فإنه يسبب الاسراع فى اضمحلالها وسقوطها . ولقد ظل هذا النظام ساريا فى العهد الإسلامى التركى إلى أن تمكن بنو عثمان من تغييره .

إن موضوع وطن ومنشأ الأتراك ، ليس من المواضيع التاريخية التى لاتقبل النقاش كما هو الحال فى أقوام كثيرة أخرى . ولكى نصل فى هذا الصدد إلى صورة قطعية ، فإن الأمر يقتضى مزيدا من التوسع فى تناول الحدود الزمانية والمكانية .

إن وطن الأتراك بالنسبة لمعلوماتنا حاليا ، هو المثلث الكبير الذى ينحصر بين بحيرة آرال - جبال آلتاى - جبال تانرى (تيانشان) والذى تدخل فيه بحيرة بالقاش . لكنهم فى الأزمنة المبكرة انتشروا فى المنطقة بسرعة وتقدموا خاصة نحو الشمال الشرقى واستوطنوا فى شمال الصين ، عن قوة ، وامتزجوا مع الأقوام الإيرانية وتدفقوا نحو الغرب باسم سقا Saka (Skit) .

يحتمل أن يكون نطق كلمة « ترك » Türk قبل القرن ٧ بعد الميلاد على شكل « تُرُك » (بضم حرفى التاء والراء) Türük وتعنى « قوى ، مقتدر ، كثير ، مكثر » وهو جذر للمصدر Türemek (تكاثر) . استعملت هذه الكلمة كاسم مشترك لجميع الأقوام الناطقة بالتركية منذ القرن ٦ ومنذ أتراك كوك (كوكتوركلر) .

وكانت فى القرون السابقة ، تطلق الكلمة على واحد فقط من الأقوام أو القبائل التى تنطق التركية . وللمرة الأولى مرت كلمة « ترك » فى المصادر الصينية التى ترجع للقرن ١٨ ق . م . بنطقها بصورة تك Tik ولم يعثر على مصدر موثوق أقدم منه .

إن العائلة التى منحها الإله كوك تنكرى القداسة والسعد Kut لتتولى حكم الأتراك ، هى سلالة آجينا Agina . أو باللهجات التركية المختلفة آشينا Asina ، بورى Böri ، قورد Kurd وهو اسم الحيوان الذى يسمى ذئب . إن هذا الذئب هو كوك بورى Kök Böri أى ذئب املح . إن جد السلالة تناسل من هذا الذئب ،

وبذلك تكاثرت السلالة . الذئب الأملح رمز وطنى . والقمر على شكل هلال ، رمز وطنى آخر (رمز النجمة ، حديث جدا) إن اللون السلالى لأسرة بنى آجين هو الأحمر (حمرته ليست حمرة تامة وإنما بلون اللهب الذى يميل إلى الطرنجى أو الأحمر الفاتح) وهو اللون السلالى للسلالات التركية الخاقانية (الحاكمة) الكبرى ومنها بنو عثمان ، والذى كونّ لون العلم التركى الحالى . كما أن لون سلالة جابت Capet الأبيض ، الهاشميون الأخضر ، العباسيـون الأسود ، الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية الافلاطونى (الارجوانى) .

يستمد امبراطور الأتراك الكبير – الذى كان يطلق عليه فى السابق اسم « ياكبو Yagbu » ثم « كغان Kağan » وهو اللفظ الذى تطور على أساس تفضيل المقطع الطويل وأصبحت « خاقان » – سلطته على الأتراك من إله الأتراك الذى يسمى « تنكرى » ، ثم أخذ يستمده من الله فى الفترة الإسلامية . قال بلكه كغان فى كتابات أورهن مايلى : « جلست على عرش آبائى لأن التكرى أراد ذلك » . ان السلالة شرعية من الناحية القانونية لكونها هى مؤسسة الدولة والوحدة الوطنية ، بواسطة الفتوحات .

الخاقان لايأمر ، بل يصدر إراده ، ومنبع هذه الإرادة هو الإلهام الإلهى (تنكرى) ، لذا فإن إرادة السلطان لاتناقش وتعتبر مناقشتها مخالفة للإله . يطلق على زوجة الخاقان التى من السلالة ذاتها اسم « كتون Katun » التى أصبحت تنطق بعد ذلك : « خاتون » وهى نفس كلمة « قادين Kadin » (وتعنى امرأة ، لها دور مشروع فى أمور الدولة بقدر معين ، تتمكن من الجلوس على العرش بجنب زوجها الخاقان » .

٢) تصنيف التاريخ التركى :

إن الأزمنة التى تسبق القرن ٣ ق . م ، هى فترة قبل التاريخ بالنسبة للأتراك . ونحن نستطيع أن نتعرف على عدة أسماء من حكام الأتراك للفترة التى تسبق هذا القرن فقط ، ولاتوجد لدينا قائمة حكام كاملة .

إن المنطقة الرئيسية للدولة التركية فى القرن ٣ ق . م ، هى شمال المنطقة الوسطى لدولة مغولستان الحالية ، أى جنوب بحيرة بايكال مباشرة وحوض نهر

أورهن وهى المنطقة التى بقيت قاعدة للدولة التركية حتى عام ٨٤٠ . أما الأتراك الذين انتقلوا فى هذا التاريخ إلى تركستان الشرقية ، ووسط آسيا ونحو أقصى الجنوب – الغربى فقد نقلوا مركز ثقلهم بمرور الزمن من تركستان الشرقية إلى تركستان الغربية وأخيرا نقلوا مركز ثقلهم مع السلاجقة إلى خراسان وإيران .

وعند تأسيس الدولة التركية فى الأناضول عام ١٠٧٤ ، تكّون أتراك الغرب . وأخذ خاقانات تركيا فى تمثيل أتراك الغرب والشرق ، قد دام هذا الوضع إلى زمن قريب من وقتنا الحاضر . ان التاريخ التركى الأساسى هو : تركستان وتركيا ،

إلا أنه إلى جانب ذلك ينبغى أن نذكر أنه قد تأسست امبراطوريات تركية جانبية ، فقد تشكلت فى كلتا شعبتى خاقانية تركية الكبرى ، امبراطوريات تركية جانبية فى أوربا الشرقية ، الهند ، إيران ، مصر والصين ، كخاقانيات جانبية ليست لها علاقة مع تركية وتركستان . ويقتضى ان نضيف إلى ذلك الشعبة السفلى للهند الجنوبية . وعلى هذا الأساس يمكن تصنيف المناطق التى تأسست فيها الامبراطوريات التركية على الشكل التالى :

١ – الشرق أو تركستان .
٢ – الغرب أو تركية .
٣ – أوربا الشرقية .
٤ – إيران .
٥ – الهند .
٦ – الهند الجنوبية .
٧ – الصين .
٨ – مصر .

ومع أن الأتراك أسسوا امبراطوريات فى تركستان وفى أوربا الشرقية والهند قبل الإسلام ، لكنهم لم يتمكنوا من تأسيس امبراطوريات فى تركية وإيران والهند الجنوبية ومصر إلا بعد دخولهم الإسلام .

وبموت تيمور أوغلو شاه رخ فى ١٤٤٧ ، ينتقل مركز ثقل التاريخ التركى بصورة نهائية من الشرق (تركستان) ، إلى الغرب (تركية) . وبذلك لاتصبح

الدولة التركية الأساسية الأهم فى تركستان ، وإنما فى تركيا وهى الدولة العثمانية .
جلس على عرش الخاقانية فى الدولة التركية الأساسية ١٨٢ خاقان تركى ، وهم ينقسمون إلى ١١ سلالة حاكمة تنحدر من سلالة آجينا أومته Mete وهى :

١ – الهون (٣٩ خاقان) : ٢٦٥ ق . م – ٢١٦ ب . م = ٤٨١ سنة .
٢ – التابغاج (١٦ خاقان) : ٢١٦ – ٣٩٤ = ١٧٨ سنة .
٣ – الافاريون (١٣ خاقان) : ٣٩٤ – ٥٥٢ = ١٥٨ سنة .
٤ – كوكترك (٢٧ خاقان) : ٥٥٢ – ٧٤٥ = ١٩٣ سنة .
٥ – اويغر (١٤ خاقان) : ٧٤٥ – ٨٤٨ = ١٠٣ سنوات .
٦ – القره خانيون (١٠ خاقانات) : ٨٤٨ – ١٠٤٠ = ١٩٢ سنة .
٧ – بنى سلجوق (٢٠ خاقان): ١٠٤٠ – ١٣٠٨ = ٢٦٨ سنة .
٨ – الايلخانيون (٢ خاقان) : ١٣٠٨ – ١٣٣٥ = ٢٧ سنة .
٩ – جغتاى (٧ خاقانات) : ١٣٣٥ – ١٣٧٠ = ٣٥ سنة .
١٠ – بنى تيمور (٣ خاقان) : ١٣٧٠ – ١٤٤٧ = ٧٧ سنة .
١١ – بنى عثمان (٣١ خاقان) : ١٤٤٧ – ١٩٢٢ = ٤٧٥ سنة .

كان الخاقانات حتى عام ٩٢٤ يدينون بدين كوك تنكرى أما الذين بعد هذا التاريخ فهم مسلمون سنيون حنفيون .

[الإستثناءات هى : ٢ خاقان خلال ٥٥٤ – ٥٨١ بوذيين ، الذين حكموا خلال ٧٤٧ – ٨٤٨ مانويين ، وخاقان واحد خلال ١٣٣٥ – ١٣٣٨ مسيحى أرثوزكسى] .

السلاجقة خلال ١١٥٧ – ١٣٠٨ ، هم سلاجقة تركية .

٣) السقه Saka **(القرن ٧ – ٣ قبل الميلاد) .**

إن أهم كيان سياسى كونه الأتراك قبل الفترة التاريخية ، أى قبل القرن ٣ ق .م ، هى الدولة التى أسسها السقه ، وهم الأتراك الذين نزحوا إلى الجنوب – الغربى ، نحو إيران والذين اختلطوا على نطاق واسع بالعناصر الإيرانية الآرية . ويطلق اليونانيون على هؤلاء القوم اسم « سكيت » Skit . إن هذه العائلة المالكة والعنصر الحاكم ، أتراك ، وهذه هى التجربة التاريخية التى حققها الأتراك لإدارة الآريين والأقوام الأخرى ، وجمعهم تحت رايتهم .

إن حاكم السقه الأكبر هو آلب – أر – نتغا الذى يسميه الإيرانيون أفراسياب هو أحد أجداد مته . ويحتمل أن يكون جده فى البطن العاشر . عاش فى القرن ٧ ق . م ، ولم ينس رغم مضى قرون طويلة ، جاء ذكره فى « ديوان لغات الترك » (القرن ١١) ، كما جاء فى « شاهنامة » الفردوسى ، فهو إذن لم ينس حتى الفترة الإسلامية ، لا من قبل الأتراك ولا من قبل خصومهم الإيرانيين .

دخل آلب – أر – نتغه صراعاً طويلاً جدا مع الإيرانيين . طارده شهنشاه إيران كيخسرو لغاية جبال الطاى ، وأخيرا قتله خصمه الشهنشاه فى اذربيجان عام ٤٢٦ ق . م . بدأ يتشتت اتحاد سقه أثر ذلك ، لكن ملوك سقه حكموا لعدة عصور أخرى وجاءت القبائل التركية من جماعة سقه إلى إيران ، ققفاسيا ، أوربا الشرقية ، البلقان وأخيرا إلى الأناضول ووضعوا فيها أول دم تركى . إن الامبراطورة توميريس (تقابل كلمة « دمير » التركية التى تعنى حديد) التى حاربت عام ٥٢٩ ق . م شهنشاه إيران الشرقية دارا الكبير ، هى ابنة حفيد آلب – أر – تونغه .

٤) الهون Hun (٢٦٥ق . م – ٢١٦ ب . م) .

يطلق الصينيون على سلالة أو قبيلة هون Hun اوكن Kun اسم هيونك – نو Hiung-nu ، ويحمل حكام الهون من سلالة آشينا وعشيرة توكو Tuku (من المرجح أن هذه الكلمة هى نفس كلمة « ترك ») لقب Tanhu التى تحورت فى اللغة الصينية إلى لفظ شانيو Sanyu . إن الاسم الخاقانى لخاقان الهون الذى يحمل هذا اللقب والذى يعنى « الإله كوكنتكرى الذى يمنح القداسة » ، هو ياكبو Yabgu ، وتعنى هذه الكلمة التى تعتبر أكبر لقب للحكم لدى أتراك أوغز ، فى فترة الهون : « خاقان ، الامبراطور التركى ، الامبراطور الكبير » .

تم تدوين اسم أول حاكم تركى فى التاريخ فى المصادر الصينية عام ١٧٦٦ ق . م . باسم جون – كوى çun- Goey وهو الذى يحتمل أن يكون جد مته فى البطن الـ ٥٠ . نظم كل من شانيو ابو تيؤمان (٢٦٥ – ٢٤٤ ق .م) وابنه تيؤمان (٢٤٤ – ٢٠٩) الهون ، وجعل ابن تيؤمان مته Mete (٢٠٩ – ١٧٤) من الامبراطورية دولة عالمية كبرى تمتد اعتبارا من الخزر إلى البحر اليابانى ، ومن جبال الهمالايا إلى سيبيريا فى آسيا الشمالية ووسّعها وجعلها تبلغ نحو ١٨ مليون كم[٢] . وقد أصبح من المؤكد بدرجة كبيرة فى الوقت الحاضر ، أن أصل أسمى

الحاكمين الذين يطلق عليهما اسمى تيؤمان ومته هو تومان Tuman وموتن Motun .

كان مته هو أول من أسس الجيش النظامى والوحدات على نظام العشرات ، حيث ينقسم الجيش الذى يتكون بأجمعه من الخيالة إلى أقسام مؤلفة من ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠٠٠ شخص . يسمى القسم الكبير المؤلف من ١٠٠٠٠ شخص والذى يقوده الأمراء . Tumen ، وتستعمل هذه الكلمة فى الجيش التركى الحالى كذلك . يعظم الأتراك مته فيطلقون عليه لقب « أوغزخان » أى الخان الأعظم ، وتنحدر سلالة آشينا من أولاد مته الـ ٦ ومن الأبناء الأربعة لكل واحد منهم . ويعتبر الذين ينحدرون من قايى خان Kayi Han [الابن الأكبر لابنه الكبير وخلفه كونخان Gun Han (١٧٤ - ١٦٠] ، أشرفهم حيث ينحدر منهم بنو عثمان ، ويعتبر تنرى كوت وهو خان يابكو (٥٨ - ٥٦ + ٣٦ - ٣١) وأخوه تنرى كوت جيجى يابكو (٥٦ - ٣٦) وتنرى كوت يولو يابكو (٨٤ - ٨٩ ب . م) ، هم حكام الهون العظام .

ﻫ) التابغاج Tabgac (٢١٦ - ٣٩٤) والآفار Avar (٣٩٤ - ٥٥٢) .

اعتلت عرش الخاقانية الكبرى بعد الهون ، سلالتا تابغاج ومن ثم آفار Apar الملكيتان . ويطلق الصينيون على التابغاج Sien- bi و T'o- Pa . وهم ينحدرون من سلالة أحد أمراء هون التى كونت فى البداية ملكية تابعة للهون ، ثم أخذت مكان الهون واصبحت تابعة للملكيات الهونية التى دامت عدة قرون أخرى ، وأشهر حكامهم هو رابعهم Lievi (سلطنته ٢٦١ - ٢٧٧ ب . م) الذى يقال إنه عاش ١٠٤ سنوات .

يقابل اسم آفار باللغة الصينية لفظ جوان - جوان وقد ترك الآفار لقب « يابكو » واستبدلوا به اسم « كغان » Kagan ، حيث استخدم الحكام العثمانيون هذا اللقب حتى عام ١٩٢٢ . واصبح « يابكو » بعد ذلك ، لقبا يتخذه ملوك الأتراك التابعون للكغان .

أعظم حكام الآفار هم الأول والسادس والثانى عشر واسماؤهم بالترتيب : طولن

Tolun (٣٩٤ - ٤١٠) ، جلك Guluk (٤٤٤ - ٤٦٤) وأونابوى Onaboy ، وكلهم كغان .

أخذت حدود الدولة التركية فى التقلص بعد مته ، فمثلا ، بقى الآفار بين بحيرة بالقاش والبحر اليابانى كالتابغاج ، حقيقة لقد حافظوا على تركستان الشرقية وبعض مناطق الصين الشمالية ، لكنهم لم يتمكنوا من الامتداد نحو الغرب ، إلى المناطق القريبة من أوربا وإلى بحر الخزر مثل الهون . وكنتيجة لعدم تمكنهم من بسط نفوذهم على القبائل التركية فى الغرب ، أخذ شأن المغول المقيمين فى شمال شرقى الأتراك يتعاظم وبدءوا يختلطون بالأتراك .

ومن المهم أن نذكر أن سد الصين الشهير الذى شيد فى تلك الأثناء ضد مته لم يمنع مته ولاخلافه فقد اخترقه الأتراك مئات المرات .

إن اسماء أكثر من ٣٠ ملكية وإمارة تركية فى أواسط آسيا وشمالها قبل الإسلام ، معلومه ، وبعض هذه الملكيات والامارات استمر قرونا طويلة تابعا للخاقانات الذين ينحدرون من السلالات السالف ذكرها .

٦) كوكترك Gokktrk (٥٥٢ - ٧٤٥) .

تنحدر سلالة كوكترك من مته ، وقد سميت فى البداية توسوكو Tusuku (يحتمل انها صيغة الجمع لكلمة ترك) ، ثم كوكترك Gokturk (Kokturk) . وبعد أن بقيت هذه السلالة وقبيلة كوكترك ٩٦ عاما فى البلاد التى تسمى « ارغنكون » Ergenkon ، خرجت منها في ٥٣٥ ، وأخذ رئيسهم بومين Bumin اللقب الامبراطورى كغان Kagàn أو هغان Hgan . وصنعوا الحديد من منجم كبير في ارغنكون ودججوا أنفسهم بالسلاح بصورة متقنة وكسروا الآفار واحتلوا مكانهم . ثم تمكن بومين من التنسيق والعمل مع اخيه استمى Istemi ، فقضى على الآفارين عام ٥٥٢ وحصل على لقب الخاقان الأكبر (بيوك - خاقان) .

حتى ذلك التاريخ كانت تطلق على إلقبائل التركية التى تنطق باللغة التركية ، أسماء مختلفة ، ولكن بعد أن حصل أتراك كوكترك على الشهرة وأمنوا الوحدة ، أطلق اسم ترك على كافة الأقوام الناطقة بالتركية . وكلمة كوك Kok,gok تعنى باللغة التركية « سماء ، سماوى (أزرق ، أزرق - أملح) ومن المهم أن نشير

إلى أن كلمة كوك ترك Gokturk ، وتعنى « الأتراك السماويين » قد تم استخدامها على سبيل ادعاء العظمة ؛ ذلك أن الأتراك الذين دخلوا ارغنكون كقبيلة هونية خافتة الذكر تعاظم شأنهم فيها خلال قرن وخرجوا منها على شكل كوكترك . كما أنهم اخضعوا كافة القبائل التركية وفتحوا شمال آسيا ، واستطاعوا لأول مرة بعد مته ، أن يدركوا الحدود التى أدركها .

ولدخول هؤلاء إلى إيران واجتياحهم أوربا الشرقية ، وفتحهم قرم فى العام الأخير من حكم استمى كغان Istemi Kagan فى ٥٧٦ ، (بذلك يكونون قد اجتازوا حتى الحدود التى ادركها مته) ، فإن المؤرخين يعتبرون أنهم الأجداد الأصليون للعثمانيين والطليعة المبشرة لهم . وقد استعمل كثير من المؤرخين الأوربيين الحديثين تعبير « من أتراك كوكترك إلى العثمانيين » .

واتوكن Otuken هى مدينة عرش أتراك كوكترك الذين يدينون بدين كوكتنرى ، وهى على مسافة ٦٠ كم من شمال قره قورم Karakurum مدينة عرش جنكيز ، وتقع بين نهرى أورهون وسلنكه (Tamir) فى شمال مغلستان الحالية وقرب بحيرة كوشو جايدا (٣٠ / ٤٧ درجة عرض و٣٠ / ٩٧ درجة طول) ، وقد أطلق على أباطرتهم لقب (كغان) كالآفاريين ، ثم اصبحت هذه الكلمة [illegible] منذ عهد أتراك كوكترك بلفظ هكان Hagan ويوجد « كغانان » منفصلان أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب ، والمقيم منهما فى اوتكن هو كغان الشرق ، وهو الخاقان - الأكبر ويتبعه كغان الغرب .

ولعل أهم الأسماء بين خاقانات وأمراء كوكترك هم : Bumin Kagan (وفاته ٥٥٣) ، أخوه Istemi Kagan (وفاته ٥٧٦) ، Mukan Kagan (وفاته ٥٧٦) ، Bilge Tardu Kagan (وفاته ٦٠٣) ، TOng Yabu Kagan (وفاته ٦٣٠) ، Kur Sad (وفاته ٦٩٣) ، Ilteris Kulug Kagan (وفاته ٩٦٣) ، Bulankagan (وفاته ٦٤٠) ، Bilge Tonyukuk (وفاته ٧٢٥) ، Kapgan Kagan (وفاته ٧١٦) ، Kul Tegin (وفاته ٧٣١) ، Bilge Kagan (وفاته ٧٣٤) ، ومؤلف كتابات أورهون الداهية Yulig Tegin (وفاته ٧٣٥) .

وبينما انشغل أتراك كوكترك الشرقيون بالصين ، استمر أتراك كوكترك الغربيون

فى صراعهم الطورانى – الإيرانى القديم مع إيران الساسانية . وقد سعوا فى مناسبات كثيرة إلى تحسين علاقاتهم مع البيزنط (روما الشرقية) لمواجهة إيران . وبلغ حد العلاقات الودية أن تبادل استمى كغان السفراء مع معاصره جوستينيان الكبير (Justinianus) . وقد بدأ العرب المسلمون فى عهد الأمويين فى نهاية القرن ٧ وبداية القرن ٨ فى فتح بلاد ماوراء النهر فى تركستان الغربية . (أراضى أتراك كوكترك الغربيين) . حيث جرت حروب عربية – تركية طاحنة استمرت سنوات صعاب ، وفى غضون هذه الحروب اهتدى إلى الإسلام أتراك كثيرون ، ومنذ ذلك الحين أخذ المسلمون الأوائل من الأتراك فى الظهور . وبالرغم من أن المسلمين احتلوا سمرقند وبخارى أيضا ، فإنهم لم يتمكنوا من التقدم إلى أبعد من ذلك بسبب المصاعب الجغرافية التى واجهتهم . وقد زالت إثر ذلك ، العداوة التركية – العربية ، حيث قبلت قبيلة كارلك Karluk التركية الدخول فى الإسلام .

وفى عام ٧٥١ ، حاصر الصينيون الذين ساروا بجيش عرمرم ، القائد الأعلى العربى زياد بن صالح فى Talas ، وفور أن علم خاقان كوكترك الغربية ذلك ادرك جيش كوتلغ بلكه كغان وأخذ الكوكترك اماكنهم فى صفوف العرب المسلمين ضد الصينيين أعدائهم التقليديين ، فمنى الصينيون بهزيمة كبرى ، وقد لقيت هذه المساندة من الأتراك ، الذين اهتدوا حديثا إلى الإسلام ، امتنانا كبيرا من العباسيين الذين تسلموا الحكم حديثا ، والذين لم يكونوا متعصبين للعنصر العربى كالأمويين ، وبدأ التقارب التركى – العربى ، وأمتلأت بغداد بالأتراك المسلمين الذين وفدوا إليها للانخراط فى جيش الخليفة .

فتح طونغ – يابكو كغان ، رى (طهران) واصفهان من إيران عام ٦٢٠ وأضعف الشهنشاهية الإيرانية فى الصميم . وبذلك سهل على العرب المسلمين فتح إيران بعد ٢٠ عاماً ، ولولا ذلك لكان فى استطاعة إيران المقتدرة أن تقاوم المسلمين كالبيزنطيين ، ولولا ذلك أيضا لاستمر المسلمون عاجزين عن اقتحام السد الإيرانى ، ولتبدل عندئذ سير التاريخ .

٧) أتراك أويغر Uygur (٧٤٥ – ٨٤٠)

احتل دوقوز – اوغز – اون – اويغولر (وباختصار ايغرلر Uygurlar) ، مكان كوكترك كفرع من سلالتهم ، من أهم حكامهم Moyuncur Kagan (٧٤٧ –

٧٥٩) وابنه Bogu Kagan (٧٥٩ – ٧٨٠) . ترك مويتجر وخلفاؤه ديانة كوك تنرى ودخلوا الديانة المانوية Mani . ولعل هذا مما قد تسبب خلال نسلين فى اضمحلالهم وفقدان الاويغريين لقوتهم القتالية . كانت مدينة عرَشهم قره بالاساغون ، المجاورة لاوتوكن Otugen .

طرد أتراك قيرغز الوحشيين القادمين من الشمال ، والاويغريين من غابات أوتوكن . ترك Uge Kagan (وطن الأتراك الذين يرجع تاريخه إلى ألف سنة) بعد أن أستصحب معه الأكثرية العظمى من الأتراك . وبقيت مغلستان الحالية مدة لدى أتراك قيرغز . وقد تنازعت القبائل مع بعضها بسبب عدم وجود كغان على رأسهم يستمد القداسة (قوت آلمش) من سلالة مته الملكية ، ولكونهم قلة من ناحية أخرى . دفع المغل القادمون من غابات الشمال ، أتراك قيرغز نحو الجنوب – الغربى وحازوا على الأكثرية فى مغلستان الحالية ، على أنه ينبغى ألا نعتقد أن جميع الأتراك اخلوا مغلستان (بلاد المغل) . إذ من المعروف بشكل لامجال للشك فيه ، انه حتى فى القرن ١٣ على عهد جنكيز ، كانت أكثر القبائل التركية الموجودة فى البلاد تنطق باللغة التركية .

أصبح التاج الخاقانى التركى الكبير بعد عام ٨٤٠ موضع نزاع بين أتراك أويغر ، قرلوق وقره خان الذين يترأسهم جمعيا كغانات من سلالة مته ، والصحيح الذى يجب ألا يفوت علينا أن الكغان القره خانى يعتبر أكبر حاكم تركى بعد عام ٨٤٠ .

جاء الاويغريون الذين كانوا يعيشون على الأغلب فى شمال تركستان الشرقية فى المنطقة المتاخمة لمغلستان ، إلى تركستان الحالية . تركوا الديانة المانوية وتقبلوا البوذية . وعندما أزاح الكيتان ، وهم قبيلة مغولية ، أتراك قيرغز من مغلستان الحالية ، راجعوا كغان أويغر المقيم فى قره هوجو ، وطلبوا إليه أن يقدم إلى أوتوكن مرة أخرى ويصبح خاقاناً عليهم ، وفى هذا دليل على عدم اطاعة المغل للحكام الذين لاينحدرون من نسل مته ، لكن الأويغريون المستقرين فى هذه المنطقة والذين انتقلوا إلى حضارة متأثرة بالبوذية والذين ابتعدوا عن تقاليد اوتكن لم يقبلوا الدعوة إلى الهجرة .

وقد أخذت ملكيات الأويغريين ، الذين كونوا حضارة وثقافة لامعة ، تتقلص ، بعد أن دامت دولتهم التابعة لخاقانات الترك والمغول حتى عهد قريب جدا من

عام ١٤٠٠ . ويشكلون حاليا الأكثرية الكبرى من أتراك تركستان الشرقية . أما الأويغريون الصفر (صارى أويغرلر) فهم الأويغريون الذين قطنوا ايالة قانصو الصينية واعتنقوا البوذية وإن كانوا لايزالون يتكلمون التركية .

إن جميع الأويغريون الموجودين فى تركستان الشرقية حاليا ، مسلمون سنيون – حنفيون – استعملوا أحرف الهجاء العربية فى القرون الأخيرة . نسوا حاليا أحرف كتاباتهم . وتركوا الأحرف الهجائية لكوكترك واستعملوا ونشروا الأحرف الأويغرية . وعلى الرغم من استخدام أحرف الهجاء العربية فى القرن ١٠ ، عاشت الأحرف الأويغرية حتى القرن ١٥ ، وفى القرن ١٥ ، كانت لاتزال تستعمل فى القطر العثمانى . أما الأويغريون الصفر ، فإنهم استعملوا هذه الأحرف حتى العصر ١٧ ، ثم استخدموا فى هذا العصرالكتابة الصينية . أما أماكن سكن الأويغريين الصفر فى قانصو حاليا ، فهى سوجوف وكاجوف . (عثر العالم الروسى مالوف Malov فى بداية عصرنا الحالى ، على أحد كتب اللغة التركية القديمة التى لاتموت Altun - Yaruk Sutra لدى الأويغريين الصفر) .

ان كوجلغ خان Kuelug Han الذى كون امبراطورية خلال ١٢١١ – ١٢١٨ وقوضت امبراطوريته من قبل جنكيز ، هو حاكم قبيلة نايمان التركية ومن نسل خاقانات أويغر . وقبيلة Kereyit التركية المسيحية النسطورية والتى قضى عليها فى القرن ١٣ من قبل جنكيز أيضا ، تستحق الذكر كذلك .

٨) خاقانية هون الأوربية :

لما لم تتمكن السلالة الهونية من الحفاظ على عرشها وانتقل العرش إلى تابغاج ، جاء بالامر Balamir حفيد مته فى البطن ١٥ وجيجى يابكو فى البطن ٩ من آسيا الوسطى خلال ٣٥٥ – ٣٦٥ مع فريق من القبائل الهونية ، واستوطن فى الوطن الأعلى (بين الخزر وآرال) ، وفى ٣٧٤ ، انتقل منها إلى ضفة نهر أورال ودخل أوربا ، وقضى على دولة غوت Got الشرقية فانتحر ملكها Ermanarih ، ثم جاء فى العام التالى إلى ضفة دنيبر (أوكرانيا) وأغار على آتانارين ملك غوت الغربية (Vizigot) ولم يشأ أتانارين أن تصبه عاقبة سلفه فأخذ شعبه وانسحب إلى أسبانيا ونجا من الهلاك . وهكذا بدأت « هجرة الأقوام

الكبرى » فى أوربا . ساق Balamir كافة الأقوام الآرية والأقوام الجرمانية والسلافية أمامه إلى أوربا ، وبذلك تكونت الجغرافية العرقية الحالية لأوربا ، واضمحلت امبراطورية روما الغربية كذلك نتيجة الهجرة ، وانتهت القرون الأولى وبدأت القرون الوسطى (٤٧٦) .

أجتاز بالأمر خاقان نهر الطونة (الدانوب) ودخل تراقيا . وعبر جيشه الآخر نهر الدون وجبال القفقاس ودخل إلى الأناضول . حقق هذا الجيش الذى يقوده الأمير Basik والأمير Kursik حملات ارضروم - ملاطية - أورفه - انطاكية - قدس ، وعاد إلى شمال البحر الأسود مجتازا القفقاس عن طريق فلسطين - لبنان - سوريا - الأناضول الوسطى والشرقية - اذربيجان الشمالية . تمكن ابنه اولدز Uldiz (بالتعبير التركى الحالى : يلدز وتعنى كوكب) (٤٠٠ - ٤١٠) ، من اكساب حركات ابيه العسكرية نطاقا عالميا ، فقد اباد جيش التحالف الذى تشكله الأقوام الجرمانية فى واقعة Friesole الميدانية فى جنوب فلورنسا فى آب ٤٠٦ وخلص روما . ولم تتمكن الأقوام البربرية من الاستقرار فى أوربا الوسطى لمطاردات Uldiz وبدءوا بالنزوح إلى أوربا الغربية وسكنوها . عبروا الراين وانسحبوا من أمام الهون (واندال ، آلان ، كلت ، سواب ، سرمات الخ) . وقد وحد أولدز خاقان كلاً من آسيا وأوربا تحت حكمه اعتبارا من قوزاقستان إلى الراين ، وجاء روا Rua (٤٢٢ - ٤٣٤) فطوّر هذا الوضع . لكن الذى أقام أوربا واقعدها حقا ، هو ابن حفيد اولدز آتيلا Attila (٤٣٤ - ٤٥٣) ، ذلك أنه عندما اعتلى آتيلا (الذى حصل فى شبابه على ثقافة كلاسيكية فى سراى روما وهو ضيف الامبراطور) العرش ، سيطر على معظم أوربا اعتبارا من قوزاقستان ، ققفاسيا والأورال ووصل إلى حدود بحار المانش والبلطيق والادرياتيكى ، كما فتح كامل ألمانيا ، معظم البلقان ، شمال إيطاليا ، شرق فرنسا وجنوب السويد ، وفرض الجزية السنوية على امبراطوريتى الرومان شرقا وغربا ، ووصل إلى منطقة قريبة من استانبول . وكانت مدينة عرشه فى المجر الحالية . مات آتيلا فجأة وعمره ٥٣ سنة فى عام ٤٥٣ ، قبل فتح البيزنطية (استانبول) بـ ١٠٠٠ عام اثناء إعداده حملة على الامبراطورية الإيرانية الساسانية ، ثم تبعثرت امبراطوريته بعد مدة ، إذ أن الهون الذين جلبهم من آسيا كانوا من القلة بحيث لايمكنهم السيطرة على اقطار واسعة إلى هذا الحد .

(٩) الآفاريون Avar (٥٦٥ - ٨٣٥) :

وفى هذه المرة ، طرد الكوكترك السلالة الآفارية من عرش الخاقانية - الكبرى فى شمال آسيا ، تقدمت السيدة كغان من أميرات آفار ومن خلفها بعض القبائل الآفارية إلى أوربا وبدأت بالفتوحات (٥٦٥ - ٦٠٢) بدعوى احياء امبراطورية آتيلا . لكنها لم تتمكن من التوصل إلى حدود خانية الهون الأوربية وبقيت على مسافة بعيدة منها . سيطرت على أوكرانيا ، رومانيا ، بلغاريا والمجر الحالية ، غير أنه تعذر الحفاظ حتى على تلك الحدود بعد وفاة السيدة ، ورغم محاصرة الآفاريين كل من سلانيك واستانبول مرتين ، فإنهم لم يتمكنوا من اسقاط هاتين المدينتين البيزنطيتين ، وإن كانوا قد تسببوا فى سلافية شبه جزيرة البلقان على نطاق واسع نتيجة جلبهم السلاف إلى البلقان .

(١٠) خاقانية الخزر HAZAR (٦٢٠ - ٩٦٢)

تقدم Bulan اخو فاتح ايران كغان كوكترك الغربيه تونغ - يابكو نحو عام ٦٢٠ على رأس بعض القبائل التركيه وفتح شمال البحر الاسود . كان حكام هذه الدولة يحملون لقب « كغان » كحكام أوربا الآفاريين . لم يتمكن الآفاريون من الحفاظ على ديانة كوكترك مدة طويلة ، فقد أصبح قسم منهم موسويا ، وقسم مسيحيا أرثوذكسيا والقسم الآخر مسلماً . ويعتقد ان يهود اوكرانيا الحاليين ، هم أحفاد أتراك الخزر الذين اعتنقوا الديانة الموسوية . اتفق الخزريون مع البيزنطيين ، وأرادوا وقف العرب المسلمين ، إلا أن الخليفة الأموى مروان بن محمد طارد الخزريين حتى دلتا نهر الفولتا بجيش إسلامى مكون من ١٥٠,٠٠٠ شخص فى ٧٣٧ . وفى نفس الوقت حاول القائد الخزرى المسمى آست تارخان الرد عليه بجيش مؤلف من ١٠٠,٠٠٠ شخص حتى شمال الأناضول عام ٧٦٥ . كانت قرم فى ذلك الوقت تابعة للامبراطورية الخزرية . لكن قاعدتها كانت على الفولغا ، وفى النهاية ، قضى النورمان الذين جاءوا من الشمال على الدولة الخزرية .

(١١) البلغـار Bulgar (٥٨٤ - ١٠١)

ترأس كبرات (Kurt)(Kubrat) خان ، وهو ابن حفيد آتيلا - قبيلتى Uturgur و Kuturgur التركيتين التابعتين للخزريين بعد توحيدهما فى عام ٥٨٤ . سميت

القبيلتان ، بعد توحيدهما ، باسم « بلغار » وهى كلمة تركية . كانوا يعيشون فى شمال شرق القفقاس . ساق كبرات ، قبيلة بلغار على امتدار شمال البحر الاسود (اوكرانيا الحالية) ، ومن هناك إلى سهل المجر . حيث تفرقوا إلى ثلاثة أطراف رئيسية : أهمها أولئك الذين ذهبوا إلى سواحل الفولغا بقيادة كوتراغ Kotrag خان اوسط ابناء كبرات الخمسة حيث نزلوا إلى الطونة مع مؤسسى خانية بلغار فى فولغا فى تاتارستان (قازان) الحالية ، تحت إدارة Asparuh اصغر ابناء كبرات واستوطنوا بلغاريا الحالية . وقد تطورت هذه الأخيرة خلال مدة قصيرة واصبحت خاقانية (امبراطورية) . وبينما أرادت الأمبراطورية البيزنطية قلع وازاحة البلغار الذين جاءوا إلى دلتا الطونة بضغط الخزريين قبل ٦٥٩ ، إلا أنها انهزمت فى ٦٥٩ .

وفى ٦٨١ ، انفصلت المنطقة الواقعة بين نهر الدونه وجبال البلقان عن البيزنط وانتقلت إلى الاتراك البلغار . واستمر النزاع بعد هذا التاريخ ، بين هذه الدولة والبيزنط لقرون طويلة حول السيطرة على البلقان .

كانت الحدود القصوى للدولة هى بلغاريا الحالية ، دوبروجه ، افلاق (اولاهيا / رومانيا الجنوبية) ، مكدونيا الشمالية ، صربيا .

اباد كورم Kurum خان مع الامبراطور Nikehoros الجيش البيزنطى فى الحرب الميدانية Vribiski (٨١١/٧/٢٢) . وهذه هى الحادثة الأولى التى فقد فيها امبراطور بيزنطى حياته . حاصر Kurum استانبول ، لكنه مات خلال الحصار وفك الحصار . كانت قاعدة الدولة Pliska قرب شومنو ، نقلت فى ٨٠٩ إلى صوفيا .

ترك بوغورس Bogoris (بالتركية الحالية : Pars وتعنى نمر ارقط ، وقد حورت بالسلافية على شكل "Boris") ديانة كوكتنرى التى هى ديانة اجداده وغلبته الدعاية الثقافية لألد اعدائه البيزنط ، وصار مسيحيا أرثوذكسيا ، وأسفر ذلك عن زوال اتراك بلغار ، وخلال عصر واحد انصهر اتراك بلغار وهم أقلية اساسا رغم انهم زمرة حاكمة وأصبحوا سلافيين وأخذوا يتكلمون بدلا من التركية ، لهجة سلافيه هى اساس اللغة البلغارية الحالية ، واهملت كذلك ابجدية كوكترك واستخدمت الابجدية السلافية (Kiril) . ترك Simeon خان ، لقب « خان » التركى واتخذ لنفسه لقب « جار » Car (امبراطور) السلافى بصورة رسمية . اعتبارا من هذا الوقت خرج التاريخ البلغارى عن كونه قطعة من التاريخ التركى ،

على الرغم من ان الحكام البلغار ، كانوا حتى ١٣٩٣ ، شخصيات تطبعت على السلافية من السلالة التركية . لم يجلس على العرش البلغارى أى شخص من السلالة السلافية .

(١٢) المجريـــون

كانت قبيلة مجر التى تتكون من ٦ عشائر تركية وواحدة فينية Fin تعيش تابعة لكوكترك فى شمال (اوفا Ufa) التابعة لباشكردستان الحاليه ، على السفوح الغربية من جبال الأورال . اصبحت القبيلة تابعة لخاقانية الخزر فى القرن ٩ ، وفى عام ٨٣٠ ، نزلت إلى شمال بحر آزوف (آزاك) إلى المنطقة المسماة ليفاديا Levadya الواقعة بين نهرى الدون الدنيبر . وتحت الضغط الذى مارسته قبيلة بجنك Peçenek التركية فى عام ٨٨٩ ، خرجت قبيلة مجر منها واستوطنوا فى ٨٩٦ فى وطنهم الحالى الكائن فى السهل المجرى فى حوض نهر الطونه .

رئيسهم المسمى Arpad (بالتركية : آرباجك) خان ، من احفاد آتيلا . امدت سلالته المجر بالملوك حتى ١٣٠١ . وقد حققوا خلال القرن ١٠ حملات كبيرة عبارة عن : ٢٠ حملة على المانيا ، ٧ على إيطاليا ، وحملة على هولندا ، ٤ على فرنسا ، ٩ على البيزنط وحمله واحدة على أسبانيا . وفى عام ١٠٠٠ ، تركوا ديانة كوكتنرى وأصبحوا مسيحيين كاثوليك . نسوا التركية وبدءوا يتكلمون المجرية الحالية التى هى إحدى اللغات الفينية . واستخدموا الابجدية اللاتينية مكان ابجدية كوكترك .

(١٣) البجنك Peçenek (٨٨٩ – ١٠٩١)

البجنك ، هى إحدى القبائل الـ ١٢ التى تشكل فرع أوج اوق (وتعنى الأسهم الثلاثة) الاوغزى . كانت البجنك عبارة عن قبيلة تبلغ تعدادها حوالى ٥٠٠٠٠ نسمة تابعة لخاقانية كوكترك فى بداية القرن ٨ ، تزايد عددهم بدرجة كبيرة فيما بعد وكونوا مع القبائل التركية الأخرى احلافاً بلغ تعدادها عدة ملايين . لكنهم لعدم وجود من يترأسهم من نسل سلالة مته كانوا ينتخبون اقدر رؤساء القبائل ، الا أن هؤلاء الرؤساء لوصولهم إلى هذا المنصب بالانتخاب ولعدم تمتعهم بمباركة كوكتنرى فانهم كانوا يعانون صعوبة فى تأمين الوحدة . اخرجتهم من ديارهم قبيلة

قارلق Karluk عام ٧٥١ ، بينما كانوا يسكنون فى اطراف بحيرة بالقاش . جاءوا اولا ، إلى شمال غربى بحيرة آرال ، ثم إلى شمال شرقى بحر الخزر ، ولم يتمكنوا من الاستقرار هنا ، كذلك بسبب ضغوط قبائل اوغز الاخرى . عبروا نهر اورال (بالتركية : Idil) . وفى ٨٨٩ تقدموا نحو الجنوب - الغربى ووصلوا سواحل نهر الدون (بالتركية : Ten) وساقوا المجريين الموجودين فيها إلى بلاد المجر (مجرستان) وساعدوهم فى استيطانها وتكوين وطن لهم فيها . واعقبهم الغوز Guz الذين استمروا فى دفع البجنك نحو الغرب ، والكومان Kuman الذين دفعوا بهؤلاء من خلفهم ، والقيبجاق Kipçak الذين ساقوا هؤلاء من اقصى الشرق ، وفى النهاية خلف الكيم Kim هؤلاء ايضا . كانت هذه القبائل التركية ، تدفع إحداها الأخرى وتسوقها نحو أوربا .

تبع البجنك خاقانية الخزر حتى ٩٥٠ ، وفى ٩٧٢ ، أبادوا الجيش الروسى مع أميرهم الكبير Svyatoslav فى سواحل دنيبر . وظفروا بغرب البحر الاسود وبدءوا بتهديد البلقان والبيزنط . وفى ١٠٢٠ ، اجتازوا الطونة نحو الجنوب للمرة الأولى . وفى ١٠٥٠ ، وصلوا إلى سواحل بحر مرمره ، وفى ١٠٦٤ وصلوا إلى سلانيك ومورا . كثير منهم سجلوا أنفسهم فى الجيش البيزنطى . وعند بدء حرب ملازغرت Malazgirt الميدانية فى ١٠٧١ ، انضمت وحدة بجنك الموجودة فى الجيش البيزنطى إلى صفوف الجيش السلجوقى الذى يقوده ألب ارسلان لتكلمهم اللغة ذاتها ، رغم أن هذه الوحدة كانت تدين بدين كوك تنرى بينما الجيش السلجوقى مسلم . انمحى اسمهم فى القرن ١٢ ، وانصهر الكومان - قيبجاق ، فى المجريين والسلاف . وتركوا أسماء أماكن جغرافية كثيرة فى أوكرانيا ، المجر ، رومانيا ، البلقان والأناضول بقيت مستعملة حتى الآن كذكرى لهم .

(١٤) الكومـــان Kuman (١٠٥٠ - ١١٠٣)

اسم هذه القبيلة التركية ، هو نفس كلمة « كومرال » التى تعنى باللغة التركية « اشقر غامق » . ويعتقد انهم من القبائل التركية التى كانت تعيش فى اقصى الشرق ، فى شمال منشوريا على سواحل آمور خلال القرن ٥ - ٨ . وبعد عام ٨٤٠ ، انتقلوا إلى آسيا الوسطى . وبعد الضغط الذى مارسه القره هيتاى المغل فى ١٠١٧ ، تركوا

تلك المنطقة وعبروا نهرى أورال (بالتركية : Idil) وفولغا (بالتركية : Yayik) وجاءوا إلى اوروبا . وامتدوا لغاية الطونة . وفى ١٠٩١ ، ملئوا الأماكن التى فرغت من البجنك . حاربوا الروس حروبا عدة أشهرها التى أسر فيها كونجك Konçek خان ، امير Novgorod ايكور Igor فى شباط عام ١١٨٥ ، وتشكل هذه الحرب موضوع الملحمة الوطنية الروسية Prens Igor Destani (بالروسية : Slavoo Polku Igoreve) وهى من روائع الأدب الروسى . وأصبحت موضوعا لاوبريت الاميرايغور التى لحنها الملحن Borodin . ولقد دخلت رقصات بولوفج Poloveç (كومان) بين روائع الموسيقى الغربية .

(١٥) القبجاق Kipçak (١١٠٣ - ١٢٢٣)

قبجاق ، هو وطن القبائل التركية ، كان وقتئذ حوض نهر ارتش فى سهل سيبيريا . نزلوا إلى الجنوب الغربى بضغط من قبيلة Kimek التركية نحو ١٠٣٠ ثم ساقوا قبائل اوغز التى كانت امامهم ودخلوا أوربا . وأخذوا مكان الكومان وانصاع لامرهم الكومان والبجنك الذين تطبعوا على السلافية . وكان ضعف هؤلاء الاكبر يتمثل فى أنه ليس لديهم رئيس من سلالة مته . وقد ابادهم باطوخان حفيد جنكيزخان مع تابعيهم الامراء الروس فى ٣١ ايار ١٢٢٣ فى حوض نهر حلقه Halka ، واصبحوا تابعين لخاقانية الطون اوردى . اكتسبوا الدم المغلى ، لكنهم جعلوا المغل فى النهاية « يستتركون » ويتكلمون اللغة التركية . أطلق الكتاب العرب المسلمين ، اعتبارا من عهد القيبجاق ، على أوكرانيا الحالية دشت قيبجاق / سهل قيبجاق .

من المعلوم أن معظم سلاطين السلطنة المملوكية التى تأسست فى مصر - سورية عام ١٢٥٠ اتراك قبجاق وقسم منهم اوغز وكومان . صنف كثير من المؤلفين العرب فى تلك الآونة كتبا لتعليم اللهجة القبجاقية التركية للعرب لاستعمالها فى مصر خاصة . ومنها ، كتاب الادراك للسان الأتراك ، وكتاب ترجمان تركى وعربى ، وكتاب القوانين الكلية فى ضبط اللغة التركية ، وكتاب المشتاق فى لغة الترك والقبجاق .

ويجب أن نضيف إلى ذلك أن أشراف الرومان الذين يطلق عليهم اسم « بويار » ،

وكثير من اشراف الأوكران والمجر وعائلاتهم المشهورة ، من أصل أتراك كومان أو قبجاق وشجرة عائلاتهم معلومة بشكل لايقبل الشك . وأساسا فإن أسماء عائلاتهم أسماء تركية ويبلغ عدد هذه العائلات من الشرفاء الأتراك المئات .

وقد عثر علماء الآثار الروس فى الحفريات ، خاصة تلك التى جرت فى أعوام ١٩٢٩ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٩ ، على آثار ثقافية وجماجم للكومان والقبجاق ، واثبتت الفحوصات الانتروبولوجية لهذه الجماجم – التى تمثل هيئة الشخص التركيى قبل اختلاطه بالمغل وتشكيله نوعية أتراك الشمال الحالية – بأنها خالية بصورة قطعية من أى أثر من آثار الهيئة المغلية كمشق العين وبروز الوجنة وشكل الأنف . وتثبت الأدلة التاريخية أن بشرتهم ناصعة البياض ولون شعرهم اشقر فاتح ، كما عثر العلماء المجريون فى عام ١٩١٣ على آخر شخص كومانى مسيحى (كاثوليكى) لم ينس التركية ، وقد أصبح هذا الشخص موضوعا لفحوصات طويلة الأمد للعلماء المجريين . كان الكومان – قبجاق ، مع كونهم مسيحيين ، لايزالون ينطقون بالتركية بصورة عامة فى القرن ١٦ الذى فتح فيه العثمانيون المجر .

(١٦) الأدب التركى قبل الإسلام

يقال إن بعض الاشارات الموجودة على قبر « الرجل ذو اللباس الذهبى » (القرن ٥ ق .م) هى الشكل البدائى لأبجدية كوك ترك . ويرجع الهيكل العظمى الذى سماه علماء الآثار « الرجل ذو اللباس الذهبى » إلى أمير تركى أخرجه الروس مؤخرا من قبر يقع على بعد ٥٠ كم عن قبر آلما آتا الموجود فى كازخستان . وهو هيكل عظمى مكسو بزينة ذهبية لرجل شاب ، والحروف التى يدعى أنها تركية ، منقوشة على الصحن الفضى الموجود بجانبه .

يطلق على أول كتابات تركية جدية اسم « كتابات ينسى » **Yenisey Kitabeleri** وقد عثر عليها بكثرة فى شمال جبال الطاى وكلها تقريبا كتابات حجرية قصيرة ، يعود أقدمها إلى القرن الميلادى ٥ ، وقد كتبت بلهجة كوك ترك وبأبجدية كوك ترك .

ومع ان أبجدية كوكترك قاصرة من ناحية الأحرف الصوتية بالنسبة للتركية (لها ٤ أحرف صوتية بينما التركية تحتوى على ٨ أحرف صوتية ، وإن كان المستعمل

فى التركية التى تكتب بالأحرف العربية ٣ أحرف صوتية فقط) إلا أنها أبجدية غنية تحتوى على ٣٨ حرفا . يقول عالم اللغة التركية المجرى Rasonyi عن هذه الأبجدية مايلى : « إن نظام كتابة كوكترك ذات أهمية كبرى من الناحية الصوتية (اللفظية) Phonetic ولايمكن أن يضع هذا النظام إلا أشخاص يفكرون بعقلية علمية . وفى هذا دليل واضح على أن للأتراك القدامى ثقافة راقية » .

يبرز أمامنا النتاج الأول فى الأدب التركى الذى يمكن أن يقال عنه إنه أدبى بما تعنيه هذه الكلمة من معنى كنتاج مبدع فريد . وهو لايزال حتى الآن من أبدع الآثار الكتابية المحررة فى اللغة التركية فى جميع الأزمنة . كتب هذا النتاج على ٣ قطع حجرية يبلغ ارتفاع كل منها ٣/٧٥ متر - تسمى كتابات كوكترك أو كتابات أورهن .

لم يتمكن أحد خلال سنوات طويلة من قراءة هذه الكتابات ، وفى النهاية تمكن رئيس أكاديمية العلوم الدنماركية العالم فى اللغة التركية Wilhelm Ludvig Pefer Thomsen (١٨٤٢ - ١٩٢٧) من حل أبجدية كوكترك عام ١٨٩٣ فقرئت وترجمت ثم نشرت . ثبتّ ثومسن أولا كلمات « تنكرى » (Tonri إله) ، « ترك » و« كل تكين » Kul Tegin التى تتكرر بكثره ، ثم تمكن من حل جميع الأبجدية ، وتعد قراءة نصب كوكترك مرحلة جديدة فى تاريخ علم الآداب التركية . يسرد فى هذا النصب خدمات خاقانات كوكترك بلغة نثرية متينة جدا مؤثرة جدا ومحكمة وبتعبير ملحمى قصصى وبنظرة وطنية لاتكاد تصدق بالنسبة لذلك العصر . أما القطع الشعرية للفترة غير الإسلامية التى توفرت فقد جمعها رشيد رحمتى آرات فى مجلد كبير باسم Eski Türk Siiri أى الشعر التركى القديم (انقرة ١٩٦٥) .

أما القطع الأدبية التركية التى عثر عليها فى تركستان الشرقية (تركستان الصين) والتى تعود للعهد الأويغرى ، فتبلغ المئات ، ولم تعد تقتصر على الكتابات الحجرية ، فهى مكتوبة على الورق أو مطبوعة ، حيث أن أتراك أويغر ، هم مكتشفو أو مطورو الورق والطباعة .

استعملوا كذلك فى طباعتهم الأحرف المتحركة والتى تبين أنهم تقدموا فى طريقة الطباعة بالكلائش الخشبية التى استعملها الصينيون . وقد انتشر الورق الذى صنعه الأويغريون فى العالم الإسلامى عن طريق سمرقند واحتل مكان الجلود الحيوانية .

ترك الأويغريون ، الذين هم فى ذات الوقت أساتذة كبار فى فن نحت التماثيل والرسم ، ابجدية كوكترك ، واستعملوا الابجدية التركية الاخرى التى تسمى الأبجدية الأويغرية . وهى الأبجدية الثانية التى استعملها الأتراك قبل استعمالهم الأحرف العربية .

(١٧) الأتراك فى الهند

أسس الأتراك قبل الإسلام امبرطوريتين فى الهند . دولة كشان Kusan (٣ - ١٧٦ ب.م) ودولة آقهون Akhun (٤٩٦ - ٥٦٧ ب.م) كانت الدولة الثانية أكثر اتساعا وتسيطر ، بالإضافة إلى شمال شرق الهند ووادى الكنج ، على تركستان كذلك . وهم أقوام شمال آسيا الذين نزلوا إلى الجنوب بقيادة قسم من امراء الهون عند فقدان الآقهون والهون عرش الخاقانية التركية الكبرى فى شمال آسيا . قائدهم الشهير هو تورامان Toraman .

(١٨) الأتراك فى الصين

الصينيون ، هم الجار الكبير للأتراك قبل الإسلام . ويمكننا أن نقول ببعض المبالغة ، إن التاريخ العسكرى - السياسى التركى قبل الإسلام ، عبارة عن صدام تركى - صينى ؛ فالأتراك الرّحل المنظمون جدا من الناحية العسكرية والمجهزون بأسلحة معدنية وخيالة متفوقة ، أزعجوا الصين من الشمال عصورا طويلة ، واستمر تدفق ملايين من الأتراك إلى الصين منذ قبل أربعة آلاف سنة ولمدة ثلاثة آلاف سنة ، فسكنوا فيه ، وبعد عدة أجيال نسوا لغتهم وأصبحوا صينيين . لكنهم تركوا فى الصين تأثيرات كبيرة .

إن الدم التركى الشمالى ، هو الصفة المميزة التى يتميز بها طابع الصينى الشمالى عن طابع الصينى الجنوبى . ولقد اقتبست الصين من الأتراك التشكيلات العسكرية ، الفروسية ، الأسلحة وعناصر ثقافية كثيرة أخرى تقبلها الصينيون وهضموها بمهارة فائقة ، ومن المعلوم أن قسما من السلالات الامبراطورية الصينية الحاكمة ذات أصل تركى وأشهرها سلالات جو Cu (١١١١ ق . م - ٢٥٦) ، جى çi (٤٧٩ - ٥٧٧) ، توبا Toba (Wei بالتركية تابغاج Tabgaç) (٣٨٦ - ٥٥٦) ، شا -

تو Sa - T'o (بالتركية : جول çol) (٩٢٣ ÷ ٩٥٠) ، هسى – هسيا - Hsi
Hsia (١٠٣٨ – ١٢٢٧) .

(١٩) الأتراك فى الوقت الحاضر

قد نجد بعض الفائدة إذا مااستعرضنا فى عدة جمل مختصرة وضع الأتراك الذين قدمنا خلاصة لتاريخهم لما قبل الإسلام تحت العناوين السالف ايرادها – فى عالم اليوم (١٩٨٥) .

عندما نقول اليوم « تركى » ، نفهم من ذلك أنه الشخص الذى ينطق باللغة التركية (أية لهجة من لهجاتها) ، ولاندخل فى مفهوم كلمة « تركى » ، من لايتكلم التركية كلغة أم أساسية له . ومن الطبيعى أن دم ملايين من الاتراك موجود فى الصين ، الهند ، روسيا والعالم العربى ، لكن هؤلاء صهروا فى بنية أقوام تلك الأقطار ونسوا لغاتهم وثقافاتهم .

إن اللغة التركية اليوم (١٩٨٥) ، فى المرتبة ١٠ بين لغات العالم التى تتكلم كلغة أم أساسية (وحسب التسلسل : الصينية ، الهندية ، الانكليزية ، الأسبانية ، العربية ، البنغالية ، الروسية ، البرتغالية ، اليابانية ، التركية ، ثم الألمانية ، الايطالية ، التلوغوية ، الفرنسية ، التاميلية ، الكورية ، البنجابية ، الفينتامية ، السيامية . هذه هى اللغات التى ينطق بها أكثر من ٥٠٠ مليون شخص كلغة أم أساسية) . إن اللغة الأم لما يقرب من ١٢٥ مليون نسمة هى التركية (إحصاء بداية عام ٩٨١ ، ١١٣٢٨٨٠٠٠ نسمة ، توزيعهم بالنسبة للقارات كما يلى : ٩٣٠٤٠٠٠٠ آسيا ، ١٩٠٠١٠٠٠ أوربا ، ٧٨٥٠٠٠ أمريكا الجنوبية ، ٢٠٢٠٠٠ أمريكا الشمالية ، ١٣٠٠٠٠ أوقيانيا ، ١٠٠٠٠٠ أفريقيا) . وهى حاليا لغة أم لـ ٢١ مليون شخص فى أوربا ، وهى العاشرة بين اللغات التى تتكلم فى أوربا (وبالتسلسل بعد الألمانية ، الروسية ، الايطالية ، الانكليزية ، الفرنسية ، الاوكراينية ، البولونية ، الاسبانية ، والرومانية) .

إن ٤ / ٥١ مليون نسمة من الأتراك تقريبا ، هم فى تركيا اليوم (١٩٨٥) . يتكلم هؤلاء ، اللهجات التى تسمى « التركية العثمانية ، تركية الاناضول ، تركية تركيا » . إن تركيا التى استعملت الأحرف العربية حتى نهاية ١٩٢٨ ، وافقت على

استعمال الأحرف اللاتينية فى هذا التاريخ . يعمل عدة ملايين من رعايا الجمهورية التركية خارج تركيا ، وعلى رأس هؤلاء ٢/٢ مليون تركى يقيمون فى ألمانيا الغربية ، وفى هولندا مايزيد على الـ ٢٠٠ الف ، وفى النمسا مايزيد على الـ ١٠٠ ألف ، وفى فرنسا مايزيد على الـ ١٣٠ ألف شخص ، كما يوجد عدد غير قليل من العمال الأتراك فى ليبيا والعربية السعودية واستراليا وكندا والولايات الامريكية المتحدة .

أما فى البلقان فقد قل فيها كثيرا عدد الأتراك ، ويبلغ حاليا تعداد الأتراك الذين يحملون الجنسية التركية والذين تركتهم العثمانية فى تلك الدول كالآتى : فى بلغاريا نحو نصف مليون ، وفى رومانيا ٤, من المليون ، وفى يوغسلافيا ٤, من المليون ، وفى اليونان ٢, من المليون ، وفى البانيا ١, من المليون . ويضاف إلى هؤلاء ٢, مليون تركى فى شمال قبرص . كل هؤلاء تقريبا يتكلمون اللهجة التركية ، ولهجة الـ ٢/١ مليون تركى الموجودين فى العراق كذلك قريبة جدا من اللهجة التركية .

أما القطر الذى يلى تركيا فى من حيث تواجد الاتراك ، فهو الاتحاد السوفييتى ، ففيه مايقرب من ٤/ ٤٩ مليون نسمة تنطق بالتركية . اللهجة الرئيسية هى لهجة الاوزبكيين (١٥ مليونا) ثم القوزاق (٨/٤ مليون) التاتار (٧/٣ مليون) ، الآذريين (٦/٦ مليون) ، القرغز (٣/٣ مليون) ، التركمان (٢/٦ مليون) ، الجاووش (٢/١ مليون) ، الباشقرط (١/٧ مليون) والآخرون ، وبعد ان جربوا الأبجدية اللاتينية لعدة سنوات ، استعملوا حاليا الأبجدية السلافية (الروسية / الكيريلية) وذلك بعد أن كانوا يستعملون الأبجدية العربية . إن أقرب اللهجات إلى لهجة تركية تركيا من بين هذه اللهجات ، هى اللهجة التى يتكلمها الآذريون (الاذربيجانيون) . يسكن أتراك الاتحاد السوفييتى فى تركستان الغربية ، والجماعة التى نسميها أتراك الشمال (التاتار ، الباشقرط ، الجاووش الخ) فى سواحل نهر الفولغا وأورال وفى قفقاسيا الجنوبية . ويوجد أتراك متفرقون فى عدد غير قليل فى المناطق كقفقاسيا الشمالية وسيبيريا .

يسكن الأتراك فى الصين فى تركستان ، عدا صارى أويغرلر (الأويغر الصفر) الموجودين فى قانصو . يوجد ١١/٩ مليون تركى (٩/ – مليون قوزاق ، ١/– مليون صارى اويغر ، ١/ – مليون قرغز ، البقية اويغر) .

وتأتى إيران بعد تركيا والسوفييت فى وفرة عدد السكان الاتراك (١٦/٦ مليون تقريبا) . لهجتهم قريبة جدا للهجة تركيا .

على الأقل فإن خمس الـ ٥/٤ مليون تركى الساكنين فى منطقة تركستان الجنوبية من الأفغان (تركستان الأفغان) ، لاجىء فى باكستان . وهم أوزبك وتركمان ومنهم قرغز . ولم يبق فى الأقطار الأخرى أتراك من الذين حافظوا على لغتهم الا القليل (فى سورية ١٣٢٠٠٠ ، فى العربية السعودية أكثر من ١٠٠ ألف تركستانى واكثر من ١٠٠ الف عامل تركى ، فى الاردن ٥٥٠٠٠ ، فى لبنان ٩٠٠٠ ، فى مغلستان ١١٠٠٠٠ قوزاق .. الخ .) .

إن الأتراك مسلمون سنيون – حنفيون وجميع الأتراك تقبلوا المذهب الماتريدى . ولأن الخلفاء العباسيين حنفيون ، فقد تقبل الاتراك كذلك هذا المذهب . وأصبح المذهب الحنفى علما للأتراك فى العالم الإسلامى . إن السكان التابعين للمذهب الحنفى والذين لم تبق لهم اليوم علاقة بالأتراك ، الموجودين فى أقطار عديدة ، إما أنهم ينحدرون من عائلات تركية الأصل ، أو إنهم يشكلون شاهدا على ان الدين الإسلامى دخل إلى ذلك القطر على يد الاتراك . ويندر من بين الاتراك اتباع المذهب الشافعى ، وإن عثر عليهم ، فإن تدقيقا بسيطا فى أنسابهم يدلنا على أنهم ينحدرون من أصل عربى وكردى .

يشاهد الشيعة لدى أتراك الغرب ، ولا يشاهدون لدى أتراك الشرق (تركستان والشمال) . إن معظم أتراك إيران شيعة جعفريون . ويوجد فى الأناضول أتراك علويون .

قل كثيراً اليوم ، عدد المجتمعات التركية التى لم تعتنق الدين الاسلامى بعد ، والتى ظلت بعيدة عن العالمين الإسلامى والتركى وهى : ثلاثة ارباع أتراك جواش çuvas (نحو ١/٥ مليون) مسيحيين ارثوذكس . ونحو نصف مليون من اتراك ياقوت ، شامانى أو مسيحى أرثوذكسى . ونحو ٢٠٠٠٠٠ من أتراك غيغاووز Gaygavuz وهم مسيحيون أرثوذكس ، وقد كان الذى يقدم منهم إلى تركية ، يهتدى إلى الإسلام . وعدا هؤلاء نجد أن الأقوام التركية فى سيبيريا (تورا Tura ، الطايلى Altayli ، تلوت Teleut ، شور Sor) ، شامانيون (نحو ٣٣٥٠٠٠) .

ونحو ٧٠٠٠ تركى قرمى الذين يطلق عليهم اسم قرائم Karaim ، موسويين . الاويغريون الصفر بوذيون (نحو ١٠٦٠٠٠) . وهناك كذلك نحو ألف أو ألفين من الأتراك الكاثوليك فى بولونيا ولتوانيا . ويمكننا أن نقول إن مجموع الأتراك غير المسلمين من بين الـ ١٢٥ مليون تركى ، يبلغ ٢,٦٥٠,٠٠٠ شخص .



الباب الثانى

فترة بعد الإسلام

(٢٠) اعتناق الأتراك للإسلام

اجتاز الأمير الأموى قتيبة بن مسلم ، نهر عمودريا (بالعربية : جيحون) ودخل تركستان وفتح بخارى فى سنة ٧٠٩ ، وسمرقند (التى دافع عنها اتراك كوكترك بشدة) فى ٧١١. صار الأتراك وجها لوجه أمام قوم جدد ، أمام العرب ، لكن الأهم من ذلك أمام دين جديد ذاع صيته وطغى على العالم أجمع .. أمام الإسلام . كانت المواجهة شديدة فى البداية ، ثم سلست بعد ذلك ، إذ ليس لدى الأتراك تعصب مسبق تجاه الأديان الجديدة . وعندما أصبح الأمير العباسى زياد بن سالح – الذى ابتعد عن قاعدته مسافة كبيرة – فى وضع عصيب أمام الجيش الصينى فى تالاس Talas عام ٧٥١ ، لم يتردد الجيش التركى الذى أدركه ، فى أن يأخذ مكانه ضد عدوه التقليدى الصين والانضمام إلى صفوف الجيش الإسلامى . وقد خلص انتصار Talas تركستان من الاستيلاء الصينى وفتحها للدين الإسلامى وأمّن التقارب العربى – التركى الذى سبب انتشار الدين الإسلامى فى تلك الامصار .

لفتت قيمة الاتراك كجنود انظار العرب . وعند اضمحلال الحكم الأموى فى خراسان ، انحاز الأتراك كالإيرانيين إلى الجانب العباسى . إذ أنهم كانوا قد نفروا من سياسة الأمويين العنصرية . أما العباسيون ، فقد عاملوا المسلمين كافة بالتساوى و لم يفرقوا بين عربى وغير عربى . جاء إلى بغداد أتراك كثيرون . وانضموا إلى جيش

الخليفة الخاص كجنود اجراء ، وارتقى بعضهم إلى مرتبة أمير الأمراء وقيادة الجيش فى دولة الخلافة الإسلامية وقدم خدمات مهمة . وقد اعتمد بعضهم على قوته العسكرية ، وحاول التحكم فى الخلفاء العباسيين اعتبارا من القرن ٩ . اسلم الاتراك الذين جاءوا إلى اقطار الخلافة والذين عاشوا فيها ، وبهذا يكون قد انضم إلى الاسلام بشكل أو بآخر قوم جدد ذوو مقدرة عسكرية متفوقة ، ولكن الكتلة التركية الأصلية الكبرى التى كانت تقيم فى الدولة التركية ، بقيت محافظة على ديانتها القديمة .

اشترك الأتراك ، فى الانجازات العلمية والفنية للدين الاسلامى ، وأخذوا مكانهم فى الحضارة والثقافة العربية الإسلامية فى القرون الوسطى . ونستطيع أن نشير إلى بعض هؤلاء الاعلام ممن ينحدرون من أصل تركى ، كالفيلسوف الفارابى ، اللغوى جوهرى ، الشاعر صولى والشاعر بشار . يقول المؤرخ الالمانى فون قره باجاق مايلى : « إن إعتناق الأتراك الدين الإسلامى وظهورهم على مسرح التاريخ كعنصر إسلامى بدأ كظاهرة محدودة الأهمية فى البداية ، ثم احدثت هذه الظاهرة ذلك التأثير العظيم ، الذى لامثيل له تقريبا فى التاريخ العالمى » .

أعلن الخاقان – الأكبر قره خانلى ساتك بغرا خان ، الذى سمى نفسه « عبد الكريم » واعتلى العرش فى ٩٢٤ – أن الدين الإسلامى (السنى – الحنفى والمذهب الماتريدى) هو الدين الرسمى والوحيد للخاقانية والسلالة التركية . وكان هذا الحادث هو إحدى نقاط التحول لا فى التاريخ التركى الإسلامى فحسب بل فى التاريخ العالمى من جهة التطورات والآثار المستقبلية .

ويذكر التاريخ ظهور سلالات تركية حاكمة فى أقطار كمصر واذربيجان تعترف بتبعيتها للخليفة العباسى . لكن قبول الدولة التركية الأصلية والكتلة التركية الكبرى للدين الإسلامى بصورة قطعية ، كانت مسألة تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فقد انتشر الإسلام بين أتراك آسيا الوسطى بسرعة فائقة وفجأة إلى درجة ، لم يبق معها فى ربع القرن الذى يلى عام ٩٢٤ إلا عدد قليل من الاتراك ينتسب إلى أديان كوكتنرى ، البوذية ، المسيحية ، المانوية والشامانية ، وهؤلاء ، هم الكتل التى بقيت بعيدة عن العالمين التركى والإسلامى ، أما أتراك أوربا الشرقية فقد بقوا مصرين على ديانة كوكتنرى لعدة قرون أخرى . وهذا مما سبب انصهارهم على نطاق واسع ضمن الأقوام المسيحية .

(٢١) القرة خانيون (٨٤٠ - ١٠٤٠)

تسلمت سلالة قرة خانلى وهى فرع آخر من سلالة مته ، عرش الخاقانية - الأكبر مكان سلالة اويغر (دوقوز - اوغز - اون - اويغر) . وإذا كانت هذه السلالة لم تتمكن من تأسيس امبراطورية تحتوى على كامل آسيا الشمالية ، على غرار الهون وكوكترك . إلا أنها أثرت على التاريخ التركى والعالمى من ناحيتين : الأولى اعتناق الدين الإسلامى كدين رسمى وحيد للأتراك ، كما أسلفنا وبذلك ، حصل الإسلام على قوم جدد ورقعة جغرافية كبيرة . والثانية ، تحويل مركز ثقل الدولة التركية إلى تركستان الحالية ، وعلى الأصح إلى تركستان الشرقية . وبذلك ، فإن الاتراك بينما كانوا حتى عام ٨٤٠ ، من ناحية مركز الثقل ، ينتمون إلى أقوام الشرق الأقصى ، اصبحوا بعد هذا التاريخ من أقوام آسيا الوسطى بصورة تامة . ولم تكن تركستان الحالية حتى ذلك القرن ، بلادا تركية صرفة كما هى الآن ، فقد كان الأتراك يعيشون فيها بصورة مختلطة مع الأقوام الإيرانية ، ومع انهم عناصر حاكمة فى عدة مناطق ، لكنهم كانوا أقلية من حيث العدد . وعندما بدأ اتراك مغلستان الحالية بالهجرة إلى تركستان بادئين من الشرق ، بدأت تتكون فى هذا القطر الكبير ، أكثرية تركية . إن قبر عبد الكريم ساتك بغراخان الذى اعتنق الدين الإسلامى موجود فى كاشغر (٩٠١ - ٩٥٥ ، جلوسه ٩٢٤) .

احتل أرسلان ايليغ خان ، (وفاته ١٠١٣) من السلالة ذاتها الذى يحمل اسم « نصر » الإسلامى ، بخارى فى ٩٩٩/١٠/٢٣ وانهى الحكم الإيرانى فى تركستان بصورة حاسمة . وأزال الدولة السامانية من الوجود ، وسيطر الأتراك على مدنهم الكبيرة كسمرقند وبخارى وعلى ماوراء النهر ووقفوا عند حدود خراسان .

وفى عهد القرة خانيون ، شارك فى الأدب الإسلامى بلهجة الخاقانية ، الأتراك الذين يملكون أدبا غير إسلامى غنى بلهجات كوكترك واويغر .

(٢٢) بداية الأدب التركى الإسلامى

ترك القرة خانيون الابجدية الاويغرية ، وبدءوا بكتابة التركية بالأحرف العربية ، وبذلك بدأت دورة دامت ألف عام فى كتابة اللغة التركية بالأحرف العربية ،

ودخلت إلى اللغة التركية آلاف الكلمات الفارسية وخاصة العربية ، وأهملت آلاف الكلمات التركية واستعملت مكانها كلمات من هاتين اللغتين ، وهكذا تكونت التركية الحالية .

إن وزن العروض العربي فى الشعر ، اقتبس عن الإيرانيين ، واتخذ الشعر الإيرانى نموذجا فى الشعر . وقد استعملت اللغة العربية فى المؤلفات العلمية والدينية ، وأصبحت هى لغة التدريس فى المدارس (الدينية) التركية . وهكذا دخل الاتراك فى الحضارة الإسلامية - تلك الحضارة التى تميزت برقيها فى القرون الوسطى - بكل مايملكون من طاقة واخلاص .

إن أول شاعر تركى كبير معروف ، هو يوسف خاص حاجب ، اكمل ملحمته الشعرية الفلسفية المكونة من ٧٠٠٠ بيت ، المسماة **Kutadgu Bilig** فى سراى كاشغر عام ١٠٧٠ . وضح فيها حكمة وفلسفة الدولة التركية . أما محمود كاشغرى (أحد أمراء قرة خانلى) فقد توخى فى مولفه باللغة العربية المسمى « ديوان لغات الترك » تعريف العرب بصورة موسوعية باللغة التركية وبالثقافة التركية . وقد تم تأليف هذا الكتاب الذى يعتبر من الروائع الكبيرة المعدودة فى الثقافة التركية ، فى الفترة من عام ١٠٧٢ - ٧٧ ، وقدم إلى الخليفة المقتدى فى بغداد .

إن هذا النتاج الذى ظهر نحو عام ١١١٠ ، يشكل المرحلة الكبيرة الثانية بعد « كتابات أورهن » فى تكوين وتطوير علم اللغة التركية .

ودخل الأتراك كذلك فى التصوف الإسلامى وتعمقوا فيه ، وكونوا عدة طرق صوفية . وممن يذكرون فى هذا المجال الخواجة أحمد يسوى الذى نشأ فى جنوب قازاخستان الحاليه (وفاته ١١٦٦) ، فقد استطاع أن ينشر بوساطة اشعاره التصوفية ذات اللغة التركية الواضحة - الدين الإسلامى بقد رة فائقة بين الأتراك الرحل . وأصبح المؤسس الحقيقى للطريقة اليسوية والتصوف التركى .

ترك القرة خانيون عرش الخاقانية الأكبر إلى السلجوقيين فى ١٠٤٠ وتبعوا السلاجقة . وفى ١٢١٢ ، لم يكن لديهم سوى وادى فرغانة فقط . ثم ازيحوا منه خلال مدة قصيرة . وانتهى دورهم التاريخى .

(٢٣) ولاة وحكام الأتراك فى مصر (٨٤٥ - ٩٦٩)

كان فى مصر قبل الطولونيين (٨٤٥ - ٨٦٨) ، ٦ ولاة عباسيون من أصل تركى ، جاء هؤلاء فى البداية إلى مصر مع الوحدات التركية ودخلوا فى خدمة الولاة العرب ثم طلبوا مقام الولاية من الخليفة بقدراتهم العسكرية وحصلوا عليه ، ٣ منهم اخوة وأبناء ، وبذلك تظهر أول محاولة لتأسيس سلالة حاكمة . أولهم عتاق (تركى) ، يليه فتح بن خاقان بن أرتق (تركى) . ثم اقتدى بهما احمد بن طولون ، الذى حاز اعجاب الخليفة كعسكرى بعد أن تلقى ثقافته فى سراى بغداد على النمط العربى بصورة جيدة ، وأصبح والياً على مصر . سيطر على فلسطين وسوريا مع لبنان . وقد فتح أحمد بن طولون لنفسه ولجياه عهدا لامعا استمر حتى ٩٠٥ تابعا للعباسيين بالاسم ، ثم استعاد العباسيون مصر من بنى طولون عام ٩٠٥ .

وفى ٩٣٤ ، نجد تركيا آخر هو محمد بن اخشيد الذى صار واليا عباسيا على مصر وأسس سلالة حاكمة جديدة قضى عليها الفاطميون العرب الشيعة - الاسماعيلون القادمون من شمال افريقيا (المغرب) فى ٩٦٩ . حيث انفصلت مصر عن العالم السنى العربى - الإسلامى وعن خلفاء بغداد وظلت تحت إدارة شيعية إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبى .

وخلال ٨٩٢ - ٩٣٠ ، أسس الساجيون (بالعربية : بنى ساج) الأتراك الأصل فى أذربيجان وأرمنية سلالة حاكمة صغيرة تحت سيادة العباسيين .

(٢٤) الغزنويون Gazneliler (٩٦٢ - ١١٨٧)

فى سنة ٩٦٢ احتل تركى اسمه آلب تكين قلعة غزنه التى بقيت حاليا لدى افغانستان ثم أصبح أحد خلفائه المدعو سفوك تكين (سلطنته ٩٧٧ - ٩٩٧) المؤسس الحقيقى للدولة وأخذ الافغان الحالية واجتاز ممر خيبر واخذ يهدد أبواب الهند .

يرجع تاريخ دخول الدين الإسلامى إلى الهند إلى عام ٧١١ عندما فتح محمد بن القاسم اقليم السند ، إلا أن محمد بن القاسم لم يتمكن من اجتياز نهر السند (Indus) إلى مسافات بعيدة . وقد اهتدى إلى الإسلام بعض الاهالى المحليين من

شعب بلوجستان والسند الحاليه . لكن الذى ادخل الدين الاسلامى إلى القارة الهندية باقتدار ، هو سفوك تكين وابنه سلطان محمود غزنوى .

حاول السلطان محمود (٩٩٨ - ١٠٣٠) بسط سيادة الخليفة العباسى ونشر المذهب الحنفى - السنى فى تلك المناطق بشكل تام ، وأبدى فى نفس الوقت تشددا مع الإيرانيين الشيعة ، والسلطان محمود كالعثمانيين من بكّات قبيلة قايى الاغوزية ، وقد تأثر تأثرا كبيرا بالثقافة الايرانية ، ولم يكن على الثقافة التركية الخالصة كالقرة خانيين . كان هو الذى طلب من الفردوسى كتابة « الشهنامة » . ولم يلق عنده الفردوس قبولا حسنا ، لأنه أشاد فى مؤلفه بانتصار الشهنشاهات الايرانيين على خاقانات الاتراك . حمى السلطان محمود ، الشعراء والمؤلفين الكبار الآخرين الذين يكتبون بالفارسية والذين ينتمى بعضهم إلى الأصل التركى . وقد استعمل السلطان محمود اللغة الفارسية فى الأدب والعربية فى المكاتبات الرسمية والعلوم . وكانت التركية لغة السراى والجيش .

احتل محمود الغزنوى مدينة بشاور سنة ١٠٠٠ . وفى السنة التالية ، فتح بنجاب بعد إبادة الجيش الهندوسى المكون من ٤٢٠٠٠ جندى و٣٠٠ فيل ، وحاز على لقب « غازى » . وفى حملته الهندية العاشرة . فتح وادى الكانج (البلاد التى سماها المسلمون « هندوستان ») ودلهى وأطرافها . وفى حملته ١٣ افنى جيشا هندوسيا مكونا من ١٥٠,٠٠٠ شخص واستولى على أكثر من ١٠٠٠ فيل حربى . وفى حملته ١٦ (١٠٢٥ - ٢٦) فتح كجرات ، وسيطر على نحو ٥ ملايين كم٢ من الأراضى (ايران ، افغانستان ، ماوراء النهر ، باكستان الحالية ، ايالات الهند الشمالية - الغربية) . ثم تراجع الغزنويون أمام السلاجقة وحاولوا ابقاء ملكهم فى بنجاب ولاهور تحت سيادة السلاجقة ، لكن الدين الإسلامى كان قد دخل القارة الهندية فى عز قوته وبالمذهب الحنفى السنى ووضع الاساس الحقيقى لباكستان الحالية .

(٢٥) الدولة السلجوقية الكبرى

بنى سلجوق ، هم بكات قبيلة قنق **Kinik** المنحدرة من أوغز . كان قسم من الأوغز قد أسسوا دولة بين الخزر وآرال التى تسمى الوطن العلوى . ورث بنو سلجوق هذه الدولة وأصبحوا قادة كبارا (سوباشى) فى نهاية القرن ٨ ، وحوالى

عام ٩٩٠ أصبحوا ملوكا لها (Yabgu) . ولقد صد السلطان محمود الغزنوى هؤلاء السلاجقة الذين أسلموا حديثا والذين حاولوا النزول إلى العالم الاسلامى فى الجنوب ، واستمرت مقاومة طغرل بك حفيد سلجوق بك واخيه جاغرى بك للغزنيين الذين قطعوا طريقهم . تمكن طغرل بك وأخوه من الوصول إلى الاناضول وجاهدا بغزواتهم ضد البيزنط وتمكنا اخيرا من دحر الجيش الغزنوى المتفوق جدا فى معركة دندانكان (١٠٤٠/٥/٢٣) الميدانية واستوليا على خراسان بصورة حاسمة . واتخذا نيشابور عاصمة ، وبعد ان اجبرا كلا من الغزنويين والقره خانيين على الاعتراف بدولتهم كأكبر وأقدر دولة تركية ، حاربا الدول الإيرانية واستوليا على إيران وأصبح للدولة منفذ إلى البحر الابيض .

وبعد أن كسر الخاقان – الأكبر محمد طغرل بك (١٠٤٠ – ١٠٦٣) ، الدولة الشيعية البويهية فى إيران وثبّت أركان المذهب السنى ، انتقل إلى العالم العربى . كان الخليفة يسكن منذ مدة طويلة جدا فى بغداد تحت سيطرة الشيعة البويهيين ، ولما علم الخليفة « القائم » أن البويهيين يستعدون لاعلان خليفة البويهيين الفاطمى الشيعى فى العراق ، خليفة فى (القاهرة) ، أمر بتلاوة اسم السلطان طغرل بك بعد اسمه فى الخطبة فى بغداد (الجمعة ١٥ ك ١٠٥٥/١) .

قضى طغرل بك الذى قدم إلى بغداد بعد ١٠ أيام ، على السلطة الشيعية ، وأعلن الحرب على الإمام الفاطمى وأمر بتلاوة الخطبة باسم الخليفه العباسى واسمه هو فى كل مكان ، وعين فى بغداد واليا عسكريا تركيا . وأعلن أن الخليفة هو الرئيس الروحى لجميع العالم الإسلامى ، أما الحكم الدنيوى فيعود إلى إدارة بنى سلجوق . انتقل العالم العربى الشرق (المشرق) إلى الحكم التركى . وبذلك يكون قد انفتح دور الإدارة التركية فى المشرق ، وسوف يستمر ذلك الدور تسعة قرون .

خلف السلطان طغرل بك ، ألب ارسلان (١٠٦٣ – ١٠٧٢) ، وابن اخيه الكبير جغرى بك ، وابن هذا سلطان مليكشاه (١٠٧٢ – ١٠٩٢) ، ثم أبناء هذا وعددهم ثلاثة هم : سلطان ركن الدين بركياروك (١٠٩٣ – ١١٠٤) سلطان محمد طابار (١١٠٤ – ١١١٨) ، سلطان معز الدين سنجار (١١١٨ – ١١٥٧) .

ويمكن تلخيص سياسة الدولة السلجوقية العالمية ، على الوجه التالى ؛ دفع الشيعة إلى افريقيا ، وتوحيد العالم الإسلامى الآسيوى تحت النفوذ المعنوى للخليفة العباسى السنى ونفوذهم الإدارى وإزاحة البيزنط من آسيا إلى أوربا والتواجد المستقر على البحر الأبيض . لم يتحقق امل السلجوقيين فى اقتلاع الفاطميين الشيعة من مصر بسبب بدء الحروب الصليبية ، لكنهم أزاحوهم من سورية .

إن الامبراطورية السلجوقية التى تمتد غربا إلى استانبول وبوغاز جناقلعه إلى بحرى مرمره وايجه ، والجنوب - الغربى إلى برزخ السويس وإلى البحر الاحمر ، وجنوبا إلى المحيط الهندى وبحر عمان ، وشرقا إلى الهند الوسطى ، إلى حدود الصين ، وشمالا إلى سيبيريا والشمال - الغربى إلى جبال القفقاس ، استطاعت أن تؤسس بعد الامويين والعباسيين نظاما امبراطوريا متينا ، لكنها لم تتمكن من الانتقال إلى قارتى افريقيا واوربا . كان جيش الامبراطورية السلجوقية يبلغ مليون جندى يقوم على حماية سكان الامبراطورية البالغ عددهم ١٠٠ مليون نسمة يقيمون فى اراض تبلغ مساحتها ١٥ مليون كم^{٢} ، من مآثر الامبراطورية السلجوقية انها نقلت تدريس العلوم الإسلامية العالية من المساجد إلى الجامعات التى أسسها السلاجقه وسموها « مدرسة » . وعلى الرغم من أن هذا النظام القويم سرعان ماتبدد ، فإن الكيان الأساسى لنظام الدولة السلجوقية استمر على يد الأيوبيين والعثمانيين ودول غيرها .

(٢٦) الخوارزم شاهيون Harezm - Sahlar (١١٥٧ - ١٢٣١)

خلفت الدولة السلجوقية الكبرى ، سلالة تركية أخرى هى الخوارزم - شاه . كانت حدودهم متواضعة جدا (ايران ، افغانستان ، ماوراء النهر) . واعتبارا من ١٠٩٧ ، وبعد انتهاء السلجوقية الكبرى بوفاة سلطان سنجر ، وكذلك بعد قضائهم على سلاجقة العراق ، أصبحوا خاقانات تركستان ، بينما كانوا ولاة سلجوقيين لخرزم (خوارزم) . كانت قاعدتهم سمرقند . أرادوا اخضاع الخليفة العباسى لسلطتهم السياسية باتباعهم سياسة محمود الغزنوى والسلجوقية الكبرى وسلاجقة العراق . فصرفوا جهدهم فى نشر قوة الخليفة المعنوية والروحية لدى كافة المسلمين . ثم قضى عليهم المغول .

(٢٧) سلاجقه العراق ، سوريه وكرمان

أراد أبناء اخوة سلطان سنجر بعد وفاته ، إبقاء الدولة السلجوقية بصورة مستقلة باسم سلاجقة العراق (١١٥٧ - ١١٩٤) . قضى خوارزم شاه على سلاطين هذه الدولة التى تأسست فى ١١١٧ .

سلاجقة سوريه (١٠٩٤ - ١١١٧) هم سلاطين بنى سلجوق الذين أسسوا حكمهم تحت سيادة السلجوقية الكبرى فى سوريه ، لبنان ، فلسطين والاردن واتخذوا من الشام وحلب قاعدة لهم ، واستطاع فرع آخر من فروع السلالة السلجوقية ذاتها ابقاء سلطنتهم فى كرمان فى جنوب شرقى ايران مدة قرن ونصف (١٠٤١ - ١١٨٧) .

(٢٨) الاتابكــــه Atabeyler

يطلق اسم « ملك » على الأمراء الأباطرة من سلالة السلجوقيين ، وقد كانوا يعطون كل ملك فى طفولته لأمير تركى لتربيته عسكريا . وفى الحقيقة فإن بعض هؤلاء الأمراء ، أصبحوا على مر الزمن وباسم السلاجقة ، أصحاب دولة مستقلة . اشهرهم ايلدنيزليون Ildenizliler الذين يطلق عليهم اسم اتابكة آذربيجان (١١٤٦ - ١٢٢٥) ، بنو بورى الذين يطلق عليهم اسم اتابكة الشام (١١٠٩ - ١١٥٤) ، بنو بكتكين Beyteginliler الذين يطلق عليهم اسم اتابكة اربيل (١١٤٤ - ١٢٣٣) ، بنو سلغر Salgurlular الذين يطلق عليهم اسم اتابكة فارس (١١٤٧ - ١٢٨٧) ، بنو قطلغ - خان Kutlug - Hanlar (١٢٢٢ - ١٣٠٣) .

(٢٩) الزنكيون Zengiler (١١٢٧ - ١٢٦٢)

لاشك أن اشهر سلالات الأتابكة هم اتابكة الموصل الذين يسمون الزنكيون ، ومؤسس السلالة هو عماد الدين زنكى ابن آقسنغر بك من أمراء السلاجقة من قبيلة آفشار الاوغزية . ولى حكم حلب والموصل فى عهد السلاجقة فى ١١٢٧ ، وحارب الصليبيين ونال شهرة واسعة . وابنه اتابك نور الدين محمود زنكى ، الذى

فاق شهرة ابيه بجهاده ضد الصليبيين . اتخذ من الشام قاعدة له وأدام سلطنته (١١٤٦ - ١١٧٤) . كان صلاح الدين الأيوبى أحد ضباط الحرس الخاص لنور الدين زنكى .

أرسل نور الدين ، صلاح الدين إلى مصر مع جيش استطاع أن يسيطر به على مصر بدون قتال وانهى الحكم الشيعى الذى دام قرنين وأمر بقراءة الخطبة باسم الخليفة العباسى . وبذلك انتهى العهد الفاطمى فى مصر .

مات نور الدين فى هذه الأثناء ، فأعلن صلاح الدين نفسه سلطانا على مصر مكان سيده . وبعد هذه الفترة تبع الزنكيون الايوبيين ، وتسلم صلاح الدين الايوبى سيف الجهاد بيده ، وابقى التشكيلات العسكرية والادارية السلجوقية والزنكية ، وأسس دولة إسلامية مقتدرة . عادت الثقافة العربية والأدب العربى للازدهار مرة أخرى فى العهد الايوبى .

(٣٠) المغـــول

ظهر جنكيزخان فى بداية العصر ١٣ . وهو ينحدر من سلالة أحد أمراء كوكترك الذين تمغلوا ، كان فقيراً ، لكنه كان من أشراف المغول . سيطر على مغولستان وآسيا الوسطى . استولى على بكين وفتح امبراطورية الصين الشمالية . وبعد أن زحف على الشرق الأقصى بجيش مدهش من الخياله مكون من المغول والاتراك الذين لم يدخلوا الإسلام بعد ، وصل فى سنة ١٢٢٠ إلى حدود خاقانية تركستان (التابعة للخوارزم شاهيين) ثم إلى الحدود الشرقية للدولة الإسلامية . جرى قتال عنيف ، انكسر فيه الأتراك ، وانهزم جلال الدين خرزم - شاه إلى حدود الاناضول ، وانتقلت تركستان وإيران لحوزة المغول المشركين .

استمرت السلالة من نسل أولاد جنكيز الأربعة وأبنائهم .

سيطر المغول تقريبا على كامل قارة آسيا عدا اليابان والهند وتقريبا على كامل أوربا الشرقية . كان المغول فى عام ١٢٩٤ ، يحكمون دولة تتسع حدودها اتساعا لم يحدث لاية دولة أخرى فى التاريخ . ولما كانت مساحة الاقطار المكتشفة فى العالم حينذاك تبلغ ٦٤ مليون كم^2 ، فقد كان المغول يملكون ٤٤ مليون كم^2 منها . وكان يقدر سكان هذه الأراضى بـ ٣٠٠ مليون نسمة (كان تعداد فرنسا فى السنوات ذاتها

١٠ ، انكلترا ٢ مليون) . ومع ذلك لم يكن للدولة المغولية دور بنفس درجة الدول التاريخية العالمية (العظمى) كامبراطوريات روما أو الخلافة العربية العثمانية أو بريطانيا العظمى ، ذلك أن المغول الذين اعترفوا لغاية ١٢٩٤ (ولو نظريا) بكثان – كبير Buyuk - Kaan (امبراطور كبير) ، تفرقوا بعد هذا التاريخ إلى دول منفصلة ، فقد تصين الفرع الصينى (اصبح صينيا) ، بعد أن أصبح بوذيا وانسحب منهم قسم آخر إلى مغولستان وتمكن من الحفاظ على مغوليته ، أما أقوام تركستان التى تسمى جغتاى ، وأوربا الشرقية التى تسمى جوجى أولوصو والطون اوردى وفرع ايران الذى يسمى ايلخانلى ، فقد انصهرت جميعا ضمن الكتل التركية الكبرى الموجودة فى هذا القطر ، ونسيت اللغة المغولية وأصبحت تنطق بالتركية وصارت مسلمة سنية – حنفية كالأتراك . جاءت كتل تركية كبيرة إلى تركستان على عهد المغول وبسبب استتراك المغول ، أصبحت البلاد قطرا تركيا تاما ، ذلك بالاضافة إلى أن المغول ساقوا ملايين الأتراك أمامهم إلى إيران والأناضول ولعبوا دورا هاما فى تتريك هذين القطرين .

وفى ١٢٥٨ ، احتل هولاكو حفيد جنكيز وأول حكام السلالة المغوليه الايرانية التى تسمى ايلخانية ، بغداد وقضى على الخلافة العباسية .

لجأت الخلافة العباسية إلى القاهرة .

ولاينسى التاريخ الاسلامى والتركى والعثمانى لهؤلاء المغول المشركين هدمهم المدن الإسلامية الكبرى وماقاموا به من مذابح وماأجروه من تخريب للمراكز الثقافية سواء التركية أو العربية ولئن كان إسراعهم فى اعتناق الدين الاسلامى واستتراكهم ، قد جعلهم يشاركون كعنصر جديد فى الحضارة والثقافة الإسلامية ، ألا أن ماقاموا به من تخريب لم ينسه التاريخ حتى الآن .

(٣١) الايلخانيون Ilhanlilar (١٢٥٦ – ١٣٤٤)

اعتنقت سلالة هولاكو التى تسمى ايلخانلى ، الدين الإسلامى بشكل قطعى فى ١٢٩٥ . ويقال عنهم مغول إيران كذلك .

أخذت هذه السلالة سلاجقة تركيا (الاناضول) تحت سيادتها ، ودخلت فى صراع جغرافى – سياسى واسع النطاق ، سواء مع مماليك مصر أو مع التون اوردى

الذى دخل الإسلام قبلها . وفى ١٣٤٤ ، تركوا سلطنتهم إلى الجلايريين Celayirliler وهى سلالة مغولية مستتركه مثلهم ، وانتقل كامل العراق مع ايران من الايلخانيين إلى الجلائريين .

(٣٢) التون اوردى ALtinordu (١٢٢٣ - ١٥٠٦)

تسمى الدولة التى أسستها سلالة جوجى خان ابن جنكيز الاكبر فى أوربا الشرقية باسم التون اوردى وتعنى الجيش الذهبى .

دخل بركة خان ابن جوجى الإسلام منذ ١٢٥٧ وسبق هذا الفرع ، الفروع الأخرى فى الهداية واستترك . وحكم كامل روسيا الأوربية الحالية والبلقان وقسما من أوربا الوسطى . وفى الربع الأخير للعصر ١٤ ، دخل فى صراع كبير مع تيمور ، فخسر وتقلصت دولتهم واندثرت .

تكّونت على أراضيهم عدة امارات (خانلق) تركية واستفادت امارة موسكو - الكبرى من هذا الوضع وبدأت فى التوسع .

(٣٣) جغتـــاى çagatay (١٢٢٧ - ١٨٧٠)

حكمت سلالة جغتاى خان ثانى أبناء جنكيز ، تركستان وسيطرت عليها حتى ظهور تيمور فى ١٣٧٠ . ثم انسحبت إلى تركستان الشرقية وبقيت هناك عصورا طويلة كدولة متواضعة . استترك هذا الفرع وبدأ يتكلم التركية بسرعة وأخذ المذهب السنى - الحنفى عن الاتراك ودخل بكامله إلى الهداية الاسلامية .

(٣٤) بنى تيمور Timurogullari (١٣٧٠ - ١٥١٢)

ظهر تيمور (١٣٣٦ - ١٤٠٥) أحد بكات (أمراء) تركستان الغربية ، على مسرح التاريخ فى ١٣٧٠ . وبسط سيادته على التون اوردى (أوربا الشرقية) والهند الشماليه والخاقانيات التركية (تركيا) العثمانية ، ووصل الأمر إلى حد أن السلطان المملوكى المصرى بعد أن فقد سوريا دخل تحت سيادة تيمور أتقاء لشره . سيطر تيمور الذى كان يستند إلى قوة عسكرية مدهشة على أقطار تبلغ مجموع مساحاتها ١٤ مليون كم^2 . كانت التركية لغته الأم ومذهبه السنى - الحنفى . إلا أن تأثيرات الثقافة الايرانية كانت كبيرة على امبراطوريته كما أنه قلد جنكيز فى اسلوب فتوحاته .

مات عندما كان يستعد لفتح الصين لتحقيق خير أعماله كفاتح مسلم وقد حاول أصغر أبنائه الأربعة شاهرخ ، صيانة الامبراطورية التيمورية لغاية ١٤٤٧ .

وبالاضافة إلى أن الامبراطورية التيمورية فقدت بعد ذلك أقطارا عديدة ، فقد انقسمت إلى امبراطوريتين : ماوراء النهر (سمرقند) ، وخراسان (هرات) .

وفى ١٥١٢ ، طرد أتراك اوزبك الرحل القادمين من الشمال ، التيموريين من تركستان ودفعوا بهم إلى الهند .

ازدهرت لهجة جغتاى (تركستان) والأدب والشعر التركى على أيام التيموريين ، وفى عهدهم نشأ على شيرنوائى من أكبر الشعراء الأتراك فى سراى سلطان حسين بايقره (١٤٦٩ – ١٥٠٦) بن تيمور فى هرات .

٣٥) السلالات التركية فى الهند لغاية بنى تيمور :

اعقبت الغزنويين فى الامبراطورية الإسلامية التركية فى الهند الشمالية ، سلالات الغور (١١٨٧ – ١٢٠٦) ، مماليك الهند (١٠٢٦ – ١٢٩٠) ، بنو هلاج (١٢٩٠ – ١٣٢٠) ، بنو طغلق (١٣٢٠ – ١٤١٣) ؛ بن سيد (١٤١٣ – ١٤٥١) ، اللوديين (١٤٥١ – ١٥٢٦) ، الصوريين (١٥٤٠ – ١٥٥٥) .

بذل كل من السلطان معز الدين محمد (١١٨٧ – ١٢٠٦) ، السلطان آيبك (١٢٠٦ – ١٢١٠) ؛ السلطان التوتمش (١٢١٠ – ١٢٣٦) ، السلطان بالابان (١٢٦٦ – ١٢٨٦) ، السلطان علاء الدين محمد (١٢٩٦ – ١٣١٦) ؛ السلطان فيروز – شاه طغلق (١٣٥١ – ١٣٨٨) جهودا كبيرة لنشر الدين الإسلامى فى الهند وتوسيع حدود الدولة باستمرار نحو الشرق والجنوب . ولأول مرة فى التاريخ وحد علاء الدين محمد ، كامل الهند (بما فى ذلك باكستان الحالية وبنغلاديش) تحت حكم دولة واحدة .

جرت حروب شديدة مع المغول واصبحت الهند من الدول الآسيوية الإسلامية النادرة التى لم يتمكن المغل من السيطرة عليها .

يلاحظ سيطرة الثقافة العباسية ، حيث كانت هى لغة الفن بينما التركية لغة الجيش والسراى ، وقد شيدت فى هذه الفترة آثار عمرانية هائلة ، وتأسست مدن

جديدة وكانت دلهى مدينة العرش . ثم تقلصت الحدود ، وخلال ١٣٩٨ - ١٤٢١ تبعت سلطنة دلهى تيمور وخلفاءه .

كانت السلالات الأخيرة هى اللوديون والصوريون .

(٣٦) بنو تيمور الهند (١٥٢٦ - ١٨٥٧)

عندما طرد الأزبك بابرشاه (١٤٨٣ - ١٥٣٠) حفيد تيمور فى البطن ٥ (حفيد جنكيز فى البطن ١٣ من جهة أمه) من عرش خاقانية تركستان ، استوطن فى كابل واحتل الأفغان الحالية .

وفى ١٥٢٦ ، قوض سلطنة لودى وفتح سلطنة دلهى . كانت القوة التى مكنته وسلالته من الهند لمدة ٣ قرون وجعلته ينتصر على الجيش اللودى المكون من ١٠٠,٠٠٠ جندى و١٠٠٠ فيل خلال ٧ ساعات ، عبارة ١٣٥٠٠ جندى تركى تضم سرية مدفعية يقودها ضابط مدفعى عثمانى (معركة بانيبات **Panipat** الميدانية ٢١ / ٥ / ١٥٢٦) ، وقد استطاع فى السنة التالية (١٦ / ٣ / ١٥٢٧) أن يفنى الجيش الهندوسى المكون من ١٠٠,٠٠٠ جندى وأكثر من ١٠٠٠ فيل مصفح عن بكرة أبيه ، ونال لقب « غازى » .

يعتبر بابر من أكبر الشعراء الأتراك وقد اشتهر فى التاريخ بمذكراته المسماة « بابرنامه » التى حررها باللغة التركية والتى تعتبر أحد روائع النثر التركى التى تعد على الأصابع .

عقب بابر (الأب والابن) ، همايون شاه (١٥٣٠ - ١٥٤٠ - ١٥٥٥ - ١٥٥٦) ، أكبر شاه (١٥٥٦ - ١٦٠٥) جهانكيرشاه (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ، شاهجهمان الذى شيد تاج محل (١٦٢٧ - ١٦٥٨) ، افرنكزيب عالمكير شاه (١٦٥٨ - ١٧٠٧) .

تكونت حضارة غنية جدا تحت تأثير الثقافة الفارسية . وقد وحد عالمكير للمرة الثانية فى التاريخ ، كامل الهند تحت حكم سياسى موحد ، وبدأ بعدها الانقسام .

احتل الإنجليز البنغال فى نهاية القرن ١٨ . اضرمت قوات الخيالة « السباهى » التركية بمساندة بنى تيمور ، نار ثورة كبيرة لطرد الانجليز ، لكنها اخمدت . خلع

الانجليز بابرشاه الثانى (١٨٣٧ - ١٨٥٨) اخر حكام بنى تيمور من عرشه ونفوه إلى برمانيا (٤ / ١٢ / ١٨٥٨) (وفاته : رانغون ، ٧ / ١١ / ١٨٦٢) .

استمر اسم « المغول » الذى أطلقه الإنجليز على بنى تيمور الهند فى المؤلفات التاريخية على الرغم من أنه ليست هناك للدولة علاقة بالمغل .

٣٧) امبراطورية الهند الجنوبية :

أسس البهمنيون (١٣٤٧ - ١٥٢٥) فى الهند الجنوبية امبراطورية مركزها دكن Dekken منفصلة عن سلطنة دلهى .

انقسمت هذه الامبراطورية إلى ٥ دول ، أهمها دولة عادل - شاه الذين يعتبرون ورثة للبهمنيين (١٤٩٠ - ١٦٨٦)

كان أول حاكم لهم هو الأمير التركى المسمى يوسف عادل - شاه ، وهو ثائر ظفر بالعرش مدعيا أنه الأخ الأصغر للسلطان فاتح العثمانى . أما القطب شاهيون (١٥١٢ - ١٦٨٧) فهم أمراء (بكات) قرة قويونلو التركمان .

جميع هذه الدول ؛ سواء هاتين الدولتين ، أو الثلاث الآخريات اللواتى تقاسمن الهند الوسطى والجنوبية كانت من قبل بنى تيمور .

٣٨) الدول التركية الأخرى فى الهند :

أهم الدول التركية الأخرى التى تأسست فى الهند هى : المابريون (١٣٣٤ - ١٣٨٨) فى جنوب الهند وقاعدتهم مادورا ، وديان بنغال (١٢٠٢ - ١٢٩١) ، وملوك بنغال (١٣٣٨ - ١٥٧٦) وغوور مالوا (١٣٩٢ - ١٥٣١) ، فى الهند الوسطى فى برار ، وسلاطين هانبور شرقى (١٣٩٩ - ١٤٩٩) ، وأمراء خاندش فاروقى فى الهند الوسطى (١٣٩٩ - ١٦٠١) ، والشاهيون فى كشمير (١٣٣٤ - ١٥٦١) ، والأركون فى بلوجستان (١٤٧٥ - ١٥٥٤) ، والطرخانيون فى السند (١٥٥٤ - ١٥٩٩) . وكل هؤلاء تقريبا قضى تيمور عليهم .

(٣٩) السلطنة التركية فى مصر (١٢٥٠ - ١٥١٧) :

تسلم الحكم فى مصر فى ١٢٥٠ جيش الحرس التركى الخاص بالسلطان الأيوبى (خاصة اوردوسى) وتأسست أقوى سلطنة مملوكية فى القرون الوسطى سميت « الدولة التركية » بصورة رسمية (مصر ، سوريا ، لبنان ، فلسطين ، الأردن ، الأناضول الجنوبية ، الحجاز ، اليمن ، السودان ، ولفترة ليبيا وحتى تونس) .

وقد اعتمد الحكام المقتدرون مثل آيبك (١٢٥٠ - ١٢٥٧) ، قطز (١٢٥٧ - ١٢٥٩) ، بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) ، قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) ، ناصر الدين محمد (١٢٩٣ - ١٣٤١) ؛ على جيش قوى وحضارة تزينها آثار معمارية فريدة تستمد أصالتها من ثقافة عربية غنية .

انتصر السلطان قطز فى واقعة عين جالوت وصد المغول المشركين واوقفهم عند باب مصر وافريقيا ، ثم استرجع المماليك آخر قاعدة للصليبيين فى شرقى البحر الأبيض .

يلى عهد المماليك الأتراك أو البحريين (١٢٥٠ - ١٣٨٢) الذين حافظوا على الخليفة وبلدانه المسلمة المقدسة (مكة ، المدينة ، والقدس) - عهد المماليك الشراكسة أو البرجيين (١٣٨٢ - ١٥١٧) . وقد اعتلى العرش فى هذه الفترة سلاطين الشراكسة المستتركين وعانت الدولة المملوكية من عدم تملكها من تشكيل قوة بحرية وضعفها فى هذا المجال مما اسفر عنه انضمامها إلى الدولة العثمانية .

٤٠) الامبراطورية التركية فى إيران :

انتقل حكم إيران - العراق بعد الايلخانيين إلى الجلائريين (١٣٣٦ - ١٤١١) ، فالتيموريون ثم إلى حكم سلالتين تركمانيتين هما أصحاب الخرفان السود (قرة قويونلولر) (١٤٣٧ - ١٤٦٧) وأصحاب الخرفان البيض (آقويونولو) (١٤٦٧ - ١٥٠٢) .

كانت هذه السلالات سنية - حنفية وكانت مسيطرة على الاناضول الشرقية كذلك وكانت قاعدتهم تبريز .

٤١) الصفويون (١٥٠٢ - ١٧٣٦) :

ظهر بعد ذلك شاه إسماعيل . ثامن شيوخ الصفويين الاردبيل ذوى النفوذ القوى جدا منذ ١٣٠١ والذين بدءوا سنيين ثم اصبحوا شيعيين . كان من ناحية الأم حفيدا للسلطان آقويونلو أوزون حسن بك (١٤٥٣ - ١٤٧٨) . جمع حوله مئات الألوف من الاناضوليين التركمان تحت الشعار الشيعى وانتقل إلى إيران .

أجبر إيران أهل السنة على التشيع على مذهب الأثنى عشرية بالدم والنار . .

وحد بساط المشيخة مع تاج الشاهية ، وأسس فى إيران دولة قوية جدا . وقد كانت هذه الدولة التى أخذت بمرور الزمن تتقبل الثقافة الإيرانية ، تستند على جيش تركمانى خيال . لكن لم يكن لديها قوة بحرية .

كون الشاه إسماعيل الذى يمتاز بأنه من أكبر شعراء اللغة التركية ، امبراطورية كبرى ، بين دياربكر وطاشقند . وازداد نفوذ هذه الدولة كثيرا على أيام ابنه شاه طحمسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) وحفيده شاه عباس (١٥٨٧ - ١٦٢٨) .

شطرت هذه الدولة العالم الإسلامى والتركى إلى شطرين ثم ضعفت بعد ذلك واضمحلت السلالة .

٤٢) الأوشار Avsarlar

جلس نادر شاه اوشار (١٧٣٦ - ١٧٤٧) على عرش شاهات الصفويين ، بينما كان أحد أمراء (بكات) التركمان ، هو آخر فاتح عالمى فى التاريخ التركى . قام بحملات واسعة للسيطرة على قفقاسيا وتركستان والهند .

كان سنيا حنفيا فى باطنه . غير أنه لم يتمكن من اعلان المذهب السنى فى إيران الشديدة التشيع . حاول أن يحمل الخليفة فى استانبول على الاعتراف بالمذهب الشيعى الجعفرى المعتدل ، لكنه لم يوفق .

٤٣) القاجاريون Kacarlar (١٧٧٩ - ١٩٢٥) :

القاجار ، هى آخر سلالة تركمانية جلست على العرش الإيرانى . خرجت إيران من عداد الدول العظمى وانسحبت من ققفاسيا عندما غلبتها روسيا فى ١٨١٣ و١٨٢٨ .

خلع الشاه رضا ، الشاه القاجارى السابع أحمد شاه قاجار عن عرشه وأسس السلالة البهلوية وأنهى عهد الحكام الأتراك الذى دام ٩ قرون (كانت امه كذلك تركية) .

٤٤) الامارات التركستانية :

بعد أن طرد الشيبانيون ، وهم إحد فروع سلالات جنكيز فى ماوراء النهر (١٥٠٠ - ١٥٩٩) ، التيموريين من تركستان وقذفوا ببابورشاه إلى الأفغان ، وزحفوا على الهند لفتحها ، كونوا دولة ذات قدرة كبيرة (قاعدتهم سمرقند وعلى الأغلب بخارى) .

مؤسس السلالة محمد شيباك (شيبانى) خان (١٥٠٠ - ١٥١٠) ، من الشعراء المتميزين فى اللغة التركية .

غلبه الشاه إسماعيل وقتله . كان عبد الله خان (١٥٨٣ - ١٥٩٨) من أقدر حكام السلالة ، وقد خرجت تركستان أى خاقانية الترك الشرقية بعده من عداد الدول العظمى ثم تمزقت تركستان بين خاقانيات الترك الصغرى وفقدت مكانتها فى التاريخ العالمى .

بسط الجانيون (١٥٩٩ - ١٧٨٥) الذين اعقبوا الشيبانيين وكانوا من سلالة جنكيز مثلهم ، نفوذهم على قسم كبير من ماوراء النهر . كانت قاعدتهم بخارى .

وقع المانغت (١٧٨٥ - ١٩١٩) الذين احتلوا مكانهم تحت سيطرة الروس فى ١٨٧٣ وتركوا للروس حتى طاشقند وسمرقند . استمر حكمهم فى بخارى وجوارها حتى ١٩١٩ ، وفى الثورة الشيوعية ، تأسست فى البداية جمهورية بخارى ، ثم جمهورية اوزبكستان التابعة للاتحاد السوفييتى . وهكذا انتهى عمليا ١٩١٩ الوجود السياسى التركى فى تركستان .

دامت سلطنة خانات خرزم (١٥١٢ - ١٨٠٤) ، ثم سلالة كونغرات (١٨٠٤ - ١٩١٩) وكليهما من سلالة جنكيز فى البلاد التاريخية المسماة خرزم (خوارزم) فى جنوب بحيرة آرال فى قره قالباقستان الحالية ، واتخذوا حيوه عاصمة لهم . سقط هؤلاء كذلك تحت النفوذ الروسى فى ١٨٧٣ وبقى حكمهم الذاتى وسلالتهم حتى قدوم الشيوعيين فى ١٩١٩ .

الحقت إمارة (خانية) خوقند فى فرغانة (١٧١٠ - ١٨٧٦) بروسيا . تقلصت إمارة قازاق (١٤٥٠ - ١٨٧٣) التى يترأسها خانات من سلالة جنكيز فى قازاخستان الحالية وانفصلت إلى أقسام .

جاهدت فى استمرار كيانها تحت الاحتلال الروسى حتى ١٨٧٣ . فتح قينسارى قاسم خان (وفاته ١٨٤٧) أحد خانات القوزاق ، استمر جهادهم ضد الروس لمدة ٣٠ سنة .

استطاع يعقوب (١٨٧٠ - ٧٧) وبك قولو (١٨٧٧ - ٨٢) فى كاشغر فى تركستان الشرقية أن يحافظا على استقلالهما فى مواجهة الصين مع استمرار تبعيتهما للعثمانية ، لكنهما لم يتمكنا فى النهاية من صد الاجتياح الصينى ، وجدير بالذكر أن الحركات الاستقلالية فى تركستان الشرقية قد استمرت حتى عصرنا الحاضر ولقد تم لعدة مرات اعلان تأسيس دول تركية ، ولكن استولى عليها الصينيون .

انكسر الفريق الأول عبد النياز بك مع جيشه التركى البالغ ٨٠,٠٠٠ جندى ، أمام الجيش الروسى - الصينى الاتحادى واستشهد (١٥/ ٨ / ١٩٣٧) .

٤٥) أتراك الشمال :

تعتبر إمارة قرم (١٤٢٧ - ١٧٨٣) من أهم الدول التى تكونت على أنقاض خاقانية الطون أوردى كما هى الحال فى دول أتراك الشمال الأخرى فى أوربا الشرقية . وهذه الامارة يجب النظر اليها ضمن إطار التاريخ العثمانى .

أما إمارة (خانلق) قزان (١٤٣٧ - ١٥٥٦) التى تنحدر من فرع جوجى اولوصو لسلالة جنكيز فهى مثل إمارة قرم ، ظلت حتى عام ١٤٦٧ ، تحت سيادة

إمارة موسكو الكبرى . وحتى يتسنى لها الاستمرار فقد تبعت العثمانية لفترة من الزمن . لكنها تعرضت للاستيلاء الروسى . أما إمارة قاسم (قسيم) الصغيرة (١٤٤٥ - ١٦٨١) والتى كان حكامها من بنى جنكيز فقد تمكنت من الاستمرار بخضوعها إلى سيادة موسكو فى ١٥٠٦ رغم أن مدينة عرشها تقع على مسافة ٢٣٠ كم جنوب شرقى موسكو .

لم تتمكن إمارة آسترخان (١٤٦٦ - ١٥٥٧) - من بنى جنكيز كذلك ، رغم انها تبعت العثمانية لفترة - من صيانة ستقلالها تجاه الروس . وبذلك لم يكن الروس فى ١٥٥٦ - ٥٧ قد امتدوا بسهولة على ضفاف الفولغا فحسب بل كانوا قد تمركزوا فى دلتا الفولغا وتوصلوا إلى شمال بحر الخزر ، وان كانوا لايزالون بعيدين جدا عن البحر الأسود بسبب المانع العثمانى ، وعن البلطق بسبب المانع السويدى .

احتل خانات تمن Tumen (١٥٦٣ - ١٦٥٦) من بنى جنكيز سيبيريا الغربية ، مكان خانات قرغز (١٢٠٠ - ١٥٦٣) الذين سبقوهم وتعرضوا لاستيلاء الروس .

وقبل عدة سنوات من حلول عام ١٦٠٠ دخل الروس سيبيريا أو بالأحرى آسيا وامتدوا إلى المحيط ، وخلال قرن واحد ، أصبحوا جيران الصين فى الشمال .



الباب الثالث

تركية قبل العثمانية

٤٦) فتح الأتراك للأناضول :

كانت بعض الأقوام التركية قد غزت الأناضول قبل الإسلام ، فقد جاب الجنود الأتراك الذين دخلوا فى خدمة الخليفة العباسى بعد الإسلام بخيولهم سفوح جبال طوروس وسواحل الفرات عصورا طويلة لحساب بغداد . وفى هذه الفترة كانت الاناضول من جملة الأراضى البيزنطية (روما الشرقية) .

تمكن العرب من فتح جنوب شرقى الأناضول فقط ودعوة سكانها إلى الدين الإسلامى ، ومن الواضح انه لم يتسن القضاء على البيزنط .

أخذت السلالات العربية الحاكمة الصغيرة تتولى مهمة الغزو والجهاد ضد البيزنط والدفاع عن الحدود الإسلامية فى الأناضول ، بعد أن ضعفت الدولة العربية العالمية (العظمى) وفقد الخليفة سلطانه فى بغداد . وقد أهمل الهدف الذى كان قائما فى صدر الإسلام وهو جعل الأناضول أراضى إسلامية والانتصار على البيزنط ، والحقيقة ان ازدياد القوة العسكرية البيزنطية على أيام السلالة المكدونية ، وحملات الجيش البيزنطى المؤثرة على أعماق سوريا ، جعلا تحقيق هذا الهدف غير ممكن . ولكن الحقائق التاريخية تؤكد أن أول من فكر فى فتح الاناضول هم السلاجقة .

وفى ١٠١٥ ، أجرى سلجوق أوغلو جغرى بك أول حملة أناضولية تعرف فيها على مقاومة البيزنط فى الأناضول الشرقية ، وفى هذه الحملة هزم سلجوق أوغلو قتالمش بك الجيشَ البيزنطى فى حرب باسينلر Pasinler الميدانية قرب أرضروم ، وأسر القائد العام Liparit مع ١٠٠٠٠٠ بيزنطى (١٨ / ٩ / ١٠٤٩) ، وأرسل الامبراطور البيزنطى فدية إلى الخاقان الأكبر أرطغرل بك (وهو أخو جغرى بك وعم قتالمش بك) لاعادة Liparit . إلا أن أرطغرل بك أعاد الفدية ووعد باطلاق سراح لباريد مقابل إعادة فتح الجامع الذى أغلق فى استانبول لعبادة المسلمين المقيمين فيها ، وقد تم بالفعل فتح الجامع وتلى فيه اسم أرطغرل بك بعد اسم الخليفة العباسى .

جاء أرطغرل بك بنفسه إلى الأناضول فى ١٠٥٤ ، وأخذ قلعة بايبرت Bayburt ووقف أمام قلعة ملازغرت Malazgirt لكنه لم يوفق فى إسقاطها ، فعاد بعد تجواله حول محيط بحيرة وان .

قام ملوك السلاجقة وأمراء الأتراك بترتيب غزوات على الأناضول فى كل سنة تقريبا وأخذوا يتقدمون فى غزواتهم نحو الغرب .

كان هذا الوضع عند وفاة أرطغرل بك فى ١٠٦٣ ومجىء خلفه ابن أخيه سلطان ألب - أرسلان بن جاغرى بك .

أخذ أفشين بك أحد أمراء (بك) السلجوقيين ، قيصرى بعد أن هزم الجيوش البيزنطية فى ١٠٦٦ فى حصن منصور (آدى يامان) وفى السنة التالية قرب ملاطية . دخل أفشين بك التابع لأمر سليمان - شاه بن قتالمش بك الموجود فى آذربيجان ، إلى قونية فى ١٠٦٩ ، وبعد أن هزم فى السنة التالية قرب نهر قيزل ايرمق الأمير Manuel Komnenos تقدم إلى دنيزلى ، وأدخل وحداته الطليعية حتى بحر إيجه ومرمرة .

وبعد هذه الغزوات التى كسرت قدرة البيزنط الدفاعية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية ، أرسل افشين بك تقريره حول مواتاة الفرصة لفتح الأناضول إلى قائده سلجوق أوغلو سليمان - شاه والى الخاقان الأكبر السلطان ألب - أرسلان .

دخل ألب – أرسلان فى صيف ١٠٧٠ إلى الأناضول وأخذ مدينة ملازغرت ، وانتقل منها إلى عامد (دياربكر Diyarbakir) وبقى مدة فى هذه المدينة التى يحبها كثيرا . ورغم جهوده التى دامت مدة ٥٠ يوما ، لم يتمكن من إسقاط قلعة أورفه البيزنطية ، فجاء إلى حلب واستراح فيها وغادر الأناضول عن طريق عامد – بتلس – أخلاط ، مصمما على أن يعاود الكرة فى السنة القادمة .

٤٧) وقعة ملازغرت الميدانية (٢٦ آب ١٠٧١)

تقابل السلطان ألب – أرسلان ، وجيشه البالغ ٥٠٠٠٠ جندى مع جيش امبراطور البيزنط Romanos Diogenes البالغ عدده ٢٠٠٠٠٠ جندى أمام سفوح قلعة ملازغرت صباح يوم الجمعة الموافق ٢٦ آب . أباد السلطان ألب – أرسلان الجيش البيزنطى وأسر الامبراطور .

من بين أسباب الانتصار التركى ، تشكيل الجيش البيزنطى من عناصر متعددة لايعرف أحدها لغة الآخر ، وانتقال الوحدات الأجيرة الناطقة بالتركية كالبجنك Peçenek والأوز Uz التى لم تدخل الإسلام بعد – إلى صفوف السلاجقة قبل الحرب بمدة وجيزة ، كما أن مشاة البيزنط لم تدرك قصد مناورات الخيالة التركية والوحدات التركية التى استهدفت غش العدو . أمر السلطان ألب – أرسلان ابن أخيه قتالمش أوغلو سليمان – شاه بفتح الأناضول بعد واقعة ملازغرت .

تعد واقعة ملازغرت إحدى الحوادث الأم فى التاريخ ، التى أسفر عنها تحول الأناضول إلى أراض إسلامية ووطن ثان ، كما تعد هذه الواقعة كذلك إحدى الحوادث السياسية فى تأسيس الدولة التركية وتكوين الحملات الصليبية ، وعلى العموم يمكن النظر اليها على أنها كانت الحادثة التى هيأت الأسباب لولادة الدولة العالمية العظمى ، العثمانية .

(٤٨) تأسيس الدولة التركية (١٠٧٤) :

فتح الغازى سليمان – شاه الأناضول بسرعة . جاء إلى اسكدار وإلى الضفة الأناضولية من البوغاز واستشرف قبه اياصوفيا . أرسل السلطان ملكشاه بن ألب

أرسلان – الذى اعتلى العرش حديثا فى نهاية العام ١٠٧٤ – إلى سليمان – شاه منشور سلطنة الأناضول .

تأسست الدولة التركية وكانت مدينة العرش إزنك Iznik القريبة جدا إلى بحر مرمرة .

أخذ السلطان سليمان – شاه الأول مخرج البيزنط إلى أوربا تقريبا ، فاتح الأناضول ، بانى الدولة التركية وسلطانها الأول ، أنطاكيةَ من البيزنط (١٣ / ١٢ / ١٠٨٤) . جاء مئات الآلاف من الأتراك ، من الشرق واستوطنوا الأناضول مبتدئين بالمدن أولا ، مات سليمان – شاه (٥ / ٦ / ١٠٨٦) فى حرب مع ابن أخيه (سلطان قطلش بن ألب – أرسلان) قرب حلب . خلفه أبنه الطفل قيليج – أرسلان الأول .

كان سليمان – شاه قد ولى على أزمير التى فتحها .

يعتبر الأميرال جقا بك فى ١٠٨١ ، هو المؤسس لأول أسطول تركى فى التاريخ . ذلك أن الأتراك حتى ذلك التاريخ كان يشتهرون بقوة جيوشهم ، ولم يكونوا يهتمون بالبحر .

تعتبر تركيه هى الدولة الوحيدة التى اهتمت بالبحر. أمر جقا بك بصنع ٤٠ سفينة حربية فى أزمير ، فتح جزر ايجه (ساقز ، مديللى ، رودس ، سيسام .. الخ) .

٤٩) الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ – ١٠٩٩) وسلطان قيليج – أرسلان الأول (١٠٨٦ – ١١٠٧) :

تشير جميع الشواهد ومن بينها وصول الأتراك إلى المضائق : مرمرة وإيجه فى حملة واحدة ، إلى أنهم سوف يفتحون البيزنط وأن البيزنطيين سوف لا يتمكنون من صدهم ، قد ولد هذا الهياج فى أوربا . فالمرابطون فى أسبانيا والأتراك فى الأناضول قبضا على خناق أوربا من جانبيها وكانا يخنقان العالم المسيحى الذى كان متدهورا من الناحية الاقتصادية ، وقد ولد هذا الهياج فى أوربا ولذا تشكلت الحملة الصليبية الأولى .

جاءت القوة المسيحية التى تجمعت من هنا وهناك ، والتى تقدر بـ ١٥٠٠٠٠ شخص ، إلى منطقة قريبة من إيزنك مدينة عرش تركيا ، فأفناها السلطان قيليج - أرسلان . اتحدت الموجة الثانية من الحملة الصليبية الأولى ، التى تبلغ نحوا من ٦٠٠٠٠٠ مسيحى ، مع الجيش البيزنطى وعبرت إلى الأناضول . كانت الدولة التركية فتية جدا . لم يكن عمرها قد بلغ ربع القرن . ولم يكن من الصعب على قوة صليبية كهذه ان تقلع الأتراك من الأناضول وتخرجهم وتطاردهم حتى إيران . استسلمت إيزنك ونقلت العاصمة التركية إلى قونية . جابه السلطان قيليج - أرسلان ، الجيش الصليبى فى اسكيشهر (٣٠ / ٦ / ١٠٩٧) ، حيث جرى قتال دموى شديد ، لم يتمكن جيش السلطان من إفناء جيش العدو . استخدم البادشاه السلجوقى مع العدو حرب العصابات وكبدهم خسائر جسيمة .

خسر الصليبيون أثناء خروجهم من الأناضول نصف مليون شخص ، وتركوا الأناضول متوجهين لاحتلال أنطاكيا ، والقدس مع ١٠٠٠٠٠ شخص فقط . استرجع البيزنط الذين استفادوا من هذا الوضع من الأتراك كامل إيجه ومرمرة وسواحل البحرين الأبيض والأسود .

اضطرت الدولة التركية — التى أزيحت عن البحار — إلى الدخول فى صراع طويل الأمد لاستعادة منافذها على البحار .

تمكن قيليج - أرسلان الأول من الحفاظ على كيان واستقلال الدولة التركية .

أخذ الموصل ، ولكنه غرق أثناء عودته مع حصانه فى النهر ودفن فى ميافارقين (Silvan) . خلفه ابناه : السلطان ملك شاه (١١٠٧ - ١١١٦) ، وعلى أثر وفاته فى سن الـ ٢٠ خلفه مسعود الأول .

٥٠) السلطان مسعود الأول (١١١٦ - ١١١٥) والحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ٤٩)

جلس السلطان مسعود حفيد سليمان شاه الأول (الذى مات وعمره ٤١ سنة) ، وابن قيليج أرسلان الأول (الذى مات وعمره ٣٤ سنة) على العرش وهو فى الـ ١٨ من عمره ، فى الوقت الذى كانت لاتزال التأثيرات السيئة للحملة الصليبية الأولى مستمرة ، وكانت تركيا قد حرمت من النفاذ إلى البحار ، وكانت

الدولة اللاتينية (الكاثوليكية) التى تكونت فى الأناضول ، سوريا ، وفلسطين ، قد أصبحت بلاء مسلطا على العالم الإسلامى ، فقد اكتسب البيزنط قوة وباتوا ينتظرون الفرصة المناسبة .

قَدِمْ عشرات الألوف من الأتراك سنويا من الشرق وسكنوا فى الأراضى الأناضولية ، وكان الإقطاعيون الأتراك فى الأناضول الذين يعترفون بتبعيتهم للدولة السلجوقية الأناضولية ، أى للسلطنة التركية ، قد أصبحوا وكأنهم حكام مستقلون . وخلال هذه الأزمة ، تكونت الحملة الصليبية الثانية .

تقدم امبراطور ألمانيا Konrat الثالث مع جيشه البالغ ٧٥٠٠٠ شخص إلى حدود سهل قونيه . أفنى مسعود الأول الصليبيين الذين اصطدم معهم فى الحرب الثانية الميدانية اسكيشهر (٢٥ / ١٠ / ١١٤٧) . لجأ الامبراطور مع ٥٠٠٠ من جنده إلى إيزنك . دخل الأناضول بعده ملك فرنسا لويس ٧ مع ١٥٠٠٠٠ جندى ، ولما لم يكن جيش السلطان مسعود بالعدد الذى يمكنه من التغلب على هذه القوة فى معركة ميدانية ، فقد فضل الانسحاب علي احتمال التفريط فى مستقبل دولة تركيه الفتية ، ومارس حرب العصابات مع الصليبيين أثناء اجتيازهم جبال طوروس وكبدهم خسائر فادحة .

انسحب ملك فرنسا من الأناضول . توفى مسعود الأول بعد سلطنة دامت ٣٩ سنة وعمره ٥٧ سنة ، فخلفه ابنه قيليج – أرسلان وعمره ٣٩ عاما وهو خامس حكام تركيا .

٥١) قيليج أرسلان الثانى (١١٥٥ – ١١٩٢) ، مريوكفالون (١١٧٦) والحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ – ١١٩٢)

أخضع السلطان قيليج أرسلان الثانى الأمراء الاقطاعيين فى الأناضول تحت سيطرته وألغى وصفى بعض الاقطاعيات واستخدم سياسة إعمارية واسعة فى الأناضول .

تمكن بسياسته الحكيمة من إسكان ملايين الأتراك الذين قدموا إلى ذلك التاريخ ، فعمرّ المدن الصغيرة الفقيرة وحولها إلى مدن كبيرة .

بدأ البيزنط الذين شاهدوا تزايد قوة تركيا الفتية واستيطانها فى الأناضول ، بصورة تامة ، باتخاذ التدابير .

دخل الامبراطور Manuel Komnenos الأراضى التركية . واجه قيليج أرسلان الجيش البيزنطى فى موقع مريو كفالون Miryokefaion على مقربة من شمال بحيرة اغريدر Egridir وهزمه شر هزيمة (١٧ / ٩ / ١١٧٦) .

أمر الخليفة فى بغداد بإقامة احتفالات كبيرة والدعاء لأرواح الشهداء الأتراك فى خطبة الجمعة .

أصبح من الثابت عدم إمكان هدم الدولة التركية وعدم إمكان إزاحة الأتراك من الأناضول ، ولم يحاول أحد بعد ذلك التاريخ أن يقوم بشىء من هذا القبيل .

لكن موجات الحملة الصليبية الثالثة . اصطدمت بالأناضول مرة أخرى ، وذلك عندما دخل امبراطور ألمانيا فريدريك باربروسا Friedrich Barbarossa الأناضول مع ٢٠٠٠٠٠ جندى ومعهم ٤٠٠٠٠٠ من شذّاذ الآفاق ، وجاء إلى قونية . وبعد أن تكبد خسائر جسيمة ، تقدم فى سواحل البحر الأبيض ومات غرقا فى النهر ، وبقى فى الأراضى الأناضولية ، وبينما انشغل السلطان التركى ى دفن الامبراطور الألمانى ، كان صلاح الدين الأيوبى يقاتل ملوك إنجلترا وفرنسا فى فلسطين .

٥٢) أبناء قيليج أرسلان الثانى (١١٩٢ - ١٢١١)

توفى قيليج أرسلان الثانى وهو فى سن ٧٦ ، فخلفه أصغر أبنائه كيخسرو الأول (١١٩٢ - ١١٩٦) ، ثم كبير أبنائه سليمان شاه الثانى (١١٩٦ - ١٢٠٤) ، وعلى أثر وفاته — وهو فى سن ٥٤ — اعتلى العرش كيسخرو الأول مرة أخرى (١٢٠٥ - ١٢١١) ، حيث استشهد وهو يجابه البيزنط وعمره ٤٢ سنة . ولقد اقتفى هذان الحاكمان المهمان أثر أبيهما فى إزاحة بيزنط من الأناضول على قدر الإمكان ، كما نفذا إلى سواحل البحر الأسود مرة أخرى ، وعلى رأس المنافذ التى حازاها مدينة صصون .

٥٣) كيكاووس الأول (١٢١١ - ١٢١٩) وعلاء الدين كيكباد (١٢١٩ - ١٢٣٧) :

جلس على العرش التركى بعد غياث الدين كيخسرو الأول ، السلطانان التاسع والعاشر فى التاريخ التركى ، وهما أكبر أبنائه عزالدين كيكاووس الأول وعلى أثر وفاته فى سن ٣٥ أعتلى العرش أخوه علاء الدين كيكباد .

استولى كيكاووس على سينوب وأسس فيها معملا للسفن وأسطولا للبحر الأسود . أصبحت امبراطورية طرابزون البيزنطية تحت السيادة التركية . يطلق على أخيه السلطان كيكباد لقب « علاء الدين الكبير ، علاء الدين المعلى » وهو فى تركيا السلجوقية ، بمثابة السلطان سليمان القانونى فى تركيا العثمانية . امتاز عهده بالرفاهية وزيادة العمران وتطور التجارة وتنمية الصناعة وتقدم الزراعة استطاع أن يجعل من تركيا أغنى بلد فى العالم . وقد كان ذلك بسبب سياسته العسكرية الراجحة ودبلوماسيته المتفوقة .

أرسل أسطولا إلى قرم وأخضعها للسيادة التركية ، وارتبطت الملكية الأرمنية فى كليكيا ، بقونية بروابط اكثر متانة ، كما قوى السلطان علاء الدين علاقته بالعالم الإسلامى بمصاهرته السلطان الأيوبى الملك العادل .

ألغيت الامارات الاقطاعية التركمانية فى الأناضول واستعيض عنها بإدارات من الولاة يتم تعيينهم مركزيا .

أخذت من البيزنط جميع سواحل البحر الأسود المنحصرة بين أركلى وأونيه (كانت السواحل البيزنطية تبدأ اعتبارا من غرب قره دنيز اركليسى وسواحل امبراطورية الروم فى طرابزون شرقى اونيه)تم اخضاع امبراطورية طرابزون للسيادة التركية ، وارتبطت بها بروابط متينة .

خلال هذه الأيام ، وكمغامرة دخل خاقان أتراك الشرق (تركستان) جلال الدين خوارزم شاه إلى الأناضول ، فخرج إليه خاقان أتراك الغرب (تركية) وقابله قرب ارزنجان وأخرجه من الأناضول (الحرب الميدانية ياصى جمن ١٠ / ٨ / ١٢٣٠) . وفى هذه الحرب ، كان بك أخلاط أرطغرل بك موجودا فى جيش علاء الدين كيكباد أى فى الجيش التركى . ارطغرل بك هو أبوعثمان غازى الذى

يعتبر مؤسس الدولة العثمانية . وقد وضع السلطان السلجوقى حجر أساس الدولة العثمانية بمنحه ارطغرل أراضى على الحدود البيزنطية ، مكافأة لخدماته فى هذه المعركة .

وصل السلطان علاءالدين إلى أرضروم . أعلن ملكا حلب والشام الأيوبيان ، إنهاء تبعيتهما للسلطان الأيوبى فى مصر وأعلنا خضوعهما للسلطان علاء الدين كيكباد .

استولى علاء الدين الذى اتخذ لقب « سلطان الأعظم » وأعلن أنه الخلف الشرعى للسلطانين الأيوبى والسلجوقى على سواحل البحر الأبيض اعتبارا من خليج فينيقيا Finike نحو الشرق . وأسس فى علائية (آلانيا) مصنعا للسفن وأسطولا للبحر الأبيض . أخضع المناطق المحيطة ببحيرة وان ، وقبل تابعية آتابك الموصل وأربيل . كان ملوك الأيوبيين فى ميافارقين (Silvan) وحصن كيفاء (Hasankeyf) وملوك أرتقلو فى ماردين تابعين لقونية .

اضطرب السلطان الأيوبى – الأكبر فى مصر ، استصحب معه ١٦ ملكا أيوبيا وحاول دخول الأناضول مع ١٠٠٠٠٠ شخص ولكنه خسر وانسحب ، صادق الخليفة العباسى فى بغداد بصورة رسمية على لقب السلطان الأعظم « أعظم سلطان إسلامى » ، الذى أطلق على علاء الدين . فى نفس الوقت شعر البادشاه العثمانى باقتراب الخطر المغولى فرفع ميزانية الدفاع السنوية إلى ١٠٠ مليون دينار ذهبى ، وكانت هذه أكبر ميزانية عسكرية فى العالم . مات مسموما وعمره ٤٥ سنة . ولم يفلح السلاجقة بعد ذلك ، وبدأ الانحطاط فى فترة غير متوقعة أبداً ، مع مجيء ابنه الذى خلفه غياث الدين كيخسرو (١٢٣٧ – ١٢٤٦) .

٥٤) بنو سلجوق الأخيرون (١٢٣٧ – ١٣٠٨) :

آخر خاقانات تركية من بنى سلجوق هم كيكاووس الثانى (١٢٤٦ – ١٢٥٦) (١٢٥٧ – ١٢٦١ وفاته ١٢٧٨) بن كيخسرو الثانى ، ثم ابنه قيليج أرسلان الثالث (١٢٥٦ – ١٢٥٧) (١٢٦١ – ١٢٦٦) ، ثم ابنه كيخسرو الثالث (١٢٦٦ – ١٢٨١ – وفاته ١٢٨٣) ، وكيكباد الثالث (١٢٩٧ – ١٣٠٢) وغياث الدين مسعود الثانى . توفى مسعود الثانى (١٢٨١ – ١٢٩٧) (١٣٠٢ – ١٣٠٨) بن كيكاووس الثانى وعمره ٥٠ سنة فى سراى قيصرى .

كان من أهم أسباب تهيئة الجو لاضمحلال الدولة التركية الاستيلاء المغولى ، بالاضافة إلى عدم كفاءة السلاطين ، وقلة الوزراء الحريصين ، وقلة المخلصين منهم .

وكذلك الحكام الذين ارتقوا العرش وهم فى سن الطفولة .

فر الجيش السلجوقى أمام الجيش المغولى فى كوسه داغ شرقى سيواس (٣ / ٧ / ١٢٤٣) ، ولكنه لم يدخل تحت سيطرة المغول حتى ١٢٧٦ . حيث سقط تحت سيطرة المغول (الايلخانيين) التامة اعتبارا من ١٢٧٦ واستولى المغول على الأناضول .

٥٥) الدولة التركية فى الأناضول فى عهد السلاجقة :

عاشت بعض الدول التركية التابعة لخاقانية تركية التى سلف وصفها فى الأراضى الاناضولية تحت سيطرة السلالات التركمانية : بنى دانشمند (١٠٩٥ – ١١٧٥) . [الذين اتخذوا مدن نكسار ، ملاطية ، قيصرى ، سيواس كعواصم] ، وبنى سلتوق Saltukogullari (١٠٨٠ – ١٢٠١) فى أرضروم ، وبنى منكجك Mengucekogullari (١٠٧١ – ١٢٥٢) [الذين اتخذوا مدن ارزنجان ، كماه ، ديوريكى عواصم] ، وبنى سكمن Sokmenogullari (١٠٩٨ – ١٢٣١) بنى ارتق Arlukogullari (ينتسب إلى هذه السلالة بلك بك المشهور الذى سقط شهيدا فى جهاده ضد الصليبيين) وايلغاز (١١٠٤ – ١٤٠٧) فرع بنى ارتق فى ماردين ، بنى سكمن (١١٨٥ – ١٢٣٣) فرع بنى ارتق فى خربوتة ، وملوك الأيوبيين (١٢٠٠ – ١٢٥٩) فى ميافارقين (حاليا سلفان) ، وأتابكات آخلاط (١١٠٠ – ١٢٠٧) الذين يطلق عليهم اسم أرمن – شاهيّون ، واتابكات دياربكر (١٠٩٥ – ١١٨٣) الذين يطلق عليهم اسم بنى اينان ، والسوتاى (١٣١٢ – ١٣٥٠) الذين اعقبوهم فى عامد (اسمها الحالى دياربكر) . واكثرية هؤلاء قضى عليهم السلاجقة .

٥٦) الإمارات الأناضولية :

تزايد الأمراء التركمان الذين يطلق عليهم اسم أوج بك (أمراء الايالات الحدودية) بعد خضوع الامبراطورية التركية لسيادة الايلخانيين واسس كل منهم

سلالة حاكمة أدت دورا فى صيانة الحدود التركية - الإسلامية تجاه البيزنط والمسيحيين فى الأناضول الغربية ، وقد كان هؤلاء حتى عام ١٣٠٨ أمراء تابعين لسلطة البادشاه المقيم فى قونية (وأحيانا فى قيصرى) .

لم يتوج الايلخانيون بعد وفاة مسعود الثانى فى ١٣٠٨ ، ملكا سلجوقيا على العرش التركى ، وإنما كان آمراء (بكّات) التركمان هؤلاء يتبعون ايلخان المقيم فى تبريز مباشرة ، وتحت رقابة والى الأناضول العام الايلخانى المقيم فى أناضول الوسطى أو الشرقية .

دام هدا الوضع حتى عام ١٣٣٥ ، وعندما بدأت الدولة الايلخانية فى الانهيار (انهارت تماما فى ١٣٤٤) ، صارت الامارات الأناضولية مستقلة تماما . انقسمت الأناضول إلى دول متعددة وأصبحت مشابهة لألمانيا القرون الوسطى .

وهكذا انفصم الاتحاد التركى ، واستمر الوضع على هذا المنوال حتى مجىء العثمانية واخضاع هذه الامارات والقضاء عليها الواحدة تلو الأخرى .

من ناحية أخرى كانت هنالك فى الأناضول ، أراضٍ لدول أخرى أيضا ، مثل مناطق : انطاكية ، عنتب ، مراش ، ملاطية ، حصن منصور (حاليا آدى يامان) ، كانت تابعة لمماليك مصر - سوريا ، واقصى الأناضول كان تابعا للجلائريين الذين خلفوا الايلخانيين ، ولاصحاب الخرفان السود ، ولاصحاب الخرفان البيض وإلى ملوك الارتوقيين والأيوبيين الذين يبقون على كيانهم ، وكانت الامبراطورية الرومية قائمة فى مناطق طرابزون ، ريزه ، أرتفين ، والموانىء كاماسرا ، صمصون ، بيغا كانت فى حوزة الجنويين . أما البيزنط فقد بقيت لهم أراض قليلة فى الأناضول ، إذ إن السلالات التركمانيةفى الأناضول الغربية ، فتحت الأناضول الغربية واخرجت البيزنط منها كما اخرجتهم من البحر الأبيض وايجه . ان إمارات بنى بروانه **Pervaneogullari** (١٢٧٧ - ١٣٢٢) ، بنى جوبان **çobanogullari** الأمير الكبير لقطاع شمال الأناضول الغربية المتاخم لحدود البيزنط فى قسطمونى (١٢٠٤ - ١٣٢٠) ، ارتنا أوغللرى Eretnaogullari فى سيواس وقيصرى (١٣٢٧ - ١٣٨٠) وقاضى برهان الدين الذى احتل مكانهم وأسس دولة قوية فى القطاع الشرقى من أناضول الوسطى (١٣٨٠ - ١٣٩٨) - لاتعتبر من الامارات التركمانية الأصلية للأناضول الغربية .

أهم السلالات التركمانية الأصلية التى سميت الامارات الأناضولية باسمها هى :
بنو قرة مان (١٢٥٠ - ١٤٨٧) الذين اتخذوا بين فترة وأخرى مدن أركلى ، أرمنك ، لارندة (حاليا قرة مان) وقونية .. عواصم لهم . اشتهر قره مان أوغلو محمد بك الأول باعلانه فى ١٣ آيار ١٢٧٧ فى مدينة قره مان ، اللغة التركية ، اللغة الرسمية الوحيدة المعتبرة . حيث قد أكثر بنو سلجوق من استعمال الفارسية فى الشعر والعربية فى المعاملات الرسمية ، ولم يكن للشعب معرفة بهاتين اللغتين .

بلغ الحد الأقصى الذى توصل إليه توسع بنى قره مان (نحو ١٣٦٠) ١٠٠٠٠٠ كم٢ تقريبا . وقد عاشوا مدعين انهم الورثة الشرعيون للسلاجقة وإن كانوا لم ينجحوا فى جعل هذا الإدعاء مقبولا .

بنوجرميان Germiyanogullari (١٢٦٠ - ١٤٢٩) ، وهؤلاء كانوا أمراء حدود كبارا للقطاع الجنوبى من الأناضول الغربية المتاخم للبيزنط . قاعدتهم كوتاهية ، حدهم الأقصى فى التوسع هو ٤٤٠٠٠ كم٢

بنو قراسى Karasiogullari (١٣٠٣ - ١٣٤٥) ، أقصى ماحكموا من الأراضى ٢٤٠٠٠ كم٢ . مركزهم بالكسير . قواعد بنى آيدن Aydinogullari (١٣٠٠ - ١٤٥٥) هى آيدن (قديما كوزل حصار) ، برغى ، أيا سلوغ وزامير ، أقصى مساحة توصلوا إليها ٢٠٠٠٠ كم٢ . وقد أسس آيدن أوغلو غازى عمر بك أسطولا كبيرا وسيطر على بحر إيجه . وحقق هجمات بحرية كثيرة على الجزر واليونان ، وتراقيا وأنزل فيها جيوشه ، واستشهد فى أزمير أمام الصليبيين فى ١٣٤٨ .

بنو صاروخان Saruhanaogullari (١٣٠٠ - ١٤١٠) ، بلغت مساحة مملكتهم ١٤٠٠٠ كم٢ ، قاعدتهم مانسيا .

بنو منتشه (١٢٨٠ - ١٤٢٦) أقصى مساحة توصلوا اليها فى حكمهم ٢٣٠٠٠ كم٢ فى بجين وبالاط ، استمر حكمهم فى ولاية مغلا الحالية .

بنو أشرف Esrefogullari (١٢٨٠ - ١٣٩١) ١٦٠٠٠ كم٢ ، قواعدهم أولوبورلو ، أغريدر ، حامد آباد (حاليا اسبارطه) وأحد فروعهم بنو تكه Tlekeogullari (١٣٠٠ - ١٤٢٣) ١٤٠٠٠ كم٢ فى أنطالية وقور قودايلى .

بنو اينانج Inançogullari (١٢٧٦ - ١٣٦٨) ، فى لادك (حاليا دنيزلى) ٨٠٠٠ كم[٢] وهم فروع من بنى كرميان .

ومن الإمارات التى تستحق الذكر الإمارة التى سميت فى البداية جاندار أوغللرى ثم اسفنديار أوغللرى (١٢٩١ - ١٤٦١) وسعتها العظمى ٥٠٠٠٠ كم[٢] قواعدها افلانى ، قسطمونى وسينوب .

تاج الدين أوغللرى (١٣٠٨ - ١٤١٥) بلغت سعتها العظمى ١٢٠٠٠ كم[٢] قاعدتها نكسار .

قوتلوشاهلر (١٣٤٠ - ١٣٩٣) ، سعتها العظمى ٥٠٠٠ كم[٢] فى آماسيا .

راحت أوغللرى ، فى سيواس خلال القرن ١٣ - ١٤ .

جمهورية آخيلر فى أنقرة (١٢٩٠ - ١٣٥٤) .

بنو دلقادر Dulkadirogullari (١٣٧٧ - ١٥٢٢) حدها الأعظم فى الاتساع ٧٠٠٠٠ كم[٢] فى البستان وقد تبعت المماليك حتى ١٣٩٩ ، وبعدها تبعت العثمانية ، دام حكمهم على شكل إمارة حاجزة بين الدولتين الكبيرتين . تصاهر دلقادر أوغللرى مع العثمانيين بعدد كبير كبنى جاندار وبنى قرة مان . وعلى سبيل المثال فإن عائشة خاتون والدة السلطان سليم الذى أدمج السلطنة المملوكية فى الدولة العثمانية ، أميرة دلقادرية .

بنو رمضان Ramazanogullari (١٣٥٢ - ١٦٠٨) ، إمارة أخرى حاجزة بين المماليك والعثمانية . حدها الأعظم فى الاتساع ٣٣٠٠٠ كم[٢] ، حكمت فى البستان وبعد ١٣٨٣ فى أدنة . سيطرت على جقوراوفا . خضعوا للمماليك حتى عام ١٥١٦ . استمروا بعد ذلك كولاة للعثمانية .

استمرت هذه الإمارات بدخول معظمها فى خدمة العثمانية ، ولايزال بعضها الآخر مستمرا حتى يومنا هذا .

٥٧) الحياة الثقافية فى تركيه السلجوقية :

عاش كل من مولانا جلال الدين الرومى (١٢٠٧ - ١٢٧٣) ، وحاجى بكتاش ولى (١٢٠٩ - ١٢٧١) ، ويونس أمره (١٢٤٠ - ١٣٢٠) فى تركيا

السلجوقية . تأسست فى الأناضول فى هذا العصر طريقتان كبيرتان كالمولويه والبكتاشية تخاطب إحداهما المثقفين وتخاطب الأخرى الشعب .

جادت قريحة يونس امره بأجمل نماذج الشعر الصوفى ، ومن الناحية الأخرى نشأ وتطور الشعر الكلاسيكى التركى ، ويعتبر دهانى أكبر شاعر كلاسيكى تركى فى القرن ١٣ ، وقد جاء من خراسان ، وسكن فى قونية .

أما المؤسس الحقيقى للطريقة المولوية فهو سلطان ولد (١٢٢٦ - ١٣١٢) ابن مولانا ، ويعتبر عاشق باشا (وفاته ١٣٣٧) من بين الشخصيات الممتازة التى كتبت الشعر الصوفى التركى .

نصر الدين خوجا (خواجا نصر الدين) (١٢٠٨ - ١٢٨٤) الذى يعتبر داهية المزاح التركى ، من رجال العصر ذاته .

أحمدى (١٣٣٤ - ١٤٣٣) من الذين نهضوا بالشعر الكلاسيكى وخاصة فى أغراض الغزل والمثنوى .

وأخيرا ، نسيمى الذى أعدم فى السنوات الأولى للقرن ١٥ لكونه حروريا . من أصحاب الشعر الصوفى الوجدانى الذين ظلت اشعارهم تتلى فى العالم التركى لعصور طويلة .

وكتاب ده ده قورقود الجامع والذى يحتوى على ١٣ حكاية ملحمية يعتبر من روائع الأدب التركى الكبرى ، وقد حرر باللغة الكتابية فى أواخر القرن ١٥ ، غير أنه مشبع بعناصر التراث .

كان الأتراك الذين استوطنوا فى الأناضول وأسسوا الدولة التركية ، ينطقون بلهجة أوغز (أو الغرب) التركية . انقسمت هذه اللهجة فى أواخر القرن ١٥ إلى ٣ لهجات : اللهجة العثمانية أو الأناضولية أو التركية ، اللهجة الآذرية ، واللهجة التركمانية . أما لهجة أتراك الشرق الأدبية ، فكانت لهجة جغتارى ، واستعملت حتى نهاية القرن ١٩ .

وقد كونت اللهجات المحلية كذلك ، أدبا جديدا فى القرن ١٩ . وحتى العصر ١٥ ، سميت اللغة المستعملة فى الأدب التركى فى تركيا (لغة) أناضول القديمة ثم التركية (اللغة) العثمانية .

لقد حاولنا فيما تقدم أن نرصد ونوضح الخطوط الرئيسية للتاريخ التركى غير العثمانى ، ولاشك فى أن ذلك يمثل فائدة ، بل مدخلا ضروريا هاما قبل البدء في تناول التاريخ العثمانى . وتزداد هذه الفائدة والضرورة وضوحا بالنسبة للقراء الأجانب والمثقفين .

مصادر الكتب . إن مصادر الكتب بالنسبة للدول التركية الإسلامية ، متنوعة جدا وغنية جدا ، ولعدم تعلقها بموضوعنا فقد تحاشينا كتابتها . ومعظم المصادر لفترة قبل العثمانية من تاريخ تركية مدون باللغة العربية الفارسية واليونانية ، أما البحوث فمعظمها باللغة التركية ، وهى عبارة عن الكتب التى نشرت فى السنوات الأخيرة . وسوف تأتى مصادر الكتب لفترة تركية قبل العثمانية فى نهاية كتابنا ضمن مصادر العثمانية وضمن بحث بداية العثمانيين .





المبحث الثاني

ظهور العثمانية وتطورها

(١٤٥٣ - ١٢٣١)

ظهور العثمانية وتطورها
(١٢٣١ - ١٤٥٣)

١) منشأ بنى عثمان :

أرطغرل بك هو الشخصية الأولى – التى لدينا معلومات تاريخية عنها – من الأسرة التى سميت فيما بعد « عثمان أوغلو » (بنوعثمان) .

أرطغرل بك هو : أرطغرل بن كندز ألب بن قايا ألب بن كوك ألب بن صارقوق ألب بن قايى ألب . وهذه هى شجرة أرطغرل بك الافتراضية ، ومن المعلومات المؤكدة انه ينحدر من القبيلة الأولى من قبائل أوغز البالغة ٢٤ ومن عائلة بكات إحدى عشائر قايى التى تعتبر سلالة خاقانية ، ومن المعلومات المؤكدة أيضا أن أباه وأجداده هم بكات (أمراء) هذه العشيرة . ومذهب الأسرة هو المذهب السنى الحنفى .

يقال أن القصة التى شاعت أخيرا حول أن أول من اعتنق الإسلام من الأسرة هو أرطغرل بك وابنه عثمان بك ، قصة قد لفقت لاعلاء شأن العائلة .

من المحتمل أن قبيلة قايى ، التى تحتل الدرجة الأولى بين أجداد بنى عثمان ، هى من الأوغز Oguz الذين استوطنوا فى الأناضول الشرقية بعد انتصار ملازغرت مباشرة فى ١٠٧١ . إن الفرضية التى تقول بأن الاستيطان حدث نحو ١٢٢٠ على أثر زحزحة جنكيز الأوغزيين المقيمين فى الوطن الأعلى (تركمنستان الحالية وشمالها) من أماكنهم وإجباره إياهم على الفرار إلى الأناضول عن طريق إيران ، هى فرضية غير صحيحة ، حيث إن أجداد بنى عثمان سكنوا مدة طويلة فى أخلاط .

والمعروف أن بنى سلجوق عندما انتقلوا من ماوراء النهر إلى خراسان نحو عام ١٠٤٠ ، جاءت قبيلة قابى خان كذلك إلى ماهان جوار مرو . ويفترض أن هذه القبيلة قد انتقلت بعد ١٠٧١ إلى الأناضول الشرقية ، ومن المحتمل أن قابى آلب جد أرطغرل غازى كان على رأس قبيلة قابى عند القدوم إلى الأناضول (إذا كانت ولادة أرطغرل غازى فى ١١٩١ ، فإن الأمر يقتضى أن تكون ولادة قابى ألب فى ١٠٢٤) .

ومن حيث شجرة الأنساب العثمانية الرسمية ، فإن عثمان غازى بن أرطغرل غازى ، هو حفيد مته الذى يطلق عليه الأتراك اسم « أوغز خان » فى البطن الـ ٤٦ ، وبذلك يكون قابى ألب حفيده فى البطن الـ ٤٠ ، وإذا كان فرق السنين بين ولادة مته وعثمان غازى نحو ١٥٠٠ عام ، وإذا قسمت هذه المدة على ٤٦ يكون الناتج ٣٢,٥ سنة (١٥٠٠ ÷ ٤٦) فإن ٣٢,٥ سنة تعتبر مدة مثالية لنسل (بطن) واحد . (وفاة مته ، ١٧٤ ق . م) .

والمعروف أن عشيرة قابى قد سكنت فى المراعى المجاورة لاخلاط وأن هناك أحجارا وقبورا كثيرة لأجداد بنى عثمان الذين هم أمراء (بكات) عشائر قابى .

أخلاط قصبة تركية وبلدة مهمة من بلدان القرون الوسطى تقع على الساحل الشمالى - الغربى من بحيرة وان الكبرى فى شرق الأناضول (حاليا مركز قضاء فى ولاية بتلس) .

إن اسم والد أرطغرل بك هو كندز ألب ، ويبدو أن الروايات التى تقول بأن هذا الاسم هو سليمان شاه ، ضعيفة . والأرجح أن سليمان شاه هو ذكرى باقية من اسم فاتح الأناضول ومؤسس الدولة التركية ومن اسم أول سلطان لها ، وأن التفكير فى هذا الاسم قد نشأ ليكون اسما يربط بنى سلجوق ، ببنى عثمان ، خاصة أن بنى عثمان قد ظهروا على مسرح التاريخ مدعين أنهم الخلفاء الشرعيون لبنى سلجوق .

ومن المحتمل كذلك أن كندز ألب كان أميرا من الدرجة الثانية فى خدمة الملك المنصور ناصر الدين ارتق أرسلان ، الملك السادس لبنى ارتق ماردين . ومن المعلوم أن بنى ارتق أيضا ينحدرون كبنى عثمان من قبيلة قابى . ويحتمل أن قابى

بك جاء إلى الأناضول كأحد أمراء اكسيك أوغلو ارتق بك أحد فاتحى الأناضول .

وتدل المعلومات على أن عشيرة قايى قد تحركت من أخلاط نحو عام ١٢٢٩ ، ثم تركت أخلاط إلى جهة أخرى ، ومع أننا لانعرف سبب ذلك ، فإنه يحتمل أن لذلك علاقة بالاضطراب الذى أحدثه الاجتياح المغولى الذى وصل حتى أبواب الأناضول . يائرى هل دعيت العشيرة تحت قيادة كندز ألب بأمر من ارتق أرسلان الأمير الارتقى فى ماردين للانضمام إلى الجيش الارتقى للدفاع عن ماردين دون المغول أو جلال الدين خرزم شاه أو أيوبيى حلب ؟ ان احتمالا كهذا وارد كذلك . (المسافة بين أخلاط وماردين ، عبارة عن ٢٠٠ كم) .

ونحن لانعلم كذلك سبب هبوط كندز ألب من حوض بحيرة وان إلى حوض نهر دجلة ، ومجيئه من ماردين إلى مسافة ٢٥٠ كم (مسافة مستقيمة) إلى جوار قلعة جابر نحو الجنوب – الغربى من سواحل الفرات . يحتمل أن ذلك كان بناء على أمر من الملك الأرتقى ، خاصة أن من المؤكد أنه كانت هناك علاقة بين جابر وبنى عثمان .

أما بالنسبة للرواية الكلاسيكية التى تقول بغرق سليمان شاه أبى أرطغرل بك بحصانه أثناء عبوره الفرات قرب جابر ، فإنه لايمكن القطع بها ؛ فمنطقة جابر هذه تقع بين رقه ومسكنه ، وهذا المكان ليس بعيدا عن المكان الذى سقط فيه قتيلا فاتح الأناضول سلجوق أوغلو سليمان شاه (٥ حزيران سنة ١٠٨٦) ، كما أن قيليج أرسلان الأول بن سليمان شاه ثانى سلاطين تركيا ، قد غرق كذلك مع حصانه فى خابور رافد دجلة فى شرق تلك المنطقة أثناء عودته من الموصل (تموز ١١٠٧) ، ومن الأمور المحتملة كذلك أن يكون مبعوث كندز ألب قد هاجم الأيوبيين فى حلب وغرق فى النهر أثناء ذهابه إلى تلك المنطقة .

على كل حال فإنه من المعلوم أن الفرنسيين قد وافقوا على ترك الموقع المسمى تورك مزارى أى « القبر التركى » – قرب جابر ، للأتراك فى معاهدة لوزان ١٩٢١ ، ١٩٢٣ على الرغم من أنه يقع داخل الأراضى السورية ، كما سمح الفرنسيون للأتراك بحق رفع العلم التركى على هذا الموقع وحراسته بجنود أتراك .

إن قصة جابر مازالت قصة لايمكن القطع بصحتها ومن المحتمل أن تكون

القصة برمتها قصة ملفقة ، وعندئذ تكون عشيرة قابى قد جاءت من أخلاط رأسا إلى الشمال الشرقى إلى ارزنجان التى تبعد عنها ٢٧٠ كم .

وعموما فإن تمحيص الموضوع يمكن أن يوصلنا إلى نتيجة تبدو أكثر صحة وأقرب إلى المنطق ، فضلا عن أنه يمكن استنباطها من جميع الروايات التاريخية . تلك هى أن اسم أبى أرطغرل غازى على الأرجح هو كوندز ألب وان هذا الشخص توفى فى ١٢٣٠ أو نحو ذلك وترأس العشيرة بعده أرطغرل بك .

يقال إن أرطغرل غازى من مواليد ١١٩١ . وبذلك يكون عمره فى عام ١٢٣٠ ، ٣٩ وهى سن نضج . نجد أرطغرل فى الشمال على مقربة من ارزنجان التى تقع على مسافة ٤٣٠ كم من جابر . أكثر مما نجده فى ضفاف الفرات وسوريا .

يلاحظ أنه فى ١٠ آب ١٢٣٠ كانت ارزنجان ميدانا لإحدى أكبر الحروب فى القرون الوسطى ، حيث تقابل الجيشان الأخوان التركيان ، السنيان - الحنفيان : عندها اجتاز السلطان جلال الدين خاقان الترك الشرقيين وآخر سلطان خرزم - شاهى الذى طرده المغول من أراضى أجداده فى تركستان - حدودَ سلطنة تركية ودخل الأناضول وأخذ يتقدم فيها غير مبال بنصيحة السلطان علاء الدين كيكباد ، والتقى بجيش علاء الدين الكبير قرب ارزنجان حيث انكسر وترك أراضى الدولة التركية وابتعد عنها .

وقد يجدر أن نضيف إلى ما تقدم أن علاء الدين الكبير عندما دعا محاربين كثيرين للانضمام إلى الجيش الأناضولى ، كان من بين من سارع بتلبية هذه الدعوة أرطغرل وعشيرة قابى ، حيث شاركوا فى حرب ياصى جمن **Yassicemen** ، وهى حرب مهمة فى التاريخ التركى .

وتعتبر هذه من الحقائق التاريخية المستنبطة من الحكاية الموضوعة لاكساب السلالة العثمانية شرف الانضمام إلى الجانب السلجوقى وتأمين انتصار علاء الدين الكبير .

ومن الأمور المؤكدة أن أرطغرل غازى وعشيرة قابى قد اكتسبوا تقدير البادشاه التركى ، وكوفئوا على ذلك بتمكينهم من الحصول على أراض فى الغرب على

الحدود البيزنطية . ومما لاشك فيه أن أرطغرل بك لم يعامل كأحد الأمراء الكبار المرتبطين بالحاكم التركى وبقونيه . حيث يبدو أن عدد عشيرته لم يكن كبيرا جدا ، ولكن البادشاه السلجوقى منح أرطغرل غازى بك قطاعا حدوديا صغيرا جدا ليتمكن من صيانة الحدود وتوسيعها واعطى أرطغرل غازى لأمر أمير بنى جوبان ، الأمير الأكبر القطاع الشمالى من الحدود البيزنطية .

وهكذا أستوطن أرطغرل بك وعشيرة قابى فى القسم الشمالى - الغربى من الأناضول . وقد كان ذلك فى عام ١٢٣١ على أرجح الأقوال .

٢) أرطغرل بك (١٢٣١ - ١٢٨١) :

قطع أرطغرل بك من ارزنجان نحو الغرب ٩٠٠ كم (مسافة مستقيمة) وجاء اقطاعيته (بالتركية : ديرلك) . تقع الأراضى التى أعطيت له ولعائلته لادارتها والتى تسمى بالتركية « يورد » عند حدود اسكيشهر - بيله جك - كوتاهية من الجمهورية التركية الحالية . وتقدر مساحة هذه الاقطاعية بما بين ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ كم٢ . وهكذا وضع حجر أساس الدولة العثمانية فى ١٢٣١ .

اكتسب طغرل بك لقب « غازى » نتيجة غزواته المستمرة ضد البيزنط.استطاع توسيع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها كأمير (وال) على مقاطعة حدودية (بالتركية أوج بك Marquis) ، إلى ٤٨٠٠ كم٢ تقريبا . توفى فى ١٢٨١ وعمره ٩٠ سنة ودفن فى قصبة سوغت التى استولى عليها من البيزنط واتخذها قاعدة له . تضم الدولة التى خلفها أرطغرل بك ، بالنسبة للتقسيمات الإدارية الحالية ، بصورة تقريبية : سوغت وبوزيوك التابعة لولاية بيله جك ، اقضيه دومانج لولاية كوتاهية وناحية يارمجه الواقعة بين نهرى بورسك وسقاريا لولاية اسكيشهر ، والقسم الشمالى من أسكيشهر إذا ماتركنا مدينة أسكيشهر فى الخارج .

هذه هى معالم الإمارة التى دامت نصف قرن (٥٠ سنة) لغاية ١٢٨١ . ونستعرض فيمايلى الصفات المميزة لهذه الإمارة .

٣) الصفات المميزة للمقاطعة (الولاية) الحدودية العثمانية (اوج بكلك) :

كتب الشاعر نامق كمال بك الأبيات التالية :

نحن ذلك النسل الكريم من العشيرة العثمانية
أصولنا امتزجت بدم الشهادة من الرأس إلى القدم
نحن أصحاب همم عالية ، نحن اصحاب جد واجتهاد
استطعنا بذلك أن نكون دولة عالمية كبرى من عشيرة واحدة

تعكس أبيات نامق كمال بك عددا من الحقائق ، فقد كانت عشيرة قايى التى ينتسب اليها أرطغرل بك عبارة عن ٤٠٠ خيمة ، لايحتمل أن يزيد عددها على ٤٠٠٠ شخص بمن فيهم النساء والأطفال . وهؤلاء الذين كونوا نواة الدولة ، وانضم إلى هؤلاء فيما بعد ودخلوا تحت سيادة أرطغرل بك التركمانُ الذين قدموا بعد ذلك عندما اتسعت رقعة أرطغرل بك بالأراضى التى استولى عليها من البيزنط خلال نصف قرن ، كما اصبح من بين رعايا إمارته مسيحيون (روم) نتيجة الفتوحات .

يشكل التركمان الرحل القادمون ، القلبَ النابض فى المقاطعات الحدودية العثمانية وأمثالها ، وقد كان هؤلاء أكثر فعالية من الأتراك ذوى الثقافة الفارسية والعربية المستوطنين فى المدن الكبيرة فى الأناضول ، لقد كان هؤلاء التركمان محاربين جيدين ، يتلهفون إلى الجهاد والغزو ، ينتسب كل منهم إلى أحد شيوخ الطرق وإلى إحدى التكايا ، حيث تعلموا معنى وجاذبية وسمو « إعلاء كلمة الله » .

كان الشيوخ والدراويش (يسمون أحيانا الغزاة الدراويش) المتحمسون لترويج طرق « أولياء خراسان » يقومون بتربية التركمان الذين ليست لديهم روابط وثيقة بالدين الإسلامى تربية إسلامية ويشبعونهم بالقيم التى تتمثل فى تعظيم فتح الأقطار لاكتساب أراضٍ جديدة لتوسيع رقعة دار الإسلام . ويتم توطين هؤلاء فى الأراضى التى فتحت حديثا ويتم تحريك الكتل الأكثر حيوية وحماسة وشبابا إلى أقصى الغرب إلى نهاية الحدود . وتحور القصبات إلى مدن تركية إسلامية ، مركزها المسجد الذى تقام حوله مؤسسات اجتماعية مثل التكية والمكتب (مدرسة

ابتدائية) ، والمدرسة (مؤسسة التحصيل المتوسط) ، والحمام ، والجشمة (حنفية ماء للوضوء والشرب مشيدة بشكل خاص) ، وكان أمراء (ولاة) المقاطعات الحدودية يسددون ضرائب طفيفة جدا إلى البادشاه السلجوقى فى قونية ومن ثم إلى إيلخان فى تبريز ويتلون الخطبة باسميهما ويستعملون مسكوكاتهما التى يسكانها .

كان أرطغرل غازى يتقاضى حتى من تكفور قلعة بيله جك الرومى خراجا سنويا . إذ لم يكن لديهم بعد السلاح الكافى لفتح قلعة . ومن المعلوم أن قواتهم كانت تعتمد فى ذلك الوقت على الخيالة .

٤) عثمان بك (١٢٨١ - ١٣٢٤) :

احتل عثمان بك – وهو فى سن الرابعة والعشرين على الأرجح – مكان أبيه أرطغرل الطاعن فى السن ، كان عثمان بك أيضا من ولاة المقاطعات الحدودية (أوج بك ، بالفرنسية : Marquis) وكان الوالى الحدودى الكبير (بالفرنسية : Duc) فى القطاع الشمالى من الحدود البيزنطية فى الأناضول الغربية : تابعا جوبان : ألب – يورك بك ، ثم مظفر الدين يلك أرسلان بك (١٢٨٤ – من جوبان : ألب – يورك بك ، ثم مظفر الدين يلك أرسلان بك (١٢٨٤ – ١٢٩٢) ، وآخرهم ناصر الدين محمود بك (١٢٩٢ – ١٣٠٠) ، ثم احتل بنو جاندار مكان بنى جوبان ولعل هذا يفسر استكبار بنى جاندار على العثمانيين بعد ذلك (ان بنى جاندار كبنى جوبان أما بنى عثمان من قبيلة قايى الأوغزية فقد استوطنوا فى أراضيهم كأمراء عشيرة قايى) .

أما القطاع الجنوبى للحدود البيزنطية ، فكان يتولاه فى البداية بنو دانشمند كأمراء مقاطعات كبار ، ثم تولاه بنو جرميان الذين احتلوا مكانهم . أما أمراء الحدود الصغار كبنى آيدن وبنى ساروخان ، فهم أمراء (بكات) بنى جرميان من قبيلة آوشار الأوغزية . أما كاراسى أوغللرى الذين ينحدرون من بنى دانشمند ، فقد كانوا مستوطنين فى غرب بنى عثمان على ضفاف آسيا من بوغاز جناقلعة . وقد تبع عثمان بك بنى جرميان لفترة من الزمن بدلا من بنى جوبان الذين فقدوا

أهميتهم . وقد كان مما زاد فى أهمية واعتبار بنى جرميان قيام أمرائهم (أمير آيدن ، وأمير ساروخان ، وأمير منتشه) بالاستيلاء على كافة ضفاف ايجه من يد البيزنط .

والسؤال الآن : كيف برزت العثمانية بين هذا العدد من أمراء المقاطعات الحدودية ؟ لقد كانوا فى البداية إحدى أكثر الإمارات الحدودية تواضعا ، حتى انه لم تكن بأيديهم بلدة يمكن أن تكون بمثابة مدينة . فأية معجزة تلك التى أبرزت بني عثمان وألمعتهم كالشمس بينما لم يبق لسلالات الامارات الحدودية العديدة الأخرى من اسم ولاجسم ؟ .

ان لذلك سببين رئيسيين :

السبب الأول جغرافى – سياسى ، وهو يدخل فى إطار ضربات الحظ الاستثنائية التى لاتتكرر ، فقد أتاحت الظروف لأرطغرل بك وطنا فى جنوب شرقى بحر مرمرة وكأنه على مدخل البيزنط ، وبذلك فقد كان أرطغرل بك أقرب أمير من حدود البيزنط ، ولم يكن سواه من الأمراء الحدوديين فى مثل هذا الوضع الخطير . وقد أوجب هذا الوضع على العثمانية أن تتخذ الحذر الدائم ، وأن تكون على أهبة الاستعداد للقتال والجهاد والغزو فى كل لحظة ، وهو موقف يبرره أن اكتساح الروم لمثل هذه الإمارة بوضعها الجغرافى كان من الناحية الجغرافية يسهل من اكتساح غيرها من الإمارات .

والسبب الثانى : هو الخصائص الجسمية والنفسية لارطغرل بك ونسله الذى جاء من أخلاط إلى دومانيج . ونحن لانكاد نجد لدى الإمارات التركمانية فى الأناضول الغربية عسكريا وإداريا داهية بالمعنى التام عدا آيدن أوغلو أومور بك ، أما الآخرون فلا يزيدون على كونهم قادة يقومون بأداء واجباتهم على الوجه الأكمل . وعلى خلاف ذلك كان الوضع بالنسبة للسلالة العثمانية ، فقد أنجبت دهاة متعاقبين ، وكل حاكم اعتلى العرش تفوق على من كان قبله بامكاناته وخصائصه ، كما تميزوا بالقدرة على التخطيط والحركات العسكرية المحسوبة التى كانت تستهدف كل منها هدفا معينا ، وأيضا قاموا بتنظيم أنفسهم فى تشكيلات جيدة جدا ، ولقنوا رعاياهم الاعتماد الكبير على أنفسهم .

كان عثمان غازى الذى خلف أباه فى اعتلاء إمارة المقاطعة الحدودية تابعا فى البداية لجوبان أوغلو (قسطمونى) ، ثم للسلطان السلجوقى من خلال جرميان أوغلو (كوتاهية) ، الذى كان تابعا بدوره لايلخان . واننا لنجد فى الحقيقة أن البادشاه السلجوقى قد فقد فى هذه الفترة القدرة الفعلية على تسيير الأمور ، وكان إيلخان يسير اعماله بواسطة الولاة العاملين الذين هم فى الوقت ذاته قادة عامون يعينهم فى الأناضول ، وكان على الأمراء الحدوديين - ومن بينهم عثمان بك - أن يرسلوا الجند فى حالة طلب والى إيلخان ذلك .

ازدادت أهمية عثمان بك قبل مضى ١٠ سنوات . فتح قره جه حصار قرب اسكيشهر فى ١٢٨٨ أو ١٢٩١ ، وجعلها قاعدة له وأمر بتلاوة الخطبة باسمه . وبطبيعة الحال ، فإنه كان يذكر أولا اسم الخليفة العباسى فى مصر ، ثم ايلخان المقيم فى تبريز ثم البادشاه السجلوقى فى قونيه ثم اسم عثمان بك . وفى كانون الثانى ١٣٠٠ ، أرسل السلطان السجلوقى علاء الدين كيكباد الثالث إلى عثمان غازى علامات السلطنة كالطبل ، والعلم (الراية) وشارة الرأس (طوغ) . وبذلك أصبح عثمان بك - بصورة رسمية - أمير مقاطعة حدودية كبيرا (بيوك اوج بك) . (الفرنسية : Duc) ، لايفوقه فى وضعه هذا أى أمير حدودى آخر . وفى هذه الفترة كان عثمان بك تابعا لسلجوق أوغلو بصورة مباشرة ، ثم تابعا لايلخان فى تبريز بصورة مباشرة بعد وفاة البادشاه السلجوقى الأخير مسعود الثانى بعد ١٣٠٨ وحتى ١٣٣٥ حقق عثمان بك فى هذه الفترة انجازات ضخمة ، فقد هزم تكفور (والى) بورصة البيزنطى الذى سار اليه بـ ٥٠٠٠ جندى فى الحرب الميدانية قويونحصار (٢٧ / ٧ / ١٣٠٢) وأصبح اسمه مشهورا لدى البيزنط . على الرغم من أن عثمان بك كان يستهدف بورصة فإنه أسس فى عام ١٣٠١ قصبة ينيشهر على طريق ايزنك - بيله جك ، واتخذها قاعدة مؤقتة له لفترة من الزمن .

وبكل المقاييس فإن عثمان بك يعتبر مؤسسا للسلالة ، ولايقدح فى ذلك أنه لم يسم خانا أو سلطانا إلا بعد وفاته ، حيث إنه لم يلقب حال حياته بغير بك (أمير) وان كان من المعروف أنه لقب بألقاب أخرى مثل فخر الدين ومحيى الدين .

ومن الأمور التي ينبغى أن تذكر أن العثمانية قد قدمت عددا كبيرا من أمرائها شهداء فى حروبهم مع البيزنط ، ومن بين هؤلاء الشهداء كوندز ألب بك (المسمى باسم جده) أخو عثمان بك الذى استشهد فى عام ١٣٠٦ ، والأخ الآخر لعثمان بك والمسمى غازى صار ياطى صاوجى بك الذى استشهد فى عام ١٢٨٨ ، وابنه بكخوجة بك الذى استشهد فى عام ١٢٨٧ .

بلغت مساحة الإمارة التى تركها عثمان غازى فى ١٣٢٤ ، ١٦٠٠٠ كم٢ فقط . وإذا ماوضعنا فى الاعتبار أن أبا عثمان بك ترك له ٤٨٠٠ كم٢ من الأراضى فإن ١٦٠٠٠ كم٢ التى تركها عثمان بك تعادل تقريبا ٥ / ٣ أضعاف مساحة الإمارة التى تركها أبوه .

ومن الأمور التى تلفت النظر أن فتوحات عثمان بك كانت ذات أهداف ومغزى ، شمالا وصل إلى الضفة الشرقية من نهر سقاريا واقترب كثيرا إلى مدخل النهر والبحر الأسود . وفى الغرب نفذ إلى البحر حيث استولى من البيزنط على الضفاف الجنوبية لبحيرة ايزنك وكذلك أخذ الضفاف الشرقية لبحيرة اولوباد(Apolont) ونفذ إلى بحر مرمرة بعد أن ظفر على الضفاف الجنوبية لخليج كملك ورصيف مودانيا الذين يقعان بينهما فى منطقة متوسطة . (تعتبر إيزنك أهم مدينة للبيزنط فى الأناضول تقع على الحدود العثمانية) .

ولقد كان عثمان بك استراتيجيا بعيد النظر حيث وجه فتوحاته إلى البيزنط باعتبار أن كل فتح يناله منهم سيزيد من قوته . كما أنه فى نفس الوقت تحاشى بكل جهده التصادم مع جيرانه أمراء الأناضول المحيطين به كإمارة جيرمان أوغلو القوية التى كانت تغطى كامل جنوب امارته ، وكأمارة جمهوية آخى شرقا فى أنقرة التى كانت تحت نفوذ وحماية إمارة قره مان المقتدرة ، وكأمارة جاندار أوغللرى التى تقع الى الشمال الشرقى من إمارته ، وأراضى كاراسى أوغللرى الواقعة غربا . وعلى الرغم من أن كل هذه المنطقة كانت تشكل مجالا ملائما للانتشار العثمانى من حيث الخروج إلى البحار المفتوحة فإن عثمان بك ، لم يمسها .

من فتوحات عثمان بك اسكيشهر فى ١٢٨٨ ، بيله جك فى ١٢٩٩ (أو ١٣٠٤) ، وفى العام نفسه اينه كول ، ومودانيه فى ١٣٢١ ، حاصر عثمان بك

بورصة سنوات عديدة . ولم يكن فى ذلك الوقت يملك الأسلحة الكافية لاسقاط هذه القلعة بالقوة ، ومات قبل استسلامها ، ولو تم له فتحها لكان بذلك قد حصل على مدينة وقاعدة حقيقية وبالنسبة للتقسيمات الإرادية الحالية فإن الدولة التى تركها عثمان بك عبارة عن : ولاية بيله جك ، وقضاء اسكيشهر المركزى ، واقضيه كيفه ، وآقيازى ، وخندق التابعة سقاريا ، وقضاء دومانج فى كوتاهية ، واقضيه مودانيه ، وينيشهر ، واينه كول فى ولاية بورصة .

٥) السلطان أورخان (١٣٢٤ - ١٣٦٢) :

اشتهر أورخان بك فى عهد أبيه كعسكرى ممتاز ، تولى الإمارة وعمره ٤٣ سنة كأمير كبير لمقاطعة حدودية (بيوك أوج بل) . كلف اخيه علاء الدين على بك بانجاز الأعمال المدنية ، فقام بانجاز ما كلف به حتى استشهد أمام البيزنطيين فى بيغا عام ١٣٣٣ (استمر نسله لغاية ١٥٣٠) .

استولى أورخان غازى على بورصة فى ٦ نسيان ١٣٢٦ واتخذها قاعدة له . وأصبح بعد هذا الفتح سلطانا وملكا حقيقيا . لم يرفض تبعيته لايلخان حتى ١٣٣٥ ، وفى هذا التاريخ اصبح مستقلا تمام الاستقلال ، وبصفته أقدر أمراء ورثة السلاجقة التركمان ، فقد أعلن بصورة رسمية أنه الخلف الشرعى للعرش السلجوقى الذى خلا .

اختلفت مواقف الإمارات الأخرى إزاء هذا الإدعاء ، فبينما عارضته صراحة إمارة قرة مان أوغلو الذى كانت بيده قونية مدينة عرش السلاجقة ، تأرجحت مواقف الإمارات الأخرى بين التعاون مع إمارة قرة مان أوغلو والموافقة على موقفهم المعارض أحيانا وبين مساندتهم لبنى عثمان كسبا لودهم وخشية من قوتهم العسكرية المتنامية أحيانا أخرى .

بعد فتح بورصة فتح أورخان غازى إيزنك التى تمتاز بأنها أكبر بورصة (فى ذلك العهد) فى أيار ١٣٢٩ وبصورة قطعية فى ٧ / ٣ / ١٣٣١ ، ولم تفلح حملة الامبراطور البيزنطى **Andronikos Poleologos** الثالث على العثمانية لتخليص ايزنك عندما قابل أورخان غازى الامبراطور فى موقع **Pelekanon** بالقرب

من كنره داريجاسى فى شمال خليج ايزمت مع جيشه البالغ ٨٠٠٠ شخص . تمكن اوزخان غازى من هزيمة العدو بسهولة ، وجرح الامبراطور ، وفقد أورخان فى هذه الواقعة ٢٧٥ شهيدا فقط ، وغنمت العثمانية السرادق الامبراطورى والرايات الامبراطورية وطلب الامبراطور بحث طرق المصالحة .

طبقت شهرة السلطان أورخان بك العثمانى العالم بأسره . وحصل نحو عام ١٣٣٥ على ألقاب « سلطان » و« سلطان الغزاة » و« غازى ابن الغازى » و« شجاع الدين ، اختيار الدين ، سيف الدين » .

إن هزيمة الحاكم البيزنطى الذى يعد (امبراطور روما) والحاكم الأول من جهة الألقاب والتشريفات الأوربية فى حرب صحراوية مفتوحة ، زادت فى نفوذ السلطان أورخان فى تركية ونفوذه على الإمارات الأناضولية ، كما أنه غدا ينظر إليه فى البلقان كعنصر موازنة .

بدأ السلطان أورخان فى اتباع سياسة دقيقة مع البيزنط تساندها القوة العسكرية ولاتميل إلى البدء بالاعتداء . صرحت العثمانية منذ ذلك بسياستها التى تتلخص فى النفاذ إلى البحار المفتوحة والوصول إلى المضايق .

ألحقت بالعثمانيين فى ١٣٤٥ أول إمارة تركية ، كاراسى . وهكذا ضبط العثمانيون ضفاف آسيا من بوغاز جناقلعة ، والضفة المقابلة كانت أوربا .

إن العثمانيين الذين وصلوا فى الجنوب إلى خليج جاندارلى أخذوا من البيزنط آخر الأراضى المتبقية فى جنوب بحر مرمرة (كيرماستى وقره جه بك ١٣٤٢ ، شبه جزيرة قابودا فى ١٣٤٥ ، جزر مرمرة ١٣٥٢) ، وقد دخلت شبه جزيرة قوجا إيلى حوزة العثمانية . وهكذا فُتح الجانب الآسيوى من ضفاف بوغاز استانبول كذلك ، عدا بعض القرى . انتقلت اسكدار إلى حوزة العثمانية . بولو ، فى ١٣٢٦ وبصورة قطعية فى ١٣٥٤ ، انتقلت الإمارة الصغيرة التى كانت تحت نفوذ جاندار اوغللرى الذين يطلق عليهم أومور بك أوغللرى إلى العثمانية . انتقلت كافة سواحل البحر الأسود من رصيف آقجه قوجا إلى البوغاز ، وجميع ضفاف مرمرة الجنوبية والشرقية ، إلى العثمانية ، وأخيرا فى ١٣٥٤ ، أخذوا انقره وانتهت جمهورية آخى . كان هذا التطور يكسب العثمانية وفرة فى العدد وفى القوة

الاقتصادية اللازمة . ولم تعد بها حاجة إلى التصادم مع جاراتها أورخان أوغلو الجنوبية – الغربية ، كرميان أوغلو الجنوبية ، قرة مان اوغلو الجنوبية الشرقية ، ارتنا أوغللرى الشرقية ، جاندار أوغلو جارتها الشمالية – الشرقية .

(٦) الغازى سليمان باشا والعبور إلى روملى (١٣٥٣ – ١٣٥٧)

يعتبر العبور إلى روملى ودخول الأتراك العثمانيين إلى البلقان والقارة الأوربية ، أحد أهم الوقائع التاريخية ؛ إذ إنه عدا تأمينه تأسيس الامبراطورية العثمانية ، فانه غير مجرى التاريخ الأوربى ومصير الدول الاوربية كذلك .

كان رئيس البيزنط حاكم شبه جزيرة البلقان السابق ، على خلاف مع الاقوام والدول البلقانية ، ولم يكن قادرا على إدارتهم . وعندما تقابل أورخان بك بالامبراطور فى ١٣٤٧ فى اسكدار تناولا بالحديث التدابير المشتركة .. تجاه الخطر السلافى فى البلقان .

وفى ٣ شباط ١٣٤٧ ، دخل – كحلفاء وبدعوة من الامبراطور – ٦٠٠٠ – جندى عثمانى ليلا إلى مدينة (استانبول) البيزنطية ، وكان الامبراطور قد دعا السلطان اورخان كذلك إلى المدينة ، لكن البادشاه لم يقبل الدعوة . منذ ذلك الحين اخذت الوحدات العثمانية – وعلى الاغلب بقيادة ولى عهد .. شهزاده سليمان باشا الابن الاكبر للسلطان أورخان ، فى العبور إلى روملى ، يحاربون السلاف الذين أصبحوا بلاء على البيزنطيين ، ويعودون .

جاء طليعة الغازى سليمان باشا ، وهو آيدن أوغلو غازى أوموربك مع جيشه وأسطوله عدة مرات لمساعدة الامبراطور البيزنطي ودخل روملى ثم عاد . وفى المرة الآخيرة وعندما طلب الامبراطور المساعدة من أوموربك ، اجابه آيدن أوغلو بأنه مشغول بالحرب مع الكاثوليك اللاتين – اعداء البيزنط – فى أزمير ، ومن ثم فانه سوف يتعذر عليه المجىء ، وأوصاه بطلب المعونة من أورخان بك بن عثمان . وقد نفذ الامبراطور ذلك .

وفى ١٣٤٧ ، أراد سليمان غزو جزيرة امروز ، لكنه هزم . ثم اجتاز سليمان باشا إلى روملى مع ١٠٠٠٠ جندى فى البداية ، وفى ١٣٤٩ مع ٢٠٠٠٠ جندى وأوقف أعداء الأمبراطور عند حدهم .

وصل سليمان باشا فى حملته الاخيرة هذه إلى سلانيك وخلص المدينة من الحصار ، وقد كانت على وشك السقوط فى يد الصرب ، وسلمها إلى الامير Mattheos Kantakuzinos . اشتركت فى هذه الحملة ٢٢ قطعة من سفن العثمانية .

وفى عام ١٣٥٢ عبر ولى عهد - شهزاده غازى سليمان باشا إلى روملى ، وشتت بسهوله جيش الاتفاق الصربى - البلغارى الذى كان ينوى الحملة على استانبول فى الحرب الميدانية Dimetoka .

اعترافا بفضل سليمان باشا ، أهدى الامبراطور إليه فى ١٣٥٣ قلعة جمبة Gimpa الصغيرة الواقعة على الضفة الاوربية من بوغاز جناقلعة ، لتسهل عبوره إلى أوربا .

وهكذا حازت العثمانية وللمرة الأولى أرضا فى القارة الأوربية بصورة رسمية وشرعية . وذلك بعد ٩٠ عاما من الاجتياز الأول للامارات التركمانية الذى كان فى عام ١٢٦٣ (يعتبر اجتياز عام ١٣٥٣ هو الاجتياز الـ ١٧) . وعلى ذلك فان فتح روملى يكون نتيجة جهود مرحلة تحضيرية طويلة .

وعند إلحاق العثمانية دولة قراسى أصبحت تمتلك أسطولا صغيرا أيضا . وبالحاق دولة قراسى بالعثمانية أصبح للعثمانية أسطول صغير ، فقد كان لبنى قراسى (قراسى اوغوللرى) أسطول حربى وجنود بحرية وأميرالات مجربون .

طور سليمان باشا هذا الاسطول وجهز رصيف أدنجك (آيدنجك) المواجه لباندرمه ، فى الرأس الشرق لخليج اردك ليكون قاعدة بحرية لهذا الأسطول . وبهذا الأسطول عبر سليمان باشا بوغاز جناقلعه وفتح فى ٢ آذار ١٣٥٤ قلعة غاليبولى ذات الأهمية البحرية - كقاعدة - فى جهة بحر مرمرة من شبه جزيرة غاليبولى على الساحل الأوربى ، ولذلك فان هذا الفتح يشكل إحدى وقائع التاريخ التركى المهمة .

وحتى ايلول ١٣٥٧ ، وزلل أرجل حصان سليمان باشا وكبوته ووفاته باصطدام رأسه على الحجر وعمره ٤١ سنة ، (اى خلال مدة ٣/٥ سنة) - استطاع سليمان باشا الاستيلاء على كامل شبه جزيرة غاليبولى ، وفتح المناطق فى الشمال حتى لوله برغاز ، ووصل فى الغرب إلى حدود نهر مريج ، وفتحت جورلو مع لوله برغاز فى العام ذاته (١٣٥٧) ، وبذلك أصبح البيزنط محاصرين من الغرب كذلك .

ترأس حركات روملي بدلا من سليمان باشا ، أخوه ولى العهد الشهزاده (الامير) مراد بك واستمر فيها .

توفى السلطان أورخان فى آذار ١٣٦٢ بعد سلطنة دامت ٣٨ سنة ، وعمره ٨١ سنة . بلغت مساحة الأراضى العثمانية فى هذا التاريخ ٩٥٠٠٠ كم٢ ، وهى تمثل ٦ أضعاف الاراضى التى كانت عند جلوس السلطان أورخان : تشمل هذه المساحة كامل ولايات بيله جك الحالية ، بورصه ، بالكسير – مع جزر مرمرة – ، سقاريا ، قوجا ايلى ، وبالاضافة إلى ولاية جناقلعه : اقضية بيغا ، امروز (كوكجه آدا) ، بوزجا آدا ؛ ولاية أسكيشهر عدا جفته لروسيد غازى ، قسم آسيا من استانبول عدا عدة قرى فى الجزر والبوغاز ، اقضية كشان وايبسالا لولاية ادرنه ، وقضاء لوله برغاز لولاية قرقلر ايلى ، ولاية تكرداغ عدا قضاء سراى ، اقضية سوما وقرق آغاج لولاية مانيسا ودومانج لولاية كوتاهية وبرغامة وديكيلى وقينق لولاية أزمير ، أقضية المركز ، نالليخان ، بك بازارى ، عياش ، قيزاجه حمام ، حيمانا ، بولاتلى لولاية أنقره .

وهكذا ترك السلطان أورخان قطرا لايستهان به ، خاصة اذا عرفنا أن تعداد هذه الاراضى فى ذلك العصر كان يفوق بكثير تعداد ملكية إنكلترا (الدولة العثمانية نحو ١٣٦٢ ، أكثر بقليل من ٣ ملايين تقريبا ، أما إنكلترا فكانت مليونين اثنين) . الأمر الآخر الذى ينبغى الإشارة إليه أنه منذ ١٣٣٢ ، كان للسلطان أورخان ٩٠٠٠٠ جندى (٤٠٠٠٠ منهم خيالة و٥٠٠٠٠ مشاة) ، وعند فتح إمارة قراسى فى ١٣٤٥ ، انضم جنود هذه الامارة البالغ عددهم ٢٥٠٠٠ إلى العثمانية ، ولم يكن على هذه الايام لاى امير اناضولى بصورة قطعية ١١٥٠٠٠ جندى . وعلى سبيل المثال فان من بين أقدر الجيوش ، كان جيش قره مان اوغلو ، وهو عبارة عن ٥٠٠٠٠ جندى منهم ٢٥٠٠٠ خيال و٢٥٠٠٠ مشاه . وتبين هذه الارقام مقدار أرجحية كفة الميزان لصالح العثمانية . ولقد ولد توفير الغازى سليمان باشا الفرصة لنفسه من أعماله فى روملى وقدومه إلى انقرة ، وقبول انقرة الانضمام إلى العثمانية دون اية مقاومة مثل دولة قراسى – قلقا جديا فى قره مان ، وأخذت تتراءى فى الافق حرب عثمانية – قرة مانية اكيدة .

(٧) مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩) يفتح البلقان

عقدت ولاية العهد لمراد الأول قبل أربع سنوات ونصف من وفاة السلطان أروخان وذلك بدلاً من شقيقه سليمان باشا الذى يكبره بعشر سنوات . وعند وفاة السلطان أورخان جلس على العرش السلطان مراد وعمره أنذاك ٣٦ سنة .

جلس فى آذار ١٣٦٢ وفى تموز من العام ذاته أخذ أدرنة .

اصبحت أدرنة مركزا لروملى ومدينة العرش الثانية ، وتحولت من مدينة بيزنطية متواضعة كبورصة إلى بلدة إسلامية تركية كبيرة .

كان السلطان مراد امبراطورا حقيقيا (سلطانا معظما) ، نال بصورة رسمية ألقاب : « سلطان الغزاة والمجاهدين ، ملك المشايخ ، غياث الدنيا والدين ، شهاب الدين غازى هنكار خداوندكار ، ليث الاسلام ، او الفتح ، غياث المسلمين ، السلطان العادل » وقد صادق على هذه الالقاب الخليفة العباسى فى القاهرة .

فى السنة التالية لجلوس السلطان مراد ، أى فى عام ١٣٦٣ ، اجتاز نهر مريج نحو الغرب ، وفتح فيليبه واجتاز مريج نحو الشمال وفتح اسكى زغرا ووصل جبال البلقان .

دعا البابا اوربانوس الخامس ، المسيحيين إلى حملة صليبية ضد « الاتراك الكفرة » .

اتحد ملوك المجر : صربيا وبوسنة مع أمير رومانيا (افلاق) ، واقتربوا إلى مسافة عدة كيلو مترات من أدرنة . لم ير حاجى الـ بك ضرورة لانتظار البادشاه ، وجابه العدو فى الموقع الذى سيدعى صرب صنديغى وأباده فى ١٣٦٤ . وبذلك يكون العثمانيون قد قطعوا فى البلقان مسافة لايستهان بها .

نجا ملك المجر لايوش الاول من الموت صدفة . وعند عودته إلى بلاده شيد كنيسة لمرضاة السيدة مريم ، إظهارا لشكره . هذه هى الحملة الاولى التى جهزت ضد العثمانية .

فتحت وأخذت الاراضى حتى تساليا ومكدونيا ، والمراكز كده ده آغاج (١٣٦٢) ، كمولجينه (١٣٦٣) ، ساماكوف (١٣٦٧) قاوالا (١٣٧١) ،

دراما (١٣٧١) . اعترف ملك بلغاريا الذى اتخذ ترنوفا مركزا له فى ١٣٧٠ بتبعيته للعثمانية .

تحالفت بلغاريا ورومانيا عسكريا وأرادتا دفع الاتراك إلى الخلف . وفى الحرب الميدانية جيرمن Girmen (١٣٧١/٩/٢٦) هزم جيش بلغاريا ورومانيا ، وقتل كل من ابنى ستيفان دوشان ، أحدهما ملك صربيا فوكاشين (١٣٥٥ - ١٣٧١) وأخوه ولى العهد - أمير اوكليشا Uglesa . وصل الغزاة الاتراك ، إلى سواحل الادرياتيكى .

وفى عام ١٣٦٥ اعترفت جمهورية دبروفنك (بالايطالية Ragusa) الواقعة على الادرياتيكى بسيادة العثمانية . وانتقلت المراكز مثل كارافيرا (١٣٧٢) ، كوسنتدل (١٣٧٢) ، نيش (١٣٧٥) ، صوفيا (١٣٨٢) ، مناسطر ، كوريجه ، اوهرى ، دبره (جميعها فى ١٣٨٥) ، ترنوفا ، لوفجه ، بلونه ، زشتوفى ، رسجك ، تتراكان ، سليستره (جميعها فى ١٣٨٨) إلى الاتراك . اعترفت ملكية الصرب بالسيادة العثمانية عليها ، وحذا أمير دوبروجه حذوها فى ١٣٨٨ . اخذ الأتراك تساليا ووصلوا شمالا إلى الطونة وجنوبا إلى آتيكا وغربا إلى البانيا وفى الشمال - الغربى إلى بوسنه .

اضطر حميد أوغلو إلى ترك أكثر من نصف أراضى الإمارة بسعر رمزى قدره ٨٠٠٠٠ قطعة ذهبية . وانتقلت الاماكن مثل آقشهر ، بكشهرى ، سيديشهرى ، يالواج ، شرقى قره آغاج - إلى حوزة العثمانية .

فصلت الدولة العثمانية إمارتى جرميان وقره مان ودخلت بينهما وأصبحت تحاصر قره مان من الشمال ومن الغرب .

وفى ١٣٨٢ ، اعترفت إمارة حميد بالسيادة العثمانية ، وفى السنة التالية اعترفت أيضا إمارة جاندار بالسيادة العثمانية ، وأعقب هؤلاء أمير آماسيا فى ١٣٨٥ . ورغم أن بنى جاندار وبنى قرة مان تزاوجوا مع العثمانية وارتبطوا بروابط قرابة متينة ، لكنهم كانوا بعيدين عن فكرة الموافقة على إحداث وحدة أناضولية لصالح العثمانية . وفى جوكهذا ، أضرمت نار أول حرب عثمانية - قره مانية فى ١٣٨٦ - ١٣٨٧ .

كانت قره مان تعتمد على ملكية قبرص اللاتينية وعلى سلطنة مصر المملوكية التى

تدعى (أى قره مان) أنها تحت سيادتها . وعندما عقدت معاهدة صداقة بين السلطانين العثمانى والمملوكى فى ١٣٨٦ ، خرمت قره مان من المساندة المملوكية . ورغم ذلك تجاسرت على احتلال بك شهرى التى أخذتها من إمارة حميد العثمانية .

سار السلطان مراد إلى قرة مان بـ ٧٠٠٠٠ جندى ، وبمناورة عسكرية آنية اجراها ولى عهد – شهزاده بايزيد التى أكسبته لقب « يلدرم » (برق) وأسفرت المناورة عن انهزام القرة مانيين بسرعة البرق ، شتت الجيش القرة مانى .

ذهبت نفيسة ملك سلطان خاتون زوجة قره مان أوغلو علاء الدين بك ، إلى أبيها السلطان مراد وانكبت على قدميه طالبة العفو عن زوجها . وجاء قره مان أوغلو وقبل يد أبى زوجته البادشاه ، فعفا عنه .

كان للسلطان مراد شأن فى البلقان ، ولم يكن يرغب فى زج نفسه فى قضايا الأناضول الوسطى ، وكان يعلم ان كل انتصار يحرزه فى البلقان سيكون السبب فى انضمام إمارة جديدة فى الاناضول إلى العثمانية دون قتال .

دخل قولا شاهين باشا إلى بوسنة مع ٢٠٠٠٠ جندى فى عام ١٣٨٨ . هزم فى بلوشنيك قرب نيش وخسر ١٥٠٠٠ جندى بين شهيد وأسير وجريح . أما الوزير الاعظم جاندارلى – زاده على باشا ، فقد خرج مع ٣٠٠٠٠ جندى على ضفاف الطونة ، واستولى على آخر ماتبقى لدى ملكية بلغاريا من الاماكن .

قام الصرب – البوسنويين الذين أثبتوا إمكان الانتصار على الأتراك بواسطة ٣٠٠٠٠ جندى ، بمحاولة تنظيم حملة صليبية جديدة . تجمع جيش مسيحى جديد . بقيادة حاكم صربيا لازار ومساعده ملك بوسنه Tvrtko . شارك فى هذه الحملة كل من أمراء المجر ، بولونيا ، رومانيا (أفلاق) ، مولدفيا (بغدان) وبلغاريا بوحداتهم .

التقى السلطان مراد وابناه الاثنان مع العدو فى صحراء كوسوفا فى ٢٠ حزيران ١٣٨٩ . دامت الحرب الميدانية الكبرى مدة ٨ ساعات ، أبيد العدو عن بكرة أبيه ومعه قائده العام . استشهد السلطان مراد وعمره ٦٣,٥ سنة بعد سلطنة دامت ٢٧ سنة و٣ أشهر أثناء تفقده ساحة الحرب بعد الانتصار على يد أمير صربى جريح أقترب منه بدعوى أن لديه مايعرضه . دفنت أحشاؤه فى صحراء كوسوفا فى القبر الذى

سمى مشهد خذازندكار والذى بقى حتى يومنا هذا مقاما مقدسا بالنسبة لمسلمى البلقان . نقل جثمانه إلى بورصة .

ادخل انتصار كوسوفا الساحق البلقان تحت الحكم التركى الاسلامى لمدة ٥٠٠ سنة . ترك السلطان مراد إحدى أقوى الامبراطوريات العالمية وخاصة من الناحية العسكرية . بلغت مساحة الامبراطورية عند وفاة السلطان مراد ٥٠٠ ٠٠٠ كم² تقريبا . (مساحة الاراضى الاوروبية فى البلقان ٢٩١٠٠٠ كم² ، والاراضى العثمانية فى الأناضول فى آسيا تتجاوز ٢٠٨٠٠٠ كم²) .

وتفصيلا على الوجه التالى :

فى الأناضول (بالنسبة إلى التقسيمات الإدارية الحالية) : ولايات بورصة ، بالكسير ، بيله جك ، قوجاايلى ، سقاريا ، أسكيشهر ، بولو ، كوتاهيه ، أفيون ؛ ولاية جناقلعة عدا مروز وبوزجه آدا ؛ ولاية أنقرة عدا كسكين ، قيريقلعه شرفلى قوجحصار ؛ ولاية استانبول عدا الجزر ؛ اقضية آقشهر التابعة لقونيا ، أقضية بك شهرى ، سيدى شهرى ، يالواج التابعة لاسبارطه ، شرق قره آغاج ، سوما التابعة لمانيسا ، قرق آغاج ، برغامة التابعة لازمير قينق ، ديكيلى ؛ وكمناطق حماية : امارة جاندار (ولايات قسطمونى ، سينوب ، صمصون ، زنغلداق ، جانقرى وقسما جورم) ، إمارة اماسيا ، إمارة حامد (ولايتى بوردر واسبارطة) .

وفى البلقان : شبه جزيرة غاليبولى Gelibolu ولايات ادرنه ، قرقلارايلى ، تكرداغ ، قضاء جتالجه ، كامل بلغاريا الحالية ، تراقيا الغربية عدا جزيرة سمندرك ، مدينة سلانيك بشبه جزيرة هالكيدكيا ، مكدونيا الجنوبيه عدا جزيرة تاشوز ، تساليا ، مكدونيا الشمالية (مكدونيا اليوغسلافية) ، كوسوفا ، نيش (صربيا الجنوبية) ؛ شرق ألبانيا ، شرق قره داغ وكمناطق حماية : جمهورية دبروفنك إمارة دوبروجه ، إمارة صربيا .

وهكذا تكون مساحة الامبراطورية التى خلفها السلطان أورخان قد تضاعفت أكثر من ٥ أضعاف خلال ٢٧ سنة .

ونورد فيما يلى آراء بعض المؤرخين المسيحيين بشأن السلطان مراد :

كتب أحدهم : « خاض السلطان مراد بنفسه ٣٧ حربا ، انتصر فيها جميعا ، أصبحت له شهرة القائد الذى لايقهر ، تميزت كل تحركاته بأنها كانت تستند إلى خطة ، وحتى فى شيخوخته لم يفقد شيئا من قدرته ودهائه » (المؤرخ البيزنطى المعاصر له Phrantzes ، طبعة بون ، ص ٨١) .

وكتب آخر :

« قاد ٣٧ حربا فى روملى والأناضول وانتصر فى جميعها . كان جسورا ، رابط الجأش ، فعالا ، شديدا ونشيطا فى شيخوخته كما فى شبابه ؛ منظما ، لايهمل أى تدبير ، ولا يشرع فى عمل مالم يخططه بكامل وجوهه . يعامل الدول والأشخاص الذين يطيعونه ويقومون بخدمته بالحسنى واللين والكرم مهما كانت أديانهم . كان قاسيا على من يظهر له العداء . لم ينج أحد من قبضته . يصدق فى قوله حتى ولو انقلبت الأمور إلى ضده بعد ذلك ، حصل على ثقه الجميع سواء من الأعداء أو الأصحاب » (المؤرخ البيزنطى المعاصر له Khalkokondylas طبعة باريس ، ص ٢٩) .

وكتب ثالث :

« كان متفوقا على جميع معاصريه من الحكام ورجال الدولة فى العالم . فاق الحدود التى تخيلها والده . أمن مصالح الدولة العثمانية التى هى أحد التطورات المذهلة جدا فى التاريخ كله ، نال ثقة الروم وربما محبتهم . عامل الأرثوذكس معاملة أفضل بأضعاف من معاملة الكاثوليك للأرثوذكس » (المؤرخ الانكليزى Gibbons ، اوكسفورد ١٩١٦ ص ٥٢) .

وكتب رابع :

« لايمكن أن يعثر على حاكم على مستوى السلطان مراد ، بين معاصريه من الحكام الأوربيين . لم يكن داهية عسكريا وأستاذا استراتيجيا فحسب ، بل كان فى ذات الوقت دبلوماسيا مرهفا . كان حاكما بالفطرة . جعل من العثمانيين ، أمة موحدة . عرفهم بالمثل وزودهم بها . كان عند وفاته قد أمن مستقبل هذه الدولة لـ ٥ قرون » (المؤرخ الفرنسى Fernard Grenard ، باريس ١٩٣٨ ص ٥٢) .

(٨) يلدرم بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٢)
يحقق وحدة الأناضول

بايزيد هو الأبن الأكبر للسلطان مراد وولى عهده ، أطلق عليه لقب « يلدرم » (برق) منذ حملة قره مان ١٣٨٧ .

اعتلى العرش وعمره ٢٩ سنة ، فى عام ١٣٧٨ صاهر جرميان أوغلو الذى تنازل له عن مدينة عرشه كوتاهية وجوارها كجهاز لابنته . جلس بايزيد على عرش جرميان فى كوتاهية ، وفى ١٣٨٦ ، أصبح إضافة لذلك أول لواء (وال ، سنجق بك) لحميد (اسبارطة) كما أصبح لفترة من الزمن ، أول لواء (وال) على آماسيه .

اشترك فى حملات أبيه بجنود هذه الألوية وكان يقود على الأغلب الجناح الأيمن للجيش العثمانى.نودى به سلطانا فى ساحة الحرب على إثر استشهاد أبيه فى صحراء كوسوفا .

ثارت قرة مان واحتلت كوتاهية بينما كانت العثمانية فى معركة البقاء أو الفناء فى كوسوفا ، وأغرى ذلك بعض الإمارات الخاضعة للنفوذ العثمانى كصاروخان ، آيدن ، تكه ، جرميان وحتى إمارة حميد التابعة لحكم العثمانية المباشر - بالثورة . أعلنت تلك الإمارات أنها لن تسمح بحدوث أى تغيير فى الموازين الحالية بين الإمارات الأناضولية ، ولن تسمح بتحقيق الوحدة التركية . من الواضح أن قره مان كانت ترى أنها مادامت لم تتمكن من تأسيس الوحدة فى تركية السلجوقية ، فانها لن تسمح للعثمانيين بإنجاح ذلك .

أنهى يلدرم بايزيد أعماله فى روملى ، وجاء مسرعا إلى بورصة . وفى الأيام الأولى من عام ١٣٩٠ تحرك نحو الجنوب . ودخل خلال أشهر شباط وآذار بالتسلسل إلى إمارات جرميان ، آيدن ، منتشه ، صاروخان ، عرض الأمراء طاعتهم للبادشاه وتخلوا عن إماراتهم لصالح العثمانية دون أية مقاومة . أعطى بايزيد لكل منهم مقاطعة (ديرلك) . الحقت بالعثمانية ولايات صاروخان (مانيسا) ، ازمير ، آيدن ، منتشه (موغلا) ، اوشاق ودنيزلى . وبذلك حاز العثمانيون أعظم الموانىء فى ايجه ، آيدن ، منتشه ، كما حازوا أسطول صاروخان ونفذوا من سواحل منتشه إلى البحر الأبيض . كما حازوا قلعة آلاشهر وهى القلعة الأناضولية الوحيدة التى بقيت لدى البيزنط .

جاء السلطان بايزيد إلى أنقرة ، وهى أكبر مركز لايالة أناضولى ، وقضى شتاء عام ١٣٩٠ - ٩١ فيها .

أقلق قضاء الجيش العثمانى فصل الشتاء فى الشمال وفى موقع مركزى ، عدو العثمانية قاضى برهان الدين المتمركز فى القسم الشرق من الأناضول الوسطى ، كما أقلق قرة مان المتمركز فى القسم الغربى منها . وفى خريف عام ١٣٩١ ، تحرك البادشاه من أنقرة إلى أسبارطة مرة أخرى ومنها دخل إلى مدينة قونية ، كان قره مان اوغلو داماد علاء الدين بك زوج أخت السلطان بايزيد قد هرب من قونية إلى طاش إيلى ، دعاه السلطان بايزيد وأخبره بأنه سيترك الإمارة له ، شرط الاخلاص له وعدم الخروج على تبعيته ، ثم ترك قونية . رافق الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى ، يلدرم بايزيد فى حملته الأناضولية الثانية . وقد كان بايزيد ينظر إلى الامبراطور على أنه تابع له بينما كان الامبراطور يعتبر نفسه حليفاً على قدم المساواة مع السلطان بايزيد ، ظل الامبراطور مانويل الثانى ضيفا فى سراى بورصة مدة طويلة وكان شخصا عالما ويحسن التكلم بالتركية ، وقد التزم باتجاهات السياسة العثمانية الخارجية إزاء البيزنط .

دكت ٦٠ قطعة من قطع الأسطول العثمانى جزر ساقز ، كيكلاد ، آغيبوز التى يحتلها اللاتين الكاثوليك وبذلك يكون السلطان بايزيد قد أخطر جمهوريات البنادقه ، الجنويين والايطاليين ، إنه كان يستعد لمحاصرة البيزنط .

وفى ١٣٩١ اصطف ٦٠٠٠ جندى تركى على امتداد السور وراقبوا الدخول والخروج لمدة ٧ أشهر ، ويفهم من هذا الإجراء إنه لم يكن حصارا بالمعنى المفهوم للحصار وإنما كان مجرد حجز ، وقد كان السلطان يأمل أن يخضع له الامبراطور دون حرب كما فعل أمراء الأناضول .

وفى صيف ١٣٩١ ، ولأول مرة اجتاز بايزيد الطونة نحو الشمال ودخل رومانيا ، وشتت الجيش الرومانى فى الحرب الميدانية Argeso . وأسر الأمير Mircea .

ودخلت رومانيا المسماة افلاق (رومانيا الجنوبية) تحت الحماية العثمانية ، وسيظل هذا الوضع ٤٨٧ سنة حتى ١٨٧٨ .

وفى ١٣٩٢ ، فتح البادشاه سلانيك وأخذ شبه جزيرة هالكيدكيا من البيزنط

وقطع ارتباط البيزنط بمكدونيا ، ثم جاء إلى كارافيريا وينى شهر (باليونانية . Larissa) ، وألحق تساليا .

وفى ١٧ تموز ١٣٩٣ ، دخل الجيش التركى إلى ترنوفا وخلع ملكها الأخير شيشمان من العرش ، أما أخوه الأمير ستراتسمير فقد تمكن من البقاء حتى ت ١٣٩٦/١ .

(كانت ترنوفا وفيدين يحكمهما أميران بلغاريان يتبعان الإدارة العثمانية) .

وفى الوقت الذى كان فيه البادشاه فى روملى ، شكل فى الأناضول كل من قره مان – وجاندار وقاضى برهان الدين حلفا ضد العثمانية .

جاء السلطان بايزيد من بورصة إلى قسطمونى . أراد جاندار اوغلو سليمان باشا الثانى ، صهر فاتح روملى ولى عهد – شهزاده غازى سليمان باشا ، صده ، ولكنه هزم وسقط قتيلا (ت ٢/ ١٣٩٢) . انتقلت ولايات قسطمونى ، زونغلداق ، جانقيرى ، جورم إلى العثمانية . أما اسفنديار بك أخو سليمان باشا الثانى الموجود فى سينوب – من بنى عثمان من جهة الأم – فقد عرض طاعته .

أما الحرب مع قاضى برهان الدين فقد كانت أشد ، كان الجيش العثمانى قد دخل فى البداية إلى سيواس ، ثم قيصرى (إيلول ١٣٩١) . هزم القاضى برهان الدين ، الجيش العثمانى الذى يقوده ابن يلدرم الثانى شهزاده أرطغرل فى حرب قرق ديليم الميدانية قرب جورم وقتل الشهزاده (تموز ١٣٩٢) . جاء شهزاده محمد إلى آماسيا مع ٣٠٠٠٠ جندى (ك ١٣٩٣/٢) .

استمرت الفتوحات فى مكدونيا الشمالية وفى البانيا . فتحت اسكب التى استعادها الصربيون لفترة ، بصورة نهائيه (١٣٩٢/١/٦) .

وفى ١٣٩٧ ، جاء السلطان يلدرم بايزيد إلى اليونان . دخل أثينا . انتقل إلى مورا . أرغم أمراء البيزنط الموجودين فى مورا على قبول خضوعهم لسيادته . وقعت هذه الحملة بعد انتصار نيغبولو .

عاود قره مان التمرد عندما كان الجيش العثمانى فى نيغبولو ، فسار إليه يلدرم بعد عودته من حملة اليونان ألغى البادشاه الذى دخل قونيا فى ١٣٩٧ إمارة قره مان

وألحقها كايالة ثالثة بعد ايالتى اناضولى وروملى .

جاء يلدرم إلى مدينة لارنده (قره مان) . أمر باعدام زوج أخته قره مان أوغلو علاء الدين بك وانتقلت قونية ، نيغده ، اقسراى وديوه لى حصار - إلى العثمانية . سمح يلدرم لفرع من بنى قرة مان بأن يستمر تحت سيادة العثمانية فى الجنوب فى سواحل البحر الأبيض ، فى موت ، سلفكه وآنامور (ايجل وطاش ايلى) .

وفى ربيع عام ١٣٩٨ ، جاء يلدرم إلى صمصون . ألحقت العثمانية سواحل البحر الأسود إلى الحكم العثمانى حتى نهر هارشيت . كانت أراضى امبراطورية طرابزون الرومية (البيزنطية) تبدأ من شرق نهر هارشيت . قتل قاضى برهان الدين فى هذه الأيام (تموز ١٣٩٨) . دخل ولى عهد - شهزاده سليمان مع ٢٤٠٠٠ جندى سيواس وضم جميع أراضى قاضى برهان الدين إلى العثمانية .

وفى ربيع عام ١٣٩٩ ، جاء يلدرم كذلك إلى سيواس وشاهد الوضع . أصبح شهزاده محمد جلبى واليا على سيواس . أخذ البادشاه ملاطية من المماليك فى صيف عام ١٣٩٩ ، وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك فى الوقت الذى كان فيه خطر تيمور ماثلا على أبواب الأناضول (ايلول ١٣٩٩) .

احتل يلدرم كذلك المدن المملوكية كحصن منصور (آدى يمان) ، كاهته ، بسنى دارنده ، ديوريغى ، البستان ووصل الفرات بسيطرة تامة . اعترف بنو دلقادر بعد ذلك بالسيادة العثمانية عليهم (١٣٩٩/٩/٢) ، وخضعت خربوت وارزنجان . وهكذا تكونت الوحدة الأناضولية وأعيد إحياء تركية علاء الدين كيكباد .

(٩) نيغبولو (٢٥ ايلول ١٣٩٦)

كان من نتائج عبور العثمانية من شمال ألطونه ودخولها الأراضى الرومانية والمجرية ، وتهديدها البيزنط بصورة خطيرة ، توحيد جميع أوربا ضد تركية . كما أن محاصرة أو حجز العثمانيين للبيزنط للمرة الثانية طيلة أشهر صيف عام ١٣٩٥ ، وماترتب على ذلك من عدم إمكان الدخول إلى الأسوار البيزنطية أو الخروج منها دون موافقة العثمانية ، بالإضافة إلى قيام السلطان بايزيد بتشييد القلعة المسماة كوزلجه حصار (اناضولى حصارى) على الضفة الآسيوية من البوغاز ، ومحاولة العثمانيين إخراج

اللاتين الكاثوليك من بحر الخزر (ايجه) .. كل ذلك حرض أوربا على تشكيل حملة صليبية جديدة .

حشدت أوربا ١٣٠٠٠٠ جندى مسيحى مجهزين بصورة جيدة ومن خيرة وحدات كل قطر .

أرسلت ملكية المجر ، وملكية فرنسا ، وملكية إنكلترا ، وإمبراطورية ألمانيا ، وملكية بولونيا ، وجمهورية البندقية ، وملكية كستيليا (اسبانيا) ، وملكية آراغون ، والبابوية ، وفرسان رودس ، وملكية النرويج ، وملكية اسكتلندا ، وفرسان توتون Toton ، وجمهورية جنوة ، ودول أوربية صغيرة أخرى – وحداتها الممتازة جدا للانضمام إلى هذا الجيش . ووضعت البندقية أسطولها تحت أمر الحملة . استغرقت الاستعدادات وقتا طويلا ، وكان البابا هو صاحب الدعوة . صرفت الدراهم بمبالغ لم يسبق أن شوهدت فى أوربا القرون الوسطى .

كان كل ذلك يشير إلى أن أوربا قد قررت بصورة نهائية إخراج الأتراك من البلقان وسوقهم إلى الأناضول ، ثم يأتى بعد ذلك الجيش الصليبى إلى القدس ليخلصها من المماليك ! كانت هذه هى الخطة فيما يبدو .

اجتمع المجلس العسكرى الأعلى فى بودابست وانتخب ملك المجر سيغوسمند الأول للقيادة العامة . أعلنت تركيا التى كانت على علم بكل هذه الترتيبات الحرب على المجر فى شباط عام ١٣٩٦ . اجتاز الجيش الصليبى الحدود المجرية – التركية ودخل الأراضى العثمانية . وجاء أمام قلعة نيغبولو على الضفة الجنوبية من ألطونة . لم يستسلم قائد القلعة دوغان بك ، وجاء يلدرم بايزيد أثناء ذلك مع ٧٠٠٠٠ جندى إلى ترنوفا ، وأتم استعداداته النهائيه وسار إلى الصليبيين الذين جاءته الأنباء بتوقفهم منذ ١٥ يوما أمام قلعة نيغبولو . وكان يلدرم بايزيد أرسل من ناحية أخرى ٢٠٠٠٠ جندى إلى ممر شبقا لم يشتركوا فى الحرب .

كان الجيش الصليبى مؤلفا من ١٣٠٠٠٠ جندى ، ٦٠٠٠٠ منه عبارة عن جيش ملكة المجر المكون من أقوامها المختلفة . والوحدة الكبيرة التى تليه هى ١٠٠٠٠ فرنسى بقيادة الأمير الفرنسى قورقوسز (الجسور) Jean . لم يكن هؤلاء قد شاهدوا حربا بهذا الحجم ولاطالعوها فى الكتب . كانوا جنودا جيدين ،

لكنهم كانوا قد اعتادوا على مقاتلة خمسة أو عشرة آلاف شخص وجها لوجه على أكثر تقدير . كل منهم لايجيد لغة الآخر ، وكانوا يجهلون تكتيك الحرب التركى . اضطربوا عندما ضيق يلدرم بايزيد عليهم الخناق ، وأرادوا النجاة عن طريق ألطونة ، لكنهم شاهدوا أن النهر من أوله إلى آخره مرصوف بالسباهية الأتراك . كان الأتراك يقتلون بالسيف من لم يستسلم منهم . سقطت الراية الفرنسية الكبرى على الأرض ورفعت ست مرات لسقوط ستة رجال مختلفين من حملة الراية ، قتلى . أخذ الأتراك الراية عند سقوطها للمرة الأخيرة من يد قائد القوات البحرية الفرنسية الأميرال Jean de Vienne الميت . لم تنجح هذه المقاومة العنيدة فى تلافى وقوع الهزيمة .

مات أو غرق فى نهر ألطونة حوالى ١٠٠٠٠٠ جندى مسيحى ، كما وقع حوالى ١٠٠٠٠ جندى أسرى فى يد الأتراك وتمكن حوالى ٢٠٠٠٠ من الهرب بشكل منفرد . (خسائر الأتراك غير معلومة ؛ تذكر المصادر الأوربية أن حجم الخسائر قد بلغ ٣٠٠٠٠ جندى تركى بين قتيل وجريح) من بين القتلى الأمير فيليب دى لابار والاميرال Devienne .

ومن بين الذين تمكنوا من الهروب ، ملك المجر سيغسموند ، هنرى الرابع ملك انكلترا القادم ، الاميرال الكبير البندق Mocenigo (الذى أصبح بعدها رئيسا للجمهورية) ، Friedrich Von Hohenzollern قائد فرسان تولون Tolon . اما اهم الذين وقعوا فى الأسر ، فهم كونت بوركونديا Jean Sons Peur (قورقوسز جين اى جين الجسور « الذى لايهاب » وهو أحد الشخصيات المهمة فى التاريخ الفرنسى) ، الامير Philippe de Capet - Artois - Eu القائد العام لملكية فرنسا ، الأمير Jacques de Copet - Bourbon - de la Marche ، الامير هنرى دى لورين Hrnri delorraine ، المارشال Bouci cault ومجموعة من ٢٧ شخصا من أكبر أشراف فرنسا ، وأمثال ذلك من الأمم الأخرى .

جرى حصار استانبول الثالث فى ١٣٩٧ بعد نيغبولو ، وجرى الحصار الرابع خلال ١٣٩٩ - ١٤٠١ على إثر ذهاب الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى لانكلترا وزيارته المراكز الأوربية مدة ١٣ شهرا لطلب المساعدة . وكان الحصار الرابع ويحتمل الأخير مستمرا عند دخول تيمور إلى الأناضول . تحقق للقوة البحرية التركية التفوق

البحرى فى بحر ايجه ، بعد نيغبولو وسبقت البندقية فى هذا المجال وقامت بتحركات مهمة .

(١٠) واقعة أنقرة (٢٨ تموز ١٤٠٢)

وخلال هذه السنين أسس تيمور بك الكبير خاقان أتراك الشرق (تركستان) ، امبراطورية عظمى تمتلك أقدر جيش ودولة فى العالم تمتد من الصين إلى مصر . وكان يلدرم بايزيد قد أثبت خاصة بعد انتصاره فى نيغبولو - لأوربا المتحالفة ، انه يملك دولة كبرى وجيشا عظيما ، وانه المقتدر الثانى فى العالم بعد تيمور .

لايمكن لدولتى العالم الأولى والثانية الكبيرتين أن تقيما علاقات حسنة من الناحية الجغرافية السياسية ، حتى ولو كانتا تتكلمان اللغة ذاتها وتدينان بالدين والمذهب ذاته . وهذا ماحدث . تمكن يلدرم من النجاة من بلية تيمور باتباعه دبلوماسية دقيقة . كانت مواهب يلدرم العسكرية أكثر تفوقا من مواهبه الدبلوماسية .

اقترب تيمور إلى تركيا وهو متردد . حمت العثمانية أعداء تيمور بشكل سافر . كان تيمور قد أصبح كبير السن ولم يكن كثير الرغبة فى الحملة على يلدرم بايزيد بنى عثمان الذى يعتبر أكبر الغزاة فى العالم الإسلامى وإثارة مشاعر العالم الإسلامى التى لم تكن أساساً فى صالحه . لكنه كان عازما على فتح الصين وادخال هذه البلاد إلى الإسلام ، وكان يعلم أن العثمانية لاتبالى بأية حدود ، وكان يخشى من استيلائها على أقطار الشرق الأوسط وأقطار الحكام الذين لجأ بعضهم إلى بورصة التى فتحها تيمور حديثا . من المعلوم أن يلدرم كان شابا جسوراً مغروراً وحريصا .

قام تيمور بحملته الأولى على الأناضول فى عام ١٤٠٠ . جاء إلى سيواس . أقام مالقوج أوغلو مصطفى بك دفاعه الطويل والمخيف بـ ٤٠٠٠ من جنده تجاه مالا يقل عن مائتى ألف من جيش تيمور . دخل تيمور المدينة وخربها . قتل كافة الأسرى العثمانيين وعددا غير قليل من الشعب . لكنه لم يكن قد شاهد خلال حياته الطويلة صمود قلعة إلى هذه الدرجة من الشدة . وأدرك عدم إمكان اسقاط القلاع الأناضولية الواحدة تلو الأخرى على هذا المنوال . كان عليه ان يظفر بالجيش العثمانى السيار ، ويبيده . انسحب تيمور من الاناضول إلى قفقاسيا بعد أن أخذ من العثمانية ملاطية (١٤٠٠/٩/١٥) ، وخلال ذلك كان السلطان بايزيد قد حضر مع جيشه

إلى قيصرى . رفض تيمور الحرب ، كان يأمل أن يقر يلدرم بتبعيته له مثل سلاطين ألطون اوردى ، المماليك والهند . لم يتحقق أمله هذا ، وردّ يلدرم طلب تيمور بصيغة فيها تحقير . حاول تيمور خلال قضائه الشتاء فى ققفاسيا ، اقناع امرائه بشن حرب نهائية مع العثمانية . كان رأى أمراء تيمور وحتى أولاده وأحفاده ، أنه لايليق بهم الحملة على الدولة العثمانية السنية — الحنفية مثلهم والتى تنطق بالتركية والتى تعتبر حاملة لراية جهاد الدين الإسلامى . أقنع تيمور قواده الذين خالفوه فى رأيه باحتمال ضرب يلدرم الجيش التيمورى من الخلف أثناء حملته على الصين . وساعده على إقناعهم بهذا سياسة يلدرم .

دخل تيمور الأناضول مجددا فى ١٤٠٢ ، وفى شهر تموز وصل أنقرة . تجول مدة طويلة فى الأناضول وأتعب يلدرم الذى كان يتعقبه . كان لديه ٣٠٠ ٠٠٠ جندى وجميعهم منظمون جدا .وفى مقدمة الجيش ٣٢ فيلا مدرعا تدهش الناظرين . كان أبناء تيمور واحفاد كثيرون له قواد فرق فى الجيش . جاء يلدرم مع ١٢٠ ٠٠٠ جندى . بدأ الصدام فى صباح يوم ٢٨ تموز واستمر حتى غروب الشمس . لجأ جميع الأمراء التركمان الذين حرمهم يلدرم من عروشهم إلى تيمور وانضموا بوحدات اماراتهم إلى جيشه . كان ذلك أحد الأسباب الكبرى فى هزيمة العثمانية . ذلك بالاضافة إلى أن فارق العدد كان كبيرا ، ونحو العصر ، قطع ولى عهد — شهزاده سليمان مع الوزير الأعظم جاندارلى — زاده على باشا الأمل فى النصر ، فتركا ساحة الحرب مع فيلق مؤلف من ٣٠ ٠٠٠ شخص .

كان البادشاه فى القلب وقد ظل يحارب إلى أن أسر ليلا فى جتالتبه .

كانت خسائر تيمور ٤٠ ٠٠٠ ، وهى خسارة لم يسبق له أن تكبدها ، فقد كان أقصى ماتكبده من خسائر فى معارك سابقة لايزيد على ٦٠٠٠ . كان طريق سمرقند — انقره ، الذى يبلغ طوله الحقيقى حوالى ٦٠٠٠ كم بعيدا جدا عن قاعدته . وقد أخطأ يلدرم خطأ كبيرا بقبوله الحرب الميدانية بدلا من حرب العصابات .

كانت معركة أنقرة أكبر حرب ميدانية حدثت على وجه الأرض خلال القرون الوسطى (٤٧٦ — ١٤٥٣) . وفى هذه الحرب التحم اثنان من أكبر الحكام العسكريين فى التاريخ ، وفيها تبارى لاحراز النصر خاقانان تركيان مسلمان كانا يقتسمان الاقطار بين الصين والادرياتيك ومعهما أبناؤهما .

ولذلك فإن معركة أنقرة تعد فى التاريخ التركى إحدى أكبر الكوارث التى أخرت نمو العثمانية وفتوحاتها نصف قرن ، كما أطالت عمر البيزنط والقرون الوسطى ٥٠ سنة ، بالاضافة إلى أنها أخرت وحدة الأناضول ٧٠ سنة . ولم يتمكن السلطان ياوز سليم من ضم بعض الأراضى التى كانت على عهد يلدرم أراضى عثمانية إلى الأراضى التركية مجددا إلا بعد ١١٥ عاما من معركة أنقرة .

عاش السلطان بايزيد الذى أسره تيمور فى الأسر مدة ٧ أشهر و١٢ يوما . توفى فى آقشهر قرب قونيه فى ٣ آذار ١٤٠٣ . ارسل جثمانه إلى بورصه . وعلى اثر وفاته ، اطلق تيمور سراح موسى جلبى أحد ابنى بايزيد الذين أسرا معه . وأحضر مصطفى جلبى ابنه الآخر الذى يكبره إلى سمرقند .

دامت سلطنة يلدرم بايزيد مدة ١٣ سنة ، وشهراً ، و٨ أيام وكان عند وفاته فى سن ٤٣ .

نال بصورة رسمية وكذلك بتصديق من الخليفة العباسى فى القاهرة لقب « سلطان إقليم روم » وأعلن نفسه امبراطورا على روما وأضاف هذا اللقب إلى سلطنته حيث إنه كان متبوعا لامبراطور روما الشرقية .

بلغت مساحة دولة تركية قبيل معركة انقرة ٩٤٢٠٠٠ كم^2 ، بما يعنى أنها توسعت خلال ١٣ سنة نحواً من ٤٤٣٠٠٠ كم^{2}منها ٤٤١٠٠٠ كم^2 منها فى أوربا فى البلقان ، ونحو ٥٠٠٠٠٠ كم^2 فى آسيا فى الأناضول .

أما الدول المستقلة ذاتيا فى هذه الأراضى فهى : إمارة افلاق (رومانيا) وإمارة الصرب وإمارة مورا البيزنطية ودوقية أثينا اللاتينية وإمارة دلقادر . وبقية الإمارات كان يديرها الولاة العثمانيون بصورة مباشرة .

من أشهر القواد الذين ساعدوا يلدرم بايزيد والسلاطين الذين سبقوه فى هذه الفتوحات : حاجى ايلبكى (وفاته ١٣٦٤) والوزير لالاشاهين باشا (وفاته ١٣٨٦) والوزير الأعظم جاندارلى خير الدين باشا (وفاته ١٤٠٦) والوزير قره تيمور طاش باشا (وفاته ١٤٠٤) وغازى افرنوس بك (وفاته ١٤١٧) وغازى اسحق بك (وفاته ١٤١٥) .

(١١) دور الفترة : سليمان الأول (١٤٠٢ - ١٤١٠) و موسى جلبي (١٤١٠ - ١٤١٣)

خلف يلدرم بايزيد أبناء كثيرون وهم حسب تسلسل أعمارهم : سليمان الاول (١٣٧٥ - ١٤١٠) (ولى عهد فى ١٣٨٩ - ١٤٠٢) ، شهزاده ارطغرل (١٣٧٦ - ١٣٩٦) عيسى جلبي (١٣٧٨ - ١٤٠٥) ، مصطفى جلبى (١٣٨٠ - ١٤٢٢) ، محمد الأول (١٣٨٢ - ١٤٢١) ، موسى جلبى (١٣٨٨ - ١٤١٣) ، شهزاده قاسم (١٣٩٧ - ١٤١٧) ، شهزاده يوسف ، شهزاده إبراهيم الذى توفى وأبوه على قيد الحياة ، شهزاده حسن (وفاته ١٤٠٣) ، وابن آخر شهزاده بيوك موسى جلبى مات وهو طفل نحو ١٣٨٨ .

ترك أولو شهزاده سليمان ومعه اخوانه ، ساحة حرب أنقرة وجاء إلى بورصة ، وخرج من مدينة العرش على وجه السرعة بحيث ترك فيها الخزينة وارشيف الدولة ، فقد كان يطارده ٣٠٠٠٠ خيال تركستانى واثنان من أحفاد تيمور سلطان محمد وأبو بكر ميرزا . نهب التيموريون خزينة بنى عثمان التى كانت حصيلة ٤ بطون وحرقوا أرشيف الدولة ، لذلك فإن الوثائق الرسمية الموجودة فى حوزتنا التى ترجع للقرن ١٤ من التاريخ العثمانى غير وافية . جاء أبو بكر ميرزا بعد ذلك إلى ايزنك ونهبها كذلك .

اجتاز شهزاده سليمان البوغاز وذهب ناجيا بنفسه إلى ادرنه . أعلن نفسه سلطانا باسم سليمان الأول . وخلال ذلك أعاد تيمور إلى أمراء الأناضول السابقين دولهم التى أخذها منهم يلدرم بايزيد قبل عدة سنوات .

لم يحاول العبور إلى روملى ، فقد كان يخشى الكوماندو الخيالة فى روملى الذين يسمون (روملى آقينجيلرى) الذين سمع بشهرتهم وشجاعتهم فى القتال ، وكان يريد فى الوقت ذاته الإسراع فى الذهاب إلى الصين . أعيد احياء امارات (بكلك) قرة مان ، آيدن ، صاروخان ، منتشه ، جرميان ، جاندار ، تكه .

أعطى تيمور إلى اثنين من أولاد يلدرم هما عيسى ومحمد جلبى المناطق الأخرى من الأناضول ، أما سليمان الأول الذى يحكم الأراضى الأوربية ، فقد قبل أن يكون تابعا لتيمور .

جاء تيمور أمام أزمير ، وكانت المدينة مقسمة بين الأتراك وفرسان رودس (Saint - Jean) ، قسم من القلعة كان بيد الفرسان وكان يسميها الأتراك « كاوور أزمير » بمعنى « أزمير الكافرة أو غير المسلمة » ، وكان آيدن أوغلو غازى أومور بك قد سقط شهيدا أمام أسوار هذه القلعة عندما أراد استرجاعها .

احتل تيمور القلعة بعد حصار دام ١٥ يوما وسلمها إلى آيدن أوغلو ، ويعتبر هذا هو العمل المجدى الوحيد الذى حققه فى الأناضول .

انهى تيمور حملة الأناضول المشئومة وقد أصبح الأناضول تابعاً لـ ٦ امبراطوريات ؛ ألطون أوردى (أوربا الشرقية التركية) ، والمملوكية المصرية – السورية ، والهندية ، والتركية (العثمانية) ، والبيزنطية وامبراطورية طرابزون الرومية ، ولعشرات الملوك ومئات الأمراء . ذهب نحو تركستان لحملة الصين ، ولو شاء لتمكن من فتح البيزنط خلال عدة أسابيع ولو فعل ذلك لحصل على شرف كبير ، لكن سحر الصين كان قد غلب عليه .

يطلق فى التاريخ العثمانى على الفترة الزمنية المنحصرة بين حرب أنقرة وتوحيد تركية تحت إدارة واحدة على يد محمد الأول « دور الفترة » (فترت دورى) ، وهى فترة الخصام على العرش بين أبناء يلدرم بايزيد ، ومدتها ١٠ سنوات ، و١١ شهرا ، و٨ أيام . كان تيمور فى الأناضول فى الثمانية أشهر الأولى منها (غادر تركية فى آذار ١٤٠٣) .

لاشك فى أن البادشاه كان هو سليمان الأول الموجود فى أدرنة ، وكان أخوه محمد جلبى المقيم فى آماسيا يمتلك أراضى كبيرة . أما عيسى جلبى ، فانه سيطر لفترة من الزمن على بورصة لكن أخاه الصغير محمد جلبى نحاه وقتله .

وكان أصغر الأخوة هو موسى جلبى . وكل الأخوة كانوا يعترفون بلا شك بسلطنة سليمان الأول ، لكنهم كانوا يسعون لحصره فى حدود ضيقة ، أو اسقاطه إذا أمكن .

أنهت إقامة السلطان سليمان فى أدرنه دور مدينة بورصه كقاعدة ومدينة عرش دامت ٧٦ سنة ، و٤ أشهر (١٣٢٦ – ١٤٠٢) وبدأ دور مدينة أدرنه التى ستظل

مدينة العرش لمدة ٥١ سنة (حتى عام ١٤٥٣) . ظل دور بورصه مستمرا كمدينة عرش للأراضى الأناضولية .

حاول السلطان سليمان ، حيازة الأراضى الأناضولية . أخذ بورصة ، أنقرة ، أزمير . بقى لدى محمد جلبى منطقة أماسيه - توقات - سيواس فقط .

دخلت آيدن وجرميان تحت سيادة محمد جلبى واعتبراه سيدا لهما .

أخذ السلطان سليمان الذى جاء إلى أزمير آيدن من حوزة ايدن اوغلو جنيد بك وانهى إمارته مرة أخرى .

كان قرة مان ضد السلطان سليمان ويزعم انه حليف لمحمد جلبى . اعلن موسى جلبى طاعته لاخيه الكبير محمد جلبى واجتاز إلى روملى بغية اسقاط السلطان سليمان لحساب محمد جلبى وباسمه .

اعترف أمير رومانيا (افلاق) بتبعيته لموسى جلبى ، أما أمير صربستان فقد اعترف بسيادة السلطان سليمان .

وقع الصدام الأول قرب جتالجه ، وفر موسى جلبى أمام أخيه الكبير . لكن بعض القواد لم يكونوا مرتاحين للسلطان سليمان ، فدعوا موسى جلبى الذى هرب إلى رومانيا . بوغت السلطان سليمان بالهجوم على مسكنه ، فترك ادرنه ، وقتل فى الطريق (١٨/٥/١٤١٠) وعمره ٣٥ سنة . دامت سلطنته ٧ سنوات ، و٩ أشهر ، و٢١ يوما .

اعتلى السلطان موسى العرش . بينما كان قد وعد بأخذ روملى من أكبر اخوته السلطان سليمان باسم محمد جلبى الذى سانده على هذا الأساس . كان عسكريا شديدا ، من جهة الأم من بنى كرميان ومن جهة أم أمة من أحفاد مولانا جلال الدين الرومى . أعلن نفسه سلطاناً وبقى أخوه محمد جلبى فى الأناضول .

كان محمد جلبى دبلوماسيا حاذقا . أخذ الأمبراطور الذى تخلص من الحصار بصعوبة ، بمساندة محمد جلبى بكل إمكاناته .

أراد موسى استعادة سلانيك من البيزنط ولكنه لم يوفق ، واستعاد جتالجه وهزم قرب جتالجه أخاه محمد جلبى الذى ثار عليه . جرح محمد جلبى وذهب إلى البيزنط

ونجا بنفسه ، وبقى مدة فى استانبول كضيف على الامبراطور الذى رحب به وعمل على معالجته .

كرر موسى خطأ أخيه سليمان وأغضب أمراء صاعقة روملى المغاوير ، بدأت كفة الميزان تميل فى غير صالح موسى ، وأعلن أمير الصرب تبعيته لمحمد جلبى ، وجه أمراء صاعقة روملى الدعوة لمحمد جلبى ، عبر محمد جلبى إلى روملى للمرة الثالثة ومعه ٣٠٠٠٠ جندى وانضم إليه مغاوير روملى كما أرسل أمير صربيا وحدات عسكرية إليه ، هزم جيش موسى جلبى قرب ويزه .

تعقب محمد جلبى أثر أخيه الصغير موسى وهزمه وقتله فى الحرب الميدانية جامورلو دربند التى وقعت قرب ساماكوف فى جنوب شرق صوفيا . أرسل نعشه إلى بورصة كما أرسل نعش سليمان الأول . كان عمره ٢٥ سنة . دامت سلطنته ٣ سنوات ، وشهرا ، و٢٣ يوما . لم يعقب ولدا ، أما سليمان الأول فقد خلف الشهزاده أورخان (١٣٩٥ - ١٤٤٩) ، الشهزاده محمد - شاه (١٤٠٨ - ١٤٢١) و ٣ اطفال باسم باشا - ملك - خاتون ، وأحفاد كثيرون من هؤلاء .

أرسل أصغر أبناء تيمور الرابع الخاقان الأكبر سلطان شاه رخ ، كتابا إلى محمد جلبى الذى كان تابعا له ، يكدره فيه لقتله أخيه موسى . أجابه محمد جلبى برسالة يعتذر فيها ، وحصل بهذه الرسالة على مصادقته على سلطنته . وهكذا انتهى دور الفترة .

قضى محمد جلبى على امارة صاروخان فى دور الفترة منذ ١٤١٠ ، واعترفت أكثرية الامارات الاناضولية التى أحياها تيمور عدا قره مان ، بسيادة بنى عثمان عليها منذ عهد الفترة ، ورغم ذلك فإن الأراضى التى تحت حماية أو حكم العثمانية فى ١٤١٣ ، تسجل نقصا قدره ٢٤٧٠٠٠ كم٢ عما كانت عليه فى عهد يلدرم فى ١٤٠٢ ، وهذه خسارة لايستهان بها . كان محمد جلبى فى ١٤١٣ يسيطر على أراض تبلغ مساحتها ٦٩٤٠٠٠ كم٢ منها ٣٦٨٠٠٠ كم٢ فى أناضولى و٣٧٦٠٠٠ كم٢ فى روملى . مناطق تكه ، آيدن ، دلقادر ، افلاق ، صربستان ، (محميات دبروفنك ضمن هذا العدد) . أما إمارات جرميان ، جاندار ، منتشه ، وقره مان ، فقد كانت تدعى الاستقلال تماما أو الاعتراف بسيادة بنى تيمور .

(١٢) السلطان محمد جلبى (الأول) (١٤١٣ - ١٤٢١)

أصبح الآن على عاتق السلطان محمد جلبى العمل على توحيد الوضع الدبلوماسى المبعثر إلى درجة كبيرة فى الأناضول ، والوصول بالدولة - قدر الإمكان - إلى مرحلة من القوة التى كانت عليها أيام والده ، وبالنظر إلى التوفيق الكبير الذى صادف السلطان محمد جلبى فى تحقيق ذلك ، فإن بعض المؤرخين العثمانيين يعتبرونه المؤسس الثانى للدولة .

وبينما كان السلطان محمد منشغلا فى روملى ، لم يضيع الفرصة ابن عمته قرة مان اوغلو محمد بك الثانى الذى زاد فى غضبه ، إعلان جرميان اوغلو يعقوب بك خضوعه لمحمد جلبى ، وسار إلى بورصة ولكنه رغم محاصرته حاجى عوض باشا الذى دافع عن القلعة مدة ٣١ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . وعلى اثر ذلك أخرج من قبر يلدرم بايزيد الموجود خارج القلعة عظام البادشاه الذى توفى قبل ١٠ سنوات ، وقام بعمل شنيع لايتقبله العقل فأحرق عظام خاله يلدرم بايزيد ، الذى يعتبره مسلمو العالم أجمع سلطان الغزاة وأكبر بطل إسلامى ، واثناء ذلك كانت وحدة عثمانية صغيرة تجلب نعش موسى جلبى إلى بورصة ، فظن قرة مان اوغلو ان هذه الوحدة طليعة للجيش العثمانى ، وأعطى أمر الانسحاب . لم يتمالك أحد القره مانيين من ضباط الخاصة الملقب « هارمان داناسى » الذى تأثر لهذا الأمر ، إلا أنه قال : « سيدى السلطان ، تهرب من ميت بنى عثمان بهذا الشكل ، فماذا يكون حالك لو جاءك حيه ؟ » اعدم هذا الضابط شنقا فى الحال لجرأته على هذا القول .

وهكذا بدأ السلطان محمد جلبى سلطنته فى مثل هذا الجو الفوضوى . كان لدى محمد جلبى تجربة حكم لمدة ١١ سنة فى دور الفترة . جاء إلى أزمير . ألغى إمارة آيدن . قبل خضوع جاندار اوغلو . استصحب معه وحدات تابعية جاندار وجرميان وسار على قرة مان . أسر ابن عمته قره مان اوغلو محمد بك الثانى ، لكنه بعد أن سمح له بتقبيل يده وأخذ منه عهد الاخلاص - الذى لن يوفى به أبدا - أطلق سراحه . قلص حدود قره مان بصورة كبيرة وذلك بالحاقه سيورى حصار ، بك بازار ، يالواج ، شرقى قره آغاج ، قيرشهرى ، آقشهر ، بكشهرى ، سيد يشهرى التى اعطاها تيمور لقره مان ، إلى العثمانية . مثل فى حضرة السلطان - خلال حملته الأناضولية هذه - كل من أمراء جرميان ، منتشه ، تكه ، استاذ اعظم رودس وامراء

جنوه وقبلوا يده . أرسل الأسطول بقيادة جالى بك إلى جزر آغريبوز وكيكلاد التابعة للبندقية . وفى أيار عام ١٤١٦ ، جاء الأسطول البندق إلى مدخل بوغاز جناقلعة للانتقام . جرح الأميرال Loredano ، واستشهد جالى بك الذى كان قائدا لـ ٤٢ سفينة .

استمر ملوك المجر وبوسنه فى البلقان على موقفهم المعادى للعثمانية . انتخب ملك المجر سيكسموند Sigismund فى ذات الوقت امبراطورا على ألمانيا . ومن ثم فقد تحتم على العثمانية اتخاذ التدابير حيال تفاقم الخطر فى شمال الطونة . اقترب الامبراطور – الملك سيكسموند إلى الحدود التركية ، فالتقى غازى اسحق بك بجيش العدو فى DoboJ فى خرواتيا فبعثره . أدى انتصار قائد تركى برتبة لواء (سنجق بك) فى معركة ميدانية على امبراطور إلى إخافة أعداء الأتراك فى البلقان . أعلن دوق هرسك طاعته للبادشاه . فتحت بعض الأماكن فى بوسنه . تقدم اسحق بك حتى وصل سلوفينيا . سقطت القصبة الصغيرة المسماة (سراى بوسنه) SaraJevo التى يسميها الاتراك « بوسنه سراى » على يد العثمانية بعد حرب DoboJ عام ١٤١٥ ، وقد جعل الاتراك من هذه القصبة الصغيرة بلدة كبيرة وشرعوا فى تجهيزها لتكون مركزا لبوسنه .

وفى ١٤١٦ استصحب السلطان محمد الوحدات التى أرسلها إليه تابعيه قره مان وجاندار ، واجتاز الطونة نحو الشمال ودخل رومانيا . شيد قلعتى تورنو ويركوى داخل رومانيا فى شمال الطونه . ربط افلاق بتركيا براوبط أمتن . عقابا للمجر رتب السلطان محمد هجمات على ترانسلفانيا (بالتركية : اردل) فى السنوات ١٤١٦ ، ١٤٢٠ و ١٤٢١ على التوالى . (الحملة الأولى على جرت فى ١٣٩١) .

دخل اسحق بك إلى ستيريا . أراد الجيش الألمانى – المجرى الدفاع عن شبه الجزيرة (شبه الجزيرة التى يقع غليها ميناء تريسته) . خسر ١٢٠٠٠ قتيل من المشاة ، ٧٤٠٠ من الخيالة ، ٣ جنرالات . أغرى هذا النصر اسحق بك فسار إلى ترانسلفانيا ؛ لكنه استشهد فيها .

ارتبطت دوبروجا بالنظام العثمانى بروابط متينة .

دخل الجيش العثمانى بيسارابيا وحاصر قلعة Cetatea Alba (بالتركية : اكيرمان) لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها .

جاء السلطان محمد فى السنة التالية إلى سينوب وصامصون وألحق بامبراطوريته بعض أراضى جاندار بصورة مباشرة .

فى غضون ذلك كله ، بدأ عصيان الشيخ بدر الدين .

من هو الشيخ بدر الدين وماأفكاره ؟

كان الشيخ بدر الدين عالما إسلاميا كبيرا ، ألف فى العلوم الدينية باللغة العربية ، تولى وظيفة « القاضى عسكر » لجلبى ، شارك فى مناظرات دينية عديدة فى حضرة تيمور فى تبريز ، وعندما ذهب إلى القاهرة ، أصبح استاذا للسلطان المملوكى فرج .

بدأ الشيخ بدر الدين فى نشر عقيدة غريبة وجمع حوله حشودا،مستثمرا الآثار الناشئة عن اضطرابات وآلام دور الفترة ، الأمر الذى أحدث تأثيرا فى النظام .

تتلخص آراء الشيخ بدر الدين فى:ـإنكار الوجود المادى للجنة ولجهنم موئلا ماورد فيهما من آيات على محمل الأثر النفسى الذى يجده المؤمن من عمل الحسنة أو اقتراف السيئة ، ويرتبط بذلك انكاره للقيامة والبعث بعد الموت

- تساوى الموسويين والمسلمين فى الناحية الإيمانية
- أن الرسول ﷺ ليس أفضل من غيره من الرسل ، وأن رسالته لاتختلف عنهم
- إنكار حق التملك ، والقول بشيوعية المال والملك .

كثر اتباع الشيخ بدر الدين ، وأخذوا فى نشر مذهبهم بالقوة والتعرض للناس والأموال ، فقتلوا الآلاف واجترءوا على أمير لواء أزمير اسكندر بك وقتلوه .

قبض على الشيخ بدر الدين فى دلى اورمان جنوب دوبروجه فى روملى ، وحاكمه السلطان محمد فى Serez واعدمه فى ١٤٢٠ .

ظهر مصطفى جلبى الأخ الأكبر للسلطان محمد فى مثل هذا الجو .

كان تيمور قد أرسل مصطفى جلبى إلى سمرقند ، وبعد سنوات طويلة اطلق سراحه وعاد إلى تركيا .

لاتوجد معلومات عن حياته وأعماله خلال هذه الأعوام الـ ١٦ .

وعلى الرغم من أنه من الثابت أنه الابن الحقيقى للسلطان يلدرم بايزيد ، فإن جلبى محمد أعلن أنه شخص محتال وأنه « ددزمه مصطفى » أى مصطفى المزيف .

مكث مصطفى عند قدومه إلى تركيا فى نيغده قره مان أولا ، ثم ذهب هناك إلى افلاق ، وحصل على تأييد أميرها وتأييد آيدن اوغلو جنيد بك الذى عين واليا (سنجق بك) على نيغبولو فى جنوب افلاق ، ثم نزل إلى الجنوب مع بعض الوحدات التى انضمت إليه . هزمه أخوه السلطان محمد قرب سلانيك . تمكن من الهرب مع جنيد بك إلى سلانيك ولجأ إلى البيزنط . نفاهما الامبراطور إلى جزيرة ليمنى ، واقسم الامبراطور على عدم إطلاق سراحيهما مادام مصطفى جلبى حيا مقابل ٣٠٠ ٠٠٠ آقجه يتسلمها كل عام .

جاء السلطان محمد إلى إستانبول ، وزار الامبراطور مانويل الثانى بصورة رسمية للمرة الثانية . كان مجىء السلطان محمد بواسطة البحر ، ونزل إلى البر فى دولمه بقجه . وعند عودته عبر معه الامبراطور إلى اسكدار ، أى حتى حدود الأراضى العثمانية .

وفى ١٤٢١/٥/٤ توفى غياث الدين غازى جلبى سلطام محمد خان ، فى سن ٣٩ فى ادرنه ، ونقل إلى بورصه ودفن فى قبرها المشهور بيشيل تربه (أى القبر الأخضر) ، لم يذع خبر وفاته مدة ٤١ يوما ، وأغلقت كل الحدود لحين حضور ابنه الذى كان واليا فى آماسيا ، إذ كان يخشى من قدوم السلطان مصطفى من ليمنى التى هى أقرب إلى ادرنه وجلوسه على العرش .

دامت سلطنته منفردا ٧ سنوات ، ٩ أشهر ، ٢٦ يوما . وإذا أدخلنا دور الفترة تصبح المدة ١٨ سنة و٩ أشهر و٧ أيام..كانت مساحة الامبراطورية عام ١٤٠٢ (٩٤٢٠٠٠ كم^{٢}) ، وعند وفاة السلطان محمد عام ١٤٢١ كانت مساحة الامبراطورية ٨٧٠٠٠٠ كم^{٢} ، ولاينبغى النظر إلى الفارق (وقدره ٧٢٠٠٠ كم^{٢}) على أنه نقص ، بل إن الدولة تعتبر قد قطعت مرحلة كبيرة . أما هذا النقص فقد نشأ أساساً عن ظروف دور الفترة وماكتنفها من كثرة مناطق الحماية (كانت مناطق الحماية : جمهورية دبروفنك ، إمارة افلاق ، إمارة صربيا ، إمارة قره مان ، دلقادر ، جاندار ، تكه ، منتشه وجرميان) .

١٣) مراد الثانى (١٤٢١ - ١٤٥١) :
فترة سلطنته الاولى

ولد فى آماسيا فى ١٤٠٤ ، أمه دلقادر أوغلوا أمينة خاتون ، تولى العرش وهو فى سن الـ ١٧ فى جو متأزم ؛ فقد أعلن السلطان مصطفى الذى خرج إلى ميناء غاليبولى ، سلطنته للمرة الثانية ، بعد أن أطلق الأمبراطور البيزنطى سراحه ، ومعه جنيد وعشرة من رجاله عند وصول مراد الثانى إلى ادرنه بعد وفاة والده بـ ٤١ يوما كما أشرنا من قبل .

اعترف الجيش فى روملى بسلطنه السلطان مصطفى على أساس انه مادام العم موجودا فلا مبرر لجلوس ابن الأخ على العرش ، جاء مصطفى جلبى إلى أدرنه وجلس على العرش (١٤٢١/٨/٣٠) .

لم يبق أمام مصطفى جلبى إلا أن يحتل الأناضول وينحى ابن أخيه . اجتاز بوغاز جناقلعه من غاليبولى وصعد إلى البر من لابسكى (١٤٢٢/١/٢٠) . وسار نحو بورصة حيث السلطان مراد مع ١٢٠٠٠ خيال و ٥٠٠٠ من جنود المشاة . تقابل الجيشان فى ساحل نهر اولوباد .

لم تكن لدى الطرفين رغبة فى القتال ، وأخذ الطرفان ينظر أحدهما إلى الآخر دون أن يشهر أحد منهم السلاح . وبعد حوار ونقاش ، رجحت كفة الطرف الذى يساند السلطان مراد .

هرب السلطان مصطفى مع معية قليلة إلى غاليبولى ، ومنها إلى ادرنه ، طارده ابن أخيه ، وقبض عليه فى شمال إدرنه وأعدمه بدعوى أنه منتحل للشخصية الحقيقية لمصطفى .

دامت سلطنته الثانية هذه فى أوربا ٩ أشهر (آذار ١٤٢٢) . كان عمره عند إعدامه ٤٢ سنة .

وفى ١٤٢٥ قبض على ابنه الشهزاده وعلى ايدن اوغلو جنيد بك واعدما فى ايسالا .

حاصر مراد الثانى البيزنط لإطلاقهم سراح عمه وهو الأمر الذى تسبب فى حرب داخلية .

استمر هذا الحصار - وقد كان من أشد المرات التى ضرب فيها الحصار - مدة ٦٤ يوما بأسطول وجيش قوامه ٣٠٠٠٠ جندى ، لكن المدافع التركية لم تحدث أضرارا جدية فى الأسوار ، ومع ذلك فقد كان احتمال سقوط المدينة كبيرا .

رفع مراد الثانى الحصار على اثر ادعاء أخيه الصغير أمير ايسالا (حميد) كوجوك (الصغير) مصطفى البالغ عمره ١٣ سنة - بتحريض من البيزنط - السلطنة فى ايزنك . (كان الشهزاده مصطفى قد قدم إلى استانبول وقابل الامبراطور) . قبض عليه واعدم .

عقد صلح مع البيزنط شرط دفعهم ٣٠٠٠٠٠ آقجه ضريبة سنوية (١٤٢٤/٢/٢٢) .

كان السلطان مراد قد حاصر سلانيك عام ١٤٢٣ ، لكنه لم يتمكن من أخذها . وافقت البيزنط على دفع ١٠٠٠٠٠ آقجه فى السنة كخراج عن سلانيك .

وجه السلطان مراد حملته بعد ذلك إلى الأناضول على الإمارات التى تمردت أثناء انشغاله مع البيزنط .

جاء إلى إمارة جاندار وقلص حدودها ، لكنه ترك جاندار اوغلوا سفنديار بك فى منصبه لأعتبارات خاصة ، فقد كان اسفنديار بك من بنى عثمان من جهة الأم ، وزوّج ابنته من مراد الثانى ، كما تزوج ابنا اسغنديار أوغلو باختى البادشاه .

نزل السلطان مراد بعد ذلك إلى البحر الأبيض فى ١٤٢٥ . وقضى بصورة نهائية على إمارتى منتشه (موغلا) وآيدن . ومنيت إمارة تكه بالعاقبة نفسها .

حاول قرة مان اوغلو محمد بك الثانى الاستيلاء على المرفأ العثمانى انطاليه ، ولكنه مات بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة . ومع أنه حفيد مراد الأول من جهة الأم ، كان ألد أعداء العثمانية زوج السلطان مراد أخواته الثلاث بأبناء محمد بك الثلاثة وأرسلهم إلى روملى كأمراء ألويه .

توفى جرميان اوغلو يعقوب بك وهو طاعن فى السن (ك ١٤٢٨/٢) ، وأوصى عند وفاته باعطاء إمارة جرميان (كوتاهيه) إلى قريبه مراد الثانى ونفذت وصيته .

وهكذا أمحت فى السنوات الأولى من جلوس السلطان مراد ، كل من امارات آيدن تكه ، منتشه ، جرميان وأصبحت فى ذمة التاريخ .

بدأت الحرب التى سوف تستمر ٥ سنوات مع جمهورية البندقية فى ١٤٢٥ ، وفى هذه الحرب انضمت ألمانيا والمجر إلى البندقية .

هزم مراد الثانى الذى اجتاز الطونه من فيدين ، الجيش المجرى (١٤٢٦) . دخل الجيش المجرى صربيا بقيادة الأمبراطور - الملك سيكسموند ، هزمه أمير لواء فيدين سنان بك (١٤٢٨) فى الحرب الميدانيه كورجينلك **Guvereinlik** .

طلبت المجر الهدنة لمدة ٣ سنوات بعد هذه الحرب التى خسر فيها امبراطور امام أمير لواء (Tumgeneral) وبقيت البندقية بمفردها أمام تركيا . سار البادشاه نحو سلانيك ، كان هذا الميناء المهم البالغ تعداد أهله ٤٠٠٠٠ نسمه يديره البنادقه باسم البيزنط قد بقى ٨ سنوات و٤ أشهر تحت الإدارة التركية على عهد يلدرم ثم استعاده البيزنط الذين استفادوا من هزيمة أنقرة .

فتح مراد سلانيك بشكل نهائى (١٤٣٠/٣/١٣).بعد حصار استمر لمدة ٣ أسابيع واستعمل الاتراك فيه المدافع .

فتحت يانيا (١٤٣١/١٠/٩) واستعيدت اتير التى خرجت من حوزة العثمانية بعد هزيمة أنقرة .

طلبت البندقية الصلح واعترفت الجمهورية التى وقعت على معاهدة غاليبولى **Gelibolu** بالفتوحات التركية (١٤٣١) .

وعلى إثر تدخل المجر فى صربيا وبوسنة ، نشبت الحرب مجددا مع هذه الدولة . كانت المجر والبندقية قوتين كبيرتين فى العالم المسيحى ؛ فقد كانت المجر أقدر دولة برية ، وكانت البندقية أقدر دولة بحرية فى ذلك العصر .

انضمت ألمانيا إلى المجر . دخل الوزير صاريجه باشا إلى سمندره مركز إمارة صربستان . وعقد صلحا وتزوج مراد الرابع بابنة أمير صربيا مارا .

فى عام ١٤٢٦ قام افرنوس اوغلو على بك بحملة رابعة على ترانسلفانيا (اردل) ،

وفى ١٤٣٢ ، قام بحملة خامسة قوامها ٧٠٠٠٠ من خيالة الصاعقة ، وفى ١٤٣٧ قام بحملة سادسة .

جاء مراد الثانى فى العام ذاته إلى ترانسلفانيا وقضى فيها ٤٥ يوما ، ثم أخذ سمندره بالقرب من جنوب بلغراد بعد حصار دام ٣ أشهر (١٤٣٩/٨/١٨) . وخلال ذلك ، قام البادشاه بحملة على قرمان لإخماد عصيان إبراهيم بك الثانى .

وفى ١٤٣٩ ، حاصر افرنوس اوغلو على بك القلعة المجرية المستحكمة بلغراد لمدة ٦ أشهر ، ولم يتمكن من إسقاطها . وفى غضون عدة سنوات ألغيت إمارة صربيا وأديرت باسم لواء سمندره . اعترفت ملكية بوسنه فى المعاهدة التى عقدت معها (ت ١/ ١٤٣٢) بسيادة البادشاه . وقبلت تبسديد ضريبة سنوية . وقد أغار جنود الصاعقة مرات عديدة على خرواتيا .

جاء السلطان شاه رخ بن تيمور المتبوع السامى لجميع الدول الموجودة فى تركية ومنها العثمانية والخاقان التركستانى ، إلى شرق الأناضول مرتين فى ١٤٢٩ وفى ١٤٣٥ .

قلقت تركيا والسلطنة المملوكية لذلك ، وإن كان مراد الثانى قد أرسل اليه تعظيماته بواسطة السفراء .

تجدد عصيان قره مان اوغلو ١٤٣٧ ، ولكنه خنع عندما ثار عليه أخو زوجته مراد الثانى ، وعلى الرغم من عدم ارتياح المماليك لنفوذ العثمانية على إمارتى قره مان ودلقادر فإن وضع العثمانيين كأكبر غزاه يجاهدون المسيحية فى هذا الوقت ، حال دون أن يترجم المماليك عدم ارتياحهم إلى صورة عملية .

كان الأمبراطور Ioannes الثامن (١٤٢٥ - ١٤٤٨) ، يراقب ازدياد قوة الدولة العثمانية بقلق ، رغم سياسة مراد الثانى التى تبدى جانب الصداقة .

تجول فى أوربا لطلب قروض ومساعدات عسكرية لمواجهة الأتراك .

أعلن البابا اوجينيوس الرابع فى ١٤٣٩ الحملة الصليبية ضد الأتراك ، وفى ١٤٣٩ عندما أصبح ملك بولونيا لاديسلاس ملكا على المجر وبوهيميا فى نفس الوقت ، تشكلت فى شمال الطونه كتلة كاثوليكية مقتدرة معادية للاتراك ، وكانت هذه الدولة

تمتد – بواسطة امارة مولدافيا – (بغدان) التى تحت سيادتها – من البلطق إلى البحر الأسود ؛ وظهر كذلك فى هذه الآونة Hunyadi Janos اكبر عسكرى مسيحى فى عصره .

كان Hunyadi Janos ابنا غير شرعى لملك المجر السابق وأصبح قائدا للمجر ، وكان كاثوليكيا متعصبا هدفه الوحيد فى الحياة إخراج الأتراك من البلقان ومن أوربا . درس تكتيك الحرب العثمانى بصورة جيدة ، وتمكن بهذا من الانتصار على بضعة جيوش عثمانية سارت إليه . اضطر السلطان مراد أن يحمل بنفسه على العدو وسط الشتاء ، وعلى اثر انهزام طليعة السلطان مراد فى الممر المسمى Izladi Derbendi فى شرق صوفيا (١٤٤٣/١٢/٢٤) ، انسحب إلى ادرنه لمعاودة الحملة فى الربيع . وصل هينادى إلى فيليبه يرافقه الملك الشاب لاديسلاس ، وبينما كان الوضع متأزما إلى درجة لم يسبق لها نظير فى روملى ، بدأت فى الأناضول تحركات مضادة للعثمانية .

فى هذه الظروف عاود الأمل قرة مان اوغلو إبراهيم بك الثانى فأرسل إلى ملك المجر – بولونيا رسالة كان من بين فقراتها « لتسر أنت من الأمام وأنا من الخلف ؛ لتكن روملى لك وأناضولى لى ؛ ولنزيل العثمانية من الوجود » ، ثم اجتاز حدوده ودخل الأراضى العثمانية ، لكنه انسحب إلى قونيه على اثر حملة ولى عهد – شهزاده ٣ علاء الدين على عليه .

أثناء هذه الأيام توفى عهد – شهزاده فى أماسيا (آذار ١٤٤٣) وعمره ١٨ سنة ، كانت وفاته كارثة كبيرة بالنسبة للسلطان مراد . نقل جثمان ولى العهد إلى بورصه ودفن فيها ، وأصبح شهزاده محمد بن البادشاه الثانى الذى يبلغ عمره ١١ عاما ، وليا للعهد .

وافق البادشاه فى ظل هذه الظروف على إجراء مفاوضات للصلح مع المجر (١٤٤٤/٥/٢٢) ، فابرمت معاهدة Segedin (١٤٤٤/٧/١٢) ، وتم تبادل نسخ المعاهدة بين أدرنه وبودابست .

اقسم الملك « بالانجيل » و « البادشاه » « بالقرآن » على عدم مخالفتهما شروط هذه المعاهدة ماداما على قيد الحياة .

أسست إمارة صربيا مجددا على أن تكون تابعة للعثمانية ، وهكذا أنشئت منطقة عازلة بين تركيا والمجر .

عقد السلطان مراد فى الشهر ذاته معاهدة صلح مع قره مان .

أفتى مؤرخ الدولة المملوكية - الكبير والفقيه الشافعى ابن حجر العسقلانى (وفاته : ١٤٤٨) وسعد الدين ديرى من قضاة المذهب الحنفى بالقاهرة (وفاته ١٤٦٢) ، بوجوب قتل إبراهيم بك إن لم يتب ويستغفر بسبب ضربه العثمانية من الخلف أثناء جهادهم للكفار .

اضطر قرة مان اوغلو تحت وطأة الضغط المعنوى إلى الاقتراب من الصلح ، ونفذ قسمة مدة ٧ سنوات حتى وفاة مراد الثانى فى (١٤٥١) ، ثم ثار على محمد الثانى بعد وفاة مراد الثانى بحجة أن قسمه كان لشخص البادشاه .

نظرا لاحساس السلطان مراد الثانى بالتعب ، فقد تخلى وعمره ٤٠ سنة عن العرش لصالح ابنه وانسحب إلى سراى مانيسا (آب ١٤٤٤) .

جاء محمد الثانى إلى ادرنه وجلس على العرش وعمره ١٢ سنة ونصف .

(١٤) فترة السلطنة الثانية لمراد الثانى (١٤٤٤ - ١٤٥١) انتصارى فارنا (١٤٤٤) وكوسوفا الثانية (١٤٤٨)

بطبيعة الحال فإن تخلى سلطان كمراد الثاني ـــ بخبرته المشهودة ـــ على العرش ، وتنازله عن السلطة إلى طفل ، أنعش الأمل فى صدور الأوربيين وعلى رأسهم المجر والبيزنط . وبالفعل فقد أبلغ الكاردينال جسارينى ، ملك المجر ـــ بولونيا الملك لاديسلاس ، بأنه فى حل من القسم الذى تعهد به لأنه قسم جرى مع « المسلمين الكفرة » ، ومن ثم فإن البابا يبطل هذا القسم .

اتحدت المجر ، بولونيا ، ألمانيا ، فرنسا ، البندقية ، البيزنط ، البابوية وبرغونديا ، وتشكلت الحملة الصليبية الخامسة ضد العثمانية .

دخل الجيش الصليبى الذى يقوده ظاهرا الملك لاديسلاس ، ويقوده فعلا هنيادى ، إلى تركيا ونزل إلى ساحل البحر الأسود واقترب من فارنا ، حاولوا فى

طريقهم أخذ قلعتى فيدين ونيغبولو ، ولكنهم لم يوفقوا ، نهبوا كل المدن والقصبات والكنائس الأرثوذكسية التى صادفتهم فى طريقهم ، وكان ملك بولونيا – المجر الشاب لاديسلاس قد خطط للذهاب إلى استانبول ليكون صهرا للامبراطور ولم يخطر بباله أن البادشاه سوف يجرؤ على العبور من الأناضول إلى روملى .

بينما تجرى هذه التحركات اجتمع مجلس شورى السلطنة فى أدرنة ، واتخذ قراراً أبلغه الوزير الأعظم جاندارلى زاده خليل باشا إلى محمد الثانى الطفل ، هذا نصه :

« لايمكننا الرد على مقاومة العدو ، اللهم إلا إذا أعتلى والدك السلطان مكانك . أرسلوا والدكم ليجابه العدو وتمتعوا براحتكم . تعود السلطنة إليكم بعد إتمام هذه المهمة » .

أرسل محمد الثانى فى دعوة والده مراد الثانى الموجود فى مغيسيا ، غير أن مرادا الثانى – تحاشيا لكسر سلطان ابنه-أبلغه أن الدفاع عن دولته من واجبات ذاته السلطانية ، فكتب محمد الثانى إلى والده العبارات التالية :

« إن كنا نحن البادشاه فإننا نأمرك : تعالوا على رأس جيشكم ، وإن كنتم أنتم فتعالوا ودافعوا عن دولتكم » . جاء مراد الثانى إلى أدرنه واختار من الجيش أحسن ٤٠٠٠٠ جندى وجاء إلى فارنا Varna دون أن يخلع ابنه .

كان قد مضى على واقعة نيغبولو ٤٨ سنة وشهران عندما واجه حفيد غالب نيغبولو ، الصليبيين (١٤٤٤/١١/١٠) .

بدأت الحرب بهجوم هنيادى على ميمنة الجيش التركى وجناحه الأيسر، ترك السلطان مراد العدو يتوغل إلى عمق صفوف الأتراك ، ثم أعطى أمر الهجوم . لم يدرك الملك لاديسلاس أن الاتراك قد طوقوه . اقترب الأتراك بعد قتلهم ٥٠ فارسا من الحرس الملكى نحو لاديسلاس الذى كان يقاتل بنفسه . رمى أحد جنود المشاة البلطة (نوع من الفئوس) على ساق حصان الملك فسقط الملك . قطع نقيب المشاة ، المسمى قوجا قره جه خضر آغا ، رأس الملك بالسيف وقتل الكاردينال Cesarini كذلك .

وضع رأسا الملك والكاردينال جسارينى على مزراقين ومعاهدة سكدين على

مزراق آخر وشهرت على الكتائب التركية المظفرة . لم تستغرق الحرب وقتا طويلاً فقد بدأت مساء فى الظلام فى الساعة التاسعة .

وفق عدد قليل من العدو من بينهم هنيادى فى الهروب . بلغ عدد أسرى العدو مابين ٨٠ و٩٠ ألف جندى وأبيد البقية . استشهد من الأتراك نحو ١٥٠ ، لكن عدد الجرحى كان كبيرا. من بين شهداء الأتراك جنرالان هما : داماد قرة جه باشا (زوج أخت البادشاه وكانت رتبته بكلربك = فريق أول ، واستشهد فور بدء الحرب) ، وعثمان بك حفيد تيمورطاش وابن اومور باشا (وكانت رتبته سنجق بك = لواء) .

يعتبر موت لاديسلاس الثالث ملك بولونيا ، المجر ، بوهيميا ، دوق كبير ليتوانيا الذى يحكم المنطقة المنحصرة بين البلطق - الادرياتيك - البحر الأسود ، التى تبدأ من الحدود الشرقية من غرب موسكو ، وعمره ٢٠ سنة بدون وارث من أهم وقائع التاريخ الأوربى ، فقد انفصلت إثر ذلك بولونيا والمجر عن بعضهما مرة ثانية بل وحرصتا على عدم الظهور أمام تركيا كدولة واحدة .

خطت واقعة فارنا مصير البيزنط الذى سنراه بعد ٩ سنوات ، وتأكد عدم إمكان قلع حكم الأتراك الموجود فى البلقان .

لم يقتصر الاحتفال بهذا النصر على تركيا وحدها بل امتد إلى العالم الإسلامى أجمع ، وفى الجمعة الأولى من وصول الخبر إلى القاهرة (١٤٤٥/٤/١) ، أمر السلطان جقمق بتلاوة اسم السلطان مراد - مجاملة - بعد اسم الخليفة العباسى والدعاء لأرواح الشهداء العثمانيين فى الأقطار المملوكية ، وأقيمت الاحتفالات بهذا النصر فى مصر .

طلب الجيش وأدرنه ، بعد واقعة فارنا ، اعتلاء مراد الثانى العرش مجددا . اعتلى مراد الثانى العرش مرة ثانية فى (ك ١٤٤٥/٢) ، ولكنه تخلى مرة أخرى عن العرش بعد ١١ شهراً (١٤٤٥/١٢/١٢) ، ثم قبل مضى ٥ أشهر وبإصرار من رجال الدولة ، اعتلى العرش للمرة الثالثة فى (١٤٤٦/٥/٥) . وفى غضون هذه المدة اعتلى ابنه محمد العرش وتخلى عنه مرتين .

كان مراد الثانى قد قام بحملته الأولى على مورا فى (١٤٣٩ ــ ١٤٤٠) ، وفى (١٤٤٦ ــ ١٤٤٧) ، قام بحملة ثانية على مورا . حاصر (١٤٤٦/١١/٢٧) قلعة كورينثوس Korinthos واستولى عليها (١٠ /١٢) ودخل شبه الجزيرة واحتل باتراس . مات فى هذه الأيام من البيزنط Ioannes الثامن وعمره ٥٧ سنة (١٤٤٩/١٠/٣١) فجاء أخوه الأمير كونستانتين من مورا إلى استانبول واعتلى العرش (هو كونستانتينوس الحادى عشر آخر امبراطور بيزنطى) .

وفى ربيع عام ١٤٤٧ ، استصحب البادشاه ابنه محمدا الثانى البالغ عمره ١٥ سنة وخرج فى حملة إلى ألبانيا (عرنووطلك) .

كان السبب فى قيام هذه الحملة عصيان اسكندر بك فى ألبانيا بمساندة الدول الأوربية وخاصة ملكية نابولى ، (اسكندر بك هو أحد أمراء ألالبان ارتد عن الدين الإسلامى وتنصر) . كانت الحملة الأولى لمراد الثانى على البانيا فى عام ١٤٢٣ .

بعد فارنا بأربع سنوات ، أراد Yunyadi Janos (Yanos) تجربة حظه ، فجهز الحملة الصليبية الـ ٦ ضد العثمانية . اتحدت فى هذه الحملة المجر ، ألمانيا ، بولونيا ، صقلية ، نابولى ، البابوية ومولدافيا .

دخل فى هذه المرة جيش صليبى مؤلف من ١٠٠٠٠٠ شخص إلى تركيا من الغرب . وتقدم حتى صحراء كوسوفا . (تعتبر هذه صدفة مشئومة بالنسبة للصليبيين ؛ فقد لقى الصليبيون فى هذا الموقع ضربة قاسية جدا قبل ٥٩ سنة ، شمال شرق ألبانيا) .

جاء السلطان مراد مع ابنه محمد الثانى البالغ من العمر ١٦/٥ سنة آنذاك .

استمرت الحرب ٣ أيام و٣ ليال (١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت ١/ ١٤٤٨) ، وكان الطرفان يملكان المدافع .

كان الصليبيون منقسمين إلى ٣٨ كتيبة ، معظمها لاتعرف إحداها لغة الأخرى ، قاتلت الكتائب وخاصة المجرية بشجاعة . وفى اليوم الثالث فقط حاصر السلطان مراد الثانى العدو المنهوك القوى ، بعد أن كلف تورخان بك (باشا) باغلاق طريق العودة ، وعند دخول المساء ، كانت الوحدات الكبيرة للعدو قد أبيدت .

قاوم هنيادى حتى حلول الليل ، وعندما حل الظلام تمكن من الهرب . خسر المسيحيون ١٧٠٠٠ قتيل ، وأسر الباقى ، وبلغ عدد شهداء الاتراك ٤٠٠٠ شهيد وفق ماتذكره المصادر الأوربية .

وقد تجدر الإشارة إلى أن حجم الآمال التى كان يعلقها الصليبيون على فارنا أكبر بكثير من حجم الآمال التى كانوا يعلقونها على كوسوفا ، ولكنهم فى كل الأحوال كانوا يقومون بالمحاولة السادسة والأخيرة التى يؤملون منها إخراج الأتراك من البلقان ، وذلك أنهم تحولوا بعدها إلى موقف المدافع وليس المهاجم ، وقد توقفت أوربا بعد واقعة كوسوفا لعصور طويلة عن التفكير فى إخراج الأتراك من جنوب الطونة .

كان بطل انتصار كوسوفا الثانى هو مراد الثانى ، وبطل انتصار كوسوفا الأول هو ابن حفيد مراد الأول .

وفى صيف عام ١٤٤٩ ، استصحب السلطان مراد ابنه محمدا الثانى الذى تجاوز عمره الـ ١٧ سنة وسار مرة أخرى فى حملة على ألبانيا ، لكنه لم يتمكن من العثور على اسكندر بك .

زوج مراد الثانى ابنه محمدا الثانى بابنة دلقادر اوغلو مكرمه خاتون فى أدرنة (١٤٤٩/١٢/١٥) ووضع ابنه على عرش صاروخان (مانيسا) التى يتقلد ولايتها (سنجق بك) ، وكان هذا لقاءه الأخير مع ابنه الذى أحبه كثيرا .

فى ٣ شباط ١٤٥١ ، توفى فى سراى أدرنة سلطان المجاهدين ، أبو الخيرات غازى « السلطان مراد خان الثانى بعد مرض دام ٤ أيام . كان عمره يتجاوز الـ ٤٦ بـ ٨ أشهر . مجموع سلطناته الثلاث ٢٩ سنة ، وإجمالى المدة من جلوسه لحين وفاته ٢٩ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٦ يوما . نقل جثمانه إلى بورصه ودفن فى قبره المفتوح .

كان مراد الثانى عالما ، شاعرا ، موسيقيا . حمى الفن والعلم بكل مافى الكلمة من معنى ، وأصبح المبشر بالنهضة العثمانية .

لم يفكر قط فى حرب تيمور أوغلو سلطان شاه رخ ، وعلى الرغم من أنه حاكم ثانى الدولتين المقتدرتين فى العالم ، فإنه لم يرفض سيادة شاه رخ – حتى وفاته فى ١٤٤٧/٣/١٢) ، ولو كان ذلك اسميا . وفى ١٤٤٧ ، أصبح سلطانا للدولة العظمى الأولى فى العالم .

كان تحصيله العلمي ممتازا . كان ابن عرب - شاه (١٣٨٩ - ١٤٥٠) أحد أساتذته . كان من أكابر المهتمين بالاعمار ، فالجوامع والكليات الموجودة فى بورصة وفى أدرنة من انجازاته وكذلك دار الحديث (١٤٣٥) ، والجامع ذو الثلاث شرفات (١٤٤٧) وكلياته ، واوزون كوبرى على نهر أركنه الذى استغرق تشييده ١٦ سنة وافتتح فى ١٤٤٣ ، وكان طوله ٣٩٢ مترا،من بين انجازاته المهمة التى شيدها بأموال الغنائم . ولقد كان من بين الأسباب التى عمقت محبته فى القلوب لعصور طويلة ، أنه كان يخوض معاركه من أجل الدفاع عن الوطن ، وانه كان الشخصية الوحيدة فى التاريخ العثمانى والتركى التى تخلت عن العرش ورئاسة الدولة بمحض إرادته دون أن يتعرض لأى ضغط مادى أو معنوى .

كانت شخصيته مشابهة لأبيه جلبى محمد الأول ، ومخالفة لشخصية جده يلدرم بايزيد وابنه الفاتح محمد الثانى .

قد أجمل المؤرخ البيزنطى **Chalcondylas** الذى اجتمع معه شخصيا وصف شخصيته فى عبارته : « كان رجلا مستقيما وعادلا » .

ويقول عنه المؤرخ البيزنطى المعاصر **Prens Dukas** (١٤٠٠ - ١٤٧٠ ، ٣٣ ، ١٣٩) ، « كان يفيض حبا للشعب ، وكرما على المعوزين ، ولايفرق فى هذا بين مسلم أو مسيحى من رعيته فكلاهما يلقى منه نفس المعاملة ، كان يفى بعهوده مع أعدائه ، ومن كان منهم ينقض عهده معه كان يتعرض لعقاب الله ، كان ينفر من الحرب ويفضل الانشغال بالعلوم والفنون والاعمار فى ظل السلام . لم يحارب إلا مضطرا ، وعندما كان ينتصر على أعدائه لم يكن يثخن فيهم إلى حد الإفناء بل كان يفتح الباب للجنوح إلى السلم .

ويقول المؤرخ الالمانى فون هامر **Van Hammer** (٢ ، ٣٥٢ - ٣) : « حكم السلطان مراد فى امبراطوريته بعدالة وشرف طيلة ٣٠ سنة . كان عادلا سليم النية مع رعيته دون التفريق بين الأديان . كان وفيا بوعده فى الحرب كما هو فى السلم . يفضل الصلح ، لكنه لم يكن يتردد فى الحرب إن دعت الضرورة لذلك . كان انتقامه شديدا من الذين لايوفون بعهودهم ، فلا بأس عنده فى هذه الحالة من إبادتهم . لم يفقد دهاءه إلى نهاية سلطنته » .

ويقول المؤرخ الفرنسى Crenard (ص ٦٨) : « إن كان مراد الأول معمار الامبراطورية العثمانية ، فإن مرادا الثانى هو بانيها الثانى » .

(١٥) فتح استانبول (٢٩ آيار ١٤٥٣)

ولد محمد الثانى أمير لواء (سنجق بك) صاروخان (مانيسا) ، فى سراى أدرنة الهمايونى ، فى الساعة الـ ٣/٠٨ من صباح يوم ٣٠ آذار ١٤٣٢ . توفيت أمه هما خاتون فى بورصة فى أيلول ١٤٤٩ قبل اعتلائه العرش ، لكنها شهدت سلطنة ابنها فى طفولته (فى آب ١٤٤٣) . صار محمد الثانى وليا للعهد فى حزيران عام ١٤٤٣ وعمره ١١ سنة اثر وفاة أخيه الكبير علاء الدين على الذى كان يكبره بـ ٧ سنين .

بعد وفاة السلطان مراد فى شباط ١٤٥١ ، جاء الخاقان الجديد البالغ عمره ١٩ سنة إلى أدرنة وجلس على العرش . قام بعد مدة قليلة (صيف عام ١٤٥١) بحملته الهمايونية الأولى على قرةمان الذى عصى وأخذ منه بعض الأماكن وعاد .

كان الهم الأكبر للسلطان محمد هو البيزنط ، ولاسقاط البيزنط ، كان يجب السيطرة على بوغاز استانبول وإحكام الرقابة التركية على جميع السفن المارة من البوغاز . ومن أجل هذا شيد محمد الفاتح روملى حصار المسمى « بوغاز كسن حصارى » أى القلعة قاطعة البوغاز (آذار - تموز ١٤٥٢) .

تم بناء هذه القلعة فى زمن قياسى خاصة إذا علمنا أن ارتفاع القلعة عن سطح البحر يبلغ ٨٢ مترا ، وأنها تشتمل على ٣ أبراج إرتفاع كل منها ٢٦/٧٠ م ، وأن مساحة الأرض التى تشغلها ٣٠ ٢٥٠ م٢ . تعلو أمامها على الضفة المقابلة أناضولى حصارى التى شيدها أبو جده يلدرم بايزيد . لم يكن ممكناً لأية سفينة أن تمر من البحر الأسود إلى البحر الابيض أو بالعكس تحت النيران المتقاطعة للمدافع المثبتة على الطرفين ، دون إذن من الاتراك ، ولم يحدث ذلك حتى يومنا هذا . لذا فان مؤسس نظام المضايق ، هو السلطان محمد . من المعلوم أن الموقع الذى شيد فيه القلعتين المتقابلتين هو أضيق نقطة فى مضيق استانبول حيث ينخفض العرض فى هذه النقطة إلى ٦٦٠ م .

بهذا يعتبر السلطان محمد هو مؤسس نظام المضايق ، وبعد أن انهى الخاقان إنشاء القلعة والتحكيمات اللازمة عاد إلى أدرنة فى أول أيلول ١٤٥٢ .

وبينما انشغل الامبراطور الذى أدرك نية السلطان محمد بدعوة أوربا إلى المساعده ، قضى البادشاه شتاء عام ٥٢ – ١٤٥٣ فى أدرنة فى استعدادات مدهشة . أمر بسبك المدافع بأقطار لم يسبق أن شوهدت من قبل ، ومدافع الهاون التى استعملت لأول مرة فى التاريخ ، وقد خطط لهذه المدافع بنفسه كما اختبرها بنفسه . كانت نتيجة تجربة المدفع الكبير حسنة ، فقد سمع صوت انفجار البارود عند اشعاله بالنار ، من مسافة ١٠٠ ستاد (٢/٥ ميل) ، وسقطت القذيفة على مسافة ميل واحد وحفرت عند سقوطها حفرة بعمق ١ قولاج (مسافة مابين اليدين إذا فتحتا بشكل مستو) . وارتكزت فى التراب اللين وبقيت فيه (Dukas ، ٣٥ ، ١٥٢) .

انقسم البيزنط إلى قسمين . كانت أوربا تطلب من البيزنط ، لكى تساعدها ، تركَ مذهبها الارثوذكسى واعتناق المذهب الكاثوليكى . اما الامبراطور البيزنطى ، فقد كان حاميا للمذهب الارثوذكسى وحاميا للبطريك العالمى الارثوذكسى ،ومن ثم فانه من غير الممكن أن يتبع البابا من الناحية الدينية . وعلى الرغم من عمق جذور العداوة التاريخية بين الكاثوليك والأرثوذكس ، فقد جرت مراسم دينية على الأصول الكاثوليكية فى أياصوفيا أكبر كنيسة فى العالم فى ١٢ ك ١٤٥٢/٢ ، وتولى إدارة المراسم الكاردينال Isidore الذى أرسله البابا . اشمئز الشعب البيزنطى كله وقال رئيس وزراء البيزنط الدوق – الأكبر Noraras جملته التاريخية معبرا عن شعور البيزنطية : إننى أفضل أن أشاهد فى ديار البيزنط عمامة الأتراك ، على أن أشاهد القبعة اللاتينية (Dukas ، ٣٧ ، ١٦١) .

قضى البيزنط شتاء مريرا تحت ظل أسوار قلعة (حصار) بوغاز كسن التى تمتد على طول ٢٠٠٠م . لكنه كان يعتمد على أسواره – التى لم يتمكن من فتحها أشد الغزاة قساوة – وعلى تركيب نارهم (بالفرنسية : Feu grégoris) التى لايعلم سرها سوى البيزنط والتى تزداد لهيبا كلما صب عليها الماء ، وعلى السيدة مريم .

كانت مناعة أسوار استانبول تأتى فى المرتبة الأولى فى العالم ، فقد كان ارتفاع الشرفات ١٧ م ومابين الشرفات ١٥ متراً ، ويبلغ السمك فى الذروة ٤ م وفى

القاعدة أكثر بكثير ، وكان عرض الخندق الموجود أمام الأسوار $\frac{١}{٢}$ ١٨ متر وعمقه ٩ أمتار وكان مليئا بالماء ، وكان للأسوار المكونة من طوابق عديده ٣٠ برجا مكسيا بالرصاص . وكان المعروف أن المدينة لايمكن إسقاطها إلا بحصار محكم يتمكن من إجاعتها لمدة ست سنوات ، ومن البدهى أن الدول الأوربية سوف تأتى خلال هذه المدة ، ومن ثم فإنه سوف يتعذر عمليا استمرار الحصار .

ولذلك كان تخطيط محمد الثانى يقوم أساساً على أن تتكفل مدافعه بإنهاء العملية قبل أن تصل أية نجدة أوربية .

وقد جرت الأمور على الوجه التالى :

– بدأت العملية بتسوية طريق أدرنة – استانبول بمعرفة ٢٠٠ عامل يشرف عليهم ٥٠ عاملاً ماهراً ، وتم إخراج المدفع الكبير من أدرنة إلى الطريق فى شباط ١٤٥٣ يجره ٦٠ ثورا ، ٤٠٠ جندى على جانبى الثيران (٢٠٠ جندى فى كل جهة لتأمين عدم التزحلق والميلان) . وصل المدفع على بعد ٥ أميال من أسوار أستانبول فى آذار (Dukas ٣٧ ، ١٥٨) وكان على رأس قيادته قره جه ياشا الذى استولى ومعه ١٠٠٠٠ جندى على القصبات البيزنطية المجاورة . حصل البيزنط خلال أشهر الشتاء على إمدادات من الجنود والسفن والمهمات من أوربا .

– تحرك البادشاه من أدرنة فى ٢٣ آذار ١٤٥٣ ووصل أمام استانبول بعد ١٣ يوما فى ٥ نيسان .

– بدأ الحصار فى ٦ نيسان ، ويمكن تلخيص موقف الجانبين على الوجه التالى :
قام الأميرال بلطة أوغلو سليمان بك فى ١٨ نيسان باحتلال جزر استانبول وقرية طرابيا فى البوغاز ، قوام الجيش التركى حوالى ١٠٠٠٠٠ شخص ، نظم الاتراك مدافعهم على شكل ١٤ فصيلة ، كان لدى الأتراك منجنيق هائل بحجم لم يسبق له مثيل ، صنعه محمد الثانى ، ذلك بالاضافة إلى أربعة أبراج متحركة ، وقذائف طيارة تتساقط كالشهب ، المدافع التى لدى الاتراك من النوع الثقيل الذى يحتاج إلى ٢٠٠٠ جندى لسحبه ، ويستطيع المدفع الواحد إطلاق سبع طلقات فى اليوم زنة كل منها طنان ، واطلاقه واحدة بالليل ، حيث يستغرق ملء المدفع وتبريده ساعتين .

بدأت أربعة مدافع من النوع الكبير باطلاق النيران وتلتها فصائل المدفعية الأصغر ، وأطلق أول مدفع هاون فى التاريخ يوم ٢١ نيسان على أسطول العدو فى الخليج .

على الجانب الآخر وفى مقابلة هذه القوة،التى تعتبر أكبر قوة حربية فى العالم ، كان للبيزنط أسوار مستحكمة بطوابق متعددة ، ١٥٠٠٠ جندى غير المتطوعين ، بالاضافة إلى أسطول بيزنطى - جنوى - بندق - بابوى رابض فى الخليج ينتظر فى كل لحظة وصول الأسطول البندق من البوغاز وقدوم الجيوش التى سوف تدخل تركيا عن طريق الطونة .

فى ١٨ نيسان جاء سفراء من المجر ، وأعلنوا باسم العالم المسيحى كله أن جيوش أوربا المتحدة سوف تستولى على تركيا فى حالة عدم رفع الحصار .

- تمكنت ٤ سفن جنوية وواحدة من مورا من دخول الخليج

- بلغ من شدة غضب محمد الثانى لهذا الحادث أن قام بعزل بلطه اوغلو سليمان بك ــ قائد القوة البحرية ــ الذى لم يتمكن بسبب اتجاه الريح من وقف هذه السفن ، وعين بدلاً منه المشير البحرى (قبودان دريا) احمد بك بن جالى بك أحد قواد البحر السابقين .

- كان خليج استانبول مغلقا بسلسلة غليظة جدا (السلسلة موجودة بالمتحف العسكرى حاليا) ومن ثم فانه كان يستحيل على السفن التركية اجتياز البوغاز .

- أفاد الوزير الأعظم جاندارلى - مزاده خليل باشا أنه قد يكون من الممكن اسقاط البيزنط إلا أن هذا سوف يجر تركيه إلى حرب مع أوربا بأسرها (وقد تحقق هذا فعلاً) ، واقترح على البادشاه قبول ٧٠٠٠٠ ليرة ذهبية كضريبة سنوية وابرام الصلح مع الامبراطور .

- رابط الوزير الداماد رغانوس محمد باشا فى انجاد قاسم باشا ومعه ١٥٠٠٠ جندى ، وطفق فى قصف الاسطول البيزنطى المحصور فى الخليج بمدافع الهاون ، فاصيبت عدة سفن بيزنطية .

- تمت فى ليلة ٢٣ نيسان عملية مذهلة تمثلت فى تسيير ٦٧ قطعة صغيرة من الاسطول التركى على البر (لتفادى السلسلة الغليظة التى تغلق خليج استانبول) -

ن ، ومن بين مظاهر الاعجاز فى هذه العملية أنها تمت فى ليلة واحدة ودون أن يشعر بها العدو .

– أحدثت هذه العملية انهياراً فى معنويات البيزنط ، فقد أصبحوا يوم ٢٣ نيسان على منظر الخليج ، وهو يموج بقطع الاسطول التركى .

يعبر بعض الشيء عن هذا التأثير ، ماكتبه المؤرخ البيزنطى والدبلوماسى الأمير دوكاس والذى التقى بمحمد الثانى شخصيا ، كتب دوكاس : « مارأينا ولاسمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق ؛ محمد الثانى يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج ، لقد فاق محمد الثانى بهذا العمل الاسكندر الأكبر » . فتح محمد الثانى استانبول ، وقضى على البيزنط ، وملك كافة المدن التى تزين العالم » (٣٨ ، ١٦٦) .

– خلال ليلة واحدة ، وهى الليلة التالية على ليلة ٢٣ نيسان ، نصب الاتراك جسراً على الخليج يسمح عرضه بمرور ٥ جنود جنبا إلى جنب .

– أمر امبراطور البيزنط ليلة ٢٨ نيسان بابادة الاسطول التركى الذى نزل إلى الخليج ، وتدمير الجسر الذى تم نصبه ، مهما كلف الأمر .

ولم تنجح هذه المحاولة ؛ فلم يدمر الجسر ، ولم تغرق سفينة تركية واحدة ، وفقد ١٥٠ بحارا بيزنطيا حياتهم فى هذه المحاولة .

– أعدم الأمبراطور الغاضب الاسرى الاتراك الذين تحت يده وعددهم ٢٦٠ أسيرا ، وقطع رءوسهم وألقاها من الأبراج امام الاتراك .

– اغرق الاتراك سفينة الاميرالية لاسطول العدو التى لجأت إلى سواحل وأسوار الخليج ، وغرقت سفينتان تركيتان بالنيران التى انهمرت من الأبراج .

كان لدى البيزنط مدافع ، ولكنها كانت بدائية واضعف من أن تقوم بالدور الذى تلعبه المدافع التركية ، وكان اعتماد البيزنط اساساً على النار المسماة « روم آتشى » (نار الروم) أو « نار غريغوار » التى كانوا يحتفظون بتركيبها لعصور طويلة كسر وطنى .

– فى ٥ مايس حرك الاتراك بعض فصائل المدفعية حيث ركزوها على مرتفعات بك اوغلو .

– فى ٦ مايس أمر الخاقان بالهجوم العام الأول من المنطقة المقابلة لطوبقابوسى .

– فى ١٢ مايس أمر الخاقان بالهجوم العام الثانى من المنطقة المقابلة لادرنة قابوسى .

– كان يواكب كل ذلك محاولة ملء أجزاء من الخندق العميق المملوء بالماء الموجود أمام الأسوار – بقطع الحجارة ، وأيضا أحدث الأتراك ثغرات كبيرة فى الأسوار ، كان يتعذر على الشعب البيزنطى اصلاحها ، على الرغم من أنهم كانوا جميعا يعملون ٢٤ ساعة متصلة .

– فى ٢٣ مايس أوفد محمد الثانى ، اسفنديار اوغلو داماد قاسم بك إلى البيزنط كسفير ليبلغ الامبراطور أن المدينة معرضة للسقوط فى أول هجوم عام ، وانه إذا أعلن الإمبراطور استسلام المدينة ، فانه وفقا لقواعد الإسلام لن يصاب أحد من أهلها بسوء وسيأمن الجميع على أموالهم وأنفسهم ، أما إذا اسقطت بالقوة فان السلطان محمدا الثانى لن يكون مسئولاً عما يحدث وعن الدماء التى ستهدر .

– افاد الامبراطور بأن مايراد تسليمه ليست قلعة بل هو أكبر تاج امبراطورى مسيحى يرجع تاريخه إلى ألف وخمسمائة عام ، وأنه مستعد مقدما لقبول أية شروط من البادشاه عدا تسليم المدينة ، وأنه فى نفس الوقت سوف يقاتل حتى الموت .

– بدأ الأتراك فى ١٦ آيار فى حرب انفاق دموية .

– فى ٢٦ آيار حضر من المجر إلى محمد الثانى وفد كبير باسم المسيحية وهدد بأن أسطول البندقية (الذى كان الأسطول الأول فى العالم فى ذلك التاريخ) معزز بأساطيل أوربا المختلفة ، على وشك اجتياز بوغاز جناقلعة ، وأن جيشا مسيحيا كبيرا اكمل استعداداته الأخيرة لاجتياز ألطونة نحو الجنوب .

كان قرة مان أوغلو إبراهيم بك قد اتفق كذلك مع البنادقة على ضرب العثمانية من الاناضول حالما يتعرض الجيش المسيحى من الشمال .

كرر الوزير الأعظم خليل باشا نصيحته للامبراطور بأنه يرى فرض شروطه ورفع الحصار .

– عارض مرشد الخاقان الشيخ آق شمس الدين ذلك بشدة معلنا أنه تلقى بشارة

فتح استانبول وتلا الحديث الخاص بالفتح : « لتفتحن القسطنطنية ، ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش » .

– زيدت كثافة القصف التركى إلى أقصاها .

– فى ٢٧ ايار (مايس) استشهد مراد باشا أثناء محاولته الدخول إلى المدينة من إحدى الثغرات .

– فى ليلة ٢٨ آيار ، جمع الامبراطور البيزنطيين فى اياصوفيا ، وأجرى لهم مراسم دينية واخبرهم باقتراب وقت قدوم السيدة مريم .

– جمع محمد الثانى المجلس العسكرى ، وأعلن انه سوف يمنح الذين يسبقون غيرهم فى الصعود إلى الأسوار ، رتبة اضافية .

– بعد أن أدى البادشاه صلاة الصبح يوم ٢٩ آيار ، امتطى جواده وتقدم إلى الصف الأمامى مع جميع أركانه ، وبدأت المدفعية فى اطلاق نيرانها مع أشعة الشمس الأولى ، وبدأ الجند تحت ستار هذه النيران فى الضغط على الأسوار ، ومحاولة تسلقها من جميع الجهات ، وفرق المهتر (الموسيقى العسكرية) تدوى نغملتها بشكل تئن له السماء والارض ، ورجال الدين والطرق يتجولون بين الصفوف يشجعون المقاتلين ويتلون الأدعية وينشدون الأشعار والمنظومات الدينية ، ويرددون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحث على الجهاد والقتال فى سبيل الله .

– لم ينم الشعب البيزنطى ليلة ٢٨ – ٢٩ آيار . استراح قسطنطين الحادى عشر الذى خرج من الاحتفال الدينى ، عدة ساعات فى سراى **Vlarhena** (بالتركية ، تكفور ، سرايى) ثم جاء إلى باب **Ayios Romanos** (بالتركية ، طوبقابوسى) أما محمد الثانى ، فكان فى الجهة الثانية من هذا الباب ، حيث ستتحدد فى هذه الجهة النتيجة النهائية لهذه المعركة .

كان مشاة البحرية يتسابقون إلى إلقاء أنفسهم فى البحر فى سواحل مرمرة مجازفين بحياتهم فى سبيل تسلق الأسوار التى تشرف على بحر مرمرة ، وكانت المعركة الدائرة أمام أسوار طوبقابو دموية وشديدة يقاتل فيا كلا الطرفين بتضحية و... مستميتين فى القتال .

كانت موجات الجنود الأتراك الذين يصعدون على الأسوار بالسلالم ، تنال الاستشهاد فى الحال بأسلحة البيزنطيين ، وفى نفس الوقت كان الشعب البيزنطى يخلى البيوت والشوارع ملتجئا إلى الكنائس وهو فى أشد حالات الاضطراب والفزع لمشاهدته الجنود الاتراك ، أما الجزء الذى لم يهرب منهم فكان يدافع مع الجيش البيزنطى ، أما الكنائس التى لم تكف أجراسها عن الصليل فقد كانت فى الحقيقة توحى بقرب حلول اللحظات الأخيرة .

استمر ضغط الأتراك وتعزيز وحداتهم بصورة مستمرة ، ولم تستطع الأحجار الكبيرة التى تلقى على الجنود أو نار الروم المعروفة أن تثنى الموجات المتتالية من الجنود الاتراك عن محاولات تسلق الاسوار من جهة طوبقابوسى .

وفى الوقت الذى كان فيه الامبراطور يقوم بسوق ماتبقى من احتياطاته الاخيرة التى يقودها الامير **Nicolas Paleologos** والامير **Demetrios Kantakuzinos** إلى طوبقابوسى ، جرح الجنرال **Givstiniani** وترك ساحة الشرف بغير شرف قائلا : « سأسلك الطريق التى فتحها الله للأتراك » .

كانت أصداء تكبيرات الغزاة الدراويش فى صفوف الجيش التركى التى يتجول بينها أستاذا الخاقان آق شمس الدين وملا كورانى ، والدعاء الذى رددوه عقب صلاة الصبح ، والخطاب القصير المؤثر الذى ألقاه البادشاه فسرى كالكهرباء فى أعصاب الجيش التركى – كان ذلك كله يؤتى ثمرته فيتجسد أمواجا متعاقبة على الأسوار البيزنطية ، تلتطم بها لتجتاز أكبر قلاع القرون الوسطى المستحكمة ، وتنتشر كولولة تزينة داخل البلدة الكبرى جوهرة الدنيا وامبراطورة المدن . أما قسطنطين الحادى عشر ، الخلف الشرعى لـ **Avgustus** فقد استمر فى الدفاع مبديا الشجاعة دون أن يترك مكانه ، لكنه كان ينظر بعيون غارقة بالدموع وبحزن شديد إلى تصدع وانهدام وانفتاح الأسوار البيزنطية .. تحت وطأة الهجمات التركية المتعاقبة التى لاتفتر .

اقتربت الساعة من السابعة ، كانت أواخر أيام الخريف ، حيث أخذت الحرارة اللطيفة الفاترة الخاصة باستانبول تنتشر فى هذا الموسم .

لم يغب عن فطنه محمد الثانى الذى يراقب الوضع بكل كيانه ، التوقف الآنى الذى نشأ عن ترك **Giustiniani** وجنوده الايطاليين الدفاع ؛ فأصدر امره للصف

الرابع من الجيش التركى بتسلق أسوار طوبقابوسى ، وقد كان هذا يعنى ان البادشاه يعتقد أن ذلك هو الهجوم النهائى .

سبق ضابط شاب صغير الرتبة حديث السن اسمه اولوبادلى حسن مع ٣٠ جنديا من معيته مفارزَ الهجوم الاخرى وركز راية الخاقان فوق اسوار طوبقابوسى ، واستشهد فى نفس اللحظة بنار وسهام وحجارة البيزنطيين التى وجهت اليه من مئات المواضع . واستشهد معه ١٨ من معيته ، لكن بقية الـ ١٢ حافظوا على الراية فلم تسقط من أيديهم ، ولم تسقط بعد ذلك أبدا .

ترجل محمد الثانى عندما شاهد العلم التركى يرفرف فوق طوبقابوسى عن حصانه وخر على الارض ساجدا سجدة الرحمن ، حامدا المولى على تحقيق نبوءة الرسول ﷺ على يديه . ومنذ تلك اللحظة نال محمد الثانى لقب « الفاتح » .

كان القطاع بين طوبقابوسى واكريقابو (باب Caligaria / Charsias) مليئا بالاجساد البشرية من كلا الطرفين ، بحيث لايمكن اجتيازه . انتقلت باب Kerkoporta (بالتركية : جنبازخانه) لحوزة الاتراك بعد دقائق من تركيز العلم التركى ، ودخل إلى المدينة من هذا الموقع ، اول جندى تركى . تم اجتياز السور الثانى كذلك .

أوقف ضابط الوحدة الاولى التى دخلت وحدته خلف الوحدة البيزنطية ، ولم يتقدم نحو المدينة . هجم البيزنطيون الذين شاهدوا ذلك جنودا ومدنيين ، على هذه الوحدة بغرض ابادتها . تم تعزيز الوحدة بالامدادات فلم يستطع البيزنطيون ابادتها ، ولما لم تتزحزح من مكانها ، فقد قطعت طريق الرجعة على جيش البيزنطى ، وحالت دون هروبه نحو المدينة .

اصيب الشعب البيزنطى سواء الذى شاهد الجيش التركى فى المدينة او الذى علم بقدومه بالفزع وأخذوا يتجمعون فى طريق أياصوفيا .

قاوم الجيش البيزنطى الذى قطعت عليه سبل العودة بشده ، واحتشد عدد كبير من الجند فى ساحة ضيقة وتداخل مع بعضه بحيث سحق الامبراطور الذى جرح وسقط على الارض تحت الاقدام . أنزل أحد جنود البحرية الضربة الاخيرة على الحاكم . (كان عمره يتجاوز الـ ٤٩ بـ ٣ شهر ، ١٩ يوما) فتح الجيش التركى

الذى دخل المدينة أبواب القلاع الواحد تلو الآخر ويسر دخول كافة الوحدات التركية .

أخذ الجيش الهمايونى الذى قضى على أوكار المقاومة الأخيرة بالسير فى تشكيل نظامى نحو ميدان أياصوفيا الذى شاهد تجمع الشعب فيه .

أخذ البيزنطيون الذين لم يدخلوا اياصوفيا منذ اتحاد الكنيستين يملئون المعبد الكبير فى انتظار انشقاق الجدار وظهور مَلَكَ (بفتح الحرف الثانى) بيده سيف ليخلصهم من الأتراك . ولكن هذه الاسطورة التى كانوا يعتقدون فيها منذ عصور لم تتحقق . كتب الأمير دوكاس يقول : إنه لو ظهر فى تلك اللحظة ملك وسأل البيزنطيين ، عما اذا كانوا يفضلون أن يصبحوا كاثوليك وينجوا من الاتراك ، أم أن يظلوا ارثوذكس ويعيشوا تحت إدارة الاتراك ، لفضل كل بيزنطى الشق الثانى (٣٩) .

وهكذا انتهى الحصار الـ ٢٩ والأخير لمدينة استانبول . وقف الجيش الذى تجمع فى اقسراى بنظام الصفوف أمام أياصوفيا فى انتظار البادشاه ، ولم يكن وقت صلاة الظهر قد حان بعد . وفى غضون هذه اللحظات كانت مقاومة بحارة كريت فقط مازات مستمرة فى باغجه قابو . أعجب البادشاه بهذه البطولة فأمر بعدم أسرهم والسماح لهم بالذهاب إلى سفنهم مع اسلحتهم وعودتهم إلى جزيرتهم (لقد كان مثل هذا التصرف معارضا لعقلية القرون الوسطى . لكن محمدا الثانى ، كان رجل العصر الحديث . كما ستؤكد ذلك فيما بعد تحركاته القادمة) .

لم يعتدِ الجيش على أحد من عشرات الألوف من البشر المتجمعين فى اياصوفيا ولم يمسهم بأدنى سوء وأخذ فى انتظار الخاقان وماسيأمره بشأن هذا الشعب .

دخل السلطان محمد خان إلى المدينة من طوبقابوسى وقت الظهر . جاء إلى اياصوفيا بصفة « فاتح » و« امبراطور روما » بين تصفيق الشعب البيزنطى وأصوات تكبيرات وأذان الجيش التركى .

سجد كافة الشعب وعلى رأسهم الرهبان الكبار على الأرض . قال السلطان محمد « انهضوا .. لاتخشوا بعد هذه اللحظة على حياتكم ولا على حريتكم » ، ثم ساعد بطريك الارثوذكس العالمى الذى كان راكعا على النهوض وكرر عليه الكلام نفسه . أفرغ أياصوفيا وتفقدها . أمر برفع الأذان ، وأدى صلاة العصر بداخلها فورا . امر

بالبحث عن جثة الامبراطور واحضرها وسلمها إلى الرهبان وأمر بدفنه باقامة المراسم ذاتها التى أقيمت على الامبراطور السابق .

عزل فى اليوم التالى ، البطريك الارثوذكسى العالمى ، وأمر المجلس الروحانى بانتخاب بطريك جديد بدلا منه ، وذلك بسبب تأييده البابا فى الاتحاد الارثوذكسى - الكاثوليكى واقامته المراسم الكاثوليكية فى اياصوفيا . اما Cennadinos الذى انتخب بدلا منه ، فكان مخالفا لهذا الاتحاد .

كان ذلك يوم جمعة ١ حزيران . أقيمت صلاة الجمعة فى ايا صوفيا ، حيث تلا الخطبة آق شمس الدين باسم الفاتح .

اخذ فاتح محلة غلطه من حوزة جمهورية جنوه ، وأنهى تجارة جنوة الحرة فى البحر الأسود ، وهكذا خرجت جنوه من عداد الدول العظمى .

وفى ١٩ تموز ، عزل جاندارلى خليل باشا وأعدم . وقد اختلفت الاقوال فى سبب إعدامه ، فقد قيل إنه بسبب معارضته فتح استانبول بدعوى ان ذلك سيسبب اثارة العالم المسيحى بأجمعه ضد الدولة العثمانية (وقد حدث ذلك بالفعل) ، وقيل انه بسبب بقاء مقام الصدارة منذ ٩٠ عاما لدى اسرة جاندارلى ، وعدم رغبة الفاتح فى تأسيس سلالة خاصة بالصدارة بموازاة سلالة السلطنة لتوقعه محاذير من ذلك .

أعلن الفاتح ، مدينة استانبول ، مركزا للدولة ومدينة العرش . غادر استانبول فى ٢١ حزيران متوجا إلى أدرنة ، وبذلك فانه يبدو أنه بقى فيها ٢٣ يوما .

لم يكن يسكن فى ذلك التاريخ داخل أسوار استانبول ، أكثر من ٥٠٠٠٠ بيزنطى (عدا قرى البوغاز والضواحى) . فقدت استانبول سكانها البالغ عددهم اكثر من مليون نسمه فى الاجتياح اللاتينى فى ١٢٠٤ ، وأخذت بعد ذلك فى التقلص . قبل أن يمضى شهر ايلول جلبت إليها ٥٠٠٠ عائلة من أناضولى ومن روملى واسكنت فيها .

بدأ العمل لاعمار المدينة على قدم وساق ، واشتغل فى هذا الاعمار البيزنط الذين نجوا من الموت واسروا ، وقد اطلق سراحهم عند انتهاء العمل بأمر الفاتح على أساس انهم سددوا فديتهم بعملهم .

عومل الروم والكنيسة الارثوذكسية بلين لايتصوره العقل ، ولعل أحد الاسباب لذلك ، ضمان عدم اقترابهم من العالم الكاثوليكي ، وتفادى وقوعهم فى أحضان البابا الذى يشكل روح الاتفاق الأوربى ضد العثمانية .

كان سرور العالم الإسلامى بالفتح كبيرا . أنيرت القاهرة أياما طويلة وأقيمت فيها احتفالات كبيرة (ابن اياس) ٢ ، ٤٤) . أرسل السلطان المملوكى ، وسلطان الهند الجنوبية البهمنى وحكام مسلمون عديدون سفراء خاصين لتهنئة السلطان محمد الفاتح .

يعتبر فتح استانبول أكبر حدث فى التاريخ التركى ، فقد بشر ذلك الفتح بصورة قطعية بأن تركيا سائرة فى طريق الدولة العظمى . والمعروف أن الفتح هو نهاية القرون الوسطى وبداية القرون الحديثة . بجل الاتراك الفتح باطلاقهم عليه اسم « فتح مبين » ، وبلغ التبجيل حد القول بانهم اكتشفوا ان تعبير « بلدة طيبة » الموجود فى « القرآن » يشير بحساب الابجدية إلى التاريخ الهجرى للفتح المبين .

يعتبر الفتح ، من أهم الوقائع فى التاريخ الأوربى كذلك . كتب البابا ، على أثر وصول خبر سقوط البيزنط ، خطابا إلى جميع الحكام الأوربيين طالبا منهم تشكيل اتفاق صليبى جديد .

وفيما يلى رأى بعض المؤرخين الأوربيين القدامى والجدد حول الفتح والفاتح :

« انحنت Labarum (راية الامبراطورية البيزنطية المشغول عليها علامة عيسى عليه السلام) أمام الراية (السنجق) الشريفة . ارتجف الغرب مدة قرنين أمام اباطرة المسلمين الذين سيطروا منذ ذلك اليوم على بوغاز إيجى (مارشال فون مولتكه ، ص ١٥١) .

« كافح البيزنطيون كفاحا شديدا طوال مدة أكثر من قرنين ، لحماية الأناضول من العرب . ولقد كانت هذه حادثة فى الدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لمستقبل الحضارة الأوربية . ولو خسر البيزنط وتحقق الفتح الإسلامى فى ٦٧٣ أو ٧١٧ وليس فى ١٤٥٣ ، فماذا كان سيحدث عندئذ لوضع أوربا التى لم تثبت رشدها حتى الآن ؟ لما أمكن حدوث أية حركة إصلاحية أو نهضة علمية .. تفكك البيزنط فى القرن ١١ نتيجة لاستيلاء إسلامى ثان أكثر شمولا من الاستيلاء العربى . كان ذلك

بسبب فتوحات الاتراك السلجوقيين . انقذ العرب سورية ، وادى الرافدين ومصر فقط من اليونانية ، ثم أصبحوا ساميين مجددا . أما الاناضول فخلال مدة ٢٠ سنة ، أصبحت تركستان جديدة . وانسحبت حدود أوربا من أرمنستان إلى بوغاز إيجى . كان الاتراك فى ايزنك . ان فتح ١٤٥٣ كاد يتحقق فى غضون ١٠٨١ ، لولا التدخل الغربى الذى غير القدر . تحرك الغرب لتقوية البيزنط بغرض دفع آسيا إلى خلف الاماكن التى حازتها من أوربا . لايمكن اعتبار الحروب الصليبية تجمعات ايديولوجية صرفة ولاحروب فتوحات . إنها تظهر رد الفعل الأوربى الدفاعى تجاه التهديد الآسيوى . بدأت الجولة الإسلامية الثالثة ، مع العثمانيين . كان العثمانيون فى القرن ١٤ فى بورصة ، وفى القرن الـ ١٧ وصلوا إلى فيينا ، وبانسحابهم فى ١٩١٢ إلى أدرنة ، انتهت هذه الجولة ... وفى النهاية وفق العثمانيون فى انجاز فتح الامبراطورية الرومانية ؛ لوجودهم على ضفاف مرمرة ، ولانه تيسر لهم حكاما عظاما جدا تلا احدهم الآخر . ان هؤلاء الحكام كانوا على درجة من الدهاء العسكرى ، لايمكن مقارنته بدهاء أعدائهم . كانوا على علم بما يريدون ، ولم تكن لهم أية غاية عدا الفتوحات . وفق بنو عثمان ، السلالة الاستثنائية ، فى إحياء الغاية المقدسة للحملات النبوية بعد عصور طويلة (Réne Grousset ، الاكاديمية الفرنسية ، L'Empice du Levant ، ص ٨ – ١١ ، ٦٠٩ – ٦١٠) .

« إن اسباب توفيق الاتراك الذين انهوا القرون الوسطى ، هى وضعهم تكتيكا جديدا للحرب وتأسيسهم جيشا منظماً » (Histoire du Monde , R. Sedillot ، ص ١٨٤) .

« كان تكتيك الحرب لدى الاتراك الذين أنهوا القرون الوسطى ممتازا إلى درجة انهم استعملوا قذائف اللهب الطيارة التى تعتبر الاصل فى اكتشاف سلاح V - 1 ، لأول مرة فى فتح البيزنط . اهتم المهندسون الأوربيون فى القرن ٢٠ بنظام عمل هذه القذائف بعد أن نسى لعصور طويلة » (Benoit - Méehin ، ص ٥٤ – ٥٥) .

« فتح استانبول هو أحد أكبر وقائع التاريخ العالمى . كان تأثيره كبيرا جدا على مستقبل أوربا . بدل سير التاريخ بأكمله . أغلق القرون الوسطى وفتح القرون الحديثة » (Gustave Schlumberger Introduction) .

« إن قبول أوربا جميعها بعد فتح استانبول لسلاح المدفع ووضعه على السفن ، واخذ الاسطرلاب عن العرب ، أجبر أوربا التى اختنقت بالفتوحات التركية ، وقطع الطريق عليها ، ان ترمى بنفسها بكل قوة نحو البحار المفتوحة ، وان تبحث عن ايجاد طرق جديدة وتعويض احتياطى ذهبها الذى نفد » (Pirenne ، Histoire Universelle ، ٢ ، ٣٠٠) .

« من أهم لحظات التاريخ ، ويحتمل أن تكون أهمها جميعا : فتح الاتراك لاستانبول » (Franz Bobinger , Mehmed der Eroberer ، الترجمة الفرنسية ، ص ٧) .

لايشك أحد فى كون السلطان محمد امبراطور روما . أن الذى يستولى على مدينة عرش الامبراطورية هو إمبراطور من الناحية الشرعية ، ومدينة عرش الامبراطورية الرومانية ، هى استانبول (الأسطر التى حررها المؤرخ البيزنطى Yorgios Trapezutios فى ١٤٦٦) .

« السلطان محمد ، هو أحد فلاسفة عصرنا الذين يملكون ذكاءً يمتاز بالحدة الشديدة » (المؤرخ البيزنطى Kitovulos ، ص ١٧٧) .

« السلطان محمد ، يندر أن يضحك . ذكاؤه يعمل بصورة مستمرة . كريم جدا ، عنود وجسور وجرىء فى تصميمه ، ذكاؤه متقد . هو كإسكندر الكبير لايشبع من الشهرة والرفعة . يتحمل البرد والحر والجوع والعطش . كلامه قطعى . لايخشى أحداً . بعيد عن اللهو والمجون . يتكلم التركية واليونانية والصربيه بصورة جيده ويجيد قراءة وفهم اللغات الأخرى . يعكف على المطالعة كل يوم مدة من الزمن . ومن الكتب التاريخية التى يطالعها ، التاريخ الرومانى ، كتب التاريخ الاخرى Laerce ، هيرودوت ، Tite - Live , Quinte - Curse تاريخ البابوات ، أباطرة ألمانيا وملوك فرنسا ولمبارديا . له علم بجغرافية إيطاليا بصورة دقيقة وبكامل فروعها . على علم كذلك بجميع الحكومات الموجودة فى أوربا . لايستغنى عن خارطة كبيرة لاوربا . يتتبع العلوم العسكرية والجغرافية برغبة شديدة . ماهر فى تكييف نفسه على عادات وتقاليد الأقطار المختلفة الموجودة فى دولته » (معاصره الايطالى Zorzo Dolfin ، ص ٢٤) .

« السلطان محمد ، هو أعظم حاكم فى يومنا ، أعظم من كيروس ، من إسكندر الكبير ، من سيزار وبكلمة واحدة أعظم من جميع الحكام السابقين » (Babinger ، نقلا عن البيزنطى Yorgios Trapezuntios ، ٢٩٨) .

« فاتح ، ليس متخصص لغات من الدرجة الأولى ، ومؤرخا وفيلسوفا فحسب ، بل هو إلى جانب ذلك إدارى عظيم ، خيال وخبير فى استعمال الأسلحة بشكل خارق للعادة (The Harem , N . M . Panzer ، لندن ١٩٣٦ ، ص ٢٣٧) .

« يبدأ عصر النهضة العلمية ، مع فتح البيزنط فى عام ١٤٥٣ على يد الفاتح . فاتح ، أحد أكبر حماة الاصلاح والنهضة العلمية الحديثة (Renaissanee) . إن عصر النهضة العلمية مدين بالكثير لتسامح فاتح وخلفيه الاثنين . يسر فاتح انتشار اللغة اليونانية القديمة فى أوربا . دعا كل من بايزيد وياوز ، فى ١٥٠٦ و١٥١٩ ، انجيلو وليوناردو دافينشى إلى استانبول بصورة رسمية . بينما لم يسمح لهما البابا بذلك » (La Renaissanee, P. Faure ، ٧ ، ٤٦ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤) .

« لكى ندرك التاريخ العثمانى ، لابد أن نعطى بنى عثمان حقهم كثانى مؤسسين لامبراطورية روما الشرقية ، يقر المؤرخون البيزنطيون المعاصرون لفاتح مثل Kritovulos Chalcondylas , Dukas Trapezuntios بأن بنى عثمان قد احتلوا مكان أباطرة روما ، وأنهم أصبحوا خلفاءهم الشرعيين ، وأنهم يحملون هذه الصفة » (Grenard ، ١٠١ - ١٠٢) .

« ان فتح استانبول ، هو انجاز شخصى لمحمد الثانى . ولايمكن قبوله كنتيجة للتطور الطبيعى للدولة العثمانية » (Voyageurs Francais dans l'orient , N . Lorge ص ٢١) .

إن إجادة فاتح اللغات اليونانية والصربية والإيطالية وفهمه عدة لغات أخرى ، هذا عدا اكتشافاته فى البلستك (مايخص القذائل الحربية) ودهاؤه فى الرياضيات ومعرفته العلوم الدينية بصورة فائقة وإجادته العربية والفارسية تجبرنا على الاعتراف بأن السلطان محمد الفاتح هو أعظم حاكم وأكبر عسكرى وأكبر رجل دولة سياسية ورئيس « الدولة العالم » الممتاز فى التاريخ العثمانى . وبالنسبة إلى كثير من المؤرخين فإن محمد الفاتح هو أكبر شخصية انجبها الأتراك طوال التاريخ .

وقد تجدر الإشارة إلى تعداد العالم عام ١٤٥٣ أثناء الانتقال إلى القرون الحديثة يقدر بـ ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ؛ ٢٧٥ مليون نسمة تسكن فى آسيا ، و٧٠ مليونا فى أوربا ، و٤٠ مليونا فى أفريقيا ، و١٥ مليونا فى أمريكا .



البحث الثالث

نحو الدولة العالمية

(١٤٥٣ - ١٥٢٠)



نحو الدولة العالمية
(١٤٥٣ - ١٥٢٠)

(١) فاتح والبلقـــان (١٤٥٣ - ١٤٦١)

يطلق على الحملات العسكرية التى يكون البادشاه قائدها العام فى علم الاصطلاحات الفنية العثمانى ، « سفر همايون » أى الحملة الهمايونية ، وكان فاتح قد اشترك فى الحملات الـ ٣ الأخيرة لأبيه مراد الثانى (الحملات الهمايونيه مورا الثانية فى ١٤٤٨ ، ألبانيا الثانية فى ١٤٤٨ وألبانيا الثالثة فى ١٤٥٠) .

أما الحملة الهمايونية الأولى لفاتح فهى حملة قرةمان ، والثانية استانبول ، والثالثة إنز Enez :

فى الحملة الثالثة أستولى الفاتح على إنز (ك/١٤٥٣) ، وهو مرفأ جنوى يقع على مصب نهر مريج وكان تابعا للعثمانية منذ ١٣٨٣ ، وبعد أن استولى على المرفأ أرسل اسطولا مؤلفا من ٥٥ قطعة إلى كفه مستعمرة جنوة فى قرم (تموز ١٤٥٤ .

قاد فاتح حملة صربيا الأولى وهى الحملة الهمايونية ٤ له (١٤٥٤) ، وبعد أن عاد إلى استانبول ، قام القبودان دريا (مشير البحر) حمزة بك بحملة على جزر إيجه الشمالية ، بعد حملة كفه والحقها بالعثمانية ، وبذلك تكون الجزر التى الحقت رأسا فى بحر ايجه هى بوزجه آدا (حزيران ١٤٥٣) وطاشوز (صيف عام ١٤٥٥) ، وفى حملة حمزة بك للسنة التالية (فى ربيع عام ١٤٥٦) جزر ليمنى ، امروز ، سمنديرك .

وهكذا أصبح مدخل بوغاز جناقلعة مغلقا بصورة تامة .

وفى ١٤٥٥ ، هاجمت ٨٠ قطعة من الأسطول الهمايونى جزيرة رودس التابعة لفرسان سانت - جين ، لكنها لم تتمكن من أخذ الجزيرة .

خرج فاتح فى ١٤٥٥ فى حملته الهمايونية الخامسة (حملة صربيا ٢) . وفى عودته مر على صحراء كوسوفا وزار مشهد خداوندكار . وفى ١٤٥٥ ، قبلت الامارة الرومانية (الارثوذكسية) مولدافيا (بالتركية : بغدان) تبعيتها للعثمانية ، وهكذا انضمت الامارة الرومانية الثانية إلى تركيه بعد ٦٠ سنة من انضمام افلاق . وانتقل ساحل البحر الأسود إلى العثمانية ، وحرمت ملكيتا المجر وبولونيا الكاثوليكيتان اللتان كانتا تدعيان السيادة على بغدان ، من البحر الأسود .

الحملة الهمايونية الـ ٦ لفاتح ، هى حملة بلاد الصرب (١٤٥٦) ، وفيها اجتاح بلاد الصرب بجيش يتألف من ١٥٠٠٠٠ مقاتل ، و٣٠٠ مدفع ، ٢٠٠ قطعة من الأسطول الرفيع (الأسطول النهرى الذى يتكون من قطع رفيعة وطويلة) ووصل امام قلعة بلغراد المجرية القويه فى الحدود الشمالية لبلاد الصرب حيث حاصرها مدة ٣٩ يوما (١٣ حزيران – ٢٢ تموز) ، ولم يتمكن من فتحها ، وفى هذه الحملة جرح فاتح ومات هنيادى يانوش متأثرا بجراحه أثناء دفاعه عن القلعة .

الحملة الهمايونية الـ ٧ ، هى حملة مورا الأولى (١٤٥٨) وفيها دخل اثينا التى يطلق عليها الاتراك « مدينة الحكماء » . سمح فاتح للدوق اللاتينى الأخير Franco Acciajuoli بأن يأخذ كامل ثروته ويذهب إلى إيطاليا .

دخل إلى مورا من برزخ كورينشوس وجاء إلى باتراس وأسس فيها لواءً تركيا على الأراضى التى تشمل ثلث مورا ، وسمح لاميرين من سلالة Paleologos بادارة الثلثين الباقيين ، تحت حماية العثمانية .

هدم فاتح بنيران مدفعيته ٢٩٢ قلعة من مجموع الـ ٣٠٠ قلعة الموجودة فى مورا وترك ٨ قلاع فقط ، وهكذا انهى القرون الوسطى فى مورا .

الحملة الهمايونية الـ ٨ (١٤٥٩) ، هى حملة الصرب ٤ التى سقطت فيها سمندره (١٤٥٩/١١/٨) وانهيت فيها إمارة صربيا وتأسس لواء سمندره الذى يبدأ من السفوح الجنوبية لقلعة بلغراد التى تشكل حدودها الشمالية .

كانت إمارة الصرب قد الحقت بتركيا لمدة ٥ سنوات (١٤٣٩ – ٤٤) ، ثم تأسست مجددا تحت حماية العثمانية لتكون دولة عازلة بينها وبين المجر الكاثوليكية .

الحملة الهمايونية الـ ٩ (١٤٦٠) ، هى حملة مورا ٢ . وفيها ضم فاتح الأراضى التى كانت تحت الادارة المباشرة للاخوينَ الاميرين البيزنطيين ، وأخرجهما من مورا . الأميران هما الأمير ديميتريوس والامير توماس اخوا الامبراطور قسطنطين الاول ، وقد توفى ديميتريوس فى أدرنة عام ١٤٧١ بعد أن عاش حياة مرفهة كاحد رعايا الاتراك . أما توماس ، فقد هرب ولجأ إلى البابا ، وتوفى فى روما سنة ١٤٦٥ .

(٢) فاتح وجنوب البحر الاسود (١٤٦١ - ١٤٦٣)

فتح امبراطورية طرابزون

الحملة الهمايونية الـ ١٠ لفاتح (بداية ١٤٦١) تم فيها فتح ميناء وقلعة آماسرا التابعة لجنوة على البحر الأسود .

وفى الحملة الهمايونية الـ ١١ (ربيع ١٤٦١) ، وهى حملة اسفنديار ، تم القضاء على تابع العثمانية امارة جاندار (واسمها الاخير اسفنديار) .

كان أميرها الاخير داماد إسماعيل بك رجلا من الأشراف . كان لداماد اسماعيل بك فى قلعة سينوب ١٠٠٠٠ جندى ، و٢٠٠٠ مدفعى و٤٠٠ مدفع . خرج دون أية مقاومة وقبل يد فاتح . منحه فاتح إقطاعية فيليبة . مات فيها فى ١٤٧٩ وعمره ٦١ سنة . كان متزوجا بأخت فاتح . له كتاب مهم فى الفقه.استمرت سلالة بنو اسفنديار إلى يومنا هذا من نسل اخيه سلطان - زاده (سليل العائلة السلطانية) داماد (الصهر) قيزيل احمد باشا .

وبذلك تكون قد بقيت فى الأناضول ٣ إمارات فقط من الأسر التركمانية ، وهى : امارتا قرة مان ودلقادر التابعتان للعثمانية وإمارة رمضان التابعة لمماليك مصر .

الحملة الهمايونية الـ ١٢ (صيف عام ١٤٦١) ، هى حملة طرابزون . سار فاتح من سينوب إلى شبين قره حصار بجيش لم يسبق أن شوهد حجمه على هذه الاراضى على مدى التاريخ ، ووصل أمام قلعة طرابزون بعد ان اجتاز - بالتسلسل - وسلسلة جبال كموشخانه ، قولات ، طرابزون بعناء كبير لكثافة الغابات .

دخل الأمير كاظم بك مع الاسطول إلى ميناء طرابزون . استسلم الامبراطور David Komnenos دون ان يشهر السلاح .

وهكذا انتقلت إلى الحكم الاسلامى والتركى ٣ ولايات (طرابزون ، ريزه ، آرتفين) اللواتى لم يسبق ان دخلن إلى الحكم الإسلامى فى الاناضول ، وكذلك دخلت كافة السواحل الجنوبية للبحر الاسود دون استثناء ، تحت الحكم العثمانى المباشر فى حملة ١٤٦١ ، وانتهت سلطنة أسرة **Komnenos** التى دامت فى طرابزون ٢٥٧ سنة .

جرت الحملة الهمايونية الـ ١٣ على رومانيا (بالتركية : افلاق) .

كان **Wald Tapes** الثالث (١٤٥٦ - ١٤٦٢) الذى يسميه الاتراك « قازقلى فويفودا » (اى الامير ذو الاوتاد) المانياك (اى المجنون) - قد تمرد ورفض السيادة العثمانية ، هرب **Wald Tapes** من امام فاتح ولجأ إلى المجر . قبضت عليه المجر وسجنته مدة ١٥ سنة بسبب اشتهاره بالظلم .

الحملة الهمايونية الـ ١٤ (١٤٦٢) ، هى حملة بوسنة الأولى .

دخل فاتح أسكب بعد أن قضى على ملك بوسنة الكاثوليكى المتعصب الذى سحق البوشناق (البوسنويين) الذين يدينون بمذهب بوغوميل الذى اقتبس بعض أحكام الاسلام ، وفتح قلعة يايجه **Yayçe** واخضع بوسنه كذلك .

الحملة الهمايونية الـ ١٥ كانت على الامارة اللاتينية ، وتعتبر هذه الحملة الهمايونية حمله استثنائية لكونها عبر البحار ، إذ إن خروج السلاطين فى حملات عبر البحار كان محظورا فى العرف العثمانى .

قام فاتح بعملية إنزال على الجزيرة من آيوالق **Ayvalik** بواسطة اسطول مكون من ٦٧ قطعة بحرية . وخلال ذلك أمر فاتح بانشاء قلعتين متقابلتين فى بوغاز جناقلعة للسيطرة عليه بالنار المتقابلة ، على غرار بوغاز استانبول ، فشيد استحكامات ومتاريس قلعة سلطانية (القلعة السلطانية) فى جناقلعة (جهة اسيا) وقلعة كليد البحر (قفل البحر) فى جهة غاليبولى (أوربا) .

الحملة الهمايونية الـ ١٦ (١٤٦٣) ، هى حملة بوسنة الثانية ، وفيها وصل فاتح إلى صوفيا ثم قفل عائدا .

(الحروب الكبرى تجاه ٢٥ دولة (١٤٦٣ - ١٤٧٣)

الحملة الهمايونية الـ ١٧ (١٤٦٤) ، هى حملة بوسنة الثالثة . اضمحلت ملكية بوسنه وألحقت بالعثمانية وكان قد اهتدى إلى الإسلام الخروات الذين يدينون بمذهب بوغوميل ، كما جاء كثير من الاتراك إلى بوسنة وهرسك واستوطنوا فيهما . شوهد اعتناق جماعات كبيرة فى قطرين بلغاريين كالبانيا وبوسنة للدين الاسلامى ، وصار الألبانيون والبوشناق مسلمين صميمين مع انهم حافظوا على لغاتهم حتى يومنا هذا ، ودخلوا فى نطاق الثقافة التركية ، ولايزالون مسلمين حتى الآن .

حاول ملك المجر أخذ بوسنة ٣ مرات فى ١٤٦٥ ، ١٤٧١ وفى ١٤٧٩ . وقد باءت محاولاته فى المرات الثلاث بالفشل .

الحملة الهمايونية الـ ١٨ (١٤٦٦) ، هى حملة قرةمان الثانية (بعد ١٥ سنة من الأولى) ، وفى هذه الحملة ألغى فاتح الذى دخل قونية ، ثم احتل لارنده (قره مان) ، الامارة وأجلس ابنه الأوسط شهزاده (الامير) مصطفى (امه كلشاه خاتون وهى ابنة قرةمان أوغلو إبراهيم بك) على عرش قرة مان فى قونيه ، وتقبل شعب قونية هذا الوضع بارتياح ، حيث انه كان قد سئم من اتفاق امرائه مع المسيحيين ضد العثمانيين ، ذلك بالاضافة إلى أنهم شعروا بالفخر لتولى الامارة أمير هو ابن فاتح استانبول ، وفى نفس الوقت حفيد قرة مان أوغلو إبراهيم بك الحاكم الذى توفى (١٤٦٤/٨/١٦) قبل سنتين بعد سلطنة دامت ٤٠ سنة . وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك أهمية لنسب الأم فى ذلك العهد ، فإن ذلك كان من عوامل كسب ود القونويين .

ظل قسم من بنى قرة مان ممتلكا سواحل البحر الأبيض : ايجل ، وطاش ، يالى .. لفترة اخرى .

الحملتان الهمايونيتان ١٩ و ٢٠ ، هما حملة ألبانيا الأولى (١٤٦٦) والثانية (١٤٦٦ - ١٤٦٧) ، وكلتاهما موجهتان إلى تمرد اسكندر بك .

أسس فاتح فى الحملة الاولى (١٩) قلعة ومدينة الباسان **Elbasan** . ولم يتمكن فى الحملة الثانية (٢٠) من القبض على إسكندر بك .

وافت اسكندر بك المرتد منيته فى ١٤٦٨/١/١٧ فى Alessio (بالتركية : لش) ، وهكذا انتهى عصيان البانيا الكبير .

انتهت علاقة ملكية نابولى مع ألبانيا ، ولكن علاقة جمهورية البنادقة فى الشمال استمرت مع ألبانيا فترة أخرى .

قامت بين تركيا والبندقية فى ١٤٦٣ ، حرب شديدة وطويلة جدا تسمى الحرب الكبرى .

اتفقت على مر الزمن ضد تركيا نحو ٣٠ دولة . اضطرت تركية للاستمرار فى هذه الحرب بدون حليف .

وقد كان ذلك هو ماقاله منذ عشر سنوات جاندارلى - زاده الذى أعدمه فاتح السبب الظاهرى للحرب الكبرى هو الحاق ملكية بوسنة بتركيا ، ولكن السبب الحقيقى هو فتح العثمانية البيزنط ، وغلقها المضايق ، ومنعها مرور السفن إلى البحر الاسود ، وحيازتها على قوة عسكرية واقتصادية لاتسمح لاية دولة أن تنازلها منفردة .

كانت الاستعدادات الاولى لتشكيل ائتلاف ضد الاتراك قد جرت بقيادة البابا فى الاجتماع الذى عقد فى Regensburg ، منذ نيسان ١٤٥٤ .

كانت الاستراتيجية الأوربية فى هذه المرة تستند على اساس فكر معين مؤداه : إن هزيمة الاتراك عسكريا واستقطاع اقطار منهم أمر مشكوك فيه أو هو أمر صعب ، ولكنه ليس بالأمر المستحيل إذا ماتحدت أوربا بأكملها ، ولذلك يجب ضرب البادشاه الذى يطلقون عليه لقب « التركى الكبير » من الشرق ، ومن الاناضول بصورة مؤكدة .

لاتوجد فى تلك المناطق دولة مسيحية عدا كرجستان .

كانت قرةمان قد أخذت هذا الأمر على عاتقها فى السابق ولمرات عديدة ، لكنها لم تتمكن من مقاومة العثمانية . لذلك فمن الضرورى تحريض المماليك ضد العثمانية ، ولكن ، القاهرة لاتقدم أبدا على اتفاق مع المسيحيين ضد الدول الإسلامية ؛ لكونها أولا مسلمة ؛ ولأنها تضررت كثيرا من الصليبيين سابقا . كما .. أن خلافات القاهرة مع العثمانية ليست مهمة بالدرجة التى تجعلها تقدم على دخول حرب واسعة .

لاشك فى أن القاهرة لم تكن مستريحة لاطماع العثمانية تجاه قرة مان (قونية) ودلقادر (ماراش) ، لكنها على هذه الحال منذ مدة تقارب القرن ، ولم يؤد عدم ارتياحها لهذا الوضع خلال تلك المدة إلى حرب عثمانية - مملوكية ، ومن الطبيعى أن نتوقع أن تغييرا سوف يطرأ على موقف القاهرة من العثمانية لو أن الاخيرة ركزت نظرها على بلاد رمضان وجوقور أوفا .

على كل الاحوال فانه لم تظهر على سياسة « التركى الكبير » ، أى فاتح ، أية بوادر تشير إلى رغبته فى اجتياز الفرات وجبال طوروس وانما كان كل امله فى أوربا .

وفى ضوء ذلك كله ، نجد أن الدولة الوحيدة ذات المقدرة العسكرية التى يمكنها أن تضرب التركى الكبير من الشرق ، هى اقويونلو (اصحاب الخرفان البيض) الامارة التركمانية المتضخمة .

كان أوزون حسن بك الذى أظهر فى السنوات الاخيرة تقدما كبيرا جدا ، وأثبت قدرة عسكرية هائلة ؛ حتى اطلقوا عليه فى اوربا « كوجوك ترك » (التركى الصغير) - مستعداً للقيام بهذه المهمة ، فهو يسيطر على الاناضول الشرقية ويتميز غيظاً من فاتح الذى قوض امبراطورية طرابزون (التى يرتبط بها بروابط القرابة) ، والذى قضى على قرةمان وأخل بالتوازن . ولو أمكن إعطاء الدور الذى لعبه تيمور إلى أوزون حسن ، لكسبت أوربا الحرب من الناحية الاستراتيجية ، وحتى ان لم يتيسر لها دحر القدرة العثمانية ، فانه سيكون فى إمكانها حصرها فى حدود المعقول .

استغرق تجهيز الاتفاق ضد العثمانية وقتا طويلا ، وتم تدبيره بأناة ، وتم التفاهم فى النهاية على خطة التقسيم التى تحصل المجر بموجبها على حصة الاسد لتخصيصها أكبر قوة عسكرية ، فلها بلاد الصرب ، بلغاريا ، بوسنة ورومانيا (افلاق) ، ويحصل البنادقة كذلك على حصة كبيرة ، اذ إنهم وافقوا على تحمل القسم الاكبر من النفقات المالية علاوة على تخصيصهم لاسطول البندقية القوى . وتحصل « الجمهورية المهيبة » على مورا ، آتيكا ، تيساليا ، ابير . ويعاد إحياء الامبراطورية البيزنطية ، على ان تنحصر حدودها فى تراقيا ، ولاتعطى حدودا واسعة لكونها ارثوذكسية وتكون بمثابة .. الدولة العازلة .. وبذلك يتم إخراج الاتراك من أوربا بشكل كامل .

أما ماهى الأراضى التى ستبقى لدى العثمانية فى الأناضول ، فإن ذلك شىء يعود إلى آقويونلو « كوجوك ترك » أوزون حسن الحليف الكبير للاتفاق ، ولاشأن للدول الأوربية بذلك . ومن المؤكد ان أوزون حسن سيعيد تأسيس دولة قرةمان وطرابزون تحت حمايته وسيضم اراضى العثمانية فى الاناضول الوسطى كذلك . وستبقى العثمانية منحصرة بين البحر الاسود - مرمرة - إيجه - البحر الابيض كما كانت فى السابق ، ولن يسمح باقترابها من الاناضول الوسطى خصوصًا ، ويمكنها أن تعيش فى غرب الاناضول ، شرط تحسين علاقاتها مع آقويونلو !

كان العنصر الأساسى فى تطبيق خطة خيالية كهذه ، هو إجبار العثمانية على دخول الحرب بدون حليف (وهذا ماحدث .. لم تتمكن من اتخاذ اى حليف) . ومن حيث المنطق لو ان مايقرب من ٣٠ دولة قامت بتطبيق هذه الخطة بتصميم ، فإن النجاح سوف يكون مضمونا ، وسوف تتعرض العثمانية للعنت ولمصاعب كثيرة وستتردى اقتصاديا وعسكريا كلما طالت الحرب وستكون مرغمة فى النهاية على وقف الحرب (وبالفعل فإن فاتحا لما طالت الحرب ، وضع اليد باسم الجيش على إيرادات الأوقاف غير مبال بعدم الارتياح ولا بالانتقادات الكبيرة التى تعرض لها) .
ولكى يتحقق الانتصار فى حرب كهذه ، فإنه لايكفى استحواز الجيش على الأولوية فى العالم ولايكفى الأسطول الذى اصبح على يد فاتح متفوقا على الأسطول البندقى وجهزه بمدافع ممتازة وجعله الأسطول الأول فى العالم ، ولكن الأمر يحتاج إلى سياسة خارجية مكيافيلية وجهنمية دقيقة جدا ، ولقد رضى فاتح بالحرب ، لأنه كان مقتنعا بأنه سوف يتمكن من السيطرة على هذا العنصر كذلك ، وقد كان بإمكانه الحيلولة دون وقوع الحرب لو أنه اعطى بوسنه إلى المجر واعاد استقلال دولتى قرةمان وطرابزون وجعلهما دولا عازلة بينه وبين آقويونلو وفتح البحر الأسود للبنادقة ، لكنه لو كان فعل ذلك ، فهل تقف الترضيات عند هذا الحد ؟ وهل يمكن لدولة تقدم مثل هذه الترضيات إن تثبت دعواها فى كونها الدولة الأولى فى العالم ؟

تعرضت الدولة الصغيرة دلقادر لضغوط شديدة فى حرب العمالقة هذه ، ولم يخضع التركمان المرعشيين لهذا الضغط ، ولم يتركوا أبدا تبعيتهم للعثمانية ورفضوا كافة الضغوط التى مارستها الدولتان ذوات القدرات العظيمة كمصر

(المماليك) وإيران (آقويونلو ، أى اصحاب الخرفان البيض) بشأن انفصالهم عن العثمانية .

من ناحية أخرى ، فإن القاهرة ماكانت لترضى بالتحرك ضد بنى عثمان ، صحيح أن القاهرة كانت ترى فى أجلاس بنى عثمان ابنهم المتوسط على عرش قرةمان ، وفى صاحب عرش مراش التابع المخلص للعثمانية ، خطرا يهددهم فى سوريا ، لكن كل ذلك ماكان ليجعلهم يتحركون ضد بنى عثمان الغزاة العظام ، وبخاصة عندما تكون هذه الحركة بالاتفاق مع أوربا ، لقد كانوا يرون أن ذلك لايليق بهم .

إن « مصر – سوريا » كانت تسر لانتصارات العثمانية فى أوربا .

وفى ١٤٥٦ ، احتفلت مصر وسوريا ٣ أيام بلياليها عند التأكد من عدم صحة خبر موت فاتح بمرض الطاعون .

لم تكن « مصر – سوريا » مستعدة للاقدام على الحرب مع الدولة العثمانية بسبب مسألة قرةمان ودلقادر .

أما آراء فاتح بالنسبة للدولة المملوكية وسلاطينها ، فلم تكن طيبة على أى حال من الأحوال رغم إخفائها بدقة ومهارة ، كان السلاطين المماليك بالنسبة لفاتح « عبيدا شركسيين » لاينحدرون مثله من أوغزخان ، واضافة إلى ذلك فإن هذه الدولة تحتفظ بالخلافة ، وتسيطر على ٣ مدن إسلامية مقدسة مكة ، مدينة ، والقدس . وبفضل هذه العناصر المعنوية . كانت تدعى بأنها دولة الإسلام العظمى . من الجائز أنها كانت كذلك في وقت ما .. لكن تركيا كانت قد وصلت إلى أوربا الوسطى بعد أن قدمت ٤ ملايين من الشهداء خلال ٤ قرون مبتدئة من ملازغرت ١٠٧١ . كان فاتح هو الخلف الشرعى لبنى سلجوق (هذا هو الرأى الرسمى للدولة العثمانية منذ بدايتها وحتى اضمحلالها) . وبنى سلجوق هم أسياد أسياد (الاتابكة الزنكيين) الايوبيين الذين هم أسياد المماليك .

كان العثمانيون قد تقلدوا سيف الإسلام ، أما المماليك فكانوا يتمتعون بفضل الإسلام .

بطبيعة الحال لم تكن القاهرة على علم بمثل هذه الأفكار الخطيرة التى لدى العثمانيين عنهم ، واستمرت القاهرة فى محبتها للعثمانية حتى النهاية .

علم فاتح وقد كان يملك أقوى شبكة للاستخبارات ، فى العالم وله عيون وأرصاد فى كل منطقة من أوربا ، إجراءات الاتفاق الذى رتب ضده ، خطوة بخطوة ، فسبقهم فى التحرك .

بدأ فى الحرب فعلا يوم ٣ نيسان ١٤٦٣ ، وبناء على ذلك أعلنت البندقية الحرب على تركية فى ٢٨ تموز والمجر* فى ٣٠ تموز .

سحق الوزير الأعظم محمود باشا ، المجر فى الحرب الميدانية Zvornik . تمكن ملك المجر Mathias ابن Hunyadi Janos من النجاة من الموت بصعوبة . غادر البابا بيوس الثانى روما (١٨ / ٦ / ١٤٦٤) لقيادة الجيش الصليبى بنفسه ، لكنه مات فى الطريق ، وتحرك كذلك دوج (رئيس جمهورية) البندقية من البندقية بالسفينة (٢ / ٨ / ١٤٦٤) تجاه تركيا ، ولكنه رجع إلى البندقية عند سماعه خبر وفاة البابا . منح فاتح ، دولة فلورنسا (توسكانا) امتيازات تجارية كبيرة ، وحسن أحوالها المالية بشكل واسع وذلك بغرض إضعاف القدرة المالية والاقتصادية للبندقية .

وبينما كانت تتتابع الدول الأوربية ، والدول الآسيوية كايران (أصحاب الخرفان البيض) ملكية كرجستان (ارثوذكسية) ، ملكية قبرص (كاثوليكية) – فى إعلان الحرب على تركية ، كان فاتح معنيا بشكل خاص بالبندقية ، ذلك أن فاتح لم يكتف بالنسبة للبندقية بالتدابير المتعددة التى اتخذها لتدمير الجمهورية من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية ، بل إنه قام معها بمناورات سياسية معقدة جدا ، فقد فتح معها الباب لمفاوضات الصلح (وهذا أمر لايجرى والحرب دائرة) ، ولكن شروط الصلح المغرية بهرت عيون البنادقة ، فأوقفوا الحرب مدة من الزمن ، استطاع فاتح خلالها القضاء على أعدائه الآخرين ، ثم أعلن بعد ذلك أن المفاوضات دخلت فى طريق مغلق ، وبدأت الحرب مع البندقية مجددا .. لقد ابتلعت البندقية ذاتُ الدبلوماسية الراقية ، هذا الطعم مرات عديدة !

ضعضعت الحملات الواسعة النطاق التى بدأت فى ١٤٦٩ ، البندقية بدرجة

كبيرة ، قامت البندقية حتى تموز ١٤٧٩ فقط ، بترتيب ١٤ مؤامرة لاغتيال السلطان محمد الفاتح ، ولم توفق فى أى منها (Babinger ، ٣٤٧) .

سار فاتح فى صيف عام ١٤٧٠ بجيشه فى إحدى حملاته الكبرى وهى الحملة الهمايونية ٢١ ، حملة آغريبوز (أكريبوز) تجاه البندقية . وقد كانت هذه الجزيرة – وهى أكبر جزر إيجة – كأنها ملتصقة بشبه جزيرة آتيكا (تبلغ مساحتها ٢٩٧كم[٢]) ، بحوزة البنادقة منذ ١٢١٠ ولمدة ٢٦٠ سنة . (وقبلها كانت بحوزة البيزنط) .

دخل الأسطول الهمايونى المكون من ١٠٠ سفينة حربية شراعية كبيرة (كاليون) و٢٠٠ سفينة نقل إلى بوغاز آغريبوز فى ١٤٧٠ . أما الجيش الهمايونى (الامبراطورى) فقد دخل إلى تيساليا من ممر ترموبيل وانتقل منها إلى آتيكا . وجاء إلى منطقة مجاورة لـ (Tebai) Tep وصعد إلى قلعة Chalkis Egripo التى تشكل مركز الجزيرة والتى يطلق عليها الأتراك اسم الجزيرة نفسها : آغريبوز . كانت القلعة الواقعة وسط بوغاز أغريبوز وفى النقطة التى تقترب فيها الجزيرة إلى البر بمسافة ٥ كم ، إحدى أقوى قلاع البنادقة المستحكمة . وحتى ييسر فاتح لجيشه البالغ ٧٠٠٠٠ شخص مهمة العبور ، فقد صف ٢٠٠ سفينة جنبا إلى جنب وبذلك تمكن من إقامة جسر طوله ٥ كم . لم يكن اسطول جمهورية البندقية الذى يقوده الاميرال Nicolo Canale بعيدا ، لكنه لم يجسر على الاقتراب من الأسطول التركى .

دام الحصار ١٧ يوما ، ثم سقطت القلعة فى الهجوم الخامس (١٢ / ٧ / ١٤٧٠) ، وقد ولد سقوط آغريبوز تأثرا كبيرا فى أوربا ، كسقوط استانبول وطرابزون .

ثم قام الوزير الأعظم كديك أحمد باشا بعد ذلك باحتلال نيغده (١٤٧٠) وعلائيه (آلانية) (١٤٧١) وسيلفكة (١٤٧٢) ووصل إلى سواحل امارة رمضان فى جقوراوفا التى كانت تحت حماية المماليك ، وبذلك حقق سيطرة عثمانية تامة على سواحل البحر الأبيض .

يمكن تصوير الوضع عند اقتراب نقطة تحول الحرب ولحظتها الجهنمية فى ١٤٧٣ على الوجه التالى :

– أوربا تعلق الأمل أكثر من أى وقت مضى على التركى الصغير .

كان فاتح بالنسبة لأوربا Great Turk Gran Tureo, Grand Turc . أما أوزون حسن فهو التركى الصغير Piccolo Turco, Petit Yurc, little Turk .

– ازداد بشكل كبير تبادل السفارات بين البندقية وتبريز – أخذت معاهدات الاتفاق تتلو إحداها الأخرى .

– الدول الأوربية من جهة وإيران من جهة أخرى – من المتعذر إجراء صلح منفرد – تتضمن المؤامرة تطبيق خطة التقسيم بعد أن يبيد أوزون حسن جيش العثمانية السيار فى حرب ميدانية – تتمثل خطة التقسيم فى أن البلقان للدول الأوربية ، أما الأناضول فهى لأصحاب الخرفان البيض – تقسيم البلقان والأناضول سيكون بالتراضى بين الأوربيين وأصحاب الخرفان البيض ، بمعنى أن أوزون حسن سوف لايتدخل فى البلقان ، ولاتتدخل أوربا فى الأناضول .

وبطبيعة الحال كان أوزون حسن قلقا بشأن قدرة الأوربيين على سحق العثمانيين واسقاط تلك القلاع المتينة بما فيها من وحدات الصاعقة وجيش روملي واخراجهم من البلقان ، ولكن ذلك لم يكن يعنيه ، وإنما الذى يهمه هو حكم الأناضول حتى ازمير وغاليبولى ، وتكوين امارات عازلة تتولى مهمة الانشغال بالعثمانية التى سوف تستمر فى بورصة وحواليها ، ومن هنا فإنه سوف لاينشغل بأمور الأناضول الغربية ، وإنما سيكون على الأغلب فى موقف الحكم .

كان أوزون حسن مغترا بقتله خاقانين كبيرين جدا من الأتراك وابادة جيشهما ، (الخاقانان هما خاقان قرة قويونلو (اصحاب الخرفان السود) جهان شهاه والخاقان التيمورى أبو سعيد) .

يحكم أوزون حسن الآن المنطقة الواقعة بين أفغانستان وقرةمان ، وبين قفقاسيا وسوريا ، وكذلك كانت إيران والعراق وقفقاسيا الجنوبية والأناضول الشرقية تحت حكمه .

وكان أوزون حسن يعلم بالطبع أن الجيش العثمانى السيار ، أقوى من جيش

قرة قويونلو وتيمور . لكن جيشه كان أكثر عددا ، وقد كان يتصور أنه سيتمكن من اخضاع فاتح ، كما تمكن تيمور من اخضاع يلدرم . لكن الحال كان مختلفا فأوزون حسن لم يكن تيمور ، كما أن فاتح لم يكن يلدرم .

عقدت معاهدة ٢ شباط ١٤٦٨ بين البندقية ، البابوية ، ميلانو ، صقلية ، جنوه ، فلورنسا ، مودينا ، سيئينا ، فرارا ، بيسا ، مانتوفا ، ترينتو ، لوكا ، وأدخلت جميع الدول الايطالية ضمن الاتفاق . أما المجر فقد جمعت حولها ألمانيا ، بولونيا ، كاستيليا (اسبانيا) ، آراغون ، فرانسا ، برغونيا ، قبرص ، رودس وكرجستان . لقد تجاوز عدد دول الاتفاق ضد العثمانية لفترة من الزمن الـ ٢٥ دولة .

تمركز اسطول صليبي في لارنقة ، من بين سفنه ٥٨ سفينة حربية بندقية ، وأخذ يقصف قلاع تركية في البحر الأبيض ، ولكنه لم يتمكن من تحقيق شيء يذكر ، كذلك لم يتمكن من تمرير الأسلحة النارية التي وعد بها أوزون حسن .

تحرك أوزون حسن مع ٣٠٠٠٠٠ من خيالته من خربوت إلى ارزنجان تاركا وراءه ١٠٠٠٠٠ من خيالته .

غادر فاتح استنابول (١١ / ٤ / ١٤٧٣) وجاء إلى سيواس بجيش يتكون من ١٩٠٠٠٠ جندي على شكل ٥ فيالق بتنظيم لايصدقه العقل بالنسبة لذلك الزمن . اضطر إلى ترك قوات كبيرة في روملي ، وكان مطمئنا إلى أنه سوف يعوض فرق العدد بين جيشه وجيش أوزون حسن بأسلحته النارية . ولم يكن يغيب عن فاتح شجاعة خيالة أوزون حسن التركمان .

أخذ الجيشان يبحث أحدهما عن الآخر ثم التقيا في أوطلوكبلي Dtlukbeli .

تقع أوطلوكبلي ، في المنطقة التي ينبع منها نهر جوروه Goruh وعلى الساحل الشرقي منه ، وبالقرب من جنوب النهر يصب أحد الروافد الصغيرة لنهر قره صو ، وتعلو جبال بولور Pulur في الشمال الشرقي ، وفي الجنوب جبال كشيش . جنوب شرقي قصبة كلكيت ، وجنوبي غربي بايبورت ، وعلى مسافة ٤٠ كم من شمالي شرقي ارزنجان . وحاليا ، في أقصى جنوب كموشخانة وتقع على بعد كيلو متر واحد شرقيها .

إن الرسائل التى أرسلها السلطان أوزون حسن فى غضون الأيام التى سبقت اللحظة الجهنمية إلى حلفائه الثلاثة ملك البندقية ، وامبراطور ألمانيا فردريك الثالث وملك المجر Matthias Corvinus تدعو إلى الاهتمام .

كتب أوزون حسن فى هذه الرسائل أن العثمانية بادرت بالهجوم عليه ، وأن جيشها كبير لكن جيشه أكبر منه ، وأن هجومها هو لطف من الله ، حيث إنه لايمكن الاستيلاء على الأناضول ما لم يتحقق افناء الجيش العثمانى ، وعكس ذلك ، فإن العثمانية سوف تتحين الفرص للانقضاض عليه واستعادة أراضيها ، وإن إبادة الجيش العثمانى خلال عدة أيام أمر مؤكد وأنه لايستطيع أن يتكهن بما إذا كان سيمكن أسر البادشاه أم لا ، كما تضمنت رسائله ان العثمانية ذات تسعة أرواح ، فقد استطاعت استعادة حيويتها حتى بعد ابادة جيشها ولم تنهْ (يشير بذلك إلى واقعة انقرة التى جرت قبل ٧١ سنة) ، لذا يجب على الحلفاء الأوربيين عدم التأخر فى احتلال أراضى العثمانية فى روملى فور إبادة الجيش العثمانى ، ولو أنه لايمكن بهذا القضاء على العثمانية بشكل تام ، لكنها على الأقل ستصبح بعد ذلك دولة من الدرجة الثانية وتسقط إلى درك إمارة اعتيادية ، عديمة الشأن والمنزلة ، وسوف لاتتمكن دولة بنى عثمان العاهرة من تهديد أحد !

كانت البندقية عازمة على تكرار ماقامت به تجاه الامبراطورية البيزنطية فى ١٢٠٤ ، حيث كانت قد أعطت أمر اجتياز مضيق جناقلعة واحتلال استانبول فور علمها بخبر ابادة الجيش العثمانى السيار . ستؤسس فيها امبراطورية رومانية شرقية العوبة . لابد أن تنتهى الحرب بكل سرعة .

أبلغت المجر وألمانيا ، البنادقة بفشلهما فى مجابهة الصاعقة وأنهما سوف لم يتمكنا من ذلك ، بالاضافة إلي ذلك فإن رسائل أوزون حسن كانت تفيد عدم إمكان محو العثمانية من سطح الأرض والقضاء على دولتها .

يبدو أن تصور البنادقة كان يقوم على إمكان اختراق الأسطول التركى واحتلال إستانبول ، ولكن أيا من الأمرين يتعذر تحقيقه ، فالأسطول التركى يفوق الأسطول البندقى ، واستانبول يحميها جيش غير قليل ، ومن الناحية الأخرى فإنه إذا كان من المنتظر أن يسير جيش الحلفاء من الشمال فإن ذلك تكتنفه صعوبتان كبيرتان هما : قوة قلاع روملى ، وشدة مراس الصاعقة المغاوير .

كانت سياسية فاتح الخارجية بقدر ماهى جريئة وحافلة بالمفاجآت فانها تتسم بالحذر والدقة والواقعية ، وتتجه نحو الغاية ، كما كانت فى نفس الوقت مجهولة وخافية على الأطراف الأخرى .

أما سياسة أوزون حسن ، فكانت تقوم على التظاهر والغرور .

لم يكن فاتح يعلن شيئا عن قوته وقدرته وإنما كان يحقق ذلك فعليا فى ساحات الحرب .

كان أوزون حسن مستمرا فى الفخر بنفسه ، وقوته ، وقدرته ، وكيف أنه تمكن من هزيمة خاقانين فى حربين ميدانيتين وقتلهما . لقد استطاع السلطان – زاده (سليل العائلة المالكة ، هزيمة ابن عمة فاتح بير أحمد بك – وهو من بنى قرةمان – من جهة الأم)) ، اللاجىء فى سراى تبريز ، والعليم بالتشكيلات العسكرية العثمانية – أن يؤثر على أوزون حسن باطرائه له وامتداحه المستمر لانتصاراته على أصحاب الخرفان السود والتيموريين ، ونجح بذلك فى تهوين القدرة العسكرية العثمانية فى نظر أوزون حسن ، أما بالنسبة لفاتح فانه ماكان ليسمح لأحد أبدا بامتداحه فى وجهه ، فيما عدا الشعراء بطبيعة الحال .

كان هذا هو وضع كل من عثمان أوغلو (بنى عثمان) السلطان محمد البالغ عمره ٤١ سنة وآقويونلو السلطان أوزون حسن البالغ عمره ٥٠ سنة ، كانا يعتقدان أن لهما حقا متساويا فى خاقانية الترك الكبرى ؛ لأن كليهما ينحدران من أوغزخان ، أحدهما من سلالة قايى خان والآخر من سلالة بايندرخان . كان أوزون حسن ، يعتبر العثمانية « جتاق » أى كثيرة الاختلاط بالأجانب ، متفرنجة ، الأمر الذى جعلها مختلطة الثقافة ضعيفة التدين ، لكنه لم يكن يفكر فى الكفاح المرير وكمية الشهداء الذين ضحت بهم فى مواجهتها لأوربا كلها ، حتى وصلت إلى هذه المرحلة .

٤) حرب أوطلوق بلى الميدانية (١١ آب ١٤٧٣) :

كان فاتح قد أعد خطة احتياطية فى حالة دخول المماليك فى الاتفاق ضده ، وذلك بأن يجعل كلا من مصر وإيران (كلتاهما اتراك) خارج الصف ، كلا على

حده ، غير أنه لم تعد هناك حاجة إلى ذلك حيث لم يشترك المماليك فى الحرب .

وبدأت الحرب الفعلية مع آقويونلو قبل أوطلوق بلى بمدة طويلة .

اجتاز جيش آقويونلو الحدود ودخل تركية فى ١٤٧٢ . نهب سيواس وتوقات دون أن يتمكن من إسقاط القلاع بالمباغتة واجتاز قيصرى من الخارج واقترب من قونية . كان ينوى طرد الشهزادة (الأمير) العثمانى من قونية وإجلاس قرة مان أوغلو بدلا منه . كان يوسفجه ميرزا أحد أبناء أوزون حسن ، هو القائد العام لجيش آقويونلو . اضطربت استانبول لاحتلال توقات . اجتاز فاتح إلى اسكدار ، رغم مضى موسم الحملات . وبينما هو على وشك التحرك تسلم خبر انتصار الأمير مصطفى .

سار الأمير مصطفى بكلربك (أمير ، والى) قرة مان من قونية مع مربيه كديك أحمد باشا وداود باشا والى الأناضول (مركزه كوتاهيه) . بدأت الحرب الميدانية فى الموقع المسمى قيرايلى Kireli الواقع على مقربة من شرق بحيرة بكشهرى ، أبيد جيش آقويونلو (١٤٧٢/٨/١٨) .

أسر القائد العام يوسفجه ميرزا ، وأخواه الاثنان و (٢) ميرزا من بنى تيمور ، وتمكن كل من أبناء عمات فاتح ، قرة مان أوغلوبير أحمد بك وقاسم بك اللذين كانا فى جيش آقويونلو ، من الهرب . كان الأسطول الصليبى أثناء ذلك قد قصب ميناء أزمير ، لكنه انسحب عندما علم بهزيمة آقويونلو .

سار فاتح من استانبول (١٤٧٣/٤/١١) قبل مضى (٨) أشهر من هذا الحادث . بدأت طليعة الجيش الهمايونى (الفرقة المؤلفة من ١٢٠٠٠ شخص بقيادة خاص مراد باشا) بالهجوم على آقويونلو ، ولكنها انهزمت ، واستشهد الباشا .

دخل فاتح بعد أسبوع إلى صحراء أوطلوق بلى ، حيث كان أوزون حسن ينتظر فيها مع ٣٠٠ ٠٠٠ من خيالته (١٤٧٣/٨/١١) .

كان الجيش الهمايونى يتألف من (١٩٠ ٠٠٠) جندى ومقسما إلى (٥) فيالق .

كان البادشاه على رأس الفيلق المركزى فى القلب (رئيس أركانه الوزير الأعظم محمود باشا) وكان على رأس فيلق الجناح الأيمن « أولو شهزادة » ولى العهد « بايزيد الثانى »(رئيس أركانه كديك أحمد باشا) ، وعلى رأس فيلق الجناح الأيسر شهزاده مصطفى (رئيس أركانه داود باشا) ، احتفظ فاتح بالفيلقين الباقيين للاحتياط (بقى الابن الأصغر للبادشاه الشهزاده جم فى إستانبول كمحافظ للعرش - نائب للسلطنة) .

كان أوزون حسن وهو عسكرى مجرب قد سمع بقدرة الجيش العثمانى ، لكنه لم يكن قد شهد بعينيه الجيش العثمانى السيار . ومما يروى عنه أنه عندما شاهد الجيش عند دخوله صحراء أوطلوق بلى ، ونشره البيارق، وعزف الموسيقى العسكرية (مهتر) ونوعية قماش البدلات العسكرية للجنود ، وتجهيزاته الثقيلة قال : « ويحك يابنى عثمان العاهرة ، أى بحر هذا الذى جهزه ؟ ! » .

لم يكن أوزون حسن قد شهد طيلة حياته حربا تجرى « بالمدافع والبنادق » (نشرى ، ٢٢٨ ب) .

شاهد وهو فى حالة من التأثر الشديد كتائب الخيالة التى تتساقط الواحدة تلو الأخرى بنيران المدفعية العثمانية والمشاة حملة البنادق الثقيلة ، ولم يتمكن من السيطرة على وحداته التى كانت قد تبعثرت بفعل الأسلحة النارية على الرغم من شجاعتهم وشجاعة خيولهم .

قطع فاتح، الذى أعطى أمر غلق الملقط للفيلقين فى الجناحين، بفيلقيه الاحتياطيين طريق الفرار على جماعة آقويونلو الذين حاولوا التخلص من رأس الملقط .

حمل الأمير مصطفى مع فيلقه على جناح آقويونلو الأيسر ، وأباده مع قائد الجناح زينل ميرزا بن أوزون حسن ، وأسر (٣) أمراء إمبراطوريين من بنى تيمور . وفى الساعة الثامنة والأخيرة للحرب ، سار أولو شهزاده بايزيد إلى سرادق أوزون حسن . هرب البادشاه حسن الذى عجز عن المقاومة ، وامتطى جواده العربى المشهور فى زمانه تاركا سرادقه .

من المشهور عنه أنه قال وهو يترك ساحة القتال ، مخاطبا سليل السلطنة (سلطانزاده) قرة مان أوغلوبير أحمد بك : « ياقرة مان أوغلو ، خرّب الله

سلالتك ، سببت عارى وخزيى . مالى وبنى عثمان ! » .

لم يأمر فاتح بمطاردة أوزون حسن وفلول آقويونلو .

مكث (٣) أيام فى صحراء أوطلوق بلى . وبمناسبة خلاص الدولة من أكبر الأخطار التى مرت عليها منذ تيمور ، اشترى بدراهمه الخاصة الأسرى البالغ عددهم ٤٠,٠٠٠ وخلى سبيلهم (من المعلوم أن عتق الأسرى من أفضل القربات إلى الله فى الدين الإسلامى) .

دخلت الوحدات العثمانية شبين قرة حصار فى ٢٤ آب .

بعد هذا الحادث لم تبق أمام الدولة العثمانية مشكلة تسمى مشكلة آقويونلو . عقد أوزون حسن فورا صلحا مع العثمانية رغم إصرار الكثيرين ورجاء الدول الأوربية .

اعترف أوزون حسن فى الصلح بإلحاق طرابزون وقرة مان ، وجمع أولاده وأوصاهم بعدم الهجوم أبدا على العثمانية . اتخذ بنو آقويونلو بعد ذلك فى الشرق ، وضع الحليف بالنسبة للدولة العثمانية . تزوج أوغورلو محمد ميرزا بن أوزون حسن بابنة فاتح الوحيدة جوهر خان سلطان ، وأصبح باشا وُفريق أول' فى الدولة العثمانية . وتزوج كوده أحمد بك الذى ولد من هذه الزيجة بإحدى بنات خاله بايزيد ثم صار سلطانا على آقويونلو .

توفى فى (١٤٧٤/١٢/٢٥) الشهزادة مصطفى الذى عاد من حملة آقويونلو فى بور قرب نيغده قبل وصوله إلى قونية وعمره (٢٣) سنة . كان عالما شاعرا وقائدا عظيما . نقل جثمانه إلى بورصة ودفن فيها . خلف ابنتين . يعد انتصاره فى الحرب الميدانية قيْريلى Kireli بـ ٥٠٠٠٠ جندى على ٦٠٠٠٠ جندى مع آقويونلو من الخدمات الكبيرة (كان فيلقه من جنود الأناضول ، وفيلق الامير بايزيد ذو الـ ٤٠ كتيبة ، من جنود روملى) .

استمرت الحرب الكبرى بعد ذلك مدة خمس سنوات ونصف ، وإن كان الحلفاء قد خسروا الحرب — من الناحية العملية — فى أوطلوق بلى فى (١٤٧٣) . كان فاتح قد حصل على النتيجة الاستراتيجية لحرب أوربية كبيرة جدا ، فى آناضول الشرقية .

المرحلة الأخيرة للحرب الكبرى (١٤٧٣ - ١٤٧٩)

بدأت الحملات على البندقية والمجر وألمانيا تزداد كثافة بمرور الأيام ، حيث قد أصبحت تركية حرة فى الشرق . وعلى سبيل المثال ، اجتاز ميهال أوغلو غازى علاء الدين على باشا (١٤٥٣ - ١٥٠٧) أحد أمراء الصاعقة ، ألطونة (٣٣٠) مرة نحو الشمال بغرض الغارة . أسر إحدى بنات ملك المجر Matthias Corvinus ، مهتاب خانم وتزوجها ، أنجب منها (٥) أبناء صاروا أمراء صاعقة مشهورين . ولم يكن أخوه الوزير غازى إسكندر باشا (١٤٤٠ - ١٥٠٦) بأقل منه شهرة . وفى حملة المجر التى احتل فيها على باشا فارادين فى (١٤٧٣) ، جلب (١٨٠٠٠) من أفراد الصاعقة إلى تركيا ٦٠,٠٠٠ أسير و٩٠٠,٠٠٠ رأس من الماشية . وتبين هذه الأرقام مقدار الضرر الذى طرأ على القوة الاقتصادية للعدو ، وبالتالى على قوته الحربية . وحملة غاليجيا وبودوليا التى جرت فى خريف عام (١٤٧٤) لاخضاع ملكية بودوليا هى من الحملات الكبرى كذلك .

استمرت الحملات على البندقية متصاعدة على مر الزمن نحو الشمال - الغربى .

إن أفراد الصاعقة الذين اجتازوا فى (١٤٤٧) نهرى Isonso و Tagliamento ، خربوا المنطقة حتى نهر Piave . اشترك فى الحملات التى جرت على البندقية فى (١٤٧٨) ٣٠,٠٠٠ شخص . كان القادة إسكند باشا وأخوه على باشا مع مالقوج أوغلو بالى بك . خربت الحملات سهل البندقية ، واحتلت Friul وأفراد الصاعقة . دخل داود باشا أوستريا فى (١٤٧٩) ، وفى (١٤٧٦) ثم احتلال « زغرب » مركز خرزاتيا و Kalgemfurt مركز Karintiya (أوستريا) ، وجاء طره خان أوغلو عمر بك أمام مدينة البندقية مجتازا نهر Piave (١٤٧٧/١١/٢) ، وشتت الجيش الذى حاول الدفاع عن البندقية ، وأسر قائدهم ، وشاهد الشعب البندقى أفراد الصاعقة أثناء تجوالهم فى بحيرة البندقية .

لقد أنهت وفاة أوزون حسن فى (١٤٧٨) تحريض البندقية اليائس لآقويونلو . وافقت البندقية على شروط تركية الصعبة فى معاهدة استانبول وانسحبت من الحرب (١٤٧٩/١/٢٥) . أجبر السلطان محمد الفاتح الذى يطلق عليه Franz

Babinger لقب « غالب الكون » البندقية على دفع غرامات الحرب والخراج السنوى . ولم تبق إلا المجر . وفى (١٤٧٩) ، دخل (٤٣٠٠٠) من المغاوير ، المجر لاخضاعها . اشترك فى هذه الحملة (١٢) من المغاوير برتبة لواء (سنجق بك صاعقة) بقيادة القائد العام ، علاء الدين على باشا . وفى حملة (١٤٨٠) ، توغل فى النمسا إلى Graz .

قام فاتح فى نهاية سنوات الحرب الكبرى بـ (٣) حملات همايونية . حملته الهمايونية الـ ٢٣(ربيع وصيف ١٤٧٦) ، هى حملة بغدان (مولدافيا) ، وفى هذه الحملة أعيدت هذه الإمارة الرومانية التى خرجت على سيادة تركية فى الحرب الكبرى وأخذت مكانها فى الاتفاق المضاد.

والحملة الهمايونية (٢٤) (نهاية ١٤٧٦) ، كانت على المجر، وهى الحملة التى نظمت للرد على محاصرة ملك المجر Matthias Corvinus سمندره دون جدوى . أسفرت هذه الحملة عن عودة فاتح بسبب فوات موسم الحرب ، وكذلك بسبب عدم سقوط سمندره .

والحملة الهمايونية (٢٥) (١٤٧٨) كانت حملة ألبانيا ٣ والبندقية .

إحدى أمانى فاتح كانت خلع البنادقة من قواعدهم فى البلقان . كان والى روملى الفريق الأول سليمان باشا قد حاصر فى شمال ألبانيا قلعة البنادقة الشهيرة أشكودرا فى (١٤٧٤) مدة ٣/٥ أشهر ، ولكنه لم يتمكن من إسقاطها . وكذلك كان قد حاصر فى (١٤٧٧) Lepanto (بالتركية : اينه بختى) المواجهة لـ Patras فى اليونان ولم يتمكن من إسقاطها ، فتم عزله .

فتح ميهال أوغلو على بك Kroya (بالتركية آقجه حصار) بعد حصار دام (١٣) شهراً (١٤٧٨/٦/١٦) . كانت آقجه حصار مركزاً لـ « إسكندربك » ، وعند وفاته انتقلت إلى حوزة البنادقة . استولى فاتح فى البداية على Alesso (بالتركية : لش) ، التى كانت قلعة للبنادقة بين آقجه حصار واشكودرا . حاصر اشكودرا بشدة . سلمت المدينة إلى تركيا (١٨٧٩/١/٢٦) استعمل فاتح فى حصار اشكودرا ، بالونات لا تحترق وصواريخ حريق و (١١) مدفعا ضخما جدا ، وصواريخ طيارة تتفجر فى المكان الذى تمسه .

حملة اشكودرا فى (١٤٧٨) هى الحملة الخامسة والعشرين لفاتح وهى آخر حملاته ؛ ذلك أن حملته الـ (٢٦) لم تكتمل بسبب وفاته .

(٦) إلحاق إمارة (خانلق) قرم (١٤٧٥/٦/١)

إن إمارة قرم هى أهم الدول التى ظهرت على أثر تجزئة خاقانية ألطون أوردى (أوربا الشرقية) التركية . لعبت قرم أهم دور سياسى بين هذه الدول التى انحدرت من السلالات الملكية ، التى تأتى على رأسها سلالة جوجى أولوسو Cuei Ulusu،أى من نسل كبير أولاد جنكيز الـ (٤) جوجى خان . كانت هذه الدولة التى تأسست فى شبه جزيرة القرم تشمل بشكل واسع أوكراينا الحالية وتمتد نحو ققفاسيا الشمالية ونحو روسيا . كانت توجد على سواحل قرم عدة قلاع – مرافىء جنوية . كانت تجارة البحر الأسود حتى فتح إستانبول تقريبا تحت سيطرة جمهورية جنوة(بالإيطالية : Genova) . أصبحت الجمهورية فى وضع حرج للغاية عند غلق فاتح المضايق وأخذه منطقة غلطه فى استانبول من حوزة الجنوبيين . امحت جمهورية جنوة من عداد الدول العظمى ، واضطرت إلى دفع أجور المرور إلى العثمانية عند مرورها من المضايق لنقل البضائع بين أوربا ومستعمراتها فى (قرم) . كان فاتح يخلق المصاعب للجنويين بسبب عدم استحسانه علاقة دولة أوربية بالبحر الاسود . كان فاتح قد أرسل أسطولا إلى (قرم) فى تموز (١٤٥٤) ، بعد فتح استانبول بعده أشهر . وأجبر « كفه » الميناء الجنوى الرئيس فى قرم على دفع خراج سنوى .

كانت قرم التى تبلغ مساحتها (٢٦٠٠٠) كم٢ تستند بدرجة كبيرة فى وجودها على مستعمراتها الواسعة فى الشمال ، وكان أكبر أعدائها الإمارة الكبرى لروسيا فى الشمال وملكية ــ دوقية كبرى ــ بولونيا فى الشمال ــ الغربى . كانت دولة ألطون أوردى التى مركزها مدينة سراى على نهر الفولغا ، مازالت مستمرة فى ذلك التاريخ . لكنها كانت قد سقطت إلى درك إمارة (خانلق) محلية . كان فى إمكان قرم (التى تمتد على أراض تبلغ مساحتها نحو مليون كم ٢ وأحيانا ترتفع إلى مليونى كم ٢ أن تجهز إذا اقتضت الضرورة (٢٠٠,٠٠٠) جندى خيال . كان هؤلاء الجنود يحاربون على النمط الجنكيزى ، وكانوا مخيفين رغم أنهم لم يجددوا من أساليبهم التى

كانوا عليها فى القرون الوسطى . كانت « باغجه سراى » مدينة خان قرم تبعد عن موسكو (مسافة مستقيمة) (١٢٦٠) كم ، وعن وارسو (١٢٨٠) كم ، عن فيينا (١٢٧٠) كم ، لكنها تبعد عن استانبول (٦٠٠) كم وعن سينوب (٣٣٠) كم .

كانت سياسة فاتح فى جعل البحر الأسود بحيرة عثمانية سياسة معلومة . كان قد أرسل منذ صيف (١٤٥١) وفور اعتلائه العرش ، مشير البحر (قبودان دريا) بلطه أوغلو سليمان بك مع (٥٠) سفينة حربية إلى سواحل البحر الاسود . أحتل سليمان بك باطوم فى الجنوب ، وأدخل الحكم العثمانى على الآجار (أتراك قبجاق الذين أصبحوا كرج) وكذلك أحتل « سوخوم قلعة » فى الشمال ، وأدخل الحكم العثمانى على الابهازه (الابازه عبدة الأصنام) . وبناء على ذلك ، تكون جميع سواحل كرجستان قد انتقلت إلى حوزة تركيا منذ (١٤٥١) وكانت إمبراطورية طرابزون الرومية أيضا قد حوصرت من شرقها . أما سواحل البحر الأسود الشمالية،التى تبدأ من سوجى نحو الشمال الغربى ، فقد كانت تحت رقابة امارة قرم . كانت الاقوام الصغيرة التى تسكن فى هذه المناطق وفى قفقاسيا الشمالية فى ذلك التاريخ ، من عبدة الأصنام ، وقسم قليل منهم صار مسيحيا أرثوذكسيا . (سيسلمون كلهم فى العهد العثمانى) .

انتقلت آجارستان وباطوم إلى الحكم العثمانى بشكل حاسم فى (١٤٧٩) . أسلم الآجاريون . لكنهم ، رغم كونهم أتراكا ، حافظوا على الديانة الكرجية ولو إسميا إلى يومنا هذا . وفى صيف عام (١٤٦٩) ، شوهد المشير البحرى يعقوب بك فى قرم ، وقام بانزال جيش فيها ، وقد كانت هذه الحركة ضد الجنويين . أما بنى جنكيز فى قرم ، فعدا أنهم تنازعوا فيما بينهم على الإمارة ، كانوا لايفتئون يحاربون الإمارات التركية الأخرى،وكان ذلك يحقق مصلحة للروس .

كان المبدأ الذى يتمسك به فاتح ولايقبل تغييره ، هو عدم رفع أى علم عدا العلم العثمانى فى البحر الأسود ، لقد قطع فاتح على الجنويين طريق كفه - إيطاليا ، وكان الجنويون فى كفه ، يستعملون طريق قرم - المجر - ألمانيا - إيطاليا المتعب جدا ويسددون من أجل ذلك ضريبة إلى خان قرم .

سار مشير البحر كديك أحمد باشا من استانبول (١٤٧٥/٥/١٩) بأسطول لم يشهد البحر الأسود طوال تاريخهمثيلالعظمته (١٨٣ سفينة حربية + ٢٩٠ سفينة

نقل = ٤٧٣ قطعة) ، ورسا فى ميناء كفه فى قرم (١٤٧٥/٦/١) . استسلمت كفه (٥ حزيران) ، ثم مرافىء الجنويين الأخرى وهى سوغداق (Sudak) ومنكب Menqüp . كانت منكب الواقعة فى أقصى جنوب قرم ، وعلى مقربة من غرب يالطه ، لدى الكومنان Comnéne . وهكذا قضى على البقية الأخيرة من بقايا البيزنط . ثم انتقل الأسطول الهمايونى من بوغاز كرج إلى بحر آزوف (آزاك) . واحتل ميناء Tana (بالتركية : آزاك) النهرى الواقع على الضفة الشمالية الشرقية من بحر آزوف على دلتا نهر الدون (بالتركية : تن وحاليا ضاحية روستوف) . شيدت فى آزاك قلعة عثمانية وتشكيلات لواء . وأسست فى كفه المدينة الكبيرة البالغ تعدادها (٧٠ ٠٠٠) نسمة ، وأيضا تشكيلات لواء عثمانى .

وافق خان قرم على الخضوع للعثمانية . ونصت المعاهدة التى وقعها خان قرم مع فاتح ، والتى سوف تشكل نظام قرم لمدة (٣٠٠) سنة ، على أن يتعهد البادشاه بالاحتفاظ بإمارة قرم فى نسل جنكيز خان ، فالبادشاه حر فى تعيين أى شخص خانا (أميرا) على قرم شريطة أن يكون من نسل جنكيز ، ويسمح البادشاه فى مقابل ذلك بذكر اسم الخان فى مساجد قرم بعد اسم الخليفة العباسى واسم البادشاه ، كما يسمح بطبع اسم الخان بعد اسم السلطان على قطع النقود التى يسكها الخان (ماده ١ ، ٤) .

تم تأسيس لواء فى كفه (أصبح إيالة فيما بعد) يديره العثمانيون مركزيا ولاعلاقة له بإمارة قرم .

كان البادشاه يعتبر كافة الضفاف الشرقية لقرم التى استولى عليها من الجنويين ، هدية له من خان قرم ، ويتضح من ذلك أنه يراد أن تبقى الإمارة تحت الرقابة العسكرية العثمانية . كانت هذه الاراضى تشمل الضفاف الجنوبية - الشرقية لشبه الجزيرة ، المناطق المحيطة ببوغاز كرج ، شبه جزيرة تامان ، الموانىء الواقعة على مصر نهر دنيبر (بالتركية : أوزو) ، وكذلك أوزجاكوف (بالتركية : أوزو) ، مصب نهر الدون وخليج تاغانروغ وآزاك (روستوف) .

وتضمنت المعاهدة كذلك تعهد قرم بتزويد الجيش العثمانى بالعدد الذى تطلبه الحكومة العثمانية من الجند وفى الوقت الذى تعينه ، ومن ناحية أخرى ، توافق كذلك

على تنفيذ المهام التى يكلف بها الجيش القرمى منفردا ، وأن ترسل حصة البادشاه من الغنائم .

زوج خان قرم (١٤٦٧ ــ ١٥١٤) منكلى (باللهجة العثمانية : بنلى) كيراى خان (الأول) ، ابنتيه بأميرى العثمانية الأمير (شهزادة) ياوزسليم ، والأمير محمد حفيدَى فاتح وابنى أولو شهزاده (ولى العهد) بايزيد (الثانى) الرابع والسابع .

شاهد منكلى كيراى الأول سلطنة صهره السلطان سليم ، أما صهره الصغير الأمير محمد ، فقد تولى لواء كفه حتى وفاته (ك١/١٥٠٤) ، وعند وفاة الأمير محمد ، ذهب الأمير سليمان (القانونى) ابن صهره الكبير السلطان ياوزسليم ، إلى كفه لتسلم ولايتها .

وهكذا اكتسب الحكم العثمانى صفته القطعية فى البحر الأسود ، ودخل البحر تحت الحكم العثمانى ، وامتدت حدود الدولة العثمانية دفعة واحدة إلى خط عرض (٥٥) درجة جنوب موسكو . وفى غضون ذلك ، فتحت جزيرة (سيسام) فى شرق (إيجه) ودخلت ساقز تحت الحماية العثمانية (١٤٧٥) . وفى (١٤٧٩) ، تم فتح مصب نهر كوبان حيث شيدت فيه قلعة آنابا ، وهى منفذ بلاد الشركس إلى البحر .

كان فاتح متأثرا من وجود كافة المدن والمقدسات الإسلامية لدى المماليك ، فى الوقت الذى تعتبر العثمانية أقوى دولة إسلامية .

بدأت القاهرة تتنبه عندما ادعى فاتح الذى يرسل الدراهم سنويا إلى مكة والمدينة كأجداده ، بعض الحقوق فى هاتين المدينتين .

أدرك أولا سلطان خوشقدم نية فاتح ، لكن الذى أدرك مجيء الخطر من العثمانية بصورة مؤكدة ، هو الحاكم الكبير السلطان قايتباى (١٤٦٨ - ١٤٩٥) . وفى ١٤٧٧ جاء بنفسه إلى الأناضول وفتش قلاع المماليك فى أورفه وعنتب .

وخلال تلك الأيام حاول فاتح احتلال رودس للمرة (٣) (١٤٨٠) . كانت هذه الجزيرة قد انضمت فى عهد معاوية إلى الخلافة الإسلامية مدة (٨) سنوات (٦٧٢ - ٦٨٠) ثم استرجعها البيزنط. وعندما طرد المماليك أتباع طريقة

Saint - Jean Hospitalier اللاتينية الكاثوليكية العسكرية من عكا فى (١٢٩١ (هام أتباع هذه الطريقة حتى عام (١٣٠١) فى شرق البحر الأبيض على غير هدى ، وفى تمام (١٣٠١) أسكنهم ملك قبرص ميناء ليماسول ، وفى (١٥ آب ١٣٠٨) ، احتلوا رودس من البيزنطيين واستوطنوا فيها ، ثم فتحوا جزر الاثنى عشر وجزر نيكاريا ، كارباتوس ، وكاشوت ، وجزيرة مئيس الصغيرة ، وميناء بودرم فى الاناضول ، وحتى إخراجهم منها على يد تيمور فى (١٤٠٢) ، كانوا قد فتحوا قلعة ميناء أزمير الكائنة فى قطاع أزمير المسمى « كاوور أزمير » .

قام المماليك بـ (٣) حملات (١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦) على قبرص و(٣) حملات (١٤٤٠ ، بواسطة ٨٠ سفينة ٤٢ ــ ١٤٤٣ ،٤٤ ــ ١٤٤٥) على رودس ، وأجبروا قبرص على دفع ضريبة سنوية ، أما رودس فعلى الرغم من تخريبهم إياها إلا أنهم لم يتمكنوا من إسقاطها .

أرسل فاتح إلى رودس بعد الحملة المملوكية بـ (١٠) سنوات المسير البحرى حمزة بك (١٤٥٥) ، كرر فاتح عملية فتح رودس فى (١٤٦٧) ، ولم تنجح أى من الحملتين .

تم تعزيز « رودس » بشكل واسع تجاه الخطر التركى بمساعدات ضخمة من جميع الدول الأوربية . كانت حملة رودس (٣) التى قادها مسيح باشا ، أقوى من الحملتين السابقتين بمراحل ، فقد تلقى الباشا أمرا مؤكدا من فاتح باحتلال الجزيرة ، ذلك أن فاتح الذى كان يستعد لفتح إيطاليا ، لم يكن يرغب فى أن يترك وراءه بؤرة تولد خطرا عليه فى المستقبل . كان الأمل الوحيد لأصحاب الطريقة العسكرية الذين يحكمون رودس ، هو إشعال حروب مقدسة مع المسلمين ، وقد كانوا يهاجمون سفن المسلمين ويكبدونها خسائر جسيمة .

سار مسيح باشا بـ (١٦٠) قطعة من السفن و٧٠,٠٠٠ جندى من غاليبولى ، ورسا أمام جزيرة رودس (١٤٨٠/٩/٢٣) . وأثناء الحصار ، كان أسطول عثمانى آخر مكون من (١٠٠) قطعة يقوم بإنزال على إيطاليا . وبينما كانت القلعة على وشك السقوط ، وركزت الأعلام التركية على الأسوار ، أبلغ الباشا القائد أمره بمنعه كافة أنواع النهب والأسر وأخذ الغنائم والحرق ، وأن كل الغنائم ستئول للخزينة .

لقد كان مثل هذا الأمر مخالفا للقواعد المتعارف عليها وغير مرضٍ للعسكريين ، إذ إن استحواز الخزينة على الغنائم لايكون إلا فى حالة استسلام الموقع من تلقاء نفسه ، فهذه هى القاعدة المتعارف عليها دوليا .

وإزاء إعلان هذا الأمر لم يتحرك الجند من أماكنهم و لم يدخلوا القلعة ، وخرج الرودسيون الذين شاهدوا ذلك وكبدوا الأتراك خسائر ليست قليلة .

تكبد الاتراك (٩٠٠٠) شهيد (استشهد ٣٥٠٠ منهم خلال الهجوم الأخير) و(١٥٠٠٠) جريحا خلال الحرب التى دامت (٢ شهر ، ١٢ يوما) . و لم يتمكن مسيح باشا من تنفيذ حصار بحرى تام ، واستمر إرسال الإمدادات للعدو . رفع الحصار .

سوف يتدارك السلطان سليمان هذه الأخطاء بعد (٢٤) سنة ، إلا أن ذلك على كل حال تسبب فى تأخير فتح (رودس) (٤٢) سنة ، كما تسبب فى هدر دماء العديد من المسلمين خلال هذه المدة . وبعد أن وبخ فاتح مسيح باشا ، وضربه ، أنزل رتبته من وزير (مارشال) إلى لواء (سنجق بك) .

٧ ــ فاتح وإيطاليا :

فتح كديك أحمد باشا جزر أيونيا (اليونان) الواقعة خارج كورفو ، من دوقات سلالة Tocco الإيطالية .. وهذه الجزر هى Kefalonya (٦٠١ كم٢) ، Zanta (ZaKynthos) (٤٠٨ كم٢) ، Santa Maura (Leukas , Levkas , Aya Mavri) (٣٠٠ كم٢) . وهى مصفوفة على بحر أيونيا (اليونان) على سواحل اليونان .

كانت هذه مقدمة لحركة فتح إيطاليا .

كان من بين أهداف فاتح ، أن يكون إمبراطورا على روما موحدة . ومنذ (١٤٥٣) ، كان يطلق عليه لقب قيصر روم،أى (إمبراطور روما الشرقية = البيزنط) ، ولكى يكون إمبراطورا على روما ، ويوحد تاجى الامبراطوريتين الموجودتين فى أوربا ، كان يجب عليه فتح إيطاليا وروما .

كانت الدولة الكبرى الكائنة فى شمال شرقى إيطاليا هى البندقية ، وكانت بين

البندقية وإيطاليا مصالحة ، ويمكن صرف النظر عنها . إذ أنها كانت خارج خطة فتوحات فاتح .

وكانت الدولة الكبيرة فى جنوب إيطاليا هى ملكية نابولى التى تضم صقلية التى كانت تحت نفوذ أسبانيا (Aragon) ،كانت هذه الملكية هى الهدف .

كان منتصف شبه الجزيرة ، تابعا للبابا ، ومن ناحية أخرى ، كان فى شبه الجزيرة دول أصغر ، كدوقية فلورنسا (Toskana) ، ودوقية ميلانو (لمبارديا) ، وكانت كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ، ولم تكن أى من هذه الدوقيات على نفس مستوى أهمية جمهورية جنوة .

من الواضح أن فاتح كان يفكر فى إلحاق جنوب إيطاليا ، لتكون له السيادة – بصفته إمبراطورا على روما – على الدول الإيطالية الأخرى . ولقد كانت دول إيطالية عديدة قد تقبلت فاتح بهذه الصفة مقدما .

إن الأنواط التى سكتها هذه الدول باسم فاتح والتى تحمل صورته ، موجودة فى حوزتنا حاليا ، وتستطيع أن تقرأ على هذه الأنواط باللاتينية عبارة Svltani Mohammeth Octhomoni Vgli Bizantii Imperatoris 1481 / Svltanus » وتعنى « سلطان محمد Mohammeth Othomanvs Tvrcorvm Imperator » بنى عثمان إمبراطور الأتراك وروما الشرقية » .

لقد عاشت صقلية فى القرون الوسطى حكما عربيا إسلاميا لامعا . ولقد كان من حق فاتح – بصفته إمبراطور روما – طرد الأسبان من صقلية ونابولى ، فقد كانت هذه الاماكن فى ذلك الحين تابعة للإمبراطورية البيزنطية .

سار الوزير الأعظم السابق والمشير البحرى (قبودان دريا)-الحالى كديك أحمد باشا-بالنصف الآخر من الأسطول الهمايونى إلى إيطاليا ، فى ذات الأيام التى تحرك فيها مسيح باشا إلى رودس . كان الأسطول الهمايونى قد عظم شأنه إلى درجة تمكنه من القيام بحركتين عبر البحار على أوسع نطاق .

تجمع الأسطول الهمايونى الذى يتكون من (٤٠) سفينة حربية كبيرة و(٥٢) صغيرة و(٤٠) سفينة نقل فى البداية فى ميناء Avlonya الواقع على بوغاز Otranto ، وتحرك منها (١٤٨٠/٧/٢٦) .

اجتاز بوغاز أوترانتو (٧٥ كم) ، وقام فى (٢٨) تموز بإنزال ١٨٠٠٠ من المشاة ، و (١٠٠٠)خيال وعدد كبير من المدافع فى إيطاليا . كان موقع الإنزال قرب قلعة أوترانتو لايالة Apulya (بالتركية : بوليا) . كان أسطول البنادقة المكون من (٦٠) قطعة فى قاعدة كورفو . ولم يكن تدخله وارداً بسبب الصلح القائم من البندقيه .

استسلمت قلعة Otranto بعد مقاومة شديدة استمرت (١٤) يوما . مات نحو من (١٢,٠٠٠) من جملة (٢٢٠٠٠) من حامية القلعة . قسم كديك أحمد باشا جيشه إلى فرقتين وساق إحداهماإلى الشمال – الشرق إلى برنديزى ، والثانية إلى الشمال – الغربى إلى تارانتو . وجعل أوترانتو ، مركز لواء . كان الأتراك الذين سيطروا على كعب الجزمة (الحذاء الطويل) الإيطالية ، على وشك السيطرة على إيالة Pulya .

بقى آمر لواء أوترانتو خير الدين مصطفى بك فى القلعة مع (٦٥٠٠) من المشاة و(٥٠٠) خيال . لم يجسر ملك نابولى Ferranteعلى الهجوم على الاتراك . بدأ الشعب فى ترك بيوته فى مدينة نابولى وهو فى حالة فزع .

أبلغ أحمد باشا الملك بأن يسلم إيالة بوليا ، وإن لم يتم ذلك ، فإن البادشاه سيأتى فى الربيع إلى إيطاليا ومعه (١٠٠,٠٠٠) من المشاة و(١٨٠٠٠) من الخيالة ومدافع بحجم لم تسبق مشاهدته .

٨ – وفاة الفاتح السلطان محمد خان الثانى (٣ أيار ١٤٨١) وشخصيته

غادر الخاقان سراى طوبقابو يوم (٢٥ نيسان ١٤٨١) . اجتاز البوغاز وجاء إلى إسكدار ، ونصب السرادق الهمايونى فى الموقع الذى سمى بعد ذلك إضافة له « هنكار جايرى » ، أو « سلطان جايرى » (أى مرج السلطان) ، بين مالتبه وكبزه . كان قد شرع فى الاستعدادلحملة كبيرة موجهة على الأغلب إلى إيطاليا . أصابه مغص فجائى ، توفى بعد عدة أيام نهارا حوالى الساعة –/ ١٦ . كان عمره يتجاوز الـ (٤٩ سنة بـ ١ شهر ، ٥ أيام .

مات فاتح نتيجة السم الذى دسه له بصورة تدريجية العميل البندق أحد أطبائه الخاصين المسمى Maestro Lacopo ، الذى ادعى أنه اهتدى إلى الإسلام وتسمى باسم يعقوب باشا .

تعتبر هذه هى المحاولة (١٥) التى رتبتها البندقية لاغتيال فاتح . مزق الجنود الأتراك فى الحال اليهودى البندق ، ولم يتمكن من تسلُّم المكافأة الكبيرة التى وعدته بها البندقية (هذه المكافأة بالسعر الرائج حاليا (١٧) مليون دولار) (Babinger ٣٤٩ ، ٤٩٢ - ٤) . علمت البندقية خبر موت فاتح فى (١٩ أيار ، بعد ١٦) يوماً من الحادث . كانت الرسالة التى جلبها حامل البريد السياسى لسفارة البندقية فى إستانبول تحتوى على هذه الجملة التاريخية La Grand Aquila é Morta = مات النسر الكبير » .

دقت أجراس كافة الكنائس الأوربية،وجرت مراسم الشكر لمدة (٣) أيام مع لياليها بأمر البابا .

جملة سلطنته (٣١ سنة ، ٢١ يوما) (سلطنته (٣) الأخيرة دامت (٣٠) سنة ، ٢ شهر ، ٢٨ يوماً) نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن قرب جامعه . لم يدفن لا فى قبر فاتح ولا فى قبر حفيده ياوز أحد غيرهما ، هما ينفردان فى قبريهما . من المعلوم أنه قد دفن فى قبور كافة السلاطين الآخرين ، أشخاص آخرون من منتسبى السلالة . فاتح ، هو أول سلطان يدفن فى استانبول بينما دفن الذين سبقوه فى بورصة .

ولد له (٣) أبناء وبنت واحدة فقط ، هى كنة السلطان أوزون حسن .

فتوحات فاتح كبيرة ، مهمة وذات مغزى .

إن القواعد المتينة للدولة العثمانية العالمية العظمى ، قد تم إرساؤها فى هذه الفتوحات .

وصلت الدولة فى حزيران (١٤٥٣) ، بعد فتح استانبول إلى العظمة والقوة التى كانت عليها على أيام يلدرم بايزيد فى (١٤٠٢) ، بل إنها اجتازتها .

كانت الإمبراطورية تمتد على أراض مساحتها (٩٦٤٠٠٠) كم٢ (٤٨٠٠٠٠

كم^2 فى الأناضول ، ٤٨٤٠٠٠ كم^2 فى البلقان) . كان هناك توازن تام فى الجناحين (أناضولى وروملى) ، والجناحان مفتوحان بشكل جاهز للطيران . وبالطبع ، كانت الدول المستقلة ذاتيا هى : الامارات التركمانية جاندار (اسفنديار) ، قرة مان ودلقادر ، ملكية بوسنه ، إمارة الصرب ، جمهورية دوبروفنك ، إمارة افلاق الرومانية ، إمارة مورا البيزنطية ، دوقية (Attika) اللاتينية ، دوقية هرسك ، وكانت أهمها قرة مان .

لم تكن لتركية بعد أية جزيرة فى إيجة . كانت موانىء Enez ، آماسرا وبودرم فى الأناضول لاتزال فى حوزة المسيحيين (الأولى فى تراقيا الشرقية) وكذلك كانت ولايات طرابزون وريزه وآرتفين فى حوزة المسيحيين ، وعدا ذلك ، كانت أناضول الشرقية فى حوزة إمبراطوريتى التركمان الإيرانية أولا قرة قويونلو ، ومن ثم آقويونلو ، وكان قسم من أناضول الجنوبية لدى سلطنة مصر .

كان الجيش العثمانى هو الجيش الأول على وجه الأرض دون منافس . أما الأسطول العثمانى ، فقد كان الثانى بعد الاسطول البندقى ، كان أقوى بقليل من نصف الأسطول البندقى .

وبعد (٢٨ سنة ، فى ١٤٨١) ، عند وفاة فاتح كانت الخارطة التركية ومكانة تركية فى العالم قد تغيرت من أساسها ؛ اتسعت ووصلت إلى (٢٢١٤٠٠٠ كم^2 ١٧٠٣٠٠٠) كم^2 منها فى أوربا و(٥١١٠٠٠) كم^2 فى آسيا (الاناضولى) . إن قرم وحدها كانت تشمل الأراضى التى تبلغ مساحتها (٩٨٢٠٠٠) كم^2 . وبذلك تكون مساحة الأراضى الأوروبية قد زادت كثيرا على مساحة الأراضى الآسيوية . وقد أصبحت تركية – عدا [illegible] – قوة كبيرة فى شمال البحر الأسود وأوربا الشرقية .

كانت تركيا ، عدا قرم ، بالنسبة لأراضيها فى البلقان فقط هى الأولى بين الدول الأوربية من حيث التعداد ، ومن حيث المساحة أيضا .

إن الدول التابعة التى كانت تحت الحماية فى (١٤٥٣) ، وزال استقلالها الذاتى وألحقت بالإدارة العثمانية المباشرة هى : ملكية قرة مان ، إمارة اسفنديار ، ملكية بوسنه ، دوقيه هرسك ، إمارة الصرب ، إمارة مورا البيزنطية ، دوقية أثينا . كان

الاستقلال الذاتى لامارة افلاق (رومانيا) ، جمهورية دوبروفنك الصغيرة وإمارة دلقادر مستمرا . وقد أضيفت دول تابعة جديدة هى إمارة بغدان (مولدافيا) ، إمارة (خانلق) قرم ودوقية خرواتيا . وبقبول بغدان الحماية العثمانية فى (٥/١٠/١٤٥٥) ، أصبحت الامارتان الرومانيتان تحت حماية الدولة ذاتها .

كانت إمارة قرم تشمل قرم ، القسم الأكبر من أوكراينا ، والايالات الروسية الحالية Volgagrad Krasnodar , Voronej , Rostov , Kursk . كانت أراضى قرم وقسم من هذه الأراضى تحت حكم العثمانية المباشر ، وكانت العثمانية قد سيطرت كذلك بشكل كامل على القسم الغربى من قفقاسيا الشمالية بسيطرتها على Taman و Anapa .

كذلك كان جوار أوترانتو فى إيطاليا أرضاً عثمانية ، كما أن مينائى Enez الواقع على مصب مريج،وآماسرا فى الأناضول ، كانا قد أخذا من الجنويين ، وفتحت كامل البانيا وقره داغ تقريبا ، ولم يبق فى حوزة البنادقة من هذه الأراضى سوى عدة ارصفة بحرية وعلى رأسها Draç .

تم فتح جزر بوزجه آدا ، امروز ، ميديللى ، لمنى سيسام ، طاشوز، سمنديرك القريبة من الأناضول الواقعة فى الأرخبيل ، وأخذت ساقز تحت الحماية . وفتحت كذلك آغريبوز أكبر جزر البحر الواقعة فى الجهة اليونانية . وأخيرا ، انتقلت جزر أيونيا (اليونان)،عدا كورفو ، إلى الحكم العثمانى .

ألحقت طرابزون وريزه والقطاع الساحلى لآرتفيں ، وهى الولايات الأناضولية الأخيرة التى فتحت من المسيحيين . كان قسم من ولاية كموشخانه قد أخذ من أصحاب الخرفان البيض .

استتب الحكم العثمانى فى جميع الضفاف الشرقية للبحر الأسود اعتبارا من آجارستان (باطوم) إلى سوخوم قلعه (آبهازستان) ، ومنها إلى بوغاز كرچ . وبذلك توطد الحكم العثمانى بشكل متين جدا ، من الفرات وجبال طوروس إلى ألطونة .

بذلك يكون فاتح قد فتح إمبراطوريتين:(روما الشرقية — البيزنطية وطرابزون) ، (٤) ملكيات:(قرم ، قرة مان ، بوسنة ، الصرب) و(١١) إمارة ودوقية (أى

١٧ دولة ، ٥ منها تركية ، والأخريات مسيحية . أما الاقطار ، والمدن ، والقلاع والجزر التى أخذها من الدول الأخرى فهى خارج مجموع الـ (١٧) هذه .

لاشك فى أن فاتح قد اتخذ هذه السياسة بغرض تقوية القوة المركزية للدولة ، ومن ضاعف خلال الـ (٣٠) سنة قدرة وقوة الجيش والأسطول ، إلى عدة أضعاف . إذ جعل من الجيش قوة ضاربة كبيرة جدا على نطاق عالمى ، وعززه كذلك بمدفعية واسعة النطاق لأول مرة بين جيوش العالم .

كان الأسطول العثمانى ، عند اعتلائه العرش ، يحتوى على (٣٠) سفينة حربية (صف حرب ، قادرغه) والأخريات قطع صغيرة ، وكان الأسطول البندق متفوقا على الأسطول التركى بمراحل . وقبل (١٤٧٤) ، جعل فاتح هذا الأسطول يفوق الأسطول البندق (٩٢ قادرغه ، وأكبر منها (١٦) طرادا ، ونحوا من (٤٠٠) سفينة نقل وإنزال) ، ووضع المدافع على السفن . ولم تبق أية سفينة حربية بلا مدفع . وكون قبيل وفاته ، فى (١٤٨٠) ، أسطولا يعادل ضعفى الأسطول البندق ، (٢٥٠) سفينة حرب و(٥٠٠) سفينة نقل . وبتعبير **Franz Babinqer** (ص ٥٣٥) تحققت قوة بحرية نتيجة جهود « تستحق الدهشة تفوق الأساطيل الأوربية » . ولأول مرة فى التاريخ ، أحرز الأتراك الأولوية بين دول العالم فى القوة البحرية ، وسوف يتمكنون من الحفاظ على وضعهم هذا مدة قرنين ونصف .

أسس فى (١٤٥٣) جامعة إستانبول الحالية . وقد استطاع بالتعاون مع وزيره الأعظم الأخير – من سلالة مولانا – قرة مانلى محمد باشا وكاتبه ليث – زاده محمد جلبى من وضع الدستور المسمى « فاتح قونانامه سى » (أى دستور فاتح) والذى بقيت مبادئه الأساسية سارية المفعول فى الدولة العثمانية حتى (١٨٣٩) .

« يعد فاتح بالنسبة للعالم التركى ، هو أكبر الأباطرة حتى يومنا هذا ، من الصعب مقارنته بأى شخصية فى التاريخ البشرى ... محمد الفاتح ، كان بالنسبة للشعب التركى ، الشخصية الخارقة للعادة ، والتى لايمكن تكرارها فى التاريخ كله » (**Babinger** ، ١٩٥٣ ص ٤٩٨ – ٤٩).

« ظهور فاتح ، خطط مصير الغرب بشكل واضح . إن شخصيته القوية التى يحتمل أن تقاس بنابليون فقط ، قد غيرت أوربا بصورة جذرية . إن شخصية فاتح

تعكس الذكاء البشرى فى أعلى مراتبه ، لقد مثلت نظرة فاتح إلى البشرية والعالم طرازا فريدا ومتميزا عند الخروج من القرون الوسطى (Babinger ، ٥١٨) .

« كان محمد الثانى لايحمل إطلاقاً موقفا معاديا تجاه الأديان الأخرى وذلك على خلاف الحكام الأتراك والمغول ... وفى أعمار استانبول ، أصبح جوستينيان (جوستينيانوس) المسلم .... وكافة الروحانيين الأرثوذكس يلهجون بالامتنان لحارس دينهم العجيب . وقد أظهروا هذا الامتنان فى كل مناسبة ... ورغم ذلك ، كانت فترة سلطنة محمد الثانى بالنسبة لسلالات كثيرة فى آسيا وأوربا ، كأنها يوم من أيام القيامة » (Lavisse - Rambaud Histoire Générale ، (٢ ، ١٨٩٤ ، ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩) .

لم تقتصر المؤلفات المنظومة والمنثورة التى كتبت عن فاتح ، على اللغات التركية والعربية والفارسية فحسب ، بل إن كثيرا من هذه الكتابات أوربية .

إن أطول القصائد من بين آلاف القصائد التى كتبت عنه ، هى منظومة Giovanni - Maria Filelfo المكونة من (٤٧٠٦) بيتا . وقد صار بعد وفاته كذلك ، موضوعا لآلاف من المؤلفات الفنية .

لقد ألفت فى إنكلترا فقط خلال السنوات (١٥٩٤ - ١٧٤٩) من طراز المسرحية فقط (٦) مسرحيات عالجت موضوع فاتح . ويمكن قياساً على ذلك تصور ماكتب عن فاتح فى اللغات الأخرى وفى الحقول الأدبية الأخرى .

وقف فاتح أمام Matteo , Gentile Bellini الفيرونى اللذين دعاهما من البندقية وسمح لهما برسم صورته الشخصية .

إن أعمال فاتح المؤثرة ، كقطعه طريق الشرق على الأوربيين ، واكتساحهم ، ودفعهم - باحثين عن النجاة - نحو البحار المفتوحة ، وتحقيق تفوق العثمانيين البحرى فى البحر الأبيض ... كل ذلك يعد من الأسباب المعقولة لدفع أوربا نحو المغرب (العالم العربى الغربى) بحكم كونه أضعف ، كما يعد أيضا من الأسباب التى دفعت الأوربيين إلى التهافت على المحيطات . وقد أدى تهافت الأوربيين على المحيطات إلى زيادة الحيز المكانى المعروف فى العالم (الاكتشافات الجغرافية) غير أنه من المحتمل أن يكون أهم من ذلك كله الانقلاب الذى ترتب على إبراز فاتح لسلاحه المسمى

« مدفع » وتأكيده لدور « المدفع » كعنصر استراتيجى فعال .

لقد أثبت فاتح بصورة مؤكدة فى (أوطلوق بلى) ، دور المدفع كسلاح من الدرجة الأولى فى الحروب الميدانية .

إن أوربا لم تدرك دور المدفع فى الحروب الميدانية ، إلا بعد حروب ياوز الميدانية ، وبصورة مؤكدة فى الربع الثانى من القرن (١٦) . لكن المدفع كسلاح هدام وثاقب للقلاع والأسوار كان معلوما قبلها ؛ إذ إن أى غاز منذ ألف سنة هدم الأسوار البيزنطية ، لكنه لم يتمكن من ثقبها واختراقها . وفى تلك الفترة ، كان الملوك فى وضع حرج مع الإقطاعيين ، وكان الإقطاعيون الصغار والكبار يختبئون وراء قصورهم المستحكمة ويعصون ملوكهم ، ويرسلون ضرائبهم وجنودهم إلى الدولة كما يحلو لهم . وعندما بدأ الملك فى حيازة المدفع وهدم هذه القلاع ، ظهرت فى أوربا دول حقيقية مقتدرة ، تستند على النظام المركزى ، وتتمكن من جمع ضرائبها كما تشاء ، وتنظم فعالياتها العسكرية والاقتصادية والثقافية فى المستويات العالية بالإمكانات التى تيسرها هذه الدراهم . ولم يتمكن بعد ذلك الدوق - الكبير ، الدوق ، الأمراء ، ولاة الحدود (ماركيز) ، القمامس (الكونتات) وكلاء القمامس (الفايكونتات) البارون ، البارونيت (البارونة) ، السنيور والفرسان من التمرد على ملوكهم كما كانوا يفعلون من قبل . وهكذا نجد أن المدفع يمثل صلب هذا العصر .

على أنه ينبغى ألا ننسى أن ذلك قد جرى ببطء ، إذ إن أوربا لم تتمكن من تكوين الجيش النظامى المحترف ، الذى كونته العثمانية فى بورصة ، إلا فى القرن (١٧) . والأمر المؤكد أنه نتيجة لذلك ، طويت تماما صفحة قرن مضى ، وفتحت صفحة قرن جديد .

وقد تجدر الإشارة فى النهاية إلى الأخطاء الرئيسية لفاتح . إن أكثر ماانتقده فيه الأتراك فى العصر الحديث ، هو مسألة الامتيازات التى منحها للأرثوذكسيين والكنيسة الأرثوذكسية ، فقد كانت هذه الامتيازات غير طبيعية بالنسبة لذلك العصر . غير أنه يجب النظر إلى هذا الموضوع فى ضوء ظروف تركية فى القرن (١٥) ، وليس القرن (١٩) ، والإنصاف يقتضى أن ننتظر من الديبلوماسى أن

ينظر إلى فترة معقولة من المستقبل ولانتظر منه أن يتحسب الظروف القادمة بعد قرون عديدة .

كان فاتح مضطرا فى ذلك العهد إلى ربط العالم الأرثوذكسى به ، حتى لايتحد العالم الأرثوذكسى مع العالم الكاثوليكى ، ويشكل تجاهه جبهة موحدة تكون خطرا على تركية بشكل كبير . كانت المسيحية منقسمة إلى قسمين: كاثوليك وأرثوذكس فقط،إذ لم يكن المذهب البروتستانتى قد ظهر بعد ، وكان هم الكاثوليك فى ذلك القرن يدور حول إفناء المسلمين . ولم يستهدف هذا الاتجاه — كما سيظهر بوضوح فى الحروب الصليبية — أخذ القدس فحسب ، بل كان يتعدى ذلك إلى احتلال مكة ذاتها . أما الأرثوذكسية ، فقد اعتادت العيش مع الإسلام جنبا إلى جنب منذ عهد عمر (ر . ع) .

أيضا نجد أن فاتح قد انتهج سياسة أضرت بالكيان الوطنى بصورة كبيرة ، لقد كانت سياسة فاتح سحق الأرستقراطية التركية ، وتقديم الدوشرمة (الذين يختارون وهم أطفال ، من العائلات المسيحية والإسلامية ، ويجرى تعليمهم لدى طائفة الانكشارية أو فى سراى البادشاه) .

وبدأ فاتح بهذا العمل فور فتحه إستانبول بإبعاده أسرة جاندارلى عن السلطة واستمر فى تلك السياسة ، ورغم أنه تراجع فى سنواته الأخيرة وعين قرة مانى محمد باشا فى السلطة فإن حزب الدوشرمة ، كان قد حصل على قوة كبيرة خلال ربع القرن ، واستمرت على هذا الحال مدة قرنين على أقل تقدير ، لم تتكون فى تركية أرستقراطية تركية حقيقية كما فى أوربا . فقد الأشراف الأتراك الذين سيطروا على الدولة حتى عهد فاتح ، نفوذهم . انفتحت أبواب كافة الوظائف (ومنها رئاسة الوزارة) إلى زمرة الدوشرمه عديمى النسب والتاريخ ، الذين تربوا فى السراى ويعرفون البادشاه فقط سيدا لهم،فهم لا يستمدون قوتهم من عائلاتهم أو ثرواتهم أو ماضيهم ، وإنما يستمدونها بصورة مباشرة من البادشاه والسراى .

لاشك أن فاتح قد اتخذ هذه السياسة بغرض تقوية القوة المركزية للدولة ، ومن الواضح أن فاتح لم يكن يرتاح كثيراً ، إلى أمراء الأناضول التركمان الاقطاعيين بسبب عدم اقترابهم من الاتحاد التركى ، وإملاتهم منه على الدوام . ولأنه رجل عصر جديد ، فقد كان مقتنعا عند اعتلائه العرش بأنه لكى يتمكن من إنجاز أعمال على

نطاق عالمى ، فإنه يلزم أن تكون السلطة المركزية كبيرة ومطلقة ، وإنه لاسبيل إلى ذلك ، إلا بتبلورها فى شخص الخاقان ، ولايمكن استمرار فاعلية عجلة الدولة إلا بذلك . وعكس ذلك ، فان الدولة العثمانية ستكون مثلا ، كامبراطوريات المملوكية والتيمورية وتهوى إلى مصاف الدول الخامدة ، وتفقد كل قدرة لها على الحركة . لم يكن من شأن حاكم كفاتح أن ينتهج سياسة خامدة وثابتة ، فمثل هذه السياسة ستكون معوقة لظهور وتكامل الدولة العثمانية .

كان السلطان محمد الفاتح مولويا كأبيه . شيخه : أمير عادل جلبى .

كان شاعرا ، إخصائيا فى موضوع الأزهار والأحجار الكريمة ، وماهرا فى صناعة الأقواس .

قابلته (مولدته) : ابه خاتون ، مربيته وأمه بالرضاعة:أم كلثوم هاند خاتون .

أساتذته فى العسكرية الوزير صاريجه قاسم باشا (وفاته ١٤٦٠) ، داماد زاغانوس محمد باشا (وفاته ١٤٦٢) ، خضر جلبى (وفاته ١٤٥٩) ، خادم سليمان باشا (وفاته ١٤٩٣) .

Yorgios Amirutzes الطرابزونى ، أحد أساتذته المسيحيين الذى تلقى عنه اليونانية الكلاسيكية بصورة منتظمة (وفاته ١٤٧٥) . وأخذ عن Ciriaco Anconitato (١٣٩١ - ١٤٥٥) اللاتينية ، التاريخ القديم ، الجغرافيا ، علم الآثار ، الإيطالية . وأخذ عن Giovani Mario Angielello (١٤٥١ - ١٥٢٥) التاريخ الإيطالى والأوربى .

ويمكن ذكر قصاب - زاده محمود بك ، نيشانجى إبراهيم باشا ، شهاب الدين شاهين باشا بين أساتذته الآخرين فى العسكرية .

أشهر أساتذته فى العلوم الأخرى هم : حسن جلبى (وفاته ١٤٨٦) ، ملا إياس ، جلبى - زاده إسبارطه لى قينالى عبد القادر أفندى ، خطيب - زاده محيى الدين محمد افندى ، شيخ الإسلام ملا خسرو ، نيشانجى ملا سراج الدين محمد باشا (وفاته ١٤٨٢) ، ملا خير الدين (وفاته ١٤٧٥) ، خواجه - زاده مصلح الدين مصطفى صالح أفندى (وفاته ١٤٨٨) ، ملا زيرك ، ابن تمجيد (وفاته

١٤٥١) ، ملا أفضل - زاده حميد الدين ، شاعر العصر (١٥) العثمانى الداهية الوزير بورصة لى أحمد باشا (وفاته ١٤٩٧) ، أماسيه لى ملأ إلياس فقيه ، شكر الله جلبى (فى التاريخ وعلم الموسيقى) ، الوزير الأعظم سنان باشا ، مرشده محمد آق شمس الدين (١٣٩٠ - ١٤٥٩) ، آخر رئيس فريق أساتذته فى فترة إمارته شيخ الإسلام ملا كورانى (١٤٠٨ ــ ١٤٨٨) ، كل محمد ده ده شيروانى (أستاذه فى التفسير) ، ولى الدين أفندى (وفاته ١٤٥٣) (أستاذه فى الموسيقى) .

٩ - بايزيد الثانى والسلطان جم (١٤٨١ - ١٤٩٥) .

تم إبلاغ خبر الوفاة إلى أولو شهزاده بايزيد ، الذى كان واليا على لواء أماسيا ، على أثر وفاة فاتح ، ولحين قدوم بايزيد أعلن ابنه الثالث الموجود فى إستانبول الأمير قورقود نائبا للسلطنة لمدة (١٧) يوما . علم السلطان جم صغير أبناء فاتح الذى كان واليا على قونية ، بالخبر متأخرا . لم يتمكن من المجىء إلى إستانبول ، لكنه لم يعترف بخاقانية أخيه الذى يكبره بـ (٩) سنوات وادعى السلطنة . تأجل إجراء مراسم تشييع جثمان فاتح حتى مجىء بايزيد الثانى ، وأجريت المراسم بعد وفاة الحاكم بـ (١٩) يوما فى (٢٢) آيار . اكتنف السلطان بايزيد بنفسه تابوت أبيه . صلى الشيخ وفاء أفندى صلاة الجنازة فى جامع فاتح مناديا « أركيشى نيته » (الصلاة لصلاة الميت) ودفن فى قبره المتواضع ، بجوار الجامع .

دعا الوزير الأعظم ضارى إسحق باشا صهره الوزير الأعظم السابق كديك أحمد باشا ، إلى إستانبول بصورة مستعجلة . أخذ أحمد باشا الأسطول والقسم الأكبر من الجنود وغادر إيطاليا . حاصر الجيش الإيطالى قلعة أوترانتو . أخبر أمير لواء أوترانتو خير الدين باشا ، ملك نابولى Ferrante ، بأنه سيترك القلعة إذا سمح له بركوب السفن والمغادرة دون تعرض . وافق الملك . إخذ الباشا جنده البالغ عددهم (٨٠٠٠) وخرج من القلعة (١٤٨١/١٠/١٠) . جاء إلى تركية . استمر حكم العثمانية الأول فى شبه جزيرة أوترانتو مدة (١٣) شهرا . لم يلتفت أى من السلاطين الذين تلوه إلى خطة فتح إيطاليا .

انكسر السلطان جم أمام أخيه الذى سار إليه بنفسه فى ينى شهر فى بورصة (١٤٨١/٦/٢٠) . لم يتمكن جم،الذى أمر بتلاوة الخطبة باسمه وسك النقود باسمه

فى بورصة ، من المقاومة فى قونية كذلك ، أكثر من ثلاثة أيام . جاء إلى أدنة . استقبل رمضان أوغلو التابع للمماليك الشهزادة وقبل يده . ضيف الشهزادة (الأمير) الذى جاء إلى الشام مع (٣٠٠) شخص فى سراى Ablah . انتقل منها إلى القاهرة (١٤٨١/٩/٢٦) . أرسل السلطان بايزيد ابنه الكبير أولو شهزاده داماد عبد الله ، بدلاً من أخيه إلى عرش قرة مان فى قونية .

استقبل السلطان قايتباى ، « جم » فى القاهرة استقبالا جيدا وحضنه . رحب الشعب من صميم قلبه بابن فاتح البيزنط . بقى « جم » ضيفا على القاهرة عدة أشهر ، ذهب خلالها إلى الحج . الأمير « جم » هو الشخص الوحيد من بنى عثمان ، الذى حج طوال (٨) قرون (هناك من حج من السلطانات أى الأميرات العثمانيات) . ومع أن ذلك غريب بالنسبة لسلالة حملة الخلافة أكثر من ٤ قرون ، لكن هذه هى الحقيقة التاريخية .

خرج « جم » من القاهرة (١٤٨٢/٣/٢٦) ، وذهب إلى حلب (٦ آيار) ، أدنه (١٤ آيار) ومنها أجتاز الحدود المملوكية - العثمانية ودخل تركية،وكان قد رفض عرض أخيه الكبير بايزيد الثانى بأن يعطيه مليون آقجه كمخصصات سنوية حالة تركه ادعاء السلطة وإقامته فى بلد مملوكى معقول كالقدس .
كالقدس .

استقبل « جم » الذى جاء إلى الأناضول بعد أخذه (٦٥٠٠٠) ليرة ذهبية من السلطان قايتباى خاله قرة مان أوغلو سلطان - زاده قاسم بك . توجه « جم » إلى قونية (٢٧ آيار) ، ومنها إلى أنقرة . و لم تقبله المدينتان . أراد الشهزاده الذى خاب أمله ، العودة إلى مصر ، فعبر إلى رودس بالسفينة (٢٩ تموز) ، وكان الأستاذ الأعظم Pierre d'Aubusson (كان فرنسيا) قد أقسم على إيصال الأمير إلى مصر . لكنه لم يف بقسمه ، وأخرج الشهزاده ومعيته الذين مكثوا (٣٤) يوما فى رودس إلى البر فى نيس بعد سفرة بحرية دامت (٤٦) يوما . وهكذا بدأت إقامة « جم » فى فرنسا التى سوف تستمر « ٦ » سنوات و « ٤ » أشهر . نقل من قلعة إلى أخرى من قلاع الفرسان . تعهد بايزيد الثانى فى اتفاق (٧ ك ١٤٨٢/١ ، بدفع ٤٥٠٠٠ ليرة ذهب فى ١ آب) من كل سنة إلى الأستاذ الأعظم لقاء نفقات العناية بأخيه . وعد السلطان قايتباى بـ (١) بمليون ليرة ذهب لإرسال « جم » إلى مصر . لم

تم الموافقة . أخذت (٤) دول كبيرة هى : فرنسا ، المجر ، البندقية ومصر فى الضغط على الفرسان لتسليم الأمير إليهم ، وبعد مفاوضات طويلة قرر الفرسان أنهم لايملكون القدرة على الأحتفاظ بالأمير لديهم ، ووافقوا على تسليمه إلى البابا ، بموجب الاتفاقية المحررة فى (٥ ت ١٤٨٨/١) .

جىء بالأمير إلى ليون فى (١٨ ت ١) ، وبعد أن استضيف فيها مدة (٤٧) يوما ، نقل إلى طولون فى شباط (١٤٨٩) ، ثم سيق منها بالسفينة إلى إيطاليا . دخل روما (١٤٨٩/٣/١٤) . وبذلك بدأت مرحلة النفى الثانية فى إيطاليا .

خلال هذه السنين ، حقق بايزيد الثانى حملته الهمايونية الأولى على المجر Morava (١٤٨٣) ، ثم قام بحملة بغدان (١٤٨٤) . غادر استانبول فى (١٨٨٤/٥/١) بعد أن استجم فيها بعد حملته الأولى مدة (٥/٥) أشهر . جرت حملة بايزيد الثانى على بغدان (مولدافيا) بعد (٨) سنوات من حملة أبيه عليها . وطبعا جرى ذلك لتتبيع الإمارة الرومانية بروابط أمتن . فتحت Kilye (١٥ تموز) و Akkerman (٩ آب) .

كانت القلعة الثانية،أى (Akkerman = Cetaea Alba) الواقعة على الشرم الذى يصب فيه دنيستر فى البحر الأسود ، قلعة مهمة . اشترك خان قرم منكلى كيراى فى الحصار مع (٧٠,٠٠٠) خيال . كان العثمانيون قد حاصروا أكرمان (٣) مرات فى (١٤١٩ ، ١٤٥٤ ، ١٤٧٤) ولم يتمكنوا من أخذها . أرسل سلطان فاس سفيرا خاصا وهنأ بايزيد الثانى) . جردت إمارة بغدان من البحر الأسود ، ولم يترك لها ساحل على هذا البحر . وانتقل القسم الساحلى إلى الحكم العثمانى المباشر . كما ألحقت به الأراضى المنحصرة بين Dnyestr , Prut .

أصبح البحر الأسود بحيرة تركية بصورة تامة .

بقى بايزيد الثانى شتاءين متعاقبين فى أدرنة ولم يعد إلى إستانبول إلا بعد سنتين فى (١٤٨٦) .

بدأت الحملة الهمايونية (٣) بمجىء البادشاه إلى صوفيا أولا . لكن البادشاه، الذى ولى سليمان باشا حملة المجر التى هدفها بلغراد ذهب إلى ألبانيا ، عاد إلى استانبول بعد (٥ / ٩) شهور فى الأيام الأخيرة من سنة (١٤٩٢) . أما

سليمان باشا ، فقد حاصر بلغراد (وهى المحاصرة العثمانية ٣) . لكنه لم يتمكن من أخذها .

دخل آمر لواء (والى) بوسنه قائد الصاعقة الشاعر يعقوب باشا ، إلى سلوفينيا ومن ثم إلى ستيريا Stirya مع (٨٠٠٠) من المغاوير ، إلى شبه الجزيرة التى تقع عليها تريسته . وأثناء عودته قطع الجيش عليه الطريق فى Adbina (بالتركية ، كاراتوفا) فى خرواتيا . قتل يعقوب باشا (٥٧٠٠) من جنود العدو وأسر (٢٥٠٠٠) منهم (١٤٩٣/٩/٩) . سجل انتصاره هذا بقصيدة منظومة .

مكث السلطان « جم » ٦ سنوات فى إيطاليا (١٤٨٩/٣/١٣ – ١٤٩٥/٢/٢٥) . استقبل فى روما بمراسم فوق العادة . تقابل مرات عديدة مع البابا Innocentius (٨) ، وبعدها مع خلفه Alessandro (٦) . خصص سراى سان آنجيلو لاقامته . وعند دخول ملك فرنسا جارلس (٨) إلى إيطاليا ، لم يتمكن البابا من مقاومة ضغوطه وسلمه « جم » . مرض الأمير أثناء ذهابه من روما إلى نابولى بصحبة الملك وتوفى فى نابولى (١٤٩٥/٢/٢٥) وعمره يتجاوز الـ (٣٥) سنة بـ (٣) أشهر ، (٣) أيام . والمعتقد بصورة أكيدة أن البابا قد دسَّ له السم أثناء تسليمه إلى ملك فرنسا . ويحتمل كذلك أن بايزيد الثانى قد دفع رشوة للبابا لهذا الغرض . أعلن الحداد فى تركيا لمدة (٣) أيام بأمر السلطان بايزيد وأقيمت صلاة الميت للغائب،ووزعت الصدقات على الفقراء . لقد أصبح جثمان « جم » مسألة دولية . نقل النعش إلى تركية بعد مكوثه فى حديقة ملك نابولى مدة (٤) سنوات . أرسل إلى بورصة ودفن . سدد بايزيد الثانى للفرسان والبابا معا مبلغ (٦٠٠,٠٠٠) ليرة ذهبية لقاء العناية بأخيه .

لقد ترتب على بقاء السلطان « جم » فى أوربا مدة (١٢ سنة ، ٤ أشهر ، ٢٩ يوماً) تأثيرات مهمة فى الحياة الاجتماعية الفنية الأوربية ، فقد أجبر بايزيد الثانى خلال هذه المدة على الالتزام بسياسة محايدة تجاه أوربا . لم يتمكن البادشاه الذى اعتاد على سياسة كهذه ، من تغيير سياسته إلى سياسة أكثر فاعلية حتى بعد وفاة أخيه .

خلف « جم »-ذو الدواوين الشعرية باللغة التركية والفارسية – (٣) أبناء وابنتين . تزوجت ابنته جوهر – ملك سلطان ، بالسلطان قايتباى فى القاهرة فى

(١٤٩٥) . لكن السلطان المملوكى توفى بعد ٣ سنوات . جاءت جوهر - ملك سلطان إلى إستانبول وتزوجت مرة أخرى ، وابنتها خانم - سلطان التى ولدت من هذه الزيجة ، كانت لا تزال حية فى (١٥٦٨) . توفى ابنا « جم » وهما طفلان ، وعاش ابنه الآخر الشهزاده مراد (١٤٧٥ - ١٥٢٢) فى القاهرة ورودس . وعند فتح الأتراك لرودس فى (١٥٢٢/١٢/٢٧) ، أعدم مع ابنه الشهزاده « جم » وأرسلت ابنتاه مع أمهما إلى استانبول وأسكنوا فيها. طلب بايزيد الثانى من السلطان قايتباى ، أثناء وجود « جم » فى أوروبا ، إرسال والدة « جم جيجك خاتون » الموجودة فى القاهرة مع ابنتى « جم » إلى استانبول . ولما لم يستجب هذا الطلب ، أضرمت نار أول حرب عثمانية - مملوكية وهى الحرب التى يمكن النظر إليها على أنها حصاد توتر طويل الأمد .

(١٠) الحرب العثمانية - المملوكية (١٤٨٥ - ١٤٩١)

كانت تركيا ومصر فى ذلك التاريخ ، دولتى العالم الأولى والثانية . منذ قرن كامل ، لم تتحاربا أبدا مع أنهما جارتان . كانت السلطنة المملوكية من الدول النادرة التى لم تحاربها العثمانية . توترت العلاقات فى السنين الأخيرة . قدمت شكاوى عديدة حول سلب البدو للحجاج الأتراك فى الطريق ، وطلبت تركيا إذنا لإرسال جنود للمحافظة على الأمن فى طريق الحج فى الدولة المملوكية . أخر المماليك الذين غضبوا لذلك المجوهرات التى أرسلها سلطان الهند الجنوبية البهمنى محمود شاه ، إلى السلطان بايزيد ، مدة طويلة فى مصر ثم أرسلوها إلى استانبول .

بدأت الحرب بصورة فعلية على أثر إسقاط قرة كوز محمد باشا تحكيمات المماليك فى بوغاز كللك ، ودخوله جوقور أوفا (أيار ١٤٨٥) . كان قد مضى (٤) سنوات على وفاة فاتح .

من المهم أن نذكر هنا أن الإمبراطوريتين حاولتا جهديهما حصر الحرب فى نطاق محلى ، وعدم تصعيدها أو تحويلها إلى حرب شاملة .

ولم تطأ أقدام الحاكمين ساحة الحرب أبدا ، وكان قصد العثمانية - إن أمكن -

حيازة إمارة رمضان أى جوقورأوفا ، وقصد المماليك – إن أمكن – حيازة دلقادر، أى منطقة ماراش ، ومن ثم عدم التقدم أية خطوة بعد ذلك .

احتل قرة كوز باشا طرسوس ونزل إلى البحر الأبيض . جاء رمضان أوغلو محمود بك إلى استانبول وعرض تبعيته للعثمانية وخروجه من تبعية المماليك .

رد المماليك على ذلك بدخولهم إلى دلقادر . كان دلقادر أوغلو علاء الدولة بورقورد بك أبا لزوجة بايزيد الثانى وأبا كذلك لوالدة الأمير (شهزاده) ياوزسليم . أخرج أمير لواء (والى سنجق بك) قيصرى يعقوب بك المماليك من دلقادر ، وجاء أمام القلعة المملوكية ملاطية . أباد القائد العام المملوكى أوزبك بك فى هذا الموقع ، يعقوب بك مع وحدته ، ثم دخل جوقورأوفا ، وأخرج العثمانيين منها ورمى بهم إلى الطرف الآخر من طوروس . مات كل من أمير لواء طرسوس داماد فرهاد بك وأمير لواء أدنة موسى بك أثناء دفاعهم عن جوقورأوفا .

وفى ك (١٤٨٦/٢) ، نزل أمير لواء (أمير الأمراء ، والى) أناضولى هرسك – زاده أحمد باشا إلى جوقواوفا ، وانتصر عليه أوزبك بك وأسره ، وسيق إلى القاهرة .

وافق قايتباى على مقابلة داماد أحمد باشا الذى صار وزيرا أعظم بعد ذلك ، وطلب إليه أن يبلغ البادشاه بأن هذه الحرب لاطائل وراءها ، وأنه على استعداد لعقد صلح تقر فيه الأطراف بحدود ماقبل الحرب ، وأنه يبلغه أيضا أنهم لايرغبون فى الحرب مع العثمانية التى تجاهد بصورة مستمرة ضد المسيحيين ، وأن هذا لايليق بهم ، كما طلب منه كذلك أن يبلغ البادشاه أنه لاينوى ترك أراض للعثمانية ، وخلى سبيله . جاء أحمد باشا إلى استانبول وسرد ذلك ، لكن الديوان العثمانى لم يكن قد اعتاد إنهاء حرب لم تتكلل بالنجاح .

احتل العثمانيون طرسوس مرة أخرى فى (١٤٨٧ . وفى صيف ١٤٨٨) ، احتل الوزير (وزير أعظم فى المستقبل) على باشا مع (٣) بدرجة فريق أول (بكلربك) كامل جوقورأوفا وبضمنها أدنة .

لحق الأمير أوزبك رجل الحرب الكبير ، وهزم على باشا (١٤٨٨/٨/١٦) .

استسلمت أدنة للمماليك بعد أن قاومت (٧) أشهر (١٤٨٩/٤/٢) .

وفى ١٤٩٠ ، حاصر أوزبك بك الذى انتصر على على باشا فى حرب آغا جايرى الميدانية ، قلعة قيصرى ، وأسر هرسك – زاده أحمد باشا ، الذى جاء للدفاع عن قيصرى للمرة الثانية . وسيق إلى القاهرة كذلك .

وفى هذه المرة ، عامل السلطان قايتباى ، صهرَ بايزيد الثانى أحمد باشا ببرود . لكنه تأثر عندما علم أن السلطان بايزيد سيخرج بحملة . حيث لم يكن يرغب فى أن تتطور الأمور إلى حرب شاملة .

كان يعلم أن تيمور فقط هو الذى تمكن من الانتصار على العثمانية فى حرب شاملة فى تاريخ العثمانية بأجمعه ، وليس هناك مثال آخر .

اتصل بسلطان تونس الحفصى يحيى الثالث . وطلب إليه أن يتوسط لتأمين الوئام بينه وبين السلطان بايزيد ، والحيلولة دون إراقة دماء المسلمين .

وافق السلطان بايزيد على تدخل السلطان يحيى ووساطته ، واقترح السلطان يحيى الصلح على أساس ترك الوضع على حاله (Statu quo) . وافق الطرفان .

ثبتت الحدود كما كانت عليه قبل بداية الحرب ، فعادت إمارة رمضان أوغلو إلى تبعيتها للماليك ، وإمارة دلقادر إلى العثمانية . زوج السلطان بايزيد جوهر ملك سلطان ابنة أخيه جم بالسلطان قايتباى وحاول إزالة البرود الكائن بينهما ، واستمر بعد ذلك متعقبا سياسة مساندة الدولة المملوكية بإخلاص كما سيظهر فيما بعد .

إن الحرب التى مرت بتفوق المملوكية على الأكثر ، وجهت أنظار العثمانية إلى جوقور أوفا التى احتلتها عدة مرات . إن سياسة الدولة العالمية التى اتبعتها العثمانية ، أظهرت لزوم توسعها فى الأناضول وهبوطها إلى العالم العربى .

(١١) الدولة العثمانية والأندلس :

فى هذا التاريخ كان قد تبقى فى أسبانيا العربية المسلمة ، فى الأندلس ، دولة إسلامية واحدة ، هى دولة النصريين أو بنى الأحمر . كانوا يحكمون منذ (١٢٣٢) ومدينة عرشهم غرناطة (بالأسبانية : Granada) ، لكنهم كانوا فى القرن (١٥)

قد أزيحوا ودفعوا إلى حدود ضيقة جدا . ومع ذلك ، فإنه من الممكن القول بأن تعداد تلك الدولة يصل إلى مليونى نسمة ، ومثل هذا العدد يعتبر بالنسبة لذلك العصر عددا كبيرا . أما العاصمة،غرناطة ، فقد كانت أكبر المدن كثافة فى التعداد فى كامل القارة الأوربية ، فقد كان تعدادها يبلغ (٥٠٠,٠٠٠) نسمة،فاقت استانبول غرناطة فى تعداد سكانها فى السنوات الأخيرة للعصر .

يتكون شعبها من البربر والأسبان (Wisigoth) الذين أسلموا ويتكلمون اللغة العربية ، وكذلك العرب الخلص . كان للدولة كذلك رعايا كثيرون من المسيحيين (الكاثوليك) والموسويين .

وفى (١٤٨٢) ، اضطرت ملكية الأندلس ، أن تدخل تحت سيادة ملكية كاستيليا ومركزها طليطلة (Toledo) . فقد كانت متفوقة من حيث الحضارة والثقافة والصناعة ، وللكنها نتأخرة جدا من الناحية العسكرية .

دفعت ملكية كاستيليا الأندلس السنية – المالكية نحو الجنوب بصورة مستمرة وقلصت حدودها .

كانت كاستيليا دولة ذات جيش قوى . أما ملكية آراغون الكاثوليكية المتعصبة بنفس الدرجة ، والتى تأسست فى الإيالات الشمالية – الشرقية من أسبانيا ، فقد كانت دولة بحرية مهمة فى البحر الأبيض . لغة هذه الدولة هى القتلونية (حاليا كذلك) ، أما كاستيليا ، فقد كانت تتكلم الأسبانية،وهى لغة لاتينية تختلف عنها تمام الاختلاف .

أخذ الأسبانيون من العرب موانىء:جبل طارق (١٤٦٢/٨/٢٠) ، روندو (١٤٨٥/٥/٢٠) ، ألمرية (بالأسبانية : Almeria) ، مالقة (بالأسبانية : Malaga) ، مدينة ولزمالقة Velez Malaga (أخذت جميعها فى ١٤٨٧) . انحطت دولة الأندلس إلى درك دول البحر الأبيض التى لاأهمية لها ، وأصبحت مقتصرة على غرناطة وأطرافها . لكن مع ذلك فإن مستوى شعب هذه الدولة البائسة ، كان مايزال هو الأول فى العالم أجمع .

أشرف الحكم الإسلامى الذى كان مستمرا فى شبه جزيرة إيبيريا منذ (٧١١) سنة ، على الانتهاء . ومنذ ذلك الحين كان لملكيتى كاستيليا وآراغون ملايين من

الرعايا المسلمين ، الذين كانوا يحاولون الإبقاء على كيانهم فى جو من الضغط والشدة لم يشهده التاريخ لإجبارهم على اعتناق الكاثوليكية .

كانوا يثورون بين الحين والآخر ، وكانت تسفر ثوراتهم عن مزيد من الشدة فى سحقهم .

كان هدف ملكية كاستيليا،بوجه خاص ، اقتلاع الحكم الإسلامى بكامله من أى شبه جزيرة إيبيريا ، ثم أضيف إلى هذا الهدف ، سياسة عدم Reconquista الإبقاء على أى شخص ينتسب إلى الدين الإسلامى . كان الموسويون معرضين إلى ذات المعاملة التى تطبق على المسلمين .

من الذى سيقوم بإنقاذ هذه الجماعة الإسلامية البائسة التى كانت أستاذا معلما ومربيا لأوربا فى كافة المجالات الحضارية ؟ لاشك فى أن هذه المهمة تقع على عاتق سلطنة فاس التى تعتبر من الدول الكبرى ، والتى حكمت فى البداية فى الأندلس كما تقع كذلك على بنى مرين .

كانت تركية ومصر فى الجانب الآخر من البحر الأبيض ، وأساسا فإنه لم يكن لمصر القوة البحرية التى تمكنها من القيام بهذا العمل . أما السلطنة الحفصية فى تونس فإنها كانت فى حالة تدهور .

إن اتحاد ملكيتى كاستيليا وآراغون بصورة فعلية فى (١٤٦٩) ، وتشكيلهما أسبانيا موحدة ، سبب زيادة مصائب الأندلس .

تزوجت ملكة كاستيليا إيزابيلا Isabella بملك آراغون Fernando el Catolico ، وكانت هذه الزيجة التى استمرت (٣٥) سنة لغاية وفاة إيزابيلا وعمرها (٥٣) سنة ، مثمرة للغاية بالنسبة لأسبانيا . وأضحت أسبانيا أقوى دولة فى أوربا والعالم المسيحى .

اعتلى فرناندو الذى يصغر زوجته سنة واحدة ، عرش أبيه فى (١٤٧٩) ، أما إيزابيلا فإنها اعتلت عرش أبيها فى (١٤٧٤) . وبناء على ذلك فإن الوحدة فى (١٤٧٩) ، تأسست بشكل متين . ولم تنفصل بعدها أبدا .

كانت ملكية صقلية تعود أساسا إلى آراغون ، وانتقلت ملكية نابولى إلى أسبانيا .

إن أسبانيا التى سيطرت بهذه الصورة على جنوب إيطاليا أيضا ، أصبحت دولة مقتدرة فى منتصف البحر الأبيض ، كما كانت فى غربه . وبدأت بتهديد كل الأطراف .

ولد سقوط مالقة المدينة العربية المسلمة منذ (٧٧٦) سنة ، التأثر والهياج فى العالم الإسلامى بأسره (١٤٩٨/٨/١٨) .

قرر الأسبانيون الذين أرادو فى هذه الحملة أخذ غرناطة كذلك ، الانتظار مدة من الزمن . كانوا يخشون تدخل تركية ومصر .

كانت تركية ومصر فى هذه الأيام فى حالة حرب . وعندما عقدت الهدنة لفترة بين الدولتين ، اضطربت أسبانيا .

طلب ملك غرناطة أبو عبدالله محمد (١١) مساعدة استانبول وكذلك القاهرة بصورة رسمية . وقد كانت خشية الأسبان لمصر أكثر وأشد ؛ لأنهم لم يسمعوا بعلاقة تركية بغرب البحر الأبيض وبالمغرب .

أرسل السلطان قايتباى راهب دير فرانسيسكن الكاثوليكى فى القدس كسفير إلى توليدوِوأبلغهم بأنهم إن لم يرفعوا يدهم عن غرناطة ، فانه سيقتل كافة المسيحيين الموجودين فى كنيسة قمامه فى القدس ، وأنه سيغلق فلسطين فى وجه كافة الحجاج المسيحيين .

لم تعر أسبانيا أية أهمية لهذا التهديد ؛ لأنها لم تكن قد سمعت أبدا بأن دولة إسلامية أضرت برعاياها المسيحيين المطيعين . حيث إن المماليك ، لم يمسوا المسيحيين فى فلسطين بسوء ، ولم يمنعوا الحجاج المسيحيين .

عرض السفراء الذين أرسلهم أبو عبد الله محمد (١١) الذى يسميه الأوربيون « بو عبد الـ Boabdil » (بكسر الدال وتفخيم الواو) ، وعرب المغرب « بو عبد الـ Bû Abdel » (بفتح الدال) ، على بايزيد الثانى الوضع الأليم المذكور أعلاه . قرر الديوان الهمايونى إرسال أسطول إلى غرب البحر الأبيض . وهكذا تحققت الحملة الأولى لكمال رئيس (١٤٨٧) ، وللمرة الأولى وطئت أقدام الأتراك غرب البحر الأبيض .

وهكذا دخلت تركيا الحرب تجاه (٤) ملكيات (كاستيليا ، آراغون ، نابولى ، صقلية) وباختصار تجاه إسبانيا . (سوف تستمر هذه الحرب قرونا طويلة دون عقد صلح) .

قصف قرة مانلى كال رئيس بالتسلسل جربة ، مالطة ، صقلية ، ساردونية ، كورسيكا ، جزر باليز وسواحل إيطاليا الجنوبية ودخل المياه الأسبانية . وقصف كافة موانىء آراغون (كاتالونيا) . واستولى بصورة فعلية على ميناء مالقة الذى أخذه الأسبان من العرب قبل عدة أشهر وأحرقه أثناء انسحابه .

عاد من مضيق جبل طارق وصعد نحو الشمال الشرق إلى السواحل الفرنسية، ثم عاد فقصف الموانىء الأسبانية فى البحر الأبيض مرة أخرى . وعبر إلى بحر Tiren عن طريق مضيق Bonafacio الذى يفصل جزيرتى كورسيكا وساردونيا عن بعضهما . مر على بعض موانىء سلطان تونس الحفصى ، الذى قدم تسهيلات إلى الأسبان ، ورفع الراية فيها ثم عاد .

لكن هذا الاستعراض ، لم يثن عزم الحكام الكاثوليك . انتهى الحكم الإسلامى الذى دام فى أسبانيا – البرتغال (٧٨١) سنة باستسلام غرناطة (١٤٩٢/١/٢) . هرب محمد (١١) إلى فاس . أحرق بأمر أحد الكرادلة السفلة أكثر من (٥٠٠,٠٠٠) من الكتب المخطوطة فى ميدان غرناطة الكبير ، وكان هذا العدد من الكتب يفوق كافة الكتب الموجودة فى مكتبات أوربا بكاملها ، وهى مؤلفات جمعت من جميع أنحاء العالم خلال (٨) قرون .

لم تكن فى هذا التاريخ فى أوربا كلها مكتبة واحدة تمكنت من جمع (١٠,٠٠٠) مجلد .

فور سقوط غرناطة ، انتشر (٣٠٠,٠٠٠) عربى على سواحل أسبانيا .

حالت مدافع الأسطول التركى دون إفناء هؤلاء وتم نقلهم إلى فاس والجزائر . مئات الألوف منهم ، أحرقوا بالنار بصورة جماعية . وضع اليد على كيان المسلمين كاملا . لكن عدة ملايين من المسلمين ، أصبحوا مشكلة أسبانيا الكبرى لمدة قرن ونصف . يكتب نامق كال مايلى : « عندما أخذ الأسبان غرناطة أحرقوا الشعب بالنار لإجبارهم

على تبديل دينهم . وعندما أخذنا نحن استانبول ، منحنا الحرية الكاملة لسالك كل مذهب فى ممارسة شعائره الخاصة » .

بينما كانت غرناطة قد استسلمت شرط عدم المساس بأموال وأنفس وكافة الحريات الدينية للعرب . كانت أسبانيا فى ذلك التاريخ تضم نحو (٣) ملايين من العرب المسلمين و(٣٠٠,٠٠٠) موسوى . وفى (١٤٩٢) ، أصدرت أسبانيا أمراً ملكيا إلى الموسويين بترك أسبانيا دون استصحابهم أية حاجة ثمينة ، فى حالة عدم قبولهم الكاثوليكية ، خلال فترة (٤) أشهر .

وفى (١٤٩٧) ، أعلن ملك البرتغال منشورا بنفس المحتوى . لكن البرتغال أعلنت أن اليهود الذين يتركون البلاد لايمكنهم استصحاب أولادهم (بناتهم وأبنائهم) الذين تقل أعمارهم عن (١٤) ، سنة وأن هؤلاء سيظلون فى البرتغال لتنشئتهم على المذهب الكاثوليكى .

قبلت تركيا يهود البرتغال والأسبان وأسكنتهم أماكن عديدة على رأسها استانبول ، وهذا هو منشأ يهود استانبول الذين ينطقون الأسبانية ، وكان هناك من قدم من العرب كذلك إلى استانبول وسكنوها،لكنهم على الأكثر كانوا يذهبون إلى فاس والجزائر لقرب المسافة .

أغضب هذا الظلم التعسفى الأتراك ، فقررت الدولة العثمانية التدخل فى المغرب .

وسوف نتناول سياسة العثمانية بشأن التدخل فى المغرب فى المبحث المخصص لذلك .

لقد تصادف أن يقع فى عام واحد سقوط غرناطة واكتشاف الجنوى كريستوفر كولمبس لأمريكا ، فقد اكتشف كولمبس القارة الجديدة باسم أسبانيا وبدأت تتكون فيها مستعمرات أسبانية (مغادرة كولمبس ١٤٩٢/٨/٣ ، وصوله إلى جزائر بهاما ١٤٩٢/١٠/١٢) .

اقتحم الأسبان أفريقيا السوداء كذلك . إن تاريخ ذهاب أول قافلتين للزنوج الذين ساقوهم إلى أمريكا لتشغيلهم بعد اصطيادهم من سواحل غينيا ، هو (١٥٠١) و(١٥٠٥) . وسوف لاينقطع بعد ذلك سوق هذه القوافل من أفريقيا إلى أمريكا .

وهكذا تكونت إلى يومنا هذا أقلية زنجية قوية فى أمريكا التى لم تكن تحتوى على زنجى واحد .

سار كمال رئيس بحملات عديدة على غرب البحر الأبيض . قصف أسبانيا ، نهبها . نقل المهاجرين إلى شمال أفريقيا . إن حملته الأخيرة فى (١٥١٠) ، جرت بعد (٢٣) سنة من أولاهن . ذهب إلى فاس وقابل ابن محمد (١١) آخر ولى عهد للأندلس . كان يرافقه ابن أخيه محيى الدين بيرى رئيس الذى كان عمره (٢٠) سنة ، وهو أعظم راسم للخرائط الجغرافية وجغرافى بحار فى القرن (١٦) . كان أحمد كمال الدين بك المعروف بـ « كمال رئيس » لواء بحريا ، وهو ابن قره مانلى على ، هو مؤسس المدرسة البحرية العثمانية العالمية . مات أثناء غرق سفينته عند عودته من حملة أسبانيا بالقرب من قاعدته غاليبولى (١٥١١/١/١٦) .

كتب المؤرخ الفرنسى Michelet ، أن الاسبان أفنوا فى غضون الـ (١٠) سنوات الأولى بعد سقوط غرناطة (١,٠٠٠,٠٠٠) مسلم بطرق شتى كحرقهم بالنار ، وإجاعتهم وإغراق سفنهم فى البحر وقتلهم (Renaissance ١٣٥ – ٧) .

(١٢) فترة السلطنة الثانية لبايزيد الثانى (١٤٩٥ – ١٥١٢)

أدى تحرش بولونيا فى بداية (١٤٩٨) ببغدان (مولدافيا) التابعة للدولة العثمانية إلى نشوب حرب مع هذه الدولة . كلف قائد الصاعقة المعروف ، أمير لواء سلستره مالقوج أوغلو بالى بك (باشا فى المستقبل) بإدارة الحرب . سار بالى بك إلى بولونيا بحملتين كبيرتين فى ربيع وخريف سنة (١٤٩٨) . اشترك فى هاتين الحملتين (٤٠,٠٠٠) من الصاعقة .

انهزم ملك بولونيا ، فى حرب Bukovina الميدانية وفر تاركا حمولة (٢٠,٠٠٠) عربة من مهمات جيشه .

دخل بالى بك أهم المدن البولونية مثل Lwow , Jaroslaw , Radom , Lublin وارشو، وحرقها . وصعد إلى الشمال حتى خط عرض (٥٣) . ووقف على مسافة (٢٢٠) كم عن بحر البلطق .

كررت هذه الحملة فى الخريف بعد (٣) أشهر . خربت المنطقة التى ينبع منها نهرى دنيستر وسان .

أعلنت كل من المجر والبندقية الحرب على تركيا خشية اندحار بولونيا – ليتوانيا فى حملة جديدة ، وذلك على أثر الحركات الشديدة التى جرت لحمل بولونيا على الابتعاد كلية عن التدخل فى شئون بغدان ، وبالتالى فى شئون البحر الأسود .

اجتاز إسكندر باشا (الذى غزا دالماجيا قبل ١٤٩٩) أنهار , Tagliemento Isonzo (بالتركية : آقصو) و Piave ودخل سهل البندقية . ترك مدينة البندقية وراءه واجتاز نهر Brenta حرق مدينتى Vieenza و Padova . وعاد من نهر Adige قرب Verona . وبهذه الصورة تقدم نحو الغرب حتى خط طول (١١) . كان قوام هذه الحملة الشهيرة (٢٠,٠٠٠) من جنود الصاعقة . أحرقت الحملة ١٣٠ مدينة وقصبة ، ولم تتمكن البندقية من صيانة وطنها الأصلى لانشغال القوات البندقية الكبرى فى الحروب فى مورا . دخلت قوات الصاعقة فى فترة جمود لمدة ربع قرن ، بعد سنة (١٥٠٠) .

لاتوجد غارات كبيرة خلال هذه الفترة ، فقد انشغلت تركية بالشرق وهى بشكل عام فى حالة صلح مع أوربا ، وسوف تبدأ الغارات مجددا على أوربا على نطاق واسع فى عهد السلطان سليمان القانونى .

بذلك دخلت العثمانية البحرب مجددا مع (٣) دول كبرى هى : البندقية والمجر وبولونيا ، والدول الصغيرة ، التى تساندها البابوية ، كرودس وأمثالها . كانت حالة الحرب مستمرة أساساً مع أسبانيا بسبب قضية الأندلس ؛ ولم تكن هناك مشكلة فى الشرق بسبب اطمئنانها من ناحية المماليك وآقويونلو وإيران . دخلت ألمانيا كذلك الحرب ضد تركيا . تضعضعت ألمانيا بسبب انفصال الاتحاد السويسرى فى ١٤٩٩ عن الإمبراطورية الألمانية وتشكيلها دولة مستقلة تماما .

قام بايزيد الثانى بحملتى الهمايونية (١٤٩٩ ، ١٥٠٠) على البندقية واليونان وجنوب مورا . أصبحت رودس عاجزة – لمدة من الزمن – عن مساعدة البندقية بسبب إبادة أسطول رودس مع أميرالاته وسفينة الأميرالية على يد كمال رئيس .

سار البادشاه من استانبول فى (٣١ آيار ١٤٩٩) ، وأرسل قسماً من الأسطول الهمايونى إلى قبرص فاضطرت البندقية إلى أن ترسل قوات كبيرة إلى قبرص ، خوفا من عملية إنزال تركية .

أسر والى كورفو Andrea Lorenado وقتل لسوء معاملته للأسرى الأتراك .

جاء البادشاه إلى Lepanto (بالتركية : إينه بختى) وهى قلعة بندقية مهمة تقع على الساحل الشمالى من خليج كورينثوس .

وخلال هذه الأيام ، كان الأسطول البندقى المكون من (٢٠٠) قطعة بقيادة الأميرال أنطونيو كريمالدى على مسافة من مياه جزيرة سابينزا Sapienza الصغيرة فى الناحية الغربية من مياه رأس (Galto (Messenya الواقع فى رأس مورا الجنوبى - الغربى .

التقى الأسطول الهمايونى بقيادة كمال رئيس ، بالأسطول البندقى فى هذا الموقع . كان قائد جناح اليمين الأميرال Barak (براق) رئيس الذى سبق أن أرسله البادشاه إلى فرنسا فى مهمة ديبلوماسية . دخل العدو على العمق فى الجناح الأيمن للأسطول التركى ، وحاول إنزال راية الرئيس براق . كانت جميع السفن قد اقتربت من بعضها .

فجر براق رئيس خزان البارود فى سفينته وحرق نفسه مع قسم كبير من الأسطول البندقى واستشهد ، ومات معه فى سفينته ربان السفينة قرة حسن رئيس و(٥٠٠) من جنود البحرية وكثيرون من الجدافة (الأسرى المسيحيين) . كان بين الذين ماتوا نتيجة الانفجار ، الأميرالان البندقيان Loredanoو Armenio .

ولهذا لم يقترب كمال رئيس ، وأخذ يقصف قطعات الأسطول البندقى الأخرى ، وكان كمال رئيس قد وضع فى السفن التركية — ولأول مرة فى تاريخ البحرية العالمية — مدافع ذات مدى بعيد ، بحيث تتمكن من إصابة سفن العدو من مسافة معينة ، بينما تسقط طلقات العدو خارج مجال مرمى السفن التركية ولاتصيبها .

أدار الأسطول البندقى دفته نحوَ الشمال وهو فى حالة يرثى لها .

تقابلت فى هذه الحرب (٤٠٠) سفينة ، وعشرات الألوف من رجال البحرية

وجها لوجه ، وهى أول حرب بحرية مفتوحة كبرى ، انتصر فيها الأتراك (١٤٩٩/٧/٢٨) . سمى الأتراك جزيرة Sapienza ، جزيرة براق رئيس .

سقطت Lepanto (١٤٩٩/٨/٣٠) بعد (٣٣) يوما من انتصار Sapienza البحرى . أما البنادقة فقد احتلوا جزيرة كفالونيا التى كانت لدى الأتراك منذ (٢٠) سنة (١٤٧٩ — ١٤٩٩) ، حاولوا أخذ Preveze ، لكنهم شتتوا .

سار بايزيد الثانى من أدرنة بعد أن قضى الشتاء فيها ، يوم (٧ نيسان ١٥٠٠) وجاء مع الأسطول إلى قلعة Modon البندقية فى جنوب مورا ، وخلال الفترة من (١٠ – ١٦) آب (١٥٠٠) ، استسلمت القواعد البحرية والقلاع البندقية الموجودة فى جنوب مورا بالتسلسل Navarin , Fenar , Milona , Modon , Koron . وهكذا تم تصفية البندقية ، من مورا واليونان . وفى هذه الحرب ذاتها كذلك ، تم فتح Draç آخر قاعدة للبنادقة فى ألبانيا (١٥٠٢/٨/١٣) .

أرادت فرنسا فى هذه الأيام أن تساند البندقية ، فجاء الأسطول الفرنسى الذى يحتوى على (١٠,٠٠٠) جندى مشاة أمام ميناء ميديللى فى أواسط أيلول (١٥٠١) ، وحاول لمدة ستة أشهر إسقاط القلعة ، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، وعلى أثر انتشار خبر قدوم الأسطول التركى إلى المنطقة ، أراد الأميرال Revenstein ، اللجوء إلى جزيرة Cergio (بالتركية : جوها) الواقعة جنوب مورا . غرق كل الأسطول الفرنسى هنا على أثر هبوب عاصفة وتمكن عدة أشخاص فقط من النجاة (هامر ، ٤ ، ٧٠) .

طلبت البندقية الصلح . لم يتمكن Andrea Gritti – الذى انتخب بعدها دوج رئيس جمهور – حين حضر إلى استانبول لإجراء مفاوضات الصلح ، من الحصول على نتيجه . وأرسل Zacharia Freschi بصلاحيات أوسع ، وأبرمت فى (١٤ ك ١٥٠٢/١) معاهدة استانبول المكونة من (٣١) مادة . أعطيت كافلونيا فقط للبنادقة . عقدت، بعدها تركيا صلحا مع كل من المجر (١٥٠٣/٨/٢٠) ، فرنسا ، إنكلترا ، وأسبانيا ، والبرتغال ، وبولونيا ، ونابولى ، ورودس .

بدأت فى أوربا فترة صلح دامت قرابة (٢٠) سنة . كانت الدولة العثمانية مضطرة للالتفات نحو الشرق ، حيث كانت تجرى أمورا مهمة فيه .

وفى الوقت الذى ساد الاعتقاد فيه أن مسألة قرة مان قد أغلقت وطويت فى سجل التاريخ ، جاء قره مان أوغلو مصطفى بك ، الذى كان يسكن فى تبريزه منذ سنين إلى الأناضول . وهو حفيد أول قرة مان بك نوره صوفى فى البطن (٨) وحفيد محمد بك الثانى فى البطن (٣) ، واحتل لارنده (قره مان) مع التركمان الذين جمعهم حوله . وعندما ثار عليه الأمير شهنشاه ابن البادشاه الساكن فى قونيه (أمه قره مانية) ، فر إلى طرسوس ولجأ إلى المماليك . أمر السلطان المملوكى الذى لايود نزاعاً مع العثمانية بسبب القرمانيين بقتله .

(١٣) ظهور الشاه إسماعيل

كان مؤسس الطريقة الصفوية الشيخ صفى الدين متصوفا سنيا خالصا ، حصلت تكيته التى أسسها فى مدينة أردبيل فى جنوب آذربيجان ، على شهرة واسعة من (١٣٠١) حتى وفاته فى (١٣٣٤) ، وقد وصلت مكانة وشهرة هذه التكية إلى حد أن تيمور زارها وتبرع لها . اعتنق حفيد حفيده ، شيخ الطريقة الخامس (١٤٤٧ - ١٤٦٠) جنيد ، المذهب الشيعى وأدهش الجميع ، وقد كان المذهب الذى اختاره من بين مذاهب الشيعة هو مذهب الشيعية الإثنى عشرية التى لاتخلو من الإفراط . ويترتب على هذا بطبيعة الحال أن يرفض سلطة الخليفة ويعترف بالشيخ الصفوى إماما .

خرج الشيخ جنيد الشاب ، فى السنة التالية (١٤٤٨) لجلوسه على بساط المشيخة ، من أردبيل وجاء إلى الأناضول .

جمع حوله بالدعاية عشرات الألوف من التركمان الجهلة . تزوج (١٤٥٨) بأخت السلطان أوزون حسن ، خديجة بغيم السنية - الحنفية الخالصة . كان أوزون حسن سنيا صميما ، ولكنه لعدم وجود نزعة التعصب تجاه الأديان والمذاهب الأخرى لدى الاتراك ، أراد أن يرتبط بهذا الشيخ ليتمكن من جمع الشيعة حوله لمواجهة تركمان قرةقويونلو عدوه الشيعى الذى يريد التخلص منه ، ولم يخطر بباله قط أن هذه المعاهدة سوف تشكل عليه خطرا فى يوم من الأيام .

قتل الشيخ جنيد . تسلم المشيخة (١٤٦٠/٣/٣) بدلا منه ابنه الطفل المولود من خديجة بغيم . سانده كذلك لخاله أوزون حسن . لم يكترث بمذهبه الشيعى أبدا .

قام حيدر الذى ولد فى نيسان ١٤٦٠ فى سراى اقويونلو المملوكة لخاله فى مدينة عامد (دياربكر) ، بإدارة تكية أردبيل بالوكالة و لم يكثر التردد عليها . قتل وعمره (٢٨) سنة (١٤٨٨/٧/٩) . كان قد تزوج فى (١٤٧٧) عند بلوغه سن (١٧) بابنة خاله أوزون حسن ، حليمة علم - شاه بغيم . ولد من هذه الزيجة الشاه إسماعيل فهو بذلك حفيد لأوزون حسن كذلك .

أعلنت فى (١٤٩٤) مشيخة إسماعيل وعمره ٧ سنوات بعد مقتل أخيه الكبير . بدأ تعقب أتراك أقويونلو للصفويين ، بسبب تجمع تركمان الأناضول حول شيوخ الصفوية .

كانت حليمة بغيم التى لم تترك المذهب السنى أبدا ، تقوم بحراسة ابنها إسماعيل الطفل . وبعد نزاع مرير ، طرد الشيخ إسماعيل وعمره (١٥) سنة ، أتراك آقويونلو من تبريز (١٥٠٢) وأعلن نفسه شاها .

أمر بقتل والدته التى ثبتت وأصرت على المذهب السنى ، وحول إيران السنية بالدم والنار ، إلى إيران شيعية . حظر اعتناق المذهب السنى ، وقتل من قبض عليه من الرجال السنيين ، وأرسل النساء والبنات إلى دور البغى .

هزم خاقان تركستان (أتراك الشرق) شاياك خان بن جنكيز ، فى حرب ميدانية وقتله وكسى جمجمته بالذهب الخالص ، وشرب فيها الشراب .

تفوق على المماليك عسكريا واقتصاديا ، وأصبح حاكما للدولة المقتدرة الثانية فى العالم بعد العثمانية . كانت إمبراطوريته تشمل إيران ، شرق الأفغان ، المناطق الوسطى والشرقية من قفقاسيا الجنوبية ، داغستان ، الأناضول الشرقية ، العراق والأحساء فى البلاد العربية .

كانت الدولة الصفوية ، دولة تركية كذلك ؛ فالجيش بكامله يتكون من الأتراك . وجميع ولاة الإيالات ، أمراء تركمان ذهبوا من الأناضول . الشاه إسماعيل ، هو أحد أكبر الشعراء الأتراك .

الشاه فى نظر رعاياه ، وخاصة جيشه شيء قريب إلى الله ، وهناك عدد غير قليل من التركمان الجهلة الذين يعتقدون بأنه هو الله بذاته .

وهكذا قسم الشاه إسماعيل العالم الإسلامى السنى والتركى إلى فريقين . كان قد دخل بين تركيا و تركستان وألقى بمستقبل التاريخ التركى إلى متاهات مظلمة . كان دخوله إيران واستيطانية فيها باقتدار وقوة ، أقوى بكثير من مجيء الفاطميين - فى حينه - من المغرب واستيطانهم فى مصر . وبينما استؤصل المذهب الشيعى من مصر بضربة واحدة من صلاح الدين الأيوبى ، ماتزال إيران حاليا شيعية سواء كانت لغتها الأم تركية أم فارسية . حقق الشاه إسماعيل هذه النتيجة باستيلائه على إيران (التى يشكل أكثريتها السنيون) من حوزة أتراك آقويونلو السنيين .

كان هدف الشاه إسماعيل ، هو تركية العثمانية . إذ إنه كان تركيا . لم يكن الشاه إسماعيل من نسل أوغزخان ، لكنه تربى فى جو تركمانى التقاليد . كان يدرك أن انتصاره النهائى سيحرزه بالقضاء على العثمانية . كان قد جلب كامل جيشه من الأناضول ، وكان لايزال آلاف التركمان يردون سنويا من الأناضول وينضمون إلى جيشه .

كان التركمان ، وخاصة أمراءهم فى الأناضول ، قد فقدوا كافة امتيازاتهم تحت وطأة الإدارة المركزية المركزة ، وأصبحوا مواطنين عاديين ، وكانت امتيازات الإمارة بالنسبة لهم أهم من مسألة المذهب .

لم يترددوا فى الذهاب إلى إيران واعتناق المذهب الشيعى ، بينما كانوا سنيين فى الأناضول ؛ حيث إن والى الإيالة هناك ، يكون قائدا وتستمر امتيازاته كلها . أما فى الأناضول فكانوا تحت إمرة الموظف الصغير الذى ترسله العثمانية من إستانبول . ولا يمكنهم جمع الضرائب وحشد الجنود أو ممارسة السلطة .

أرسل الشاه إسماعيل عملاءه وعيونه ــ الذين يسمى واحدهم « خليفة » ــ إلى الأناضول لإدخال « التركمان » الذين لم يسكنوا المدينة ، ويصبحوا « أتراكا » ، إلى المذهب الشيعى .

من ناحية أخرى ، كان يسعى إلى إضعاف وكسر شوكة الدولة العثمانية فى الأناضول عن طريق الفوضى والإرهاب .

وعلى الرغم من أن مصر كانت حائزة على الخليفة ، والمدن الإسلامية المقدسة والأمانات الإسلامية المقدسة والمؤسسات الإسلامية الكبرى كالجامع الأزهر ، فإنها كانت بالنسبة للشاه مسألة ثانوية ، ذلك أنه كان يدرك أنه عندما تتضعضع العثمانية فسوف تضمحل المماليك . والعكس ليس صحيحاً ، وكان يعلم أن الدولة المملوكية فى حالة انحطاط وفى فترة تدنٍ ، أو هى على أقل تقدير ، فقدت حيويتها ، أما العثمانية ، فإنها تعيش فترة حيويتها ، مستهدفة إقامة الدولة العالمية .

أرسل الشاه ، سفراء إلى البندقية ليخبرها بأنه عازم على القضاء على العثمانية ، وأنه على الدول الأوربية إن كانت تريد الحصول على بعض المكاسب أن تتحرك من روملى . كان يعلم أن البندقية ، هى مركز الدبلوماسية الأوربية .

لم يسع البندقية أن تقبل طلب حفيد حليف البندقية السابق أوزون حسن ، فقد كانت قد خرجت من حرب كبيرة مع العثمانية ، جلبت لها الهزيمة والانهيار الاقتصادى ، وهكذا لم يتيسر للشاه ، فى الوقت الحاضر، أن يجد له حليفا جادا .

قدم الطلب ذاته إلى القاهرة ، ولكن مصر كانت تدرك أنه لو اضمحلت العثمانية فسوف يتسلط الشاه إسماعيل عليها ، فأعرضت عن هذا الشيعى العاصى الذى تنفر منه .

طلب الشاه إسماعيل فى (١٥٠٧) ، إحدى بنات دلقادر أوغلو عبد الدولة بوزقورد بك ، للزواج بها . رفض دلقادر أوغلو تزويج ابنته من شيعى . اتخذ الشاه هذا الرفض ذريعه ودخل أراضى دلقادر . خرب مرعش وألبستان وأحرق جميع قبور سلالة دلقادر الموجودة فى تلك المدن ، وتمكن من القبض على أحد أبناء وحفيدى علاء الدولة وقتلهم . أرسل إلى بايزيد الثانى رسالة يعتذر فيها لاضطراره إلى المرور من الأراضى العثمانية .

كان دلقادر أوغلو علاء الدولة بك ، والد زوجة بايزيد الثانى ووالد أم الأمير ياوز سليم عائشة خاتون . لم تبد القاهرة واستانبول أى رد فعل إزاء مافعله الشاه ، وبناء على ذلك زاد اعتبار الشاه فى الأناضول وفى العالم الإسلامى بصورة كبيرة (١٥٠٨) .

جاء جيش عثمانى مكون من (١١٥٠٠٠) جندى إلى قيصرى . انتظر فيها طيلة سنة (١٥٠٨) تردد الشاه فى دخول حرب ميدانية ، وأرسل إلى البادشاه رسالة يستهلها بقوله : « أبى المبجل والمعظم » وأنسحب إلى عامد (دياربكر) .

جاء رد الفعل من الأمير (الشهزاده) سليم ، والأمير سليم هو حفيد (من ناحية الأم) دلقادر أوغلو علاء الدولة بك الذى فر من بلاده عندما ثار عليه الشاه .

كان سليم-رابع أبناء بايزيد الثانى الثمانية-واليا على لواء طرابزون ، وكانت أمه دلقادر أوغلو عائشة خاتون ، قد توفيت فى طرابزون قبل هجوم الشاه على بلاد دلقادر بقليل (١٥٠٥) ، ودفنت فى الجامع الذى شيدته فى هذه المدينة .

استدعى الشهزاده سليم ، آقويونلو (أصحاب الخرفان البيض) سلطان مراد آخر إمبراطور لأتراك آقويونلو فى إيران الذى طرده شاه إسماعيل من عرشه إلى طرابزون ومنحه وأولاده بيوتا ووظائف .

كان السلطان مراد متزوجا بعمة الشهزاده سليم ، وكانت أخت السلطان مراد ، تاجلى بغيم متزوجة بالشاه إسماعيل ، وكما سنرى سوف تؤسر تاجلى بغيم فى واقعة جالديران من قبل السلطان سليم .

سار السلطان سليم على كرجستان بـ (٣) حملات ، أشهرها حملة **Kütayis** فى (١٥٠٨) .

فتح فى هذه الحملات من الكرج الـ (١٥) قصبة الموجودة حاليا فى الجمهورية التركية ضمن الإيالات: قارص ، أرضروم آرتفين ، وأضافها إلى الأراضى العثمانية بصورة نهائية (بوسوف ، هاناك ، أردخان ، جلدر ، كوله ، إيسبر ، طورطم ، نارمان ، أولطو ، اولر ، شنقايا ؛ شاوشات ، آردانوج ، يوسف إيلى ، مركز آرتفين) . وفتح عدا ذلك آهيسكا وآهيلكلك اللتين بقيتا فى كرجستان حاليا .

أسلم جميع الكرج القاطنين فى هذه المناطق بصورة كاملة .

واحتل كذلك المدن من مخلفات إمبراطورية آقويونلو وهى: بايبورت، آرزنجان ، كاهِ ، إيسبر ، كموشخانه ، جميشكزك (طونجلى) وماجاورها وأضافها إلى لوائه .

أرسل الشاه ، الذى يدعى أنه وريث كل مخلفات آقويونلو ، أخاه إبراهيم ميرزا لاسترجاع هذه الأراضى . استصحب الشهزادة سليم ابنه الوحيد الشهزاده سليمان البالغ عمره (١٢) سنة وسار بسرعة إلى أخى الشاه . عثر على الجيش الصفوى قرب آرزنجان ودمره ، وأسر إبراهيم ميرزا .

أدت انتصارات الشهزاده سليم على الشاه ، الذى يسعى الخاقان جهده لعدم خلق مشكلة معه،إلى إكساب سليم اعتبارا كبيرا ، ولحنت فيه قصائد شعبية مثل:« سر سلطانى سر ، اليوم يومك » .

إن إدراك سليم للخطر الشيعى بهذا الشكل ، وإثباته فعليا قدرته على اتخاذ التدابير وحيازته على لواء فى مكان بعيد كطرابزون ، فتح طريق العرش أمام ابن البادشاه الصغير السن .

بناء على شكاية الشاه ، أملى الديوان الهمايونى على البادشاه رسالة لابنه . أطلق الشهزاده سليم سراح أخى الشاه ، ذلك بالإضافة إلى إخلاء آرزنجان ، وبايبورت ، وكماه وإيسبر وإعادتها للصفويين ، لكنه أعلن أن هذا العمل يعنى انعدام الشرف وأن آرزنجان لم يمض وقت طويل على فتحها على يد يلدرم بايزيد .

استاء الجيش من تسليم أراض للصفويين ، لم يلق تصرف الديوان الهمايونى ارتياحاً سواء لدى الجيش أو شعب أناضول ، أو الشهزاده سليم .

بعد أن نفذ أوامر الديوان وهو غاضب ، ترك سليم لواءه،دون طلب موافقة ، وانتقل فجأة إلى قرم فى خريف (١٥١٠) ، وأبلغ إستانبول بذريعة تهكمية مفادها اشتياقه لابنه الوحيد الشهزاده سليمان ، الذى كان أميرا على لواء كفة فى قرم منذ (١٥٠٩/٨/٦) ، والحقيقة أنه ذهب إلى قرم للحصول على مساندة والد زوجته خان قرم منكلى كيراى ، حيث كان إخوته الكبار قد بدءوا التحرك لوراثة العرش .

١٤ – مسألة الشهزادات (الأمراء) (١٥٠٩ – ١٥١٢) .

خلف بايزيد الثانى (٨) أبناء و(١٩) ابنة . أبناؤه حسب تسلسل أعمارهم هم : أولو شهزاده (١٤٨١ – ١٤٨٣) داماد عبد الله (١٤٦٥ – ١٤٨٣) ،

أولو شهزاده (أى ولى العهد) (١٤٨٣ - ١٥١٢) سلطان أحمد (١٤٦٦ - ١٥١٣) ، شهزاده سلطان قورقود (١٤٦٧ - ١٥١٣) ، ياوز سلطان سليم (١٤٧٠ - ١٥٢٠) ، شهزاده شهنشاه (١٤٧٤ - ١٥١١) ، شهزاده محمود (١٤٧٥ - ١٥٠٧) ، شهزاده محمد (١٤٧٦ - ١٥٠٤) ، شهزاده علم شاه (١٤٧٧ - ١٥٠٢) .

وبوفاة أمير لواء (والى) صاروخان الشهزاده محمود فى أواخر (١٥٠٧) فى مانيسا ، بقى للبادشاه (٤) أبناء أحياء : أحمد ، قورقود ، سليم وشهنشاه . كانت والدة آخرهم قرة مان أوغلو حسن (بضم حرف الحاء) شاه خاتون . ولذا أعطى الشهنشاه عرش قرة مان،أى أصبح واليا (فريق أول ، بكلربك) على قونية ، وقد حكم هذه الأيالات ذات البلايا بدراية تامة - بصحبة والدته - مدة ٢٦ سنة ، (٧) شهر وتوفى فى قونية فى (١٥١١/٧/٢) وعمره (٣٧) سنة ، ودفن فى بورصه . وبناء على ذلك ترك الشهزاده الأخير الذى يمكن أن يرث العرش المسرح فى صيف (١٥١١) ، وبقى المجال للإخوة أحمد ، قورقود وسليم .

كان السلطان أحمد أولو شهزاده ، أى ولى العهد ، منذ سنوات طويلة منذ وفاة أخيه الكبير أولو شهزادة عبدالله فى (١٩٨٣/١١/٦) . وكان واليا (سنجق بك ، لواء) على آماسيا (وبضمنها طوقات) منذ (١٤٨١/٥/٣) . كان السلطان قورقود خان الذى يصغره سنة واحدة رجلا داهية ، له ابنتان ، ومات له ابنان من الأمراء وهما طفلان . أى أنه بلا وريث . وكان ذلك مما يضعف حق ادعائه العرش . تولى قورقود خان لواء صاروخان (مانيسا) مدة (١٩) سنة (١٤٨٣/١٢/٣٠ - ١٥٠٢) ، ومكن لنفسه فى لواء صيغلا (أزمير) خلال هذه المدة . وفى (١٥٠٢) كلف بإدارة ألوية تكه وحميد (أنطالية وإسبارطه) ودفع إلى مناطق أبعد ، مما أدى إلى حالة عدم ارتياح واضحة لدى الشهزاده ، وقد كان ذلك مكيدة دبرها أخوه الكبير الشهزاده أحمد .

كان السلطان قورقود حاميا كبيرا للبحارة الأتراك ، البحرية وصاعقة البحر، الذين يطلق عليهم اسم « قرصان » ، وكان محبوبا من البحرية التركية . لكن البحرية لم يكن لها نفوذ يعتد به فى النظام العثمانى،فى أى وقت من الأوقات ، إذا ماتكلم الجيش .

ترعرع وازدهر أميرالات البحرية التركية العظام فى القرن (١٦) بحماية السلطان قورقود لهم . ومن بين هؤلاء أوروج رئيس ، وأخوه بربروس ، وطرغد باشا .

له مؤلفات بالعربية والتركية فى علوم الفقه ، والكلام ، والأخلاق، والتصوف .

كان الشهزاده عالما وفى ذات الوقت شاعرا ، وخطاطا ، وموسيقارا (فى موسيقى الساز التركية) وملحنا قديرا .

إن الحركات العسكرية المهمة التى حققها أخوه السلطان سليم ضد الصفويين دون حصوله على إذن من إستانبول ، وطبيعة الشهزاده قورقود ، لفتت فى إستانبول أنظار البادشاه ، الديوان (الحكومة) والجيش ، وأصبح واضحا أن جلوس أولو شهزاده أحمد على عرش أبيه لن يقابل بارتياح عند حلول موعد الجلوس .

تحرك قورقود بـ (٨) سفن و(١٣٧) شخصا من معيته من أنطاليا معرباً عن عزمه على الذهاب إلى الحج مقلدا عمه السلطان « جم » لإلقاء الخوف فى قلب أبيه . وفى ٢٩ أيار ، استقبله السلطان قانصوه فى القاهرة باحتفال عظيم جدا . ثم عاد .

لم يستجب طلبه فى منحه ولاية مانيسا القريبة من استانبول والتى ولى فيها سابقا . وأعطيت له إدارة أنطاليا وإسبارطة .

أما السلطان سليم ، فكان يقضى وقته فى قرم . كتب أولو شهزاده أحمد رسالة إلى خان قرم منكلى كيراى ، أبلغه فيها بأنه سوف يشكوه إلى أبيه ويطلب عزله، وطلب إليه أن يترك مساعدته لصهره سليم . لم يلتفت منكلى كيراى لذلك . أصدر الديوان أمره إلى الأمير بالعودة إلى لوائه فى طرابزون ، ولكن السلطان سليم ، إضافة إلى انه لم ينفذ أمر العودة إلى طرابزون ، ترك قرم وانتقل إلى روملى وطلب منحه لواء فى روملى، ولم تكن تعطى ألوية إلى الأمراء فى روملى نهائيا فى ذلك الوقت .

رغم ذلك ، أعطى للشهزاده سليم فى (١٥١١) ، إدارة (٥) ألوية دفعة واحدة (سمندرة ، وفيدين ، وآلاجه حصار ، ونيغبولو، وأيزفورنك) . وطد الشهزاده أقدامه بشكل متين فى ضفاف ألطونة الجنوبية .

كانت الأناضول فى هذه الأيام مسرحا للدم والنار ، وقد فتح ذلك طريق العرش أمام الشهزاده سليم ، باعتباره الشخص الوحيد الذى يمكنه دفع المصيبة الصفوية .

حدث عصيان شاهقولو فى هذه الأيام ، وشاهقولو هذا تركمانى من تكه (أنطاليا) ، أصبح لمدة من الزمن ضابطا سباهيا (خيالا) فى الجيش العثمانى ، ثم هرب إلى إيران بناء على دعوة من الشاه . حيث جرى تعليمه هناك وأصبح خليفة (وكيل مخابرات) فى أعلى المراتب .

جمع شاهقولو حوله جماعة من المهاجرين بعد دخوله خلسة إلى الأناضول . سار الوزير الأعظم على باشا إلى المتمردين . أباد شاهقولو وأعوانه فى الحرب الميدانية كوكجاى بين قيصرى وسيواس ، لكنه استشهد (تموز ١٥١١) . ولقد كان موت على باشا الذى بقى فى السلطة مدة (٧) سنوات وكان مؤيدا للشهزاده أحمد ، عاملا آخر لصالح الشهزاده سليم .

جاء الشهزاده سليم من فيدين إلى أدرنة فى نفس اليوم الذى سقط فيه الوزير شهيدا (تموز ١٥١١) ، وتقدم حتى جورلو . ولما خرج أبوه أمامه ، تشتت وحدات الشهزاده ، وتمكن من الهرب بفضل حصانه العداء المسمى « قره بولوت » أى السحاب الأسود (أوغراش ده ره سى ، ١٥١١/٨/٣) . ولم يتمكن من العودة إلى روم‌للى .

ركب البحر وذهب إلى كفة فى قرم جوار ابنه سليمان .

تقدم أولو شهزاده محمد ، الذى ظن أن الفرصة قد واتته ، إلى مدخل استانبول وجاء حتى مالتبه (١٥١١/٨/٢١) ، لكن الجيش لم يرغب فى دخول ولى العهد إلى استانبول ، فقام بمظاهرات .

أمر الديوان ولى العهد بالعودة إلى لوائه .

جاء السلطان أحمد إلى قونية بدلا من ذهابه إلى آماسيا ، وطرد ابن أخيه محمد شاه (ابن الشهزاده شهنشاه) الذى كان واليا (سنجق بك) على لواء قونية ، وأعلن سلطنته فيها ، وهكذا أصبح فى وضع المدعى ، وفقد صفة ولى العهد الشرعى .

ظن الشهزاده قورقود أنه نال السلطنة عندما أصبح أخوه فى وضع العاصى . وكان يأتى بعده حسب تسلسل العمر ، فجاء فجأة من مانيسا إلى إستانبول . واجتمع بأبيه ، وبالجيش وبالعلماء . أظهر الكل له المودة والاحترام ، لكنهم أبلغوه بأن الحل الوحيد هو جلوس الشهزاده سليم .

جاء قرار تخلى بايزيد الثانى عن العرش نهائيا كمراد الثانى . وقد كان يرغب التخلى لصالح ولى العهد الشرعى أبنه الأكبر أحمد . لكن كون سليم ، الشهزاده الوحيد الذى تعلق عليه الآمال فى دفع البلية الصفوية ، وتمكن سليم من تقديم نفسه للجيش على هذا الأساس ، بالإضافة إلى طبع السلطان أحمد المنافى للسياسة..كل ذلك جعل البادشاه يدرك أنه لن يتمكن من التخلى عن العرش إلى شخص آخر ، غير ابنه سليم ، وقد صاحب ذلك كله أن انتهز الشاه فرصة ترك السلطان أحمد أماسيا وإقامته فى قونية بدون إذن ، فأرسل خليفته المسمى نور على إلى منطقة آماسيا – طوقات . حيث ولد اضطرابات كبيرة ، سببت زيادة سقوط اعتبار السلطان أحمد .

أقام الجيش فى إستانبول مظاهرة كبيرة تؤيد السلطان سليم شاه بصراحة (١٥١٢/٣/٦) .

أدرك السلطان بايزيد أن الدماء ستهدر فى حالة إصراره على ابنه الكبير .

دعى السلطان سليم بصورة رسمية من سمندرة التى يقيم فيها . جاء الشهزاده إلى استانبول فى (١٩) نيسان .

كان السلطان قورقود الذى يكبره سليم بـ (٣) سنوات ، فى استانبول . استقبل أخاه بنفسه وهنأه ، وبذلك يكون قد أظهر قبوله سلطنة أخيه .

كان عمر بايزيد فى ذلك التاريخ (٥/٦١) سنة ، والسلطان أحمد (٤٦) سنة ، السلطان قورقود (٤٥) سنة ، والسلطان سليم (٤٢) سنة .

أعلن السلطان بايزيد فى (٢٤) نيسان وكان مريضا تخليه عن العرش لابنه سليم .

كان السلطان سليم راغبا فى إقامة والده فى السراى القديم فى بايزيد ، لكن السلطان بايزيد رغب فى الإقامة فى سراى **Dimetroka** .

تحرك السلطان بايزيد إلى Dimetoka بعد مكوثه (١١) يوما فى السراى القديم ، ولم يستطع ركوب الحصان لمرضه ، فنقلوه على المحفة .

شيعه ابنه السلطان سليم حتى الأسوار ، وودعه مقبلاً يده .

كان موكبه يسير بطيئا بسبب مرضه ، وكان يستريح فى كل موقف عدة أيام . لم يتمكن من الوصول إلى قرب ديمتوكا ، وتوفى بعد (٣٢) يوما من مغادرته إستانبول فى قرية آبالر فى قصبة حوصة (حفصة) (١٥١٢/٥/٢٦) .

نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن قرب الجامع الذى شيده .

دامت سلطنة بايزيد الثانى (٣٠ سنة ، و١١ شهر ، و٢٢ يوما ، وبعبارة أخرى ٣١ وشهرين و٢٨ يوما) كان قبلها قد عمل وليا للعهد لمدة طويلة جدا (٣٠ سنة ، ٢ شهر ، ٢٨ يوما) . كان طفلا قد أكمل الأشهر الأربعة من عمره ، عندما اعتلى أبوه فاتح العرش للمرة (٣) (على اعتبار الرواية القائلة : إن ولادته (ك ١٤٥٠/١) ، وتقول الرواية الأخرى : إن ولادته حدثت فى (ك ١٤٤٨/٢) . تطلق عليه صفات ولى ، وصوفى، وغازى .

كان شاعرا ، وملحنا ، وعالما ، وخطاطا ، ومذهبا ، وصانع أقواس ، وهو أعلم بنى عثمان بعد أبيه فاتح . أخذ العلم عن علماء وجنرالات على درجة عالية من العلم والقدرة .

كان يجيد الأبجدية الأويغرية ، وتعلم جيدا اللغات الشرقية مع آدابها . وإضافة لذلك أخذ الرياضيات والفلسفة ، والعلوم الدينية عن أعلام تلك العلوم فى عصره . ولمزاياه هذه ، كان لوفاته وقع أليم ليس فى تركيا فحسب ، بل فى العالم الإسلامى أجمع . وعند سماع القاهرة بخبر وفاته ، أقيمت صلاة الجماعة للميت الغائب ، وكان على رأسها السلطان قانصوه.

توطدت واستقرت بشكل كامل فتوحات أبيه الكبرى . حافظ على سياسة والده العسكرية والبحرية ، وعزز الجيش والبحرية وجعلها ضعف ماكانت عليه فى السابق . زود بعض سرايا الانكشارية بالبنادق وأسس أول مشاة من حملة البنادق . كانت له مكانة عالية فى جميع الأقطار الإسلامية ، فى آسيا وفى أفريقياوكانت له مكانة كبيرة فى إيطاليا .

ساند كثيرين من الحكام والفنانين الإيطاليين ماديا بالنقود ، وعندما توسط فى إطلاق سراح دوق Mantova الذى أسره البنادقة نفذ مجلس الأعيان البندقى رغبة البادشاه فى جلسة واحدة (هامر ، ٤ ، ١٠٤) .

كان الشاعر الإيرانى الكبير ، "جامع" المقيم فى هرات ، وشيخ النقشبندية الكبير المقيم فى بخارى يتسلم كل منهما سنويا من السلطان بايزيد مبلغ (٥٠٠) آقجه ، ويمكن قياس عطاياه الأخرى على ذلك .

كان يقرأ بدقة كل مؤلف جديد يهدى إليه ، ويعطى للمؤلف مكافأة تتفق وقيمة الكتاب كأجر عن التأليف ، ويستدعى المؤلفين ذوى الكتب القيمة ويقابلهم ، ولايشجع المؤلفين الذين كتبوا مؤلفاتهم تملقا ومداهنة . كان رحيما ووفيا ومنصفا .

كتب الدبلوماسى الشهير Andrea Gritti الذى أصبح بعدها دوج،أى رئيس جمهور،البندقية ، على أيام بايزيد الثانى باليوز (سفير) البندقية فى استانبول ، يصف البادشاه فى رسالته السرية التى أرسلها إلى مجلس الأعيان يقول (١٥٠٣ ، Cantacasin , Origine des Turcqz ، ص ٥٩ – ٦٢) :

« قامته أطول من المتوسطة ... لايتعاطى الشراب أبدا ؛ كان يشرب فى شبابه ثم تاب بضغط من أبيه ، يأكل قليلا ، يسر جدا لركوب الخيل ... أحب شىء إليه الصيد ورياضات الفروسية . يعظم الشعائر الدينية ويتصدق كثيرا ، يهتم بالفلسفة وعلوم الفلك ... وعدا الوقت الذى يقضيه فى الاطلاع ، فإنه يخصص وقتا طويلا للاهتمام بأمور إصلاح جيشه وتنسيقه وتنميته ... زاد عدد الانكشارية ، جهز جيشه بالأسلحة الحديثة والنارية ، أجرى إصلاحا جذريا خاصة بالنسبة للمدفعيين ونقلة المدافع . يتابع هذه الأعمال بدقة . خيالته وأسطوله ، هما اللذان حققا الأحداث الخارقة التى شهدناها ، فقد نظمها بشكل تستطيع به التجمع والاحتشاد بسرعة » .

لم يشهد عهده تلك الفتوحات الكبيرة جدا ، التى شوهدت على عهد أبيه وعلى عهد ابنه . تمكن خلال (٣٠) سنة من التوسع بمقدار (١٦٠,٠٠٠) كم٢ .

كانت مساحة الإمبراطورية عند وفاته نحو (٢,٢٧٣,٠٠٠) كم٢،والدول التابعة المستقلة ذاتيا ضمن هذه المساحة وهى : إمارة قرم ، إمارة قسيم الواقعة بالقرب من

موسكو ، إمارات أفلاق، بغدان ، والرومان ، جمهورية دبروفنك الصغيرة ، إمارة دلقادر .

أطول من بقى فى السلطة من وزارئه الأعظمين (رؤساء الوزارة) ، هم داماد قوجا (بالتركية : بغدان عن سواحل البحر الأسود بشكل تام وفتحه القلاع .. ولو أنها تبدو وكأنها عمليات صغيرة ، إلا أنها انتصارات إستراتيجية مهمة .

أطول من بقى فى السلطة من وزرائه الأعظم (رؤساء الوزارة) ، هم داماد قوجا داوود باشا (١٤٨٢ - ١٤٩٧) ، خادم عتيق على باشا (١٥٠١ - ١٥٠٣ + ١٥٠٦ - ١٥١١) ، داماد هرسك - زاده أحمد باشا (١٤٩٧ - ١٤٩٨ + ١٥٠٣ - ١٥٠٦ + ١٥١١) . منح الوزارة العظمى (رئاسة الوزارة) (١٤٩٨ - ١٤٩٩) إلى إبراهيم باشا ، كذلك ابن جاندارلى - زاده خليل باشا الذى أعدمه فاتح .

توفيت أمه كلبهار خاتون وهى ألبانية الأصل فى (١٤٩٣) خلال سلطنته وعمرها (٥٨) سنة .

(١٥) السلطان ياوزسليم وإخوته الكبار (١٥١٢ - ١٥١٣) .

كان السلطان سليم ـــ الذى سمي « ياوز » ، أى (شديد) لقسوة طبعه منذ أن كان أميرا ، « سليم شاه » ـــ مضطرا التأمين الأمن والوحدة فى الداخل لحل قضية إيران ، لذا كان يجب عليه قبل كل شيء ، تنحية أخيه الكبير ، الذى لايزال يدعى حق ولاية العرش .

دعا ابنه من كفة فى قرم إلى استانبول ، عند اعتلائه العرش . ترك أولو شهزاده سليمان ، نائبا للسلطنة فى استانبول عندما انشغل بقضية إخوته فى الأناضول،وكذلك خلال فترة حملة إيران الطويلة . كان سليمان ، الابن الوحيد للسلطان ، فى الـ (١٧) من عمره عند جلوس أبيه .

خرج مع (٧٠,٠٠٠) جندى إلى بورصة ، ومنها جاء إلى أنقرة . ترك السلطان أحمد قونية وذهب إلى آماسيا ، ولم يتمكن من البقاء فيها وهرب ، فى اتجاه ملاطية .

أرسل ابنيه إلى تبريز لطلب المعونة من الشاه إسماعيل الذى يتحين الفرصة لهدم تركيا ، والذى تسبب، حتى ذلك ، الحين، فى مقتل آلاف العثمانيين بمؤامراته فى الأناضول .

من الواضح ــ بطبيعة الحال ــ أن مجال النزاع كان واسعا ، ويؤكد ذلك ضخامة العدد الذى استصحبه ياوز من الجنود ، ففلم يكن قليلا عدد الذين يعتبرون السلطان أحمد بادشاه شرعيا لكونه الابن الأكبر ، ومن بين هؤلاء الوزير الأعظم لياوز ، قوجا مصطفى باشا ، وقد أعدم عندما ضبطت مراسلاته السرية مع السلطان أحمد .

استوزر داماد هرسك – زاده أحمد باشا للمرة (٤) وأصبح وزيرا أعظم . فى نفس الوقت لم يكن عدد الذين يخشون قسوة ياوز قليلين .

كان الوضع خطيرا إلى الدرجة التى قضى فيها ياوز شتاء (١٥١٢ – ١٣) فى بورصة دون أن يعود إلى إستانبول .

جرؤ السلطان أحمد على المجىء إلى يني شهر التابعة لبورصة . شتت ياوز قوات أخيه الكبير بسهولة ، فى الحرب الميدانية التى جرت فى (١٥١٣/٤/٢٤) .

خُنق السلطان أحمد بالقوس والوتر بعد أسره ، ودفن فى بورصة وكان عمره (٤٧) سنة .

كان لياوز أخ آخر على قيد الحياة ، وكان أحب إخوته إليه ، وهو السلطان قورقود الذى يكبره بـ (٣) سنوات . كان ياوز قد ولى أخاه السلطان قورقود الذى اجتمع به فى إستانبول على (٣) ألوية مدى الحياة (تكه = أنطالية ، حميد = اسبارطة وميدللى) . وقد طلب قورقود إضافة ألوية صاروخان (مانيسا) ، صيغلة (أزمير) ، آيدن ، منتشه (مغله) أى منطقة إيجه بكاملها ، ولم يجب طلبه .

كان قورقود قد غادر إستانبول ، وأقسم على عدم ادعائه حق السلطنة فى أى وقت من الأوقات ، وذهب إلى أنطالية .

أراد ياوز تجربة أخيه وطلب إلى الوزراء أن يحرروا رسائل بأسمائهم تشوقه إلى السلطنة . تورط قورقود وأرسل أجوبة إيجابية على تلك الرسائل المزيفة . اعتقل إثر

ذلك وأعدم فى (١٥١٣/٣/١٧) ، وقد جرى هذا الإعدام قبل إعدام السلطان أحمد بـ (٣٨) يوما .

أعدم ياوز كذلك أبناء إخوته ، ولم يستبق أى أمير عدا ابنه سليمان وعدة أمراء لجئوا إلى مصر وإيران ؛ ذلك أنه كان يعتقد أن أبناء إخوته سوف يدعون الحق فى العرش فى غيابه عند خروجه لحملة إيران .

(١٦) حملة إيران الهمايونية (١٥١٤/٣/٢٠ - ١٥١٥/٧/١١) .
انتصار جالدران (١٥١٤/٨/٢٣) .

أعلنت الحملة فى (٢٠) آذار، وسار الجيش من أسكدار فى ٢٣ نيسان . وصل قونية فى (١) حزيران واستراح مدة (٣) أيام . زار السلطان سليم ، المولوى كأكثرية السلالة ، مرقد مولانا .

ترك الخاقان فى سيواسى التى جاء إليها قوة مكونة من (٤٠,٠٠٠) جندى ، وواصل السير مع (١٠٠,٠٠٠) شخص :

وصل آرزنجان فى (٢٤) تموز وأرضروم فى (٥) آب .

أحرق التركمانى الأناضولى اسطه جالو محمد خان ، أكبر قواد الشاه ، كافة المحاصيل ، كما أحرق بقدر الإمكان ، المساكن الموجودة على الطريق الذى سيسلكه الجيش العثمانى اعتبارا من آرزنجان إلى تبريز .

تقدم الجيش الهمايونى (الإمبراطورى) بصعوبة . كان يسير أياما عديدة وليست لديه أية أخبار عن العدو . كانت المهمات الثقيلة الأساسية قد أرسلت من إستانبول بواسطة الأسطول إلى طرابزون ، ثم تحركت من هناك إلى آرزنجان وتم إيصالها إلى الجيش . جاء الجيش إلى قصبة بايزيد (دوغو بايزيد) ودخل منها إلى آذربيجان ، ونزل نحو الجنوب - الغربى بمحاذاة نهر زنكمار ، ووصل صحراء جالدران قرب ماكو . كان جبل آغرى على بعد (٥٠) كم نحو الشمال - الغربى ، يتطلع إلى الجيشين العثمانى والصفوى .

إن جالدران هذه التى بقيت حاليا لدى إيران هى موقع فى شرق تبريز ، وهى ليست - كما تذكرها بعض الكتب - جالدران مركز ناحية قضاء مراديه لولاية وان . إن جالدران الأخيرة هذه ، أخذت اسمها كذكرى عن جالدران التاريخية .

كان الجيش الصفوى فى جالدران منذ مدة ، دخل الجيش العثمانى إلى صحراء جالدران يوم (٢٢) آب .

قرر المجلس العسكرى (ديوان حرب) العثمانى الذى اجتمع ليلة (٢٢ - ٢٣) آب ، القيام بالهجوم فجر يوم (٢٣) آب . كان يوم (٢٣) آب يوما من الأيام التاريخية التى ستقرر مصير تركية . لم تكن الدولة قد تهددت حتى ذلك اليوم بخطر خارجى كبير على هذه الدرجة ، عدا تيمور . كان الشاه تركيا كتيمور ، لكن تيمور كان سنيا ـــ حنفيا ، أما الشاه ، فإنه بالإضافة إلى أسرة للأقطار ، كان يريد أسر النفوس والضمائر ، وكان يستعمل لتحقيق ذلك الإرهاب والدم والنار والسيف . كان من الممكن أن يسفر انهزام الجيش العثمانى عن فرض الصفويين التشيع على أناضول الوسطى وإلحاقها بإيران . حيث إن مدينة عرش الصفويين ، كانت مدينة تبريز ، ولم تكن بعيدة جدا كمدينة عرش تيمور فى سمرقند فى تركستان .

فى الحروب الميدانية العثمانية ، يكون البادشاه دائما فى القلب،ويوجد على طرفيه فى الجناحين فيلقان ، تلتحق بها،إضافة لذلك ، وحدات الطليعة والاحتياط القوية جدا .

أما فى الجيش الإيرانى ، فإن الشاه كان فى الجناح الأيمن ، وكان على قيادة الجناح الأيسر والى دياربكر الفريق الأول اسطه جالو محمد خان تركمن ، ولم يكن هناك فيلق مركزى مستقل .

كان الطرفان متعادلان عددا (١٠٠٠٠٠ محارب لكل منهما) ، وكانوا قد أحضروا وحداتهم الممتازة جدا .

كان الخيالة التركمان ، يشكلون معظم الجيش الإيرانى ، وكانوا قد فرزوا حسب ألويتهم وأيالاتهم ، وعلى رأس كل واحد منها أمراء تركمان .

كان فى الجناح الأيمن العثمانى الفريق الأول سنان باشا،الذى كان واليا على الأناضول ثم صار بعدها وزير أعظم ، ورئيس أركان الجيش والى قرة مان الفريق

الأول زينل باشا ، وسباهيون الأناضول التمارلى ، وفى الجناح الأيسر والى رومللى الفريق الأول (بكلربك) حسن باشا وسباهيون روملى التمارلى . وفى المركز ، البادشاه ، والوزير الأعظم داماد هرسك – زاده أحمد باشا،وكانت فرقة مشاة الإنكشارية الثقيلة موجودة مع فرقة المدفعية ، وكانت فرقة صاعقةروملى فى مقدمة المركز .

كانت أسلحة الجيش العثمانى حديثة ، وتجهيزاته أكمل ، لكن الوحدات كانت مرهقة فقد قطعت طريقا مضنيا ، وقضى أكثرية الجند الليلة دون نوم بسبب التوتر الذى ولدته أخبار الحرب التى ستجرى فى صبيحة اليوم التالى .

كان تركمان الشاه ، شيعة متعصبين وفرسانا شجعان ومهرة ، لاهدف لهم سوى التضحية بأرواحهم فى سبيل شاههم ، ولم يكن للشاه مدفعية ولامشاة من حملة البنادق .

أما لدى العثمانية ، فإن الانكشارية الذين يبلغ عددهم (١٠,٠٠٠) – عدا بعض سراياهم – وكذلك وحدات كثيرة من المشاة الخفيفة (العزب ،مجهزون بالبنادق ، ولم يكن المدفع قد أصبح بعد ، لافى أوربا ولا فى آسيا ، سلاحا قطعيا ومؤثرا فى الحروب الميدانية ، وإنما كان يعتبر سلاح قلاع وحصار . وإن كان فاتح قد أثبت عكس ذلك عدة سنوات فى أوطلوق . بلى ان الدولة الوحيدة التى اعتبرت المدفع ، السلاح الذى لايمكن الاستغناء عنه فى الحروب الميدانية ، هى العثمانية .

بدأ جنود صاعقة روملى بالهجوم استشهد كل من ابنى ماقوج أوغلو بيوك بالى باشا فاتح وارشو ، الذى اشتهر بحملاته على بولونيا ، ولواءى الصاعقة أميرى لواء المغاوير الأخوين على بك وتور على بك،الواحد تلو الآخر،لايفصل بينهما غير دقائق . وقد دهش الشيعة التركمان ، الذين لايعترفون بوجود محاربين أقدر منهم ، عند مشاهدتهم الهجوم المخيف الذى شنه جنود صاعقة روملى .

أمر البادشاه بفتح الجناحين على شكل هلال ، وأخذت فرقة المدفعية موضعها ، وأخذت كتائب التركمان الشجاعة ، تتساقط بسرعة بنار المدفعية العثمانية . وبينما كان ياوز يتطلع إلى صحراء جالدران المليئة بعشرات الألوف من جنود الصفويين أغلق فيالقه فى الجناحين الأيمن والأيسر ، وساق فرقة الاحتياطية إلى الأمام ، وأمر بالهجوم

على مركز الجناح الأيمن الصفوى الذى يضم الشاه . جرحت يد الشاه ورجله ، وأخذ يستعد للهرب . خاب ذكر الرجل الذى أفنى « درزنا » (١٢) من الدول خلال (١٥) عاما . دخل بين صفوف الأتراك تركمانى شبيه بالشاه مرتديا لباسه قائلا باللهجة التركمانية ، « شاه منم » (أنا الشاه) ، وتمكن الشاه من الفرار أثناء انشغال السباهيين الأتراك الذين ظنوا أنهم أسروا الشاه .

ضحى (١٤) فريق أول تركمانى فى ساحة القتال وعدد غير معلوم من الضباط برتبة لواء بأنفسهم فى سبيل الشاه . استشهد من العثمانيين فريق أول واحد و(٩) ضباط برتبة لواء (سنجق بك) . على رأس كبار الصفويين الذين قتلوا : الصدر الأعظم الصفوى الباق بك ، ووالى ديار بكر الفريق الأول وأحسن قواد الشاه اسطه جالى محمد خان توركمن ، والقضعسكر (قاضى العسكر) الصفوى سيد حيدر ، ووالى (فريق أول) بغداد وأخو زوجة الشاه خلفاء بك توركمن ، ووالى (فريق أول) خراسان لالابك توركمن ، ووالى عراق العجمى (همدان) تكه لى (أنطاليه لى) يكان بك .

انتقل سرادق الشاه ، وعرشه ، وخزينته التى تضم أكبر الماسات العالمية وزوجته تاجلى خانم لحوزة العثمانية . بقى السلطان ياوز سليم يومين فى ساحة الحرب ، ودخل تبريز بعد مسيرة (١١) يوماً (١٥١٤/٩/٦) .

قرر الشاه عدم إمكان الدفاع عن مدينة العرش تبريز بعد مروره عليها ، وهرب إلى المناطق الداخلية من إيران . كان عدد سكان تبريز فى ذلك التاريخ يتجاوز المليون نسمة ولم يكن فى أوربا – بما فيها إستانبول – أى مدينة بهذا الحجم . كانت تبريز مدينة تركية تماما . تليت الخطبة بالشعائر السنية ، وباسم السلطان سليم (١٥١٤/٩/٨) . أمر ياوز بإرسال نحو ألف فنان وعالم وشاعر من تبريز إلى استانبول ، وألحقهم جميعا فى وظائف فى السراى الهمايونى ، ومكث البادشاه فى تبرير (٩) أيام .

يعتبر أهم شخص أرسله البادشاه إلى استانبول ، هو آخر خاقان لخراسان (هرات) لبنى تيمور السلطان بديع الزمان ميرزا ، وهو الابن الأكبر للسلطان حسين بايقره وخلفه . الذى لجأ إلى سراى تبريز عندما طرده من هرات جنكيز

أوغلو محمد شايباك خان ، ولقى احتراما من الشاه ، وقد أبدى له ياوز احتراما أكثر وخصص له راتبا كبيرا جدا ، وقد أجلس بديع الزمان على عرش أقامه بجنبه ، وتوفى الخاقان التركستانى والشاعر باللغة التركية فى استانبول وعمره ٤٦ سنة (١٥١٥/٨/١٢) .

احتل محمد شايباك خان الذى ينحدر من سلالة جنكيز خان وجوجى أولوسو ، سمرقند كذلك بعد هرات وأخرج بنى تيمور من تركستان إلى الأفغان والهند . تدهورت مدينة هرات ، أكبر مدينة فى العالم (تقريبا ٣ ملايين) بعد هذا الاستيلاء بسرعة ، لكن الشاه إسماعيل انتصر على شايباك خان فى الحرب الميدانية طاهر آباد ، قرب مرو وقتله (١٥١٠/١٢/٢) .

توجه الشاه بعد ذلك ، نحو الغرب ، نحو الأناضول ، إلى العثمانية . وقد كانت الأناضول الشرقية والجنوبية – الشرقية أساساً فى حوزته .

أصيب الشاه بعد جالدران ، بفقدان الأمل والكآبة ، كجده أوزون حسن تماما .

لم تظهر فى تركية مسألة صفوية لمدة (٢٠) سنة ، ولكن لم يتم القضاء على الصفويين،ولا أمكن تخليص إيران من التشيع . إذ إنها كانت دولة شابة فى فترة تأسيسها .

كان هدف ياوز أخذ إيران والدخول إلى تركستان ، ولكنه لم يتمكن فى حملته هذه من تحقيق ذلك الهدف . ظهرت علامات عدم الارتياح لدى الجيش . ولم يرغب فى الحملة على إيران ، وتقرر إرجاء فتح إيران إلى حملة جديدة .

كان مراد خان آخر سلاطين اقويونلو ، قد اشترك فى جالدران فى صفوف العثمانية . أسفرت معركة جالدران عن انتقال الأناضول الشرقية والجنوبية إلى العثمانية عدا القسم الموجود لدى المماليك .

أخذ أمراء الأكراد السنيون الشافعيون ، الذين ظلوا تحت ضغط الشيعة ، فى الانضمام إلى الدولة العثمانية الواحد تلو الآخر .

ألحقت إمارة دلقادر – التى كانت تحت حماية العثمانية منذ (١١٧) سنة – بالحكم المباشر (منطقة ماراش) .

منح ياوز لبنى دلقادر رتبا ووظائف كبيرة ، لكونه من سلالة دلقادر من جهة الأم . عين دلقادر أوغلو علي باشا ، كأول وال (بكلربك) على إيالة دلقادر التى تأسست حديثا ، وهو خال ياوز من الدرجة الثانية (ابن عم أمه) (١٥١٥/٦/١٢) .

استولى والى (فريق أول) آرزنجان بييقلى محمد باشا (سابقا أمير آقويونلى) على مدينة عامد البلدة الكبيرة من الصفويين (١٥١٥/٩/١٩) . قاومت عامد بشدة . كان والى دياربكر اسطه جالو قرة خان تركمن ، أخا لمحمد اسطه جالو بك الذى مات فى جالدران . صان شرف الشاه حتى الممات .

. كسر بييقلى محمد باشا مقاومة الصفويين ، وأباد الجيش الصفوى فى الحرب الميدانية التى جرت فى قوجحصار (١٥١٦/٥/٤) على بعد (١٥) كم من جنوب غربى ماردين . وأصبح أول وال على إيالة دياربكر التى تشكلت حديثا .

لجأ سليمان توركمن خان أخو قره خان إلى ماردين . فتحت ماردين على يد بييقلى محمد باشا بعد أن قاومت حتى (٧ نيسان ١٥١٧) . انتقلت بيره جك الميناء النهرى المهم الواقع على ساحل الفرات الشرق خلال تلك الأيام ، وملكية حصن كيفاء (Hasankeyf) الأيوبية إلى العثمانية . ترك ياوز الملك على عرشه إجلالا لذكرى صلاح الدين الأيوبى . ثم ألحق حصن كيفاء بالحكم المباشر على عهد القانونى عند وفاة الملك .

هبط بييقلى محمد باشا إلى رقة فى سوريا واحتلها كذلك . وهكذا أصبحت الأراضى العثمانية على حدود الدولة المملوكية .

(١٧) بداية حملة مصر الهمايونية (١٥١٦/٦/٥)

مكث السلطان سليم فى إستانبول بعد عودته من جالدران ، مدة (١٠) أشهر ، (٢٥) يوما . وفى (٥) حزيران (١٥١٦) ، عبر إلى إسكدار . تعتبر هذه هى الحملة الأولى والأخيرة لحاكم عثمانى على المماليك ، فعلى الرغم من أن يلدرم بايزيد كان قد احتل بنفسه (ملاطية) من المماليك فإن حملته لاتعتبر حملة مملوكية ،

عين الوزير (٣) بيرى محمد باشا نائبا للسلطنة فى إستانبول . أما الشهزاده سليمان ، فإنه أرسل إلى أدرنه محافظا للعرش والإشراف على رومللى.

من المعلوم أن المماليك كانوا يتحاشون الحرب مع العثمانية ، ويعملون جهدهم لتفاديها ، لكنهم كانوا عازمين على الدفاع عن قطرهم بكل قوتهم .

غادر السلطان « قانصوه» القاهرة فى (١٨ آيار ١٥١٦) وجاء إلى سوريا لغرض التفتيش ، وكان يصاحبه الخليفة المتوكل (٣) وقضاة القضاة للمذاهب السنية الأربعة .

كانت الإمبراطورية المملوكية المصرية ـــ السورية ، الثالثة فى الأهمية فى العالم بعد تركية وإيران .

حمى المماليك سابقا سورية من المغول والإيلخانيين وتيمور بنجاح ، احتلت سورية ، لكنها استعيدت . أما مصر ، فقد كانت تعتبر قطرا مصانا من الناحية الجغرافية .

وفى (٢٣) تموز ، جاء ياوز مع الجيش الهمايونى إلى ألبستان (وتقع بين ماراش وملاطية) ، وكانت لدى المماليك . التأم فى هذا الموقع مع جيش سنان باشا البالغ (٤٠,٠٠٠) جندى . وفى هذه النقطة سوف تتحدد وجهة الجيش،إما تجاه إيران وإما تجاه مصر . وقد كانت رغبة ياوز فى حملة ثانية على إيران ومحوها من الخارطة أمرا معلوما ، وكان الشعب فى القاهرة ، يبارك الفتوحات التى حققها بييقلى محمد باشا على الصفويين ، حتى شهر تموز (١٥١٦) .

لكن السلطان سليم ، اجتاز فى ٢٧ تموز الحدود العثمانية – المصرية وجاء فى اليوم التالى أمام ملاطية . وهكذا اتضح هدف الحملة .

فى (٣٠) تموز اجتمع المجلس العسكرى فى الضفة الجنوبية من نهر Tohma على مقربة من شمال ملاطية . وفى (٣) آب ، حضر بييقلى محمد باشا من دياربكر مع حفيده . وفى (١٨) آب احتل العثمانيون بسنى من أملاك المماليك . وفى اليوم ذاته ، جاء يونس بك والى عينتاب (Gaziantep) أعلى ولاة المماليك فى الأناضول ، وسلم مفاتيح المدينة إلى البادشاه . أما رمضان أوغلو فى جقورأوفا التابع للماليك ، فكان قد فعل ذلك منذ (٢٧ تموز ١٥١٦) . والحقيقة أن رمضان أوغلو

محمود بك ، كان قد أعلن طاعته فى نهاية (١٥١٤) وجاء فى (١٥١٥) إلى إستانبول ودخل فى خدمة العثمانية . وهو الآن يلحق الإمارة بالعثمانية . أعطى البادشاه إدارة أدنة إلى بنى رمضان ، وسوف يظل لواء أدنه لدى بنى رمضان حتى (١٦٠٨) ، وسوف يصبح أمراء هذه السلالة ولاة على الأيالات الممتازة جدا .

وبينما تجرى الأمور على هذا الشكل الذى يصعب على العقل تصوره ، راجع السلطان قانصوه، الشاه إسماعيل وطلب إليه الحملة على العثمانية ، وإلا فإن العثمانية سوف تتجه إلى إيران بعد أن تفرغ من مصر . لكن الشاه،الذى يبدو أنه قد اتعظ بصورة جيدة من الدرس الذى تلقاه ، رفض اتفاق مصر .

(١٨) واقعة مرج دابق (١٥١٦/٨/٢٤)

كانت قد مضت على جالدران سنتان بالضبط . وفى هذه المرة ، تقابل الجيشان العثمانى والمصرى فى مرج دابق (بالعربية : مرج الدابق) . وهى قريبه جدا من حلب .

كان مع الجيش العثمانى (٣٠٠) مدفع ، وكان عدد جيش المماليك (٨٠,٠٠٠) جندى ، لم يتمكن المماليك من الاستفادة من قلة عدد العثمانيين (٦٠٠٠٠) بفضل هذه المدافع الـ (٣٠٠) .

كان نائب السلطنة للشام شباى فى الجناح المملوكى الأيمن ، ونائب السلطنة لحلب خيرباى فى الجناح الأيسر . والسلطان قانصوه،وعمره (٦٦) سنة ، مع الخليفة فى القلب .

كان قانصوه شاعرا فى اللغات التركية العربية والفارسية ومؤلفاً فى العربية ، كان حاكما قديرا وعسكريا قديما ومجرباً .

كان السلطان ياوز سليم فى سن الـ (٤٦) .

كان الجيش المملوكى يتكون من الشراكسة والتركمان ، عدا عدة كتائب من البدو ، كانو محاربين شجعان معتدين بأنفسهم ، فقد كانوا ورثة الجيش الذى نال انتصارات كبيرة على الصليبيين والمغول المشركين .

لكن السلطان سليم أنهى الحرب نحو العصر فى أقل من (٨) ساعات . مات السلطان قانصوه وشباى (Sibey) فى الحرب . أسر الخليفة . انتقلت الخزينة المملوكية والسرادق السلطانى إلى حوزة الأتراك . فر خيرباى ، لكنه أسر بعد مدة .

دخل السلطان سليم حلب بعد (٤) أيام (١٥١٦/٨/٢٨) . كانت إحدى أكبر بلدان العالم ، ومركزا كبيرا للتجارة . أسست إيالة حلب وولى قره جه باشا على حلب . عومل الشعب وكأنه من الرعية العثمانية منذ القدم ودخل الجيش وكأنما يدخل مدينة عثمانية . كان ذلك من معالم سياسة السلطان سليم الإسلامية وسياسته فى الاتحاد الإسلامى .

(١٩) انتقال الخلافة الإسلامية من العباسيين إلى بنى عثمان (١٥١٦/٨/٢٩) .

كان مقام الخلافة الإسلامية ، لدى السلالة العباسية منذ سنة ٧٥٠ أى منذ ٧٦٦ سنة . كان العباسيون حتى (١٢٥٨) فى بغداد . وعلى أثر استيلاء المغول - المشركين فى هذا التاريخ - على بغداد انتقلوا إلى القاهرة وأصبحوا خلفاء تحت حماية السلطان المملوكى . وعندما كانوا فى القاهرة ، لم يكونوا أصحاب دولة أو حكم .

كان المماليك ، بحيازتهم للخليفة ، والمدن المقدسة (مكة ، والمدينة ، والقدس) ينظرون إلى أنفسهم على أنهم الدولة العليا فى العالم الإسلامى . كانت القدس المدينة المقدسة الأولى بالنسبة للأديان المسيحية والموسوية أيضا . كان (٣) من البطاركة الـ (٤) الأرثوذكسيين فى البلاد المملوكية (إسكندرية ، قدس ، أنطاكية) . انتقلت الآن كافة هذه المميزات المعنوية العليا ، إلى العثمانية .

كانت الفكرة فى حملة ياوز على مصر ، أنها تمثل أهم مرحلة من مراحل أفكاره الأساسية فى تكوين الاتحاد الإسلامى : اتحاد إسلام) ، ذلك أنه كان يرى أن مماليك مصر لم يقدروا ولن يقدروا على تحقيق هذا الهدف ، وكان السلطان سليم مقتنعا بأن العثمانية ، سوف توفق إلى تحقيق ذلك الهدف .

وعند عودة البادشاه من مصر ، استصحب معه إلى استانبول كلا من الخليفة

المتوكل على الله (٣) ، أبناء عمومته أبا بكر وأحمد وقاضى القضاة الشافعى فى مصر ، وشخصيات رفيعة أخرى بينها ابن السلطان قانصوه محمد بك وعائلته (ابن إياس ، (٣ ، ١٩ = ٢٠) . لم يعط السلطان سليمان القانونى إذنا بعودة الخليفة إلى القاهرة ، إلا فى (١٥٢١) (ابن إياس ، وقائع ٩٢٦) . وبذلك يكون المتوكل قد عاش فى استانبول مدة (٣) سنين . عاش بعد عودته إلى القاهرة مدة (٢٢) سنة ، ومات فيها فى (١٥٤٣) . كان المتوكل (٣) قد تسلم الخلافة فى (١٥٠٩) عن أبيه المستمسك الذى عزل من مقامه وبقى فى الخلافة (٧) سنوات واستمرت مصر معترفة بالمتوكل (٣) كخليفة بعد وقوعه فى يد العثمانية ، لكنها عينت ابوه المستمسك وكيلا لابنه . سقط المستمسك من الوكالة عندما استولى ياوز على مصر فى السنة التالية . لم يستصحبه البادشاه إلى استانبول لكبر سنه .

كان المتوكل (٣) ، الخليفة الـ (٧٣) ، من سلسلة الخلفاء والخليفة الـ (٥٤) من الخلفاء العباسيين والخليفة (١٧) من الخلفاء العباسيين فى القاهرة . والمتوكل الذى جرده طغرل بك السلجوقى من صلاحياته الدنيوية (وقد قلد المماليك السلاجقة فى هذا الشأن) والذى جعله رئيسا روحيا ورمزا للاتحاد الإسلامى ، كان حفيدا للقائم فى البطن (١٥) ، ولهارون الرشيد فى (٢٣) ، وللخليفة العباسى (٢) ومؤسس مدينة بغداد المنصور فى (٢١) ، وللعباس عم الرسول ﷺ فى (٢٩) ولعبد المطلب جد الرسول ﷺ فى البطن (٣٠) . خلف عدة أبناء ، ولكن السلالة العباسية ، انقطعت بعد ذلك .

وتقول إحدى الروايات : إن المتوكل (٣) تنازل عن الخلافة إلى بنى عثمان فى مراسم جرت فى أياصوفيا بعد عودته مع ياوز إلى استانبول .

من الممكن أن تكون قد حدثت مثل هذه المراسم،ولكنه ينبغى أن تلاحظ أن السلطان سليم قد أصبح خليفة بالفعل عندما كان فى حلب قبل هذه الحادثة .

ومن الروايات التاريخية الأخرى ، أن المتوكل (٣) قلد السلطان سليم السيف والبسه الخلعة فى جامع أيوب سلطان (بالعربية : أبو أيوب الأنصارى) بعد مراسم أياصوفيا ، وقد اشترك فى هذه المراسم علماء الأزهر الذين جلبوا إلى استانبول وعلماء العثمانية ، وأن الخلافة انتقلت إلى بنى عثمان بقرار هذا المجلس .

ولكن المؤكد كذلك أن السلطان سليم قد اعتبر نفسه خليفة فى أول صلاة جمعة فى حلب ، فعندما وصف الخطيب الذى تلا الخطبة باسم السلطان سليم فى أول صلاة جمعة (١٥١٦/٨/٢٩) فى الجامع الكبير فى حلب ، ياوز بوصف « حاكم الحرمين الشريفين » تدخل البادشاه وبدل كلمة « حاكم » إلى « خادم » . والمعلوم أن الخلفاء الذين انحدروا من بنى عثمان ، لقبوا بصورة رسمية حتى ١٩٢٤ بلقب « خادم الحرمين الشريفين » .

خر السلطان سليم الذى لم يتمكن من السيطرة على دموع عينيه ، على الأرض ساجدا سجدة الشكر ، ووضع رأسه على أرض المسجد المرمرى بعد رفعه للسجادة من الموضع الذى يجلس فيه ، فرحا لنيله خلافة الرسول ﷺ الشرعية .

لقد أثار هذا التدين والتواضع الجماعة وكهربها .

خلع ياوز بعد ذلك خلعته التى لاتقدر بثمن وألبسها الخطيب . ثم أمر بنقل الأمانات المقدسة الموجودة فى القاهرة ومكة إلى سارى طوبقابو فى استانبول،وشيد جناح خرقه، شريف (البردة الشريفة) لحفظها ، واكتملت صفة خلافة السلطان سليم بانتقال القدس ، والمدينة المنورة ومكة المكرمة إلى الإدارة العثمانية .

(٢٠) من حلب إلى القاهرة (١٥١٦/٩/١٩ - ١٥١٧/١/٢٢) .

جاء السلطان سليم ، من حلب إلى حماه(١٩ أيلول) ، وإلى حمص (٢١ أيلول) ، وإلى الشام (٢٧ أيلول) . لم يلق مقاومة . بقى فى مدينة عرش الأمويين شهرين و(١٨) يوما حتى (١٥ ك ١) . أمر بإصلاح الجامع الأموى وقبرى صلاح الدين الأيوبى والشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى . وطلب تشييد جامع باسمه (دفن أكثرية بنى عثمان الذين توفوا فى المنفى فى نصف القرن الذى يلى ١٩٢٤ فى حديقة جامع السلطان سليم فى الشام) .

تقدم الوزير الأعظم سنان باشا مع (٧٠٠٠) جندى كوحدة طليعية . التقى بـ (١٠,٠٠٠) جندى مملوكى لجانبرد (وبلغة تركية تركيا : جان ويردى) غزالى فى خان يونس على حدود سيناء ــ فلسطين ، هزمهم فى(١٥١٦/١٢/٢١) ،وتمكن

(١٠٠٠) جندى مملوكى فقط من الفرار إلى مصر . أسر البقية .

غادر السلطان سليم الشام فى (١٥ ك ١) ووصل القدس الشريف فى (٣٠ ك ١) . صلى فى المسجد الأقصى ــ الذى أنير ترحيبا بقدومه بـ (١٢٠٠٠) قنديل ــ ركعتى صلاة الحاجة (فتحنامة ديار عرب v. 33 B) .

تحرك فى اليوم التالى ووصل غزة فى (٢ ك ١٥١٧/٢). واحتفل فيها بالعيد الأضحى وبعد مكوثه (٣) أيام ، ذهب فى (٦ ك ٢) نحو الشرق إلى خليل الرحمن وزار قبر إبراهيم (ع . س) ، وفى (٩ ك ٢) جاء إلى صحراء التيه (سيناء) وبدأ فى اجتياز الصحراء .

تمكن السلطان سليم مع جيش كبير خلال (١٣) يوما (٩ - ٢٢ ك ٢) من تحقيق محاولة اجتياز صحراء التيه ، وهى الصحراء التى لم تحاول أية شخصية عالمية فى التاريخ تجربة اجتيازهاجبرا (حتى تيمور خشى من ذلك) والمشهور عنه أنه اجتاز المسافة بين قطية وقنطرة ، والتى تبلغ (٥٠) كم فى يوم واحد . لكن مسيرة الجند تراجعت فى بعض الأيام إلى (١٨) كم . كان معدل السير (٣٠) كم فى اليوم . كان سنان باشا يتقدم الجيش مع (٦٠٠٠) خيال . كان الأسطول الهمايونى فى شرق البحر الأبيض . وأخيرا تم اجتياز برزخ السويس ودخول مصر . توجه السلطان سليم نحو الجنوب - الغربى واقترب من القاهرة وكان قد تسلم فى (٢١ ك ٢) من سنان باشا تقريرا مفصلا عن النظام العسكرى للمماليك .

(٢١) واقعة الريدانية (٢٢/ ك ٢/ ١٥١٧)

استعد السلطان طومان باى الذى انتخب مكان السلطان قانصوه وأبدى جهودا جبارة فى تجهيز جيشه بشكل تام ، وقام بتحصين القاهرة بصورة ممتازة . كان شخصا جسورا . كانت الخطة المملوكية مبنية على أساس هزيمة ياوز وإجباره على التراجع إلى الصحراء ومطاردته فيها وإبادته ، ثم يكون استرداد سورية بعد ذلك من الأمور البسيطة .

كان عدد الجيش المملوكى فى ذلك العهد ٤٢٦٠٠٠ شخصا ، وبالطبع فانه ليس بالامكان جمع كامل هذه القوه فى حرب ميدانية واحده . كانت القوة الضاربة الاساسية ١٣٣٠٠٠ خيال من الاتراك او الشراكسه المستتركين . وكان لديه ٩٣٠٠٠ بدوى من المتطوعين الذين كانوا لا يستخدمون فى الحروب الميدانية .

كانوا يقومون بالواجب الذى تقوم به الصاعقة العثمانية ، لكنهم لم يكونوا منظمين فى تشكيلات منتظمة كالصاعقة التركيـة ، كما أنهم لم يكونـوا خـاضعين لتنـظيم مركـزى . ومن المعلوم أن البدو يحبون القتال ، ولكنهم أحرار المزاج ، ولاتروقهم الحرب النظامية ، ومن ناحية أخرى ، كان للمماليك جيش مكون من ١٨٠ ٠٠٠ تركمانى وجيش احتياطى يبلغ عدده ٢٠ ٠٠٠ من الأكراد أكثره خيالة ، وكانت هذه القوات تجمع من الأناضول وشمال سورية وتستدعى عند الحاجة ، ولما كان هذان القطران تحت سيطرة العثمانية حاليا ، فقد كان من المتعذر الاستفادة من تلك القوات (خليل الظاهرى ، زبدة كشف المماليك ، منشورات P.Ravaisse باريس ١٨٩٤ ، ص ١٠٤) .

نزل السلطان سليم حتى خط عرض ٣٠ . ولم يسبق لأى بادشاه عثمانى أن نزل إلى تلك الدرجة (نزل القانونى ومراد فقط إلى بغداد فى خط عرض ٣٣) .

كانت الظروف مواتية لصالح المماليك ، فقد كانوا فى قطرهم ، وهم بذلك سوف يدافعون عن أراضيهم التى حكموها بلياقة والتى أقاموا فيها منذ مئات السنين .

ولم يكن العثمانيون أكثر دراية من المماليك بالظروف الطوبوغرافية والاثنوغرافية البشرية والاجتماعية لهذه البلاد ، كما أن الخيال المملوكى لم يكن أقل شجاعة من السباهى التركى ، وكان طومان باى عسكريا شابا نشطاً ومقتدرا .

كان للمماليك ٢٠٠ مدفع حصلوا عليها من العثمانية والبنادقة . لكنها كانت مدافع قلاع ليست سيارة ، ولايمكن مقارنتها بالمدافع العثمانية .

استعمل ياوز فى حملته هذه للمرة الأولى المدافع ذات السبطانات الأخدودية التى يمكن مشاهدة نماذجها حاليا فى المتحف العسكرى فى استانبول ، أما فى أوربا فقد استخدمت هذه المدافع ذات السبطانات الأخدودية لأول مرة فى الجيش البروسى فى ١٨٦٨ .

استعمل السلطان سليم لأول مرة كذلك فى الريدانية ، المدافع المسبوكة حديثا والمجربة التى تطلق من ٥ إلى ١٠ طلقات بين الواحدة والأخرى فترة زمنية قصيرة جدا .

بالإضافة إلى ماتقدم يجب أن نضع فى الاعتبار أن نظام الجيش العثمانى ليس له مثيل فى أية دولة أخرى فى ذلك العصر . إن الدهاء العسكرى للسلطان ياوز سليم خان الذى كان عمره ٤٧ سنة ، لامثيل له .

كان المماليك ينتظرون العثمانيين من ناحية عادلية ، فقد كان هذا هو الطريق الملائم والمفتوح . ولايمكن دخول القاهرة قبل اجتياز الاستحكامات المملوكية الموجودة فيها . كانت فوهات ٢٠٠ مدفع موجهة نحو المستولى فى العادلية ، وكان تقرير الاستطلاع لسنان باشا قد أعلم السلطان سليم بتحكيمات عادلية ، وأن مدافع المماليك مثبتة ولاتتحرك ، وبناء على ذلك وبعد أن أمر البادشاه عدة كتائب بالتظاهر بالهجوم ، نزل بالقوات الكبيرة إلى الجنوب واستدار حول جبل المقطم وأصبح خلف القوات المملوكية . ويعتبر بهذه المناورة التاكتيكية قد انتصر فى المعركة ، وكسب الحرب فى ذات الوقت .

عندما شاهد طومان باى ، الذى كان قلقا من أن ينتهى إلى نفس عاقبة عمه فى مرج دابق والذى رسم خطتهعلى أساس إهلاك السباهيين العثمانيين أمام المواقع الاستحكامية وإفنائهم ؛ .. عندما شاهد العثمانية خلفه ، أدرك حلول العاقبة التى كان يخشاها ، واضطر إلى الخروج إلى الصحراء المفتوحة ومجابهة العثمانيين ، ولم تتمكن المدافع المملوكية الموجهة إلى جهة عكسية من عمل شىء ، لعدم إمكان تحريكها من أماكنها .

أخذ طومان باى فرق خيالة قورتباى وآلانباى الثقيلة المصفحة وحمل بنفسه على قلب العثمانية . كان يروم قتل البادشاه وحل القضية من أساسها . حيث إنه كان قد تحرى وعرف أن خطة العثمانية تتمثل فى إرهاق العدو عدة ساعات ثم تشرع فى القضاء عليه ، فأراد الأ يتيح ذلك للعثمانية . لكن البطولة لم تجد نفعا تجاه المدافع العثمانية .

انسحب طومان باى بعد أن تكبد خسائر جسيمة . أما جانبردى غزالى ، فقد حمل على جناح العثمانية الأيمن ، فأصيب الوزير الأعظم سنان باشا الذى كان يقود هذا

الجناح ، وبذلك يكون غزالى قد انتقم لنفسه من سنان باشا الذى هزمه فى حرب غزة (خان يونس) الميدانية .

مات رمضان أوغلو محمود بك ومبارك كيراى أحد الأمراء القرميين . كما كان بين القتلى كذلك أهم رجال المملوكية .

تكبد المماليك ٢٥٠٠٠ قتيل ومايقرب من هذا الرقم من الأسرى ، وترك السلطان طومان باى ساحة الحرب ، وانتقل سرادقه وخزينته لحوزة العثمانية . كان الوقت مساءً . تفقد السلطان سليم فى اليوم التالى ساحة ردانية (شمالى شرقى القاهرة) . وعين بدلا من سنان الدين يوسف باشا ، الوزير ٢ يونس باشا ، وزيرا أعظم .

(٢٢) فتح القاهرة (٢٤/ك ١٥١٧/٢)

دخل العثمانيون القاهرة فى ٢٤ ك٢ .

كانت القاهرة من أكبر وأغنى مدن العالم . انتقلت الخزينة المملوكية وقسم من الامانات المقدسة لحوزة العثمانية وأرسلت إلى استانبول . مثل فى اليوم التالى محمد بك ابن السلطان قانصوه الذى مات فى مرج دابق بين يدى السلطان سليم الذى أرسله معززا مكرما إلى استانبول ، وقد كان محمد بك قد سعى إلى أن يكون سلطانا مكان أبيه ، لكن أمراء المماليك كانوا قد انتخبوا ابن العم طومان باى ، ولذلك فقد كان محمد بك غاضبا على طومان باى وعلى الأمراء .

حمل طومان باى الثانى على القاهرة فى ٢٨ ك ٢ قبل طلوع الفجر . كان الجيش والسلطان سليم خارج القاهرة ، وكان قد ترك فى المدينة وحدة عثمانية صغيرة . ذبح طومان باى كامل أفراد هذه الوحدة . وحاول الدفاع عن القاهرة بمساعدة الشعب ، وكان معه ١٠٠٠٠ جندى ، جرت مصادمات دموية فى الشوارع والأزقة ، وكان الشراكسة يدافعون عن بيوتهم طابقا فطابقا ، وغرفة فغرفة . هدرت الدماء دون جدوى ، إذ لم يكن بالإمكان دحر العثمانية بهذه الطريقة .

اضطر طومان باى الثانى إلى ترك القاهرة بعد ٤٨ يوما ، ودخل السلطان سليم المدينة بمراسم هائلة فى ١٥ شباط وأمر بسك نقود عثمانية ذهبية باسمه فى معمل نقود المدينة .

أزعج طومان باى العثمانيين كثيرا بحرب العصابات والضربات المباغتة عندما كان السلطان سليم فى القاهرة . وأخيرا دل العرب الذين يكرهون الشراكسة على مكانه ، فأسر .

وضع ياوز عرشا بجنبه وأجلس عليه الحاكم المملوكى . خاطب طومان باى الحاكم العثمانى بكلام خالٍ من اللياقة ، قائلا له: إنه لم ينتصر على المماليك بشجاعته ، وانما انتصر بمدافعه وبنادقه ، فأجابه السلطان سليم متسائلا ، لماذا لم يتزود وهو على رأس دولة كبيرة بهذه الأسلحة ؟ وتلا عليه الآية الكريمة التى تأمر بمقابلة العدو بمثل أسلحته ، وأفحمه .

كان الشراكسة الذين التحقوا بخدمة العثمانيين يخشون نقمة طومان باى ؛ فأخبروا السلطان سليم بأنه لايزال يسعى وراء سلطنة مصر ، وشرحوا له ذلك بإسهاب ، وأقنعوه بوجوب إعدام طومان باى .

سلم طومان باى إلى دلقادر أوغلو على باشا وأعدم على باب زويلة ، وكان المماليك قد أعدموا والد على باشا دلقادر أوغلو شهسوار بك قبل ٤٥ سنة على هذه الباب لصداقته للعثمانية (آب ١٤٧٢) .

وفى ١٦ نيسان ، أقيم لطومان باى احتفال تشييع جثمان لامثيل له ، بحيث لو مات وهو على العرش لما أقيم له مثل هذا الاحتفال . ورغم أن السلاطين الأتراك يحملون فى بعض الأحيان توابيت آبائهم ولايدخلون تحت أى تابوت آخر ، فقد اكتنف السلطان سليم تابوت طومان باى الثانى . وحضر مراسم تشييع الجثمان الرسمى كافة رجال العثمانية والمملوكية . وزع البادشاه على الفقراء – تطييبا لروح السلطان المرحوم – النقود الذهبية لمدة ٣ أيام .

(٢٣) أسباب هزيمة المماليك

كيف انهارت بصورة كاملة وبضربة واحدة ، الدولة العظمى رقم ٣ فى العالم بعد تركية وإيران ؟

تنبأ ابن خلدون ، أحد ألمع العلماء الذين أنجبتهم البشرية ، بالوضع الذى ستأخذه

تركية فى المستقبل وتكهن منذ ١٢٠ سنة ، على عهد يلدرم بايزيد بأن « لاخطر على مصر إلا من بنى عثمان » (ابن حجر ، أنباء الغمر ، ١ ، وقائع ٧٩٧) .

كان الفرق بين مدفعية العثمانية والمملوكية فى حرب ردانية ، فرقا يزيد على نصف عصر . منذ ١٤١٠ ، كان السلطان المملوكى قد طلب من سليمان الأول مدفعيين وبحريين أتراكا ، وأجيب إلى طلبه ، إذ كانت تركية تفوق مصر حتى فى ذلك التاريخ .

وقد كانت عملية إرسال المهمات الاستراتيجية ، والمدفعيين ، والبحارة والفنيين إلى مصر فى عهد بايزيد الثانى ، قد اكتسبت أهمية كبيرة . وعلى سبيل المثال ، أرسل إلى مصر فى ك ٢/ ١٥١١ ، ٤٠٠ مدفع وكميات هائلة من البارود والنحاس . والجنرالات الأتراك الدهاة المقتدرين مثل عروج رئيس ، وسليمان رئيس ، وكمال رئيس . إما أنهم التحقوا بخدمة مصر ، أو قاموا بنقل المهمات الاستراتيجية والموظفين الفنيين إلى مصر ، وأصبحت البحرية المصرية تقريبا تحت إدارة الاميرالات وضباط البحرية العثمانية ، بحيث كان يتوجب على السلطان سليم القضاء على الجيش البرى فقط للدولة التى وضع اليد على أسطولها .

وفى الوقت الذى كان يستقبل فيه السلطان قانصوه فى القاهرة كمال رئيس ، وآيدن رئيس ، وحامد رئيس ، وحسن رئيس بأبهة لاتجرى إلا للحكام ، كان صغير أبناء البادشاه العثمانى شهزاده سليم فى طرابزون مشغولا بتخطيط فتح مصر . وبناء على ذلك ، أصبحت مصر فى النصف الثانى من القرن ١٥ ، مفتقرة إلى العثمانية من ناحية المهمات الاستراتيجية والضباط البحريين . ولأجل حصولها على ذلك ، أظهرت عناية خاصة للتعايش بوئام مع العثمانية التى تقدرها أصلا ، مع فاتح وبايزيد الثانى ، وكانت ترسل من إنطاليا إلى الإسكندرية فى كل سنة سفنا مليئة بالأخشاب والحديد والنحاس ، والكبريت ، والزفت ، والأسلحة النارية وأمثالها من المواد المشغولة .

وعندما نشبت حرب عثمانية مملوكية موضعية على عهد بايزيد الثانى دامت ٦ سنوات ، وبالرغم من أن هذه الحرب قد انتهت بتفوق المماليك فإن الجيش والأسطول المملوكى حرما من المساعدات العثمانية . وقد بذل السلطان قايتباى الذكى جدا ، مابوسعه — من اتصالات واجتماعات بصهر بايزيد الثانى أحمد باشا سلطان تونس يحيى — لإنهاء هذه الحرب .

ولقد جنت النزعة الخيالية وعدم الاعتراف بالواقع على المماليك ، فقد كانوا مغرورين بحيازتهم للمدن المقدسة ، والخليفة ، الأمانات المقدسة ، والأزهر مركز العلوم الإسلامية ، ولم يتنازلوا عن فكرة أن فرسان الترك والشركس ، أشجع الجنود ولايمكن قهرهم ، كانوا يظنون أنهم يعيشون على عهد السلطان بيبرس . يحتمل أن جيوشهم لم تكن أقل من ذلك العهد ، لكنه على الناحية الأخرى كان الجيش العثمانى قد اجتاز ذلك العهد منذ زمن بعيد ودخل القرون الحديثة .

عاشت مصر فى راحة واسترخاء دون أن تتعرض لخطر استيلاء ، مدة قرن كامل منذ أن تجاوزت الخطر التيمورى . أما العثمانية فكانت فى حرب دائمة فى كل لحظة ، ولم تكن تحارب دولة واحدة ، بل كانت تحارب دائما خمس دول أو عشر وأحيانا عشرين أو ثلاثين دولة . وفى وضع كهذا ، كانت وجها لوجه أمام ضرورة قهر أعداء العثمانية . ولم تبال بالتضحية بكل شيء فى سبيل إقامة جيش قوى وأسلحة متفوقة ، ومن ثم فقد فرضت كل هذه الظروف على العثمانية القتال المستمر وعدم الراحة أو الاسترخاء .

وبينما كانت القوة المادية والأدبية للعثمانية فى تعاظم كانت مصادرها الاقتصادية غير متناهية . ماليتها قوية . أصبح القدوم من كافة أنحاء العالم الإسلامى والحصول على وظيفة لدى العثمانية ، من الأمور المشرفة بالنسبة للمسلمين ذوى الخبرة .

لقد درس السلطان طومان باى بصورة جيدة أسباب الهزيمة التى منى بها عمه فى مرج دابق ، وأدرك نوعية السلاح والتكتيك الذى تفوقت به العثمانية ، وأراد تعليم جيشه تكتيك الحرب الميدانية العثمانية ، لكن الوقت كان متأخرا ، فقد كان ياوز يسير إلى مصر فى هذه الأثناء . كان الوقت قد فات منذ زمان بعيد .

وبالإضافة إلى الاسترخاء الناشيء عن عدم وجود أى خطر خارجى يهدد المماليك بعد تيمور ، كانت الدولة المملوكية تعيش دور الانحطاط والعثمانية تعيش دور الفتوحات . كانت الخطوط المميزة للدورتين فى حياة كافة الدول ظاهرة فى كلا الطرفين . يضاف إلى ذلك التفوق النوعى لحكام العثمانية ، فحكام المماليك فى هذه الفترة لايمكن مقارنة إمكاناتهم الشخصية بالحكام العثمانيين فى الفترة ذاتها . وعنصر آخر ، يتمثل فى طريقة تولى العرش فالحاكم العثمانى يصل إلى العرش بالوراثة وفى ذلك مافيه من التمكين على خلاف السلطان المملوكى الذى كان يصل إلى العرش فى هذه

الأونة من خلال موافقة أمراء المماليك ، وفى ذلك مافيه من الصراع الذى يؤثر على الحاكم وإطلاقاته وصلاحياته .

وأخيرا ، كان المماليك صنفا يستشعر الامتياز ، وكانوا لايزيدون على عدة من مئات الألوف من الأشخاص ، ولم يكونوا ملتحمين بالشعب ، وكان السلاطين يتكلمون التركية ، وأكثرهم لايفهم العربية . فمثلا ، كان قلاوون – وهو من السلاطين المتأخرين – يفهم العربية بصعوبة ، وكان للمماليك امتيازات كبيرة كفئة إقطاعية ، وقد استمرت هذه الامتيازات فى العهد العثمانى إلى أن قضى عليها محمد على باشا . أما الدولة العثمانية فقد كانت كيانا سياسيا مندمجا فى الشعب وغير معزول عنه .

شىء آخر ، هو أن الاقتصاد المملوكى كان قد تدهور ، ولم يعد كما كان فى العصور السابقة ، بحيث أصبح لايمكن مقارنته مع مصادر العثمانية الاقتصادية والمالية .. تلك هى الخطوط الرئيسية للهزيمة المملوكية .

(٢٤) الحاق الحجاز وتسليم الأمانات المقدسة (٦ تموز ١٥١٧)

رسا الأسطول الهمايونى المكون من ٣٠١ قطعة فى ميناء الإسكندرية فى ١٩ آيار ١٥١٧ . خرج السلطان سليم من القاهرة فى ٢٨ آيار لتفتيش الأسطول . قضى معظم أيام سياحته التى بلغت ١٥ يوما ، لحين قدومه إلى القاهرة فى ١٢ حزيران ، فى الإسكندرية . زار المدن فى الدلتا . رافقه ٥٠٠ إنكشارى . مكث الأسطول فى الإسكندرية مدة ٥٧ يوما ، وفى ١٥ تموز ، استصحب معه ١٨٠٠ من أعيان ووجوه المصريين وغادر متوجها إلى استانبول . أرسلت جمهورية البندقية سفيرا إلى السلطان سليم الموجود فى القاهرة ، أعلمه بأن الـ ٨٠٠٠ ليرة ذهب التى تسدد سنويا لمصر عن قبرص سوف تسدد بعد الآن إلى العثمانية .

أرسل أمير مكة الشريف بركات الثانى (١٤٩٧ – ١٥٢٥) ابنه الكبير محمد أبى نمى إلى السلطان سليم فى القاهرة (وفاته ١٥٨٣) . سلم أبو نمى مفاتيح مكة ، المدينة ، الكعبة والروضة المطهرة والأمانات المقدسة الأخرى الموجودة لدى الأشراف إلى السلطان سليم ، وعرض عليه دخول الحجاز تحت حماية العثمانية (١٥١٧/٧/٦)

(فتحنامه ديار عرب ، V . 66 a-b) . إن أهم مافى الأمانات المقدسة ، الراية الشريفة والبردة (خرقه سعادت) . خطّى يد على (ر.ع) وعثمان (ر.ع) ومصحفان . أرسلت جميعها إلى إستانبول وحفظت فى جناح « خرقه شريف » الذى شيد خصيصا لها فى سراى طوبقابو ، ومازال موجودة فيه .

تشكلت هيئة برئاسة القضعسكر (شيخ الإسلام فى المستقبل) كمال باشا - زاده أحمد شمس الدين أفندى ، ومشاورة خير بك ونظمت إيالة مصر بالصورة الملائمة للنظام العثمانى . وتقرر أن تحتل مصر الدرجة الأولى فى قائمة تشريفات الإيالات فى الإمبراطورية (كانت روملى تحتل المرتبة الأولى حتى ذلك التاريخ) . لم تتغير مرتبة الأولوية لمصر واستمرت حتى تاريخ الانفصال النهائى لمصر عن الامبراطورية فى نهاية سنة ١٩١٤ . أصبح الوزير الأعظم يونس باشا (١٥١٧/٤/١٠ - ١٥١٧/٨/٢٩) أول وال (بكلربك ، فريق أول) على مصر ، وعلى أثر إعدامه جيء بدلا منه بخير بك باشا أحد رجال المماليك القدامى .

كانت خريطة العالم السياسية قد تغيرت من أساسها ، عند إقامة ياوز فى القاهرة ، وهذا التغير سوف يظل مستقرا قرونا طويلة .

تغلغل النفوذ العثمانى فى السودان ، وليبيا والجزائر .

عرض سفراء اليمن الذين جاءوا إلى القاهرة ولاءهم وتابعيتهم إلى السلطان سليم ، وقد كانت فى زبيدة منذ مدة حامية عسكرية عثمانية . عين جركس حسن ، أول وال على اليمن .

فتح كوجوك سنان باشا خلال هذه الأيام مصّوع ، ميناء إرتيرة (The Bloss History of Suakin ١٨٧) .

كان الأسطول المملوكى يشرف على البحر الأحمر ومتحفزا تجاه البرتغاليين الذين بدءوا فى التسلط عليه .

كان كمال رئيس قد جاء إلى مصر ونظم الأسطول المملوكى على عهد السلطان قانصوه وبإذن من بايزيد الثانى ، وقد عين سلمان رئيس لقيادة هذا الأسطول وحسين رئيس مساعدا له ، وبوفاة كمال رئيس(١٥١١) ، جاء ابن أخيه محيى الدين بيرى رئيس وأصبح رئيس ملاحي (قبودان) سلمان رئيس .

احتل سلمان رئيس عدن فى ١٥١٦ وأراد غلق باب المندب ، ولما لم يوفق فى ذلك عاد ودخل ميناء جدة . وخلال وجوده فيها فى شباط ١٥١٧ ، علم بانتصار السلطان سليم فى ردانية . سأل السلطان سليم عما يأمر به . أمر البادشاه بأن يبقى فى جدة مع ٥ سفن ، وأن يرسل الـ ٣٠ قطعة من سفن الحرب إلى القاهرة القاعدة البحرية الكبرى للمماليك . أمر السلطان سليم بتوسيع معمل السفن فى القاهرة وإنشاء سفن جديدة فيها . عين سلمان رئيس أميرالا على البحر الهندى .

وبقدر ماأحدث فتح مصر وهزيمة المماليك - التى تعتبر من الدول التى لايمكن أن تقهر - تأثيرا فى العالم الإسلامى ، أحدث فى أوربا كذلك تأثيرات كبيرة جدا . إن ردانية ، تعتبر الخطوة نحو الدولة العالمية الكبرى . سيطرت الدولة العثمانية على شمال وشرق أفريقيا بشكل واسع جدا ، وانفتحت نحو المحيط الهندى . أخاف هذا الانتصار أوربا ، كما مهد للسلطان سليم السبيل إلى تحقيق أعمال كبيرة فى الشرق . وقد أراد النزول إلى السودان والحبشة ، لكن الرغبة كانت شديدة لدى الجيش فى العودة إلى أوطانهم . مكث البادشاه والجيش الهمايونى فى مصر ٨ أشهر (إلا يومين) .

غادر السلطان سليم القاهرة (١٥١٧/٩/١٠) وجاء إلى الشام (٧ ت ١) . جاء الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) الجديد بيرى محمد باشا من استانبول إلى الشام (١٥١٨/١/٢٥) وقابل البادشاه . جاء سفراء الشاه إسماعيل فى ١٥ شباط وطلبوا الاتفاق على معاهدة صلح نهائى . أعاد ياوز السفراء ، فقد كان عازما على فتح إيران وتركستان . مكث فى الشام مدة ٤ أشهر ، و١٦ يوما ونظم تشكيلات الأقطار السورية ايضا (قضى الـ ١٥ يوما الأولى فى مقر الجيش خارج الشام . تحرك من الشام (١٥١٨/٢/٢٢)، وجاء إلى حلب (١٥١٨/٣/٥) وبقى فيها مدة شهرين ويومين . جاء إلى عينتاب (Gaziantep) (١٥١٨/٥/١٧) . وأرسل بعد يومين بيرى باشا إلى العراق .

عاد السلطان سليم إلى استانبول (١٥١٨/٧/٢٥) من حملة مصر (أطول حملة فى التاريخ العثمانى) بعد سنتين وشهرين . عاد وهو فاتح للاقطار التى يعيش فيها اليوم ١٢٠ مليون نسمة ،وحائز على الخلافة الإسلامية . كان « خادما » للبلدان المقدسة . كانت استانبول قد حرمت من سلطانها مدة سنتين . وقد علم أن شعب

استانبول أعد مراسم كبيرة للاستقبال ، فخجل من الخروج أمام حشد كهذا يصفق له . انتظر حتى حلول الليل ، واجتاز بالقارب خلسة إلى سارى طوبقابو ، ولم يعلم الشعب أن سلطانهم فى السراى إلا فى اليوم التالى .

وعلى بساطة هذا الحادث ، فانه يشير إلى العلاقة بين تواضع السلطان وعظمة الدولة ، وقد كانت هذه العلاقة بين عظمة الدولة وتواضع السلطان ملحوظة فى الدولة العثمانية ، ويتضح ذلك جليا عند مقارنة حرص السلاطين على المظاهر والتظاهر فى فترة انحطاط الدولة العثمانية .

مكث ياوز ١٠ أيام فى استانبول وتحرك إلى أدرنة خلال ٩ أيام (١٥١٨/٨/١٣) . واجتمع بابنه الشهزاده سليمان محافظ العرش فى روملى المقيم فيها ، وأرسله إلى لوائه مانيسا . جدد معاهدات الصلح مع البندقية والمجر . وأخذ يستعد لحملة إيران الثانية .

عاد كذلك الوزير الأعظم بيرى محمد باشا من حملة العراق وجاء إلى أدرنة (١٥١٨/١٢/٢٠) .

فتحت هذه الحملة ألوية الموصل ، كركوك وأربيل من الصفويين . وهكذا اقتربت الحدود العثمانية إلى ١٠٠ كم من شمال غرب بغداد . وانتقلت بادية الشام بكاملها إلى الحكم العثمانى .

(٢٥) وفاة السلطان ياوز سليم (١٥٢٠/٩/٢٢) وشخصيته

غادر الخاقان أدرنة فى ١٨ تموز ١٥٢٠ متوجها إلى استانبول . كان يعتزم التوجه من استانبول إلى أسكدار ويخرج منها فى حملة ، لكنه لم يتمكن من الوصول إلى استانبول وتوفى مساء ٢٢ أيلول ١٥٢٠ نحو وقت المغرب فى طريق أدرنة فى السرادق الهمايونى فى قرية صرت Sirt بسبب التأخر والخطأ فى مداواة القرحة التى كانت فى ظهره والتى تسمى (شيربنجه) . لم يكن قد أكمل الـ ٥١ من عمره . دامت سلطنته ٨ سنوات و٤ أشهر و٢٨ يوما وخلافته ٤ سنوات و٢٣ يوما . ترتيبه الـ ٧٤ بين خلفاء المسلمين . لم يعلن خبر وفاته لمدة ٩ أيام لحين قدوم ابنه من مانيسا .

نقل جثمانه إلى استانبول ودفن فى قبره الكائن بالقرب من جامع السلطان سليم الذى شيده ابنه باسمه وهو كجده فاتح ، يرقد فى هذا القبر وحده .

له ديوان باللغة الفارسية أشعاره التركية قليلة ، وهو أحد أفضل الذين استعملوا الفارسية من الشعراء العثمانيين . له أشعار باللغة العربية كذلك . درس الرياضيات ، والفلسفة ، والآداب ، واللغات الشرقية والعلوم الإسلامية وتعمق فيها ، وكان عالما فى بعض بحوثها . ولى على طرابزون وعمره ١٧ سنة ولمدة ٢٤ سنة (١٤٨٧ - ١٥١١) . اشتهر فيها بحملاته على إيران وكرجستان . وطأت له هذه الشهرة الجلوس على العرش رغم إخوته الكبار . توفى أحد أبنائه (أورخان) وعمره ١٠ سنين ، ومات ابناه الآخيران (موسى وقورقود) وهما طفلان . وعند اعتلائه العرش كان له ابن واحد هو شهزاده سليمان . وإلى اليمن أويس باشا (وفاته ١٥٤٦) ابنه من جارية ، بناته خديجة ، حفصة ، فاطمة وشاه سلطان .

نقل جثمانه إلى استانبول بيرى محمد باشا على رأس الجيش الهمايونى . استقبل السلطان سليمان الجثمان عند أسوار استانبول ودخل تحت التابوت . جىء به على الأكتاف إلى جامع فاتح حيث أقيمت صلاة الميت .

قبيل وفاته كانت ١٥٠ سفينة فى حالة إنشاء فى مصنع السفن فى استانبول ، ويحتمل أن هذه السفن كانت تعد لحملة لفتح رودس .

عاش أطول من جده فاتح سنة واحدة ، لكن جلوسه على العرش لم يكن بقدر مدة جده فاتح .

قام خلال ٨ سنوات بأعمال لايستوعبها العقل ، وجعل من الامبراطورية العثمانية دولة عالمية حقيقية كبرى (١٥١٧) ، وحافظت الدولة العثمانية على فتوحاته مدة ٤ قرون . ترك دولة مخيفة لأعدائها تمتد بين فاس وحضرموت ، سوذان وروسيا . كان هدفه أن يحقق فى إيران ماحققه صلاح الدين الأيوبى فى مصر من حيث القضاء على الحكم الشيعى - الذى لم يكن قد أكمل بعد سنته الـ ٢٠ ، والسعى لإقامة الاتحاد الإسلامى ، والوصول إلى طوران ، تركستان والهند . دخلت السياسة الخارجية العثمانية بعده فى غير المجرى الذى رسمه لها ، ولم يتحقق هذا المشروع .

كان متوسط القامة أقرب إلى الطول ، قاصب الحاجبين ، شديد النظرات ، غير

ملتح ، طويل الشاربين ، عصبيا ، جسورا ، صيادا ماهرا ، فارسا ماهرا فى استعمال الأسلحة .

ترك التقاليد ولم يلتح حتى وفاته (كان قد منع إطالة اللحية بالنسبة للأمراء أبناء السلاطين أو أبناء أبنائهم) كان مولويا ومؤمنا بفلسفة وحدة الوجود . أبدى احتراما كبيرا لمحيى الدين بن العربى ومولانا جلال الدين الرومى . يظهر من قراءته بواسطة النظارات أنه كان مصاباً بمرض طول النظر (Hypermetropia) (كان تيمور كذلك يستعمل النظارات وقد شاهد الأوروبيون أول نظارة عندما استعملها تيمور) . كان يجتمع بالعلماء والفنانين ويتباحث معهم ، لم يكن يسمح أبدا بدخول المشروب إلى هذه المجالس ، كما كان يفعل بعض خلفاء الأمويين والعباسيين والعثمانيين . يمتاز لباسه بالبساطة التامة عدا المراسم الكبرى . سخر من ابنه سليمان الذى يحب الزركشة فى اللبس . له ولع شديد بالخيل ويملك أرق أنواع الخيول فى العالم . يسير أمور الدولة ضمن منهج وخطة مدروسة ، يستشير ثم يتوصل إلى قرار ، ويعاقب الذين لايمتثلون لهذا القرار بالإعدام أحياناً . كان مطلعا بشكل فائق على السياسة العالمية ، وكان لايستغنى ولايترك أبدا قطع خريطة العالم التى رسمها بيرى رئيس (إحدى هذه القطع هى خريطة أمريكا المحفوظة حاليا فى سارى طوبقابو) . كان يعنى ببقاء الخزينة مليئة فى جميع الأوقات . مصاريفه الشخصية لاتذكر . دهاؤه العسكرى لامثيل له ، ولايفوقه فى هذا المجال غير الفاتح فقط . رجل دولة رائد ، ويأتى ترتيبه كسياسى وخبير فى السياسة الخارجية .. بعد فاتح وابنه سليمان القانونى ، ويمكن القول بأنه أعلم سلاطين بنى عثمان بعد جده الفاتح وأبيه بايزيد .

اعتلى العرش وهو يرث إمبراطورية تمتد على أراض مساحتها ٢٣٧٣٠٠٠ كم^2 ؛ منها ٥٩٦٠٠٠ كم^2 فى آسيا (الأناضول) ، والبقية فى قارة أوربا (١٧٧٧٠٠٠ كم^2) . أما الامبراطورية التى تركها لابنه عند وفاته (١٥٢٠) فقد كانت تمتد على أراض مساحتها ٦٥٥٧٠٠٠ كم^2 ؛ ١٧٠٢٠٠٠ كم^2 فى أوربا ، ١٩٠٥٠٠٠ كم^2 فى آسيا ، ٢٩٥٠٠٠٠ كم^2 فى أفريقيا . ويعنى هذا إن مقدار الاتساع يبلغ ضعفين ونصفا خلال ٨ سنوات .

كانت قد تأسست فى أفريقيا ، إيالة مصر العظيمة التى تمتد إلى ليبيا ، والسودان وبلاد الحبش ، وإيالة جزائر التى سيأتى ذكرها فيما بعد . وكان الاتحاد الأناضولى

قد تحقق تقريبا ، وألحقت ولايات أدنة ، غازى عنتب ، هاتاى ، أورفة ، دياربكر ، ماردين ، سعرت ، موش ، بينغول ، بتلس ، طونجلى ، أرزنجان وكموشخانه . وقد أخذ قسما من ولايات حكارى وأرضروم وسوف يجرى القانونى بعد عدة سنوات التعديلات الأخيرة ، ويضع النقاط على الحروف ، وسيلحق بالدولة مناطق ولايات أرضروم ، وأرتفين ، وآن ، وآغرى التى لم تلحق ، ويحصل على الحدود الحالية . كانت حدود الدولة فى تلك الأيام تمتد بين أفريقيا الوسطى ، وأوربا الوسطى وجنوب موسكو ، وبإلحاق إمارتى دلقادر ورمضان ، أصبحتا آخر إمارتين تذكرنا بعهد الإمارات التركمانية فى الأناضول ، فى ذمة الماضى .

« أصبحت تركية على عهد ياوز سليم ، دولة عالمية .. دولة عالمية كبرى حقيقية ، ومع أنه ترك الحرية لأوربا فإن فتوحاته التى لاتعد ولاتحصى فى آسيا وأفريقيا ، جعلت من الدولة دولة عالمية كبرى . كان البحر الأبيض على وشك أن يصبح بحيرة تركية ، ووصل إلى المحيط الهندى » (L'Empire du Levant, Rene GRousset ٦٤٢ — ٤) .

(٢٦) منشأ الأخوة بربروس (١٥٠٠ - ١٥١٣)

والد الأخوة بربروس ، هو أبو يوسف نور الله يعقوب آغا . وقد كان هو وأبوه عبد الله آغا تمارلى سباهى (أى ضباط فروسية) . جاءوا من قاراسى (بالكسير) وأخذوا تمار (أراض تعطى من قبل الدولة لإصلاحها) فى شبه جزيرة غاليبولى ، إيجة آباد (مايدوس) ، ثم فى فاردار ينيجه سى (تراقيا الغربية) . وعلى أثر اشتراك يعقوب آغا ، فى فتح فاتح لجزيرة ميديللى فى ١٤٦٢ ، أعطيت لهم فيها أراض أوسع . استوطن فى ميديللى وتزوج بإحدى بناتها ، وأنجب ٥ أبناء ، ٤ منهم اشتهروا فى التاريخ ، وأسماؤهم حسب التسلسل إسحق ، أوروج ، خضر ، إلياس ، وفرق العمر بينهم قليل جدا . إن لقب « بربروس » الذى أطلق على هؤلاء الإخوه وخاصة على أشهرهم أوروج وخضر ، هو لقب يعتقد أنهم لقبوا به لكونهم حمر اللحى .

كان وضع المغرب ، (العالم العربى الغربى بخطوطه الرئيسية) فى النصف الأول من القرن ١٦ قبيل تدخل الإخوة بربروس فى أفريقيا كما يلى :

كانت إمبراطورية فاس فى هذه المنطقة دولة كبيرة ، وكانت تشمل أقصى غرب المنطقة بين البحر الأبيض والأطلسى . (بالعربية : المغرب الأقصى) .

كان الوطاسيون (فرع المرينيين البرابرة المستعربين) يتنافسون على فاس مع شرفاء السعدية .

كانت فاس التى تمتد فى الجنوب بشكل واسع نحو أفريقيا قد فقدت مجدها الذى كانت عليه على عهد المرابطين ، والموحدين ، والمرينيين الأوائل ، وانشغلت بالفوضى الداخلية ونزاع السلالات .

وبالإضافة إلى أنها لم تثبت وجودها فى الدفاع النهائى عن الأندلس ، فإنه لم يكن بإمكانها التصدى لتسلط الأسبان على شمال إفريقيا وسواحل الأطلسى لفاس . لكن الدولة الأكثر اقتدارا والأقوى مكانة ، كانت المغرب ، وكان الاستيلاء عليها من الخارج صعبا .

كانت السلالة المسماة عبد الواد أو زيانى، تحكم غرب الجزائر ومدينة عرشها تلمسان . وكان هؤلاء فقدوا قوتهم منذ زمن بعيد ، وكانوا عاجزين عن الدفاع حيال الهجوم الأسبانى .

وفى تونس ، كان الحفصيون .

تأسست السلطنة الحفصية فى ١٢٢٨ ، وبمضى الوقت تدهورت وضعفت ، وكانت تحافظ على بقائها بالتعايش مع الأسبان . وبحكم موقع تونس جنوب صقلية ، فإن أسبانيا التى تسيطر على صقلية ونابولى ، كانت تشكل خطرا على تونس .

كان وضع الجزائر الوسطى والشرقية ضعيفا تماماً . وكذلك قبيليّة فى الجنوب . كان شيوخ البرابرة المستعربون فى نزاع قتّال ، وكل واحد منهم يسعى لإفناء الآخر ، وليس من بينهم من يحمل صفة الحاكم . وبذلك يمكن القول بأن قطاع ساحل الجزائر كان مفتوحا وميسرا لاستيلاء الأسبان .

كانت كافة هذه الأقطار سنية – مالكية ، ولم يكن هناك حنفيون لعدم مجىء الأتراك ، وفى ذلك التاريخ ، كان معظم السكان ينطقون باللغة البربرية ، وهى لغة حامية ، وكانت العربية تكاد تكون خاصة بالمدن .

غادر الكاردينال Ximenés مع ٣٣ سفينة حربية و٥١ سفينة نقل تحمل ٢٤٠٠٠ جندى أسبانى ، ميناء قرطاجنة فى جنوب أسبانيا واحتل ميناء أوران (بالعربية : وهران) فى الجزائر الغربية (١٥٠٩/٥/١٦) ، ذبح ٤٠٠٠ مسلم وساق البقية كعبيد إلى أسبانيا . أصبحت وهران أهم قاعدة للأسبان فى شمال أفريقيا . بينما لم يبق للمسلمين فى أسبانيا أية قاعدة فى ذلك التاريخ .

وفى ١٥٠٨ ، احتلت أسبانيا Penon de Velez ثم جاء Don Pedro Navarro مع ١٥ سفينة حربية و١٤٠٠٠ جندى إلى بجاية (بالفرنسية : Bougie) ، واحتل هذا الميناء كذلك ، وهكذا أصبحت سلطنة تونس محاطة من الغرب والشرق ، بالقواعد الأسبانية .

انتقلت مدن جزائرية كثيرة لحوزة أسبانيا أو اعترفت بسيطرة الأسبان عليها مثل تنسى مستغانم ، شرشل ، دلس .

احتل دون بيدرو المنطقة الحجرية التى تبعد مسافة ٣٠٠ متر عن ميناء الجزائر ، وشيد فيها قلعة Penon d'Argel ، وكان بإمكانه قصف مدينة الجزائر ومينائها والسفن التى تدخل إلى الميناء بنار المدفعية كما يحلو له .

كان المدفعيون الأسبان يتسلون بتوجيه مدافعهم أثناء أذان المؤذن فى مدينة الجزائر ويصوبونها نحو المؤذنين فى المنارة ويدمرونها .

تعهد العرب بعدم إدخال أية سفينة لايقبل الأسبان دخولها إلى أى من الموانىء الجزائرية .

وهكذا تأسست مستعمرة الجزائر الأسبانية ، ووضع حجر أساس متين لجعل شمال أفريقيا ، أمريكا اللاتينية ، وكان الوضع يوحى بأنه لا توجد قوة تحول دون أن يلقى شمال أفريقيا نفس عاقبة الأندلس والقارة الأمريكية .

أقام دون بيدرو فى مدينة وهران بلقب ماركيز Gomares كوالٍ عام على مستعمرات شمال أفريقيا . أما البرتغال فقد شيدت قلعتى Mazagan و Âzemûr على سواحل فاس فى الأطلسى .

كان الأخوة بربروس ، خلال السنوات التى كانت تعانى فيها أفريقيا من هذا

الوضع ، يعملون كملاك سفن يربحون من تشغيل سفنهم .

كانوا فى البداية يعملون فى الجزر فى بحر إيجة ، ثم أخذوا يعملون بين موانىء سلطنة مصر الواقعة شرق البحر الابيض وتركيا . وفى إحدى هذه الاسفار ، اثناء ذهابهم من ميديللى إلى طرابلس الشام ، اعترضت طريقهم سفن فرسان رودس ، واستشهد صغيرهم إلياس رئيس وعمره حوالى ٣٠ ، ووقع كبيرهم أوروج رئيس فى الأسر .

كان الأخوة بربروس أصحاب سفن أغنياء ، وقد وصلت شهرتهم إلى تركية وكانوا معروفين فى مصر ورودس .

جاء أخوه خضر رئيس إلى بودرم ، وعندما علم بأسر أخيه وسوقه إلى رودس لحمل الأحجار ، وعد بافتداء أخيه بفدية كبيرة ، لكن الفرسان كانوا لايريدون إطلاق سراح أوروج لعلمهم بخبرته وتفوقه فى البحر .

وفى هذه الأيام كان السلطان قورقود أخو السلطان سليم الكبير واليا فى أنطاليا . اتفق مع الفرسان على أن يسلموا سنويا إلى الشهزاده ١٠٠ أسير مسلم ويتسلمون هم عوضا عن ذلك أسرى مسيحيين أودراهم . كان الفرسان يعتزمون عدم ادخال أوروج ضمن قوافل الـ ١٠٠ التى تم الاتفاق عليها ، لكن أوروج ، كان فى تلك السنة فى سفينة الفرسان التى تنقل الأسرى المسلمين إلى أنطاليا كجداف (وقد حدث ذلك نتيجة لغفلتهم) ، وعندما شاهد سواحل أنطاليا ، خرج من سلاسله ، وتمكن من القفز إلى البحر والخروج إلى البر .

استمر أوروج الذى نال حريته فى العمل فى سفنه فى البحر الأبيض . ويحتمل أن سنة خلاصه من الأسر هى ١٥٠٦ .

يقال إن السلطان قانصوه استدعاه عندما كان فى ميناء الإسكندرية ، وذهب إلى القاهرة ومثل بين يدى السلطان الذى كلفه بقيادة الأسطول المصرى الرفيع ، فوافق . وقاد أوروج أيضا الأسطول المملوكى الذى أعاد الشهزاده قورقود من الإسكندرية إلى أنطالية . كلفه السلطان قانصوه أميرالية البحار الهندية . وافق فى البداية ثم اعتذر بعد مدة حيث كان لايرغب فى الذهاب إلى المياة الهندية وإنما كانت رغبته فى البحر الأبيض .

ترى لو كان قد وافق على أميرالية الهند ، ماذا كان سيصبح مستقبل المغرب ؟

جاء أوروج رئيس إلى مانيسا واجتمع بالسلطان قورقود وتسلم منه سفينتين حربيتين كهدية . ذهب إلى ميناء أزمير وتسلم سفينتى الشهزاده . كان قورقود يفكر فى تأسيس أسطول قراصنة (الصاعقة البحرين) . وعندما مثل أورج بين يدى السلطان قورقود ليشكره ، تساءل الشهزاده عن سبب عدم ذهابه إلى غرب البحر الأبيض وأخبره بأن المسيحيين هناك يستولون على المسلمين ، وأوصاه بالذهاب ومشاهدة الوضع شخصيا ، وأن يسير فى أثر كال رئيس . قبل يد السلطان قورقود ونال دعاءه .

ذهب بسفينتيه الحربيتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية ، وضرب السفن الأسبانية والبندقية ، وعاد إلى خليج أزمير .

كان يريد تقبيل يد السلطان قورقود ، ويشكره ويقدم هدية له ، وقبل دخوله ميناء أزمير ، سمع بخبر جلوس السلطان سليم واعتقاله أتباع أخيه السلطان قورقود . ويمكننا أن نقول دون كثير مبالغة أن معظم البحارة الأتراك هم من أتباع قورقود وأنهم يدينون له بالولاء . نزل أوروج فى أنطاليا دون أن يمر بأزمير . كان يريد أن يعرف ما إذا كان لقورقود أى أمر يقضيه . وهناك علم مع الأسف باعتقال وإعدام الأمير . كان مقتنعا بأن حياته هو كذلك فى خطر .

ترك أوروج المياه التركية ، ودخل ميناء الإسكندرية مع ٤ قطع من سفنه (١٥١٣) . أرسل يحيى رئيس إلى القاهرة إلى السلطان قانصوه مع ٤ عبيد و٤ جوارى وهدايا ثمينة . ومع أن السلطان صرح ليحيى رئيس بأن أوروج بك كان فى خدمته فى السابق وأنه ترك خدمته ولامه على ذلك ، فإنه قبل هداياه وقال إنه بإمكانه أن يعتبر نفسه من رعايا السلطنة المملوكية وبإمكانه أن يطلب الأسلحة والمعدات التى لايستطيع توفيرها . (يبين هذا شدة حاجة المماليك للبحارة) . غادر أوروج الإسكندرية فى صيف سنة ١٥١٣ وجاء إلى جزيرة جربة الواقعة بين تونس وليبيا . وبمجيئه هذا ، تغير سير تاريخ شمال أفريقيا بصورة جذرية .

(٢٧) أوروج بك فى المغرب (صيف ١٥١٣ - ١٥١٨/١٠/١٠)

سأحاول فيما يلى أن أقدم الخطوط الرئيسية لحياة أوروج بك الملحمية خلال السنوات الخمس التى قضاها فى المغرب . إن مساحة جزيرة جربة التى رسا فيها أوروج (والتى ستذكر بعد الآن مئات المرات فى تاريخ البحرية التركية)، ٥٤٠ كم[٢] . فيها أماكن تقترب من تونس بمسافة ٢ كم[٢] .

يسكن الجزيرة البرابرة الذين استعرب أكثرهم من ناحية اللغة ، وعدا السنيين – المالكيين ، توجد جماعة الخارجية – العبادية كذلك ، ويتبع شيوخ البرابرة الموجودون فى الجزيرة السلطان الحفصى فى تونس .

كان كمال رئيس قد ذهب من قبل إلى جربة مرات عديدة . وكان كمال رئيس قد توفى قبل أن تطأ أقدام أوروج رئيس الجزيرة بسنتين ونصف فقط . كان كمال رئيس والبحارة الذين ذهبوا إلى جربة هم السبب فى مجىء أوروج إلى جربة . وطد أوروج قدمه فى الجزيرة ، واشترى قسما من الساحل من الشيوخ ، وأسس قاعدة وتأسيسات مهمة .. وبدأ منها بحملاته ، وبعد مدة جاء أخوه خضر رئيس من ميديللى إلى جربة خوفا من ياوز ، وجلب معه سفنا ومعدات كثيرة . كان أوروج بك ، لايريد قطع علاقته بمصر ، ولم يكن مطمئنا إلى ما إذا كان قد اعتبر فى تركيا عاصيا أم لا ، والحقيقة أن عائلته الموجودة فى ميديللى ، لم تتعرض لأى ضغط ، لكنه لم يكن من الميسور معرفة نوايا سليم ، خاصة أنه لم يكن من عادته أن يصرح مسبقا بما سيفعله . أرسل أوروج إلى السلطان قانصوه باستمرار هدايا من الغنائم التى حصل عليها من المسيحيين . كان يبتاع المهمات البحرية من مصر . وقد صرح السلطان قانصوه فى شأنه قائلا : « إن كان هناك شخص لاينكر النعمة ويعرف الخير فى العالم ، فهو ابنى أوروج قبطان » . إن عبارة كهذه فى ذلك العهد ، كانت يستعملها السلاطين الكبار فى حق تابعيهم الحكام الصغار فقط .

لقد كان يجب على الأخوة بربروس الذين يعيشون فى الأراضى التونسية ، أن يؤسسوا علاقات حسنة مع السلطان التونسى .

كان أبو عبد الله محمد الخامس (١٤٩٤ – ١٥٢٨) ، على عرش تونس فى هذه

الأيام . هو خلف وابن أخ يحيى الثالث (١٤٨٨ - ١٤٩٤) الذى توسط لعقد الصلح العثمانى - المملوكى .

جاء الإخوة بربروس إلى تونس فى ١٥١٣ ومثلوا بين يدى السلطان وقدموا له هدايا ثمينة .

وافق السلطان على إعطائهم قلعة حلق الواد (بالفرنسية : La Goulette) . وهى مجاورة لتونس ، وكانت ميناء متحكما فى خليج تونس ، وكان على الإخوة بربروس أن يقدموا إلى السلطان مقابل ذلك خمس الغنائم .

وفى هذه الأيام ، كان لأوروج ١٢ سفنية حربية ، وكان معه أخواه ، ونوتية أتراك قديرون ، وكان لديه ١٠٠٠ جندى بحرى (لوند) فقط .

كان أوروج فى حاجة شديدة إلى جلب جنود بحريين من الأناضول . فقد كان لديه أعوان كثيرون من العرب والبرابرة ، لكنهم ليسوا بحارة . ولتحقيق مشاريعه كان بحاجة شديدة إلى جنود البحرية .

كانت حلق الواد على وشك أن تشهد أحداثاً كبيرة . قضى أوروج شتاء ١٥١٣ - ١٥١٤ فيها . ثم ذهب إلى المياه الخارجية لساردونيا ، استولى بعدها على سفن كثيرة جدا . التقى بين كورسيكا وألبا بسفينتين galerruvayalli للبابا . كانت هاتان السفينتان العملاقتان تعتبران من الطرادات الكبيرة فى ذلك العهد ، وكانت قطعات أوروج الصغيرة بمثابة الزوارق إذا ماقورنت بهاتين السفينتين كانت كل سفينة من هاتين السفينتين تسير بواسطة ٥٠ زوجا أى ١٠٠ مجداف وفى كل مجداف أكثر من درزن من الجدافة ، وهما مبتعدتان عن الساحل ، استولى أوروج على الأولى ، ثم على الثانية . ذاع صيته فى كامل أوربا باسم « بربروس » .

كان مقتنعا بوجوب تأسيس دولة فى شمال أفريقيا ، لإمكان صد المسيحيين .

أراد أولا تحقيق ذلك فى تونس . لكن الحفصيين كانوا سلالة متمكنة ، ومن المحتمل أن تؤدى إزالة عائلة كهذه إلى فقدان محبة شعب شمال أفريقيا .

أما فى الجزائر فلم يكن فيها سلالة ولاحاكم .. وكانت معرضة أكثر من غيرها للتسلط المسيحى ، وقد انتقلت أماكن كثيرة منها لحوزة الأسبان . ورغم أن الشيوخ

والقواد فى الجزائر كانوا يعترفون ظاهرا بتبعيتهم لملك أسبانيا أو والى عام أوران وللسلطان فى الغرب وللسلطان العبدى (نسبة إلى عبد الواد) فى الشرق ، لكنهم فى الحقيقة كانوا مستقلين .

قرر أوروج بك البدء من بجاية (بالفرنسية : Bougie) ، التى كانت مرفأً أسبانيا على بعد نحو من ٢٠٠ كم غربى مدينة الجزائر . وقد كان بإمكانه التمركز فيها ، والتوصل إلى مدينة الجزائر وإنهاء التسلط الأسبانى عليها .

دخل بجايه بـ ٤ سفن . أغرق إحدى السفن الأسبانية الـ ٩ التى حاولت منعه . ظفر باثنتين منها وأجبر الـ ٦ الباقية على الفرار . أنزل أوروج بك الجنود والمدافع إلى البر وبدأ بحصار القلعة . وفى اليوم ٨ من الحصار (ك ١٥١٤/١) ، أصابت إحدى طلقات المدفعية ذراعه اليسرى إصابة بالغة . رفع الحصار ، وبترت ذراع الرئيس .

أخذت أساطيل الأخوة بربروس فى الاتساع على مر الزمن . وبدأت بضرب السفن المسيحية على نطاق واسع . وعلى سبيل المثال : تمكن خضر رئيس فى بداية سنة ١٥١٥ فى حملته خلال الشتاء من الاستيلاء على ٢٠ سفينة و٣٨٠٠ أسير . كثيرون من ربابنة السفن الشهيرين جاءوا من الأناضول والتحقوا بالأخوة بربروس ، من هؤلاء ابن أخ كمال رئيس راسم الخرائط البحرية الشهير بيرى رئيس ، آيدن رئيس ، قورقود أوغلو مصلح الدين رئيس ، صالح رئيس (باشا) ، ابنى خضر الاثنين بيوك حسن رئيس (باشا) ، كوجوك حسن رئيس (باشا) ويحيى رئيس . وكافة هذه الأسماء تدخل ضمن أشهر أميرالات القرن ١٦ .

كانت الحاجة الشديدة إلى جنود البحر ماتزال مستمرة . تحسنت صحة أوروج بك فى صيف عام ١٥١٥ وبدأ بالخروج فى الحملات . رسا فى جزيرة Minorka ، رفع الراية وقام بعرض فى خليج جنوة وبحر Ligurya . أخذوا بترتيب أسفار كثيرة وبدءوا بنقل عشرات الألوف من الأندلسيين من أسبانيا إلى شمال أفريقيا ، حيث كان عملا خطيرا يجرى والأسبان يطاردونهم .

لم يعد أوروج رئيس يخشى السلطان سليم ، فقد كان قد أدرك سياسته الإسلامية وأيدها . كان هو كذلك يقوم بنفس المهمة فى المغرب . بعث بمحيى الدين بيرى

رئيس إلى استانبول مع ٦ قطع من السفن . قابل ياوز بيرى (آذار ١٥١٦) ، وأهداه سيفين مرصعين قائلا : « يتقلد أحدها لالا (مربى السلاطين) أوروج والآخر يتقلده لالا خير الدين خضر ويغزوان الأعداء » . ملأ سفينتين حربيتين بالمهمات الإستراتيجية وسلمها إلى بيرى رئيس . تنفس أوروج بك الصعداء ، وعادت علاقته بالوطن الأم . كان ياوز يأمل الشيء الكثير من الأخوة بربروس فى سياسة المغرب .

وفى هذه الأثناء احتل الأخوة بربروس Cicelli ثم ساروا منها على بجاية ، وفى هذه المرة احتلوها (١٥١٦/٨/٤) . أقيمت الدعوات فى كافة مساجد المغرب لتوفيق الأخوة بربروس فى جهادهم . أصبح أسطول أوروج بك ، أسطولا حقيقيا يتكون من ٢٨ قطعة حربية مجهزة بصورة ممتازة جدا ، ولم يكن فى ذلك الحين لدى كثير من الدول الأوربية قوة بحرية تعادلها . استرد الأسبان بجاية فى الحال . إن أوروج ، الذى كان لايبالى بأية ظروف غير مواتية ، دخل ميناء الجزائر بأسطول كبير و ٨٠٠ جندى بحرى و ٥٠٠٠ من العرب المتطوعين الذين انضموا إليه ، واحتل المدينة (ك١٥١٧/٢) . أمر بتلاوة اسمه فى الخطبة بعد اسم السلطان ياوز سليم . وهكذا أعلن حكمه بصورة رسمية .

عاد قورقود أوغلو مصلح الدين الذى أرسله إلى إستانبول مع سفينتين حربيتين عثمانية مليئتين بالمواد الاستراتيجية والجنود البحريين ، وأحضر معه لأوروج بك — الذى سمى فى المغرب « سلطانا » بصورة رسمية — الأمر البادشا هى (الفرمان) المهم الذى أصدره السلطان سليم والذى يخول أوروج جمع جنود البحر (لوند) من الأناضول وابتياع مايحتاج إليه من المهمات العسكرية .

بدأ أوروج بك بحل الخلافات الداخلية للجزائر ، وتحصين الجزائر بالشكل الذى لايمكن الأسبان من الاستيلاء عليها (سوف يستمر أخوه خضر خير الدين على ذلك) .

صرح العقيد مهند الحج عند نيل الجزائر استقلالها فى ١٩٦٢ بهذا البيان : « نحن مدينون بكل مالدينا وحتى بكياننا كشعب واحد للأتراك . كنا قراصنة عند مجىء العثمانيين ، مكونين من مئات القبائل . عين العثمانيون لأدارتنا أحد الباشوات . جمعوا

القبائل المتفرقة وجعلوها كتلة واحدة وجعلوا منها قوما بقى تحت الإدارة التركية المركزية مدة ٣٠٠ سنة وتعلموا قيمة الاتحاد . لقد أصبحنا قوما بمساعدة الأتراك » (صحيفة حريت ، ١٩٦٢/٨/٣) .

احتل أوروج بك تنيس Trnes وسيطر على ١٠ مدن ومنطقة واسعة . اعلنت أسبانيا الحرب على أوروج بك الذى أعلن نفسه سلطانا (١٥١٧/٩/١) . جاء Don Diego de Vera مع ٤٠ سفينة حربية ، ١٤٠ سفينة نقل و١٥٠٠٠ جندى مشاة أمام قلعة الجزائر . بدأ بقصف القلعة التى حصنها أوروج . كان آلاف من المحليين يساندون الأسبان .

بدأ أوروج بالهجوم على هؤلاء مؤكدا لهم قوته ، وعلى الرغم من أن الأسبان ركزوا العلم على أبراج قلعة الجزائر ، فى ٣٠ أيلول ، فإن أوروج قام بهجوم شديد اضطر Don Diego إلى رفع الحصار ، وطارده الأتراك وقتلوا ١٥٠٠ أسبانى ، وهكذا يكون ذلك البحار المتواضع قد تغلب على أكبر دولة أوربية برية وبحرية .

أحتل أوروج مليانة ومدية . وعاقب الشيوخ الذين تعاونوا مع الأسبان . أجرى فى البلاد تعداد النفوس وتحصيل الضرائب ، وأخذ فى تطبيق النظام العثمانى .

كان أوروج الذى سيطر على سواحل الجزائر الوسطى والشرقية ، يريد إخراج الأسبان من القطاع الغربى . كان الساحل لدى الأسبان (وهران) ، أما القطاع الداخلى الذى يقع على حدود فاس ، فإنه كان لدى سلالة عبد الوادى (تلمسان) .

كانت تلمسان معرضة لتهديد جدى من قبل الأسبان الموجودين فى وهران حيث لم يكن لدى بنى عبد الواد ، الجيش الذى يمكنهم من صد الجنود الأسبان المجهزين بالمدافع والبنادق .

عقد ملك تلمسان محمد الخامس معاهدة مع الأسبان ضد الأتراك . كان مقتنعا بأنه تخلص بذلك من استيلاء أسبانى ، وفى الوقت ذاته تمكن من إيجاد من يدافع عنه ضد الأتراك .

كان فى تلمسان عدد كبير من الأندلسيين . استاء هؤلاء كثيرا من المعاهدة التى عقدت مع الأسبان الذين سفكوا دماء المسلمين ، ولكون المعاهدة ضد المسلمين

الأتراك وهم القوة الوحيدة التى تساعدهم .

ترك أوروج أخاه خضرا فى الجزائر وسار إلى تلمسان .

كانت تلمسان بتعدادها البالغ ۱۲۵۰۰۰ نسمة إحدى أكبر المدن الأفريقية ، كانت مزينة ببدائع الفن المعمارى الذى لامثيل له (كان تعداد لندن فى هذا التاريخ ۸۵ ألفا ، وباريس أكبر مدينة مسيحية ۳۸۰ ألف نسمة) . تبلغ المسافة بين تلمسان وتونس (مسافة مستقيمة) نحو ۱۰۰۰ كم . كان الإخوه بربروس ، قد تمكنوا خلال ٤ سنوات من تكوين أكبر قوة على مساحة كبيرة كهذه وأثبتوا وجودهم فيها . كان محمد الخامس يسدد إلى الوالى الأسبانى سنويا فى وهران ۱۰۰۰۰ ليرة ذهب ، و۱۰۰۰۰ رأس غنم ، و۱۰۰۰۰ رأس من المواشى ، و۱۰ أطنان حنطة و ١٤ حصانا عربيا و١٤ عبدا أسود البشرة . أفتى علماء تلمسان بوجوب قتل السلطان ، ذهب وفد من أعيان البلد إلى الجزائر ودعوا أوروج .

فتح أوروج قلعة القلاع أو قلعة بنى رشيد (حاليا عويد فضة) وهى على مسافة ۱۸۰ كم شمال شرق تلمسان . ترك فيها ۳۰۰ جندى مع أخيه الكبير إسحق رئيس . شتت جيش محمد الخامس الذى يتكون من ۶۰۰۰ خيال و ۳۰۰۰ مشاة بكل سهولة خارج تلمسان ودخل المدينة كصديق . استقبله الشعب بمظاهرات التأييد . أعدم محمد الخامس بناء على فتوى علماء تلمسان (ت ۱۵۱۷/۱) . اعتلى العرش مكانه أخوه ابو حمّو الثالث . بدا الأمر وكأن أوروج رئيس حاكم الجزائر كلها ، عدا وهران .

دخل أوروج بك فاس واحتل وجدة أكبر مدينة فى فاس الشرقية (تبعد ٦٠ كم جنوب غربى فاس) . عقد مع سلطان فاس معاهدة ضد الأسبان ، لكن سلطان فاس هاله جدا رقى الأتراك وكان يستعد للاتفاق مع الأسبان على إبعاد الأتراك من هذه الديار ، ومن هنا فقد اتجه تفكيره إلى أن يتخلص من الأتراك أولا ثم بعد ذلك يفكر فيما يجب عمله !

ولضرورات جغرافية - سياسية ، انتشر أوروج بك على مساحة واسعة جدا . اعتبارا من جزيرة جربة فى حدود ليبيا ، إلى وجدة فى فاس الشرقية ... وقد كان مثل هذا الوضع عرضة للانهيار ، إن لم يتمكن من جلب جنود من تركيا .

كان يظن أن الجميع سوف يؤيدونه لجهوداته فى نقل الأندلسيين من أسبانيا وجهاده ضد المستعمرين الأسبان فى شمال أفريقيا ولتطبيقه للنظام العثمانى فى الإدارة ، لكن هذا النظام العثمانى كان قد ولّد رد فعل حتى فى الأناضول ؛ فقد ترك الأناضول مئات الآلاف من التركمان الذين لايريدون التنازل عن امتيازاتهم الإقطاعية ، ووصل بهم الأمر إلى حد تغيير مذاهبهم والذهاب إلى إيران . لقد كان توقع أوروج أن تتقبل المغرب الإقطاعية هذا النظام فوراً أو أن تتقبله فى وقت قصير - مخالفا للواقع .

علم أوروج بك ، خلال الأيام التى دخل فيها السلطان ياوز سليم إلى القاهرة ، أن ضغوطا كبيرة ستقع عليه . لم تكن أسبانيا المغرورة تفكر أبدا فى ترك أفريقيا الشمالية . زود الإخوة بربروس أخاهم الكبير إسحق رئيس بالإمدادات لأنه كان هو الأقرب إلى وهران . اجتمع تحت إمرة إسحق رئيس فى قلعة القلاع ٩٠٠ جندى بحرى تركى و ٢٠٠٠ خيال عربى .

سار دون مارتن دى آرغوت إلى إسحق رئيس من وهران ، واتحد مع الأسبان آلاف من خيالة بنى عبد الواد . تقع قلعة القلاع على طريق مستغانم - معسكره ، وتبعد عن وهران ٨٠ كم فقط . كان الأسبان لايرغبون فى بقاء قلعة شديدة الخصومة كهذه ، وكانت مستغانم ومعسكره بيد الأسبان ، وكان يوشك أن يحتلها الأتراك .

قاوم إسحق رئيس حتى النهاية . لم تصل المعونة التى كان ينتظرها من أخيه خضر رئيس فى الجزائر . استشهد إسحق رئيس وأكثرية المتطوعين العرب وتسعة أعشار الجنود البحريين . كان الأسبان قد اكتسبوا قوة كبيرة حيث أرسلت أسبانيا إلى وهران حديثا ١٠٠٠٠ جندى . أما قلعة القلاع فقد حاصرها ٢٠٠٠ أسبانى و ١٠٠٠٠ عربى . نفد عتاد وطعام الأتراك . وعندما دخل دون مارتن القلعة ، أدهشه أن يجد حفنة من الجنود البحريين الذين لم يذوقوا الطعام منذ أيام وكذلك الجرحى - ملتفين حول إسحق رئيس الذى امتلأ جسمه بالجراح . لقد رفض هؤلاء جميعا التسليم وصمموا على الحرب حتى استشهدوا جميعا (١٥١٨/١/٣١) .

(٢٨) استشهاد أوروج رئيس (١٥١٨/١٠/١٠) وشخصيته

وفى هذه الأيام ذاتها سار الجيش الأسبانى الأصلى إلى أوروج بك فى تلمسان . كان مكونا من ١١٥٠٠ أسبانى و ٣٥٠٠٠ عربى ، وكان المشاة الأسبان مجهزين

بالبنادق ولديهم وحدات مدفعية كذلك .

أما أوروج بك فقد تمكن من جلب عدد قليل جدا من المدافع إلى تلمسان ، وكان يعتمد على شعب الجزائر الغربية ، وسلطان فاس . كانت قلعة القلاع قد قاومت ثلاثة أسابيع وأربعة أيام .. فكم من الوقت ستقاوم تلمسان ياترى ؟ .

دافع أوروج بك عن تلمسان تجاه قاتل أخيه دون مارتن مدة ٦ أشهر . كان يأمل أن يمل الأسبان وينسحبوا ، لكنهم كانوا جنودا عُنَدَاء .

انتظر المعونة من سلطان فاس ، لم تصل المعونة . حتى أخيه خضر بك فى الجزائر لم يتمكن من عمل مايؤدى إلى عدم ضياع مدينة الجزائر ولم يتمكن من المجىء إلى تلمسان التى تبعد مسافة كبيرة . لم يكن التلمسانيون قد شاهدوا حربا تركية وأسبانية تستمر إلى النهاية . ضاقوا بهذا الوضع . أغاروا فى صبيحة يوم عيد الأضحى بعد صلاة العيد على جنود البحر الأتراك وقتلوا عددا كبيرا منهم . تمكن أوروج بك من السيطرة على الوضع بصعوبة . ولكنه أدرك أنه لن يتمكن من الاحتفاظ بالقلعة بهذا الوضع ، ولم ير من وسيلة غير الخروج وخرق الحصار .

كان الأسبان يتسلمون الإمدادات بصورة مستمرة وكان ماركيز غومارس قد حضر بنفسه من وهران لإدارة وقيادة الحصار . نفد طعام أوروج وعتاده . قام بطلعة آنية وقتل ٧٠٠ أسبانى وأسر ١٠٠ منهم . كانت هذه هى حملته الأخيرة . بقى لديه ٤٠ جنديا بحريا (لوند) فقط . وفى إحدى الليالى قبل طلوع الفجر وأثناء نوم الأسبان ، اجتازوا على حين غرة خط الحصار وخرجوا . تعقب الأسبان أثر أوروج بك بعد مضى ساعتين وكان على رأسهم Don Gareia de Tinco .

قام أفراد قبيلة بنى عامر بتعقب أثر ٤٠ تركيا سيئى الحظ لنهبهم . أخرج الجنود كل مايملكونه ورموه عدا الأسلحة . تأخر البدو خلفهم لاقتسامها . لكن الأسبان لم يغفلوا لحظة واحدة عن التعقب . وصلوا إلى نهر Rio Salado . عبر نصف اللوندات النهر ، مع أوروج وقبل عبور نحو ٢٠ منهم لحق بهم الأسبان . تمكن ٤٥ فقط من خيالة Alferez Garcia de Timeo من المجىء . وبناء عليه ، لو كان قد قدر لأوروج أن يستمر فى طريقه لتمكن من النجاة ولتمكن خلال فترة قصيرة من تعويض خسائره ، لكنه عاد إلى النهر إلى الوراء . وعند عودته كان من الطبيعى أن يجد أن

اكثرية الجنود الذين لم يتمكنوا من العبور قد استشهدوا . كانوا جياعا عطاشى ، متعبين ، ويعانون من حرارة الشمس . شاهد كذلك استشهاد آخر جندى له . رفض التسليم .

أغمد الدون غارسيا سيفه فى قلب البحار الكبير . وفصل رأسه عن جسده وأرسله إلى أسبانيا للتشهير . بقى جسده فى الجزائر فى منطقة قريبة جدا من فاس فوق الأراضى المحرقة .

لم تذهب هذه التضحية هباء ، فقد كان من ثمارها تصميم العثمانية على طرد الأسبان من المغرب .

إن خلعة أوروج بك (الذى نجى مستقبل الدين الإسلامى فى أفريقيا من الزوال وأسس الاتحاد الإسلامى) المطرزة بالذهب ، موجودة لدى كاتدرائية مدينة Cordoba (بالعربية : قرطبة) . وقد عرضت سنوات عديدة على الشعب لكسر معنوياته .

كان عمر أوروج بك عند استشهاده ٤٨ سنة (١٥١٨/١٠/١٠) . لم يتزوج ولم يخلف أولادا . قامته أقرب إلى الطول ، أسمر البشرة من تأثير الشمس ، أحمر اللحية ، أشقر الشعر ميال إلى الحمرة ، عيناه كستنائيتان تميلان إلى الصفرة ناريتا النظرات ، عريض الكتفين جدا ، قوى البنية جدا ، كريم إلى درجة كبيرة ، سخى ، رحيم ، خلوق ، كثير الجد وشديد فى عمله ، إدارى ممتاز ، محبوب ومطاع بصورة مطلقة من جنوده البحريين ، شجاع ، جرىء ، ذكى ، ليس له نظير فى حل المشاكل الكبرى ، ماهر فى استعمال الأسلحة ، بحار ذو دهاء عظيم . « داهية عظيم وفاتح عظيم ، إن استيطانه شمال أفريقيا التى لاتحتوى على تركى واحد ، توفيق لايصدق . قلد المارشال الفرنسى Bugeaud فى القرن ١٩ ، تكتيك أوروج وفتح قطر الجزائر » Histoire Générale , Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٨٠٣ ، ٨٠٥ - ٦ ، ٨٠٨) .

(٢٩) تأسيس إيالة الجزائر (١٥١٩/٥/١٥)

تبعت الجزائر ، فرنسا بصورة رسمية فى ٣١ ك ١٥١٠/٢ .

ذهب سالم التومى الذى يقوم بإدارة المدينة ، إلى أسبانيا بنفسه ومثل بين يدى

الملك فرديناند . كان شعب مدينة الجزائر الذى مل من تسلط الأسبان قد أرسل وفدا إلى أوروج بك الموجود فى Cicelli ودعاه . جاء أوروج إلى الجزائر وأمر بقتل الشيخ سالم حيث كان قد علم أن الشيخ سالم قد رتب له عملية اغتيال داخل الجامع أثناء صلاة الجمعة . لم يبق أثرا للقلعة الأسبانية المشيدة على البحر والتى كان الأسبان يصوبون منها على المنائر ويهدمونها للتسلية . قام أخوه خضر خير الدين بك شخصيا ووحده بنقل ٧٠٠٠٠ أندلسى إلى المغرب بأسطوله فى ٧ سفرات بحرية غير مبال بالأخطار الكبيرة . وفى إحدى هذه السفرات نقل بواسطة ٣٦ قطعة من السفن ١٠٠٠٠ عربى مسكين من سواحل Oliva الواقعة على مسافة ٦٠ كم جنوبى شرق بلنسية . واستمر آيدن رئيس وسنان رئيس على هذا العمل متعرضين للأخطار . تمكن من تخليص آلاف من الأندلسيين من الموت حرقا (Hammer ، ٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٢) .

وفى إحدى هذه السفرات اعترض طريقه أسطول أسبانى ، فدفع الخطر باستيلائه على ١٥ سفينة حربية وإغراق ٣ منها . ساندت استانبول سياسة تخليص الأندلسيين ، قدر استطاعتها .

جاء حاجى حسين رئيس إلى الإسكندرية مع ٤ سفن فى ١٥١٧ . ذهب إلى القاهرة وقدم الهدايا التى أرسلها أوروج بك . منح ياوز كلا من أوروج بك وخير الدين خضر بك رتبة لواء بحرى بصورة رسمية وبهذا كان قد ضم الجزائر إلى الحدود التركية . تليت الخطبة فى الجزائر وتلمسان باسم السلطان سليم . لم يضع الإخوة بربروس أسماءهم على النقود التى سكوها ووضعوا اسم السلطان سليم ، كان وضعهم بالنسبة للمغاربة « سلطان » وبالنسبة للأوروبيين « rey d'Argel, roi d'Alger » (ملك الجزائر) . أرسل ياوز إلى الجزائر ٢٠٠٠ جندى عثمانى وكمية كبيرة من المدافع والبنادق . وانتخب من بين عدد كبير من المتطوعين من أناضول الغربية الذين يرغبون فى الذهاب إلى الجزائر كجنود بحريين ، ٤٠٠٠ شاب عزب أرسلهم للتدريب ولتعلم استعمال المدافع والبنادق وألبسهم البزة العسكرية ، وأرسلهم إلى الجزائر ، لكن أوروج بك كان قد استشهد عند وصول هذا المدد . مات السلطان سليم كذلك بعد فترة وجيزة . لكن ابنه السلطان سليمان استمر على نفس السياسة تجاه المغرب .

ولّد دخول العثمانية إلى المغرب القلق لدى أوروبا الغربية وعلى رأسها أسبانيا والبرتغال . كما أن السيطرة التركية على غربى البحر الأبيض أضرت بالمصالح القتلونية والفرنسية . وافق السلطان سليم على لقاء الحاجى حسين رئيس فى استانبول (١٥١٩/٥/١٥) حيث استمع منه إلى تفصيلات استشهاد أوروج بك ، تأثر السلطان سليم لذلك ، وأدرك بدهائه المتميز وجوب العناية بالمسألة الجزائرية بصورة أكثر عمقا وتركيزا . منح خضر خير الدين بك رتبة فريق أول بحرى (بكلربك بحرى) ورفع درجة الجزائر من نظام اللواء العثمانى إلى نظام الإيالة العثمانية . وولى بربروس خير الدين باشا على الإيالة ، ومنح ابنه حسن بك البالغ عمره ٢٠ سنة رتبة لواء بحرى (سنجق بك) .

دخل بربروس خير الدين باشا ميناء بلنسية ، وقصف المدينة وأفنى الأسطول الأسبانى الراسى فى الميناء (أيار ١٥١٩) (حضر الأسبان إقامة العرب فى بلنسية فى ١٥٢٦ ، أخرجوا كافة العرب وهدموا كافة المساجد من قواعدها ، Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٣٥١ ، ٣٦٩) . أرسلت أسبانيا التى أرادت الانتقام إلى الجزائر نائب الملك فى صقليا وأكبر قائد أسبانى فى عصره Don Ugo de Moncada . استصحب مونكادا ، الذى جاء من باليرمو إلى وهران ، ماركيز غوماس وذهب إلى ميناء الجزائر مع ١٧٠ سفينة حرب ونقل و ٢٥٠٠٠ جندى .

كان لخير الدين باشا فى الجزائر ٣٠٠٠ جندى تركى و ٢٠٠٠٠ جندى عربى . كان قد استدعى الوحدة التركية الموجودة فى تلمسان ، لكنها لم تكن قد تمكنت بعد من القدوم .

كان ابن خير الدين باشا حسن بك فى تلمسان مع ٧٠٠ جندى تركى و ٢٠٠٠ عربى . أبلغه مونكادا بأنه لايرغب فى سفك الدماء ، وأنه يسمح لخير باشا بخروج جنوده وحاجاته التى يمكن نقلها معه وذهابه . أجابه الباشا بنار المدفعية ، وبعد قتال طويل ، حمل خير الدين باشا مع ٥٠٠ من جنوده البحريين على سفن المهمات التى رست واقتربت إلى البر . وأثناء انشغال الأسبان الذين ظنوا أن ذلك هو الهجوم الرئيسى ، خرج الباشا من القلعة وصار خلف العدو . ترك نائب الملك مونكادا مدافعه ومهماته وأركب جنوده القلائل الذين تمكنوا من النجاة من سيوف الترك فى أسطوله ورمى بنفسه فى ميناء Ibiza فى جزر باليرى .

بذلك يكون خير الدين باشا الذى حصل على رتبة فريق أول قبل ٣ أشهر و ٩ أيام ، قد انتصر على أسبانيا المقتدرة . وقد كان لانتصار الجزائر (١٥١٩/٨/٢٣) آثار كبيرة . أرسل قره حسن باشا إلى بلنسية بعد شهرين . اقتتل الأتراك الذين أنزلوا جنودا فى البر مع الأسبان وجلبوا معهم عددا غير قليل من المهاجرين العرب .

وفى ربيع عام ١٥٢٠ ، هزم الباشا أسطولا مكونا من ١٥ قطعة أرسلته أسبانيا بواسطة ١٨ سفينة ، واستولى على ٥ قطع منها . احتل تنيس من الأسبان ، وخلال ذلك دخل الأسطول الحربى الأسبانى (آرمادا) المكون من ١١٠ قطع من السفن بقيادة الأميرال فرناندو ميناء الجزائر . دمر بربروس ، الذى تمكن من جمع أسطوله ، الأسطول الأسبانى ، واشتهر ذلك فى التاريخ العثمانى بانتصار الجزائر الثانى . أسر ٣٦ من رؤساء ملاحي السفن (قبطان) و ٣٦٠٠ جندى أسبانى ، قتل أكثرهم . انتقلت سفينة الأميرالية لحوزة الأتراك ، وأسر الأميرال .

ثارت خلال هذه الأيام قبائل كثيرة وقسم من شعب الجزائر على الأتراك . قال خير الدين باشا : إنه لم يأت إلى هذه الأراضى لسفك دماء المسلمين ، وإنما جاء للجهاد ، « ليكن وبال المسلمين على رقابكم ، لنرى كيف تصونون البلاد تجاه الكفرة ؟ » قال ذلك وسلم مفاتيح المدينة لأشراف المدينة ، وترك مدينة ، الجزائر (ك١/١٥٢٠) . كان للسلطان الحفصى فى تونس دخل كبير ، فى ذلك . اهتم خير الدين بالسلطان وأخذ يراقبه . وخلال هذه الأيام وصل خبر وفاة السلطان سليم وجلوس السلطان سليمان ، تغير الاسم فى الخطب وفى النقود .

(٣٠) ولاية بربروس خير الدين باشا على الجزائر (١٥١٩/٥/١٥ - ١٥٣٣/١٢/٢٧) :

المرحلة الأولى

بترك خيرالدين باشا مدينة الجزائر فى ك ١٥٢٠/١ ، كان الأتراك بعد منازعات دامت ٦ سنوات كأنهم عادوا إلى وضعهم السابق الذى كانوا عليه فى ١٥١٤ .

كان بربروس خير الدين باشا يقيم فى هذه الآونة فى Cicelli ، وكان يملك أسطولا مهما وجيشا له مكانته .

لم ينس الشعب العثمانية التى أذاقت الأسبان الأمرين . كان بربروس يتجول فى البحر الأبيض مع ٤٠ قطعة من سفنه .

احتل خلال إحدى جولاته جزيرة جربة من سلطان تونس الذى كان يحقد عليه ، وطرد سفراء سلطان تونس كذلك ورفض هداياهم ، وأعلن أنه لن يتكلم مع الذين تعاونوا مع الكفار الذين سفكوا دماء المسلمين فى الأندلس والمغرب . لم يكن يمر يوم واحد دون أن تأتى من الجزائر الوفود والهدايا والدعوات . لم يوافق على الدعوات . كان الشعب الجزائرى متضررا من اختلال الأمن فى المدينة ، ومن الحرمان من النعم التى كانت تدرها الغنائم التركية ، ومن ركود التجارة ، بالإضافة إلى استعلاء الأسبان عليهم .

بعد أربع سنوات ونصف دخل خير الدين باشا شرسل ومنها إلى مدينة الجزائر وسط الهتاف والتصفيق . لم تطلق طلقة واحدة . احتل تنيس Tenes . دخل قسنطينة . طوّع القبيلة . وسيطر على الجزائر مجددا عدا وهران . كانت حامية أسبانية قد تمركزت مجددا فى Penon . أصبحت مدينة الجزائر هادئة منذ عودة بربروس إليها فى ١٥٢٥ . قام خير الدين باشا بإنزال على القلعة بعد أن قصف المنطقة الحجرية مدة ٢٠ يوما . استسلم دون مارتن و ٧٠٠ جندى أسبانى ، وبعد أن أخذ خير الدين باشا Penon (١٥٢٩/٥/٢٧) ، إضافة إلى ردمه المسافة الواقعة بين المنطقة الحجرية والميناء وذلك بتشغيل ٣٠٠٠٠ أسير مسيحى أغلق الميناء بجدار عظيم كاسر للأمواج مايزال يحمل اسمه . ولم يعد ممكنا بعد الآن دخول السفن إلى الميناء قبل إسكات المدافع التركية . وعندما لم تشاهد السفن الأسبانية الـ ٩ ، التى جلبت العتاد والمهمات إلى القلعة ، المنطقة الحجرية ، ظنت فى البداية أنها أخطأت الطريق ، استولت عليها جميعها ١٥ سفينة تركية أمام أعين شعب مدينة الجزائر .

بعث خير الدين باشا الذى علم فى صيف عام ١٥٢٩ ، بمجىء ملك أسبانيا وإمبراطور ألمانيا – Charles Quint إلى جنوة ، صالح رئيس وآيدن رئيس مع ١٤ سفينة إلى بحر ليغوريا . قصف هذا الأسطول بلنسية بعد قصفه مارسيليا ونيس ، وملأ سفينة بآلاف الأندلسيين وتوجه نحو طريق الجزائر . قطع عليه الطريق الأسطول الأسبانى الذى يقوده الأميرال Portondo ، وقد كان الأمبراطور – الملك قد أمر

الأميرال بوقف هذا الأسطول التركى مهما كلفه الأمر وقتل كافة الأندلسيين الموجودين فيه لإرهاب المسلمين الموجودين فى أسبانيا .

أدرك آيدن رئيس بن أحمد (الذى عمل فى السابق كأميرال فى خدمة المماليك) والذى سماه المسيحيون Caccia Diavolo (ضارب الشيطان) ، وسماه الأتراك للمزاح « ضارب الكفار » ، عدم إمكان القتال بسفن مليئة بالبشر ، عاد إلى الساحل مرة أخرى وأنزل الأندلسيين الذين كانوا يتباكون ويعارضون نزولهم ، فى الأراضى الأسبانية ثم جابه الأسطول الأسبانى . بدأ الأتراك بالهجوم واستولوا على ٧ سفن أسبانية ، وتشتت الأسطول الأسبانى الذى لم يستطع مقاومة المدافع التركية بعيدة المدى ودمر ومات Portondo .

اقترب آيدن رئيس من الساحل وعاد عمال سفنه بالأندلسيين الذين تركهم والذين يشكل أكثرهم النساء ، والأطفال ، والشيوخ والمرضى . والذين كانوا كلهم يبكون بصوت عال ويدعون بإخلاص للسلطان سليمان ، سلطان بنى عثمان . لقد أبكت هذه الدعوات حتى الملاحين الأتراك المشهورين بشدة صلابتهم ، حيث كان عقاب الأندلسى إذا قبض عليه بعد محاولته الفرار شيه وهو حى فى نار خفيفة (Les Hauser Debats de L'Age Moderne ، ٤٠١) .

أبلغ خير الدين باشا ، السلطان سليمان بهذا الانتصار الذى جرى فى مياه Formentera المفتوحة فى أسبانيا بعريضة مفصلة .

أبحر خير الدين باشا بأسطول مكون من ٢٨ قطعة على مستغانم أهم بلدة فى حوزة الأسبان بعد وهران وقريبة منها وفتحها (١٥٢٨) . ومنها سار برا إلى قلعة القلاع التى استشهد فيها أخوه الكبير ، ثم تلمسان ، وفتحهما . قاومت تلمسان ٢٠ يوما . سك خير الدين باشا فى تلمسان نقودا باسم السلطان سليمان .

جاء الأميرال Andrea Doroa بأسطول أسبانى - جنوى معزز بـ ٢٠ سفينة حرب فرنسية إلى شرشل (تموز ١٥٣٠) . سار إليه خير الدين باشا بـ ٤٢ سفينة حربية وهزمه . انسحب Doria الذى خسر ١٥٠٠ قتيل و٦٤٠ أسيرا . تعقب الباشا خصمه ، لكنه لم يوفق فى القبض عليه . دخل ميناء مارسيليا . وقصف طولون . دخل ميناء جنوة وأدار فوهات مدافعه نحو المدينة ، وخلص الأميرالين طرغد

رئيس وصالح رئيس اللذان أسرا قبل ثلاث سنوات وقيدا بالسلاسل . لم يتمكن من القبض على دوريا الذى خرج من جبل طارق إلى المحيط الأطلسى .

عند عودته إلى الجزائر ، وجد أمامه التعليمات السلطانية (فرمان) التى تأمره بعدم الإضرار بأى شكل من الأشكال بالسفن والموانىء الفرنسية ، وعلى أثر الأخبار الأليمه الواردة من الأندلسيين ، أرسل أسطولا مكونا من ٣٦ قطعة إلى أسبانيا . تسلم من السلطان سليمان القانونى فى هذه المرة الأمر السلطانى الذى ينص على تعيينه للقياده العامة للقوة البحرية العثمانية (قبودان دريا ، مشير البحر) وناظرا للحربية ، ويأمر بقدومه إلى استانبول . ترك ابنه نائبا عنه واستصحب جميع أميرالاته وتوجه إلى استانبول .



البحث الرابع

« الدولة العالمية »
للسلطان
سليمان القانوني
(١٥٢٠ - ١٥٦٦)

الدولة العالمية للسلطان سليمان القانوني
(١٥٢٠ - ١٥٦٦)

(١) الحملة الهمايونية ١ : بلغراد (١٥٢١)

كان السلطان سليم قد عين خير باى باشا والى إيالة على مصر والمناطق المجاورة ، وجانبرد غزالى باشا على أقطار سورية ، عدا حلب أى المنطقة الشمالية – لبنان ، وفلسطين برتبة بكلر بك (والى) الشام .

كانا كلاهما من رجال المماليك الذين ارتقوا إلى رتبة نائب السلطنة . كتب جانبرد الموجود فى الشام ، عند وفاة السلطان سليم ، إلى خير باى الموجود فى القاهرة بأن البادشاه قد مات وأن إعادة إحياء الدولة المملوكية سهل .

أرسل خير باى إلى جانبرد رسالة توصية بأخذ حلب التى وليها بكلربك عثمانى ، وأرسل الرسالة نفسها التى أرسلها له جانبرد إلى استانبول .

وقعت هذه الحادثة فى غضون شتاء ١٥٢٠ – ٢١ .

انهزم جانبرد الذى حاول محاصرة حلب أمام دلقادر أوغلو على بك (باشا) (١٥٢١/٢/٦) وقطع رأسه ، وعين مكانه والى الأناضول إياس باشا الذى صار بعد ذلك وزيرا أعظم .

لم يمض على وفاة والد السلطان سليمان ٨ أشهر حتى خرج بحملته الأولى ، كان الهدف بلغراد ، مفتاح أوربا الوسطى وأقوى قلعة للمجر فى الحدود التركية التى حاصرها العثمانيون ٣ مرات من قبل ، وقد جرح السلطان محمد الفاتح فى الحصار الثانى ، ومات هنيادى جانوس الذى كان يدافع عن القلعة ، لكن القلعة لم تسقط . كانت القلعة على مسافة ٢٠ كم من الحدود العثمانية .

خرج السلطان سليمان مع ٣٠٠٠ جمل محمل بالبارود والرصاص و ٣٠٠٠٠ جمل محمل بالمهمات وسفينة محملة بـ ٤٠٠ حصان على نهر الطونة ، و٥٠ سفينة حربية ، و١٠٠٠٠ عجلة محملة بالطحين والشعير ، وفيله مدرعة ، ومدافع .. احتل قلعتى بوغوردلن وزملين ، ثم اجتاز فى ٢٦ تموز سافا ، وجاء إلى بلغراد وفتح المدينة فى ٨ آب والقلعة فى ٢٩ آب . وهكذا حقق النتيجة التى تعذر تحقيقها فى محاصرات ١٤٤١ ، ١٤٥٦ ، ١٤٩٢ . بقى ١٩ يوما فى المدينة ، ترك فيها ٢٠٠ مدفع و٣٠٠٠ جندى وعاد من حملته التى دامت ٥ أشهر ، ويومين إلى استانبول فى ١٩ ت ١ .

(٢) الحملـة الهمايونية ٢ : رودس (١٥٢٢ - ٢٣)

كانت رودس بلوى كبرى بالنسبة للمسلمين . كانت طريقة **Saint - Jean** العسكرية التى تسيطر على رودس والجزر الإثنى عشر وبودروم ، قد تأسست خلال الحملات الصليبية فى عكا للجهاد ضد المسلمين . كانت هذه الطريقة لاتزال تقوم بمهمتها بواسطة أسطولها ، تضرب السفن التى تسير فى شرق البحر الأبيض بين الأناضول ومصر وسورية .

أمر السلطان فاتح بمحاصرتها ٣ مرات ولم يتمكن من أخذها . أعلن السلطان سليمان أن تحقيق ذلك مهمة سلطانية . غادر الأسطول الهمايونى استانبول فى ٤ حزيران (١٥٢٢) ، وفى ١٦ حزيران غادر الجيش الهمايونى مع البادشاه وشيخ الإسلام زنبيللى على أفندى وابن أخيه الوزير الأعظم بيرى محمد باشا .

جاء الخاقان إلى جزيرة مرمريس ومنها انتقل إلى رودس (٢٨ تموز) بواسطة السفينة الحربية التى يقودها محمد رئيس المسماة يشيل ملك (الملاك الأخضر) (احتفظ الأتراك بهذه السفينة فى مصنع سفن رودس لمدة قرون ، وعرضوها على الناس) ويحتمل أن رودس كانت محصنة أكثر من بلغراد ، ويحتمل أنها كانت تعتبر أكثر تحصينا من أية قلعة أخرى فى العالم . كان القانونى قد درس المحاصرة الفاشلة السابقة بصورة جيدة واستفاد منها . طوق الجزيرة بالسفن . فتح الجزر الإثنى عشر الواحدة تلو الأخرى واحتل بودروم (**Halikarnassos**) آخر أرض مسيحية فى الأناضول .

قاوم الفرسان حتى النهاية . ضحى الأتراك بنحو ٢٠٠٠٠ شهيد ، وفى النهاية استسلم (١٥٢٢/١٢/٢٠) الفرسان الذين أدركوا أن القلعة إن سقطت جبرا - وكان سقوطها رهن أيام - فسيتم إفناؤهم .

كان والى مصر خير باى قد أرسل بواسطة صهره قايتباى بك فى ٩ آب ٢٤ سفينة محملة بالأرزاق والمهمات ، وقد توفى خير باى بعد مدة وجيزة من ذلك وأصبح الوزير ٢ مصطفى باشا الوالى ٣ للدولة العثمانية على مصر . عجز الفرسان بسبب إمكان الرمى داخل القلعة بواسطة مدافع الهاون والقذائف التركية . كان الجاسوس الموجود داخل القلعة ، يخبر بالأماكن الحساسة فى القلعة بواسطة الضوء . لم يقبض على الجاسوس إلا بعد عدة أسابيع حيث مزقه الفرسان (١٤ أيلول) . لقيت الجاسوسات التركيات الـ ٣ الموجودات فى القلعة نفس العاقبة أثناء إضرامهن النار ، ورغم تقطيع أعضاء هؤلاء إربا إربا ، لم يبحن بأسماء الجواسيس الآخرين الموجودين فى القلعة . تظاهر أعضاء شبكة الجاسوسية التى أرسلتها العثمانية إلى رودس قبل سنوات بالمسيحية . ويقال إن الفارس الأسبانى Don Andrea d'Amaral ، حامل رتبة Grand Croix (الصليب الأكبر) ، جاسوس عثمانى كذلك (Atlas Hallert ، ١٩ ، آ) .

أخذ الفرسان أسلحتهم ، عدا المدافع ، وحاجياتهم التى يمكن نقلها وركبوا سفنهم . وافق السلطان سليمان على زيارة الأستاذ الأعظم de l'isle (الذى كان فرنسيا) (٢٦ ك ١) ، حيث مثل بين يدى السلطان مرة أخرى بعد ٦ أيام وشكره على السماح للفرسان بالخروج بسماحة إنسانية لاتصدق .

خلال هذه الأيام ، كان البابا أندريانوس الثانى يجرى مراسم أعياد الميلاد فى كنيسة سان بيترو فى روما ، فتدحرجت حجارة سقطت من حافة سقف الكنيسة نحو قدميه ، فتشاءم البابا . وقال : « سقطت رودس » . كان ذلك اليوم ، هو اليوم الذى قبل فيه القانونى زيارة الأستاذ الأعظم .

دخل البادشاه المدينة يوم ٢٩ ك ١ . أهم الجزر التى فتحت مع رودس هى استانكوى (باليونانية : Kos) . وجزيرة سومبكى (باليونانية : Simi) وهى جزيرة مهمة كذلك . مساحة رودس ١٤١٢ كم^2 وبإضافة الجزر الإثنى عشر

تكون المساحة ٢٦٨٢ كم٢ . كان تعداد سكان هذه الجزر يعادل سكانها حاليا أو أكثر بقليل ، وهى تقع فى منطقة استراتيجية مهمه فى البحر الأبيض .

وهكذا اقتلعت وأزيلت من شرق البحر الأبيض دولة لاتينية (كاثوليكية) من بقايا الحملات الصليبية التى يرجع تاريخها إلى ٢١٣ سنة ، وهى آخر دولة صليبية قضى عليها المسلمون . وفى ١٥٣٠ ، أعطى الإمبراطور - الملك شارل كوينت Charles - Quint إلى الفرسان جزيرة مالطة ، وفى هذه المرة ، قاموا من هذه الجزيرة بإيذاء المسلمين الموجودين فى أواسط البحر الأبيض .

اجتاز البادشاه البحر إلى مرمريس .. فى ٣ ك ٢ (١٥٢٣) مغادرا الجزيرة . وهذه الحملة هى إحدى الحملات الهمايونية عبر البحار النادرة كحملة فاتح على ميديللى وإكريبوز ؛ حيث إن النظام العثمانى لايسمح بخروج البادشاه عبر البحار .

تم تسريح نحو ٦٠٠٠ أسير مسلم فى رودس ، وأعفى الشعب الرومى من الضرائب لمدة ٣ سنوات وأسكنت الجزيرة بالأتراك القادمين من الأناضول ، وأصبحت لواء بحريا . كان كل الولاة الذين عينوا فيها برتبة لواء بحرى .

مات البابا Adrianus الذى علم بسقوط رودس (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٢٨) .

ولّد سقوط قلعتين من أقوى القلاع المسيحية التى تشكل مفاتيح استراتيجية والتى حاصر العثمانيون كلا منهما ثلاث مرات ، كبلغراد ورودس خلال سنتين متتاليتين الإعجاب والخوف الشديد فى أوروبا تجاه السلطان سليمان . استمرت هذه الحملة الهمايونية ٧ أشهر ، ١٢ يوما .

عاد البادشاه إلى استانبول يوم ٢٩ ك ١٥٢٣/٢ . من حملته هذه التى تعد إحدى الحملات الهمايونية الشتائية النادرة . قاومت قلعة رودس ٤ أشهر و٢٢ يوما .

أحال السلطان سليمان ، الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) بيرى محمد باشا ، والذى بقى فى الوزارة منذ عهد أبيه ، إلى التقاعد وعين بدلا منه مقبول إبراهيم باشا (١٥٢٣/٦/٢٧) [الذى كان تربه] وعمره ٢٨ سنة . مات بيرى باشا فى ١٥٣٢/١١/١٣ . اما عمه شيخ الإسلام زنبيللى على جمالى أفندى فإنه توفى فى

١٥٢٦ وبقى فى مقامه حتى وفاته ، كانت مدة مشيخته ٢٣ سنة . ومدة صدارة بيرى محمد باشا هى ٥ سنوات ، ٩ أشهر ، و١٤ يوما .

ترك الوزير الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا استانبول لمدة ١١ شهراً ، ٥ أيام (١٥٢٤/٩/٣٠ - ١٥٢٥/٩/٥) وذهب لتفتيش مصر . أجرى إصلاحات مهمة فى هذه الإيالة ، ونظمها على النمط العثمانى . قلل الضرائب . اجتمع بأصحاب الشكايات من الشعب واستمع إليهم ، عمر جامع عمرو بن العاص فاتح مصر .

لم يتمكن الشاه إسماعيل من التخلص من الكآبة النفسية التى ولدتها هزيمة جالدران ومات فى هذه الأيام (١٥٢٤/٥/٢٢) . كان عمره ٣٧ سنة . احتل مكانه ابنه طحمسب الأول الذى كان عمره ١٠ سنوات ، وانتقلت إدارة الدولة فى الحقيقة إلى الأمراء التركمان .

مات خان قرم منكلى كيراى خان فى سنة ١٥١٤ بعد أن ظل على العرش مدة ٤٤ سنة . شتت كبير أبنائه وخلفه محمد كيراى خان ، الجيوش الروسية فى ١٥٢١ ، ودخل مدينة موسكو وأحرقها . ومنها جاء إلى قزان وأجلس أحد إخوته صاحب كيراى على عرش قزان (جلس صاحب كيراى بعدها ١٩ سنة على عرش قرم) . فتح صاحب كيراى هذا فى ١٥٢٤ Nijni Novogrod (حاليا : غوركى) وهى من أهم المدن الروسية . عاد إلى قرم تاركا ابن أخيه صفاء كيراى بدلا منه فى قزان . حكم صفاء كيراى قزان مدة ٢٣ سنة كممثل للعثمانيين ، وفى ١٥٣٦ ، احتل للمرة الثانية Nijni Novogrod . أما محمد كيراى خان ، فإنه احتل إمارة استرخان فى ١٥٢٢ .

بهذه الفتوحات أصبحت الحدود العثمانية تمتد إلى شمال غربى بحر الخزر ، دلتا الفولغا ، إلى كاما ، إلى موسكو وإلى غوركى . جاء خاه قازان صاحب كيراى فى ١٥٢٤ إلى استانبول ومثل بين يدى السلطان سليمان . فتح إسلام كيراى فى ١٥٢٧ ، مدينة Ryazan فى جنوب شرق موسكو . وصل حكم ونفوذ العثمانية فى أوربا الشرقية إلى حده الأقصى حيث ظهرت بعدها فى أوربا قضايا كبيرة جدا .

الحملة الهمايونية ٣ : حملة أنكرس ٢ (المجر) أو موهاج (١٥٢٦)

يعزى اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو غرب البحر الأبيض وأسبانيا ، إلى تسلط أسبانيا – التى حققت وحدتها – على المغرب وغرب العالم الإسلامى ، أما سبب اتجاه السياسة الخارجية العثمانية نحو أوربا الوسطى اعتبارا من جلوس السلطان سليمان ، فهو ظهور عهد شارل – كوينت Charles - Quint .

اشتهر الحاكم الذى يحمل لقب كارلوس Carlos الأول كملك أسبانيا وكارل Karl الخامس كإمبراطور ألمانيا ، بلقب « شارل – كوينت Charles - Quint » ، ومع أنه من عائلة هابسبورغ أى انه ألمانى ، الا أنه لم يكن يحسن التكلم بالألمانية . نشأ فى هولندا ثم فى أسبانيا . حاز أجداده وأبواه اقطاراً كثيرة بالتزاوج .

لم ينجب فرناندو (وفاته ١٥١٦) ملك آراغون ونابولى وصقلية الكاثوليكى الذى حقق الوحدة الأسبانية بزواجه فى ١٤٦٩ وجلوسه فى ١٤٧٩ ، بملكة كاستيليا (أى أسبانيا الأصلية) إيزابيلا (وفاتها ١٥٠٤) سوى طفلة واحدة هى جوانا Juana . وحيث يجوز جلوس النساء على العرش فى كاستيليا ولم يكن هذا جائزا فى آراغون ، فإن جوانا لم تتمكن من الجلوس على عرش أسبانيا المتحدة عند وفاة أبيها فرناندو فى ١٥١٦ ، وأصبح ابنها ملكا على أسبانيا بلقب كارلوس Carlos الأول . وبذلك يكون هذا الشاب قد وحد على رأسه تيجان ٤ ملكيات كاستيليا ، آراغون ، صقلية ونابولى . وعند وفاة والد كارلوس (أى شارل – كوينت) ، امبراطور ألمانيا ماكسيميليان الأول ، انتخب إمبراطورا على ألمانيا كذلك . أما أخوات شارل – كوينت ، فقد تزوجن بملوك البرتغال-فرنسا – الدانمارك – النرويج – السويد ، المجر – بوهيميا وأصبحن ملكات تلك الأقطار .

كان شارل – كوينت الذى لايقيم كثيرا فى ألمانيا ويقيم فى أسبانيا وهولندا ، يدير ألمانيا بوساطة أخيهالأرشيدوق فردينادفون هابسبورغ . كانت عاصمة ألمانيا ، فيينا .

كان فرديناند يقيم فى فيينا كأرشيدوق (دوق كبير) للنمسا وتتبعه نحو ٥٠٠ دولة ألمانية . كانت أخته ماريا قد تزوجت بملك (١٥١٦ – ١٥٢٦) المجر وبوهيميا (جيكوسلوفاكيا) Lajos (وتقرأ لايوش) الثانى وتقيم فى بودابست .

وكان فرديناند متزوجا من أخت لايوش الثانى ، وهى أخته الوحيدة Anna (١٥٠٣ - ١٥٤٧) ولا أخ له ، ولم يكن للايوش الثانى ولد . أى أن الأرشيدوق فرديناند - الذى كان وكيلا للإمبراطور فى ألمانيا نيابة عن أخيه الكبير شارل - كوينت - وملك المجر لايوش أحدهما صهر وكذلك عديل للآخر .

استلفت هذا الوضع اهتمام العثمانية الشديد ، فانتخاب ملك أسبانيا امبراطوراً على ألمانيا ، وكونه الأخ الكبير لملكة المجر (باختصار ، حكمه أو سلطته على أوروبا الوسطى) صنع ماردا عجيبا كان يهدد الدولة العالمية العثمانية ، إذ إنه عدا أن وضع الدولة العثمانية مع أسبانيا بسبب المغرب ومسألة الأندلس واضح ، فإن وضعها المتقابل مع كل من جارتيها الشماليتين المجر وألمانيا معلوم كذلك .

صمم السلطان سليمان على تشتيت هذه الدولة وتقسيمها إلى دول كما كانت فى السابق . ويلاحظ أنه فى ذلك الوقت كانت أسبانيا هى الدولة المسيحية الوحيدة التى تمتلك أقدر جيش وأسطول ، كما كانت قد أصبحت ذات مستعمرات كبيرة فى أمريكا .

وكان يجب ضرب مارد شارل - كوينت فى جبهتين : فى أوروبا الوسطى والبحر الأبيض .

قرر السلطان سليمان أن يترك الأمر فى البحر الأبيض إلى بربروس خير الدين باشا ، أما مسألة أوروبا الوسطى فقد قرر أن يتبناها بنفسه .

سنرى فيما بعد أن شارل - كوينت سوف يتفق مع إيران الصفوية وسوف يحاول ضرب تركيا من الشرق .

بقى ملك فرنسا فرانسوا Francois وملك إنكلترا هنرى ٨ Henry مستقلين بين الحكام الأوروبيين ، وكان شارل - كوينت قد أدخل البقية بشكل أو بآخر فى قبضته .

عزم فرانسوا ١ على منازلة الإمبراطور شارل - كوينت مهما كلفه الأمر ، لكنه هزم فى الحرب الميدانية وأسر وسيق إلى مدريد وسجن فى أحد القصور .

أرسلت أمه Louise Savoie ، الكونت Jean Frangipani إلى السلطان سليمان

القانونى ورجته تخليص ابنها من السجن . وعندما اطلع السلطان (١٥٢٥/١٢/٦) على كتاب نائبة ملكية فرنسا ووالدة ملك فرنسا ، أصبحت بيدة حجة مهمة تجاه شارل – كوينت كما أصبح معه حليف طبيعى فى الغرب ، وأصبح بإمكانه التحرك باسم ملك فرنسا بصورة شرعية ورسمية ، حيث إن فرنسا قد طلبت منه ذلك بصورة رسمية .

كان شارل – كوينت بالنسبة ، للأوروبيين ، إمبراطورا على روما الغربية ، أما السلطان سليمان ، فإنه إمبراطور روما الشرقية ، وكان السلطان سليمان يرى أنه هو إمبراطور روما الموحدة وان شارل – كوينت غاصب . وبالنسبة للديبلوماسية العثمانية ، كان شارل – كوينت هو « كارلوس ملك أسبانيا » فقط ، ولا نجدأبداً صفة الإمبراطور لشارل – كوينت فى أى وثيقة عثمانية . أما بالنسبة لفرنسا ، فقد كان لجوءها لإمبراطور أوربا الشرعى ، السلطان سليمان ، أمراً مشروعا بالنسبة للقانون الدولى فى ذلك العهد ؛ إذ كان فى ذلك العصر مرجعان اثنان بالنسبة للملوك المسيحيين الذين يصيبهم الحيف : الإمبراطور والبابا ، وكانت قوة البابا العسكرية محدودة ، إذ لم يكن يسيطر إلا على إيطاليا الوسطى فقط .

كان شارل – كوينت قد سجن فرانسوا فى قصر Alcazar (بالعربية : القصر) من مخلفات العرب فى مدريد (بالعربية : مجريط) ، وأجبره هناك على توقيع معاهدة مدريد (١٥٢٦/١/١٤) ذات الشروط الصعبة وأخلى سبيله .

ذهب فرانسوا الذى وقع هذه المعاهدة السيئة للحصول على حريته إلى باريس ناجيا بنفسه ، ولم يكن ينوى أبدا تنفيذ شروط هذه المعاهده ، وأخذ فى تطوير العلاقات التى بدأت والدته بتأسيسها مع السلطان سليمان ، وأخذ يرجو ويطلب من استانبول طلبات لانهاية لها ؛ فقد كانت قوته العسكرية غير كافية لمجابهة الإمبراطور – الملك .

اضطر شارل – كوينت ، خلال سلطنته الطويلة ، إلى مواجهة أربعة أعداء ألداء له : أحدهم سليمان القانونى ، الثانى بربروس خير الدين باشا ، الثالث فرانسوا ١ ، ورابعهم مارتن لوثر .

لقد كان ظهور لوثر فى هذه السنوات بالضبط ، نعمة بالنسبة للعثمانية . تمزقت

الوحدة الكاثوليكية . عمل شارل - كوينت الكاثوليكى المتعصب ، مابوسعه للقضاء على هذا الرافضى المتعنت ، لكن مذهب لوثر انتشر بسرعة فائقة ، وأصبحت أقطار كثيرة تدين بالبروتستانتية ، وانفصلت عن نفوذ البابا . عمل القانونى مابوسعه لمساندة لوثر وتقويته .

وهكذا تمهد السبيل إلى حملة القانونى الهمايونية ٣ (١٥٢٦) وهى أشهر حملة بين حملاته الـ ١٣ . لقد كانت حملة بلغراد التى جرت قبل ٥ سنوات على المجر أيضا (بالعثمانية : إنكرس Engûrüs) ، ولكنها كانت محلية ، ولم تكن تستهدف سوى فتح القلعة مفتاح أوربا الوسطى ، بينما كانت حملة المجر فى هذه المرة حربا شاملة ، تستهدف القضاء على الملكية الكبرى التى دخلت تحت جناح ألمانيا وشارل - كوينت . لم تكن العثمانية ترغب فى ملك يرثه عند وفاته فى بودابست شاب عديم التجربة ، لاوريث له ، صهر وفى نفس الوقت عديل لشارل - كوينت . لم يكن بوسعها أن تسكت على تهديد كبير كهذا فى شمال ألطونة .

لم تكن ملكية المجر ، آنذاك ، المجر الحالية الصغيرة . كانت المجر الكبرى التى تمتد حتى البحر الأدرياتيكى ، والحقيقة أنها تكونت من اتحاد ملكيتى المجر وبوهيميا (جيكوسلوفاكيا) . وهى تشمل عدا جيكوسلوفاكيا الحالية ، كافة الأقطار الشمالية ليوغسلافيا (سلوفينيا ، خرواتيا ، إكلافونيا ، أى مابين سافا - درافا ، فويفودينا) ، ترانسلفانيا (بالتركية : أردل) التى ظلت حاليا فى رومانيا وبانات ، وتشمل منطقة الكاربات التى ظلت حاليا فى أوكراينا . ومع أن المجريين هم العنصر المسيطر ، إلا أنه كان للملكية كثير من الرعايا السلاف (الجيك ، السلوفاك ، السلوفين ، الخروات) ، وحتى الألمان والرومان والصرب . كانت دولة كاثوليكية تعتمد على جيش قوى . كانت ملكية راسخة يرجع تاريخها إلى ٦٣٧ سنة . كان نفوذ العثمانية كبيرا على دوقية خرواتيا منذ سنوات طويلة .

سار السلطان سليمان من استانبول (١٥٢٦/٤/٢٣) . وصل بلغراد (١٥٢٦/٧/٩) . كان الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا مشتركا فى الحملة . تم الاستيلاء على قلعة بترفارادين ، ذات الأهمية بعد أن قاومت ١٣ يوما (١٥٢٦/٧/٢٧) . تمكن الجيش الهمايونى من العبور من فروع ألطونة براحة وانتظام بفضل الجسور الكبيرة التى تم تشييدها وفى ٢٣ آب ، هدم السلطان سليمان

بنار المدفعية جسر درافا الذى اكتمل فى ١٩ آب ، وكان هذا يعنى أنه لاعودة إلى الوراء . وانه كان يتحتم فتح المجر . دخل الجيش الهمايونى (الإمبراطورى) إلى سهل المجر الكبير (بالمجرية : Alföld)من الجنوب ، وجاء إلى صحراء موهاج التى تقع على مسافة ١٨٥ كم شمال غربى بلغراد ، و١٧٠ كم جنوب بودابست . وبذلك يكون الجيش الهمايونى قد قطع من استانبول مسافة ١٥٠٠ كم خلال ١٢٨ يوما .

كان قوام الجيش الهمايونى ١٠٠٠٠٠ جندى و٣٠٠ مدفع (Hammer و ٥ ، ٧٦) أما الجيش المجرى فقد كان يبلغ عدده نحو ٢٠٠٠٠٠ ، ويتكون من أقوام مختلفة . ومن بين هذا العدد ٣٨٠٠٠ من الوحدات المساعدة التى جاءت من ألمانيا .

كان يقود الجيش ابن عمة البادشاه غازى بالى بك ، ويقود المؤخرة ابن عمة البادشاه كذلك غازى خسروبك ، وكانت فرق الصاعقة تقوم بصيانة طريق الجيش .

جعلت الامطار المستمرة منذ شهور من السهل ، مستنقعات متناثرة ، وكان الرذاذ مايزال يتساقط . وقد كانت بالفعل ناحية من السهل (بالتركية : قره صو) ،ستنقعا كبيرا .

دخل البادشاه بعد صلاة الصبح بين صفوف الجيش وألقى خطبة بليغة ثم دخل بين صفوف فيلق الصاعقة وألقى خطابا على الجند هناك أيضا قال فيه إن : « روح الرسول ﷺ تنظر إليكم » . ويقول جلال - زاده : إن السباهيين لم يستطيعوا السيطرة على دموعهم . كان البادشاه مرتديا درعه .

هجم المجريون الذين سئموا الانتظار فى وقت العصر . أمر البادشاه فرق روملى بالأنشطار إلى قسمين ، وجر العدو إلى الداخل بعد مقاومة قليلة . كان ٣٥ فارسا مجريا قد أقسموا على قتل البادشاه ؛ ٣ منهم الفارس Marczali ورفيقاه ، استطاعوا الاقتراب من البادشاه ، وقتل الآخرون . أصيب القانونى برمية سهم ، لكن السهم لم ينفذ من الدرع ، وقتل الفرسان الثلاثة بسيفه . يعتبر هذا الحادث من الملاحم الوطنية فى التاريخ المجرى . تم تدمير الخيالة المجرية المدرعة التى تعرضت لقصف ٣٠٠ مدفع دفعة واحدة . قام بالى وخسرو بمناورات مستمرة تستهدف سوق العدو نحو المستنقعات . استمرت الحرب ساعة ونصف ساعة فقط . وفى نهاية هذه المدة ، أصبح الجيش المجرى الذى عاش ٦٣٧ سنة فى ذمة التاريخ .

ظل القسم الأكبر من جيش المجر فى ساحة الحرب وغرق أكثرهم فى المستنقعات فى موهاج ، إن هذه المعركة لهى أكبر حروب الإبادة النموذجية والكلاسيكية فى التاريخ .

غرق الملك لايوش الثانى ، و٧ أساقفة ، وجميع القواد الكبار فى المستنقع ، وأسرت البقية وهم ٢٥٠٠٠ جندى .

انتهت الحرب خلال رمشة عين ، حتى إن العدو لم يتمكن من إدراك ماحاق به . كانت خسائر الأتراك ١٥٠ شهيدا ، وبضعة آلاف من الجرحى وقد تحركوا بدقة كبيرة بحيث لم يقع واحد منهم فى المستنقع . « لم يشهد التاريخ حربا كموهاج ، حسمت نتيجتها على هذه الصورة فى مصادمة واحدة ، ومحت مستقبل شعب كبير لعصور طويلة » (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٦٢٢) .

قام الجيش الهمايونى باستعراض فى صحراء موهاج فى ٣١ آب وحيا الخاقان . هنأ الخاقان وقبل يده جميع القواد ابتداء من الوزير الأعظم فردا فردا . وبعد صلاة الفجر فى يوم ٣ أيلول ، أخذ الجيش فى الصعود نحو الشمال بمحاذاة ساحل ألطونة الغربى . وصلوا إلى بودابست (بالألمانية : Ofen ، بالمجرية : Budapest ، بالعثمانية : بودين) خلال ٨ أيام . دخل السلطان سليمان مدينة عرش المجر (١٥٢٦/٩/١١) . كان قد أحتفل بعيد الفطر فى (١١ تموز) فى بلغراد . استقبل السلطان سليمان تهانى عيد الأضحى فى سراى الملك (١٧ أيلول) . مكث ١٣ يوما فى المدينة .

كانت علاقة فويفودا (أمير) أردل (ترانسلفانيا) Szapolya (Zapolya) متوترة مع الملك ، لذا لم يشترك فى موهاج . جاء مع جنوده الـ ٣٠٠٠٠ إلى البادشاه وعرض طاعته . كان سبب خلافه مع الملك لايوش المتوفى ، ازدياد نفوذ الألمان فى المجر . نصب السلطان سليمان Zapolya ، ملكا على المجر وأميرا على أردل تابعا لتركيا ومنحه عرش بودابست . ألحق إسكلافونيا مباشرة . أما جيكوسلوفاكيا ، فقد ألحقها الأرشيدوق فرديناند المدعى لوراثة لايوش ٢ ، وأصبح ملكا على بوهيميا .

استغرقت الحملة الهمايونية ٣ سنة ، و٦ أشهر و٢٠ يوما . عاد السلطان سليمان إلى استانبول كـ « فاتح المجر » (١٥٢٦/١١/١٣) ، تبدل الميزان تماما فى أوربا

الوسطى ، وصلت الحدود التركية إلى النمسا وجيكوسلوفاكيا . ودخلت العثمانية بين دول أوربا الوسطى .

(٤) الحملة الهمايونية ٤ : حملة فيينـا (١٥٢٩)

بعد أن مكث السلطان سليمان فى استانبول نحو سنتين ونصف غادر استانبول (١٥٢٩/٥/١٠) فى الحملة الهمايونية ٤ . كان يرافقه إبراهيم باشا أيضا . كان يحمل مهمات الجيش ٢٢٠٠٠ جمل وعشرات الألوف من البغال . قبل السلطان زيارة الملك زابوليا الذى جاء مع ٦٠٠٠ خيال فى سرادقه الهمايونى فى صحراء موهاج يوم ١٨ آب ، وسمح له بتقبيل يده . جلس على الكرسيين الذهبيين الموضوعين أمام عرشه الذهبى ، إبراهيم باشا وزابوليا . وكما هو معلوم فإن تيجان ملوك المجر المكونة من تاجين متداخلين أحدهما داخل الآخر تسمى كورونا Corona ، ومن لايملك هذا التاج تعتبر ملكيته مشكوكا فيها . سرق جواسيس الملك فرديناند الكورونا ، وكانوا على وشك أن يهربوا به إلى فيينا . وفى ٢٠ آب قطع بالى بك طريق الجواسيس فى طريق فيينا وتمكن من ضبط الكورونا وأرسله فى ٤ أيلول إلى السلطان سليمان الذى أرسله إلى زابوليا .

كان زابوليا قد فشل فى الدفاع عن بودابست (بالعثمانية : بودين) أمام الألمان وخرجت من حوزته إلى الألمان . كان غرض الحملة استرجاع بودين وإخراج الألمان من المجر . جاء السلطان سليمان فى ٣ أيلول ١٥٢٩ أمام المدينة التى يحتلها الألمان منذ ٢٠ آب ١٥٢٧ . سلم الألمان القلعة والمدينة إلى الأتراك بعد ٥ أيام . غادر الخاقان بودين فى ١٢ أيلول . جاء زابوليا فى ١٤ أيلول ولبس التاج فى سراى الملك . وضع سكبانباشى الإنكشارية التاج على رأس ملك المجر . وفى هذه المرة ترك حسن بك فى بودين كقائد للقلعة . حيث اتضح أن زابوليا بجنوده غير قادر على حماية القلعة فى مواجهة الألمان .

كان السلطان سليمان يبحث عن جيش الملك فرديناند ، ولكن الالمان كانوا حريصين على أن يتجنبوا عاقبة كعاقبة كموهاج .

عثر غازى محمد بك أخو بالى بك على أحد الجيوش الألمانية قرب قصبة Bruek على مسافة ١٥ كم جنوب شرق فيينا وهزمه . أسر القائد العام Von Zedlitz و ٦ من جنرالاته . وفى ٢٧ أيلول ، جاء الجيش الهمايونى والخاقان أمام قلعة فيينا (بالعثمانية : بچ) ، وكانت عرش الامبراطورية الوحيدة للعالم المسيحى .

تم إخلاء المدينة ، كان الألمان قد تركوا المدينة على دفعات فى قوافل ، كل منها ٥٠٠٠ شخص . أسرت الصاعقة بعض هذه القوافل . ترك الملك فرديناند مدينة العرش وانسحب إلى لينز . تولى الدفاع عن فيينا الكونت Nicolas Von Salm وعمره ٧١ سنة مع معاونه الفيلد مارشال Wilhelm Von Rogendorf . بقى فى المدينة ٢٠٠٠٠ من المشاة ، و٢٠٠٠ خيال والمدفعية ووحدات أخرى . أبلغ فرديناند أخاه الكبير شارل - كوينت بأن السلطان سليمان ينتوى الوصول إلى نهر الراين . اتخذ الخاقان Kaiser Ebers dorf الواقعة على مسافة ٢ كم من القلعة ، مقرا له . أحرق الألمان ٢٨ سفينة حربية فى ألطونة لئلا يستولى عليها الأتراك . كان بالقلعة عتاد ومهمات تكفى لعدة شهور .

لم يكن غرض حملة السلطان سليمان احتلال فيينا ، بل كان غرضها العثور على الجيش الألمانى السيار وإبادته . جاء إلى فيينا لتعجيز العدو . ولم يكن ذلك ضمن خطته . حيث إنه كان قد ترك مدافع الحصار الثقيلة فى بودين . حوصرت المدينة مدة ١٩ يوما فقط (٢٧ أيلول - ١٦ ت١/١٥٢٩) . لم تكن هذه المدة كافية فى ذلك العهد لإسقاط قلاع بهذا الحجم عنوة ، فعلى سبيل المثال كان السلطان سليمان قد أسقط قبل عدة سنوات قلعة بلغراد خلال ٣٤ يوما ورودس خلال ١٤٤ يوما . لم يتمكن السلطان من العثور على الجيش الألمانى السيار ، ولم يشأ شارل - كوينت أن يرتكب عملا خاليا من الحيطة كهذا . رفع الحصار عند هطول الثلج .

دامت الحملة الهمايونية ٤ مدة ٧ أشهر ، و٧ أيام . عاد الخاقان إلى استانبول يوم ١٥٢٩/١٢/١٦ . كانت خسائر العثمانية فى هذه المرة ١٤٠٠٠ بين شهيد وجريح .

جرت طوال مدة استمرار الحملة الهمايونية ٤ ، فى صيف وخريف ١٥٢٩ ، أكبر عملية غزو فى التاريخ العثمانى . أصبحت المنطقة من النمسا ، بافيرا ، مورافيا ،

بوهيميا ، سلوفاكيا ، سيليزيا ، سلوفينيا وحتى الحدود السويسرية ، مجالا للغزو .
اجتاح ابن عمة القانونى يحيى باشا – زاده غازى محمد بك (شقيق بالى بك) فعليا كلا من بافيرا ، بوهيميا ، مورافيا واحتل فعلاً Regensbuvg مركز بافيرا و Brünn مركز مورافيا .

واجتاح مالقوج أوغلو قاسم بك ، الإيالات النمساوية ودخل فريق من المغاوير Vaduz مركز إمارة Liechtenstein وأحرق قصر الأمير وأسر ابنه ، ثم دخل سويسرا ، ووصل إلى نهر الراين . إلى خط طول ٩ نحو الغرب .

تقع Vaduz على مسافة ٥٠٠ كم (مسافة مستقيمة) جنوب غربى فيينا (Lavisse - Rambaud ، ٤ ، ٧٢٧ ، هامر ، ٥ ، ١٣٢ ، ٤٨١) .

احتل الأتراك فى (١٥٢٩/١١/١٥) Graz المدينة الكبيرة الثانية فى النمسا ، وكذلك Maribor فى سلوفينيا ، وكان الغزو لايزال مستمرا فى ك ١٥٢٩/١ ، حيث كانت الغاية تأمين انسحاب الجيش الهمايونى ، وتأمين عدم تدخل الألمان مرة أخرى فى أمور المجر .

انكسرت شوكة شارل – كوينت وانهارت خطة التحكم فى أوربا . جاء السفراء الألمان إلى استانبول فى ت ١/ ١٥٣٠ ، وطلبوا إقرار صفة الإمبراطور لشارل – كوينت ومنح المجر لاخيه فرديناند بنفس الشروط التى منحت بها إلى زابوليا (أيا كانت) ، أو بشروط أكثر ملاءمة للعثمانية . رفض إبراهيم باشا بصورة قطعية . وعلى أثر ذلك ، ولكى يحصل شارل – كوينت على الصلح الذى ينشده بالقوة ، تحرك فى شتاء ٣٠ – ١٥٣١ .

وفى الأيام التى كان يحاصر فيها قاسم باشا Sigetvar الموجودة فى حوزة الألمان بدأ فرديناند كذلك بمحاصرة بودين . دام الحصار نحو شهرين .

كان حامى القلعة كوجوك قاسم باشا ، وكان بالقلعة ٣٠٠٠ جندى تركى و ١٠٠٠٠ مجرى . لكن المصاعب بدأت تلوح فى بودين . لحق داماد غازى يحيى باشا – زاده سلطان – زاده غازى محمد بك (باشا) ، مع أفراد صاعقته . طارد جيش الفيلدمارشال Von Roggendorf – الذى رفع الحصار بصورة مستعجلة – إلى أعماق النمسا وأسر ١٥٠٠٠ . لكن السلطان سليمان قرر القيام بحملة جديدة

على ألمانيا فى الربيع ، سواء للرد على حصار بودين أو بأمل ضرب جيش شارل - كوينت فى حرب ميدانية .

(٥) الحملة الهمايونية ٥ : الحملة الألمانية ٢ (١٥٣٢)

سار السلطان سليمان الثانى من استانبول ، مع إبراهيم باشا فى ٢٥ نيسان ١٥٣٢ ، مستصحبا معه ٢٠٠٠٠٠ جندى و٤٠٠ مدفع . فتح قلاع Siklos (بالتركية : شيكلوش) (٢١ تموز) ، Kanije (بالمجرية : Nagy Kanizsa ، بالألمانية : Gross - Kanisa) (٣٠ تموز) و١٥ قلعة أخرى من الدرجة الثانية ، هى قلاع المجر الجنوبية - الغربية التى كانت بحوزة الألمان . شيد جسرا على نهر Raba (بالألمانية : Raab) واجتازه . جاء أمام قلعة Güns (بالمجرية : Köszeg ، بالتركية : كونش) وهى قلعة مهمة على بعد ٢ كم من حدود النمسا و٩ كم جنوب فيينا وفتحها فى ٢٨ آب ، ولذلك يطلق على هذه الحملة فى التاريخ العثمانى اسم « حملة كنز » ، « حملة نمجه (أوستريا) » .

ورغم أنه حرر فى ٣٠ آب رسالة شديدة اللهجة إلى الملك فرديناند تساءل فيها عن محل وجوده وأخيه الكبير ، لكنه لم يصادف الجيش الألمانى السيار ، وأيقن جيدا أن شارل - كوينت سوف لايرضى بحرب ميدانية وأنه سيسيطر على المجر بطريقة اضرب وأهرب . وفى ١١ أيلول دخل السلطان سليمان Graz المدينة الكبيرة الثانية فى النمسا . سقطت كثير من القلاع النمساوية ، واحتل المدن والنمسا بكاملها .

عاد الخاقان إلى استانبول (١٥٣٢/١١/٢١) من حملته التى دامت ٦ أشهر ٢٦ ويوماً .

بعد المفاوضات الطويلة مع الديبلوماسيين الألمان ، أبرمت معاهدة استانبول (١٥٣٣/٦/٢٢) . وافق الديوان الهمايونى (حكومة الإمبراطورية العثمانية) الذى قرر الحملة على إيران ، على الصلح مع ألمانيا . تم تثبيت الحدود التركية - الألمانية على أساس الحدود النمساوية - المجرية الحالية تقريبا .

نصت المعاهدة على أن تبقى قلعة Györ (بالتركية : يانق قلعة بالألمانية :

Raab) المهمة – التى تعتبر مفتاح فيينا – لدى العثمانية . تبعد هذه المدينة مسافة ٩٥ كم غربى بودابست و٨٠ كم جنوب شرقى فيينا ، و٦٠ كم جنوب شرقى براتسلافا ، و١٢ كم عن ألطونة ، على الضفة الغربية من نهر Raba (بالألمانية : Raab) .

تضمنت المعاهدة أيضا اعتراف الديوان بفرديناند ملكا على بوهيميا وأرشيدوقا على النمسا ، وتعتبر أسبانيا خارج معاهدة الصلح .

وبموجب المعاهدة أيضا يعتبر فرديناند فى التشريفات معادلا للوزير الأعظم (رئيس الوزراء) ويخاطب أحدهم الآخر بكلمة « أخى » يعتبر الطرف الألمانى Zapolya التابع للسلطان ، ملكا على المجر ومعادلا له ويعترف بالبادشاه « أبا » له .

الحملة الهمايونية ٧ : حملة إيطاليا (كورفو و بوليا) (١٥٣٧)

خرج سليمان الثانى بحملة إيران ١ ، بعد هذه الحملة كما سنرى فيما بعد .

أعلنت الحرب على البندقية وسار البادشاه من استانبول بالأسطول الهمايونى فى ١٥٣٧/٥/١٧ ، وكان مشير البحر بربروس خير الدين باشا قد سار بالأسطول الهمايونى من استانبول قبل ٦ أيام ، وكان إياس محمد باشا ، الوزير الأعظم منذ ١٥٣٦/٣/١٥ ، يرافق البادشاه . أما الوزير ٣ (وزير أعظم فى المستقبل) داماد لطفى باشا ، فقد كان فى الأسطول مع بربروس ويقود جنود المشاة الموجودين فى الأسطول .

وهكذا انهار الصلح الذى كان مستمرا مع البندقية منذ معاهدة ١٥٠٢/١٢/١٤ أى منذ ٣٥ سنة .

ومن أسباب الحملة قيام البندقية بتقديم المساعدات المستمرة خفية لألمانيا – أسبانيا ، ورفضها دعوة الديوان لاتفاق تركية – فرنسا .

كان بصحبة البادشاه من أبنائه الأمير (شهزاده) محمد والأمير سليم (الثانى) ، وكان عمراهما ١٦ و١٣ سنة . أما أولو شهزاده (ولى العهد) مصطفى الذى كان عمره ٢٢ سنة ، فقد كان فى مانيسا يقوم بإدارة لواءيه صاروخان وآيدن . وبالنسبة

للمعاهدة ، كان ملك فرنسا François ، قد احتل من ألمانيا كونتية Savoie ، لكنه لم يجسر على الدخول إلى شمال إيطاليا وأخل بهذا البند من المعاهدة .

جاء السلطان سليمان إلى ميناء آفلونيا فى ألبانيا ، الواقع على بوغاز أوترانتو والساحل المقابل له قلعة – ميناء اوترانتو وإيالة بوليا Pulya الإيطالية ، عن طريق استانبول – أدرنة – فيليبه – اسكب – الباسان . وكانت إيالة بوليا وجميع جنوب إيطاليا فى حوزة اسبانيا ، أما جزيرة كورفو العائدة للبنادقة فإنها تقع جنوب آفلونيا .

كان الأسطول الهمايونى المكون من ٢٨٠ قطعة والجيش الهمايونى قد دخلا إلى خليج آفلونيا فى ١١ تموز قبل البادشاه بيومين . اجتاز الأسطول بوغاز أوترانتو البالغ طوله ٩٢ كم وأنزل جنودا فى إيطاليا وفتح أوترانتو (١٥٣٧/٧/٢٣) . كان قد مضى ٥٦ سنة على إخلاء الأتراك أوترانتو فى ١٤٨١ .

أعلنت برنديزى خضوعها . لكن لطفى باشا أخلى إيطاليا بعد ٢١ يوما وعاد إلى آفلونيا (١٣ آب) ، وبدأ حصار كورفو (٢٥ آب – ٦ أيلول) التى تقترب من الساحل التركى إلى حد ٥ كم . احتل كامل الجزيرة ، وكانت القلعة مازالت تقاوم ، تم إنزال ٥٠ ٠٠٠ جندى وأكثر من ٣٠ مدفعا إلى الجزيرة . لكن البادشاه أمر برفع الحصار فى اليوم الـ ١٢ من الحصار . عارض لطفى وبربروس فى رفع الحصارات وأفادا بأن القلعة سوف تسقط بعد ١٢ يوما آخرين ، لم يستمع البادشاه لهما ؛ فقد كان متأثرا بمنظر استشهاد أربعة من الجنود الأتراك دفعة واحدة بقذيفة مدفعية أطلقت من القلعة .

أخليت الجزيرة فى ١٤ أيلول ، وأصدر القانونى أمر العودة . عاد إلى استانبول (١٥٣٧/١١/٢٢) بعد ٦ أشهر و٦ أيام عن طريق منسطر – سلانيك – سرز – قاوالا ، ديمتوكا – أدرنة . مكث ٢٤ يوما فى أدرنه أثناء عودته .

قلب بربروس فى طريق عودته جزر كيكلاد وكريت رأسا على عقب . طلبت البندقية الصلح . رجت فرنسا الديوان فى قبول هذا الصلح . وصل خبر انتصار Vertizo (١٥٣٧/١٢/٢) بعد ٢٠ يوما من وصول القانونى إلى استانبول . كان السلطان – زاده (سليل العائلة المالكة) غازى محمد بك ، قد أباد جيش الجنرال كاتزيانر Katzianer – المكون من ٤٥ ٠٠٠ جندى و٤٩ مدفعا – الذى اقترب إلى Vertizo قرب Osiyek فى شرق خرواتيا .

(٧) الحملة الهمايونية ٨ : حملة بغدان (مولدافيا) (١٥٣٨)

خرج البادشاه فى السنة التالية بحملة بغدان (١٥٣٨/٧/٨) . وتصادف فى هذه الأيام خروج بربروس خير الدين باشا بحملة البحر الأبيض التى أثمرت انتصار Preveze ، أما والى مصر (وزير أعظم فى المستقبل) سليمان باشا ، فقد كان فى حملة الهند . اشترك فى هذه الحملة كل من الشهزاده محمد والشهزاده سليم (الثانى) ، الوزير الأعظم أياس محمد باشا والوزير الثانى داماد لطفى باشا . وكان فاتح وبايزيد الثانى قد قاما سابقا بحملات على بغدان (مولدافيا) .

كانت بغدان (مولدافيا) إمارة رومانية مستقلة ذاتيا تابعة لتركية . لم يكن لديها ساحل على البحر الأسود وكان قسمها الساحلى تابعا لإدارة العثمانية المباشرة . كان دخول الفويفودا (لقب أمراء المجر) بترو ٥ ، بتحريض سرى من ألمانيا ، أراضى ملكية بولونيا المتصالحة مع تركية ، وشكوى السفير البولونى ، أحد أسباب هذه الحملة . أعدم السلطان سليمان جنديين تركيين لحرقهما دارا تخص مسيحياً فى ٢٩ آب عندما كان الجيش فى قيزيل كول قوناغى فى شمال دوبروجه وايساكجى . تم تسجيل هذا الحادث فى الكتب المدرسية الأوربية كقصة كلاسيكية ، كان الجيش فى أراضى العدو ، لكن الحرب كانت قائمة . ولم يكن الإعدام هو عقوبة هذا الفعل فى أوقات الصلح .

تم اجتياز نهر Prut من الجسر الذى شيده المعمار سنان فى ٣١ آب . جاء الجيش إلى ياشا أكبر مدن بغدان ، ومنها إلى سوجوفا (بالرومانية : Sueeava) عاصمة الإمارة التى تبعد عنها ١١٠ كم (١٥٣٨/٩/١٥) . كان قد تم اجتياز نهر Seret كذلك . مكث القانونى فى سوجوفا مدة ٧ أيام . أعلن البويار (أشراف الرومان) الرومانيون خضوعهم للبادشاه ، وأعلنوا تمرد الأمير الهارب وعدم اعترافهم به . كانت بشرى كبيرة تنتظر السلطان سليمان فى قصر يانبولو عند عودته (١٥٣٨/١٠/١٥) : لقى أمامه حسن بك بن بربروس خير الدين باشا ، الذى قص عليه تفصيلات انتصار Preveze الذى تحقق قبل ١٧ يوما . عاد البادشاه إلى استانبول فى ١٥٣٨/١١/٢٧ من أقصر حملاته التى استمرت ٤ أشهر و٢٠يوما .

نتيجة لهذه الحملة ، ضمت الأراضى الواقعة بين نهرى دنيستر الذى يطلق عليه الأتراك اسم « بوجاق » وبروت ، إلى الإدارة العثمانية المباشرة وفصلت عن بغدان . ومنذ ذلك الحين تقرر تخصيص حامية مكونة من ١٠٠٠ سباهى و٥٠٠ إنكشارى فى سوجوفا بدعوى حراسة الفويفودا . ألحقت بالعثمانية كامل البلاد المنحصرة بين بروت ودنيستر (بالتركيه : تورلا) والتى تسمى بيسارابيا ، وقلصت حدود بغدان بصورة كبيرة . وفى هذه الحملة ، شاهدت الأراضى الرومانية ، لأول مرة فى تاريخها ، الفيلة حاملة الكوس (الطبل الضخم) (كاتب جلبى ، فذلكة ، ١/٤٠٤) .

كذلك أخذت من إمارة أفلاق ، المناطق المحيطة بمدينة إبرائيل وضمت إلى الإدارة العثمانية المباشرة (١٥٤٣) . تمت السيطرة بشكل كامل على المناطق الحساسة لنهر ألطونة . أصبحت دوبروجه منذ ذلك العهد وكأنها بلادا تركية . وارتفع عدد سكان باباداغ إلى ١٠٠ ٠٠٠ نسمة . جاء خان قرم وخان قازان السابق صاحب كيراى مع جيشه فى هذه الحملة ، وانضم إلى الجيش الهمايونى .

أبرمت مع البندقية معاهدة استانبول (١٥٤٠/١٠/٢٠) . وهكذا تم على نطاق واسع الحيلولة دون انحياز البندقيه إلى شارل -- كوينت . ترك آخر رصيفين بحريين بندقيين فى مورا (Malvoisia = Monemvasia بالتركية : منكشة = بنفشة ، وNauplia = Navplion = لتركية : آنابولو) إلى تركيا ، وانتقلت بعض الجزر فى جنوب إيجه ، قلعتين فى دالماجيا (Nadin وUrana) إلى تركية . وسددت البندقية بالإضافة إلى ذلك ٣٠٠ ٠٠٠ ليرة ذهب كغرامات حرب .

(٨) الحمله الهمايونية ٩ ؛ حملة بودين (١٥٤١)

غادر القانونى استانبول فى حملته الـ ٩ بتاريخ ١٥٤١/٦/٢٠ .

سبق أن ذكرنا أنه قد تم إعلان اعتبار الملك زابوليا فى ١٥٢٩ « ابنا معنويا » للسلطان سليمان (Makkai ، ١٢٤) ، كما وافق القانونى فى ١٥٣٣ على اعتبار الملك فرديناند كذلك ابنا معنويا له .

لم يكن فرديناند قد ترك بعد أطماعه فى المجر ، وكان كبير الأمل فى ذلك لأن الملك زابوليا ، زوج أخت ملك بولونيا ، لم يكن له ابن ، لكن زابوليا تزوج بأمر القانونى بابنة ملك بولونيا Sigismund الأول ، وأنجب ابنا ، لكنه توفى بعد ١٥ يوما من ولادة الطفل (١٥٤٠/٨/٢٢) وعمره ٥٣ سنة بعد أن ظل ملكا على المجر مدة ١٥ سنة .

إن ترك طفل لايتجاوز عمره ١٥ يوما على عرش المجر - ترانسلفانيا ، كان يعنى تحريكا لأطماع فرديناند ، وبخاصة أن الأم البولونية ، شابة وليست ذات نفوذ ، وتشغل موقع نيابة السلطنة وهى ليست ذات كفاءة للمنصب .

كان هذا هو الوضع الذى استدعى قيام الخاقان بحملة جديدة . كان يرافقه أبناؤه شهزاده سليم (الثانى) وعمره ١٧ سنة وشهزاده بايزيد وعمره ١٥ سنة ، قضعسكر (قاضى العسكر) روملى (شيخ الإسلام فى المستقبل) أبو السعود أفندى ، سليمان باشا الذى صار صدرا أعظم بدلا من داماد لطفى باشا .

أرسل فرديناند الذى أراد السبق والمبادرة ، جيشا ألمانيا كبيرا بقيادة Von Roggendorf وحاول فتح بودين . فاجأ غازى محمد بك (باشا) الجيش الألمانى (ليلة ٢١ - ٢٢ آب ١٥٤١) فى Istabur خارج بودين . هرب الألمان بعد أن تكبدوا خسائر فادحة جدا . نصب السلطان سليمان سرادقه خارج بودين بعد الانتصار بـ ٤ أيام فى ٢٦ آب . وفى ٢٠ آب استقبل الملك المسمى Janos الثانى = يانوش » وعمره سنة واحدة بمراسم خاصة ، احتضن الأمراء (شهزادات) الطفل ولاطفوه بمحبة . أعلن السلطان سليمان ، أنه منح يانوش الثانى إمارة أردل (ترانسلفانيا) وأنه يسمح له بأن يحمل لقب « ملك » إلى نهاية حياته .

أما المجر ، فقد أعلن أنها أصبحت إيالة باسم « إمارة بودين » (١٥٤١/٨/٢٩) . سوف تصبح الإيالة الثانية بعد مصر ، وقبل روملى .. فى التشريفات العثمانية . ومن الصدف الغريبة ، أن ذلك اليوم صادف الذكرى السنوية الـ ١٥ لانتصار موهاج . عين رمضان أوغلو أزون حسن واليا على الإيالة بمرتبة وزير ، وهذا الأمير التركمانى كان قبل عدة سنوات أول وال للدولة على إيالة بغداد (العراق) . وهو حفيد محمد بك الذى توفى فى معركة ردانية وابن رمضان أوغلو

كباد باشا . وعين لولاية بودين بعد سليمان باشا ، ابنا عمته يحيى باشا – زاده غازى بالى باشا ، وبعد وفاته ، أخوه غازى محمد باشا .

خصص لقلعة بودين ٦٠٠٠ جندى وفى مراكز الالوية حاميات لاتقل أعدادها عن ١٠٠٠ جندى . أما أردل (٨٤٠٠٠ كم^2) فقد أصبحت إمارة مجرية مستقلة ذاتيا .

دخل القانونى بودين بمراسم عسكرية واستمع إلى الخطبة التى تلاها أبو السعود أفندى فى جامع فتحية (١٥٤١/٩/٢) . أخلت الملكة السراى الملكى ، وقام الأتراك بصيانته والعناية به ، واعتبر قصرا للبادشاه ، ولم يخصص لإقامة الأمراء ، حيث أقاموا فى سراى آخر .

ظل شريط من الأراضى فى شمال شرق المجر بحوزة الملك فرديناند . ووفقاً لمعاهدة استانبول كان فرديناند بالنسبة لهذه الأراضى تابعا للبادشاه ويدفع سنويا ضريبة قدرها ٤٠٠٠٠ ليرة ذهبية .

دامت هذه الحملة ٥ أشهر ، ٧ أيام . عاد السلطان سليمان الذى أقام فى بودين ٢٦ يوما إلى استانبول فى ١٥٤١/١١/٢٧ .

قام فرديناند بمحاولة أخرى لأخذ بودين . جاء منتخب براندنبورغ Joachim الثانى Von Hohrnzollern أمام بودين (١٥٤٢/١١/١٧) ، بجيش صليبى مكون من ١٠٠٠٠٠ جندى ؛ منهم ٤٠٠٠٠ من المشاة و٨٠٠٠ خيال من الألمان والبقية أسبان ، وقوات البابوية الخ .

بدأ يواكيم Joachim الثانى الذى يجلس على عرش برلين (وعمره ٣٧ سنة) ، بقصف قلعة بودين بواسطة ٤٠ مدفعاً .

جاء القانونى من استانبول إلى أدرنة لمراقبة الوضع عن كثب : هزم الألمان فى كل من الهجومين العامين . أعطى المنتخب فى ليلة ٢٣ – ٢٤ ت ٢/(١٤٥٢) أمر الانسحاب بصورة سرية ، لكنه شاهد فى صبيحة يوم ٢٤ ت ٢ ، جيوش السلطان – زاده غازى بالى باشا مع ٨٠٠٠ من جنوده تطارده . قتل وأسر الباشا أكثر من نصف الجيش بعد أن تمكن من اللحاق به .

(٩) الحملة الهمايونية ١٠ : انتصار استركون (١٥٤٣)

سار القانونى من أدرنة التى قضى فيها شتاء كاملا (١٥٤٣/٤/٢٣) .

اخذت ٣٧١ قطعة من أسطول ألطونة الرفيع (الأسطول النهرى الذى يتكون من قطع بحرية رفيعة وطويلة) فى حمل الأرزاق والمهمات من دلتا ألطونة فى البحر الاسود ، والمسير على طول نهر الطونة . وفى الوقت الذى خرج فيه السلطان سليمان فى حملة ألمانيا ، كان بربروس كذلك يسير فى حملة فرنسية غرب البحر الأبيض ، تجاه أسبانيا . كان قد فتح جبهة ثانية . استعيدت بج(٤ تموز) التى كانت فى حوزة الألمان منذ ٣ سنوات واستعيدت كذلك شيكلوش (٥ تموز) .

وفى ٢٩ تموز جاء البادشاه أمام استركون (بالمجرية Esztergon وبالألمانية : Gran) ، التى كانت قلعة مهمة جدا على مسافة ٣٠ كم شمال غربى بودين ، على الساحل الجنوبى من ألطونة (الساحل المواجه له ، سلوفاكيا) . قصفت القلعة بواسطة ٣١٥ مدفعا ، واستعيدت بعد ١٢ يوما (١٥٤٣/٨/١٠) . استشهد عقيد مشاة وعقيد بحرية واحد . مات بالى باشا فى تلك الأثناء وعين مكانه أخوه محمد باشا واليا على بودين .

كانت هناك قلعة مهمة أخرى يحتلها الألمان منذ ٣ سنوات وهى استولنى – بلغراد (بالمجرية : Székesfehervar بالألمانية : Stuhlweissenburg) تقع على مسافة ٥٠ كم من جنوب غربى يورش . تم استعادتها فى ٤ أيلول ١٥٤٣ بعد أن قاومت ١٥ يوما .

كانت استركون مركزا دينيا للمجر ، يقيم فيه رئيس أساقفة المجر الكاثوليك . كان الأتراك يحترمونه . أما استولنى – بلغراد ، فكانت هى المدينة التى يدفن فيها ملوك المجر ، وكان الملوك الذين يتوجون فى هذه الكاتدرائية يدفنون فيها عند وفاتهم . كانت القاعدة أنه يتم تحويل الكنائس الكبيرة فى المدن التى لاتستسلم من تلقاء نفسها وتفتح بالقوة إلى جوامع . لكن السلطان سليمان الثانى ، مراعاة لشعور المجريين ، لم يأمر بتحويل هذه الكاتدرائية إلى جامع وأمر بتحويل كنيسة أصغر منها ، وأعاد الكاتدرائية لإدارة الرهبان الكاثوليك ، وتحتوى الكاتدرائية على صلبان من الذهب موضوعة على نعوش الملوك ، وفى أصابعهم محابس من الماس ، وعلى رءوسهم تيجان مرصعة . لم يمس الأتراك أبدا هذه الخزينة .

ارتبطت استركون واستولنى – بلغراد ببودين كمركزى لواءين مهمين . وأصبحت استركون من أهم قواعد جنود الصاعقة . حيث إنها كانت على الحدود الألمانية تماما . عين والى بودين أحمد بك شقيق غازى محمد باشا ، واليا على لواء استولنى – بلغراد وهو ابن عمة البادشاه .

دامت الحملة الهمايونية ٦ أشهر و٢٣ يوما . عاد الحاكم العالمى السلطان سليمان إلى استانبول فى ١٦ ت١٥٤٣/٢ .

أحيل الوزير الأعظم سليمان باشا – المشهور بحملته على الهند – إلى التقاعد ، وحل محله فى هذا المقام زوج ابنة القانونى الوحيدة .. داماد رستم باشا . فتح والى بودين غازى محمد باشا ، بالاشتراك مع والى بوسنة أولاما باشا ، قلاعاً كثيرة من الألمان بعد عودة البادشاه . طلبت ألمانيا الصلح .

أبرمت فى البداية مع ألمانيا فى ١٠ ت١٥٤٥/٢ ، هدنة لمدة ١/٥ سنة . طالت مفاوضات الصلح بسبب دلال العثمانية . لكن فيينا التى تفقد فى كل سنة عدة قلاع فى حروب الحدود والتى عجزت عن صد هجمات الصاعقة ، مالت إلى الصلح ، وكان الديوان الهمايونى الذى يريد التوجه نحو الشرق ، نحو إيران ، يؤيد الصلح كذلك . تم التوقيع على معاهدة استانبول فى ١٩ حزيران ١٥٤٧ وصادق عليها شارل – كوينت فى ١ آب وصادق عليها السلطان سليمان فى ٨ ت ١ .

جرت مراسم التوقيع فى سراى رستم باشا فى استانبول . وقع رستم باشا نيابة عن تركية . مات فى هذه الأثناء بربروس ، وكانت السياسة الأسبانية للقانونى قد دخلت مرحلة التوقف لعدة سنوات . ولم تعد فرنسا تراعى شروط المعاهدة ، وتقوم بالاتفاق مع شارل – كوينت كلما وجدت ظروفا مواتية لها .

كان القانونى يستعد لحملة ثانية على إيران .

تتلخص أهم شروط معاهدة استانبول التى تعتبر انتصارا كبيرا للديبلوماسية التركية فى القانون الدولى فيما يلى :

– الاعتراف بالفتوحات التركية .

– يعتبر فرديناند حاكما تابعا للبادشاه فيما يتعلق بالأراضى العائدة للتاج المجرى السابق والموجودة فى حوزته .

– يدفع ضريبة سنوية تبلغ ٥٣٠٠٠ ليرة ذهبية .

– كملك بوهيميا وأرشيدوق النمسا ، لايكون فرديناند تابعا للبادشاه .

– يسمح لرعايا الإمبراطوريتين التركية والألمانية بزيارة قطرى احدهما الآخر بصورة متقابلة ، وبحرية ، وكذلك المتاجرة فى كلا القطرين شرط سداد الرسوم الجمركية .

– يعاد الشخص من رعايا العثمانية الهارب إلى ألمانيا ، فى الحال إذا طلبت العثمانية ذلك – سواء كان مسيحيا أو مسلما .

– لايعاد اللاجئون إلى تركيا من الرعايا الألمان إن كانوا مسلمين ، أما إذا كانوا مسيحيين فإن الدولة العثمانية سوف تعيدهم إذا أسفرت نتيجة التحقيق عن أنهم مجرمون عاديون ، ولاتعيد المجرمين السياسيين .

– يعتبر الملك فرديناند فى التشريفات العثمانية معادلا للوزير الأعظم ، ويتم تنظيم جميع المكاتبات على هذا الأساس . ويعتبر الخاقان التركى أباً له ، ويطيعه كالابن .

– لاتخل هذه الشروط بتابعية فرديناند لأخيه الكبير ومتبوعه أمبراطور ألمانيا وملك أسبانيا شارل – كوينت .

– يقر شارل – كوينت بشروط هذه المعاهدة سواء كإمبراطور المانيا ، أو كملك أسبانيا .

– لايستعمل الإمبراطور – الملك صفة الإمبراطور أبداً فى مكاتباته مع الجهات الديبلوماسية التركية ولايطلب استعمالها ، ويعتبر كملك لأسبانيا فقط ، ويوافق على استعمال عبارة « كارلوس ملك ولاية أسبانيا » .

– لاتستعمل صفة الإمبراطور فى أوربا فى المكاتبات الديبلوماسية مع تركية ، إلا بالنسبة « لبادشاه العالم » السلطان سليمان .

– تتعهد دول كل من : فرنسا ، البندقية والبابوية برعاية شروط هذه المعاهدة .

تمثل هذه المعاهدة القمة التى توصلت إليها شوكة تركيا طوال فترة التاريخ (Hammer ٥ ، ٣٩٥ - ٦) .

لقد جعلت هذه المعاهدة أوربا جميعها توافق بصورة رسمية على رجحان الوضع القانونى لتركية وعدم مساواتها مع أية دولة اخرى .

وهكذا يكون نزاع القانونى - شارل - كوينت ، قد انتصر فيه القانونى بشكل حاسم ، بعد حروب استمرت ٣٠ سنة .

(١٠) العلاقات التركية - الألمانية من معاهدة استانبول (١٥٤٧/١٠/٨) إلى تنازل شارل - كوينت عن العرش (١٥٥٦/١/١٦) .

اعترت العلاقات التركية - الألمانية فترة توقف فى غضون الأربع سنوات التى تلت معاهدة استانبول . قام القانونى خلالها ، بحملته الـ ٢ على إيران .

جرت حملة والى (بكلربك ، فريق أول ، أمير الأمراء) روملى صوقوللو محمد باشا على أردل فى ١٥٥١ ، بسبب تدخل الملك فرديناند فى قضايا أردل بصورة سرية وقت أن كان البادشاه فى إيران .

غادر صوقوللو فى ١٠ تموز ١٥٥١ ، مركز إيالة روملى صوفيا وجاء إلى بلغراد . وفى ٧ أيلول اجتاز ألطونة نحو الشمال بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندى و١٥٠ مدفعا ، واحتل كافة القلاع الموجودة بحوزة الألمان فى بانات وأردل والتى أهمها Libva (Lippa بالرومانية : Lipova) ، Arad ، جاناد (بالمجرية : Csanad) . أما تامشوار (بالرومانية : Timisoara بالمجرية : Temesvar) فقد حوصرت مدة ١٥ يوما ورفع عنها الحصار فى ١٦ ت ٢ . كان قد تجمع فيها جيش ألمانى مكون من ١٠٠٠٠٠ شخص . ومع أن الجنرال Toth حاصر Segedin بجيشه البالغ ١٠٠٠٠٠ جندى ، فإن الفريق الأول على باشا الذى جاء من بودين (١٥٥٢/٢/٢٤) افنى الجيش الألمانى عن بكرة أبيه .

وعندما لم يتمكن صوقوللو من إسقاط تامشوار ، أرسل فى السنة التالية الوزير ٢ داماد قره أحمد باشا (وزير أعظم فى المستقبل) كقائد عام . احتل القلعة من

الألمان بعد حصار دام ٢٨ يوما (١٥٥٢/٧/٢٦) . أما والى بودين على باشا ، فقد أباد الجيش الألمانى الذى بادره بالهجوم فى حرب Fülek الميدانية (١٥٥٢/٨/١١) وأسر القائد العام ومساعده . وبعد تطهير قره أحمد باشا ، اردل من الالمان ، واحتلال Szolnok فى ٤ أيلول سار بجيشه على قلعة أكرى (بالمجرية : Eger بالألمانية : Erlau) المهمة جدا التى بحوزة الألمان والواقعة فى شمال شرق المجر . والتى تبعد مسافة ٩٠ كم شمال شرق بودين . كان والى بودين على باشا ، ووالى إيالة روملى صوقوللو محمد باشا ووالى بوسنه أولاما باشا بمعية أحمد باشا . لم ينته الحصار إلى نتيجة ومن ثم فقد تم رفعه فى ١٩ ت ١ بعد أن استمر ٣٩ يوما . كانت المدفعية التركية قد قذفت القلعة خلال هذه المدة بـ ١٢٠٠٠ طلقة (Hammer ، ٦ ، ٥٠) . سيفتح أحمد الثالث أكرى بعد ٤٤ سنة من هذا التاريخ .

ودخلت العلاقات الألمانية - التركية مرة أخرى فى فترة توقف . وخلال تلك الفترة حاصر والى بودين على باشا Sigctvar مدة ٣٢ يوما (٢١ آيار - ٣١ تموز ١٥٥٦) لكنه لم يتمكن من إسقاطها ، وسوف يحتلها القانونى بعد ١٠ سنوات . كانت خسائر تركيا فى هذا الحصار ضابطا واحدا برتبة لواء و ٣ عقداء خيالة واستشهد ٧٠٠ ضابط وجندى ، وجرح ضابطان برتبة لواء .

كان المارد العجيب المسمى شارل - كوينت ، قد انهزم تجاه العثمانية فى أوربا الوسطى ، وفى شمال أفريقيا والبحر الأبيض ، كما سنرى فيما بعد . وقد شهد خلال سنى حكمه ، انقسام أوربا من الناحية الدينية إلى فريقين عدوين كاثوليك وبروتستانت . وفشل فى منازلة القانونى وبربروس ولوثر .

حاولت أسبانيا تعويض خسائرها فى أوربا ، باتخاذها مستعمرات فى القارة الأمريكية . وبدأت تعتمد عليها اقتصاديا .

إن استعمار أسبانيا للعالم الجديد يشكل صحائف مشينة فى التاريخ كأعمالهم فى الأندلس ، فعلى سبيل المثال ، كان تعداد جزيرة هائيتى فى السنة التى اكتشف فيها البيض القارة عام ١٤٩٢ ، نحو ٥٠٠٠٠٠ نسمة . وبعد ٢٢ سنة ، فى ١٥١٤ ، بقى فيها من السكان المحليين ١٣٠٠٠ ، أفنى المستعمرون الأسبان بقيتهم . إن الأسبان الذين اصطادوا الزنوج من ضفاف خليج غينة فى أفريقيا ، اعتبارا من

١٥٠١ ، ساقوهم أولا إلى جزر الانتيل ، ومن ثم إلى القارة الأمريكية واستعبدوهم كعمال أراضى ومناجم ، كانوا عاملا فى تكوين كتلة كبيرة من الزنوج الموجودين حاليا فى القارة الأمريكية ، ولقد لجأ الأسبان إلى ذلك لأن تشغيل سكان أمريكا المحليين الذين يتكونون من مئات الأعراق ، والذين يطلق عليهم اسم الهنود الحمر ، كعبيد فى الأراضى والمناجم ، كان من الأمور الصعبة جدا . أفنى الأسبان السكان المحليين بالقتل الجماعى فى كل مكان يتواجدون فيه ، أحرقوهم بالنار ، اصطادوهم كالحيوانات ، وأجبروا الباقين منهم على اعتناق المذهب الكاثوليكى وعلى تكلم اللغة الاسبانية . درست آثار حضارات inka الكبرى ، Aztek و Maya ، وبدائعها المعمارية ومدنها . نهب كل ماكان موجودا . احتلت بهذا الشكل فى ١٥١٩ - ٢٢ دولة Aztek فى المكسيك وفى ١٥٣٢ - ٣٥ دولة Inka فى بيرو . احتلت فنزويلا فى ١٥٢٠ - ٤٠ ، وشبه جزيرة Yukafan فى ١٥٢٧ - ٤٧ ، كولومبيا فى ١٥٣٨ ، شيلى فى ١٥٤٠ . واعتبارا من ١٥٥٠ ، أصبحت الأرجنتين وباراغواى مستعمرة أسبانية . استوطن هذه الأراضى على مر الزمن ملايين الأسبان . وأصبحت هذه المستعمرات - وبخاصة مناجم الفضة فى بيرو - المصدر الرئيسى لتمويل القوات البرية والبحرية الأسبانية فى القرن ١٦ .

انتشرت على مر الزمن البروتستانتية التى بدأت بـ « احتجاج » مارتن لوثر على بيع صكوك الغفران (موافقات البابا على دخول الجنة) .

قامت حرب كاثوليكية - بروتستانتية لايتصور العقل فظاعتها ، حاول فيها كل طرف من الطرفين إفناء الآخر .

لم يتمكن المذهب الجديد من النفاذ أبدا إلى أسبانيا أو البرتغال أو إيطاليا . أثر قليلا على فرنسا والأقطار الألمانية كالنمسا ، لم ينفذ كذلك إلى بافيرا ، ولم ينتشر فى الأقطار الأرثوذكسية ، وأوربا الشرقية والبلقان . حقق نفاذا فى الاقطار الكاثوليكية على الأخص .

على أثر قبول كثير من الدول الألمانية ، المذهب الجديد اضطر شارل - كوينت إلى الاعتراف بصورة رسمية بالمذهب البروتستانتى الذى ينفر منه ، وذلك للحفاظ على صفة إمبراطور ألمانيا ولمنع انقسام الإمبراطورية . ولكن سلالة هابسبورغ حاملة

تاج الإمبراطورية ، وسلالة Capet أكبر سلالة مسيحية فى فرنسا ، بقيتا على المذهب الكاثوليكي .

بدأ الحكام البروتستانت وعلية القوم فى أوربا فى طلب المعونة المستمرة من الديوان الهمايونى . كان البروتستانت يطلبون معونة بادشاه العالم لمواجهة « الكاثوليك الوثنيين والإمبراطور الذى يؤيدهم » . ذهب محرم جاووش إلى أوربا كممثل شخصى للقانونى وحمل معه كتاب السلطان الذى يؤيد فيه مساندة البروتستانت . ووصل حتى هولندا ونقل الخطاب السلطانى إلى الأمراء معتنقي المذهب البروتستانتى (صورة الخط السلطانى : منشئآت السلاطين ، ٢ ، ٤٥٠) .

ساند الديوان الهمايونى كافة الحكام البروتستانت وجميع معارضى الإمبراطور والبابا . كان الخط الهمايونى المؤرخ ١٥٥٢/٥/١٠ ، يقدم الضمانات لحاكم سكسونيا موريس الأول (١٥٤١ - ١٥٥٣) ، ولدوق بروسيا آلبرت (١٥٢٥ - ١٥٦٨) ولحكام البروتستانت الألمان الأقل رتبة ، فى مواجهة من الإمبراطور ، كما كان يتضمن التعليمات حول السياسة التى يجب عليهم اتباعها .

اضطـــر شارل - كويـــــنت إلى إصدار المنشور Augusburg المؤرخ (١٥٥٥/١٠/٣) والذى يظهر فيه الليونة ، والموافقة على الحريات المذهبية للحكام البروتستانت ، ثم تنازل عن العرش (١٥٥٦/١/١٦) ، وانسحب بعدها إلى سراى الحمراء فى غرناطة Granada ولم يخرج منه . وكان قد عقد الصلح مع فرنسا بمعاهدة Vaueelles تاركا فكرة ابتلاع فرنسا التى تصدى له فيها الأتراك على نطاق واسع ، وترك الإمبراطورية الألمانية وكافة الأقطار التابعة لها إلى أخيه الوحيد فرديناند ، وترك ملكية أسبانيا وكافة الأقطار التابعة لها والمستعمرات الأمريكية لابنه الكبير فيليب الثانى (بالفرنسية : Philippe) . وبذلك أصبح فيليب الثانى وارثا لأقوى وأقدر دولة مسيحية .

تحققت كل هذه النتائج بسبب سياسة القانونى التى اتبعها على مدى ٣٥ سنة ، تمزق المارد ، بل وفقد العالم الكاثوليكى اتحاده « وفى الحقيقة ، يمكننا أن نقول إن كافة الحكام المسيحيين البروتستانت مدينون بسلامتهم لسليمان المعظم » (Hammer ، ١٥ ، ٣٢٦) . لم تتحقق هذه النتيجة بوساطة سياسة أوربا

الوسطى وحروبها التى أجملناها فيما سبق أو بواسطة المغرب والاسطول ، التى سنجملها فيما يلى .

(١١) نظارة البحرية وقيادة القوات البحرية (قبودان دريالك) لبربروس خير الدين باشا (١٥٣٤/٤/٦ - ١٥٤٦/٧/٤)

غادر والى الجزائر بربروس خير الدين باشا فى يوم من أيام الشتاء ، الجزائر مستصحبا ٤٤ قطعة من أسطوله و١٨ من أميرالاته ، وجاء إلى استانبول (١٥٣٣/١٢/٢٧) بناء على الأمر السلطانى (الفرمان) للسلطان سليمان القانونى الذى يستدعيه إلى استانبول .

وصل استانبول - بعد أن قام بهجوم بحرى كبير على أسبانيا - عن طريق خليج جنوة ، بحر ليغوريا ومضيق مسينا ، واستولى على كافة السفن الأسبانية التى كانت راسية فى ميناء مسينا (صقلية) وعددها ١٨ سفينة ، (Hammer ، ٥ ، ٢٤٣) . اتجه إلى Andrea Doria الذى علم بوجوده قرب Preveze ، لكن الأميرال الجنوى ، انسحب ولم يستجب للقتال .

كانت البحرية الهمايونية راسية فى ميناء Navarin جنوب غربى مورا تحت قيادة مشير البحر كانكش أحمد باشا . دخل بربروس الميناء ، تبادل الأسطولان التحية بطلقات المدفعية . انضم الأسطول الهمايونى إلى بربروس وحضر معه إلى استانبول . كان عرضا كبيرا .

خرج شعب استانبول برمته وتجمع بامتداد السواحل . هذه هى المرة الأولى التى يحضر فيها خير الدين باشا إلى استانبول التى تسمى باى تخت جهان (مدينة عرش العالم) . وفى اليوم التالى سمح السلطان لبربروس و١٨ من أميرالاته بتقبيل يده فردا فردا بمراسم الديوان ، أى باحتفالات إمبراطورية (لم يكن فى ذلك العهد فى التشريفات العثمانية ، تقبيل الأرض ، الأقدام ، الرداء ، الأغطية) لم يحضر هذه الاحتفالات الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا ، لوجوده فى حلب استعدادا لحملة إيران .

وبعد أن اجتمع بالبادشاه وتباحث معه مدة طويلة بشئون أسبانيا ، والبحر الأبيض ، والمغرب والأسطول ، تحرك إلى حلب للاجتماع بالوزير الأعظم . وصل حلب راكبا الحصان خلال ١٠ أيام . بقى فيها يومين . وعاد خلال ١٠ أيام راكبا الحصان كذلك ، وهذا أمر يلفت النظر بالنسبة لشخص فى الـ ٦٣ من عمره . وفى الطريق مكث يوما فى بورصة ويوما فى قونية . وبذلك استطاع أن يجد وقتا لتقبيل كسوة قبر مولانا فى قونية .

اقترح على إبراهيم باشا ضرورة إرسال أسطول إلى أمريكا التى تسمى « العالم الجديد » والحصول على مستعمرة فيها ، لكن الباشا أفاد بأن لديهم أعمالا مهمة وكثيرة فى البحر الأبيض ، حيث إنه يجب كف يد الأسبان عن المغرب بصورة مطلقة وإلا فسوف تفعل أسبانيا فى المغرب مافعلته مع الشعب فى الأندلس وفى العالم الجديد ، وسوف تسعى إلى كثلكة شمال أفريقيا بكامله من الأطلسى إلى مصر .

عاد بربروس إلى استانبول (١٥٣٤/١/٢٢) وبتعيينه قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (١٥٣٤/٤/٦) أصبح عضوا فى الديوان الهمايونى وكلف فى الوقت ذاته بإدارة ولاية الجزائر . غادر استانبول بحملة تونس قبل مضى ٤ أشهر على تعيينه . وخلال هذه المدة القصيرة وضع فى معمل استانبول لإنشاء السفن، هيكل ٦١ سفينة .

ساند السلطان سليمان سياسته البحرية بكل مافى الكلمة من معنى . تتلخص هذه السياسة فى تعزيز الأسطول الهمايونى بحيث يكون أقوى من مجموع بقية كافة الأساطيل . ومع احتمال تعذر ذلك من حيث عدد السفن ، فقد تعهد بربروس بإمكان تحقيق ذلك من حيث تأمين تفوق مرمى المدافع وتربية وتدريب الأفراد . وتقرر استبدال السفن والمدافع وتجديدها خلال بضع سنوات وبيع القديم منها إلى الداخل والخارج وتجهيز السفن بصورة متفوقة . أصبح بربروس ، أقرب مستشارى القانونى خلال توليه القيادة البحرية ، ولم يتمكن الوزير الأعظم والوزراء من الاعتراض على ذلك . وقد أبدى خير الدين فطنة سياسية كبيرة وتمكن من الحفاظ على قربه من البادشاه بعدم المساس بمشاعر أحد منهم . ومع أنه كان هناك من يحسده على إكسابه الدولة قطرا كالجزائر ، إلا أن هؤلاء تحاشوا إظهار مثل هذه المشاعر .

وهكذا اهتم السلطان سليمان خان الثانى القانونى بالأسطول بقدر اهتمامه بالجيش حتى إنه أعطى للسياسة البحرية أولوية فى بعض السنوات لم تشاهد من قبله ولا من بعده . لم يكن للقانونى مثيل فى تركيا كافة ولا فى تاريخ الأتراك بأسره . لم تكن سياسته سهلة التطبيق ، لكنه طبقها بنجاح وجنى ثمارها . كان للجيش التركى ماضٍ عريق يرجع إلى مئات من السنين ، بينما كان الأسطول قد ظهر مع مجيء الاتراك إلى الأناضول قبل أربعة قرون ونصف وعاش تحت ظل الجيش دائما . حقق السلطان سليمان سياسته البحرية فى دعم الأسطول دون أى اعتراض أو شكوى من أى فئة من فئات الجيش . ولم ينج الأميرالات وجنود البحرية من بعض حوادث الغيرة والحسد ، بل وحتى المؤامرات فى استانبول ، لكن ذلك لم يجد فرصة للتوسع ، وأخمده السلطان سليمان بدراية . لم يكن وزراء الديوان الهمايونى والذين أكثرهم من الجنرالات ، يستسيغون كثيرا السياسة البحرية ، وكانوا حانقين بوجه خاص على تبجح الأميرالات الذين نشأوا فى الجزائر وجاءوا إلى استانبول . ورغم كل ذلك استمرت سياسة القانونى .

(١٢) فتح تونس (١٥٣٤/٨/٢٢) وفقدانها (١٥٣٥/٧/٢١)

سار ناظر البحرية قائد القوات البحرية والى الجزائر بربروس خير الدين باشا – خضر رئيس سابقا – بأسطوله الهمايرنى البالغ ١٠٤ قطع محملة بـ ٨٠٠٠ من المشاة البحريين مغادرا استانبول (١٥٣٤/٨/١) . دخل مضيق مسينا Messina . احتل مدينة Reggio الواقعة على الضفة الإيطالية من المضيق واستولى على ٢٤ سفنية أسبانية . قام بإنزال الجنود فى موانىء جنوب غربى إيطاليا وميناء ساردونيا . دخل ميناء بنزرت (بالفرنسية : Bizerte) فى ١٥ آب .

كانت المناطق الشرقية والجنوبية لقطر تونس فى حوزة العثمانية أساساً . احتل خير الدين باشا مدينة تونس بلا مقاومة فى (٢٢ آب) ، واستقبل الشعب العثمانيين بكل ترحاب لنفورهم من سلطانهم مولاى حسن الذى كان شبيها بالسفاك كاليغولا .

كان السلطان الحفصى مولاى أبو عبد الله حسن الذى اعتلى العرش فى ١٥٢٦

كسلطان ٢٢ للسلالة ، بعد أن قتل ٤٤ أخا له ، قد باع الجوارى الموجودات فى السراى ، وأسس حرسا من ٤٠٠ شاب .

تمكن أحد إخوته المسمى مولاى رشيد من التخلص منه والفرار إلى استانبول ، كان السلطان الحفصى مكروها من شعب تونس برمته بسبب أخلاقه هذه وبسبب دعوته للأسبان ضد العثمانيين فى كل فرصة ، كان قد انسحب إلى الجنوب إلى الصحراء واستنجد بالأسبان عند دخول الأتراك إلى مدينة العرش .

لم تكن أسبانيا تعير أهمية كبيرة لمناطق تونس الأخرى الموجودة بحوزة العثمانية ، لكن الوضع كان مختلفا بالنسبة لمدينة تونس لأنها كانت تواجه صقلية .

لما علم خير الدين باشا أن السلطان الذى ينفر منه فى قيروان ، سار إليه . والمشهور عنه أنه ركب الأشرعة على عجلات المدافع وسيرها فى الصحراء .

بانتقال كامل قطر تونس ومدينة تونس ، التى تبعد عن صقلية ١٥٠ كم وعن ساردونيا ١٨٥ كم ، إلى العثمانية ، تبنى المسألة شارل – كوينت بنفسه بدعوى الدفاع عن السلطان الشرعى تجاه العثمانية المستولية .

أصبح خير الدين باشا وكيلا لوالى (فريق أول) إيالة تونس لحين صدور تعيين من استانبول .

كان السلطان سليمان خلال هذه الحوادث ، فى حملة إيران وفى تبريز . سار شارل – كوينت من ميناء برشلونة Barselona (١٥٣٥/٢٩) بأسطول مكون من ٥٠٠ سفينة حرب ونقل حاملة ٣٠٠٠٠ من المشاة ، والخيالة ، ومدفعية البر .

وفى ١٥ حزيران ، أنزل جنودا فى ميناء حلق الواد فى تونس . كان اللواء سنان رئيس يحمى قلعة حلق الواد ، وكان بربروس فى مدينة تونس مع ١٢٠٠٠ جندى . تعرضت حلق الواد للقصف بواسطة ١٢٠ مدفعا من جهة البر ، وبمئات المدافع البحرية من أسطول أندريا دوريا من ناحية البحر . أجرى سنان رئيس ٣ طلعات وكبد العدو ٦٠٠٠ قتيل . كان الأسطول الهمايونى ومعه بربروس فى استانبول . قتل كبار الأسبان كدوق Sarno وماركيز Mondeia ، لكن مولاى حسن جاء لإمداد شارل – كوينت بحمولة ٨٠٠٠ جمل من الأرزاق و١٦٠٠ خيال . أطلق

جنود خير الدين باشا البالغ عددهم نحو ٦٠٠٠ متطوع بربرى ، بسبب وعود مولاى حسن وخوفا من الأسبان ، سراح مايقرب من ١٠٠٠٠ أسير مسيحى فى مدينة تونس . اشترك هؤلاء الأسرى مع البرابرة فى القتال ضد جنود البحرية الأتراك . سقطت حلق الواد فى ١٥ تموز .

جاء سنان باشا مع حفنة من جنوده البحريين إلى مدينة تونس وانضم إلى خير الدين باشا . كان مع الباشا ٩٧٠٠ جندى تركى ، إلا أنه كان من غير الممكن مقاومة قوات العدو البالغة ٣٠٠٠٠ جندى و٥٠٠ سفينة ومئات المدافع . لم يتمكن من المقاومة أكثر من ٦ أيام بعد سقوط حلق الواد ، وانسحب من مدينة تونس .

وفى ٢٩ حزيران ، جاء مولاى حسن إلى الإمبراطور وخر على قدميه . فقد خير الدين باشا فى أول هجوم ٢٥٠٠ شهيد ، كان حر الصيف والعطش يؤديان إلى تكبده أضرارا تماثل أضرار العدو . قام الباشا بهجومه الأخير بواسطة ٧٢٠٠ من جنده . وعندما أراد العودة إلى المدينة ، كان المسيحيون الأسرى ، الذين سيطروا على المدينة ، قد أغلقوا الأبواب دون الأتراك . خرق بربروس خط العدو بهجوم مدهش . أدى هذا الهجوم إلى استشهاد عدة آلاف أخرى من جنود البحر . نجا خير الدين باشا مع عدد من أميرالاته المسنين كآيدن رئيس وسنان رئيس وعدة آلاف من جنود بحريته ، وألقوا بأنفسهم فى بلدة العناب (رأس بون) . كان الإمبراطور موقنا من أسر خير الدين باشا . ولذلك فقد اغتاظ كثيرا وعاقب قواده .

دخل الصليبيون مدينة تونس فى ٢١ تموز . كانت بلدة كبيرة . يهون الظلم الذى ارتكب فى الحملات الصليبية إذا ماقورن بالظلم الذى ارتكب فيها ؛ لقد ذبح ٣٠٠٠٠ عربى ، واستحيى ١٠٠٠٠ امرأة شابة وطفل كعبيد ، وتم تخليص وتسريح ٣٠٠٠٠ أسير مسيحى ، ونهبت السرايات ، وأحرقت عشرات الألوف من الكتب المخطوطة ، وأتلفت البدائع الفنية النادرة ، وهدمت الجوامع ، والمدارس والقبور المشيدة (Hammer ، ٥ ، ٢٥٢ - ٢٥٣) .

دخل شارل - كوينت المدينة التى باتت وكأنها مذبح . « تصادف أن الأيام التى دخل فيها شارل - كوينت تونس ، هى أيام دخول السلطان سليمان بلدتى ألد أعدائه الصفويين الغنيتين والكبيرتين جدا بغداد وتبريز ، لم يحدث أى نهب أو أى ظلم » (Von Hammer ، ٥ ، ٢٥٦ - ٧) .

أصبح مولاى حسن تابعا لأسبانيا بمعاهدة ١٥٣٥ . كان عليه أن يسدد ١٢٠٠٠ ليرة ذهبية ، كضريبة سنوية ، ويبقى ١٠٠٠ جندى أسبانى و١٠ سفن حربية فى تونس بصورة دائمة .

وهكذا سيبدأ فى مدينة تونس وشمال تونس الحكم الأسبانى الذى سوف يستمر ٣٩ سنة وشهرا ، و٢٣ يوما بعد الحكم العثمانى الأول الذى دام ١١ شهراً . وفى ١٥٤٢ ، فقئت عينا مولاى حسن على يد ابنه مولاى أحمد (١٥٤٢ - ١٥٦٩) وأرسل إلى قيروان ، ومات فيها ١٥٥٠ .

جاء خير الدين باشا إلى الجزائر . غادر ميناء الجزائر فى (١٥٣٥/٨/١٥) بأسطول مكون من ٣٢ قطعة بعد ٣٢ يوما من مغادرته تونس . قلب جزر باليز رأسا على عقب واستولى على ميناء ماهون فى مينوركا ، أسر ٥٥٠٠ شخص . خرج من جبل طارق وجاء إلى خليج قادش وضرب ميناء Faro الكائن فى جنوب البرتغال . وأحتل بنزرت ميناء مدينة تونس ، أثناء عودته إلى استانبول ووضع فيها حامية . ترك ابنه الكبير حسن بك الأول وكيلا عنه فى الجزائر وعاد إلى استانبول .

(١٣) انتصار بروزة Preveze (٢٨ أيلول ١٥٣٨)

غادر بربروس استانبول مع الأسطول فى ١١ آيار ١٥٣٧ . سار القانونى من استانبول بالجيش بعد ٦ أيام إلى البنادقة فى حملة على أوترانتو وكورفو كما أسلفنا من قبل . تعتبر هذه الحملات من الحملات الهمايونية النادرة فى التاريخ العثمانى التى يشترك فيها الأسطول .

كان الأسطول مكونا من ٢٨٠ قطعة ، عليها ٣٠٠٠٠ جداف ، وعشرات الألوف من جنود البحرية و٤٠٠٠ انكشارى و٦٠٠ مدفعى برى وعده آلاف من الفرسان السباهيين (تمارلى) . سلم بربروس بعد انسحابه من إيطاليا ، القسم الأكبر من الأسطول إلى الوزير ٣ داماد لطفى باشا الموجود فى ميناء مودن Modon فى مورا للإبحار به إلى استانبول . وجاء هو مع ٧٠ سفينة إلى جزر كيكلاد (أيلول ١٥٣٧) فى جنوب إيجه التى يحكمها البنادقة . كان شعب هذه الجزر روماً ، وكانت

هذه الجزر دوقية إيطالية تابعة للبندقية . تجول فى كافة الجزر الواحدة تلو الأخرى وأجبر الدوق (Giovanni Crispo) على إعلان تبعيته لتركية وتسديده مبلغ ٥٠٠٠ ليرة ذهب ، كضريبة سنوية .

غادر خير الدين باشا استانبول بعد أن قضى فيها الشتاء والربيع فى ٧ حزيران ١٥٣٨ . سوف يغادر السلطان سليمان مدينة عرشه بعد ٤١ يوما فى حملة بغدان ٨ . وسوف يغادر والى مصر – وزير أعظم فى المستقبل – سليمان باشا السويس بعد ٦ أيام من مغادرة بربروس استانبول بأسطول آخر فى حملة إلى الهند .

عاد بربروس إلى جزر كيكلاد مرة أخرى وضرب الجزر التى شاهد فيها جنود البنادقة . انضم إلى أسطول صالح رئيس (باشا) المكون من ٢٠ قطعة . جاء فى تموز إلى كريت وخرب هذه الجزيرة التى يحكمها البنادقة من أولها إلى آخرها . وفتح جزر كربة (Karpatos) الواقعة بين جزيرتى رودس وكريت وجزر كاشوت . علم الديوان الهمايونى بتشكيل أسطول صليبى جهنمى بقيادة أندريا دوريا . أرسل طرغد رئيس (باشا) مع ٢٠ سفينة إلى بحر اليونان (أيونيا) للاستطلاع . كان دوريا قد انسحب إلى كورفو ، دخل بربروس بروزة وأصلح القلعة .

كان الأسطول الصليبى مكونا من أكثر من ٦٠٠ سفينة حرب ونقل منها ٣٠٨ سفينة حربية من أنواع (galerruvayyal , Karaka ، قادرغة ، كاليون) وتحمل ٦٠٠٠٠ جندى . يجدف فيها عشرات الألوف من الجدافة . وكان بينها نحو ٢٠ سفينة عملاقة ذات ٣ طوابق تحمل أكثر من ٢٠٠٠ جندى .

كان الأسطول الهمايونى يحتوى على ١٢٢ سفينة حرب و٢٢٠٠٠ جندى .

دعا بربروس أميرالاته إلى سفينته الأميرالية ، وتباحث معهم طويلا . تردد بعضهم إزاء تفوق العدو . كان رأيهم انتظار دخول العدو إلى شرم Preveze حيث يتم تدميره بمدافع القلعة وبمساندة جنود البر . قال خير الدين باشا ، إن الحرب البحرية تكون فى البحار المفتوحة ولاتكون فى الساحل ، ولايمكن القيام بالمناورة (الحركة والاستدارة) فى الساحل ، وإن المدافع بعيدة المدى ستفقد تفوقها عند زيادة اقتراب العدو ، وإنه فى حالة إصابة إحدى السفن فإن السفن حاملة جنود البر ، خاصة

الذين لم يألفوا البحر سيرمون بأنفسهم فى البحر دون نظام ناشدين البر ، وتاركين السفينة بدون طاقم .

خرج من شرم بروزه وحماية مدافع القلعة ؛ وفى ٢٧ أيلول من خليج Arta وابتعد عن الساحل مسافة ٩ كم . وبعد إجراء المناورات والاستدارات اللازمة ، التقى الأسطولان فى بحر أيونيا (اليونان) فى مياه انجير ليمانى (بالإيطالية : Porto Fogo ، باليونانية : Vasiliko فى الجنوب ــ الغربى من جزيرة Aya Mavri المواجه لخليج Arta (Preveze) .

وفى صبيحة يوم السبت الموافق ٢٨ أيلول ، شاهد الأسطولان أحدهما الآخر بوضوح . كان مشير البحر قائد القوات البحرية فى المركز . أهم مساعديه ابناه الرئيسان حسن الكبير (بيوك حسن) وحسن الصغير (كوجوك حسن) (كلاهما باشا فى المستقبل) . وفى الجناح الأيمن صالح رئيس (باشا) ، وفى الجناح الأيسر سيدى على رئيس العالم الشهير فى الجغرافية والرياضيات ، وفى الاحتياط طرغد رئيس (باشا) ويرافقه الرؤساء مراد ، وصادق ، وكوزلجه محمد . كان كل من الرؤساء سنان ، وشعبان وجعفر قواد أساطيل خفيفه فى الجناحين .

كان الأميرال الأسبانى الكبير الجنوى الأصل Andrea Doria على رأس الأرمادة (الأسطول) الصليبى . وكان الأميرال – الكبير Vineenti Capelli يقود الاسطول البندق ، وMarco Grimani يقود الأسطول البابوى . لم يكن الأسطول أسطولا وطنيا متجانسا ، وَلذلك لم ينفذ الكثير من أوامر دوريا.أدى دهاء بربروس ، وقدرة السفن التركية على المناورة وبعد مدى مدافعها ، وعدم مقدرة السفن الصليبية على الاستدارة السريعة إلى هزيمة المسيحيين . ظهرت نتيجة المعركة خلال ٥ ساعات تقريبا . أعطى دوريا أمر إطفاء الضوء وتراجع . كانت خسائر الأسطول الصليبى كبيرة ، أما الأتراك فقد فقدوا عدة سفن .

اجتمع بربروس – زاده حسين بك بعد الانتصار بـ ١٧ يوما ببادشاه العالم السلطان سليمان أثناء عودته من حملة بغدان الهمايونية ٨ فى قصر يانبولو على نهر

طونجه Tunca وقبل يده ، وبعد تلاوته رسالة أبيه بشأن خبر الانتصار كتبليغ رسمى أمام الديوان الذى اجتمع ، عرض تفصيلات الانتصار شفويا . ولإظهار الحمد لله ، استمع البادشاه لتلاوة كتاب الانتصار وقوفا على قدميه دون أن يجلس .

أمر باعتبار بروزة جهادا أكبر وإقامة الاحتفالات فى جميع أنحاء الإمبراطورية . وفى ٢٣ ت ١ ، جاء بربروس بنفسه إلى أدرنة ، وسرد خلال عدة أيام على البادشاه تفصيلات بروزة وسياسة البحر الأبيض الذى أصبح منذ الآن بحيرة تركية .

عاد حسن بك إلى الجزائر . قصف السواحل الأسبانية . نقل الأندلسيين ونقل إليهم الأسلحة . احتل قلعة جبل طارق مرتين وخربها . أرسل شارل - كوينت رجاله بصورة سرية إلى بربروس عارضين عليه أنه سيجعله حاكما مستقلا على كافة المغرب وشمال أفريقيا فى حالة قطعه علاقته بتركيا . ثم قدم نفس العرض بالنسبة للجزائر فقط ، إلى حسن بك الذى ينوب عن أبيه فى الجزائر . سرد بربروس ذلك على الديوان وبين احتمال قيام الإمبراطور بحملة كبيرة ويائسة ، وقد تحقق ذلك فعلا فى ١٥٤١ . اعتقل بأمر البادشاه اليهودى الدكتور Romeo التركى الجنسية فى الجزائر الذى قدم هذه العروض وسيق إلى استانبول ، حيث أجرى التحقيق معه وسجن .

(١٤) انتصار الجزائر (٢٤/ ت١ / ١٥٤١)

مضت على بروزة ٣ أعوام . قرر شارل - كوينت فتح الجزائر بنفسه كما جاء وفتح مدينة تونس بنفسه . سيكون هو بنفسه على رأس جيشه ، وكأنه يريد أن يلعب لعبة السلطان سليمان . وخلال الأيام التى تصادف عودة القانونى من حملته الهمايونية ٩ ، يوم ٢٠ ت ١ / ١٥٤١ أخذ فى إنزال قواته الصليبية من أسطوله المخيف فى حلق مرج حراش قرب ميناء الجزائر .

إن الارمادة (الأسطول) الصليبية التى يقودها أندريا دوريا تتكون من ٥١٦ قطعة بحرية ، منها ٢٧٤ سفينة حربية و ٦٥ سفينة عملاقة تبهر النظر من نوع Galerruvayyal . كان الأسطول يضم عدا الجدافة ، ١٢٣٣٠ جنديا بحريا

و٩٠٠ ٢٣ جندى برى ، وبذلك يكون المجموع ٢٣٠ ٣٦ محارباً (أخذت هذه الأرقام عن مصادر مسيحية ، وعند كتاب جلبي ٥٠ . ٠٠٠ محارب) استصحب كبار أشراف الأسبان ، القتلون ، الإيطاليين والألمان زوجاتهم الدوقات الماركيزات والكونتيسات وحضروا لمشاهدة انتصار إمبراطورهم الملك .

كان بيوك حسن رئيس (بك) الابن الأكبر لخير الدين باشا ، يقيم فى الجزائر كنائب للوالى (البكلربك ، الفريق الأول) برتبة لواء بحرى ، وكان بمدينة الجزائر ٦٠٠ جندىَ بحرى (لوند) تركى و ٢٠٠٠ متطوع عربى فارس ومدفعى ، ولم يكن فى ذلك التاريخ قد تأسست فى الجزائر حامية الانكشارية (أى صنف المشاة) . كان أسطول الجزائر فى البحر الأبيض . ولم يكن بإمكان القوات العثمانية الموجودة فى المدن الأخرى أن تخترق جيشا مسيحيا على هذه الدرجة من القوة وتأتى للمساعدة (Hammer ، ٥ ، ٣٤٦) . هجم فى الطليعة فى الصف الأمامى الفرسان الأسبان ملك صقلية الأمير Eernando Gonzaga و١٤٠ فارسا مالطيا و٤٠٠ مقاتل (مبارز) مالطى بقيادة الأمير Camillo Colonna . وكان كل من فاتح المكسيك وواليها العام ماركيز Hernan do Cortez Vallée d'Oaxaca (الذى كان عمره حينذاك ٥٧ سنة) وابنيه الاثنين دوق آلبا ، والجنرال فون Frundsberg (الذى يقود القوات الألمانية ، والجنرال البابوى Anguillara فى الصف الخلفى (- Lavisse Rambau ، ٤ ، ٨١٠ - ١) .

ورغم أن هذه القوات تمكنت من احتلال مرتفع قدية الصابون ، انهزمت وتراجعت أمام الدفاع الشديد يوم ٢٣ ت ١ . وقبل أن يتمكن العدو من لم شعثه ، قام حسن بك ليلة - ٢٣ - ٢٤ ت ١ بهجوم مفاجىء . قتل ٣٠٠٠ من جنود الأعداء . ونظراً لشيوع خبر اقتراب قدوم أسطول الجزائر ، أو الأسطول الهمايونى ، فقد تردد الإمبراطور وأمر الجيش بركوب السفن ، ولو أنه ثبت لأمكنه أخذ الجزائر . لم يتمكن الإمبراطور من التعرف على مبلغ قلة عدد جنود حسن بك ، وكان شعب الجزائر يضغط على حسن بك للتفاوض مع الإمبراطور كى يترك المدينة عن طريق الصلح دون قتال . حيث لم يكن قد غاب بعد عن الأذهان ماعمله شارل - كوينت بشعب مدينة تونس التى دخلها عنوة .

كان الصليبيون قد انتشروا على نطاق واسع . أمر الإمبراطور بتجمعهم فى رأس

Matifou (بالعربية : قنطرة المغرون) . صدر أمر انسحاب كافة الجنود إلى سفنهم . كان العدو ينسحب . كان من الممكن أن يسر حسن بك بانسحابهم وذهابهم ، لكنه لم يكتف بذلك . كان عازما على إعطاء الصليبيين الدرس اللازم حتى لا يفكروا بعدها فى التسلط على الجزائر . عَلم بقرب هبوب عاصفة شديدة فأراد الاستفادة من ذلك . وفى الحقيقة كانت أكثر من نصف سفن الأسطول قد رست وقعدت فى رمال الساحل . هاجمت القوات العثمانية السفن . كان الجيش المسيحى جائعا وعطشانا لسوء تنظيم مراكز التموين ، وكان ناعسا ومرهقا وفى حالة يرثى لها من أثر العاصفة . ذبح الأتراك جياد العدو التى نجت من الغرق والتى بقيت من مجموع جيادها الأصيلة ، وكان عددها ٤٠٠٠ . كان بارودهم قد ابتل ، فلم تعد أسلحتهم صالحة للإطلاق . لم يتمكنوا من إعادة نقل مهماتهم الثقيلة إلى السفن . غرق وأسر وقتل بسيف المسلمين ٢٠٠٠٠ من جنود الصليبيين . امتلأ الساحل على مدى كيلومترات بجثث العدو وأنقاض السفن اعتبارا من شرسل إلى دنيس . حصل المسلمون على غنائم كبيرة ، ووقع فى أسرهم كبار القواد ، والأمراء والأميرالات وزبدة المجتمع الأوربى من سيدات الأسبان ، والإيطاليين والألمان ، وغرقت سفينة فاتح المكسيك الدموى عديم الشرف ، طريد السجون السابق Cortez ، المليئة بالبضاعة المسروقة من الأزتك Aztek لكنه تمكن من النجاه بنفسه (Hammer ، ٥ ، ٣٤٨) .

مات غرقا أكثرية الجدافة المسلمين الأسرى فى الأسطول الصليبى . تمكن حسن بك بصعوبة من تخليص ١٨٠٠ منهم من الموت . اغتنم الأتراك (ليلة ٣١ ت ١) ١٣٠ سفينة للعدو ، كانت سفينة الأميرالية لأندريا دوريا وسفينة أبن أخيه Gianetto Doria بين السفن الغارقة (Hammer ، ٥ ، ٣٤٧) .

أركب دوريا ، شارل - كوينت على ظهر إحدى السفن بصعوبة . بكى الإمبراطور ، ولشدة تأثره ألقى بتاجه الذى يلبسه على رأسه فى البحر (Alexandre de la Borde ، ص ٨٥) . وذبح جواده الذى لايقدر بثمن وأكله . لم يتمكن حسن بك من أسر الإمبراطور لعدم كفاية قوته ، ولم يتمكن من خرق جدار الحماية الذى أحاطه به فرسان مالطة الذين دافعوا عنه بتضحية كبيرة .

أبحر القسم المتبقى من الأسطول فى ٢ ت ٢ . تمكن الصليبيون من البقاء فى

الأراضى الجزائرية مدة ١٣ يوما فقط . اطلع السلطان سليمان فى استانبول على جميع تفصيلات النصر عند عودته من حملته ٩ فى ٢٧ ت ٢ . حضر بربروس إلى الجزائر بعد الحادث بشهر واحد . ولو كان قد تمكن من الحضور قبل هذا الوقت لأمكنه أسر الإمبراطور . لقد كان اقتراب بربروس ، هو أحد أسباب اضطراب وهزيمة الصليبيين .

كان الصليبيون قد اختاروا الوقت المناسب وقاموا بهجوم مفاجىء فى الوقت الذى لم يكن فيه الأسطول موجودا فى الجزائر . لكن عزم بربروس – زاده حسن بك ، كان فائقا . ولم تتمكن أية قوة بعد ذلك من التفكير فى أخذ الجزائر حتى عام ١٨٣٠ . لواء بحرى عثمانى ، يتغلب على الإمبراطور شارل – كوينت الذى يحكم نصف العالم المسيحى . جددت هزيمة الجزائر عزم فرنسا على الصراع مع الإمبراطور . سار خير الدين باشا للحملة على فرنسا من أجل هذا الصراع ، كما سنرى فيما بعد .

(١٥) حملة فرنسا (١٥٤٣ – ١٥٤٤)

كانت ملكية فرنسا ، بتعدادها البالغ ١٥ مليونا ، أكبر المجتمعات الأوربية كثافة فى النفوس . كان فرانسوا François الأول عازما على عدم الدخول تحت نفوذ شارل – كوينت . تمكن من ذلك بمساندة العثمانية . وفى ١٨ شباط ١٥٣٦ ، وقع الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا على معاهدة الامتيازات (بالفرنسية : Capitulations) التى تحصل فرنسا بموجبها على بعض الامتيازات (هى معاهدة مساعدة ، لتنمية فرنسا عسكريا واقتصاديا والحيلولة دون وقوعها لقمة سائغة لألمانيا – أسبانيا) ، وهكذا منح الديوان الهمايونى فرنسا بعض الامتيازات التجارية التى من شأنها تقويتها ببعض الميزات التى لم يعترف بها لغيرها من الدول . كانت البندقية قد حصلت من قبل على بعض التعهدات السلطانية التى تعترف لها ببعض التسهيلات التجارية . لكن الامتيازات التى منحت لفرنسا كانت شاملة ، وأعقب ذلك تقديم مساعدة مالية كبيرة لفرنسا فى ١٥٣٦/٢/١٨ .

غادر بربروس خير الدين باشا استانبول مع الأسطول الهمايونى فى ٢٨ آيار ١٥٤٣ .

وهكذا تحقق طلب فرانسوا الأول بشأن إرسال جيش وأسطول إلى فرنسا ، وقد كان يصر على ذلك منذ سنوات عديدة مع طلباته الأخرى ، كالطلبات المالية والتجارية وفتح جبهات متعددة .

كان السلطان سليمان قد سار من استانبول بحملة استركون ١٠ قبل ٣٥ يوما .

كان الأسطول الهمايونى مكونا من ١٥٤ قطعة ويحمل عدا الجدافة ٤٤٠ ٢٩ جنديا .

جاء الأسطول إلى مضيق Messina فى ٢٠ حزيران . استسلمت مدينتا مسينا (صقلية) وريجيو Reggio (إيطاليا) الواقعتان على ضفتى المضيق دون مقاومة . دمر بربروس الاستحكامات العسكرية لهاتين المدينتين وجعلها كأن لم تكن . لم يمس الشعب واستمر فى طريقه .

قاوم القائد الأسبانى Don Diego Gaetano فى قلعة Gaeta الواقعة بين نابولى وروما . احتل الأتراك القلعة بعد أن قدموا ٣ شهداء فقط ، ولم يمسوا أحدا بسوء . كانت ابنة الدون دياغو التى يبلغ عمرها ١٨ سنة ، حسناء ، وقد اشتهرت بجمالها فى كافة أنحاء أوربا ، عقد بربروس عقدة النكاح عليها وأرسلها إلى استانبول .

احتل الأسطول بعد ذلك ميناء أوستيا Ostia الواقع على مصب نهر Tevere (بالتركية : تيبر) والذى يبعد ١٥ كم عن روما .

كان بربروس يروم الدخول إلى روما وإجراء عرض فيها . لكن السفير الفرنسى الموجود فى الأسطول ، خر على قدمى القائد البحرى ورجاه ألا يفعل ، إذ إن ذلك لايساعد فرنسا وإنما يحمل البابا على الحكم بالحرمان على مليكه .

انتقل من بحر Tiren من مضيق Bonifacio إلى غربى البحر الأبيض ، ودخل الأسطول الهمايونى فى ١١ تموز ميناء طولون قاعدة الأميرالية الفرنسية فى البحر الأبيض فى ذلك العهد ، كما هو حاليا . رفعت السفن الفرنسية الأعلام التركية وأطلقت مدافعها تحية له .

دخل الأسطول الفرنسى المكون من ٤٤ قطعة تحت امرة قائد القوات البحرية . وفى ٢٠ تموز جاء إلى مرسيليا . استقبل الأميرال الفرنسى الكبير دوق Enghien

الامير فرانسوا دى بوربون ، بربروس باسم الملك ورحب به . وفى ٢١ تموز نزل بربروس إلى البر باحتفال لايقام عادة إلا للحكام . حيث إنه كان لايزال يعتبر فى أوربا ملكا على الجزائر .

مكث بربروس ١٦ يوما فى مرسيليا وعاد إلى طولون . ذهب إلى Antibes ومنها إلى نيس . كانت نيس تابعة إلى شارل - كوينت . استسلمت قلعة نيس فى ٢٠ آب . استشهد أمام نيس ١٠٠ من جنود البحر . لم يمس الأتراك الشعب بأى أذى . سلم بربروس مفاتيح مدينة نيس إلى الفرنسيين ، وعند انسحاب الأتراك ودخول الجيش الفرنسى المدينة ، قام الجيش الفرنسى للأسف بعملية سلب فظيعة .

عاد الأسطول الهمايونى إلى طولون Toulon لقضاء الشتاء . تركت المدينة لإدارة الأتراك طيلة مدة بقاء الأسطول التركى فيها بموجب معاهدة ١٥٤٣/٩/١٦ . انسحب كافة الموظفين الفرنسيين . رفع العلم التركى فى المدينة . رفع الأذان المحمدى فى الأوقات الخمسة . جمع الأتراك ضرائب تلك السنة . وظلوا فى طولون مدة ٨ أشهر . وخلال هذه الفترة ، قصف الرئيسان صالح وبربروس - زاده كوجوك حسن ، سواحل أسبانيا وإيطاليا . غادر الأسطول الهمايونى طولون فى نيسان ١٥٤٤ . عاد بربروس من حملة فرنسا التى استغرقت سنة و٣ أشهر إلى إستانبول ولم يخرج بعدها إلى البحر .

ألقت هذه الحملة اليأس فى قلب شارل - كوينت وأجبرته على عقد مصالحة Crespy مع فرنسا ، لقد كان كل أسطول يرسو سنويا فى فرنسا يمثل كابوسا لشارل - كوينت .

وهكذا انتهى دور المساعدة العثمانية لفرنسا الذى بدأ بمراجعة الديوان الهمايونى فرانسوا الأول فى ١٥٢٥ بالكتاب السلطانى الشهير للقانونى الذى ورد فيه « أنت يافرانسيسكو Françesko ملك ولاية فرنسه ... » .

مات فرانسوا بعد قليل ، وخلفه ابنه هنرى الثانى . وتشكل المساعدات التى قدمت له المرحلة الثانية .

توفى بربروس خير الدين باشا كذلك فى استانبول يوم ٤ تموز ١٥٤٦ وعمره ٧٤ سنة أو أكبر بقليل . وترك ٣٠ سفينة حرب كبيرة من نوع كالير (galley) ،

التى أنشأها وأثثها وجهزها بدراهمه الخاصة ، للدولة كما ترك عبيده الـ ٨٠٠ الذين تربوا بصورة ممتازة – للسلطان ، وترك ٢٠٠ عبد له للصدر الأعظم داماد رستم باشا ، و١٠٠٠٠ ليرة ذهبية إلى ابن أخيه (إسحق رئيس) بربروس – زاده مصطفى بك ، و٣٠٠٠٠ ليرة ذهبية إلى أوقاف الجامع والقبر والأعمال الخيرية الأخرى التى شيدها فى بشكتاش ، وكافة أمواله وأملاكه الموجودة فى الجزائر إلى ولده وخلفه كوالٍ على الجزائر بيوك حسن باشا ، وبقية ثروته ومن بينها ١٠٠٠ عبد وجارية وسراية فى استانبول لولده الوحيد بربروس – زاده كوجوك حسن باشا (وهو صهر طرغد باشا) . ولم يدون شيئا بالنسبة لما تركه لابنته زوجة طرغد باشا ، حيث إن هذه السيدة كانت غنية جدا بفضل زوجها . وإضافة إلى ذلك ، منح لمئات من رجاله نقودا وأملاكا تؤمن عيشهم مدى الحياة . أوصى ابنه حسن باشا بعدم مطالبة رستم باشا بالدين الذى قدمه له قبل مدة والبالغ ٢١٠٠٠٠ ليرة ذهبية ، وكذا بعدم قبول المبلغ فى حالة إذا ما أراد رستم باشا دفعه .

حيا الأسطول الهمايونى أثناء مغادرته إستانبول فى كل حملة يقوم بها على مدى عصور ، قبره الكائن على ساحل البحر فى بشكتاش بإطلاق نيران كافة مدافعه . ويقام حاليا أمام قبره سنويا احتفالات بحرية .

يعتبر من أبرز الشخصيات التى تعد على الأصابع فى التاريخ التركى . إن طول عمره ، ومعيشته فى عصر علت فيه شوكة الأتراك إلى القمه خلال تاريخهم كله وسمي « العصر التركى » كالقرن ١٦ ، وكونه أخا لداهية كأوروج رئيس ، واقتفائه أثره ، ووجود حام له ذو دراية تامة كالسلطان سليمان ... كل ذلك كان عاملا فى إطلاق مواهبه وتفجرها .

(١٦) إيالة الجزائر البحرية بعد بربروس خير الدين باشا (١٥٤٢ - ١٥٦٨)

تولى إدارة شئون إيالة الجزائر البحرية خلال فترة قيادة بربروس خير الدين باشا للقوات والتى استمرت ١٢ – ١٣ سنة ، ابنه حسن بك (بيوك حسن ، حسن أغا رئيس ، بك ، باشا الأول) .

منحه الديوان على أثر انتصار الجزائر ، رتبة بكلربك (فريق أول بحرى) أى رتبة أبيه . وعند وفاة بربروس ، أصبح واليا على إيالة الجزائر بالأصالة .

وفى ١٥ ت ١٥٤٥/٢ ، أعفى الديوان الهمايونى حسن باشا الأول من وظيفته هذه وأرسل بدلا عنه من إستانبول لهذه الوظيفة ، ابن بربروس الأصغر منه سنا حسن باشا الثانى . انشغل حسن باشا الأول بالأملاك والأوقاف الكبيرة التى تركها له أبوه فى الجزائر وتوفى فى ١٥٤٩ وعمره ٥٨ سنة . استمرت ولاية حسن الثانى الأولى مدة ٥ سنوات و١٠ أشهر و٧ أيام حتى ١٥٥١/٩/٢٢ .

حاول الكونت Alkoder الموجود فى وهران احتلال تلمسان مرتين ، لم يتمكن من الحفاظ عليها . وفى هذه المرة أراد سلطان فاس أخذ تلمسان واحتلها بالفعل .

جاء حسن باشا إلى مستغانم وانتصر على جيش مولاى عبد القادر البالغ ٢٠٠٠٠ شخص بجيشه المكون من ٦٠٠٠ جندى تركى و ٨٠٠٠ عربى بدوى فى الموقع المسمى Rio Salado .

انسحب الفاسيون من تلمسان ، وكان أحد ملوك سلالة عبد الواد حاكما عليها بصورة رسمية . أنهى صالح باشا هذه السلالة فى ١٥٥٥ وضم تلمسان إلى الجزائر كلواء . وانتهت سلطنة بنى عبد الواد التى استمرت ٣١٩ سنة .

انتهى بذلك نظام الحماية العثمانية الذى استمر ٣٨ سنة وذلك بإلحاقها بالعثمانية بصورة قطعية . كانت هذه خطوة مهمة فى توحيد الجزائر . جاء حسن باشا إلى قبيليّة وجهز القبائل البربرية عسكريا . وعلى أثر تلكئه ومماطلته فى تنفيذ الأمر الذى تسلمه من الديوان حول مساندة فرنسا لعدم ارتياحه للفرنسيين ، استدعى إلى استانبول . عين بدلا منه صالح باشا واليا (١٥٥١/٩/٢٢ – حزيران ١٥٥٦) .

قازداغلى صالح باشا ، من مواليد جناقلعة كان عمره ٦٣ سنة عندما أصبح بكلربك (فريق أول بحرى) ، وهو أميرال له شهرة واسعة فى جميع أنحاء أوربا والعالم الإسلامى . كان من معية أوروج رئيس وأول من وطئت أقدامهم شمال أفريقيا معه ، ثم أصبح خير أميرال لخير الدين باشا . حقق مع زميله طرغد رئيس (باشا) حملات بحرية موفقة جدا . نقل المهاجرين الأندلسيين مرات عديدة ، أسر كذلك مع طرغد

وبقى ٣ سنوات كجداف فى سفينة جنوية حتى خلصهما بربروس . اشتهر بذكائه المفرط ، وكان دوريا يخشاه بعد بربروس وطرغد . وعندما ولى على الجزائر ، ربط الجزائر الجنوبية بالدولة بواسطة ٤٠٠٠ جندى تركى ، ٨٠٠٠ جندى عربى تحت قيادة الأمير عبد العزيز . اجتاز جبال أطلس التل وأطلس الصحراء ونزل حتى رغله . ثم نزل إلى أقصى الجنوب وتجول فى الصحراء الكبرى . وأخضع برابرة الطوارق ، وتعد هذه الحملة من الحملات الهامة من الناحية الجغرافية (Gyver ، - Lavisse Rambaud ; Encyelopédie de L'Islam, Supplément ، ٤ ، ٨١٤) . لم يكلل بالنجاح قيامه بإرسال سنان رئيس المسن مع رمضان رئيس (باشا) الشاب إلى قابلية ورغبته فى إعدادها كلواء ، فقد عارض القابليون وأفادوا بأنهم سيدفعون الضرائب ويرسلون من يرغب من المتطوعين إلى الجيش ، لكنهم لايرغبون فى أن يرأسهم موظف عثمانى فهم قادرون على إدارة أنفسهم بأنفسهم .

وفى غضون تلك الأيام ، كان أشراف السعديين فى فاس قد أسسوا سلالة جديدة وانشغلوا بإخماد بقايا مقاومة السلالة المرينية – الوطاسية القديمة . خرج صالح باشا من مدينة الجزائر فى ت ١٥٥٣/١ . رسى بـ ٢٢ سفينة حربية فى ريف ، أى سواحل ، فاس على البحر الأبيض . كانت آثار التمرد والاعتراض التى بدت عند سقوط الوطاسيين فى ١٥٥٠ قد ظهرت بشكل واسع ، فى شمال فاس ومدينة فاس ، تجاه السعديين القادمين من الجنوب من مراكش . كان السلطان السعدى محمد الثانى ، ينتظر صالح باشا مع ٨٠٠٠٠ جندى و٢٠ مدفعا وكتيبة الحرس الخاص التى يشكلها الأتراك . لكنه ترك هذه الكتيبة فى فاس بعد أن تأكد من عدم إمكان استعمالها ضد العثمانية .

اجتاز صالح باشا ، فى الأيام الأولى من شهر ك ١ (١٥٥٣) ، الحدود العثمانية – الفاسية من تلمسان ، وتمكن بفضل تفوق مدفعيته من تشتيت الجيش الفاسى قرب تازة على مسافة ٦٠ كم شرقى مدينة فاس . لمَّ محمد الثانى فلول جيشه فى ٥ ك ١٥٥٤/٢ وهجم على الباشا مرة أخرى فى الساحل الجنوبى من سبع . هزم مرة أخرى . وانتصر صالح باشا فى المعركة التى جرت فى اليوم التالى أمام أسوار فاس ودخل فاس نحو الظهر .

مكث صالح باشا فى فاس مدة ٤ أشهر حتى بداية شهر آيار . عامل الشعب بلين . أرسل زوجة محمد الثانى وحرمه إلى مراكش مكرمين معززين . دخل ريف وأخذ من الأسبان Penon وVelez (التى لازالت لدى أسبانيا) استمر حكم العثمانية فى مدينة فاس وشمال فاس لمدة ٨ أشهر و١٦ يوما . استعاد محمد الثانى فاس بعد انسحاب الأتراك فى ٢١ أيلول ١٥٥٤ .

سار صالح باشا بعد ذلك على بجاية (بالفرنسية : Bougie) شرق مدينة الجزائر . استسلمت قلعتها التى تحتوى على ٦٠٠ أسبانى بعد قصفها بـ ١٤ مدفعا لمدة ١٢ يوما (١٥٥٤/٩/١٦) ، وترك فى بجاية على رئيس مع ٦٠٠ من جنود البحرية ، وأعلم الديوان الهمايونى فى استانبول بأنه لايمكن تأمين وحدة الجزائر مالم يتم إخراج الأسبان من وهران وطلب الموافقة والمدد لتنفيذ ذلك . أرسلت استانبول ٤٠ سفينة حربية و ٦٠٠٠ انكشارى .

سار صالح باشا إلى وهران من البحر بأسطول مكون من ٧٠ سفينة حربية ، وسار هو من البر بجيش مكون من ٤٠٠٠٠ شخص أكثره من العرب ، مات فى الطريق وعمره آنذاك ٦٨ سنة .

أرسل الديوان بربروس - زاده حسن بك للمرة الثانية من استانبول واليا (بكلربك) على الجزائر . وناب عنه لحين قدومه صالح باشا - زاده محمد بك (باشا) .

وأرسل الديوان إلى الجزائر أولوج على رئيس وأمره بإعادة الانكشارية مع الـ ٤٠ سفينة إلى استانبول ، وأبلغه بصرف النظر عن فتح وهران .

بقى محمد بك نائبا عن الوالى (الفريق الأول) ، مدة ١٤ شهرا . لم يتمكن حسن باشا من القدوم إلى الجزائر وتسلم الإدارة إلا فى آب ١٥٥٧ (تعيينه الرسمى حزيران ١٥٥٦) .

أبلغ الديوان حسن باشا بوجوب صرف النظر حاليا عن مسألة وهران وأبلغه أيضا إن سلطان فاس محمد الثانى قد عقد معاهدة مع ملك أسبانيا فيليب الثانى ضد العثمانية ، وأن هذه المسألة أكثر أهمية إذ من الممكن أن تكون وخيمة العاقبة .

أراد السلطان أن يحتل تلمسان مرة أخرى ، ولم يوفق .

سار حسن باشا إلى فاس بجيشه المكون من ٦٠٠٠ جندى تركى و١٧٠٠٠ جندى عربى . من ناحية أخرى كانت كتيبة الحرس الخاص لمحمد الثانى مشكلة من الجنود العثمانيين بقيادة صالح كاهيه الذى كان تركيا ومن رجال صالح باشا . قتل صالح باشا وكتيبته ، محمد الثانى خارج مدينة مراكش (١٥٥٧/١٠/٢٣) ، (وكان عمره ٦٩ سنة) ، وأرسل رأسه إلى استانبول عن طريق تلمسان والجزائر وشهّر به . كان السلطان سليمان قد غضب غضبا شديدا على محمد الثانى . حيث كانت دماء كثير من المسلمين قد سفكت فى سبيل المغرب ، ومن ثم فإن الاتفاق مع أسبانيا المتسببة فى ذلك يعتبر خيانة (L'Etablissement des , August Cour Dynasries) (des Chérifs au Maroe et Leur Rivalité avee les Tures, P . 130) .

عزز تمكن حفنة من الأتراك من قتل حاكم دولة كبيرة كفاس جلس على عرشها تلك المدة الطويلة ، بتهمة خيانته وخروجه على الإسلام نفوذ العثمانية فى المغرب تجاه المنافقين . تمكن صالح كاهيه وجنوده بعد خسائر كبيرة من التخلص من مطاردة الفاسيين والذهاب من مراكش إلى تلمسان .

وكالعادة ، بدأ النزاع على العرش فى فاس .

دِخل بربروس - زاده حسن باشا ، فاس . لم يحقق الطرفان نتيجة فى حرب وادى البند الميدانية (كان جيش فاس يتكون من ٤٥٠٠٠ جندى و ٣٠٠٠٠ خيال و١٠٠٠٠ مشاة و٤٠٠٠ حملة بنادق ومدفعية) ، وبينما يستعد حسن باشا لهجوم جديد ، علم باستعداد الكونت Alkodet فى وهران للهجوم عليه من الخلف . كان الكونت يضفى الشرعية على حركته بإدعاء تنفيذ شروط المعاهدة المنعقدة مع السلطان المقتول .

خرج من وهران (١٥٥٨/٨/٢٢) ١٢٠٠٠ أسبانى وعدد يماثله من الجنود المحليين والمدفعيين وكان يريد تلمسان . استولى الأتراك على ٤ سفن تحمل له المهمات ، فتدهورت الروح المعنوية للأسبانيين . علم الكونت بالاستعدادات الممتازة التى أعدها أمير لواء (سنجق بك) تلمسان أولوج Uluç على رئيس (باشا) ، فغير رأيه ، وبدأ بحصار مستغانم ، ثم رفع الحصار عندما شاهد حسن باشا أمام مستغانم ومعه ٦٠٠٠ تركى و١٦٠٠٠ عربى ، واتخذ تشكيل حرب الميدان ، إلا أن الـ ١٢٠٠٠ عربى الموجودين فى الجيش الأسبانى ، عندما شاهدوا أمامهم حسن

باشا ابن بربروس الذى لايقهر ، انسحبوا دون أن يطلقوا رصاصة واحدة .. الأمر الذى أدى إلى تقرير مصير الحرب .

تعد واقعة مستغانم الميدانية (١٥٥٨/٩/٥) إحدى الانتصارات الهامة التى أحرزها الأتراك تجاه الأسبان . مات فى ساحة الحرب ١٢٠٠٠ جندى إسبانى والكونت Alkodet العسكرى الكبير المجرب والبطل ، والكبير السن ، وأسر ابنه دون مارتن Don Martin . اشتهرت هذه الحرب بأنه لم يبق منها جندى واحد على قيد الحياة . كان شارل - كوينت فى هذه الأيام قد تخلى عن العرش ، وكان مريضا وطريح فراش الموت فى سراى الحمراء ، لم يبلغ بكارثة مستغانم لئلا تعجل بموته .

وهكذا فشلت خطة إفناء ابن بربروس والتى كانت تستهدف جعله بين نارى الفاسيين والأسبان ، وانتهت بلجوء الأسبان إلى داخل أسوار وهران .

ترك حسن باشا الذى لم يرضخ لطلبات انكشارية الجزائر (المشاة) الذين حسدوا جنود اللوند (البحرية) ، الإيالة وجاء إلى استانبول وطلب من الديوان اعفاءه من وظيفة الولاية (ت٢ / ١٥٦١) . عين أحمد باشا وأرسل إلى الجزائر . جاء إلى الجزائر بالأسطول واعتقل الانكشارية العصاة وساقهم إلى استانبول لمحاكمتهم ، لكنه توفى بأجله فى السنة التالية (ك ١ / ١٥٦٢) . عين الديوان حسن باشا للمرة ٣ على الجزائر وأمره بالتوجه إليها ، ولحين مجيئه ، أصبح يحيى رئيس الكبير السن ، وكيلا عن الوالى فى الجزائر لمدة ٣ أشهر .

جاء حسن باشا من إستانبول إلى الجزائر ترافقه ١٠ سفن حربية . سار من مدينة الجزائر (١٥٦٣/٢/٥) فى الحال بعد أن أخذ معه ١٦٠٠٠ تركى و ١٢٠٠٠ جندى قاصدا وهران . جاء أمام مياه وهران فى ٣ نيسان . كان قد استبقى أمير لواء تلمسان ريزه لى على إسكندر بك مع عدة آلاف ، فى منطقة بين الجزائر ووهران تحسباً لاحتمال حدوث إنزال من قبل الأسبان . استولى هذا الأميرال على أسطول أسبانى محمل بالإمدادات مع سفينة الأميراليه ..كان يتولى الدفاع عن حامية وهران Don Alonzo de Cordoba واخوه ماركيز كورتيس Don Martin ابنا الكونت Alkodet ، وكانا جنرالين قديرين نشآ فى شمال افريقيا .

كانت وهران التى بقيت بحوزة الأسبان منذ ١٧/ ١٥٠٩/٥ ، تبعد ٢٠٠ كم

عن ميناء المريه (Ammeria) فى أسبانيا . استمر الحصار مدة ٢٦ يوما اعتبارا من ١١ آيار حتى ٥ حزيران . جرى قتال شديد . تكبد الطرفان خسائر جسيمة . بالنظر إلى توقع مجيء أسطول (أرماده) أسبانى ، فقد قام حسن باشا بفك الحصار ، وبالفعل لم تمض ٤٨ ساعة حتى دخل وهران أسطول إسبانى مخيف .

أرسل الديوان الذى خشى من عملية إنزال أسبانية على فاس طرغد باشا مع ٦٠ سفينة حربية من طرابلس إلى سواحل ريف (فاس) . اشترك حسن باشا بعد ذلك فى حصار مالطه (١٥٦٥) ثم استدعى إلى استانبول فى شهر ك ٢ سنة ١٥٦٧ ، وعين مكانه محمد باشا ابن صالح باشا .

تبلغ مجموع ولايات حسن باشا الثلاث ١٥ سنة و ٤ أشهر . استدعى محمد باشا كذلك إلى استانبول (١٥٦٨/٦/٢٧) وعين بدلا منه أولوج على باشا . توفى حسن باشا فى استانبول وعمره ٧٢ سنة ، ودفن بجوار أبيه (١٥٧٢/٣/١٥) .

(١٧) طرغد باشا وليبيا

ولد طرغد ابن أحد الرعاة ، فى قرية تابعة للواء منتشة..(موغلة) فى سنة ١٤٨٥ . دخل البحرية كجندى بحرى (لوند) عادى فى سن مبكرة جدا تقارب سن الطفولة . وفى الوقت الذى لفت فيه انتباه السلطان قورقود ، كان شابا عمره ٢٥ سنة ملاحاً لسفينة . أصبح أولا قائدا لسفينة أوروج ثم لخضر خير الدين باشا ثم أصبح قائدا لقطعة من الأسطول . قدم خير الدين باشا – عند مجيئه إلى استانبول لتعيينه قائدا للقوات البحرية – طرغد رئيس الذى تعاظمت شهرته ، إلى السلطان كأحد أميرالاته الـ ١٩ ؛ كان عمره آنذاك ٤٨ سنة .

منح القانونى ، طرغد رئيس رتبة لواء بحرى وأصبح اسمه فى الوثائق العثمانية الرسمية (طرغد جه بك) . اشتهر على الأغلب كرئيس قراصنة . قام بإدارة القراصنة (الصاعقة البحرية) لسنوات طويلة . يلى بربروس خير الدين باشا مباشرة من حيث الشهرة ، وكان قد صاهر بربروس كذلك . نظراً لمزاجه وعدم رعايته قواعد التشريفات ، لم يحصل على رتبة قبودان دريا (مشير ، قائد القوات البحرية) ولم

يتمكن من دخول الديوان الهمايونى ، لكنه بقى محافظا على صفته كرئيس حقيقى للبحارة الأتراك . كانت قاعدته جزيرة جربة . تمكن على مر الزمن من الاستيلاء على أربعة أخماس القطر التونسى وحشر السلطان الحفصى فى مدينة تونس وضواحيها . احتل ميناء بنزرت . لكنه أولى اهتماماً خاصاً بتحصين قلعة مهدية فى الجنوب كقاعدة بحرية ، بصورة ممتازة .

كان أوروج رئيس قد فتح من قبل مدينة مهدية (مدينة العرش الفاطمية القديمة) . فشلت كل المحاولات الاسبانية – الحفصية المختلفة حتى ١٥٥٠ فى إخراج طرغد من مهدية . كان طرغد فى ربيع هذه السنة ، أوّلا فى خليج بلنسية **Valeneia** ثم فى جزر باليز **Balear** . كان فى مهديه كل من عيسى رئيس ، وابن أخ طرغد حصار رئيس . شوهد عند ذاك أسطول **Andrea Doria** المكون من ٤٧ قطعة أمام مهدية (١٥٥٠/٦/٢٨) .

جاء دوريا إلى مهدية بعد أن أخذ مناسطر من الأتراك ومعه جيش بقيادة نائب الملك فى صنقلية **Don Juan de Vega** ، وكان السلطان الحفصى قد انضم كذلك إلى هذا الجيش . أما حامية عيسى رئيس فقد كانت تتكون من ٢٣٠٠ جندى بحرى تركى و٥٠٠٠ خيال عربى . أطلقت مدافع الأعداء حتى ٢٦ آب ٧٠٠٠ قذيفة . كان يوم ١٠ أيلول اليوم ٤٣ من الحصار . كانت قد انفتحت ثغرات واسعة . دل إبراهيم برات من تجار المهدية المشهورين الصليبيين على أماكن الأسوار التى تركها الأتراك مفتوحة ، لقاء دراهم . دخل العدو إلى القلعة وذبح وقطع المسلمين . أسر عيسى رئيس مع حفنة من بقايا جنوده . كان هو و٧٠ من جنود بحريته جرحى (سيتخلصون من الأسر بعد مدة عن طريق المبادلة) . أخذ الصليبيون سكان المدينة البالغ عددهم ٧٠٠٠ كعبيد . أدرك الأسبان بعد ذلك عدم إمكان احتفاظهم بمهدية ، فهدموا القلعة من أساسها فى بداية سنة ١٥٥٤ وانسحبوا . تأثر الديوان الهمايونى من سقوط مهدية وأرسل إلى شارل – كوينت رسالة شديدة اللهجة . أجاب الإمبراطور بأن حربه ضد قرصان وليست ضد الأتراك .

وحتى يمكن القبض على طرغد قرر دوريا ضرب جربة . جاء إلى جربة مع ١٥٠ سفينة . أنزل طرغد أسطوله بواسطة مزالق مدهونة إلى الطرف الآخر من الجزيرة ولم يقبض عليه (**Hammer** ، ٦ ، ١٧٩ – ٨٠) .

استدعى الديوان فى ربيع سنة ١٥٥١ ، طرغد بك مع عقدائه السبع البحرين (قبودان) إلى استانبول وكان من بينهم بربروس — زاده غازى مصطفى بك (ابن شهيد إسحق رئيس) وألوج (قيليج) على رئيس باشا) .
الذى أصبح فيما بعد قائدا للقوات البحرية وواليا على الجزائر . أعطيت لأمر طرغد بك ٩٠ سفينة حرب وعدد مماثل من سفن النقل . جاء طرغد إلى صقلية على رأس الأسطول الهمايونى . أنزل إلى البر ١٥٠٠ من جنود البحرية واحتل ميناء Augusta على مقربة من شمال سيراقوسا Siracusa بعد مقاومة استمرت يومين . انهزمت القوات الصقلية التى جاءت بقيادة Don Hernan do Vega . كانت خسائر الأتراك ١٠٠ شهيد و ١٤ أسيرا . جاء الأسطول الهمايونى إلى مالطة (١٥٥١/٧/١٦) حيث أنزل الجنود فيها وخربها ، وتم الاستيلاء على جزيرة Gozo وأسر كافة سكانها (٧٠٠٠ شخص) ، وأركبوا البواخر ووضعت فى الجزيرة حامية عسكرية .

وهكذا بقيت جزيرة غوزو الملاصقة لمالطة بيد الأتراك فترة طويلة (Histoire de Malte , J.Godeehot ، ص ٤٦) . هبت عاصفة شديدة وأغرقت ٨ سفن من الأسطول الإسبانى الذى جاء للمساعده كما غرق ١٥٠٠ إسبانى قرب جزيرة لامبيدوسا .

جاء طرغد بك من مالطة إلى طرابلس الغرب . فى ذلك العهد كانت السفينة تستطيع أن تجتاز تلك المسافة فى الأجواء الطبيعية خلال ٣٠ ساعة . كان كامل ليبيا تقريبا بما فى ذلك بنغازى (برقة Sirenaika) تحت سيطرة الأتراك ، إلا أن البلدة الرئيسية للقطر ميناء طرابلس الغرب والمناطق المجاورة لها ، كانت لدى المسيحيين منذ ١٥١٠ وهى الآن لدى فرسان مالطة (من المعلوم أن الفرسان من ألد أعداء المسلمين) كان الأتراك قد أسسوا قاعدة فى تاجوار تبعد مسافة ٢٠ كم عن طرابلس . كان مراد آغا وحفنة من جنوده يحاولون منذ سنين منع الفرسان من النفاذ إلى المناطق الداخلية من البلاد وارتكاب المظالم ، ولم يكن الفرسان قد تمكنوا من إخراج مراد أغا من تاجوار .

أنزل طرغد بك ٤٠ مدفعا و ٦٠٠٠ جندى . واستولى من الفرسان على طرابلس ، (١٥٥١/٨/١٥) وأخرجهم منها . دافع عن القلعة الفرنسى Gaspard de Vallier ومعاونه Desroches . كانت مساعدة العرب المحليين للأتراك كبيرة .

أصبح مراد آغا ، أول وال (فريق أول) على أيالة طرابلس البحرية ، وأصبحت طرابلس ، هى الأيالة البحرية (بالفرنسية : Province maritime) الثانية للدولة العثمانية بعد الجزائر وستكون تونس الأيالة الثالثة . كان مراد باشا قد خدم فى تاجوار وقام بصيانتها بصبر مدة ٣١ سنة منذ ١٥٢٠ . بقى واليا عليها حتى وفاته فى ١٥٥٦ . قاد جيشا إلى فيزان (فزان) ، وأخذ المناطق الجنوبية حتى جبال Tlbesti وضمها إلى الإدارة العثمانية وأخضع الملكيات الزنجية فى الجنوب وأدخلها تحت النفوذ العثمانى . غطى النفوذ التركى المناطق التى تتعدى بكثير بحيرة جاد .

على الرغم أن طرغد بك هو فاتح الأيالة ، لكنه أصبح ثانى وال عليها . وهكذا رقّى إلى رتبة بكلربك بحرى أى فريق أول بحرى فى ١٥٥٦ وعمره ٧١ سنة . حكم ليبيا مدة ٩ سنوات حتى وفاته . كان يدير خلال قيامه بواجب الولاية أربعة أخماس ليبيا .

قاد طرغد بك الأسطول إلى إستانبول . ذهب إلى مركز لوائه برِوزة Preveze . أقلع منها بأسطول مكون من ١١٢ قطعة . رسى فى ميناء Pozzuoli ضاحية نابولى الغربية . كان السفير الفرنسى d'Aramont يرافقه فى الأسطول . كلف طرغد بك بمهمة الدفاع عن فرنسا ومساعدتها بسبب إعلان شارل – كوينت الحرب على فرنسا مجددا فى ١٥٥١/٩/٢٨ . كان طرغد بك يكره الفرنسيين بسبب نكثهم المتكرر لعهودهم . سار دوريا إلى طرغد . تقابل الأسطولان بالقرب من جزيرة Ponza فى مياه خليج Gaeta (١٥٥٢/٨/٥) . انسحب دوريا بعد أن عجز عن حماية ٧ من سفنه انتقلت لحوزة طرغد ، هذا عدا السفن الغارقة . يعد انتصار بونزا هذا ، أحد أهم إنجازات طرغد . احتل جزيرة كابرى المواجهة لنابولى (Sorrento) بعد أن سيطر على بحر Tiren مدة شهرين .

غادر طرغد بعد أن قضى الشتاء فى إستانبول مع ٤٥ قطعة من السفن فى ١٥٥٣/٦/١٥ . كان هنرى الثانى يعترف بالبادشاه كإمبراطور أوروبا الأوحد وسيده المبجل بموجب معاهدة إستانبول فى ١٥٥٣/٢/١ . وكان يضع الأسطول الفرنسى رهنا لتركيا فى مقابل المساعدات البحرية التركية ، (تترك فرنسا أسطولها إلى تركية فى حالة عدم تسديدها مصاريف الحملة البحرية) نص المادة الخاصة بذلك فى المتن الفرنسى من المعاهدة :

engagés en neantissement de la somme précitée, Jusque'a ce que cette derniére somme soit payéa a l'Amiral du Grand - Seigneuv يقول هنرى الثانى فى رسالة منه إلى السلطان سليمان : « لم يبق لدى فرنسا أى أمل فى المساعدة من أى مكان آخر عدا حضرة سلطان العالم ؛ حيث إن حضرة سلطان العالم قد قدم من قبلّ مساعداته لمرات عديدة . إن فرنسا ستكون ممتنة إلى الأبد لو سوعدت بمقدار من النقود والبضاعة . ستطبق شهرة الكرم التركى العالم أجمع ، إن مثل هذه المساعدة تعتبر لاشيء بالنسبة إلى سلطان العالم » .

وبعد أن ضم طرغد بك الأسطول الفرنسى الموجود فى Modon (Mora) وارتفع عدد سفنه إلى ١٥٠ قطعة ، أنزل جنودا فى كاتانيا (المدينة الثانية فى صقلية) ، وكذلك أنزل جنودا فى Bastia مركز كورسيكا . واستولى على المدينة والقلعة (١٥٥٣/٨/١٧) . أبيد جيش العدو المكون من ٧٠٠٠ شخص . قاوم Bonifacio مدة أسبوع ، ثم فتحت . انتقلت الجزيرة لحوزة الأتراك . تم تخليص ٧٠٠٠ أسير مسلم كانوا فى الجزيرة . عاد طرغد إلى استانبول بعد أن سلم إدارة كورسيكا بأمر الديوان إلى الفرنسيين .

لم يتمكن الفرنسيون من الحفاظ على كورسيكا أمام أسبانيا . جاء أندريا دوريا فى الأشهر الأخيرة لسنة ١٥٥٣ وأخذ الجزيرة من الفرنسيين . تأخر استرداد الفرنسيين للجزيرة مدة ٢٠٠ سنة . كانت الجزيرة التى ينطق شعبها الإيطالية – ولازالت كذلك – من أملاك الجمهورية الجنوية وكانت الجمهورية تحت حماية أسبانيا .

(١٨) قيادة القوة البحرية لبيالة باشا (كانون الثانى ١٥٥٤)

عين بيالة بك خلال هذه الفترة قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية (قبودان دوريا) برتبة لواء بحرى . كان عمره ٣٨ سنة . خرج بالأسطول الهمايونى فى صيف ١٥٥٤ إلى البحر الأبيض . كان عليه بموجب أمر الديوان أن يفتح كورسيكا للمرة الثانيه ويسلمها إلى الفرنسيين . كانت فرنسا قد اراقت الكثير من ماء وجهها فى هذا السبيل . أخذ لأسطوله طرغد بك ثم والى الجزائر صالح باشا . والتأم بأسطول

البارون de la Garde الفرنسى . رسى فى ميناء Piombino الإيطالى . أنزل إلى البر فى كورسيكا ٣٠٠٠ جندى . حاصر Calvi . لكنه غضب على الفرنسيين ورفع الحصار . وجلى عن كورسيكا ، ولم يتمكن الفرنسيون من أخذها .

خرج بيالة باشا فى السنة التالية بأمر الديوان لمساعدة فرنسا كذلك (١٥٥٥/٦/٢٦) . التقى بطرغد بك . احتلا Reggio . ذهب طرغد رئيس حتى إسبانيا . عاد بيالة بك الذى لم يعثر على دوريا إلى استانبول .

وفى السنة التالية ، سار بيالة باشا من استانبول فى صيف سنة ١٥٥٦ بـ ٤٥ سفينة حربية . ذهب إلى الجزائر ثم عاد . وفى ١٥٥٧ ، سار بحملة بحرية قوامها ٦٠ سفينة حربية . لم يتمكن من العثور على دوريا كذلك ، رفع الراية وقام بعرض فى البحر الأبيض . استقال أندريا دوريا الذى تقدم فى السن ، والذى تأثر كثيرا لتخلى شارل – كوينت عن العرش ، من قيادة القوة البحرية الأسبانية وانسحب إلى قصره الكبير فى جنوه . عين لقيادة القوة البحرية الأسبانية ، ابن أخيه Gian Doria .

وفى صيف سنة ١٥٥٨ ، سار بيالة بك ، مع طرغد باشا بأسطول مكون من ١٥٠ قطعة . احتل كامل جزر بالير . عقدت إسبانيا التى لم تقدر حتى على صيانة جزر بالير معاهدة صلح Chateau - Cambrésis مع فرنسا فى ١٥٥٩ . رقى بيالة بك عند عودته من هذه الحملة إلى رتبة فريق أول بحرى . وفى صيف ١٥٥٩ خرج بيالة باشا مع ٩٨ سفينة حربية وجاء إلى آفلونيا ودخل البحر الأدرياتيكى . رفع الراية وقام بعرض فى تلك البحار .

(١٩) انتصار جـربة (١٥٦٠/٥/١٤)

كانت أسبانيا مضطرة لإثبات وجودها ، ومن ثم فقد اختارت طرغد باشا وقاعدته الرئيسية جزيرة جربة هدفا لها . أرسل طرغد باشا فى شباط ١٥٦٠ أمير لواء (والى) صيغلة (أزمير) الذى يرافقه ، اللواء البحرى أولوج على رئيس (قيليج على باشا) إلى الديوان فى استانبول ، وأخبرهم بأن المسيحيين قد جهزوا تحت إمرة أسبانيا أسطولا هائلا ومن المحتمل أن يكون هدفهم جربة .

كان هذا الأسطول ، أعظم أسطول جهزوه منذ بروزه يتكون من ٢٠٠ سفينة حربية ، تحمل ٣٠٠٠٠ جندى . كان الأسطول بقيادة Gian Andrea Doria ، وكانت القوات البرية بقيادة نائب الملك فى صقلية Don Juande la Cerda (دوق Medinaceli) ، والأسطول البابوى بقيادة الأمير Flamino Orsini ، والأسطول الفلورنسى (توسكانا) بقيادة الأمير Andrea Gonzag . اشتركت فى الأسطول سفن ألمانية ، ومالطية ، وجنوية ، وحتى سفن موناكو . غادر الأسطول صقلية (١٥٦٠/٢/١٠) ولم يتمكن لسوء حالة الجو من التجمع ولم يتمكن من الوصول إلى جربة ، إلا فى ٢ أيار وأنزل جنوده فى الجزيرة حتى ٧ من أيار . كان فى جربة ١٠٠٠ جندى بحرى ، قاوموا ٥ أيام وانسحبوا إلى طرابلس . أخذ الأسبان الجزيرة وشيدوا فيها قلعة عظيمة . وضعوا فيها ٢٢٠٠ جندى بقيادة Don Alvaro de Sandi .

جهز بيالة باشا الأسطول ، على إثر إرسال أولوج على رئيس مع سفينتين حربيتين إلى استانبول من قبل طرغد باشا . كان الصليبيون يريدون الحملة على طرابلس الغرب واحتلالها . وبينما هم على وشك المغادرة ، آثروا انتظار الأتراك فى جربة عند سماعهم خبر حركة الأسطول الهمايونى . كان بيالة باشا قادما مع ١٢٠ سفينة . إن قدومه بمثل هذا العدد من السفن بينما يملك العدو ٢٠٠ سفينة ، يدل على مبلغ اعتماده على سفنه وجنوده . لكنه أضاف فى الطريق إلى الأسطول ٦ سفن حربية و ٢٤ سفينة نقل . تم إبلاغ كل من طرغد باشا فى طرابلس وحسن باشا فى الجزائر بأن يكونا على استعداد . جاء بيالة باشا إلى مالطة خلال ٣٣ يوما ومنها إلى جربة خلال يومين ورسى على بعد ٣ أميال منها .

اتفقت آراء أمراء البحر فى المجلس الحربى (العسكرى) على تطبيق خطة بربروس التى استعملها فى بروزه . كان قائد الجناح الأيسر ، أمير لواء (والى) صيغلا (أزمير) اللواء البحرى أولوج على رئيس (قائد القوات البحرية وناظر البحرية قيليج على باشا فى المستقبل) ، ويقود الاحتياط سيدى على رئيس . كان عمر طرغد باشا آنذاك ٧٥ سنة ، وبيالة باشا ٤٥ سنة ، وسيدى على رئيس ٥٣ سنة . كان قادة الأساطيل الخفيفة أمير لواء ميديللى اللواء البحرى المسن قورد أوغلو الدين مصطفى رئيس (كان قد أصبح قائدا للأسطول قبل ٣٩ سنة فى حملة القانونى على رودس) ، أخيه

أمير لواء رودس اللواء البحرى قورد أوغلو أحمد رئيس ، أمير لواء كاراسى (بالكسرة) اللواء البحرى غضنفر رئيس .

من الملفت للنظر أن أمراء البحر كانوا مسنين وبحارة قدماء ، ولكن يبدو أن الدهاء البحرى التركى فى النصف الثانى من القرن ١٦ – ولو أنه لا يتضح فى تلك الأيام ـــ كان قد بدأ يدخل مرحلة توقف ويحتمل مرحلة ضمور .

جرت حرب جربة البحرية ، بعد بروزة بـ ٢١ سنة و٧ أشهر و١٦ يوما . جرت فى صباح يوم ١٤ أيار ١٥٦٠ ، على مسافة من جزيرة جربة وهى إحدى أكبر المعارك البحرية فى التاريخ العالمى . انهزم الصليبيون خلال ساعات عديدة . كان تكتيك الحرب التركى سليما خاليا من العيب وخارقا للعادة . قتل أو غرق أو أسر ٢٠٠٠٠ جندى من جنود الصليبيين الـ ٣٠٠٠٠ عدا الجدافة . أسر كثير من الأشراف وأمراء البحر والجنرالات . قتل الأمير Orsini . غرقت ٧٠ سفينة صليبية . انتقلت لحوزة الأتراك ٢١ سفينة حربية ، ٢٦ سفينة نقل . وأصيبت معظم السفن الأخرى . كانت خسائر الأتراك قليلة كما فى بروزة بشكل مدهش ؛ عدد الشهداء أقل من ١٠٠٠ وغرقت بضعة سفن تركية فقط .

كانت معركة جربة ، أكبر معركة بحرية جرت فى البحار المفتوحة انتصر فيها الأتراك بعد بروزة على مدى التاريخ التركى . كان دوريا وعمره ٩٤ سنة فى قصره الكائن فى جنوة ينتظر خبر انتصار ابن أخيه الصغير . وعندما علم بخبر الهزيمة ، بات طريح فراش الموت . مات فى ١٥٦٠/١١/٢٥ . جرت فى أيام ١٦ و ١٧ أيار حركات مطاردة ناجحة جدا . تولاها طرغد باشا الذى جاء من طرابلس بعد إحراز النصر مع ١٢ سفينة حربية .

ومع أن الديوان قرر إعطاء الباشا رتبة وزير (أميرال – كبير) ، لكن السلطان سليمان لم يصادق على هذا القرار قائلا : إنه نال رتبة فريق أول بحرى قبل سنتين وإنه سوف لا تبقى للرتب قيمة إذا ما نالها الضابط بهذه السرعة . لكنه كافأ بيالة باشا شخصيا بتزويجه حفيدته . إن الرتب التى لم يفرط السلطان سليمان فى منحها إلى الباشا بربروس خير الدين ، طرغد ، بيالة ، سوف تمنح بعد مدة قصيرة وبعد جيل واحد إلى العسكريين ورجال الدولة الذين لم يحققوا واحدا على المئة من

الإنجازات التى حققها هؤلاء . هنأ السلطان سليمان كلا من بيالة باشا وطرغد باشا بكتاب سلطانى مستقل .

طوق بيالة باشا وطرغد باشا قلعة جربة بـ ١٤٠٠٠ جندى من البر وبالسفن من البحر . كان قد تجمع فى القلعة الصليبيون الذين لجأوا مؤخرا و ٨٠٠٠ من الجنود المسيحيين ، كانوا قد تلقوا أمراً من فيليب بعدم ترك القلعة قبل أن يموت آخر جندى . دام الحصار ٦٣ يوما واستسلمت القلعة فى ١٥٦٠/٧/٣٠ . أطلق الأتراك خلال هذه المدة ١٢٠٠٠ طلقة مدفع وأكثر من ٤٠٠٠٠ سهم . لقد كانت هذه المعركة إحدى معارك التاريخ الدموية ، وكانت فى هذه الفترة قد انقلبت الحرب من حرب قلاع إلى حرب آبار المياه الإرتوازية ، فالطرف الذى يحوز الآبار يكون هو الطرف المنتصر . تمكن أولوج على رئيس من حيازة بئر واحدة فقط بعد قتال دموى شديد ، وظلت البقية لدى الأسبان . كان الأتراك لايجدون الماء بدرجة كافية ، أما المسيحيون فلم يكن لديهم أى مصدر للمياه عدا الآبار . شوهد أسبان جنوا يلجأون من شدة العطش إلى الأتراك . استشهد وجرح بجراحات بليغة ٧ قواد سفن (قبطان) برتبة عقيد بحرى دفعة واحدة ، أمام بئر واحدة . اقتربت الخنادق من بعضها إلى درجة أن الأتراك والأسبان كان يكلم بعضهم بعضا من أماكنهم ، أبدى الدون آلفارو شجاعة بحيث اقترب من سرادق طرغد باشا . نفذ توصية مليكه ؛ فلم يبق عند سقوط القلعة ، شخص واحد حى من جنود الأسبان الذين كان عددهم ٨٨٠٠ . عندما أسر دون آلفارو لوحده ، كان قد اقترب إلى مسافة بضعة أمتار من سرادق طرغد باشا .

كان دون آلفارو قد اشتهر بمعاملته السيئة للجدافة المسلمين ، ولذلك فقد حاول الذين كانوا أسرى وجدافة تمزيقه . جعل دورمش رئيس ربان سفينة الأميرالية (القيادة العامة) لبيالة باشا من جسمه سدا لجسم الأميرال ونجاه من الموت . سيق دون آلفارو مع عدد كبير من أمراء البحر والجنرالات الذين أسروا إلى إستانبول .

قدم الأتراك فى محاصرة قلعة جربة نحو ١٠٠٠ شهيد أكثرهم من الضباط . جرح كل من ابن اخت طرغد إلياس رئيس ومساعده محمد رئيس بجراحات بليغة . جاء بيالة باشا وطرغد باشا إلى طرابلس بعد تحصين القلعة ، مكثا فيها ٣ أيام وغادرا سوياً فى ١٠ آب . احتفل الأسطول بعيد الأضحى فى بروزة Preveze . دخل

الأسطول الهمايونى استانبول فى ٢٧ أيلول (١٥٦٠) . كان الشعب قد تكدس على السواحل ، أما الخاقان فكان مع الوزراء والسفراء الأجانب فى قصر المراسم . حى الأسطول الخاقان ، بإطلاقه نيران مدافعه .

اعتبر الاشتراك فى حرب جربة ، شرفا كبيرا بين جنود البحرية كما كان الحال فى حرب بروزة Preveze . والجنود الذين اشتركوا فى كليهما ، اعتبروا أبطالا ذوى امتياز كبير .

قام بيالة باشا فى ذكرى الحملات للسنوات ١٥٦١ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٣ بعرض فى البحر الأبيض ورفع الراية . وفى ١٥٦٤ ، جاء إلى الريف (سواحل فاس فى البحر الأبيض) . كانت أسبانيا قد شيدت خلال ١٥٦٠ ــ ٦٥ بعد تضحيات كبيرة ٥٠ سفينة حربية وجهزتها . كانت بذلك قد عوضت خسائرها فى جربة . فتح بيالة باشا عدة قلاع قرب نابولى وسلمها إلى الفرنسيين لكنهم لم يتمكنوا من الحفاظ عليها (Von Hammer ، ٦ ، ٤٩٣) .

تعاظم نفوذ العثمانية فى هذه الأيام فى ريف وشمال فاس . كان بعض الزعماء الفاسيين ، وأمراء أسر الشريف ، وحتى بعض السلاطين قد اعترفوا بنفوذ الخليفة وبدأوا بالتعاون مع العثمانية . لكن بعضهم كان لايزال يعقد مع أسبانيا اتفاقيات معقدة لاتتفق والعقل السليم ، بأمل التغلب على صراعات الأسر والعثمانية . لم يكونوا قد أدركوا بعد أن الإمبراطورية العثمانية ، دولة إسلامية . كانوا يخشون من مجيء العثمانية وإلغائها الامتيازات الإقطاعية التى يتمتعون بها .

كان بيالة باشا قد عين قرة مصطفى رئيس فى جزيرة Penon do Velez التى تبعد ١٠٠ كم عن أسبانيا (الأندلس) وجعلها مقراً له . كانت تطوان وكذلك صافى فى الأطلسى تحت نفوذ الأتراك ، أسسوا فى كل منها أساطيل للقراصنة المجاهدين . وبناء على ذلك كان اجتياز مضيق جبل طارق إلى البحر الأبيض أو العكس ، يشكل مشكلة بالنسبة للأسبان . احتل جيبون دوريا Penon de Velez فى ١٥٦٤/٨/٣١ بـ ٨٩ سفينة حربٌ و ٢٠٠٠٠ جندى . كان مصطفى رئيس فى تطوان . لم يتمكن الأسبان من المجيء إلى تطوان التى تقع فى الداخل وعلى مسافة ليست بعيدة عن الساحل . لكن Penon de Velez بقيت لدى الأسبان حتى يومنا هذا .

كان ينوب عن طرغد باشا فى طرابلس (ليبيا) ، خلال وجوده فى الحملات وفى استانبول ، محمد باشا الذى قام بهذا الواجب مدة ٢ سنة ، ٧ أشهر ، وعند وفاة طرغد أصبح تلميذه أولوج على باشا واليا (بكلربك) لمدة ٥ أشهر ، ثم جاء والى لواء رودس البحرى يحيى رئيس وحكم الايالة لغاية ١٥٧١/٣/٢٨ بلقب يحيى باشا .

(٢٠) حملة مالطه (١٥٦٥)

أقام فرسان الطريقة العسكرية Saint - Jean الذين تركوا رودس فى الأسبوع الأول من سنة ١٥٢٣ فى جزر مالطة و Gozo التى منحها إياهم شارل — كوينت فى ١٥٣٠/١٠/٢٥ .

كان تعداد سكان مالطة ٩٠ ألفا وغوزو ٧ آلاف . ظلت جزيرة غوزو تحت نفوذ الأتراك مدة طويلة (١٥٣٠ — ٦٥) ورغم أنهم كانوا يقصفون مالطة فى كل سنة تقريبا ، إلا أنهم لم يتمكنوا من زحزحة الفرسان منها . وقد راجع طرغد باشا ، الديوان مرات عديدة لفتح مالطة وإخراج الفرسان الذين سفكوا دماء كثير من المسلمين من الجزيرة .

كان الأستاذ الأعظم (grand - maître) أى رئيس الدولة فى تلك الفترة ، فرنسى من إقليم بروفانس Provence اسمه De la Valette Parisot . ولد فى سنة ١٤٦٤ ، وانتسب إلى فرسان مالطة عام ١٥١٥ وعمره ٥١ سنة . كان موجودا فى فتح القانونى لرودس فى ١٥٢٢ وكذلك عند الانتقال إلى مالطة فى سنة ١٥٣٠ . جدف كأحد الجدافة المسيحيين الأسرى سنوات عديدة فى سفينة عبد الرحمن رئيس ، ثم تخلص من الأسر ، أوقف حياته لمقاتلة طرغد باشا ، كان يجيد ٥ لغات أوربية ، كما كان يجيد التكلم باللغة التركية ويتكلم أيضا قليلا من العربية .

كانت جزر Lampedusa و Linosa بحوزة الأتراك . ورغم جهود La Valett الذى انتخب أستاذا أعظم فى ١٥٥٧/٨/١٧ فإنه لم يتمكن من إخراج الأتراك من هذه الجزيرة الصغيرة . تنبأ لافاليت منذ سنوات بأن العثمانية لابد وان تقوم إن عاجلا

أو آجلا بحملة كبيرة جدا على مالطة ، ومن ثم فقد استعد وجهز الجزيرة بتحصينات تفوق تحصينات رودس وسدود وأنفاق يتاه فيها وجعل منها عش صقر داخل صخور . راجع لافاليت الذى أرهقته غارات الأساطيل التركية المتكررة فى كل سنة ــ إسبانيا قائلا إن قطعة الصخرة هذه لا تستأهل كل هذه التضحية ، وأنه يجب إخلاؤها وتركها على شكل تلال صخرية ليحتلها الأتراك ، وأن يأخذواهم جزيرة كورسيكا الأفضل صيانة فى الشمال . وافق فيليب . لكن جمهورية جنوة استرحمت الملك فعدل عن قراره ، فلم يكن على لافاليت بعد هذا ، سوى الدفاع عن مالطة مهما كلفه الأمر .

يتكون الأسطول الهمايونى الذى سيقوده بيالة باشا من ١٣٠ سفينة كبيرة وسفينة حرب و ١١ كاليون (سفينة حرب شراعية) ، ٣ سفن من نوع قرة مرسل ، ٥٠ سفينة نقل . كان الذى سيقود القوات البرية التى ستنزل فى جزيرة مالطة ، الوزير ٥ اسفنديار أوغلو ــ سلطان زاده مصطفى باشا . حمل الأسطول عدا الجدافة ، ١٣٠٠٠ جندى بحرية ، ١٦٠٠٠ جندى مشاة (٤٥٠٠ انكشارى ، ٣٥٠٠ سباهى روملى ، ٨٠٠٠ سباهى أناضولى) ، ١٧٥ مدفع حصار ، ٢٠٠٠٠ قنطار بارود ، ٤٠٠٠٠ طلقة ، ١٠٠٠٠ معول ، ١٠٠٠٠ مجرف ومهمات أخرى تعادلها فى العدد .

كان مصطفى باشا ، وعمره ٧٠ سة ، هو ابن عمة السلطان سليمان ، لايفهم الأمور البحرية ، مغرور عنيد ، لكنه كان عسكريا بطلا برتبة مشير (مارشال) . لم ينسجم مع بيالة باشا الذى يقود أسطولا يجدفه ٧٠٠٠ جداف (فورصة = أسرى مسيحيين) ولامع طرغد باشا الذى عين مستشارا له وأمره الديوان الأيحيد عن توصياته . كان لدى لافاليت ١٠٦٥٠ جنديا يعتبرون من أجود محاربى ذلك العصر فى العالم المسيحى ،كما كان يعتمد من ناحية أخرى ، على الشعب كله الذى يستتر وراء الصخور ويدافع .

وصل الأسطول الهمايونى الذى غادر استانبول بعد أن حيا قبر خير الدين باشا بمدافعه فى ١٥٦٥/٤/١ إلى مالطة فى ١٩ وأنزل فى الجزيرة ٢٠٠٠٠ جندى خلال ٤٨ ساعة . كان صالح باشا ــ زاده محمد بك (باشا) قد أجرى فى وقت سابق

استطلاعاً من البحر ومن المعروف أن الجزيرة بقيت تحت سيطرة العرب المسلمين خلال ٨٢٤ ــ ١١٢٧ والشعب يتكلم لغة ممزوجة بالعربية .

أدى تأخر مجيء طرغد فى ٢ حزيران بصحبة ٢٣ سفينة حربية و ٢١١٠ من مشاة البحرية (عزب) ، وحالة بيالة النفسية غير الهادئة إلى ارتكاب مصطفى باشا أخطاء تكتيكية . جرى قتال دموى رهيب . أصيب طرغد باشا فى الهجوم ٦ بشظية فى رأسه ، وجرح بصورة بالغة ، واصطبغت لحيته البيضاء بلون أحمر قانىء . جاء فى الحال كل من مصطفى باشا ، وأقرب صديق له محمد باشا ابن المرحوم صالح باشا ، وتلميذه المحبوب أولوج على بك . تلا مصطفى باشا القرآن ، ومات شهيدا بعد عدة ساعات ، كان عمره ٨٠ سنة . تقرر نقله إلى طرابلس التى خلصها أولوج على بك وطرغد من ظلم المسيحيين حيث دفن هناك وشيد له قبر فيها . يطلق على الموقع الذى استشهد فيه الباشا حاليا اسم Pointe Dragut (رأس طرغد) . كانت الطلقات التى أطلقت على قلعة مالطة خلال محاصرتها ومايماثلها من الحاجيات التذكارية ، يلتقطها السياح من الأرض ويأخذونها معهم للذكرى . يكتب الأميرال Stanley Lone-poole : « كان طرغد على مستوى بربروس من حيث إمارة البحر ، ويفوق دوريا » .

ومع أن قلعة Sant'Elmo سقطت فى ١٥٦٥/٦/٢٣ إلا أن القلعة الأصلية قاومت . كلفت هذه القلعة الأتراك ٦٠٠٠ مابين شهيد وجريح . رمى لافاليت ١٠٠٠ مسلم من الأسرى أمام الأتراك بعد أن قطعهم إربا إربا . وخلال ذلك ، كان أسطولا صليبيا مكونا من ١٠٠ قطعة قد تجمع فى صقلية بهدف إنزال قوة فى مالطة ، دون أن يهاجم سفن بيالة باشا البالغة ٢٣٦ سفينة .

شرع فى محاصرة القلعة الأصلية فى ١ تموز . مضى شهر تموز تحت أشعة الشمس المحرقة وعلى الصخور أو بداخلها ، فى قتال دموى رهيب بالنسبة للطرفين .

اعتبار من ٢ آب ، بدأ صالح باشا ــ زاده محمد بك (باشا) فى قتال الألغام (أنفاق تحت الأرض) ، وفى ٧ آب هجم مصطفى باشا بـ ٢٢ ٢٠٠ جندى دفعة واحدة . استمر هذا الهجوم ٨ ساعات . احتل محمد باشا برج Castilla . واعتقد أن القلعة قد سقطت ، لكن لافاليت ، انقذ الموقف نحو الليل . وفى الأيام ذاتها

وصلت أخبار بأن ٢٠٠ جندى مسيحى تمكنوا من التسلل من صقلية إلى مالطة وأن ذلك سوف يستمر ولايمكن منع تكرره . أبلغ حسن باشا ابن بربروس خير الدين باشا ، القائد العام بالقيام بهجوم آخر تحت قيادته هو فإن لم يوفق فإن رفع الحصار يكون أوفق ، إذ سوف لايمكن الاستمرار على القتال مالم تصل إمدادات من الجزائر واستانبول ومالم يؤخذ بعين الاعتبار قضاء الشتاء فى مالطة .

رفع الحصار فى ٨ أيلول وتحرك الأسطول الهمايونى من مالطة فى ١١ أيلول . شحت المؤن لطول فترة الحصار . قدم الأتراك ٨٠٠٠ جندى بين شهيد وجريح ومريض وأسير ، وأصبح عدد الجند الباقين غير كاف للاستمرار فى حصار يؤمل منه النجاح . تحرك حسن باشا متوجها إلى طرابلس مع أسطوله يرافقه جثمان طرغد باشا وكذلك أولوج على باشا الذى عين مكانه واليا . عاد مصطفى باشا بأسطول خفيف إلى استانبول . تجول بيالة باشا مع القوات الأساسية عدة أشهر أخرى فى البحر الأبيض وإيجه . تحسبا لاحتمال قيام المسيحيين بحركة نتيجة عدم التوفيق فى مالطة . مات كذلك فى حصار مالطة أكثر من ٨٥٠٠ جندى مسيحى ، كما قتل ٢٦٠ من فرسان مالطة من جملتهم البالغة ٥٠٠ كلهم من الأشراف وبدرجة « فارس » . جرح بيالة باشا فى ساقه فى ١٨ آب . رميت الجزيرة بـ ٨٠٠٠٠ طلقة مدفع . امتلأت كافة الأطراف بأكوام الرماد . بدأ لافاليت **La Valette** بالإنشاء مجددا . اشترك ٣٠٠٠ عامل فى بناء المدينة المسماة حاليا **La Valetta** وهى عاصمة الجزيرة بالقرب من المدينة العربية المسماة مدينة .

أبحر بيالة باشا الذى جاء إلى استانبول فى الأيام الأخيرة من سنة ١٥٦٥ ، فورا فى ١٥٦٦/٣/٢٦ . دخل ميناء ساقز بـ ٧٠ سفينة حربية (١٥٦٦/٤/١٤) . كانت جنوة تدير الميناء تحت حماية العثمانية ، لم تقاوم ، وألحقت الجزيرة كلواء بحرى وأنهى الحكم الإيطالى .

دامت قيادة القوة البحرية لبيالة باشا ، مدة ١٤ سنة ، وفى ١٥٦٨ ، أصبح وزير قبة ووزير ٢ .

(٢١) الأتراك والبرتغاليون فى البحار الهندية

كان المحيط الهندى والبحار التابعة له حتى القرن ١٦ ، بحرا إسلاميا . كانت السفن الإسلامية وعلى رأسها العربية تسير فيه محملة بالبضائع .

دخلت البرتغال ، القرن ١٦ كدولة بحرية كبرى سيطرت على الميحط الهندى وادعت أنها هى التى تجلب البضاعة الآسيوية وتوزعها من لشبونة على أوروبا ولهذا فقد استحوذت على أرصفة بحرية فى جنوب آسيا .

لعدم وجود أية دولة إسلامية تمتلك قوة بحرية كبيرة عدا العثمانية ، فقد تحير المسلمون ؛ كان البرتغاليون ينفذون فى جميع أفراد سفن المسلمين التى يقبضون عليها ، القتل بالتعذيب طويل الأمد الذى يستمر عدة أيام ، يقطعون فى كل يوم جزءا من أجسامهم ، وكانوا يهدفون من وراء ذلك منع المسلمين من الخروج إلى البحار الهندية .

كانت أوروبا فى حاجة إلى كثير من البضاعة الآسيوية وكان هذا العمل يدر الربح الكبير ؛ حيث كانت البضاعة الواردة من أى قطر آسيوى ، تباع فى أوروبا بسعر يصل إلى ٢٠ ضعفا من سعر شرائها ، وقد كانت هذه البضاعة توزعها على أوربا فيما مضى دولتا المملوكية فى مصر والعثمانية ، تبيعانها إلى الجنويين ، وهم بدورهم ينقلونها إلى الأقطار الأوروبية ، وبعد تسلط البرتغاليين على البحر الهندى ، بقى لدى العثمانيين الطريق البرى فقط الذى كانت تعترضه إيران المخاصمة ، وهكذا أصبح من الصعب جلب البضاعة من الأقطار الآسيوية النائية عن طريق البحر والاستفادة من أرباح المرور (الترانست) . وقد تأثرت التجارة البندقية والجنوية بصورة كبيرة لمصلحة البرتغاليين . وبينما كان البحر الأبيض ، مركزا للتجارة العالمية ، تكونت باكتشاف أمريكا تجارة الأطلسى .وبدأت منذ ذلك الحين تتشكل تجارة المحيط الهندى التى يسيطر عليها الأوربيون .

دعت سلطنة كجرات فى الهند أياز بك من تركية وإستخدمته فى تأسيس وحدات بحرية ومدفعية لها . إتخذ أياز بك جزيرة ديو Diu فى أقصى جنوب كجرات قاعدة له . خسر البرتغاليون أكثر من ٧٠٠٠ أسير عندما أغاروا على رجل البحر العثمانى

الذى يلقب بـ « ملك بومباى » (History of Gujarat, Bailey ، بومباى ١٨٩٦ ، ص ٣٢٢) . استشهد من العثمانيين الذين يقودهم حسين بك ، نحو ٤٠٠ ومن الكجراتيين ٦٠٠ . يبين هذا الحادث علاقة العثمانية بالمحيط الهندى قبل فتح العثمانية لمصر وهبوطها إلى البحار الهندية . عاد حسين بك من كجرات فى ١٥١١ . وعين واليا مملوكيا على جدة وقائدا للأسطول . أمر السلطان سليم سلمان رئيس عندما كان فى مصر ، بأن يقتل حسين بك هذا ولانعرف سببا لذلك .

جاء حسين رئيس آخر من تركية ، وأصبح قائدا لقوات السلطان قانصوه البحرية . سار إلى صنعاء بأسطوله فى ١٥٠٧ وأعلن الحكم المملوكى فى اليمن . أرسل بايزيد الثانى بعد ذلك ، كمال رئيس إلى مصر مع ٣٠٠ مدفع و ١٥٠ عمودا لربط الأشرعة ، ٣٠٠٠ مجرفة وكميات كافية من الأشرعة ، والأخشاب ، والزفت ، والفئوس الخ . وأهدى ٨ سفن حربية إلى المماليك . أمر كمال رئيس الفنيين الذين تركهم فى مصر بصنع ٣٠ سفينة حربية فى السويس . ولأن هذه القوة سوف تقوم بحماية التجارة الإسلامية فى البحر الأحمر وخارجة فى مواجهة البرتغاليين ، فإن خدماتها سوف لا تقتصر على المماليك فحسب بل ستتعداها إلى خدمة العثمانية والعالم الإسلامى بأسره (Mas Latrie ، Relations et Commeree de l'Afrique Septentrionale de Moyen - âge ، باريس ١٨٨٦ ، ٥٠٣ — ١٠) . أرسل بايزيد الثانى كذلك ، أحمد أوغلو آيدن رئيس الذى سيشتهر بين أمراء البحر للإخوة بربروس ، ثم حامد رئيس مع كمية كبيرة من المهمات لخدمة المملوكية وإصلاح الأسطول المصرى . وعندما أراد المماليك دفع ثمن المهمات ، رفض قائلا : إن هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفرة.

عين السلطان سليم عند فتحه مصر فى ١٥١٧ ، سلمان رئيس برتبة « قبودان السويس » (وتلفظ قبطان) (قائد السويس) وكان يطلق عليه اسم « قبطان مصر ، قبطان الهند » كذلك (سيقوم بمهمته فى الدولة المملوكية ، وسوف يكون أميرالا – كبيرا عثمانيا مسئولا عن البحر الأحمر وجميع البحار المتصلة بهذا البحر) ، كانت رتبة وظيفته هذه لواء بحرى ، وكان مستقلا عن قائد القوات البحرية (قبودان دوريا) ؛ فقد كان تابعا إلى والى مصر بالنسبة للأمور المالية ورأسا إلى الديوان بالنسبة للأمور العسكرية .

وسع كل من السلطان سليم والوزير الأعظم مقبول إبراهيم باشا مصنع السفن المصرى بشكل كبير عند قدومه لإصلاح مصر ، وأمر كلاهما بإنشاء سفن حربية جديدة وجهزاها وعززا أسطول سلمان رئيس . ويجب ألا ننسى عدم إمكان إمرار السفن من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر بسبب عدم وجود قناة . وقد كانت هذه هى مشكلة العثمانية . أراد السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ — ٧٤) فتح القناة كما فى العهود السابقة . لكن هذا المشروع أهمل بعد ذلك .

سار سلمان رئيس فى ١٥٢٣ بحملة ، كان البرتغاليون قد احتلوا جزر كاماران المواجهة لليمن . أخرج البرتغاليين من هذه الجزر ومن البحر الأحمر . اشترك فى هذه الحملة ٤٠٠٠ جندى مشاة عثمانى بقيادة خير الدين حمزة بك .

أسس سلمان رئيس قاعدة بحرية فى جزر كاماران ، وعين لحمايتها خوجة صفر رئيس . وفى ١٥٢٧ ، أسس سلمان رئيس الحكم العثمانى فى القسم الأكبر من اليمن . حصل خلاف بينه وبين خير الدين بك ، ومات فى المبارزة التى جرت بينهما ، أحد أقدر أمراء البحر فى العثمانية ، سلمان رئيس الأكبر سنا . دعا مصطفى بك ابن أخ سلمان رئيس ، خير الدين بك إلى المبارزة وقتله فيها .

أراد سلمان رئيس أخذ عدن بـ ١٩ سفينة عليها ٢٤١ مدفعا ، لم يوفق (بجوى ، ١ ، ٨٤ ؛ تحفة الكبار ، ٢٤ — ٥) .

عين الديوان بعد وفاة سلمان رئيس ، مصطفى بك ابن أخيه بهرام بك ، واليا على لواء اليمن (سنجق بك ، لواء) ، لكن جنود المشاة العثمانيين الموجودين فى اليمن ، اعترضوا على مصطفى بك وجنوده البحريين لقتله قائدهم خير الدين بك .

استدعى الديوان بهرام بك إلى استانبول وأمر ابنه مصطفى بك بالعودة إلى القاعدة البحرية فى قره مان .

جاء مصطفى بك إلى عدن لكنه لم يتمكن من أخذها (شباط ١٥٣٠) . عين سيدى على رئيس واليا على اليمن وأصبح أحمد بك ابن سلمان رئيس معاونا له (أى أنه عين لهذا المقام شخصين بحريين) . يظهر بوضوح أن الديوان لم يكن يشغله فتح اليمن وإنما كان يشغله تسلط الأساطيل البرتغالية على البحر الأحمر .

جاء بهرام بك ــ زاده مصطفى بك ، مع مساعده خوجة صفر رئيس إلى ميناء الشحر (شيح ، شحرات) . وأعطى أمير الشحر ١٠٠ من جنود البحر ومدافع وحذره من قبول البرتغاليين بأمر خليفة روى زمين (خليفة سطح الأرض) ، وغادر المدينة فى ١٥٣٠/١٢/٢ . كان قد ترك خوجة صفر رئيس لدى بدر أمير شحر .
جاء البرتغاليون فورا إلى شحر لكن صفر رئيس ردهم ، ثم غادر صفر رئيس فى ١٥٣١/٣/٤ للحاق بمصطفى بك . اجتمع سلطان كجرات بهادرشاه ، فى جامبانير بالأميرالين التركيين . وخلال تلك الأيام ، كان على رأس أسطول كجرات الذى يقوده العثمانيون فى جزيرة ديو ، ملك دوغان ابن ملك آيازبك الذى جاء من تركية .

غادر الأميرال البرتغالى Nuno da Cunha قاعدته فى Goa فى ١٥٣١/١/٦ ، ووصل ديو Diu فى ٧ شباط مع ١٩٠ سفينة حربية و ٢١٠ سفينة نقل محملة بـ ٢٦٠٦٠ جنديا ؛ ٢٦٠٠ منهم جندى برتغالى ، والبقية محليون وشرع فى قصف ميناء ديو بـ ٤٠ مدفعا ترمى قذيفة من عيار ١٢ ليبرة . دافع عن ريو ملك دوغان بك ، ومصطفى وصفر رئيس . وبعد أن ضعضعت المدافع البرية التركية الأسطول البرتغالى ، أبحر الأسطول التركى وابتعد عن الساحل وأغرق ٤٠ سفنية للعدو واستولى على ٢٠ سفينة ، وقتل ١٥٠٠ برتغالى و آلاف الهندوس الذين يخدمونهم .

أصبح مصطفى بك واليا على صورات وأميرالا على خليج كامبى . وبدلا من أن يتعاونا مع ملك دوغان أمير البحر العثمانى الذى حصل قبلهما على شهرة فى البحار الهندية وأحرز نفوذاً واسعا فى الهند ، تعاونا مع ابن أخ وابن سلمان رئيس اللذين لم يكن لديهما دهاء لأخوة بربروس ، واتفقوا وسعوا ضده وفى النهاية تسببوا فى أن يقتله الشاه ، وهكذا مات معه أمل الحصول على مجال عثمانى فى المحيط الهندى .

بعد سنوات استولى تيمور أوغلو همايون شاه وهو ابن بابور شاه ، وخلفه ، على كجرات . دخل مصطفى بك فى خدمته كقائد للمدفعية . أما شاه كجرات بهادر ، فقد أرسل خزينته بكاملها إلى الخليفة فى استانبول أى إلى السلطان سليمان لئلا تقع بيد همايون ، كما أحرق سفنه الـ ١٠٠ التى سعى أمراء البحر الأتراك فى إعدادها منذ سنوات ، خوفا من وقوعها بيد غريمه . وبطبيعة الحال سعد البرتغاليون بذلك .

سار الأميرال البرتغالى Nuno da Cunha بـ ٣٠ سفينة وتمركز فى جزيرة ديو

(١٥٣٥/١٠/٢٥).. حاول صفر رئيس إخراج العدو من ديو ، لكنه لم يكن يملك سفنا فقد أحرقت كلها ، لم يوفق . لكنه انغمس فى جهاد طويل الأمد ، إلى أن واتته المنية فى ١٥٤٦ برصاصة من بندقية برتغالية . أصبح ابنه رجب بك واليا مكان أبيه على صورات بلقب أبيه « خداوند خان » ، قتل هو الآخر فى ١٥٦٠ . كان خوجة صفر رئيس (رئيس ملاحى سلمان رئيس وولده الشرعى) ، هو الذى أوحى إلى محمود شاه ابن أخ بهادر الذى إحتل مكانه وأصبح شاها على كجرات ، بطلب المعونة من حضرة خليفة الكرة الأرضية السلطان سليمان .

(٢٢) حملة الهند لسليمان باشا (١٥٣٨)

أمر الديوان ، خادم سليمان باشا (وزير أعظم بعد ذلك) وهو برتبة وزير ومن أكبر إداريى العثمانية فى القرن ١٦ والى إيالة مصر ، بالحملة على الهند .

كان عمر سليمان باشا فى ذلك التاريخ ٧١ سنة ، لكنه كان رجل دولة ملىء بالحيوية ، شديد الطبع ، إدارى ، ذكى وداهية . سار الباشا من ميناء السويس بأسطول مكون من ٧٦ قطعة (١٥٣٨/٦/١٣) ، وسوف يتحرك السلطان سليمان من استانبول بعد ٢٥ يوما بحملته الهمايونية ٨ . وكان بربروس قد سار من استانبول بالأسطول الهمايونى قبل ٦ أيام إلى بروزة .

كان على أسطول سليمان باشا ٧٠٠٠ انكشارى و ١٣٠٠٠ جندى بحرى عدا الجدافة . وكان سليمان باشا واليا على مصر منذ ١٢ سنة . اجتاز البحر الأحمر بتأن ودون عجلة وأصلح كل مايمس سلطة الدولة فى البحر الأحمر ولو كان طفيفا . جاء من السويس إلى عدن خلال ٣٤ يوما . احتل عدن فى ٢٧ تموز . شنق أمير عدن عامر الثالث (كان من عائلة طاهرى التركية الأصل) على صارى سفينته الأميرالية . اتهمه بتقديم التسهيلات للبرتغاليين وعدم إطاعته الخليفة .

كان سليمان باشا يريد إخراج البرتغاليين من جزيرة Diu . تبعد جزيرة ديو عن شمال جزيرة بومباى بمسافة ٢٥٠ كم . فتح الباشا أولا قلعتى Gokala (بندر = ميناء ترك وباللغة التركية : ترك ليمانى) و Kat . لجأ البرتغاليون إلى ديو بعد أن تكبدوا نحو ١٠٠٠ قتيل .

أنزل الأتراك جنودهم فى الجزيرة الصغيرة فى ٢٧ آب وبدأ الحصار فى ١ أيلول . كان Antonio da Sylveria يحمى القلعة . تكبد العدو خسائر جسيمة وبينا انفتحت ثغرات كبيرة فى القلعة أمر سليمان باشا رفع الحصار بعد ٢٠ يوما (٢٠ أيلول) لاعتبارات سياسية أكثر مما هى عسكرية .

وبالنسبة لكتب التاريخ الهندية المدونة فى ذلك العصر (فرشتة ، ٢ ً، ٣٧٢) ، فإنها تشير إلى أن سليمان باشا كان يسعى فى الهند وراء الفتوحات أو أنه على الأقل كان يريد أخذ سلطنة كجرات ، وكانت الدولة العثمانية التى يمثلها ، دولة فتوحات .كما تشير إلى أن شنق الباشا أمير عدن ، ألقى الفزع فى قلب محمود شاه ، الذى كان قد تورط فى طلب المساعدة من الخليفة .

أما بالنسبة لكتب التاريخ العثمانية ، فقد كانت لسليمان باشا مهمتان : إنهاء مظالم البرتغاليين التى استهدفت إخراج مسلمى الهند والتى كانت شبيهة بمظالم الأسبان التى ارتكبوها تجاه العرب فى الأندلس والمغرب وكان هذا دينا فى رقبة الدولة العثمانية بحكم كونها دولة الخلافة ، وبحكم كونها أقدر دولة عسكرية ، وكونها الدولة الإسلامية الوحيدة التى تمتلك أسطولا . أما المهمة الثانية لسليمان باشا فهى إعادة فتح طرق تجارة الهند أمام البحارة المسلمين وطرق المرور للعثمانية ولمصر كقطر عثمانى ، فقد كانت مصر من أكثر الأقطار التى تضررت من توقف تجارة المرور ، ولايخفى أن ذلك كان عاملا اقتصاديا هاما منذ عهد المماليك . وقد كان استخدام المماليك للبحارة الأتراك باستمرار ، بغرض دفع هذه الأزمة أو تقليلها .

من ناحية أخرى ، كان من الواضح أنه لايعنى محمود شاه كجراتى ـــ الذى يتعاون مع البرتغاليين ـــ أن يسيطر البرتغاليون على المحيط الهندى أو أن يتسلطوا عليه ، وإنما كان الذى يعنيه فى المقام الأول هو شئونه الداخلية ، ومن هنا فإن افتراض اتفاقه مع البرتغاليين لإزاحة العثمانية يعتبر أكيدا ومن المعلوم عنه أنه تظاهر بأنه تمكن من الحصول على رسالة محررة باللغة البرتغالية ـــ وطبعا مزورة ـــ تقول إن إسطولا برتغاليا مكونا من ٣٠٠ قطعة على وشك الوصول إلى ديو ، وعرض هذه الرسالة على الباشا وأقنع الباشا الذى لايعرف القطر بصورة جيدة بما جاء

فيها ، كما وأن الوحدات الكجراتية المساعدة ، كانت تتظاهر بمساعدة الجيش العثمانى ، بينما تخلق اضطرابات عديدة . ومن المعروف كذلك أن الشاه أقنع بعض ضباط العثمانية بترك خدمتهم بإعطائهم رواتب توازى رواتب الوزراء الذين يتقاضونها فى تركيا .

كان بابورشاه قد فتح الهند قبل ١٢ سنة بواسطة ١٣٥٠٠ جندى تركى وسرية مدفعية عثمانية واحدة ، وقد أدهش ذلك كافة الحكام المسلمين والهندوس الموجودين فى الهند . ظن محمود شاه الذى شاهد مدافع سليمان باشا المخيفة وآلاف الخيالة ، أنه بعد أخذه ديو سينقض عليه ويدخل أحمد آباد ، وطبعا فإن المعلومات التى تمكننا من الإجابة على ما الذى كان سيعمله الباشا لو احتل ديو ، غير متوفرة لدينا .

وقد أدرك الباشا الخيانة ، ولكنه لم يلجأ إلى معاقبة الشاه ؛ حيث كان الشاه صاحب دوله إسلامية ، كان هجومه على حاكم دولة إسلامية قبل إنهائه قضية البرتغاليين ، مخالفا للأوامر التى تسلمها من الديوان ، لذلك فقد أعطى الباشا أمر العودة ، لكنه قدم لصفر رئيس الضابط البحرى العثمانى المستخدم لدى دولة كجرات مهمات ومدافع بأحجام لم تسبق مشاهدتها . والمشهور عن أكبر شاه حفيد بابور شاه وابن همايون شاه (الذى كان يحكم البلاد أثناء حملة الباشا) أنه عندما فتح كجرات بعد سنوات طويلة ، شاهد هذه المدافع المدون عليها اسم السلطان سليمان وأخذها معه .

مكث سليمان باشا فى موانىء الشحر ، عدن ومخا بعد أن تجول فى سواحل عمان وحضرموت وأخضعها للعثمانية . أرسل المدافع والبنادق إلى مسلمى أريترة والصومال ضد البرتغاليين وحليفتهم ملكية الحبشة . وعين والى (برتبة لواء « سنجق بك ») لواء غزة مصطفى بك واليا (برتبة فريق أول « بكلربك ») على أيالة اليمن على أن يكون المركز زبيد (مصطفى بك هو ابن بييقلى محمد باشا الذى فتح جنوب غربى الأناضول ودياربكر من الصفويين) ، وترك له قوات مهمة .

وهكذا تأسست أيالة عثمانية جديدة ، وقد كانت إدارة اليمن حتى ذلك الحين كلواء (سنجق) .

وأعلن الإمام الزيدى الموجود فى الأقسام الداخلية خضوعه .

رسى سليمان باشا فى جده(١٥٣٩/٣/١٣) ، وذهب إلى مكة وحج ، ونظم الحجاز على أساس النظام العثمانى . استبقى الأسطول فى السويس وجاء إلى القاهرة . أمر الديوان بقدومه إلى استانبول وتقديم تقرير تفصيلى بنفسه عن حملة الهند التى استغرقت سنة كاملة .

أراد بعض الوزراء فى الديوان إجراء تحقيق بشأن الحملة ، لكن الديوان قرر فى النهاية بأصوات الأكثرية ، أن الباشا حقق حملة ناجحة ومفيدة (بجوى ، ١٢ ، ٢٢٥) . تقرير الباشا حول حملة الهند موجود فى أرشيف سراى طوبقابو ، رقم E ٩٦٦٣ .

نقل سليمان باشا إلى الديوان كوزير قبة وأصبح بعد فترة قصيرة وزيرا أعظم . تم توسيع شبكة الاستخبارات العثمانية فى الهند بعد حملته ، قد يكون من المفيد أن نقول إن سليمان باشا إدارى ووالٍ قدير جدا ، لكنه ليس على تلك الدرجة فى السياسة الخارجية والعسكرية .

(٢٣) فتوحات السودان والحبشة لأزدمير باشا

لم تكن أرباح البرتغال التى حصلت عليها من تجارة الهند ، بأقل من أرباح الأسبان من مناجم الفضة الأمريكية . ورغم ذلك ، لم ينج الأسبان والبرتغاليون من أزمات اقتصادية لعدم حسن استخدام الأموال وإسرافهم فى حياتهم فى أوطانهم الأصلية . وعلى سبيل المثال ، كان لأكبر حاكم مسيحى كشارل ـــ كوينت ديون باهظه فى الداخل والخارج . وعدا أن شيئا من هذا القبيل ، لم يكن وارداً بالنسبة للدولة العثمانية ، فإنها كانت أصلا قد أسست اقتصادا مكتفيا بذاته ، وكانت تقوم بتجارتها الرائجة لغرض غنائها ورفاهتها .

كانت ديون شارل ـــ كوينت فى سنة ١٥٥١ ، تقدر بالسعر الحالى ، بما يزيد على ٣ مليارات دولار (Meizig ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٥ ، ٨٠ ـــ ١) .

لم تتمكن البرتغال ـــ رغم آمالها الواسعة ـــ من تأسيس إمبراطورية مستعمرات

فى القارة الهندية . لكنها تمكنت بواسطة قواعدها البحرية من السيطرة على تجارة المحيط الهندى ، وقد كان نجاحها الاستعمارى أكبر فى أندونيزيا وخاصة فى شرقى أفريقيا ، إذ لم تكن فى هذه المناطق دول منظمة عسكريا لتقف حيالها . وعدا أن العثمانية تمكنت بقدر ماسمحت لها الظروف ، من الدفاع عن شرقى أفريقيا وغربى أندونيزيا تجاه البرتغال ، كما فتحت جبهة كبيرة جدا فى شمال غربى أفريقيا فى فاس ، فإنها حطمت فى النهاية تلك الدولة البحرية الاستعمارية المقتدرة .

كان أوزدمير بك قد اشترك كلواء فى حملة سليمان باشا على الهند . وهو أصلاً من بكات المماليك أى من أتراك مصر ، وكان مستشارا خاصا لسليمان باشا مختصا بالأمور الأفريقية (وخاصة الحبشة وجنوب البلاد العربية) . خدم أوزدمير بك ، الذى انتسب إلى الجيش العثمانى فى ١٥١٧ عندما كان برتبة نقيب (يوزباشى) ، فى أيالة مصر بصورة مستمرة .

كانت الخدمة الأخيرة التى قدمها سليمان باشا عند ذهابه إلى استانبول وقبيل مغادرته النهائية للقاهرة ، هى إرساله أوزدمير بك بأسطول إلى النيل بغرض الكشف . خرج أوزدمير بك الذى نزل إلى النوبة ، إلى البحر الأحمر فى سواكن ، وبذلك جذب انتباه الديوان الذى أمَر بتقديم كافة التسهيلات والدعم لولاة مصر الذين تلوه لتحقيق حملات مشابهة لحملات أوزدمير بك .

تمكن أوزدمير بك على مر الزمن من أخذ كامل أريترة ، القسم الأكبر من الصومال واستقطع قسما من الحبشة الأصلية وربطه بأيالة مصر . لكن الديوان الذى ارتأى صعوبة إدارة هذه الأقطار النائية ، من القاهرة ، أسس أيالة الحبشة (حبش) وعين أوزدمير باشا واليا عليها . إن ملكية هرر ، أهم دولة إسلامية فى الحبشة وحاكمها إبراهيم أوغلو أحمد غران (١٥٠٦ ــ ١٥٤٣) كانت تحت نفوذ العثمانية . كان يهدف الديوان إلى دفع ملكية الحبشة الأرثوذكسية ــ اليعقوبية أى المسيحية ــ على مر الزمن ــ إلى أنجاد الحبشة ، وإبعادها عن البحار بصورة مطلقة ، وقطع علاقتها مع البرتغاليين التى تتعاون معهم .

وتجاه ذلك ، كان البرتغاليون يقدمون إلى David الثانى (١٥٠٨ ــ

١٥٤٠) ملك الحبشة مساعدات كبيرة لئلا يبتلعها المسلمون . وهكذا فإن مجالا كأنجاد الحبشة يصعب أن يخطر على البال ، أصبح أحد المراكز الحساسة للنزاع العثمانى ــ البرتغالى الاستراتيجى .

تسلم ملك الحبشة الجديد Glâvdêdos (Claudiius) (١٥٤٠ ــ ١٥٥٩) ، فى ١٥٤١ المدافع والبنادق المرسلة من لشبونة وهى أول مرة يمتلك فيها سلاح . انهزم أحمد غران الذى يحتوى جيشه على ٢٠ ضابطاً من الفرسان العثمانيين وعدة ضباط مدفعيين عثمانيين ، واضطر إلى ترك قطعة كبيرة من الأراضى . وعلى أثر ذلك ، أرسل والى اليمن محمد باشا ــ زاده مصطفى باشا ، إلى أحمد غران ١٠ مدافع و ٩٠٠ جندى عثمانى حملة بنادق . تمكن أحمد غران بهذه القوات من كسر الجيش الحبشى المسيحى الذى يحوى ٤٥٠ جنديا برتغاليا بقيادة Don Christopher بصورة شديدة فى معركة Afla الميدانية ، أسر Don Christopher da Gama (آب ١٥٤٢) . أرسل رأس الجنرال البرتغالى ، إلى مصطفى باشا فى زبيد أدت هذه الحرب الميدانية إلى تقوية النفوذ العثمانى فى الحبشة بشكل واسع . لكن أحمد غران استشهد فى إحدى الغارات المسيحية (١٥٤٣/٢/٢١) . خلفه أمير عباس .

حاول الأسطول البرتغالى أخذ عدن . أباد والى لواء عدن عبد الرحمن بك ، الأسطول البرتغالى وأسر الأميرال Don Marco وأرسله إلى استانبول . وعندما شرع أسطول تركى مكون من ٤٥ سفينة حربية من التجول فى البحر الأحمر ، خليج عدن وبحر عمان بصورة مستمرة ، أدرك البرتغاليون عدم إمكان اجتيازهم باب المندب . فتح أوزدمير باشا بعد ذلك أرضا واسعة من أراضى الأحباش المسيحيين . وخضعت للعثمانية دول محلية كثيرة فى السودان ، كانت أكثرها وثنية فى ذلك العهد . بدأت بدفع ضريبة سنوية لوالى الحبشة .

ولى أويس باشا اليمن بعد مصطفى باشا ، (وهو ابن السلطان سليم من جارية ملك يمين) . احتل قلعة تعز التى كانت بحوزة الزيديين (١٥٤٦/٢/١٢) . ثم سار أوزدمير باشا إلى الإمام الزيدى . وبعد مقاومة استمرت ٦ أيام ، احتل صنعاء . انتقل مركز الإيالة من زبيد إلى صنعاء . استدعى الديوان أوزدمير باشا بعد ذلك إلى استانبول . أصبح المستشار السرى للسلطان سليمان لشئون أفريقيا

وبقى سنوات عديدة دون أن يكلف بواجب رسمى . أرسل إلى الحبشة مرة أخرى . جاء إلى عاصمتها مصوع . توفى فيها فى ١٥٦٢ وعمره ٦٢ . ابنه الوزير الأعظم أوزدمير أوغلو عثمان باشا .

(٢٤) حملة بيرى رئيس (١٥٥٢)

محيى الدين بيرى رئيس ، من عائلة قرة مانية (قونية) ، ولد فى غاليبولى كعمه كمال رئيس (كمال الدين بك) ، لم يبق فى البحر الأبيض ساحل أو جزيرة أو ميناء أو صخرة لم يشاهدها ، رسم خرائطها كلها ، وبعد وفاة عمه ، عمل لدى أوروج رئيس ومن ثم لدى خير الدين باشا . وفى ١٥٠٠ أصبح قبطانا (عقيد بحرى) وهو شاب . اجتمع بالسلطان سليم بعد بايزيد الثانى . حرر وخطط كتابه المشهور المسمى « كتاب بحرية ودنيا خريطة سى » وقدمه إليه . شغل وظيفة قبطان (عقيد بحرى ربان سفينة) لسفينة الأميرالية التى ركبها الوزير الأعظم داماد إبراهيم باشا خلال تفتيشه مصر وأصبح مستشارا خلال إصلاحاته فى مصر والتى دامت سنة واحدة . وفى ١٥٤٧ ، عين لقيادة أسطول الهند بدلا من صولاق فرهاد بك وجاء إلى السويس . كان البرتغاليون قد احتلوا عدن . استرجعها بيرى رئيس (٢٦/٢/١٥٤٨) . جاء إلى مسقط مع ٣١ قطعة من السفن (٢٤ منها سفينة حرب) . كان البرتغاليون قد احتلوها كذلك . أسر الحامية البرتغالية فى مسقط التى قاومت ١٨ يوما مع الجنرال Zoao delisboa . جاء إلى شحر وحذر شيوخ حضرموت من مغبة خروجهم على تعليمات خليفة الكرة الأرضية ، وأوصاهم بعدم استقبال البرتغاليين ، وتنفيذ ماكلفوا به . جاء إلى قلعة هرمز التى فى حوزة البرتغاليين ، بعد أن احتل جزيرة كشم الموجودة فى ضفة لارستان فى إيران . حاصرها بشدة . لم يتمكن من أخذها . دخل ميناء إيران الذى سمى بعد ذلك باسم بندر عباس وقام بعرض فيه ولام المسلمين الذين يتعاونون مع البرتغاليين . زار إمارات عمان ، قطر وبحرين وحصل على اعتراف منهم بتابعيتهم للعثمانية . كان اعتبار العثمانية متبوعا فى هذه المناطق ، يعتبر اسميا فقط . دخل ميناء البصرة . أودع سفنه فى البصرة لإصلاحها وعاد إلى السويس تصاحبه ٣ سفن حربية . أبلغ كباد باشا (الذى يحكم مناطق جنوب العراق ، الكويت ، لحساء ، شمر ونجد كوال (بكلربك ، أمير

الأمراء ، فريق أول على البصرة) ، الديوان الهمايونى بأمر إيداع السفن فى البصرة لإصلاحها ، بصورة يدين بها بيرى رئيس . رفض وزراء الديوان الذين يجهلون المياه الهندية ، دفاع بيرى رئيس المتمثل فى أنه كان من الخطر إعادة السفن قبل إصلاحها . وحكموا عليه بالإعدام . استدعى الأميرال وعمره ٨٠ سنة من السويس إلى القاهرة وأعدم . وهذا من أسوأ أحداث عهد القانونى .

كانت مسقط بحوزة البرتغاليين منذ ١٥٠٦ . وفى السنة التالية لفتح بيرى رئيس لها ، استولى عليها البرتغاليون . وفى ١٥٨٠ فتحها على بك مجددا . عاد واحتلها البرتغاليون ، ثم أخرجوا من مسقط بصورة نهائية فى ١٦٥٠/١/٢٣ .

(٢٥) حملة مراد رئيس (١٥٥٢ ـ ٥٣)

عين والى قطيف اللواء البحرى مراد رئيس (ك١/١٥٥٢) ، لقيادة الهند مكان بيرى رئيس . جاء إلى البصرة . ترك فى قاعدة بصرة البحرية ٨ سفن من الأسطول الذى استبقاه بيرى رئيس ، وسار بـ ١٨ سفينة حربية وخرج إلى بحر عمان . هاجم أسطول البرتغال المكون من ٢٥ سفينة حربية . لم يتمكن أى من الطرفين من التغلب على الآخر . غرقت عدة سفن برتغالية وسفينتى سلمان رئيس ورجب رئيس . استشهد كلاهما . ارتأى مراد رئيس خطورة الذهاب إلى السويس بسبب العطب الذى أصاب سفينته وعاد إلى البصرة . عزل وعين مكانه سيدى على رئيس (١٥٥٣/١٢/٦) . تعتبر حرب مضيق هرمز ، من أشد الحروب الدموية التى جرت فى البحار المفتوحة بين العثمانيين والبرتغاليين . جرت فى صيف محرق شديد الحرارة .

(٢٦) قيادة الهند لسيدى على رئيس (١٥٥٣ ـ ٥٧)

ومع أن سيدى على رئيس من مواليد استانبول ، إلا أن عائلته من سينوب . وسواء جده أو أبوه ، كانا مستشارين بحريين (ترسانة كتخداسى) فى مصنع السفن . اشترك فى فتح رودس فى شبابه (١٥٢٢) ، ودخل ضمن أمراء البحر المعتمدين لدى بربروس . كان أميرال الجناح الأيسر فى بروزة . كان مساعدا لطرغد

رئيس فى فتح طرابلس عين مستشارا بحريا فى مصنع السفن ، ثم أصبح مستشارا خاصا للسلطان سليمان للشئون البحرية . كلفه السلطان سليمان بقيادة الهند أثناء وجوده فى حلب . وافق (١٥٥٣/١٢/٦) وجاء من حلب إلى البصرة عن طريق بغداد (١٥٥٤/٢/٣) . غادر البصرة مع ١٥ سفينة حرب (١٥٥٤/٧/٢) . جاء إلى بندر بوشير وقطيف والبحرين . قطعت ٢٥ سفينة حرب برتغالية طريقه فى مضيق هرمز (١٥٥٤/٨/٩) ،. ابتعد العدو عن الأسطول العثمانى عند غرق سفينة برتغالية . أخذ الإمدادات وعاد إلى مياه مسقط وجابه سيدى على رئيس مجددا (١٥٥٤/٨/٢٥) . كانت حرارة الجو مخيفة (Von Hammer ، ٦ ، ١٨٦) . كان Don Fernan do ابن نائب الملك Alfonsa de Noronha قائدا للبرتغاليين . استمرت الحرب مدة ١٨ ساعة بدون توقف بالقرب من الساحل والسفن جنبا لجنب وبشكل دموى لايمكن تصوره . غرقت ٧ سفن تركية و ٦ برتغالية . لم يعد للجدافة القدرة على سحب المجاذف ولا للمدفعيين على إشعال نار المدفع . ابتعد الأسطولان أحدهما عن الآخر .

استمر سيدى على رئيس فى طريقه بـ ١١ سفينة . فاجأته فى سواحل حضرموت عاصفة تسمى « طوفان الفيل » أدار الدفة نحو الشرق . تمكن بصعوبة كبيرة من الوصول إلى كجرات بسفنه التى تفككت خشبات أرضيتها ، ٣ من سفنه اصطدمت بالأرض ، و٨ سفن كانت فى حالة تحتاج معها إلى إصلاح طويل الأمد . كانوا قد رموا كافة المهمات الثقيلة فى البحر لإنقاذ السفن من الغرق .

ألقى سوء الأحوال الجوية بالأسطول التركى على مسافة بعيدة من ميناء Demen (Damao) جنوب ميناء صورات وعلى مسافة ١٦٠ كم عن شمال بومباى . أهدى سفينتين حربيتين إلى والى Demen العثمانى الأصل ملك أسد ودخل صورات (Seret) بـ ٦ سفن (١٥٥٤/٨/٣٠) . أهدى سفنه هذه ومدافعها إلى والى صورات العثمانى خداوند خان . ولأجل إمكان استعمالها ، ترك معظم طاقمها فى الهند . غادر مع نحو ٥٠ من جنوده الذين لم يرغبوا فى البقاء فى الهند . شكر سلطان كجرات أحمد شاه الثانى (١٥٥٣ ــ ١٥٦١) ، سيدى على رئيس على مساعدته العسكرية التى قدمها وأعلمه بتابعيته السلطان .

جاء سيدى على رئيس وجنوده إلى دلهى . استقبل تيمور أوغلو همايون شاه (وهو ابن بابور فاتح الهند) الأميرال العثمانى بترحيب منقطع النظير وبشكل لم يكن يتوقعه أبدا ؛ حيث إن بنى عثمان وبنى تيمور وكلاهما سنى ـــ حنفى لايحب أحدهما الآخر أبدا . لم يغفر العثمانيون حتى فى القرن ٢٠ ، لتيمور استيلاءه المفجع على الأناضول وسفكه دماء الأخوه . بينما كان سيدى على رئيس ، ينتظر البلاء من التيموريين بسبب تقديمه إلى شاهات كجرات أعداء التيموريين والذين يتظاهرون بتبعيتهم للعثمانية ، مساعدة عسكرية وإعطائه لهم المدافع والسفن والجنود ، لم يأخذ عليه ذلك التصرف همايون المثقف جدا مثل أبيه والشاعر باللغة التركية . أصبح مستشارا خاصا لهمايون . لكن همايون سقط من السلم الذى صعد عليه لإحضار كتاب من الرفوف العليا من مكتبته ومات بسبب النزيف الدماغى وعمره ٤٨ سنة . كان ابنه أكبر شاه طفلا . لم يبد أمراء الأتراك الذين وضعوا اليد على الدولة باسمه ، نفس الترحيب بالعثمانيين ، وتساءلوا عن سبب وجودهم فى الهند . لكنهم لم يزيدوا على ذلك بسبب قبول الحاكم السابق لهم . غادر الأميرال العثمانى وجنوده البحريون الذين استثقل وجودهم حاكم الدولة قره قويونلو (أصحاب الخرفان السود) بإيرام خان (وهو شاعر مهم فى اللغة التركية) ، دلهى فى سياحة سوف تستغرق ١٥ شهرا .

خرجوا من الأراضى التيمورية على طريق سند ـــ ملتان ـــ بشاور ـــ خيبر ـــ كابل وانتقلوا إلى أراضى تركستان لبنى جنكيز ، واتبعوا طريق سمرقند ـــ بخارى ـــ حيوه لكنهم لم يتبعوا طريق الشمال واستداروا إلى الجنوب ودخلوا أراضى عدو العثمانية اللدود الشيعى الصفوى . ومن خلال هذه المصاعب تمكنوا من التوصل إلى الأراضى العثمانية فى العراق وألقوا بأنفسهم فى بغداد . ذهب سيدى على رئيس إلى قصره المشهور فى غلطة فى استانبول (١٥٥٧/٥/١) . لكن السلطان سليمان كان فى أدرنة . دعى السلطان ، المعروف بهوايته للأمور البحرية ومحبته للبحارة ، سيدى على رئيس فى سراى أدرنة لزيارته الخاصة واجتمع به لعدة ليال ، وأمر بمنحه رواتبه المتراكمة وأمره بكتابة مذكرات سياحته .

كان سيدى على رئيس ، أحد أكبر شخصيات تاريخ العلوم المثبتة فى القرن ١٦ ، وله مؤلفات قيمة فى الجغرافية ، والرياضيات والفلك وفضلا عن ذلك فإنه شاعر .

اشترك فى حرب جربة عام ١٥٦٠ . توفى بقصره الكائن فى غلطة فى استانبول وعمره ٦٥ سنة (ك١٥٦٣/٢) ، وكان قد مضى عند وفاته ٣ سنين على حرب جربة و٦ سنين على عودته من الهند .

وخلال وجود سيدى على رئيس فى الهند ، عين لقيادة الهند قورد أوغلو خضر رئيس (ك ١٥٥٤/١) . بقى ١٥ سنة فى مقامه هذا . وعندما أرسل لحملة أندونيزيا فى ١٥٦٩ ، عين مكانه محمود رئيس . ثم جاء سنان رئيس إلى هذا المقام وانتصر على الأسطول البرتغالى فى المحيط الهندى فى ١٥٧٧ .

وباختصار يمكننا أن نقول ، إن إمبراطورية كجرات ، كانت دولة إسلامية فى دور اضمحلالها . كانت بالضبط كالدولة المملوكية (مصر) فى عهدها الأخير ، كانت قواتها البحرية والمدفعية وحتى ولاية إيالاتها قد انتقلت لإدارة الضباط العثمانيين .

لم يتمكن الديوان الهمايونى من الاستفاده من هذه الميزة ويحكم كجرات . ولو كان قد تمكن من ذلك ، لحل مشكلة البرتغال من أساسها ولأمكنه تكرار السياسة الموفقة التى اتبعها فى المغرب تجاه الأسبان والتى تكللت بالنجاح على الرغم من شدة قرب المسافة بين المغرب وإسبانيا .

أما بالنسبة للهند فقد كان هناك بحر كبير بين الأراضى العثمانية والهند ، ولكن كان يوجد بين البرتغال والهند محيطان . وعندما قوض تيمور أوغلو أكبر شاه ، دولة كجرات فى ١٥٧٢ وألحقها كأيالة ، لم يبق للعثمانية مجال فى تلك الأراضى . إن محاربة بنى تيمور الذين يحكمون الدولة ٣ فى العالم بعد تركية وإيران ، لم تكن مطروحة ، ولو كانت ، لكان من المحتمل أن تخرج العثمانية من تلك الحرب وهى مغلوبة .

وفى أواخر القرن استلفت الأنظار تحركات والى عدن اللواء البحرى على بك . ذهب إلى مسقط وطرد البرتغاليين منها . ثم جاء بأسطوله إلى كينيا ورسا فى ميناء ماليندى Malindis (١٥٨٤) . استقبل المحليون وخاصة الأقلية العرب والسواحليون والهجناء العرب ــ الزنوج الموجودين فيها ، العثمانيين بحفاوة بالغة . أسس على ، منهم وحدة عسكرية . احتل جزيرة لاموفى الشمال ، وميناء مومباسا

فى الجنوب والساحل الذى ينحصر بينهما ، وألحقها بالحكم العثمانى . كانت هذه المناطق حتى موزمبيق فى الجنوب قد اعترفت بالسلطان سليم متبوعا لها ، من قبل أسرة شيرازى المحلية . (هذا يعنى أن العثمانية لم تكن تجهل هذه الأراضى) . كافحت القوات العربية التى شكلها على بك بنجاح وتمكن البرتغاليون من أخذ ماليندى فقط .

وفى ١٥٨٩ ، جاء على بك ثانية مع ٤ سفن حربية وسفن نقل كثيرة . دخل مومباسا . أرسل نائب الملك البرتغالى فى Goa ـــ وهو أكبر موظف برتغالى فى المحيط الهندى ـــ أخاه (de Souza Countinho) (Don Thome) ، بأسطول للحملة على على بك . أُسر على بك وأُرسل إلى لشبونة . فر جنود البحرية الأتراك إلى المناطق الداخلية من تنجانيقا . ظفر بهم زنوج Zimbas الذين دمروا أفريقيا وأكلوهم بعد شيهم فى النار . وهكذا فشلت عملية إخراج البرتغاليين من سواحل تنجانيقا وموزمبيق . لكن الشيرازيين سيطروا على مناطق من هذه البلاد هنا وهناك واستمروا تابعين للعثمانية . وخلال هذه الأيام كان رمضان باشا فى فاس ، قد أفنى الجيش ، والأسطول ، والملك ورجال الدولة البرتغالية وقوض دولتها . ولو أن الديوان أرسل أسطولا أكبر إلى المحيط الهندى ، لكان من الممكن إخراج البرتغاليين من شرق أفريقيا وانتشار المسلمين بوضع أفضل من الوضع الحالى والحيلولة دون دخول الدين المسيحى .

كانت فتوحات أوزدمير باشا التى حققها فى السودان والحبشة خلال ٥ سنوات ، عظيمة .

كان تحت إمرته ٣٠٠٠٠ جندى ؛ ١٠٠٠ منهم انكشارية حملة بنادق جلبوا من استانبول و ٦٠٠٠ متطوعين جمعوا من أتراك مصر والأكثرية الباقية هم أبناء جنود الدولة المملوكية السابقة . اكتشفت مناطق لم تطأها قدم أجنبى حتى ذلك التاريخ . تجول فى الأراضى المنحصرة بين الشلالات ١ ً و ٦ ً . تأسس الحكم العثمانى على ضفتى النهر وتأسس نظام الحماية العثمانية فى المناطق الداخلية . تأسست حاميات فى جميع الأماكن ، وكان الضباط من الأتراك فقط والأفراد من السكان المحليين . فتحت أريتره والصومال وأدخلت قطعة ليست صغيرة من المناطق الداخلية للحبشة تحت الحماية . توفى أوزدمير باشا فى مدينة بندية التى

اتخذها قاعدة له بعد إصابته بمرض استوائى . دفن جثمانه فى القبر الفحم الذى شيده ابنه في مصوع . وعين مكانه ابنه عثمان بك وعمره ٣٤ سنة بلقب بكلربك (أمير أمراء والى) الحبش عثمان باشا (١٥٦٠) . ولحين استدعائه إلى استانبول (١٥٦٧/٨/٢٢) ، وسع مجال فتوحات أبيه . نشر الدين الإسلامى ، والمساجد وأدخل النظام العثمانى وعناصر المدنية والثقافة التى لم تشهدها تلك الأقطار أبدا .

(٢٧) الحملة الهمايونية ٦ : حملة إيران ١ (١٥٣٣ - ٣٥)

جمدت ضربة جالدران ، الإمبراطورية الإيرانيه الصفوية التركية وهى الإمبراطورية الثانية فى العالم بعد تركية وجعلتها دون حراك لمدة ١٩ سنة حتى عام ١٥٣٣ .

تنازعت خلال هذه المدة إيران مع خاقانية تركستان الشرق .

وفى ١٥٣٣ ، كانت قد مضت ٩ سنوات على وفاة الشاه إسماعيل وأدرك ابنه الشاه طحمسب الـ ١٩ من عمره . أصبح طحمسب بالنسبة للسلطان سليمان ، أكبر منافس وعدو بعد شارل - كوينت . كان القانونى يكبر شارل - كوينت بـ ٥ سنوات وطحمسب بـ ١٩ سنة .

كان يتحتم على الدولة العثمانية التى تسيطر على شمال العراق ، لكى تصون اعتبارها ، أن تنزل إلى خليج البصرة وتسيطر على بغداد . ومن ناحية أخرى ، لم تكن إيران الصفوية قد تركت بعد أطماعها فى مناطق عديدة من شرقى الأناضول . كانت تحتفظ بـ « وان » ، وكانت تغرى خان بتليس التابع للعثمانية ، باتباع الشاه (١٥٣٢/٩/٢١) .

إزاء هذا الوضع ، سار الوزير الأعظم داماد مقبول إبراهيم باشا ، إلى إيران (١٥٣٣/١٠/٢١) . قضى الشتاء فى حلب . ثم جاء إلى مدينة عامد (دياربكر) (١٥٣٤/٥/١٤) حيث بقى فيها شهرا واحدا . أخذ من إيران كل من أخلاطه وعادل جواز ، وأرجش ثم وان (١٥٣٤/٦/٢٣) ، وأخرج الصفويين من منطقة بحيرة وان ، وكذلك احتل فى شمال شرقى أرضروم مناطق تبارا من باسينلر إلى

أولطو ، وكذلك أخذت بايزيد (ولاية آغرى الحالية) من الصفويين .. وبذلك تكونت حدود تركية الشرقية .

أما السلطان سليمان ، فقد سار من استانبول (١٥٣٤/٦/١١) للانضمام إلى قوات الوزير الأعظم . وهذه هى حملته الهمايونية ٦ التى تشكل حملة إيران الأولى ، وتشتهر فى التاريخ العثمانى باسم حملة « العراقين » (العراق العربى والعراق العجمى) ، وهى أشهر حملة همايونية للسلطان سليمان ، ذلك أن حملة موهاج ٣ أكسبته لقب فاتح المجر ، وأكسبته هذه الحملة لقب فاتح بغداد . ترك أولو شهزاده (ولى العهد) مصطفى ، كمحافظ للعرش (نائب السلطنة) فى استانبول .

دخل إبراهيم باشا إلى تبريز (١٥٣٤/٧/١٣) مدينة عرش إيران السابقة . لم يمس أحد بسوء . عين أولاما باشا ، واليا على تبريز (جنوب آذربيجان) . كان قد مضى على فتح ياوز لتبريز ١٩ سنة و١٠ أشهر و٧ أيام أعلن دوباج إسحاقى أمير كيلان (رشت) خروجه عن تبعيته للصفوية وإقراره بالتبعية العثمانية (١٥٣٤/٨/٢١) . دخل أيضا الشيروانشاهيون الموجودون فى شمال آذربيجان إلى التبعية العثمانية . ولم تعد تبريز حينذاك مدينة العرش لإيران . كانت مدينة العرش قد تحولت قبل عدة سنوات إلى قزوين فى الداخل . كانت تبريز قريبة إلى الحدود التركية ولم يكن بالإمكان الدفاع عنها تجاه العثمانية .

خلال ذلك ، تم أخذ حكارى والأراضى التى تشكل حاليا أرمنستان السوفيتية . جاء القانونى السلطان سليمان خان الثانى ، خلال جريان هذه الأحداث ، إلى قونية وقبل حاشية ستار ضريح مولانا (١٥٣٤/٧/٢٠) . وإبان وجود البادشاه فى قيصرى ، كان بربروس خير الدين باشا يغادر استانبول (١٥٣٤/٨/١) لفتح مدينة تونس . وفى ٢٠ آب ، عرض شيروانشاه تبعيته للبادشاه الذى كان فى أرزنجان . جاء البادشاه إلى تبريز فى ٢٨ أيلول . فقدت المدينة التى كانت وقت أن فتحها ياوز ، إحدى أكبر وألمع المدن فى العالم ، إعمارها وأهميتها السابقة . التقى البادشاه والوزير الأعظم فى ٢٩ أيلول فى هضبة أوجان .

سار الجيشان بعد التآمهما فى ٥ ت١ تحت قيادة البادشاه متحركا من هضبة

أوجان . وصل سلطانية فى طريق تبريز - قزوين فى ١٣ ت١ . صدر أمر عودة أمير كيلان إلى رشت . كان السلطان سليمان يتلكأ ويقوم بالتحريات للعثور على الجيش الصفوى . أما الشاه فقد كان عازما بصورة أكيدة على عدم الخروج والتورط فى حرب ميدانية لئلا تصيبه العاقبة التى أصابت أباه فى جالدران . لم يتمكن السلطان سليمان من إغراء وإجبار شارل - كوينت أو طحمسب لدخول حرب ميدانية . أسس البادشاه أيالة أرضروم على أن تشمل شمال شرقى الأناضول وعين لإدارتها دلقادر أوغلو محمد خان (باشا) الذى كان أبوه ابن خال السلطان سليم . جاء الجيش الهمايونى إلى همدان (٢٩ ت١) وهى مركز العراق العجمى . كانت العراق مقر عرش السلاجقة . كانت تلك المناطق مسكونة بالأتراك أيضا كما هو الحال الآن .

عندما اتضح أن الجيش الهمايونى سائر إلى بغداد أدرك تكه لو (من أنطالية) محمد خان توركمن والى بغداد الصفوى تعذر مقاومة المدينة أمام العثمانية ، فأخلى المدينة .

دخل السلطان سليمان مدينة الخلفاء بغداد (١٥٣٤/١١/٢٨) .

قال الشاعر التركى الكبير فضولى البغدادى الذى يعيش فى هذه المدينة المصراع التالى باللغة التركية ، والذى معناه : « جاء البادشاه الشهير إلى برج الأولياء » ، ويشير به الشاعر إلى تاريخ (٩٤١) وهو مصراع من قصيدته الشهيرة ذات الـ ٧٠ بيتاً التى استقبل بها السلطان مهدياً له إياها . ذهب البادشاه فى الحال إلى مرقد الإمام الأعظم أبى حنيفة وزاره وأمر بإعمار الأعظمية . وفى هذه الأيام ذاتها انتقلت مدينتى الشيعة المقدستين (كربلاء والنجف) لحوزة العثمانيين . واعتنى بهما كذلك لكونهما مقدستين لدى السنة أيضاً .

ظل البادشاه فى بغداد مدة ٤ أشهر ، ويوم واحد وغادرها (١٥٣٥/٤/١) . فتح كامل العراق الأوسط . تمت الموافقة على تابعية الأمير رشيد فى البصرة . جاء إلى بغداد وقبل يد الخليفة . استرجع الشاه تبريز وقت وجود البادشاه فى بغداد (١٥٣٤/١٢/٩) ، وبذلك يكون حكم العثمانية الثانى فى تبريز ٤ أشهر و٢٧ يوما . زار الخاقان فى آذار ١٨ ــــ ٢٣ كربلاء ونجف ووزع الصدقات فى قبرى

الحسين (ر.ع) وأبيه على (كرم الله وجهه) . أسس إيالة بغداد ، وعين رمضان أوغلو أوزون سليمان باشا واليا عليها ، وهكذا صار الأمير التركمانى ، أول وال على بودين (المجر) .

أما الشاه الذى أظهر علنا عدم قبوله الحرب الميدانية بإجلائه ـــ لفترة من الزمن ـــ مدينة العرش قزوين كذلك ظنا منه أن العثمانية قادمة (Von Hamner ، ٥ ، ٢٠٨) فإنه بدخول الجيش الهمايونى إيران مجددا ، لم يدافع عن تبريز .

احتلت تبريز للمرة ٣ (١٥٣٥/٦/٣٠) ، ومكث الخاقان ١٧ يوما فى سراى شاه إيران . دام الحكم الصفوى فى الفترة بين الاحتلالين ٦ أشهر و٢٢ يوما .

حضر أخو الشاه ميرزا وعمره ١٨ سنة والذى كان واليا على خراسان = هرات ، إلى تبريز ولجأ إلى السلطان سليمان (١٥٣٥/٧/٢١) . وقد كان ذلك حدثا مهما .

أرسل الشاه أسطة جالوخان تركمن كسفير وطلب الصلح . كان شرطه ، ترك الأقطار التى فتحت فى الأناضول فى الحملة الهمايونية على يد العثمانيين والتى تبلغ مساحتها التقريبية ٥٠٠٠٠٠ كم^2 إلى العثمانية ، واستعادة الأراضى المحتلة فى أذربيجان وإيران والتى تبلغ مساحتها ٤٠٠٠٠٠ كم^2 .

كان الشاه الذى أحس بالخطر على نفسه فى قزوين فى هذه الأيام ، قد انسحب إلى أصفهان ، ولاشك ان العثمانية كانت قادرة على المجىء إلى قزوين وأصفهان . انسحب الشاه والجيش التركمانى إلى مشهد ، هرات وقندهار ، وهكذا وضحت الاستراتيجية الصفوية . عاد السلطان سليمان الذى بحث عن الشاه مدة ١٨ يوما ، إلى تبريز بعد ٣١ يوما (٢٠ آب) . تحرك فى ٢٧ آب . جاء إلى أخلاط . كان هذا موطن الأجداد للعثمانيين . ومنها حضروا إلى سوغت Sogut . لكن الصفويين كانوا قد احتلوا وان ، وتعذر استرجاعها حينذاك .

جاء الجيش الهمايونى إلى دياربكر فى ٢٠ ت ١ وبقى فيها ٢٢ يوما . جاء إلى حلب فى ٢٤ ت ٢ ، بقى ٨ أيام وغادرها .

عاد السلطان سليمان فى هذه المرة إلى استانبول بصفة فاتح بغداد .

دامت الحملة الهمايونية (السلطانية ، الامبراطورية) مدة ١ سنة و٦ أشهر و٢٧ يوما . أما اعتبارا من مغادرة إبراهيم باشا من استانبول ، فكانت قد مضت مدة ٢ سنة ، وشهرين و ١٨ يوماً .

تكتسب هذه الحملة أهميتها من أنها ضمت العراق إلى الاتحاد العثمانى ، وأبعدت الصفويين عن العالم العربى بصورة نهائية . تأسست إيالة أرضروم (١٥٣٥/١١/١) ، وتم تأمين حدود تركية فى القفقاس . وعند عودة العثمانية ، استرجع الصفويون تبريز والأراضى التى بقيت لدى إيران حاليا . وكانت لاتزال بحوزتهم فى الأناضول ، بعض المناطق كوان .

بذلت الدولتان التركيتان الإسلاميتان الكبيرتان جهودهما خلال ١٥٣٦ ــ ٤٨ للحفاظ على بقاء الوضع على حاله Stafu quo .

حدثت تطورات فى صالح العثمانية . فتح دلقادر أوغلو محمد بك والى (فريق أول) أرضروم ، آهسكة (١٥٣٦/٧/٤) وأخضع قسما كبيرا من كرجستان للنفوذ العثمانى ، ورغم أن التركمان كانوا ينتسبون إلى المذهب الشيعى بسهولة ، فإن الأكراد كانوا يثبتون على المذهب السنى (الشافعى) ، ولذا كانوا على الأغلب يلتزمون الجانب التركى . أخذ النفوذ العثمانى فى الازدياد فى المنطقة الجنوبية ــ الغربية من إيران ، المسكونة بالأكراد .

تأسست إيالة البصرة (١٥٣٨/٧/٢٤) ، وارتبطت بها مناطق جنوب العراق ، الكويت ، الحساء ، قطيف ، نجد ، قطر ، بحرين ، عمان المتصالح وجبل شمراما رأسا أو بقبول شيوخ العرب الحماية العثمانية .. وهكذا تحقق انتشار عثمانى واسع على خليج البصرة .

جاء القاس ميرزا الأخ الآخر للشاه إلى استانبول فى ١٥٤٧ ولجأ إلى البادشاه . وأصبح ذلك بداية لفتح حملة جديدة على إيران .

كان السبب الأصلى للحملة هو استمرارهم فى إرسال عملاء الشاه الذين يطلق عليهم اسم « خليفة » خلسة إلى الأناضول وجنوب القفقاس لبث المذهب الشيعى ونشر الدعاية للانحياز إلى الشاه .

تأكدت ضرورة القيام بحملة جديدة ، عند بدء الصفويين فى تطبيق ذلك بشكل

دموى فى شيروان (شمال آذربيجان) ، أما فى الأناضول ، فإن عملية تبديل العقيده كانت تجرى بدعاية دقيقة وسرية . أراد الصفويون بعد شيروان ، تبديل مذهب شعب داغستان السنى الشافعى فى شرق قفقاسيا الشمالية وإدخالهم إلى المذهب الشيعى بحد السيف .

لجأ أمير (بك) داغستان ، قرم شامحال إلى العثمانية وطلب المعونة . قرر الديوان الهمايونى أن إيران التى لم تتمكن من هزيمة العثمانية ، سوف لاتتوقف لتعويض خسائرها ــ عن سياسة التسلط على جميع الدول السنية الصغيرة .

احتل العثمانيون داغستان وشيروان . اضطرب الشاه الذى شاهد تطويقه من الشمال . وافق على اقتراحات شارل ــ كوينت ، واتفق مع ألمانيا ــ أسبانيا . أما فى الأناضول ، فقد شوهد مجددا خروج كثير من التركمان والأكراد من المذهب السنى وإقرارهم المذهب الشيعى . ثبت أن عملاء الصفوية قد أثروا فى مناطق توقاط ، آماسيا ، جورم ، سيواس ، طرابزون ، أرزنجان ، أورفة ، دياربكر وحتى قونية . عجز أئمة السنة ورجال الدين حيال هذه الدعاية الشيعية . كان النظام العثمانى لايسمح بشهر السلاح على رعية البادشاه غير العصاة والضغط عليهم بسبب العقيدة والمذهب ، وبناء عليه ، كان المسئولون العثمانيون عاجزين كذلك . إلا أنه تم إعدام عدة أشخاص من الذين يتجاوزون الحدود ويحرضون شعب أناضول علنا ضد العثمانية ويدعونهم للانحياز إلى جانب الشاه كـ « بير سلطان إبدال » . كان كل شخص يقر بالعلوية يدفع ضريبة إلى الشاه تسمى « نذر » ، وتذهب هذه النقود إلى إيران . ثبت أن الدعاية العلوية قد تفشت بين أفراد الجيش فى إيالة روم (سيواس) كذلك . لم يكن من الممكن أن تسمح الدولة العثمانية بشىء من هذا القبيل .

ثبت أن ٢٠ لوندا (جنود حرس الوالى) ، كانوا يعملون كعملاء لإيران وصدر أمر بالقبض عليهم وقد تم ذلك أثناء هروبهم إلى إيران ، جىء بهم إلى أرضروم وتم إعدامهم . قرر الديوان إعلان الحرب على إيران فى الوقت الذى أوشكت فيه الأناضول أن تدخل حربا أهلية دموية كالتى بين الكاثوليك والبروتستانت فى أوروبا . حرر كتاب سلطانى (نامة همايون) إلى خاقان تركستان ، طلب فيه الهجوم على إيران من الشرق .

كانت سياسة الأناضول الشرقية للسلطان سليمان سياسة حكيمة وواقعية . كانت هذه السياسة تحرص على عدم إجراء أي ضغط على العلويين أو الذين يتظاهرون بالعلوية مالم يمارسوا دعاية علنية مضادة للدولة . لكن إيالتى أرضروم وفى الجنوب دياربكر لم تستطيعا حماية الأناضول من تعرض إيران المادى والمعنوى . أنشأ الخاقان (الذى شعر بضرورة تأسيس إيالات جديدة فى أقصى الشرق) ، إيالة قارص فى شرق أرضروم وإيالة وان فى شرق دياربكر ، ومنح كل من دلقادر أوغلو ميرزا على بك وجركس صارى إسكندر بك رتبة فريق أول ولقب الباشوية وأصبح كل منهما أول وال على قارص (الأول) وعلى وان (الثانى) .. وهكذا أمكن فى ١٥٤٨ فقط ، تثبيت وضمان حدود تركية الشرقية الحالية بصورة قطعية ، وقد سلف أن ذكرنا الحدود التى توصلت إليها العثمانية فى هذا التاريخ .

أعلن القانونى القاس ميرزا السنى شاها مكان أخيه الكبير طحمسب ، ورغم أن ميرزا استولى على عدة بلدان إيرانية من بينها قم ، وكاشان لكنه لم يتمكن من إظهار كفاءة وبسبب هذا ، ولضعف شخصيته ، لم تتحقق إمكانية دحر الحكم الشيعى فى إيران (تاريخ أعلم آراى عباسى ، ص ٧٤ ــ ٥) .

من ناحية أخرى ، كان الحكم العثمانى فى شيروان (شمال أذربيجان) عبارة عن ٢/٥ سنة . وتأخر فتح الأقضية الأخيرة لآرتفين وقارص من الصفويين ، لغاية ١٥٥١ .

(٢٨) الحملة الهمايونية ١١ : حملة إيران الثانية (١٥٤٨ ــ ٤٩)

تبلغ الفترة مابين الحملتين الإيرانيتين للسلطان سليمان ١٣ سنة ، حقق خلالها ٤ حملات همايونية على أوروبا . والحملة الإيرانية ٢ ، هى حملته الهمايونية ١١ .

بدأت هذه الحملة بتحركه من استانبول (١٥٤٨/٣/٢٩) . اشترك فى الحملة أصغر أبناء البادشاه شهزاده جهانكيز . أما القاس ميرزا فقد أرسل قبل القوات الأخرى ومع القوات العثمانية الأمامية إلى إيران .

كان الشاه فى تبريز . أجلى المدينة وانسحب إلى قزوين بعد أن علم بمجىء البادشاه إلى خوى . كان عازما بشكل أكيد على عدم المجابهة فى حرب ميدانية . احتل

العثمانيون تبريز (١٥٤٨/٧/٢٧) . كان قد مضى على إخلاء العثمانيين لتبريز للمرة ٣ ، ١٢ سنة ، و١١ شهرا ، ويوم واحد . جاء الخاقان إلى وان ، بعد أن بقى فى المدينة ٥ أيام . استسلم الصفويون فى ٢٩ آب بعد أن قاومت القلعة ١٠ أيام . غادر البادشاه بعد أن حصن القلعة بصورة جيدة إلى دياربكر (٢٩ أيلول) ، ومنها إلى حلب (٢٥ ت٢) حيث قضى الشتاء فيها . مكث البادشاه فى حلب مدة ٦ أشهر ، و١١ يوما حتى ١٥٤٩/٦/٦ .

خلال ذلك ، كان القاس ميرزا قد قام بحملات كرمنشاه ـــ همدان ـــ قم ـــ كاشان – أصفهان ، لكنه لم يتمكن من إجبار أخيه الكبير على إحناء رأسه . ظفر به أخوه الكبير وأرسله إلى قلعة قهقهة (آلاموت) .

قضى القانونى الشتاء فى حلب مع ابنيه بايزيد وجهانكيز وتحرك . حط قرب دياربكر مع الجيش الهمايونى لمدة طويلة (٢٥ آب ـــ ٥ ت١/ ١٥٤٩) . استمرت حملة السلطان سليمان الذى عاد إلى استانبول فى ٢١ ك ١ مدة ١ سنة و ٨ أشهر ، ٢٣ يوما . جاء الشاه طحمسب فى صيف سنة ١٥٥١ إلى شرق الأناضول واجتاح إيالتى وان وأرضروم .

(٢٩) الحملة الهمايونية ١٢ : حملة إيران ٣ (١٥٥٣ ـــ ٥٥)

سار السلطان سليمان من استانبول (٢٨/٨/ ١٥٥٣) بحملته الثالثة على إيران بعد عودته من حملة إيران ٢ ، بـ ٣ سنوات ، و٨ أشهر ، و٨ أيام . تسمى هذه الحملة « حملة نهجوان » . كان عمره قد تجاوز الـ ٥٨ سنة . استصحب أصغر أبنائه شهزاده (الأمير) جهانكيز وانضم إليه فى الطريق ابناه الأوسطان شهزاده سليم (الثانى) وشهزاده بايزيد . قرر قضاء الشتاء فى حلب التى يحبها ، كما فعل قبل ٥ سنوات . مكث فى حلب مدة ٥ أشهر ، ويوما واحدا (١٥٥٣/١١/٨ ـــ ١٥٥٤/٤/٩) . جاء إلى روان (أريوان) فى ١٨ تموز . احتل هذه المدينة التى هى مركز إيالة ، واحتل كذلك مدينة نهجوان ـــ التى سميت الحملة باسمها ـــ فى الساحل الشمالى لنهر آراس ، واجتاز آراس إلى جنوب آذربيجان . طلب الشاه الصلح . أبلغت الاستخبارات العثمانية البادشاه بأن الشاه مصمم على عدم الدخول

فى حرب ميدانية وأن العثور على الجيش الصفوى غير ممكن . عاد الخاقان إلى الأناضول . مكث ٢٤ يوما فى أرضروم وغادر فى ٢٨ أيلول . وصل آماسيا وقضى فيها الشتاء ، وبقى فيها ٧ أشهر ، و ٢٢ يوما (١٥٥٤/١٠/٣٠ ــ ١٥٥٥/٦/٢١) .

قضى البادشاه ــ خلافا للعادة ــ شتائين متعاقبين فى الأناضول ، أخاف الشاه . عقدت بين تركيا وإيران ــ بعد مفاوضات طويلة جدا ــ معاهدة آماسيا (١٥٥٥/٥/٢٩) . اقتسمت كرجستان ، وتم الاتفاق على الحدود الحالية تقريبا بالنسبة للأناضول . كانت الحدود فى العراق فى الجنوب كما هى حاليا تقريبا .

جرت مفاوضات طويلة مع السفير الألمانى البارون Von Busbek كذلك . ولكن لم يتم عقد صلح ، وإنما جرت هدنة لمدة ٦ أشهر فقط فى ٢ حزيران .

دخلت كل من الدولتين العظمتيين الأولى والثانية فى العالم ، تركية العثمانية وإيران الصفوية فى فترة صلح ستستمر ٢٣ سنة .

فى غضون ذلك ، تخلى شارل ــ كوينت وانفصلت ألمانيا وأسبانيا عن بعضهما ، وتنفست أوروبا والعثمانية الصعداء .

سوف تحارب العثمانية ألمانيا وأسبانيا مرة أخرى ، ولكنها فى هذه المرة ستحارب دولتين منفصلتين .

كان من نتائج عقد الصلح مع إيران بعد ٣ حملات همايونية ، إلحاق العراق وشرق الأناضول ، تحقق الوحدة الأناضولية واكتسابها صفتها القطعية لصالح العثمانية ، والحصول على مكاسب مهمة فى قفقاسيا .. وكل هذه تعد مكاسب عظيمة للعثمانية ، وإن كانت بعيدة عن أن تكون حلاً جذرياً .

لاشك أن معاهدة أماسية هى إحدى الوثائق العديدة التى تثبت أن العثمانية دولة عالمية عظمى ، ولكنها فى الوقت ذاته ، تعتبر وثيقة تبين انقسام العالم التركى إلى قسمين بمعنى دخول إيران الشيعية بين تركيا وتركستان وعدم إمكان اجتياز هذا السد ، وبالتالى ترك ملايين من الاتراك تحت رحمة إيران لينقلبوا إلى إيرانيين ويصبحوا من رعايا إيران ، وإضافة إلى ذلك ، فإن الدولة العثمانية العالمية التى لم تعترف

لشارل ــ كوينت وخلفه فرديناند بلقب إمبراطور والتى أجبرتهما على قبول عدم اعترافها هذا ، كانت قد أقرت بصورة رسمية بكون الشاه حاكما تعادل درجته البادشاه وتساوية . إن مقولة « لولا الشاه ، لوصلت العثمانية إلى الراين » الشائعة الدائرة فى أوروبا ، صحيحة . وإن كانت المقولة المقابلة « لولا أوروبا ، وخاصة أسبانيا وألمانيا ، لوصلت العثمانية إلى تركستان » لم تتردد فى إيران على الرغم من كونها حقيقة .

ربما يقال ماكان ينبغى على العثمانية أن تجتاز سد فينا ، ويحتمل أن ذلك لم يكن ضروريا أبدا ، ولكن تحطيمها السد الصفوى ، كان سيغير أحداث التاريخ فى صالح آسيا .. لكن إمكانات العثمانية لم تكن كافية لذلك .

(٣٠) قضية ولى عهد - شهزاده (الأمير ولى العهد) سلطان مصطفى خان

أولاد السلطان سليمان القانونى هم : ولى عهد - شهزاده (١٥٢١/١٠/٢٩ - ١٥٥٣/١١/٦) مصطفى (١٥١٥ - ١٥٥٣/١١/٦) ، شهزاده محمد (١٥٢١ - ١٥٤٣/١١/٦) ، مهرماه سلطان (السلطانة) (١٥٢٢ - ١٥٧٨/١/٢٥) ، سليم الثانى (١٥٢٤/٥/٢٨ - ١٥٧٤/١٢/١٥) ، شهزاده بايزيد (١٥٢٥/٩/١٤ - ١٥٦٢/٧/٢٣) ، شهزاده جهانكيز (١٥٣١ - ١٥٥٣/١١/٢٧) . عدا ٥ شهزاده و٣ سلطان (سلطانة) ماتوا وهم أطفال . كان كبير أبنائه أولو شهزاده (ولى العهد) محمود ، قد توفى وعمره ٩ سنين (١٥٢١/١٠/٢٩) . ولد محمد ، مهرماه ، سليم ، بايزيد وجهانكيز كلهم من خرم خاصكى سلطان (١٥٠٦ - ١٥٥٨/٤/١٧) . أما والدة أولو شهزاده مصطفى ، فهى ماه دوران خاصكى (١٤٩٩ - ١٥٨١ /٢/٣) .

حصلت خرم خاصكى على نفوذ متزايد لدى السلطان سليمان وأصبحت كأنها زوجته الوحيدة ، وكانت هى والدة الأولاد ، عدا الشهزاده الكبير (ولى العهد) . كان عليها أن تنحى ولى عهد - شهزاده لتضمن العرش لأحد أبنائها . ولأجل ذلك ، بدأت فى اتباع سياسة تتسم بالصبر والدقة والمؤامرات واستمرت سنوات طويلة . ونذرت نفسها لهذا العمل .

كان داماد مقبول إبراهيم باشا (١٤٩٥/٤/٢٥ - ١٥٣٦/٣/١٥) الذى عينه

القانونى للوزارة العظمى بعد إحالته بيرى محمد باشا على التقاعد قد ظل فى مقامه مدة ١٢ سنة ، و٨ أشهر ، و١٨ يوما (١٥٢٣/٦/٢٧ - ١٥٣٦/٣/١٥) . كان زوجا لأخت البادشاه خديجة سلطان (١٤٩٦ - ١٥٨٢ . كان سياسياً لامعاً ، وسير أعمال الحكومة بكفاية تامة . لم يكن بالإمكان تحريك وزير أعظم كهذا ضد ولى العهد الشرعى . إن أحد أسباب سقوط إبراهيم باشا وإعدامه فجأة ، هو المؤامرات الدقيقة الخفية التى لاتطفو على سطح الماء لخرم التى حفرت البئر له . تخلصت خرم من وزير أعظم ذى نفوذ . حيث لم يتمكن أى وزير من الذين تلوه ، أن يحصل على نفوذ إبراهيم باشا . إن الذين تلوه كوزير أعظم هم بالتسلسل : آياز محمد باشا (١٥٣٦/٣/١٥) ، وبوفاته ، صهر البادشاه المتزوج بأخت أخرى له داماد لطفى باشا (١٥٣٩/٧/١٣) ؛ وبعزله خادم سليمان باشا (١٥٤١/٤/٢٧) ، وأخيرا داماد (صهر) رستم باشا (١٥٤٤/١١/٢٨) .

توفى خلال ذلك كبير أبناء خرم وثانى أبناء القانونى شهزاده محمد فى مانيسا (صاروخان) التى كان واليا عليها . جىء بجثمانه إلى استانبول ودفن فى مقبرته الكائنة قرب جامع شهزاده الفخم الذى شيده والده وأوصى المعمار سنان بهندسته . كان على خرم أن تسعى بعد الآن لأبنائها الآخرين . لم يتغير تصميمها بشأن ولى عهد - شهزاده مصطفى ، بعد وفاة شهزاده محمد .

تزوج داماد رستم باشا (١٥٠٥ - ١٥٦١/٧/١٠) ، بابنة القانونى الوحيدة التى يحبها كثيرا مهرماه سلطان (١٥٣٩/١١/٢٦) . وسواء ابنتها أو صهرها أصبحا واسطتين لخرم خاصكى . بدأت هذه المؤامرة تسير نحو هدفها خطوة فخطوة . وفى النهاية ، وصلوا إلى حد ترتيب أوراق مزورة بشكل فنى تتضمن هذه الأوراق ، أن السلطان مصطفى قد اتفق مع الشاه طحمسب على أن يصاهره وأن الشاه سوف يساند الشهزاده لإجلاسه على عرش أبيه .

كان الشىء الذى يخيف الديوان الهمايونى فى السياسة العثمانية لذلك العصر أكثر من غيره ، هو سريان التشيع إلى الأناضول .

ونتيجة مؤامرات متتابعة لالزوم لذكرها هنا ، اقتنع السلطان سليمان ، بأن ابنه الكبير سيعصاه وسوف يزج بالدولة فى بلية كبيرة . استعد لحملته الهمايونية ١٢ •

(حملة إيران ٣) تجاه إيران ، وكان السلطان قد قرر التخلص من ابنه الكبير فى الطريق .

خنق ولى عهد شهزاده فى معسكر آقتبة قرب قونية أركليسى بالحبل (١٥٥٣/١١/٦) . إستاء الجيش بصورة كبيرة وأظهر عدم رضائه وسخطه وحدثت ردود فعل شديدة . اضطر السلطان سليمان إلى عزل عضو المؤامرة الكبير صهره رستم باشا .

يعتبر قتل السلطان مصطفى خان ، أحد أبشع وأشأم الأحداث التى جرت على عهد القانونى . كان عمره ٣٨ سنة وكان وليا للعهد منذ ٣٢ سنة ، و١٠ أشهر والوارث الشرعى اللائق لعرش بنى عثمان الذى يفتخر بكونه سلطنة العالم . راح السلطان سليمان ضحية دسائس عديدة وقسى على أغلى أبنائه . كان السلطان مصطفى محبوبا لدى الجيش والشعب وكان نموذجا مطابقا لجده السلطان ياوزسليم . إن شبهه الشديد بالسلطان سليم – وجهاً – زاد فى محبته . كان شاعرا وخطاطا . ماتت ابنتاه بعده . توفى ابن السلطان سليمان الأصغر جهانكير الذى تأثر كثيرا لهذا الحادث فى حلب وعمره ٢٢ سنة . دفن مصطفى فى قبره الكائن فى بورصة ، أما جهانكير فقد دفن فى استانبول . شيد أبوه جامعا فى استانبول وسماه جهانكير . وهكذا بقى للعرش العالمى وريثان : ولى عهد – شهزاده سليم وشهزاده بايزيد الذى يصغره بـ ١٦ شهرا فقط . كلاهما ولدا من خرم . كان بايزيد أكثر فعالية وأكثر حرصا . والآن سوف يتنازعان على العرش العالمى .

أصبح الوزير ٢ وزوج إحدى شقيقات البادشاه داماد قرة أحمد باشا وزيرا أعظم ، بعد عزل رستم باشا (١٥٥٣/١١/٦) . كان عسكريا كبيرا . أعدم بغير حق (١٥٥٥/٥/٢٩) . عاد رستم باشا وأصبح وزيرا أعظم .

(٣١) قضية شهزاده سلطان بايزيد

كان تبديل لواء شهزاده بايزيد الذى كان يديره منذ ١٧/٥ سنة من كرميان (كوتاهية) إلى أماسيا التى أبعد منها إلى استانبول بمسافة كبيرة (١٥٥٨/١٢/٢١) ، وبقاء أولو شهزاده فى قونية ، إشارة إلى أن البادشاه عازم

على مساندة ولى العهد الشرعى سليم . ثار بايزيد على أخيه الكبير . لكنه هزم فى حرب قونية الميدانية (٣٠ - ١٥٥٩/٥/٣١) . جاء أماسية وغادر إلى إيران بجيش عدده ١٢٠٠٠ جندى . لم يتمكن الجيش الذى تعقبه من اللحاق به . دخل إيران . دخل مدينة العرش الإيرانية قزوين بعد ٣/٥ شهر (١٥٥٩/١١/٢٤) . كان قد دعاه الشاه طحمسب واستقبل ، بحفاوة بالغة . شتت جيشه عندما اكتشفت محاولة قلبه الشاه بالجيش الذى يقوده ، ووضع هو تحت رقابة شديدة . وافق الشاه فى النهاية على طلب السلطان سليمان وأمر بقتل شهزاده بايزيد مع أبنائه الـ ٤ وسلمهم إلى السفراء العثمانيين (١٥٦٢/٧/٢٣) . أرسلت نعوش الأمراء إلى سيواس حيث شيدت لهم قبور دفنوا فيها .

طلب الشاه من السلطان سليم لقاء العمل القذر ١٢٠٠٠٠٠ ليرة ذهب وقلعة قارص . أخذ ٥٠٠٠٠٠ ليرة ذهب ومجوهرات قيمة فقط كان عمر شهزاده بايزيد ٣٧ ، وعمر أخيه الكبير سليم ٣٨ ، والقانونى ٦٧ سنة . أما الشاه فكان عمره ٤٨ سنة .

كان شهزاده بايزيد شاعرا فى اللغتين التركية والفارسية (مخلصه شاهى) ، خطاطا وعسكريا قديرا . اشترك فى الحملات الهمايونية ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . شاهد الأقطار اعتبارا من البلاد العربية إلى المجر وإيران . قتل كذلك ابنه الخامس وأكبر أبنائه أورخان الذى كان واليا (سنجق بك ، لواء) على لواء جورم وعمره ١٩ سنة . بناته الـ ٤ بقين على قيد الحياة .

تزوجت هماشاه سلطان (١٥٤٤ ــ ١٥٨٢) ابنة الشهزاده محمد ، ٣ مــرات . أنجبت حفيدة القانونى هذه أولادا كثيرين . ولكن وبعد سقوط بايزيد ، بقى أمير واحد يمكنه أن يعتلى العرش وهو السلطان سليم .

مات رستم باشا ، عندما كان السلطان بايزيد فى قزوين (١٥٦١/٧/١٠) . دامت صدارته الأولى ٨ سنة و ١٠ أشهر و ٨ أيام ، والثانية ٥ سنة و ٧ أشهر ، و ١٩ يوما ومجموع صدارتيه ١٤ سنة و ٧ أشهر و١٩ يوما . وهو الوزير الأعظم الذى ظل فى مقامه أطول مدة فى عهد القانونى ، وحسب ا لتسلسل يعتبر هو ٨ بين رؤساء الوزارة فى التاريخ التركى فى طول مدة بقائه فى المنصب . غير

محبوب من طبقة الشعب والمثقفين . بخيل تجاه الأشخاص ، وإن كان كريما في إنشائه المؤسسات الاجتماعية ، الوقفية والخيرية ، خلف مؤسسات خيرية تدهش العقل . حصل على قسم من ثروته عن طريق الرشاوى . له شهرة سيئة كإدخاله الرشوة إلى الدولة العثمانية . حرر تاريخا عثمانيا ترجم إلى اللغة الألمانية ، ليست له قيمة كبيرة . ماكر متآمر ، لديه استعداد للظلم لولا خوفه من البادشاه . حازم في الأعمال الحكومية وأهل لها . لايبتسم .

احتل سميز (بمعنى بدين) على باشا مكانه تلقائيا لكونه وزيرا (٢) ، كان هذا على عكسه بشوش الوجه في جميع الأوقات صاحب دعابة ، ممازحا وسياسيا ذكيا ورجل دولة قدير . كان بدينا جدا . دامت صدارته ٤ سنة إلا ١١ يوما . مات بأجله (١٥٦٥/٦/٢٨) . احتل مكانه تلقائيا الوزير ٢ صوقوللو داماد محمد باشا . هو آخر وزير أعظم للقانوني وهو الصهر الكبير لأولو شهزاده سليم (الثاني) الذى يصغره سناً .

(٣٢) الحملة الهمايونية ١٣ والأخيرة : حملة سيجتوار Sigervar (١٥٦٦)

كان السلطان سليمان قد أعلن عن شيخوخته بعدم مسيرته بحملة منذ عودته من حملة نهجوان قبل ١٠ سنة و ٩أشهر . كان قد انهار بسبب وفاة أبنائه الأربعة وزوجته . لم يرغب الموت في قصره . أراد أن يموت بين جيشه ، بين أصوات المهتر (الموسيقى العسكرية) والمدافع . سار من استانبول (١٥٦٦/٥/١) . هناك أدلة تشير إلى توقعه عدم عودته حياً من هذه الحملة .

نصب في ٢٩ حزيران السرادق الهمايوني في صحراء زملن Zemlin في الساحل المقابل لبلغراد . مثل بين يديه هنا أمير أردل الملك يانوش Janos الثاني . سمح للملك الذى ركع ثلاث مرات وقبل الأرض ، بتقبيل يده ورحب به ترحيبا كبيرا بقوله « كيف حالك ياولدى العزيز ؟ » يانوش هذا ، هو ابن زابوليا الذى جعله القانوني ملكا على المجر ، وعلى أثر وفاة أبيه أصبح ملكا وعمره ١ سنة ، قابله القانوني وهو طفل في القماط ، أرسل إلى ترانسلفانيا بعد منحه إمارة أردل . أصبح عمره الآن ٢٦ سنة . كانت قد مضت ٤٠ سنة على انتصار السلطان سليمان في حملة موهاج وفتحه المجر وتعيينه زابوليا ملكا ومضى كذلك منذ مجيئه إلى

صحراء زملن الموجود فيها الآن وفتحه بلغراد فى حملته الهمايونية الأولى ٤٥ سنة كاملة . كان يانوش الثانى قد ترك الكاثوليكية وأقر بالبروتستانتية .

جاء السلطان سليمان فى ٥ آب أمام قلعة سيجتوار . كانت قلعة ألمانية تبعد ٣٠ كم عن جنوب غربى مدينة بـج peç إحدى مراكز لواء إيالة بودين . كان خان قرم دولت كيراى فى هذه الأيام فى سلوفاكيا (هامر ، ٦ ، ٣١٠). كانت Sigervar قد حاصرها قبل ١٠ سنوات والى (فريق أول) بودين على باشا مدة ٦٩ يوما ، ولم يستطع إسقاطها . امتطى السلطان سليمان جواده وهو مريض ، ورغم رجاء معيته إياه وهم يتباكون ، فتش صفوف الحصار وأعطى أوامره النهائية . من الواضح أنه كان يريد التطلع لآخر مرة لجنوده الذين يعشقهم . ذهب إلى سرادقه منهار القوى وألقى بنفسه على الفراش ولم يتمكن من القيام بعدها . سقطت القلعة الخارجية فى ٥ أيلول ، كانت القلعة الداخلية تقاوم .

مات « خاقان العالم » الذى يسميه الأتراك « القانونى » و « غازى » ، والأوروبيون « العظيم » (Magnificent) و « الكبير » السلطان سليمان خان الثانى فى وقت مبكر جدا فى الساعة ١/٣٠ من صباح يوم السبت الموافق ٧ أيلول ١٥٦٦ . هو السلطان الثانى الذى مات فى ساحة الحرب ولو أنه لم يمت شهيدا مثل مراد الأول . ومع أن فاتح وكذلك ياوز لم يموتا فى السراى وماتا أثناء الحملة ، لكنهما لم يكونا فى أراضى العدو وساحة الحرب .

كانت قد مضت ٤ أشهر و ٦ أيام على مسيرة السلطان سليمان من استانبول . دامت حملته الهمايونية ١٣ التى انتهت بمجيء جثمانه إلى استانبول ، مدة ٧ أشهر و ٥ أيام . كان عمره قد تجاوز ٧١ سنة بـ ٤ أشهر و ١٠ أيام . ولم يصل من سبقه من السلاطين إلى هذه السن عدا أورخان غازى . معظم السلاطين الآخرين ماتوا وهم فى أعمار تعتبر اليوم سن الشباب أو متوسطى العمر . دامت سلطنته ٤٦ سنة إلا ١٥ يوما على التقويم الميلادى وتقريبا ٤٧ سنة و ٤ أشهر على التقويم الهجرى . ولم يتمكن من مشاهدة القلعة الداخلية لسيجتوار ، لسقوطها بعد وفاته بـ ٥ ساعات . دفن فى قبره الكائن فى جامع سليمانية . أما أعضاؤه الباطنية فقد دفنت خلف الموضع الموجود عليه عرشه ثم شيد عليه قبر .

وهذا القبر موجود حاليا فى المجر والذى يسميه السواح « المكان الذى دفن فيه قلب سليمان العظيم » .

(٣٣) شخصية السلطان سليمان القانونى

كان السلطان سليمان شاعرا صاحب ديوان كبير (مخلصه محبى) ، خطاطا ، أخصائيا فى الأحجار الكريمة وعدا إجادته اللغات الشرقية ، كان يجيد اللغة العربية كذلك . كان ينشغل بهذه الأمور وبالقراءة للترويح عن نفسه .

مجموع المدة التى استغرقتها حملاته الهمايونية الثلاث عشرة هى ١٠ سنة و ٧ أشهر و ٧ أيام . قضى السلطان سليمان هذه المدة ، خارج استانبول بين جنوده على ظهر حصانه أو فى سرادقه ، أما إقامته فى أدرنة دفعات متكررة ، وذهابه إلى بورصة والمدن الأخرى فهى خارج هذه المدة .

يلى فاتح من ناحية الدهاء الذى أبداه فى النواحى الدبلوماسية وإدارة الدولة بين كافة بنى عثمان ، ويلى فاتح وأبيه من ناحية الدهاء العسكرى .

شخصيته كحاكم نموذجى ، لاتقبل القياس إلا مع شخصيات قليلة . « لايوجد أى حاكم فى عصره حصل على تعليم أفضل من سليمان القانونى ولانشأ نشأة عملية لامعة فى إدارة دولة عظمى مثله » ,The Middle, S.N. Fisher East) A Hisrory ، نيويورك ١٩٥٩ ، ص ٢٢٢) . « كانت شخصيته أعظم من شارل ــ كوينت . طوّر الإمبراطورية التركية التى يحكمها وسلمها إلى خلفه بدرجة من التكامل ، لايمكن قياسها مع تكامل أية دولة أوروبية خلال المدة ذاتها » (Voyageurs Français dans l'Orient, N.Iorga ، ص ٢١) . « أعظم حاكم فى القرون الحديثة . يمكن قياس عظمة لويس ١٤ فقط بعظمته » (Atlas, Hallert ، ص ٢٠ ب) . « إن السلطان سليمان الذى يتقاضى الضريبة من أربع دول كبيرة كألمانيا وروسيا وبولونيا والبندقية ، أدخل فرنسا كذلك تحت حمايته » (Tableau General de l'Empire Ottoman, d'Ohsson ، ٧ ، ٤٤٣) .

نشر القانونى الكثير فى أوروبا عن تركية فى تلك السنوات ؛ وعلى سبيل المثال ، صدر فى أوروبا ٥٦ كتابا يبحث عن تركية خلال سنة ١٥٢٩ و ٧٦

كتابا خلال سنة ١٥٣٢ و ٥٩ كتابا خلال سنة ١٥٣٣ و ٧١ كتابا خلال سنة ١٥٤٢ وصدرت كتب فى السنوات الأخرى على هذا القياس (Die Europäisehen Türkendruck des, Göllner Jahrhunderts ، بخارست (١٩٦١) . كما أصبح فى أوروبا موضوعا لروايات ، أوبرات وتمثيليات عديدة .

وبالنسبة لـ Geuffroy أحد فرسان مالطة الذى شاهدة شخصيا « طويل القامة ، ضعيف ، أسمر الوجه ذو جبهة عريضة وعالية » . وتكتب المصادر الأخرى عنه أنه ، مع أنه ليس مقطب الجبين ، فإنه نادرا مايبتسم . جاد ، وقور ، وهو لايستحسن عدم المبالاة ، يتكلم قليلا وبشكل حاسم . كان عالما فى مجالى الحقوق والآداب . إن القوانين التى وضعها مع شيخ الإسلام أبو السعود أفندى بقيت نافذة المفعول حتى بداية القرن ١٩ ، ولم تبدل بعض موادة حتى نهاية الامبراطورية . إن قانو نامة سلطان سليمان (دستور السلطان سليمان) ، هو دستور مكمل لدستور فاتح . والقوانين الأخرى التى سنت ونشرت على عهده كثيرة وقد وضع أيضا قوانين كثيرة للإيالات كذلك راعى فيها الظروف الخاصة بتلك الأقطار ، كيفها ولاءمها أبو السعود أفندى مع الشريعة والقواعد العرفية بمهارة فائقة .

وضع قوانين كثيرة باسم الخاقان ، دون أن تعارض أسس الفقه الحنفى . طبقت هذه القوانين بدقة .

لم يطلق الشعب لقب « القانونى » على السلطان سليمان لوضعه القوانين ، بل لتطبيقه هذه القوانين بعدالة ، والألقاب التى أطلقها الأوروبيون فى حينه وبعد ذلك مثل « الكبير » « العظيم » تعتبر تافهة عند قياسها بلقب القانونى الذى يمثل العدالة .

وضع مواد قانونية متقدمة جدا ، ومرعية حاليا لدى العالم المتمدين كافة ، وماكانت هذا المواد يمكن أن تخطر على البال فى أية دولة أخرى فى ذلك العصر . أحدها ، تمتع الرعايا بحقوق متساوية . وتطبق العقوبة الموضوعة بالنسبة للجرم المقترف على الأشخاص الذين اقترفوها مهما كانت منزلتهم (قانو نامه سلطان سليمان ، الباب ١ ، الفصل ١) .

إن تقسيم الأراضى الامبراطورية على القارات حين وفاة السلطان ياوز سليم

(١٥٢٠) هى كما يلى :

١٧٠٢٠٠٠ كم٢ فى أوروبا + ١٩٠٥٠٠٠ كم٢ فى آسيا + ٢٩٥٠٠٠٠ كم٢ فى أفريقيا = ٦٥٥٧٠٠٠ كم٢ .

توسعت الخارطة السياسية إلى أكثر من الضعفين قبل مضى نصف قرن وأصبحت ١٩٩٨٠٠٠ كم٢ فى أوروبا + ٤١٦٩٠٠٠ كم٢ فى آسيا + ٨٧٢٦٠٠٠ كم٢ فى أفريقيا = ١٤٨٩٣٠٠٠ كم٢ .

كانت الفتوحات التى جرت على عهد القانونى فى أوروبا ـــ بالنسبة للحدود السياسية الحالية ـــ هى المجر عدا Eszak ، أردل (ترانسلفانيا ، رومانيا الحالية) ، Banat (فى رومانيا الحالية ويوغسلافيا) ، بلغراد وفويفودينا (فى يوغسلافيا) ، خرواتيا وسلوفينيا ؛ فى إيجة جزر كيكلاد وسبورات ، فى مورا ميناء Nauplion ، فى جنوب صقلية جزر بانتللاريا ولامبادوسا .

أما الفتوحات فى قارة آسيا فهى : رودس والجزر الإثنتى عشرة ، البلاد العربية ، كرجستان الغربية ، قسم من شرق الأناضول (وان ، آغرى ، حكارى الخ .) .

كانت المناطق التى دخلت تحت الحماية والنفوذ والتبعية العثمانية فى البلاد العربية هى جنوب اليمن ، حضرموت ، قطر ، عمان المتصالح ، نجد ، عمان ، الكويت والبحرين . والمناطق كجزيرة ساقز وأرضروم ، قارص وآرتفين ألحقت مباشرة وبشكل قطعى .

والمكاسب فى قارة أفريقيا : أريترة ، جيبوتى ، صومالى ، مناطق حرار وأوكادن فى الحبشة ، ليبيا ، القسم الأعظم من تونس (عدا مدينة تونس ومحيطها)، الصحراء الكبرى ، مناطق حماية فى منطقة جاد ـــ نيجر .

وتبلغ مساحة الأماكن التى فتحت على عهد القانونى ولم يمكن الحفاظ عليها والتى لم تكن ضمن الحدود العثمانية حين وفاة البادشاه فى ١٥٦٦ ، تبلغ ١ مليون كم٢ تقريبا وهى لاتدخل ضمن المجاميع أعلاه : إمارة قزان ، إمارة استرخان ، جواشستان ، استولى عليها الروس قبل وفاة القانونى بـ ١٠ أعوام . إن الشيروانشاهيون فى شمال آذربيجان ، شمهالية داغستان ، الإمارة الإسحاقية فى كيلان (رشت) تبعن العثمانية لفترة من الزمن ثم بقين لدى الصفويين . واحتل العثمانيون قطعاً من

جنوب آذربيجان ، لورستان ، همدان ، خمسة ، كرمنشاه ، أردلان (كردستان) ، جنوب خوزستان (عربستان الإيرانية) ، يزد ، قزوين ورى ، لمدد متفاوتة ، لكنها بقيت لدى الصفويين .

أما شمال فاس ، وشمالها ـــ الشرقى ، عدة إيالات من النمسا ، موانىء ريجيو Reggio ، أوترانتو Otranto ، مسينا Messina فى إيطاليا ، جزر كورسيكا وغوزو ، جزر الباليز ؛ Rutenya ، Nijniy Novgorod (Gorky) فى روسيا ، ومناطق أخرى كثيرة فهى أراض أخرى بقيت تحت الاحتلال التركى الموقت .

لم يكن عهد القانونى ، عهد توصلت فيه الحدود إلى أقصاها من الاتساع . إنما هو العهد الذى تمت فيه إدارة أعظم دولة بأرقى شكل إدارى . إن الحدود القصوى التى توصلت إليها العثمانية ، تحققت بعد ربع قرن من وفاته ، فى السنوات الأخيرة من عهد حفيده مراد الثالث .

يعبر لطيفى الذى عاش فى تلك السنوات عن دور القانونى بهذه الجملة البليغة التى لاتنطوى على مبالغة (تذكرة الشعراء ، ص ١٣) « إنه عظيم الشأن ، تتلى خطبته فى كل حطة ، وله جنود فى آلاف القلاع » .





البحث الخامس

الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني (١٥٦٦ - ١٦٨٣)



الدولة العثمانية العالمية بعد القانوني (١٥٦٦ - ١٦٨٣)

١) جلوس سليم الثاني (١٥٦٦/٩/٧)

كان سليم الثاني وليا للعهد منذ قتل أخيه الكبير مصطفى خان قبل ١٣ سنة (١٢ سنة و ١٠ أشهر و ١ يوم) والآن يرتقى العرش وعمره ٤٢ سنة .

ولى ٦ سنوات على قره مان (قونية) ، ١٤ سنة على صاروخان (مانيسا) ، وأخيرا ٥/٥ سنة فى جرميان (كوتاهية) .

جاء إلى استانبول وارتقى العرش بعد ٢٣ يوما من وفاة أبيه فى سيجتوار (١٥٦٦/٩/٣٠) . بقى فيها ٣ أيام ثم غادرها ، وعند مجيئه إلى بلغراد ، كان الجيش يتحرك للعودة بقيادة صهره الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا . كان فى صحراء موهاج . كان قد مضى ٤٨ يوما على وفاة السلطان سليمان ، وعندما أبلغ الجيش بوفاة البادشاه ، تأثر إلى درجة كادت أن تنقلب إلى قلاقل . كان قد بقى على قيد الحياة قليل جدا من الجنود الذين شاهدوا سلطانين ، يتذكرون عهد السلطان سليم (ياوز) . اعتلى السلطان سليم خان الثانى العرش بعد يومين أمام الجيش فى صحراء سيرم Sirem خارج بلغراد . أقام الجيش صلاة الميت للقانونى فى ٢٦ ت١ فى صحراء سيرم . نادى أستاذ سليم الثانى الأستاذ السلطانى (خواجه سلطانى) عطاء الله أفندى ، قائلا « الصلاة للميت » وأقام الصلاة . وصل الجثمان إلى استانبول فى ٢٨ ت ٢ قبل وصول الجيش بأسبوع . وقد أقام شيخ الإسلام أبو السعود أفندى صلاة الميت مرة أخرى فى استانبول . اشترك فى حمل الجثمان إلى سليمانية مئات الآلاف من أهالى استانبول .

بقى سليم الثانى فى استانبول ٦ أشهر و ١٨ يوماً وغادرها (١٥٦٧/٦/٢٢) متوجها إلى أدرنة . قضى الشتاء فى أدرنة . اجتمع به سفيرا إيران وألمانيا . تجددت معاهدات الصلح مع هاتين الدولتين وصودق عليها . وضع حجر الأساس لجامع سليمية فى أدرنة فى نهاية سنة ١٥٦٧ .

٢) القضية اليمنية (١٥٦٧ ــ ٦٩)

برزت القضية اليمنية بتمرد الإمام الزيدى . انحصر العثمانيون فى شريط ساحلى ضيق . انتقل القسم الأعظم من القطر لحوزة الإمام . قسم الديوان اليمنى ــ لغرض تأمين دفاع أفضل ــ إلى إيالتى اليمن وصنعاء على أن يكون مركزها زبيد ، وكانت الأولى منها تشمل البحر الأحمر التى تسمى تهامة ، والثانية المنطقة الجبلية التى تسمى جبل . ارتبطت عدن وحضرموت بصنعاء ، وقد سهل هذا انتقال القطر بكامله لسيطرة الإمام . لأن السلطة والجيش العثمانى انقسمت إلى قسمين . ونزل الإمام مطهر إلى الساحل واحتل مخا . تمكن العثمانيون بصعوبة من الاحتفاظ بزبيد وعدن .

عين الديوان أوزدمير أوغلو عثمان باشا واليا على صنعاء (١٥٦٧/١٢/١٦) . كان والد عثمان باشا قد سبق وأخذ صنعاء من الإمام . وعثمان باشا ، كان يعرف القطر بصورة جيدة . كان عثمان باشا قد نقل قبل مدة من منصب والى (فريق أول) الحبشة ، ويقيم فى القاهرة فى انتظار تعيينه الجديد . كلف والى مصر قوجا سنان باشا بإخماد عصيان اليمن كقائد أعلى (سردار) (١٥٦٨/٨/١٥) ، ورفعت رتبته إلى درجة وزير (مارشال ، مشير) . خصص قائد الهند قورد أوغلو خير الدين خضر رئيس ، مع ١٧ سفينة حربية لأمر عثمان باشا . جاء عثمان باشا بأسطول من السويس إلى جدة . أنزل خيالته فيها وساقهم برا إلى اليمن . وسار هو وجنوده المشاة عن طريق البحر ونزلوا فى الأراضى اليمنية عن طريق ميناء حديدة . احتل تعز التى كانت قد انتقلت لحوزة الزيديين قبل ١٠ أشهر . أما سنان باشا ، فقد سار بجنده من القاهرة فى ١٥٦٩/١/٥ عن طريق البر واجتاز الحجاز ، عسير ، اليمن وجاء إلى المناطق الجنوبية من القطر .

دب الخلاف منذ المقابلة الأولى بين القائد والوالى،بين سنان باشا وعثمان باشا . وقد كان بينهما أساساً نفور متبادل . كان عثمان باشا من رجال والى الشام السابق لالا مصطفى باشا الذى كان عدوا لدودا لسنان باشا . وكان سنان باشا ، من رجال الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا ، وكان يعتمد عليه . كان لالا مصطفى باشا من أسرة صوقوللو (صوقوللو ــ زاده) . لكنه كان يأمل إسقاط ابن عمه صوقوللو محمد باشا ويحتل منصبه هو . كان هناك نزاع عنيف بينهما وهما من أسرة صوقوللو . سيسرى هذا النزاع من استانبول إلى اليمن ، إلى مصر ، إلى بودين وقفقاسيا .

كان العلماء معارضين لصوقوللو . إذ إنه كان بمثابة الوزير الدكتاتور . كان يستفيد من ترك سليم الثانى كامل أمور الدولة إلى الحكومة . وكان المعروف أن سليم الثانى لايكن محبة متزايدة لصهره صوقوللو ويحب مودبه (لالا) السابق مصطفى باشا . لكنه كان عازما على عدم إظهار مشاعره هذه ومزجها بأمور الدولة ، وظل هذا شأنه إلى النهاية . حاول جهده الحيلولة دون سحق صوقوللو منافسيه ، ولم يفكر فى عزله . إذ إن صوقوللو كان ملتزما من قبل صنف الجيش الموجود فى استانبول المسمى حاميات قابوقولو ، وخاصة من قبل الانكشارية الذين هم أقدر هذه الحاميات . كان الوزير ٣ وثم ٢ داماد بياله باشا ، قد تزوج بابنة سليم الثانى الثانية . كان ينفر من صوقوللو ، لكنه لم يكن يظهر ذلك أبدا . كان يأمل أن يتصدر تلقائيا فى حالة وفاة صوقوللو . أما لالا مصطفى باشا ، فكان قد قدم خدمات جمة إلى سليم الثانى ويمكن أن يقال بأنه ضمن له العرش ، ويسر له أن يتغلب فى نزاعه مع إخوته ، أذكى وأمكر رجل فى عهده . أما عثمان باشا ، فإنه أعظم جنرال فى عهده . كان يحاول أن يقى نفسه من عداء سنان باشا المخيف معتمدا على دهائه العسكرى ومستندا على لالا باشا .

جاء أوزدمير أوغلو عثمان باشا إلى استانبول على أثر عزله من وظيفته كوال على اليمن من قبل سنان باشا وتعيين حسن باشا مكانه ، تاركا جنده لسنان باشا ، للتعرف على أوامر الديوان . تمكن لالا مصطفى باشا مستفيداً من تأثيره على السلطان ، من إنقاذ عثمان باشا أكبر عسكرى وزير فى القرن ١٦ من غضب صوقوللو بصعوبة ، حيث قد اتهم عثمان باشا بترك جنده ، وطلب إعدامه . قال

للبادشاه : « سيدى السلطان : إن عبدكم عثمان باشا أكسب دولتكم العلية الأقطار كالسودان ، الحبشة واليمن ، أوزدمير باشا هو ابن العبد المخلص لوالدكم طيب الله مثواه في الجنة ، سلك درب أبيه وحصل على مكاسب كثيرة فى اليمن ، لاشك أنه يليق بعفوكم » . أمر الخاقان صوقوللو بتعيين عثمان باشا واليا على إيالة البصرة ، وحذره من إصابة عثمان باشا بأى ضرر . بقى عثمان باشا الذى ذهب إلى إيالة البصرة التى تشمل عدا العراق ، شرق الجزيرة العربية وكامل الساحل الغربى لخليج البصرة ، وبقى إلى حين بعيدا عن مؤامرات استانبول السياسية . كان قد ذهب إلى قطر يعرفه جيدا ويجيد لغته ويستطيع فيه أن يظهر قدارته العسكرية .

من ناحية أخرى ، استرجع سنان باشا اليمن من الأمام وساق الزيديين من الشمال إلى بحر عمان فى الجنوب . وجاء قورد أوغلو خضر رئيس بأسطوله واسترجع عدن من الزيديين (١٥٦٩/٥/١٥) . انتهت حركات اليمن باسترداد صنعاء فى ٢٦ تموز (١٥٦٩) . كانت قد بقيت لدى الإمام مطهر قلعة كوكبان . تم الاستيلاء عليها كذلك (١٥٧٠/٥/١٨) . تعهد الإمام بطاعة الخليفة . ورغم سفك دماء عثمانيين كثيرين ، لم يمس بسوء بسبب هويته الدينية . وخشى كذلك من ثورة الشعب الزيدى . كان الزيديون الذين هم شيعة معتدلون ، يعيشون مع السنيين على قدم المساواة . ولكن كان من الخطر ترك اليمن لإدارة الزيدية ؛ إذ إن البرتغاليين سيحتلونها فور انسحاب الجيش العثمانى . جاء بهرام باشا إلى زبيد (١٥٧٠/٥/٢١) . وكوال (فريق أول) أخذ عهدا من الأشراف ومن بينهم شيوخ حضرموت . كان يعرف البلاد بصورة جيدة ويجيد التكلم بالعربية حيث إن والده قرة شاهين باشا وكذلك أخيه الكبير رضوان باشا كانوا ولاة على اليمن . حكم اليمن بدراية تامة لمدة ٧ سنين .

أما سنان ، فقد أركب جنوده سفن الأسطول من مخا وغادر اليمن (١٥٧١/٣/١) . كان قد ترك القاهرة قبل ٢ سنة و ٢ شهر ، وبقى فى اليمن ١ سنة و ١٠ أشهر . صعد إلى البر فى جدة . حج . اجتمع بأمير مكة أبو نمى . انشغل فى الحجاز بالأمور الإدارية وجاء إلى استانبول . دخل إلى الديوان الهمايونى ، إلى حكومة الإمبراطورية العثمانية كوزير ٧ وأخير . أما الوزير ٦ ، فكان خصمه اللدود لالا مصطفى باشا .

٣) حملـة أندونـيزيا (١٥٦٨ ــ ٦٩)

أسرة قورد أوغللرى ، هى إحدى الأسر التركية البحارة الشهيرة فى القرن ١٦ . إن قائد الهند قورد أوغلو خضر خير الدين رئيس الذى حقق حملة أندونيزيا ، هو ابن مصلح الدين رئيس ، قائد الأسطول فى محاصرة القانونى لرودس سنة ١٥٢٢ ، الذى سمى ابنه باسم زميله بربروس خير الدين باشا .

كانت توجد فى سومطرة فى ذلك القرن ، ملكية آجه Açe المحلية المسلمة . دامت هذه الدوله من ١٥١٤ إلى ١٩٠٣ . تسلط البرتغاليون على هذه المناطق أيضا . بدأوا بإعاقة الأمور البحرية للآجيين . كان الجالس على العرش ، علاء الدين رعايت شاه قهار (١٥٣٧ ــ ١٥٦٨) الحاكم ٣ لآجه . وهو الذى طلب المساعدة من العثمانية . لكن كان الجالس على العرش خلال حملة أندونيزيا ، حسين شاه (١٥٦٨ ــ ١٥٧٥) .

كان قد مضى ٣٠ سنة على حملة الهند التى جرت فى ذات الموسم الذى جرت فيه حملة بروزة لسليمان باشا ، و ٧٠ سنة على وصول أول سفينة برتغالية جلبت بضاعة من الهند ، إلى أوروبا فأصابت البندقيه بالقلق خوفا على تجارتها .

لم يكن الحكام المسلمون فقط هم الذين يطلبون المساعدة من استانبول ، وإنما بدأ الحكام الهندوس كذلك . فمثلا ، كان اثنان من راجات سيلان والبنغال قد أرسلا رسالتين إلى استانبول ، يذكران فيها أنه فى حالة مساعدتهما عسكريا وتكنولوجيا ، فإنهما سيعترفان بالبادشاه متبوعا لهما ويقران الدين الإسلامى . أرسل السلطان سليمان مساعدات تكنولوجية إلى خاقانات وخانات تركستان كذلك . أرسل مدافع ، بنادق وعسكريين فنيين .

فكر السلطان ياوز سليم فى فتح قناة السويس واعادة الحركة لطريق البحر الأبيض . وبذلك سوف تقل الرغبة فى طريق رأس الرجاء الصالح الطويل جدا . لكن وافاه الاجل . والقانونى كذلك كان قد أمر الوزير الأعظم سميز على باشا ببحث موضوع القناة . وقد أخذ مشروع القناة بعين الاعتبار فى عهدى كل من سليم الثانى وابنه مراد الثالث ، ولم يتحقق ، فقد أصر قائد القوات البحرية قيليج على باشا على

ذلك ، عارضه صوقوللو محمد باشا . وربما كان ذلك لأن العثمانية كانت أغنى دولة فى العالم ، ولم تتمكن آسيا التى لاحظت غناء أوروبا الذى يفوق التصور لغاية أواسط القرن ١٨ ، من اتخاذ التدابير اللازمة ، ولم يتيسر إدراك قرب انتقال تفوق عالم البحر الأبيض الذى يرقى عهده إلى ٢٠٠٠ سنة ، إلى غرب البحر الأبيض .

كان السلطان سليمان قد أرسل مساعدة إلى آجه قبل قورد أوغلو خضر رئيس . وعلى سبيل المثال ، أرسل لطفى بك كسفير وأرسل معه ٨ من المدفعيين وعدة مدافع . أخذ سلطان آجه الهدايا ، قائلا : إنه عبد الخليفة المخلص ، وإنه سيعامل أى جندى يرسله ، معاملة الأمير ، وطلب مساعدة على نطاق أوسع . أرسلت إليه عدة مساعدات أخرى بأساطيل صغيرة . وأصبحت آجه بهذه المساعدات على مر الزمن ، صاحبة حصة عثمانية كبيرة . وفى حملة ملقة ١٥٦٧ ، كان تحت إمرته ٤٠٠ جندى بحرى عثمانى (لوند) (Menez Pinto Les Voyages ، باريس ١٦٢٨) . إن وفاة القانونى فى الوقت الذى قرر فيه تقديم مساعدة كبيرة ، واستبقاء الأسطول بسبب قضية اليمن ، أدى إلى تأخير المساعدة لعدة سنوات . وأخيرا ، أبحر قورد أوغلو من السويس فى ١٥٦٨ بـ ٢٢ قطعة من سفنه . سلم إلى السلطان مهمات تكنولوجية كثيرة ومئات من المتطوعين البحريين والمدفعيين . توسعت بذلك حدود الدولة العثمانية إلى الشرق الأقصى إلى جنوب شرق آسيا وإلى أندونيزيا . اعترفت دولة آجه التى تحكم شمال سومطرة وماليزيا ، بالعثمانية متبوعا لها . منح الأتراك القادمين مراتب عالية . أعطيت لهم قيادة الأسطول . قام الآجيون بواسطة هذا الأسطول بفتوحات مهمة . وهناك من هؤلاء الأتراك الذين تزوجوا بالنساء الآجيات من ارتقى إلى مرتبة الإمارة . احتفظ شعب آجه بالمدافع والأعلام التركية كذكرى مقدسة حتى يومنا هذا . واليوم يقول كثير من أهالى آجه بأنهم أحفاد البحارة الأتراك ، لكنهم نسوا التكلم بالتركية (ولمزيد من التوسع راجع الوثائق الأرشيفية العثمانية الرسمية فى سجل الوقائع اليومية للديوان الهمايونى Dîvân-Hümayûn Mühimme defteri ، انظر العقيد (ميرالاى) البحرى صفوت بك ، Bir Osmanli Filosunun Sumatra Seferi, TOEM no.10,11 .) لقد دحرت بدرجة كبيرة المساعدة العثمانية التعرض البرتغالى فى أندونيزيا ـــ ماليزيا .

٤) حملة استراخان (١٥٦٩)

إن إمارة (خانلق) استرخان Astirhan (أجدرخان Ejderhan، استراخان Astrahân) هى دولة تركية يترأسها أمراء من أسرة جوجى أولوصو المنتسبة إلى بنى جنكيز ، وإحدى الدول التى تشكلت من أنقاض دولة الطون أوردى .. كانت الدولة فى أواخر عهدها تابعة للعثمانية . لكن روسيا احتلتها فى ١٥٥٦ وسيطرت على دلتا الفولغا ، وكان القطر عند القيام بحملة استرخان ، تحت الحكم الروسى منذ ١٣ سنة .

كان هدف الحملة استرداد الإمارة القديمة وأكثر من ذلك ، فتح قناة بين نهرى الدون والفولغا وتأمين المرور بين البحر الأسود والخزر بصورة متقابلة والوصول إلى تركستان عن طريق البحر . لو حفر طريق طوله ٥٠ كم من الموقع الذى ينعطف فيه النهران ، فسوف يمتلىء الطريق بالماء . وهكذا كان بالإمكان تأمين طريق نهرى طوله ٩٥٠ كم بين الميناء التركى Azak(Rostov) الواقع على بحر آزوف Azak واسترخان الواقعة على بحر الخزر . توجد حاليا مدينة فولغاغراد (قديما جارستان وحاليا ستالينغراد) فى الموقع الذى يقترب فيه نهر الفولغا (بالتركية : Idil) من الدون (بالتركية : Ten) على منعطف الفولغا . حفر الروس هذه القناة فى ١٩٥٢ ، وربطوا البحرين ببعضهما .

أمر سليم الثانى (Dîvân-Hümayûn Mühimme Defterleri ، ٧ ، ٩٤٨) باسترداد إمارة قزان التى كانت فيما مضى تابعة للعثمانية من الروس . وعلى الرغم من أن عملا كهذا كان مهما جدا .. يقتضى ذهاب البادشاه أو على الأقل الوزير الأعظم ، فإن صوقوللو محمد باشا لم يكلف أحد الوزراء ، وإنما كلف مستشار المالية جركس قاسم بك الذى عينه واليا (فريق أول) على كفه . ولم يتمكن هذا من السيطرة لا على الجند ولا على جيش العمال ولاعلى خان قرم . تصرف خان قرم بطريقة تؤدى إلى تمييع هذا العمل وعدم وصوله إلى نتيجة . كان يخشى من بقاء جنود البحرية والمشاة العثمانيين بصورة مستمرة فى حالة فتح القناة وأخذهم قرم من سلالة كيراى إذا اقتضى الأمر .

تحرك الأسطول لحملة استرخان من استانبول (١٥٦٩/٨/٤) ، ودخل ميناء

آزاك (روستوف) أى إلى مصب نهر الدون . بدأ ٨٠٠٠ انكشارى ، أكثر من ٢٠٠٠٠ سباهى تمارلى و ٣٠٠٠٠ عامل فى حفر القناة اعتبارا من آزاك . أما خان قرم دولت كيراى فإنه دخل مع ٣٠٠٠٠ من خيالته استرخان (١٥٦٩/٩/١٢) . ورغم سرية المدفعية العثمانية فقد رفع حصار القلعة بعد ٨ أيام ، وبناء على ذلك تعذر أخذ قلعة المدينة من الروس . جدير بالذكر أن القراميين غزاة وصاعقة ينفرون من محاصرة القلاع لأنها عملية شاقة وتستدعى خسائر كثيرة . من الواضح أن روح اللامبالاة التى أحاطت بالعملية لم يكن يتوقع معها أى نجاح للعملية .

لقد كانت عملية مهمة ؛ لأنها تجتاج السدين:الإيرانى والروسى ، وتربط تركية بتركستان ، ومع ذلك فقد توقفت . أوقفت الأعمال فى القناة بحجة هجوم البرد . إن قصد خان قرم ومبلغ فزعه من العثمانية يظهر من كلامه التالى :

« عندما تبدأ جنود العثمانية بالقدوم إلى الأراضى القبجاقية وشيروان (أوكراينا وشمال آذربيجان) سوف لاتبق هناك قيمة للتتر ويحتمل أن تذهب قرم من أيدينا ! » .

ألقى سليم الثانى مسئولية عدم التوفيق فى هذه العملية على عاتق صوقوللو بهذه الكلمات : « يقتضى تغريمك كافة المصاريف والأضرار ! » لقد كان تشخيص العثمانية للخطر الروسى فى هذه الفترة وحتى بعدها بوقت طويل .. قاصراً ؛ فقد كان ينظر إلى موسكو على أنها دولة من الدرجة الثانية تسدد ضريبة سنوية للعثمانية . أما قرم فإنها لم تفكر فى هذا الخطر أبدا (لأجل تدقيق الوثائق العثمانية الرسمية عن المعلومات حول هذه القناة ومحاولة فتح استرخان وقزان ، انظر أحمد رفيق ، Bahr-i Hazar-Karedeniz Kanali ve Ejderhan Seferi, TOEM, No. 43) .

٥) حملة قبرص (١٥٧٠ ــ ٧١)

انتقلت جزيرة قبرص التى أخذت فى الحملة الصليبية الثالثة من البيزنطيين والتى اسس فيها ملكية كاثوليكية لاتينية وجىء بأسرة Lusignan الفرنسية لرئاستها .. إلى حوزة البندقية وأصبحت مستعمرة بندقية . ولكون الشعب القبرصى رومى الأصل ، فقد عامله الإيطاليون الذين تلو الفرنسيين معاملة الكلاب . قامت مصر (المماليك)

فى ١٤٢٤ بمحاولة جدية لفتح الجزيرة . احتل الأسطول المملوكى الذى أنزل الجنود فى ميناء Limasol (بالتركية : ليماسون) Magosa (بالتركية : ماغوسا) ، وأسروا الملك Janus وأرسلوه إلى القاهرة . أصبحت قبرص تابعة للسلطان المملوكى وتدفع ضريبة سنوية . وعندما انتقلت الجزيرة لادارة البندقية ، أخذت البندقية كذلك فى تسديد هذه الضريبة إلى القاهرة . وبانتقال مصر إلى السلطان سليم فى ١٥١٧ ، أبلغت الجمهورية البندقية من تلقاء نفسها بأنها سوف تدفع ضريبة قبرص السنوية بعد الآن إلى استانبول .

لم تكن قبرص وكرا للقراصنة وبلية على المسلمين كجزيرة رودس فى حالة الصلح مع البندقية ، ولكنها كانت كذلك عندما تكون البندقية فى حالة حرب مع تركية ، لكن وجود مستعمرة لاتينية من بقايا الحروب الصليبية فى شرق البحر الأبيض ، كان شيئا قد مضى عهده . كانت تقطع طريق الأناضول ــ مصر البحرى . هذا عدا أنها كانت فى عهد الأمويين وبداية عهد العباسيين تشكل إحدى إيالات الامبراطورية الإسلامية ، ثم انتقلت لحوزة البيزنط ، ومازال بقبرص أماكن إسلامية مقدسة من بقايا عهد الحكم العربى .

نشأت فكرة فتح قبرص عند سليم الثانى . كان صوقوللو معارضا . كان الأميرالات يضغطون على البادشاه لتحقيق ذلك ويبحثون عن محاذير بقاء مستعمرة أوروبية فى شرق البحر الأبيض . كان خروج السلطان والوزير الأعظم فى حملات عبر البحار ممنوعا فى النظام العثمانى . كان صوقوللو يخشى من وزير يفتح قبرص فيحصل على شهرة فينافسه . وفى الوقت ذاته ، كان يقول : إن محاولة كهذه سوف لاتقتصر على حرب عثمانية ــ بندقية وإنما سوف تجر إلى حرب أوروبية جديدة .

قام الوزير داماد بيالة باشا بواسطة التشكيلات السرية العثمانية بعملية تدمير واسعة فى ميناء ومصنع السفن البندقى . شب حريق كبير ، استولى الذعر على الناس ، احترقت سفن كثيرة فى الميناء وفى المصنع ، انتبه مجلس السناتوف البندقية اتضح أن الهدف هو قبرص . ذهب أسطول مسيحى مكون من ٢٠٤ قطعة إلى المياه القبرصية لحماية الجزيرة . رتب الديوان لقبرص أكبر عدد من السفن لم يسبق أن تجمع حتى ذلك التاريخ دفعة واحدة ، خصص لهذه العملية ٤٠٠ . جاء أسطول الاستطلاع لمراد رئيس إلى مياه قبرص فى شهر آذار وفى شهر

أيار ، سار الوزير ٣ داماد بيالة باشا بالقسم الأعظم من الأسطول الهمنايونى من استانبول (١٥٧٠/٥/١٥) . ولكون قائد القوات البحرية وناظر البحرية مؤذن ـــ زاده على باشا جنرالا بالأصل وليس أمير بحر ، عين للقيادة بيالة باشا . أما الجيش البرى فقد تولى قيادته الوزير ٦ لالا مصطفى باشا وسوف يكون هو المسئول عن فتح الجزيرة . وبذلك يكون قد كلف لفتح قبرص ١ أميرال ـــ كبير ، ١ مارشال (مشير) ٣ فريق أول بحرى و ٧ فريق أول . الفرقاء الأول البحريون هم ناظر البحرية على باشا ، بربروس ـــ زاده حسن باشا وأولوج على باشا . كان الأسطول يحتوى على ١٠٠٠٠٠ شخص ؛ ٦٠٠٠٠ منهم جنود مشاة والبقية بحرية وجدافة . دخل الأسطول ميناء ليماسول (١٥٧٠/٧/١) وجرت عملية الإنزال فى اليوم التالى .

إن أقرب نقطة من قبرص إلى الأناضول ٧٠ ، إلى سورية ١٠٠ ، إلى مصر ٣٨٠ كم . وفى ٤ تموز جرى إنزال على ميناء لارنقة كذلك (بالتركية : طوزلا) . فتحت Kyrinia (بالتركية : كيرنة أو سرينية) فى ٩ تموز وبدأت محاصرة لفكوشة فى ٢٢ تموز . كان مركز الجزيرة لفكوشة ، لكن أقوى القلاع تحصينا كانت ماغوسا . كانت حامية لفكوشة ١٠٠٠٠ جندى بندق و ١٥٠ مدفعا . فتحت لفكوشة فى الهجوم العام الثالث بعد ٤٩ يوما (١٥٧٠/٩/٩) ، قتل والى عام قبرص Nicolo Dandolo وبعد فترة قليلة استسلمت باف ، ليماسول ولارنقة . عين لالا مصطفى باشا ، والى شهرزور السابق مصطفى باشا واليا على قبرص واستبقاه فى لفكوشة مع ٢٠٠٠ جندى وجاء أمام ماغوسا .

كان ٥ جنرالات بندقيين يقومون بحماية ماغوسا المحصنة جدا ، ومعهم ٧٠٠٠ من جنودهم و ٧٥ مدفعا (Von Hammer ، ٦ ، ٤٠٨) ، لكنها تسلمت فى هذه الأيام ١٦٠٠ جندى وكمية كبيرة من المهمات . عاد بيالة باشا إلى استانبول فى ٦ ت١ (١٥٧٠) وفى ٤ آيار ١٥٧١ ، غادر استانبول الوزير ٢ برتو باشا (الذى لم يكن أميرالا وكان عسكريا بريا) وعين « قائدا للأسطول » « دونانمه سردارى » كان بيالة باشا . وهذه إحدى ترتيبات صوقوللو الغريبة التى تدل على نفوره من البحريين . أبحر برتو باشا مع قائد القوات البحرية مؤذن ـــ زاده على باشا ، مع ٤٠٠ قطعة من الأسطول الهمايونى إلى إيطاليا ، وحالوا دون قدوم المساعدات إلى

قبرص بنجاح . وفى الوقت الذى كان فيه الأسطول يقوم بإنزال على صقلية ، كان لالا باشا مستمرا فى حصار ماغوسا وكان قد استبقى تحت إمرته ٤٠ سفينة فقط . كان باقى الأسطول قد انتشر فى مياه إيطاليا وبضمنه أولوج على باشا وبربروس — زاده حسن باشا .

سقطت ماغوسا فى الهجوم (بالعثمانية : يورويوش) ٦ (١٥٧١/٨/١) وتم فتح قبرص فى غضون ١٣ شهراً . تكونت الإيالة الجديدة بإضافة ٤ ألوية (علائية = آلانية ، إيچل = سلفكة ، طرسوس ، سيس = قوزان) من الأناضول . تم إسكان عدو كبير من الأتراك الأناضوليين فى الجزيرة . وبينما كان تعداد قبرص التى يسميها الاتراك « يشيل أده » (أى الجزيرة الخضراء) عند الفتح ١٢٠٠٠٠ (روضة الأبرار ، ص ٤٥٠) زادت إلى ٣٦٠٠٠٠ .

منحت العثمانية لرئيس الأساقفه الأرثوذكسى كافة الصلاحيات وأعطته الصلاحيات المدنية بالنسبة للجماعة الرومية ، ولم تكن لرئيس الأساقفه هذه الصلاحية فى العهد البندق . غنم الأتراك المدافع الموجودة فى الجزيرة وعددها ٧٦٠ مدفعا .

بقى « فاتح قبرص » لالا مصطفى باشا فى الجزيرة مدة مجموعها ١ سنة ، ١/٥ شهر . أما الحملة فقد استمرت نحوا من ١/٥ سنة . غادر لالا باشا الجزيرة فى ١٥ أيلول (١٥٧١) (Hammer ، ٦ ، ٤١٧) .

٦) هزيمة اينبختى Inebahti (١٥٧١/١٠/٧)

عقد البابا فى ٢٥ آيار ١٥٧١ معاهدة الاتفاق ضد العثمانية مع ملك أسبانيا ، دوج (رئيس جمهور) البندقيه وضموا إليها بعض الدول الصغيرة كذلك . هذا هو الاتفاق ١٣ الموجه ضد تركية منذ تأسيس الدولة العثمانية (Hammer ، ٦ ، ٤٢٠ — ١) . ذكر البابا بيوس ٥ فى الكتاب الذى حرره إلى ملك أسبانيا فيليب — ابن شارل — كوينت — المؤرخ ١٥٧٠/٣/٨ مايلى : « لاتوجد فى العالم المسيحى أية دولة مسيحية يمكنها أن تقف لوحدها تجاه العثمانية . وبناء على ذلك يجب على كافة الدول المسيحية أن تتحد لتكسر الغرور التركى . » .

كانت أجهزة المخابرات التركية فى البندقية وروما قد أبلغت الديوان الهمايونى خبر

معاهدة الاتفاق عندما كانت فى مرحلتها التحضيرية ، على بساط الفاوضات . وفى سنة ١٥٧٠ وصيف ١٥٧١ كان الأسطول الهمايونى قد فتش عن الأسطول الصليبى ولم يعثر عليه ، ولعل ذلك يؤكد أن العثمانية لم تكن غافلة .

كان قائد الأسطول الوزير ٢ برتو باشا ، قد تسلم أمر العثور على الأسطول الصليبى وإبادته ، وكان الديوان قد أعطى الأمر القطعى ذاته إلى قائد القوات البحرية . لكن كلاً من برتو باشا أو مؤذن ــ زاده على باشا ، كانا قائدين لم يركبا السفن إلا حديثا وقضيا حياتهما كجنرالين فى القوة البرية . ومع أن الأسطول التركى فى البحر الأبيض يبلغ نحو ٤٠٠ سفينة ، لكنها توزعت عند حلول الخريف إلى قواعد مختلفة . أما السفن الـ ١٨٤ التى تشكل القسم الكلى ، فهى بإمرة برتو باشا ومؤذن ــ زاده على باشا ، فقد جاءت إلى قاعدة اينبختى (Lepanto) . ذهب عدد غير قليل من الضباط بإذن أو بدون إذن إلى هنا وهناك لقضاء الشتاء . ويظهر كذلك إن الجنرالين لم يتمكنا من السيطرة على الأسطول وضبطه . وهناك عدد كبير من السفن كانت تحتاج إلى إصلاح وأودعت مصنع التصليح فى إينبختى بسبب سيرها مدة طويلة . اينبختى Inebahti ، وهى ميناء عثمانى فى اليونان على خليجى باتراس ــ كورنثوس ، الساحل المواجه لها مورا وميناء Patras (بالعثمانية : باللى بادرا) .

كان الأسطول الصليبى (أرمادا) يحتوى على ٢٩٥ سفينة و ٣٠٠٠٠ جندى ، ١٦٠٠٠ جداف (فورسا) و ٢٠٨ من السفن الحربية (قادرغه) ؛ ١١٤ منها بندقية و ٧٠ أسبانية و ١٢ بابوية و ٦ مالطية و ٣ جنوية و ٣ سافوائية . كان القائد العام أخو فيليب الثانى Don Juan « وهو ابن الإمبراطور كارلوس الثانى ابن زنى » (كاتب جلبى ، تحفة الكبار ، ص ٩٢) ، أى أنه كان ابنا غير شرعى . كان قائد الأسطول البندقى الأميرال ــ الكبير Veniero ، والأسطول البابـوى الأمير Marco-Antonio Colonna . ويقود الأسطول الأسبانى Giovanni Andrea Doria الذى هزم فى جربة أمام بيالة باشا . كان الأميرال ــ الكبير لصقلية Cordona على رأس ٨ قطع من الأسطول الطليعى . كان الاميرال ــ الكبير لنابولى Marki Bazzano على رأس أسطول الاحتياط المكون من ٣٠ قطعة . ويحتوى الأسطول على أميرالات مشهورين بينهم دوق Parma ، أميرال ــ كبير جنوة دوق Urbano ، أميرال ــ كبير كاستيليا ، صهر ملك البرتغال ولى عهد بارما Alessan dro

Farnese ، أميرال ــ كبير مالطة Guistiniani) Hammer ، ٦ ، ٤٢٢ ــ ٥) .

كان الأسطول التركى يحتوى على ١ وزير (مارشال ، الوزير ٢ برتو باشا) ، ٤ فريق أول بحرى (قائد القوات البحرية مؤذن ــ زاده على باشا ، والى الجزائر ألولوج على باشا ، والى طرابلس الغرب جعفر باشا وبربروس ــ زاده حسن باشا الذى كلف بواجب المستشار لبرتو باشا) ، ١٥ لواءً بحرياً ، ونحو ٢٠٠ قائد سفينة (قبطان) . كان حسن باشا الذى يعيش أشهره الأخيرة فى الـ ٧١ ، وألوج على باشا فى الـ ٦٤ سنة من عمره . كان بين الألوية البحريين صالح باشا ــ زاده محمد بك ، بربروس ــ زاده محمود بك ابن حسن باشا المولود من ابنة طرغد باشا . كان جميع الجدافة الموجودين فى الأسطول التركى على الإطلاق من المسيحيين . كان هذا الأمر عنصرا مهما . إن كثيراً من الضباط الذين شاهدوا السفن وقد ألقت مراسيها فى إينبختى لقضاء الشتاء وتوقعوا أن العدو لايهجم فى هذا الموسم ، انفصلوا عن سفنهم ، وفضلا عن ذلك كان هناك نقص فى الجدافة (بجوى ، ١ ، ٤٩٦ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٢٨ ؛ سلانيكى ، ١٠٥ ؛ تحفة ، ٩٢) .

وعلى أثر اقتراب العدو ، جمع برتو باشا فى سفينته الأميرالية ١٩ أميرالا ٤ منهم فرقاء أول (بكلربك) و ١٥ منهم ألوية (سنجق بك) ، وعلى أثر اختلاف الرأى وانقسامه إلى قسمين ، انفض المجلس الحربى دون قرار . كان الثقل فى جانب برتو باشا ومؤذن ــ زاده على باشا ، إذ إن كليهما كانا مسئولين أمام الديوان . كلاهما لم يكن من البحرية . اقترح أمراء البحر الحقيقيون تكتيكا مغايرا وأصروا عليهم وخاصة أولوج على بك ، ولكنهم لم يفلحوا فى إقناع برتو باشا ومؤذن ــ زاده على باشا . أراد الأميرالات عدم دخول هذه المعركة إلا بعد قصف قطعات العدو بمدافع القلاع وإتلافها ومن ثم تعقبه . وعندما أفاد برتو باشا وعلى باشا بأنهما استلما أمر الهجوم بصورة مؤكدة ، أجابوا بوجوب الخروج إلى البحار المفتوحة . أفاد الباشوات بأنهم سوف لن يبتعدوا عن الساحل . اكد قائد القوات البحرية خاصة أنه هو المسئول عن الأسطول وكرر ذلك مرارا ، إن عباراته التالية التى تدل على جهله أصبحت فى ذمة التاريخ : « أى كلب هو ذلك الكافر حتى نخافه ؟ » (سلانيكى ، ١٠٤ ؛ « إننى لاأخشى على منصبى ولا على رأسى ، أن الأوامر الواردة من الديوان تشير إلى الهجوم » (بجوى ، ١ ، ٤٩٦ ــ ٧) ؛ « لاضير من

نقص خمسة أو عشرة أشخاص من كل سفينة .. ألا توجد غيرة على الإسلام ، ألا يصان شرف البادشاه ؟ » (منجمباشى ، ٣ ، ٥٢٨ — ٩) . ولم يجد صياح أولوج نفعا إذ قال « أين الذين حاربوا مع خير الدين باشا وطرغدجه باشا ، لماذا لايتكلمون ، هل يمكن أن تكون حرب بحرية فى ساحل ؟ » (تحفه ، ٩٣) .

جرت حرب إينبختى (Lepanto) إحدى أكبر الحروب فى التاريخ ، بشكل دموى رهيب . استشهد قائد القوة البحرية مؤذن — زاده على باشا وابنه ، وأسر الأسبان ابنه الآخر . قتل الأميرال البندق Barbarigo . غرقت سفينة الأميرالية لبرتو باشا وشدت إلى الساحل بتضحية كبيرة وأنقذت . كان أولوج على بك يقود الجناح الأيمن . لم يفقد أية سفينة حربية من سفنه البالغ عددها ٤٢ . أباد كامل الأسطول المالطى الذى جابهه . قتل الأميرال — الكبير المالطى واغتنم رايته . استصحب بربروس — زاده حسن باشا وابتعد عن ساحة القتال . حيث لم تعد ترجى فائدة من المركز والجناح الأيسر العثمانى .

إن كشف خسائر الحرب كان مخيفا لكلا الطرفين . ١٤٢ سفينة تركية بين غريقة وجانحة على الأرض أو مستولى عليها . استولى العدو على ٦٠ سفينة ، اقتسمت بين دول الاتفاق ، كما استولى على ١١٧ مدفعا كبيرا و ٢٥٦ مدفعاً صغيرا صالحة للاستعمال خرجت من هذه السفن . تم تخليص ٣٠٠٠٠ من الأسرى الجدافة المسيحيين الذين كانوا فى الأسطول الهمايونى . سقط آلاف من الأتراك شهداء و ٣٤٦٠ أسيراً . كان مجموع الشهداء والأسرى الأتراك يقارب ٢٠٠٠٠ . كانت خسائر المسيحيين ٨٠٠٠ قتيل ، ٢٠٠٠٠ جريح ، وقليلا جدا من الأسرى (Hammer ، ٦ ، ٤٢٩) . لم تبق تقريبا سفينة حربية أو ناقلة مسيحية غير مصابة . فقد Cervantés كاتب دون كيشوت – الذى كان قد عاش سنين طويلة فى الجزائر كأسير لدى الأتراك – ذراعه اليسرى . جرح أيضا القائد Don Juan .

كان ٣ من أسرى الأتراك برتبة لواء بحرى وأحدهم ابن قائد القوات البحرية . حاز المسيحيون على ٣ شارات رأس لبرتو باشا ، راية مؤذن – زاده الحريرية المطرزة بالذهب (أعاد البابا هذه الراية إلى تركية فى ١٩٦٥ كرمز للصداقة) .

لم تكن خسارة العثمانية الحقيقية خسارة مادية وإنما كانت خسارة معنوية . زالت شهرة العثمانية بأنها دولة « لاتقهر » ، وثبت فعليا إمكان قهرها . كانت تركية حقا

هى المنتصرة فى حرب البندقية ، ولم تكن إينبختى سوى حرب واحدة ضمن تلك الحروب ، لكنها كانت حربا ذات مغزى كبير . رقصت أوروبا فرحا .

« أثبتت إينبختى بأنه يمكن قهر الأتراك . ولكن لونظرنا إلى نتيجة الحرب كما كتبها فولتير فى Essai Sur les Moeurs لاعتقد المرء بأن الأتراك هم الذين انتصروا فى إينبختى » . إن هذا الانتصار لم يحقق للمسيحيين والدول المسيحية أدنى مكسب ، فهذه الهزيمة أفادت العثمانيين من حيث إثبات أنهم أمة على درجة من القدرة والرفاهية ، فهم قد شيدوا عددا من السفن يعادل مافقدوه فى اينبختى ، وجهزوها وأثثوها وأنزلوها فى البحر الأبيض خلال عدة أشهر .. ويعتبر هذا العمل من أسرع الأعمال التى سجلها التاريخ ، وفى الوقت الذى كان البنادقة يشيدون التماثيل فيه على شرف انتصارهم ، كان الأتراك يعملون فى مصانع سفنهم على قدم وساق وبجهد منقطع النظير ، لقد منح البادشاه قسما من أراضى حديقته الخاصة إلى المصنع لغرض إنشائه ٨ سفن ، وشيد الأتراك خلال شتاء واحد وهو الذى عقب إينبختى ١٥٣ سفينة حربية وجهزوها وهى أكثر من التى فقدوها فى إينبختى . وبذلك يكون الأسطول التركى قد فاق عدد مجموع سفن دول الاتفاق . وأساساً فإن المعاهدة التى عقدت مع البندقية صريحة جدا ، وهى تبين من هو المنتصر فى الحرب . إن انتصار اينبختى لم يجد نفعا للمسيحيين (Von Hammer ، ٦ ، ٤٣٠ – ٣) .

ولتقوية الروح المعنوية لشعب إستانبول ، استصحب أولوج على باشا صديقه بربروس – زاده حسن باشا مع القطع البحرية الموجودة فى بحر إيجة ، ودخل إستانبول بعد الهزيمة بشهرين ، ١٣ يوما مع أسطول كبير يتألف من ٨٧ سفينة حربية . مثل الأميرال بين يدى سليم الثانى ، وبدل اسمه إلى « قيليج على » (على القاطع أو على السيف) . تمت ترقيته من منصبه إلى قائد القوات البحرية وناظر البحريه . وهكذا دخل بين أعضاء الديوان بحار صلب لايستريح له صوقوللو أبدا . لكن الوزير ٢ برتو باشا ، أحال نفسه على التقاعد . سر صوقوللو لخلاصه من أحد منافسيه . أصبح بيالة باشا المكروه أكثر من صوقوللو وزيرا ثانيا . توفى بربروس – زاده حسن باشا بعد عدة أسابيع من عودته إلى إستانبول .

غادر قيليج على باشا إستانبول مع ٢٤٥ سفينة حربية (١٥٧٢/٦/١٣) . كانت خطة أسطول الحلفاء إنقاذ قبرص . لكنه كان قد قدم ضحايا كثيرة من السفن

وخاصة من البشر ، ولعدم امتلاكه مخزونا من الأطعمة لم يتمكن من الدخول إلى قبرص ، فاتجه إلى المياه التركية بعد أن ضمد جراحه بأمل الاستيلاء على مورا ومودن . لكن دون جوان ابتعد وذهب حينما شاهد قيليج على باشا قادما مع أسطوله ومتجها نحوه . إن تمكّن الأسطول التركى من تعويض خسائره خلال شتاء واحد خيب آمال إسبانيا والبندقية . اختلف دون جوان مع البنادقة أيضا وعاد إلى إسبانيا . مات البابا بيوس ٥ الذى كتب رسالة إلى الشاه الصفوى كما كتب إلى الإمام الزيدى فى اليمن يدعوهما للتحالف (١٥٧٢/٥/١) .

عقدت معاهدة إستانبول بين تركية والبندقية (١٥٧٣/٣/٧) ، وهى تتكون من ٧ مواد من بينها ؛ تسدد البندقيه إلى تركية ٣٠٠ ٠٠٠ ليرة ذهب كغرامات حرب رمزية ، تزاد الضريبة السنوية لجزيرة زنتا Zenta الموجودة فى حوزة البندقية من ٥٠٠ ليرة ذهب إلى ١٥٠٠ . تبقى قبرص لدى تركية . تلقت البندقية – التى خشيت من احتمال هجوم قيليج على باشا على كريت – خبر الصلح بسرور .

تحرك قيليج على باشا بالأسطول من إستانبول فى السنة التالية (١٥٧٣/٦/٣) . كان الوزير ٢ داماد بيالة باشا موجودا كذلك . تم تدمير سواحل إيطاليا الجنوبية المشرفة على بحرى Adria و Tiren . كانت هذه الحملة التى جرت بواسطة ٢٢٠ سفينة حربية مقدمة لفتح تونس . لقد كان أخذ قبرص من البندقية بمثابة تعويض عن خسارة إينبختى ، وسوف تؤخذ بعدها تونس من إسبانيا .

(٧) فتح موسكو (١٥٧١/٥/٢٤)

سار خان قرم دولت كيراى فى ربيع ١٥٧١ بجيش مكون من ١٢٠ ٠٠٠ خيال أكثرهم من قرم ، وقسم منه جنود عثمانيون ، إلى روسيا . استصحب معه سرية مدفعية عثمانية . جرت هذه الحملة للتعويض عن هزيمة استرخان وتحذيرا للروس من محاولتهم التوسع أكثر . تشتت الجيش الروسى بعد أن خسر ٨٠٠٠ شخص ولم يتمكن من الدفاع عن موسكو . دخل الأتراك موسكو وأحرقوا المدينة . عاد الخان إلى قرم مع ١٥٠ ٠٠٠ أسير وعلى أثر انتصاره ، حصل على لقب « تخت – آلان » (كاسب العرش) . شاهد الأتراك الذين دخلوا موسكو فى ٢٤ أيار ١٥٧١

وأحرقوا حتى سراى الكرملين،فرارمعظم الأهالى وأسروا البقية . وفى ١٥٧٢ ، سار دولت كوراى بحملة ثانية . اجتاز نهر Oka ، لم يصعد إلى الشمال أكثر من ذلك . دفعت روسيا ضريبة سنوية قدرها ٦٠٠٠٠ ليرة ذهباً وعقدت صلحا مع قرم (d'Ohsson ، ٧ ، ٤٤٣ ؛ Lavisse - Rambaud ، ٥ ، ٧٤٩ ؛ Hammer ، ٦ ، ٤٤٦) . لقد أدى ترك القيصر إيفان (المدهش) الرابع ٣٠٠٠٠ خيال و ٦٠٠٠ جندى مشاة من حملة البنادق وفراره من موسكو واغتنام الأتراك خزينة القيصر الموجودة فى قصر الكرملن (هذه الكلمة تركية الأصل) ، ومقتل أخوى زوجة القيصر الإثنين ، كل ذلك أدى بسلالة Rurik إلى الانقراض . بارك سليم الثانى دولت كوراى بإرساله إليه سيفا مرصعا وخلعة وكتابا سلطانيا . لم يلتفت الديوان أبدا إلى سفراء الروس الذين جاءوا لإيقاف الغزوات القرامية ، وكان الشعب فى إستانبول حانقا جدا على الروس بسبب احتلالهم إمارات قزان وإسترخان . إن هاتين الإمارتين هما من أوائل الأقطار التى انتقلت لحوزة المسيحيين،وحاليا مسلمة ومازالت لدى الروس .

(٨) حملة تونس (١٥٧٤)

كانت مشكلة مسلمى الأندلس مستمرة بين العثمانية وإسبانيا ولاتزال تشكل جرحا بليغا وداميا وتعرقل الديوان عن عقد الصلح مع أكبر دولة مسيحية .

كانت إسبانيا فى حالة حرب مستمرة ، تزعم الثوار المسلمين فى الأندلس بالتسلسل ابن أمية ، عبد الله بن عبدو ومحمد منصور .

صعد جماعة الأندلسيين المحاربين إلى سفوح سيرانفادا ، ثم إلى ذراها ، ذبحهم دون جوان غالب إينبختى بصورة قذرة . حقيقة لقد تكبد الإسبان خسائر جسيمة ولكنهم لم يكن قد بقى لديهم مايخشون على ضياعه (١٥٦٩) .

اقترفت إسبانيا الظلم ذاته تجاه رعاياها البروتستانت الموجودين فى إسبانيا ، هولندا . وأشهر اثنتين من هذه المجازر البشرية هى ذبح كل سكان مدينة Harleem البالغ عددهم ١٥٠٠٠ نسمة فى ١٥٧٣ وتكرار الفعل ذاته فى ١٥٩٥ مع كل سكان مدينة Dullans البروتستانت البالغ عددهم ٤٠٠٠ نسمة Lavisse-Rambaud ، ٥ ، ١٣٠) .

استمر أولوج على باشا فى الاهتمام بقضية المهاجرين الأندلسيين عند تعيينه واليا (فريق أول) على الجزائر اعتبارا من ٢٧ حزيران ١٥٦٨ وحتى تعيينه ناظرا للبحرية وقائداً للقوات البحرية (قبودان دريا) . وكان قبلها قد قام بالولاية (برتبة لواء) على تلمسان لمدة طويلة ، ونقل مهاجرين أندلسيين على دفعات عديدة . وهو أحد الأميرالات من بقايا عهد الإخوة بربروس الذين قلوا كثيرا ، كما أنه خبير كبير بأمور المغرب والأندلس . أرسل سفنه الـ ٤٠ إلى ميناء Almeria (بالعربية : المرية) فى إسبانيا . وتمكن من توصيل قدر كبير من الأسلحة النارية إلى الثوار فى جبال الأندلس . أركب آلاف المهاجرين من الذين أمكنهم الاقتراب إلى الساحل .

اجتاز المياه المواجهة لوهران ودخل فاس مع ١٤٠٠٠ جندى تركى ، ٦٠٠٠٠ جندى عربى بربرى أكثرهم مهاجر أندلسى و ١٤٠٠ جمل محمل بالبارود وجاء أمام أسوار فاس .

تمكن عدة مئات من جنود البحرية الأتراك من النزول فى الأراضى الإسبانية مع أسلحتهم النارية ومن بينها المدافع ، والوصول إلى الثوار الأندلسيين والانضمام إليهم .

وفى ١٥٦٩ جرى إنزال على الأندلس على نطاق أوسع . عدة مئات من جنود البحرية ، دخلوا أعماق الأندلس ومعهم ٤٠٠٠ بندقية ومهمات أخرى وانضموا إلى الثوار .

ومن ناحية أخرى ، كان شعب مدينة تونس يعانى من أمرين ، ظلم الإسبان والحفصيين . جاء أعيان الشعب وممثلوهم إلى إستانبول أيضا وشكوا مصائبهم بعد استراحتهم فى الديوان (١٥٦٣) . كانوا يريدون قدوم العثمانية وطرد السلطان والحامية الإسبانية من مدينة تونس ، خاصة وأن التونسيين كانوا يشاهدون المدن وعلى رأسها مدينة الجزائر والموانىء الجزائرية قد اغتنت جدا بفضل مبيعات الغنائم التركية ، كما استقر فيها الأمن بشكل لم يسبق له مثيل من أية إدارة حتى ذلك التاريخ .

سار أولوج على باشا بعد أن ترك وكيلا عنه فى الجزائر ، على تونس بـ ٥٠٠٠ جندى تركى و ٦٠٠٠ عربى (أيلول ١٥٦٩) . ورغم أن السلطان الحفصى قابله بـ ٣٠٠٠٠ جندى فقد انتقل هؤلاء الجنود إلى صفوف أولوج على باشا .

لجأ السلطان إلى الحامية الإسبانية فى حلق الواد .

دخل الباشا مدينة تونس (ك١/١٥٦٩) استبقى رمضان بك (باشا) فى المدينة كوال .

جاء السلطان الحفصى بعد مدة مع الإسبان وطرد رمضان بك وجنوده الـ ٣٠٠٠ . ورغم أن أولوج على باشا راجع الديوان مرارا سواء حول القيام بإنزال واسع النطاق على الأندلس أو فتح مدينة تونس الحاسم ، لكنه لم يحصل على أية نتيجة من بطل الصلح صوقوللو محمد باشا .

حاول أولوج على باشا بعد أن أصبح عضوا فى الديوان الهمايونى وقائدا للقوات البحرية باسم قيليج على باشا فى إستانبول أن يشرح الوضع للوزراء فى الديوان . ومع أن بيالة باشا أيده ، إلا أن الأكثرية فى الديوان كانوا ينظرون إلى الكلمة التى ستخرج من فم الوزير الأعظم صوقوللو محمد باشا . وصرح للديوان بأن بربروس - زاده حسن باشا الكبير السن مطلع أتم الاطلاع على قضايا المغرب وأوصاهم بتعيينه مرة أخرى فى الجزائر بدلا منه . أنفذ الديوان هذا التعيين ، لكن حسن باشا توفى قبل مغادرته إستانبول (١٥٧٢/٣/١٥) .

رفع اللواء البحرى والى قوجا إيلى (إزميت) أحمد بك إلى رتبة الأميرالية (فريق أول بحرى) وأُرسِل إلى الجزائر .. ولحين قدومه قام ميمى Memi رئيس أحد الأميرالات المشهورين بإدارة الإيالة بالوكالة (Divân - Hümayûn Mühimme Defteri ، ١٠ ، ١٧٩) . كان الوالى الجديد أحمد باشا ، أميرالا قديرا نشأ فى كنف قيليج على باشا ، ولأن أمه إسكندرانية ، كان يجيد التكلم بالعربية وكان أمير لواء بحرى (والى) على رودس ، قبل كونه واليا على قوجا إيلى .

ورغم أن ثلاثة أرباع تونس تابعة للعثمانية لإيالة طرابلس ، إلا أن إسبانيا كانت تحتل شمال القطر ومدينته الكبيرة تونس .جاء دون جوان مع ١٣٨ سفينة حربية و ٢٧٠٠٠ جندى إلى تونس . كان رمضان بك (باشا) الشهير الذى كان يحمل لقب « تونس سنجق بك » (أى لواء بحرى « والى » تونس) قد ترك مدينة تونس وأقام فى القيروان التى لايصلها النفوذ الإسبانى - الحفصى . استدعى الديوان أحمد باشا إلى إستانبول وعين رمضان بك بمنحه رتبة بكلربك (فريق أول بحرى) واليا على إيالة الجزائر (١٥٧٤/٣/٢٧) بدلا منه ، استنادا إلى أنه أكثر خبرة منه بأمور

المغرب . كان دون جوان قد ترك فى تونس ٨١٠٠ جندى ثم عاد . كان رمضان باشا عازما على إخراج الإسبان من تونس وكذلك من فاس ، وكان عالما بأن أستاذه قيليج على باشا سوف يسانده فى الديوان . كان أميرالا واسع البصيرة ويحتمل أنه آخر بحار تركى داهية فى القرن ١٦ ، وأصغرهم سنا . فصل الديوان الأراضى التونسية من إيالة طرابلس وأسس إيالة تونس الجديدة وعين حيدر باشا واليا عليها (١٥٧٣/٥/١٧) . كان حيدر باشا مقيما فى القيروان . وفى هذه الحالة كان فتح تونس الحاسم قد استكمل وفى انتظار المحاولة العثمانية .

خلع الإسبان السلطان أحمد الذى لم يستطع الدفاع عن تونس وظفر بها الأتراك . توسل أخوه مولاى حميد لدى الدون جوان لاحتلال مكان أخيه الكبير ، وحاول كثيرا فى هذا الشأن دون جدوى . أرسل مع عائلته للإقامة فى مدينة نابولى . لكن الأخ الآخر مولاى محمد ، أصبح الحاكم ٢٤ والأخير لحفصيى تونس بلقب « نائب الملك الإسبانى وأمير (infant) الملكية الإسبانية فى تونس » . كانت نهاية هذه السلالة السنية – المالكية البربرية المستعربة التى دامت ٣٤٦ سنه منذ ١٢٢٨ قد دنت .

سار الأسطول الهمايونى من إستانبول (١٥٧٤/٥/١٥) لأخذ مدينة تونس من الإسبانيين . جرت مراسم عسكرية ودينية كبيرة أمام قبر بربروس ، وبعد تحية القبر بمدافع السفن أبحرت ٢٩٨ سفينة تحمل ٤٠٠٠٠ جندى ، ٧٠٠٠ منهم إنكشارية و ٤٨٠٠٠ جدافة . كان ناظر البحرية المشير البحرى قيليج على باشا قائدا للأسطول ، والقائد العام الوزير قوجا سنان باشا قائدا للقوات البرية . جاء الأسطول إلى تونس (٢٢ تموز) بعد أن دخل ميناء مسينا وقام بعرض . كان الأسطول يحتوى عدا قائد البحرية على ٤ فرقاء أول بحريين (والى طرابلس مصطفى باشا ، والى تونس حيدر باشا ، والى الجزائر رمضان باشا ، والى الجزائر السابق ثم والى قبرص أحمد باشا) . كان الإسبانيون قد حصنوا قلعة حلق الواد (بالفرنسية : La Goulette ؛ بالإسبانية : Gouletta) بشكل ممتاز . قاوم الإسبان بشدة فى هذه القلعة التى سبق أن انتقلت لحوزة العثمانيين مدة ٣٣ يوما . فتحت فى ٢٤ آب . قتل ٥٠٠٠ جندى إسبانى – إيطالى وأسر ٣٠٠٠ منهم . كان الأميرال Pagano Doria بين القتلى ، وكان القائد العام Don Pietro والسلطان الحفصى محمد بين

الأسرى . أرسل مولاى محمد مع عائلته إلى إستانبول وخصص له قصر أقام فيه إلى نهاية عمره . غنمت العثمانية ٢٢٥ مدفعا و ٣٣ راية ، أرسل منها ١٩٠ مدفعا إلى إستانبول . زرع قيليج على باشا ٣٠ لغما وفجر هذه القلعة الشهيرة ليقطع الطريق على مجيء الإسبانيين الذين لم يكن أمامهم بعد تفجير القلعة سوى مدينة تونس المفتوحة .

أنقذت البلاد التونسية من تسلط الإسبان مدة قرن تقريبا . سقطت فى ١٣ أيلول قلعة Bastion (بالعربية : البسطيون) الموجودة فى أحد جوانب مدينة تونس التى يقوم بحمايتها ٢١١٠٠ إسبانى بعد حصار دام ٦ أيام . دخلت المدينة الكبيرة التى تحتوى على أكثر من ١٠٠ ألف نسمة من السكان فى حوزة العثمانية لمدة ٣٠٧ سنة . دامت الحملة ٦ أشهر و ١٦ يوما . وقف السلطان سليم الثانى الذى تسلم خبر الفتح بعد ٣٤ يوما (١٧ ت ١) من الفتح لمشاهدة عودة الأسطول الهمايونى (١٥٧٤/١١/٣٠) . كان قد بقى من عمره ١٥ يوما . أهدى قيليج على باشا سيفا مرصعا و ٣٠٠٠ ليرة ذهب وهدايا أخرى .

نقل حيدر باشا مركز الإيالة من قيروان إلى مدينة تونس ، زوده قيليج على باشا بـ ٤٠٠٠ جندى إضافى . أسست فى تونس كما فى الجزائر حامية إنكشارية من المتطوعين القادمين من الأناضول الذين ليست لهم أية علاقة بحامية الإنكشارية الموجودة فى إستانبول . (تحفة الكبار ، ٩٧ – ٨ ؛ يجوى ، ١ ، ٥٠١ – ٣ ، صولاقزاده ، ٥٩٤ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٣١) .

(٩) وفاة السلطان سليم الثانى (١٥٧٤/١٢/١٥) وشخصيته

توفى السلطان سليم خان الثانى على أثر سقوطه من جراء انزلاق قدمه أثناء استحمامه فى حمامه فى سراى طوبقابو . توفى بعد عدة أيام من هذه الحادثة بسبب نزيف دماغى (١٥٧٤/١٢/١٥) . كان عمره يتجاوز الـ ٥٠ سنة بـ ٦ أشهر و ١٨ يوما . دامت سلطنته ٨ سنوات و ٣ أشهر و ٨ أيام . توفى فى ذات العمر الذى توفى فيه جده السلطان ياوز سليم الأول وسلطنة ياوز تزيد على سلطنة حفيده بـ ٥٠ يوما فقط . الشبه ينتهى هنا ، فقد كان سليم الثانى هو السلطان العثمانى الأول الذى

لم يتمكن من اللحاق بركب أجداده . ومع أن حلقة الدهاة قد جاءت بعد ذلك بين الحين والآخر بثمارها لكنها اكتملت بالسلطان سليمان القانونى و لم تتعداه إلى السلطان سليم الثانى .

كان السلطان سليم ، أول سلطان يولد فى إستانبول ، وهو كذلك أول سلطان يموت فيها . دفن فى فناء جامع أياصوفيا فى قبره الجميل من بناء سنان ، ورغم تشييده جامعه الكبير سليمية فى أدرنة ، إلا أنه لم يتيسر أن يدفن فيه .

كان متوسط القامة ناصع الجبين . عيناه كستنائيتان تميلان إلى الصفرة ، أشقر ، صيادا وصانع أقواس ماهرا . اشترك فى حملات أبيه الهمايونية ، وشاهد أقطارا كثيرة جدا ، تمت تنشئته وتعليمه بشكل ممتاز لكنه ترك أمور الدولة بشكل واسع إلى صهره صوقوللو محمد باشا الذى كان أكبر منه سنا . وهو وزيره الأعظم الأوحد . هو أول حاكم لم يخرج إلى الحملات بنفسه . ويجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن الحملات كانت عبر البحار وأن صوقوللو اتبع سياسة عدم خروج البادشاه للحملات لئلا يخرج هو كذلك .

لم يخرج صوقوللو إلى الحملة أبدا طيلة مدة وزارته العظمى الطويلة . ومع خشيته من صوقوللو ، والأصح من الانكشارية الذين يستند عليهم ، لم يسمح لصوقوللو بالقضاء على كثير من رجال الدولة الذين أراد البطش بهم . وحماهم بشكل يليق بذكائه . ولولا هذه الحماية لما تمكن لالا مصطفى باشا (الذى سيفتح قبرص) ولا أوزدمير أوغلو عثمان باشا (الذى سيفتح القفقاس) من احتفاظهما بحياتهما . وكذلك كان فتح قبرص وتعيينه أميرالا كقليج على باشا إلى القيادة البحرية ونظارة البحرية ، نتيجة لقراره الشخصى ، واستمر على طريقة أبيه فى محبته للبحارة .

كان حاكما رقيقا ، حساسا ، متواضعا ، يحب المشروبات ، مدركا لمصلحة الدوله ولايقبل على العمل الكثير . شاعريته مشهورة . إن بيت الشعر التالى الذى قاله يعتبر من أجمل الأبيات فى الشعر التركى بأسره ، البيت معناه :

نحن بلبل يشكو من حرقة نار الفراقلو مرت ريح الصبا بحدائق أورادنا لانقلبت نارا

بناته ، أسمهان سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٥/٨/٧) ، جوهرخان سلطان (١٥٤٤ - ١٥٨٠) ، فاطمة سلطان (١٥٤٨ - أيلول ١٥٨٠) وقد تزوجن بالتسلسل بالوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا (١٥١٠ - ١٢/١٠/١٩٧٩) ، الوزير ٢ داماد بيالة باشا (١٥١٠ - ١٥٧٨/١/٢١) ، الوزير الأعظم داماد سياوش باشا (وفاته ١٦٠٢) . ابنته الأخرى شاه سلطان (١٥٤٤ - أيلول ١٥٨٠) تزوجت بداماد جارقجيباشى حسن باشا (وفاته ١٩٧٤/١/١٣) (وزير) ، ثم بالوزير داماد زال محمد باشا (١٥٣٠ - ١٥٨٠) .

كان أولو شهزاده (ولى العهد) مراد واليا على مانيسا . جاء إلى إستانبول مساء يوم ٢١ك١/١٥٧٤ وجلس على العرش . أمه نوربانو والده سلطان (١٥٣٠ - ١٥٨٣/١٢/٧) . كان السلطان مراد ٣ واليا على آقشهر مدة ٣ سنوات ، ثم مايقرب من ١٤ سنة واليا على صاروخان (مانيسا) ووليا للعهد منذ جلوس والده نحو ٨ سنوات و ٣ أشهر . كان عمره عند جلوسه ٢٨/٥ سنة . وفى صباح يوم ٢٢ك١ تقبل بيعة صهره الوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا ، صهره الآخر الوزير ٢ داماد بيالة باشا ، الوزير ٣ أحمد باشا ، صهره الآخر الوزير ٤ دماد زال محمود باشا ، الوزير ٥ لالا مصطفى باشا ، الوزير ٦ قوجا سنان باشا ، شيخ الإسلام حامد أفندى ، الأفنديه قضاة العسكر وناظر البحرية قيليج على باشا .

(١٠) اتحاد امبراطورية فاس مع الدولة العثمانية (١٥٧٦/٣/٩)

مات أبو عبد الله محمد المهدى الشيخ سلطان فاس ، بعد سلطنة دامت ١٨ سنة ، عن عمر يناهز ٦٩ سنة (١٥٥٧/١٠/٢٣) .

كان والى الجزائر صالح باشا قد دخل مدينة الجزائر على عهده فى ١٥٥٣ وأسس نظام الحماية العثمانية . لكن فاس كانت قد رفضت هذه الحماية بعد عدة سنوات . ولكن نفوذ العثمانية لم يرفع عن إيالة الجزائر فى أى وقت من الأوقات . كانت العثمانية تتخوف من اتفاق فاس مع إسبانيا والبرتغال ؛ حيث إنها كانت قد سلكت هذا الطريق مرات عديدة . كان ٨ من أولاد محمد ٢ العشرة ، على قيد الحياة حين وفاته فى ١٥٥٧ . كان قد قتل بنفسه أحد ابنيه اللذين ماتا وهو مولاى عبدالله الأول فى ١٥٥٠ ، والآخر هو مولاى عبد القادر ، قتله بربروس - زاده حسن باشا فى العام ذاته . كان عبد الله الأول

(أبو محمد عبد الله الغالب) الذى خلف محمد ٢ وعمره ٣٠ سنة قد تعايش مع العثمانية بصورة جيدة ؛ أرسل إلى سليم الثانى سفراء وهدايا . ومات بعد سلطنة دامت ١٦ سنة (١٥٧٤/١/٢١) . خلفه ابنه الأصغر محمد ٣ . لكن عميه مولاى عبد الملك ومولاى أحمد حاولا إسقاط ابن أخيهما والجلوس على مقام السلطنة . وقد كان مثل هذا الوضع مألوفا لدى سلالة فاس الحاكمة وهو أحد أسباب الضعف الكبرى لهذه الدولة ؛ إذ كان يستعين الذى يريد قهر خصمه بالإسبانيين أو البرتغاليين . وهذا كان يسبب قلقا كبيرا للدولة العثمانية .

جاء مولاى عبد الملك إلى إستانبول . صعد أولا إلى الديوان الهمايونى وقابل أركان الحكومة العثمانية بصورة رسمية ، ثم اجتمع بمراد الثالث بناء على طلبه . وطلب عرش فاس على أن يكون تابعا للبادشاه .

أيد قيليج على باشا فى الديوان هذا الطلب بشدة . حيث إن الاتحاد مع فاس ، عدا أنه حلم كافة ولاة الجزائر ، فإن مولاى عبد الملك (وهو صديق قيليج على باشا) كان أميرا صديقا للعثمانية ويجيد اللغة التركية ، وكان قد بقى فى الجزائر ضيفا على قيليج على باشا لسنوات طويلة . أدرك مبلغ قدرة العثمانية لا بالسماع ولكن بالمشاهدة . كان يكره الإسبانيين والبرتغاليين لما فعلوه مع بالمسلمين فى الأندلس والمغرب ، كذلك كان يخشى كثيرا من استيلاء المسيحيين على فاس . وكان يدرك جيدا أنه لولا وجود العثمانية لاحتلت إسبانيا والبرتغال كافة المغرب منذ زمن بعيد ، تزوج بابنة التاجر الفاسى الحاج موراتو المقيم فى إستانبول .

تحرك الديوان بعد أن تسلم بيان والى الجزائر رمضان باشا العلنى عن مولاى عبد الملك وتقرير قيليج على باشا السرى . كتب رسالة إلى محمد ٣ ابن أخ عبد الملك وطلب تركه نصف شمال القطر لعمه عبد الملك ، حيث إن فاس الشمالية هى من المناطق الحساسة التى تخشى العثمانية تعرضها للاستيلاء الإسبانى أو البرتغالى . رفض محمد ٣ .

سار رمضان باشا من الجزائر ، ويلاحظ أنه بالإضافة إلى عدم وجود وحدة داخلية فى دولة فاس ، فإنها كانت مفتوحة للاستيلاء الخارجى ، خرج كل من عبد الملك وأخيه عبد المؤمن الذى يؤيد أخاه الكبير اللذين كان يتسلم كل منهما

راتبا شهريا قدره ألف ليرة ذهبا ، من الجزائر مع رمضان باشا . كان الجيش العثمانى مكونا من ٧٠٠٠ جندى بحرية و ٧٠٠ سباهى (فارس) و ١٠٠٠ قول أوغلو (التركى المولود من أم عربية) و ٦٠٠٠ فارس عربى بربرى (المجموع ١٤٧٠٠ جندى) . وبالطبع كانت المدفعية متوفرة كذلك .

وقد انضم إليهم فى الطريق الفاسيون المؤيدون لعبد الملك . ارتفع عدد الجيش إلى ٢٠٠٠٠ .

اجتاز الباشا مدينة فاس . شوهد جيش محمد ٣ البالغ ٦٠٠٠٠ شخص قرب مكناس . لكن الأندلسيين الموجودين فى هذا الجيش انضموا إلى الصفوف العثمانية . تمكن الباشا من كسر السلطان بسهولة . فر محمد ٣ .

دخل العثمانيون مدينة العرش فاس . أعلن رمضان باشا مولاى عبد الملك سلطانا (١٥٧٦/٣/٩) باسم خليفة الكرة الأرضية مراد خان الثالث . جاء قيليج على باشا بصحبة الأسطول الهمايونى إلى البحر الأبيض للحيلولة دون مساعدة إسبانيا لمحمد ٣ . لم يكن محمد ٣ الذى خلع بعد سلطنة دامت سنتين وشهرا وتسعة عشر يوما ، ينوى ترك العرش لعمه مولاى عبد الملك الذى كان عمره ٤٩ سنة . وطلب المعونة من إسبانيا والبرتغال الدولتين المسيحيتين الحائزتين على أكبر قوة عسكرية وبحرية فى العصر واللتين كانتا ألد أعداء العثمانية والعالم الإسلامى كافة فى ذلك التاريخ . انسحب محمد ٣ إلى مراكش مركز البرابرة الخالص فى الجنوب .

كان السلطان عبد الملك حاكما عاقلا ، تمكن من تنمية معلوماته فى السياسة العالمية باختلاطه بالمحيط العثمانى ، وقد أدرك بأن فاس فى حالة انحطاط وأنه يعيش حاليا عصر المرابطين والموحدين وبداية عهد المرينيين ، ومن ثم فإن من مصلحته أن يلتف بصدق حول السياسة العثمانية ، وإلا فستكون بلاده طعما لإسبانيا والبرتغال .

أرسل إلى إستانبول ٢٠٠٠٠٠ ليرة ذهباً ضريبة عن السنة الأولى ، وأفاد بأنه خادم السلطان مراد المخلص ، وبدأ بإصلاح الجيش والنظام الفاسى متخذا تشكيلات النظام العثمانى نموذجا له ، وقد جلب لهذا الغرض من الجزائر ضباطا أتراكا ، وكان لباسه كلباس البادشاه العثمانى وقلنسوته مماثلة له ، وكان يخرج لصالة الاستقبال يوم الجمعة باحتفال عسكرى مثله ، وحتى تشكيلات الحراسة فى قصره جعلها على غرار

تشكيلات سراى طوبقابو . وأخذ من الجزائر كميات كبيرة من المدافع والتجهيزات العسكرية الأخرى ، وسدد لخزينة الجزائر عن المساعدات التى تسلمها مبلغ ٤٨٠٠٠٠٠ قطعة ذهب . وتقلد السيف الذى أرسله له مراد الثالث وارتدى الخلعة .

سار بجيشه إلى ابن أخيه محمد ٣ واحتل مراكش . جاء رمضان باشا إلى واحة فجيج وألحقها بإيالة الجزائر . إلا أن الديوان عزل رمضان باشا لعدم تقديمه المساعدة إلى السلطان عبد الملك فى حملته على مراكش وأمره بالبقاء فى موقعه لحين استلامه أمرا جديدا . نقل الأميرال أولوج حسن بك الشجاع والشديد جدا وعمره ٣٠ سنة من وظيفة لواء بحرى فى سلانيك إلى وال على إيالة الجزائر مع ترفيعه إلى رتبة فريق أول .

نشأ أولوج حسن باشا كجندى بحرى لدى طرغد باشا ، ثم كضابط بحرى لدى قيليج على باشا ، وقبطان (قائد سفينة) ثم لواء بحرى فى حمايته ، كان قد عين كوال (فريق أول بحرى بكلربك) على الجزائر بتوصية قيليج على باشا أيضا . وكان الأديب الإسبانى الشهير Cervantes قد أسر على يدميمىMemi رئيس وأهدى إلى حسن باشا ، ثم أطلق سراحه بعد أن خدم عدة سنوات لدى حسن باشا كعبد . وكان مؤلف دون كيشوت ، قد كتب عن سيده أولوج حسن باشا قائلا : « رجل لامع العينين ، معجب بنفسه ، ظالم » . والمعلوم أن اولوج -حسن باشا ، أصبح ناظرا للبحرية وقائدا للقوات البحرية بعد وفاة قيليج على باشا وبقى فى هذا المقام ٣ سنوات ، ٣ أشهر ومات وهو ناظر للبحرية وعمره ٤٤ سنة (١٥٨٨/٤/١٤ – ١٥٩١/٧/١٢) ولو قدر له أن يعيش لأصبح أميرالا مرشحا ليكون من كبار البحارة المشهورين .

(١١) انتصار وادى السيل (١٥٧٨/٨/٤)

جاء أولوج حسن باشا إلى الجزائر ١٥٧٧/٧/٢٧ وسار فورا بحملة جزر باليرBalear . أمر الديوان الذى علم بأن محمد ٣ طلب مساعدة من إسبانيا والبرتغال ، حسن باشا بتولى أمور إيالة الجزائر وأسطولها والحملات البحرية ، والانتباه إلى عدم

إصابة الجزائر بأى ضرر من قبل العدو ، أما رمضان باشا فقد كلفه الديوان بالدفاع عن سلطان فاس عبد الملك ضد المستولين المسيحيين .

كان ملك البرتغال Sebastiano ، يستعد لحملة فاس منذ ٣ سنوات . طلب مساعدة إسبانيا أيضا . وعد فيليب الثانى ملك البرتغال الشاب بالمساعدة ، شريطة أن يتزوج بإحدى بناته . وافق سيباستيانو رغم نفوره من النساء . وهكذا تسلم من اسبانيا ٥٠ سفينة حربية و ٥٦٠٠ جندى مشاة . سيدفع فيليب ثلث مصروفات الحملة ، على أن تكون ثلث الفتوحات التى ستجرى فى فاس لإسبانيا ، وثلثيهما للبرتغال . حقا إنها كانت قسمة عادلة ! .

ستكون سواحل فاس على الأطلسى بكاملها من حصة البرتغال ، وتقسم سواحلها على البحر الأبيض بين البرتغال وإسبانيا ، وتكون سلطنة فاس دولة برية ، تؤخذ تحت حماية البرتغال ، ويطرد العثمانيون منها ويزاحون .

غادر الملك Sebastiano البرتغال (١٥٧٨/٦/٤) لتحقيق هذا الهدف وأنزل الجنود فى ميناء أرزيلة على الأطلسى فى جنوب غربى طنجة ، بهدف أخذ ميناء العريش (بالفرنسية : Larach) . لكنه عندما علم بمسيرة رمضان باشا إليه من الجزائر ، نزل إلى سهل وادى السيل على مقربة من الجنوب - الشرق للقضاء على العثمانية . شاهد الجيشان بعضهما قرب مدينة القصر الكبير (بالإسبانية : Alcazarquivir) الكائنة فى هذا السهل . ستحسم كل من تركيا والبرتغال نزعهما الخفى طيلة ٦٠ سنة والذى يجرى على الأغلب فى البحار الهندية ، فى هذا الموقع .

كان رمضان باشا قد عين فى هذه الأيام واليا (فريق أول) على إيالة تونس ، لكنه نظراً لسعة معرفته بشئون فاس كلف من قبل الديوان بمهمة طرد المستولى فى فاس ، ولم يكلف أولوج حسن باشا .

جاء من تونس إلى شمال فاس مسرعا ، وعلم أن مجموع الوحدات الإسبانية المساعدة والفاسيين الموالين لمحمد ٣ والجيش البرتغالى قد ارتفع عدده إلى ٨٠ ٠٠٠ جندى و ٣٦٠ مدفعا . كان هذا الجيش يشتمل على وحدات بابوية ، وإيطالية ، وألمانية ، وحتى فرنسية . أما الأسطول البرتغالى - الإسبانى ، فكان على سواحل الأطلسى من فاس . تمكن رمضان باشا من جمع مايقرب من ٣٠ ٠٠٠ جندى تركى

ونحو ٣٠٠٠٠ جندى عربى . سمى الأوربيون هذه المعركة باسم « معركة الملوك الثلاثة » ، لوجود ملك البرتغال ومحمد ٣ فى صفوف جيش العدو ووجود السلطان عبد الملك فى الطرف المقابل . وفى الحقيقة كانوا ٤ ملوك ، حيث إن أخا عبد الملك ، سلطان المستقبل أحمد الثانى كان فى الجيش العثمانى .

أباد رمضان باشا ، الجيش الصليبى بشكل حاسم خلال ساعات . خسر العدو نحو ٢٠٠٠٠ قتيل ونحو ٤٠٠٠٠ أسير . تمكن ٢٠٠٠٠ من جنود العدو من النجاة واللجوء إلى الأسطول فى الساحل بصورة مشتتة (Hammer ، ٧ ، ٥٥) . كان ملك البرتغال وكبار رجال الدولة البرتغالية بين القتلى . انتقل ٣٦٠ مدفعا لحوزة العثمانيين . أمر رمضان باشا بقتل محمد ٣ الذى دعا المسيحيين إلى البلاد فورا . كان السلطان عبد الملك مريضا . لكنه رغب فى أن يترأس الوحدات الفاسية . كان يائسا تماما . كان لايعتقد أن الجيش العثمانى الصغير سيتمكن من قهر العدو الذى جاء بجيش جرار ، كان قلقا جدا خشية دخول بلاده تحت الحكم المسيحى . ياترى هل سيتمكن الجيش العثمانى – الفاسى من الانسحاب بخسائر طفيفة ؟ وعندما علم بحصول رمضان باشا على نتيجة حاسمة وأن الملك كذلك قتل مات فى لحظتها من شدة الفرح . وطارد الباشا العدو حتى ساحل الأطلسى ، وأعطى للأسطول التركى الذى يقوده سنان رئيس أمر الهجوم . انكسر الأسطول البرتغالى – الإسبانى الذى لم يتمكن من التحرك والاستدارة بسبب تعب الجنود المنهزمين . غرقت كثير من السفن البرتغالية ومات آلاف البرتغاليين . أنقذ الأتراك ٥٠٠ منهم وانتشلوهم من الماء إلى السفن التركية . ولم يفقد الأتراك ولا سفينة واحدة .

أعلن رمضان باشا حينما علم بوفاة السلطان عبد الملك فى ساحة الحرب أخاه مولاى أحمد سلطانا بلقب « أبو عباس أحمد المنصورى الذهبى » . كان أحمد الثانى فى الـ ٢٩ من عمره . وهو ٧ الأشراف السعديين . قضى فى العرش مدة ٢٥ سنة حتى ١٦٠٣/٩/٥ . يعتبر عهده من ألمع الفترات التى عاشتها فاس . حرص على التعايش مع الدولة العثمانية . كان أحمد الثانى فى الـ ٨ من عمره عندما احتمى مع أخويه الكبيرين عبد الملك وعبد المؤمن لدى والى تلمسان كلاجئين سياسيين ، ثم لدى والى (فريق أول) إيالة الجزائر ، وكان قد أقام سنوات عديدة فى الجزائر . تعلم اللغة التركية ، شاهد قدرة العثمانية بعينيه . ولد مولاى إسماعيل أحد ابنى

السلطان عبد الملك فى هذه المدينة ، عاش فى إستانبول وتطبع بالعادات التركية وأصبح كالأتراك .

سار السلطان أحمد ، فى الطريق التى سلكها أخوه . دعا آلاف العثمانيين إلى فاس . جدد تشكيلات دولته على النظام العثمانى . قسم بلاده إلى إيالات كما فى الدولة العثمانية . وعين على رأس كل منها والى إيالة بلقب « باشا » وهذا النظام مطابق للنظام الملكى (المدنى) العثمانى ، تمثل ألقاب باشا وبك التى يمنحها سلاطين فاس ؛ ذكريات بقيت من هذا العهد ، كما ساند الحركة الوطنية البرتغالية ضد إنكلترا وهولندا وإسبانيا ، بناء على مارسمته سياسة الديوان ،وطبق سياسة مخاصمة تماما لإسبانيا . تسلم من السلطان مراد الثالث رسائل سلطانية عديدة تبين امتنانه . وكانت العثمانية قد اتخذت كافة التدابير لمنع أى تدخل برتغالى أو إسبانى فى فاس بعد الآن . وعلى سبيل المثال ، أمر أولوج حسن باشا ، بقتل وزير (رئيس وزراء) فاس المدعو ابن رضوان الذى ثبتت علاقته بالإسبانيين . أنقذ مراد الثالث أحمد الثانى وأبناءه من قلقهم بشأن المدعين بالسلطنة بتكراره مراراً أن فاس ستبقى لأحمد الثانى ومن ثم لأبنائه . ومن كتاب البادشاه المؤرخ ١٥٨٢/٨/١٣ الموجه إلى السلطان أحمد : «ستنتقل ولاية فاس عن طريق الإيالة نسلا بعد نسل (من الأب إلى الابن) إلى انقراض الزمان وتعتبر كبقية ملحقات إمبراطوريتنا » (مهمة دفترى ، ٤٨ ، ٣١) .

قلق السلطان أحمد بقدر ماقلقت إسبانيا من حملات قيليج على باشا فى غرب البحر الأبيض فى ١٥٨٢ و ١٥٨٣ . حيث إن فكرة الباشا فى جعل فاس إيالة كالجزائر كانت معلومة . لكن الديوان كان يعلم بأن فاس لاتشبه الجزائر ، وأنها تملك سلالة حاكمة عريقة جدا ومنحدرة من نسل الرسول (ص) . ورغم محاولات الباشا العديدة لم يسلك الديوان هذا الطريق . إن الكتاب السلطانى المؤرخ ١٥٨١/٣/٨ الذى أرسله مراد الثالث لوالى (فريق أول) الجزائر يدعو إلى الانتباه : « يبقى السلطان أحمد فى مقامه مادام يتلو الخطبة الشريفة فى منابر مساجد بلاد فاس ويطبع السكة اللطيفة باسمى ولايصدر منه مايشعر بالخيانة » (مهمه ، ٤٢ ، ٨٣) .

استدعى أولوج حسن باشا من الجزائر إلى إستانبول بعد ٥ سنوات و ٧ أشهر . أصبح جعفر باشا لمدة ١١ شهراً ، ثم (ت /١٥٨٣/٢) رمضان باشا للمرة الثانية ، وبعد عدة أشهر تولى أولوج حسن باشا مرة أخرى ولاة على الجزائر . قتل رمضان

باشا ١٥٨٩ بطلقة أثناء شجار جرى بعد مجيئه من تونس إلى الجزائر بقليل .

سيطر أولوج حسن باشا فى فترة ولايته الثانية مع أميراليه المشهورين جدا الرئيسين ممى (محورة عن كلمة محمد) ومراد على غرب البحر الأبيض . طارد **Giovanni Andrea Doria** حتى ميناء جنوة . حرق ميناء **Alicante** الإسبانى . أوصل المساعدات إلى الأندلسيين . نقل كثيرا جدا من الأندلسيين إلى المغرب . خرب المناطق المجاورة لبرشلونة وأنقذ ٢٠٠٠ تركى من الأسر . اختلف مع السلطان أحمد بسبب فجيج . جاء السلطان أحمد إلى هذه الواحة وأعاد المسئولين الأتراك بعد إعزازهم وإكرامهم إلى الجزائر . أبلغ حسن باشا بأن هذه الواحه التى ألحقها رمضان باشا سابقا تعود لإيالته وطلب تخليتها فى الحال . قال السلطان أحمد بأن السلطان مراد كان قد تلطف وأهداه هذه الواحة . سأل حسن باشا الديوان . أيد الديوان ذلك . وأمر ترك الواحة إلى السلطان (١٥٨٤/١/٢٦) . إن مجموع مدة إدارة حسن باشا للجزائر فى الدفعتين ٩ سنوات و ٧ أشهر . وقد تسلم أمر تعيينه ناظرا للبحرية وقائدا للقوات البحرية وطلب قدومه إلى إستانبول (١٥٨٨/٤/١٤) وبعد ٢٤ ساعة من وفاة أستاذه قيليج على باشا أصبح كل من محمد باشا والى طرابلس الغرب ، وبعده بعدة أشهر استانكويلو أحمد باشا واليين (فريق أول) على إيالة الجزائر . قام أحمد باشا بحملة كبيرة على إسبانيا ، لكنه نقل فى السنة التالية (١٥٨٩) إلى إيالة طرابلس . أصبح خضر باشا وبعد ٤ سنوات (١٥٩٣) شعبان باشا واليين برتبة فريق أول . استدعى إلى إستانبول بعد سنتين (ك١٥٩٥/٢) . قام بإدارة الإيالة بالوكالة لمدة ٤ أشهر مصطفى بك أحد فرقاء أول البحريين وقريبه من الدرجة الأولى . ولى خضر باشا للمرة الثانية . وأصبح مصطفى بك واليا برتبة الباشوية (ك١٥٩٧/٢) . استدعى إلى إستانبول وأرسل بدلا منه دلى حسن باشا (ك١٥٩٩/١) . عين سليمان باشا واليا (ك١٦٠٠/١ – ١٦٠٤) وعلى أيامه جاء قائد القوات البحرية وناظرها – الذى صار بعدها وزيراً أعظم كذلك – إلى الجزائر (١ أيلول ١٦٠١) مع ٧٠ سفينة حربية و ١٠٠٠٠ جندى مشاة ، ورغم أنه بحث عن الأسطول الإسبانى إلا أنه لم يعثر عليه . ولى خضر باشا للمرة ٣ ، لكنه توفى فى مقامه (١٦٠٥/٥/١٨) . حكم الجزائر فى المرات الثلاث مدة ٧ سنوات . عين كوسة محمد باشا (١٦٠٥/٥/١٨) ثم

مصطفى باشا برتبة وزير (ك١/١٦٠٥) ورضوان باشا (١٦٠٨) ومصطفى باشا مرة أخرى (١٦١٠ - ١٦١٣) ولاة على الجزائر .

(١٢) تونس وطرابلس الغرب وإفريقية الوسطى

فصل لواء فيزان (فزان) عند تأسيس إيالة تونس ، عن إيالة طرابلس وألحق بإيالة تونس . كان مركز الإيالة مرزوق صرف والى (برتبة لواء) فزان محمد بك جهدا كبيرا فى نقل النظام العثمانى إلى أواسط إفريقية . نزل من مرزوق مع ٥٠٠ جندى نحو الجنوب مسافة ١٩٥٠ كم عن البحر الأبيض بخط مستقيم . ووصل شمال بحيرة جادو . إن القسم الأكبر من الصحراء يشكل أقساما غير صغيرة من دولتى جادو والنيجر الحالية . تم ربطها بلواء فزان . تبعت دولة بورنو التى تقع على جنوبها ، العثمانية . أما الدول الزنجية المسلمة الموجودة فى غرب إفريقيـة بين الأطـلسى ونهر النيجر فكانت تابعة لفاس وبذلك كانت تتمتع بنظام عثمانى . ورغم أن ملك بورنو إدريس يملك ١٥٠٠٠ فارس و١٥٠٠٠ جندى مشاة فقد راجع الديوان وعرض أن يكون خادما لخليفة سطح الأرض (خيلفة روى زمين) ، لكنه مل من ضغط محمود بك . أمر الديوان محمود بك بعدم المساس باستقلال بورنو وأن يطبق عليها نظام الدول التابعة (مهمة ، ٣٠ ، ١٨٨ ، ٢١٣ — ٥)

وخضوعا للضرورة أعيد تشييد قلعة حلق الواد التى هدمها قيليج على باشا (١٥٨٨) . فصل لواء سفاقس Safaskus بأمر الديوان من إيالة طرابلس (ليبيا) ، وضم إلى إيالة تونس (مهمة ، ٦٤ ، ١١٦) . جعلت جزيرة جربة لواء وربطت بطرابلس . أدار ممى رئيس (محمد باشا) طرابلس والجزائر كوال ، إدارة ممتازة . كان رجلا مسنا . أما استانكويبو أحمد باشا فقد عين واليا على الجزائر وطرابلس بعد تونس واستشهد أثناء إخماده إحدى حركات التمرد ودفن فى طرابلس ابنه الوزير الأعظم على باشا .

وقد يجدر بنا تحقيقا للفائدة أن نشرح النظام العثمانى لفاس (La Pax Ottomawa ، بالعثمانية : نظام عالم) .

لم تكن تبعية إمبراطورية فاس للإمبراطورية العثمانية تبعية عادية . إن تبعيتها كملكية بولونيا تماما . كان سلطان فاس تابعا للبادشاه العثمانى مباشرة . أى أنها لم تكن ضمن نظام الدول التى تتسلم الأوامر من الديوان الهمايونى مباشرة . التزم مولاى أحمد المنصور الثانى الذى توفى فى مراكش السياسة الخارجية العثمانية تماماً ، وأرسل ضريبته إلى إستانبول ، وعلى الأصح للبادشاه تأكيدا صريحا لتبعيته .

لقد طبق النظام العثمانى فى بلاده وقام بحملة إصلاحات عسكرية واجتماعية ، لكنه لم يدع للأتراك مجالا للتدخل فى الشئون الداخلية . كان ولاة الجزائر يرغبون فى التدخل فى شئون فاس الداخلية ، فحاول الحيلولة دون ذلك بدقة .

وخلفه بعد وفاته (١٦٠٣/٩/٣) أبناؤه الثلاثة بالتسلسل . أحدهم زيدان الناصر (١٦٠٣ - ١٦٢٧) سعى جهده فى عدم الانفصال عن الدولة العثمانية . لكن الإثنين الآخرين لم يهتما كثيراً بذلك وانفصلت فاس على مر الزمن عن النظام العثمانى وأخذت تتقدم منفردة نحو مصير منفصل .

وأخذ الفلاليون (أشراف الفلالية) الذين هم فرع لنفس الأسرة الحاكمة يتنازعون فى ١٦٤٠ مع السعديين (أشراف السعدية) من أجل فاس . وفى ١٦٥٨ انفردوا بالحكم فى فاس ، وانقطعت العلاقة مع الدولة العثمانية على عهد الفلاليين .

أخذ نفوذ العثمانية يتزايد فى الملكيات الزنجية فى إفريقية الوسطى ووصل إلى غايته . حاول طرغد باشا اعتبارا من ١٥٥٠ إدخال بورنو ، أقدم (تأسست نحو عام ١٠٠٠) وأهم دولة إسلامية فى هذه المنطقة ، إلى النفوذ العثمانى . لكن إرسال الملك إدريس ٣ سفراء لإستانبول فى ١٥٧٧ وعرضه تبعيته ، أكسب الوضع صفة قطعية (بورنوسنية - مالكية) . إن إدريس ٣ هو ابن أخ الملك محمد الذى عرض تبعيته لطرغد باشا فى ١٥٥٠ . وفى ١٥٧٧ أرسلت الأسلحة النارية بأمر الديوان للمرة الأولى فى التاريخ من طرابلس إلى بورنو (**Ki - Zerbo Le Monde Contemporain** ، باريس ١٩٦٢ ، ص ٦٢٩) . حيث كانت بورنو فى مقدمة الدول الإسلامية التى كافحت الوثنيين ونشرت الدين الإسلامى فى إفريقية .

لقد كان وادى السيل نهاية للدولة البرتغالية المعظمة . امحت البرتغال من الجغرافية السياسية لمدة ٦٠ سنة . لم تستطع البرتغال التى فقدت جيشها وأسطولها ومليكها

فى وادى السيل أن تصون استقلالها تجاه جارتها إسبانيا لمدة ٦٠ سنة (١٥٨٠ – ١٦٤٠) وأصبح ملك إسبانيا ملكا على البرتغال فى ذات الوقت . وفى هذه المرة أخذ الديوان فى مساندة البرتغال ، وإرسال المساعدات إلى الوطنيين البرتغاليين الذين ثاروا ضد إسبانيا . أرسلت تعليمات محدودة بهذا الشأن لفاس وللجزائر ؛ إذ إن اسبانيا – برتغال متحدة ، كانت مخالفة لسياسة الديوان . وعلى الرغم من أن البرتغال كانت ماتزال محتفظة ببرازيليا إلا أنها لم تعد بصورة نهائية فى عداد الدول العظمى .

١٣) إدخال إنكلترا تحت الحماية العثمانية

على الرغم من أن إسبانيا ادركت بعد حرب عثمانية دموية شديدة دامت ٦٥ سنة أنها فقدت المغرب وأنها سوف لاتتمكن من جعل المغرب أمريكا لاتينية ، الا أنها استمرت فى تسلطها على جميع الأماكن ؛ تسعى من ناحية لإفناء العرب المسلمين من رعاياها بأنواع التعذيب التى لايصدقها العقل ، وتتسلط من ناحية أخرى على فرنسا التى ضعفت بسبب دخولها فى النزاع الكاثوليكى – البروتستانتى . وآسى فيليب الثانى نفسه بأخذه ملكية البرتغال على عاتقه . لكنه لم يقنع ، ذهب إلى حد التفكير فى الاستيلاء على إنكلترا . لم يكن ذلك عسيرا بسبب كون هولندا وبلجيكا مستعمرتين إسبانيتين . اضطرب الديوان الهمايونى . كان قد أنقذ فرنسا من براثن شارل – كوينت ، والآن سيضع كافة إمكاناته فى المساعدة لإنقاذ إنكلترا من براثن ابنه .

اعترف الديوان لإنكلترا ، بعد البندقية وفرنسا بحق المتاجرة بحرية فى موانىء تركية مع تطبيق تعريفة جمركية مخفضة (١٥٨١/٩/١١) وذلك بغرض تنمية تجارة إنكلترا .

طلبت الملكة اليزابث فى رسالتها إلى مراد الثالث مساعدته ضد الكاثوليك الذين سمتهم « عبدة الأصنام » وذكرت أن عبادة التصاوير فى المذهب البروتستانتى ممنوعة كما فى الدين الإسلامى (Hammer ، ٧ ، ١٤١ ، ٢٥٢) .

كتب السلطان فى خطابه السلطانى الذى حرره فى ١٥٨٠ للملكة « وأنتم كذلك عليكم الطاعة والانقياد لبابى العالى » ووعدها بالمساعدة المالية والعسكرية .

حررت الملكة كتبا عديدة ومنفصلة – تطلب فيها المساعدة – إلى الوزراء الأعظم كسنان باشا وسياوش باشا ، وناظر البحرية قيليج على باشا ، والأستاذ السلطانى (شيخ الإسلام) سعد الدين أفندى وإلى زوجة البادشاه صفية خاصكى سلطان وأرسلت إليهم هدايا ثمينة . كانت إليزابث فى ١٥٨٧ ترجو « إرسال ٦٠ – ٧٠ سفينة حربية تركية على الأقل » تجاه الأسطول الإسبانى (Hammer ، ٧ ، ٢٦٥) . طلبت فرنسا كذلك المساعدة . كان الملك فى باريس يلقى الفزع فى قلب السفير الإسبانى بقوله:إن ٢٠٠ سفينة حربية عثمانية مستعدة لفتح طولون ، رهن إشارته . كانت فرنسا مطوقة لأن شمال وجنوب إيطاليا ، وفى الشمال بلجيكا ، كانت تعود لإسبانيا (كانت منطقة إيطاليا الوسطى فقط تعود للبابا والشمال – الشرق من إيطاليا للبنادقة) . زار السفير Sir William Horborne ، قيليج على باشا فى مقامه فى سفينته الإميرالية (١٥٨٤/٤/١٦) ، وقبل يد قائد القوات البحرية (قبودان دريا) وسلمه كتاب الملكة . (يورد السفير فى تقريره السياسى تعجبه من طلاء سفينة الباشا من الخارج والداخل بطلاء الذهب) أجابه الباشا بأنه سوف يقدم لإنكلترا المساعدة القصوى التى يعينها الديوان .

فوجىء الأسطول الإسبانى المخيف الذى أعلنته إسبانيا بأنه « الارمادة التى لاتقهر » بعاصفة لم يسبق لها مثيل وتحطم فى بحر الشمال (آب ١٥٨٧) بعد أن جعلت إسبانيا العالم بأسره يصدق أنها سوف تحتل إنكلترا .

تنفس الديوان والدول التى سئمت من التسلط الإسبانى الصعداء .

١٤) دخول بولونيا التبعية العثمانية (١٥٧٣ – ١٥٩٢)

مات فى ١٥٧٢/٧/٧ آخر ملك لبولونيا ودوق – كبير ليتوانيا من أسرة Yagellon (بالبولونية : Jagellonsky) . ظل عرش بولونيا خاليا . كانت بولونيا من الدول العظمى وتعتبر فى ذلك العهد ملكية أقوى بكثير من روسيا . كانت تمتد اعتبارا من داخل ألمانيا إلى منطقة قريبة من غرب موسكو (٦٩٧ ٠٠٠ كم^2 و ٧ ملايين نسمة ولأجل المقارنة ، ملكية إنكلترا ٣٤٧ ٠٠٠ كم^2 ، ٥/٩ مليون نسمة) .

أرادت ألمانيا أى أسرة هابسبورغ إجلاس أرشيدوق (أمير إمبراطورى) من سلالة هابسبورغ على عرش كراكوفى Krakovi . كانت صلة القرابة بالأسرة البولونية المالكة تعطى ألمانيا مثل هذا الحق . قرر الديوان الهمايونى الحيلولة دون ذلك ؛ إذ إن تشكيل ألمانيا تمتد من الراين إلى موسكو سوف يصنع بالنسبة للعثمانية ماردا جديدا .

قرر الديوان بعد إجراء المحادثات اللازمة إجلاس أحد الأمراء من فرنسا التى تحت حمايتها على عرش كراكوفى . اتفق فى هذا الشأن مع كل من مجلس الأشراف (Diyet) البولونى وملك فرنسا شارل ٩ . انتخب هنرى شقيق شارل ٩ لملكية بولونيا وأعلن بالكتاب السلطانى لسليم الثانى ملكا على بولونيا (١٥٧٣/٥/١٧) (« استنادا لأمرنا الشريف نصبنا وعينا شقيق ملك فرنسا ملكا على ولاية بولونيا (Leh) أتفضل عليكم أنتم أمراء بولونيا ، أن تتقبلوا كلكم بالإجماع الملك المشار إليه عند قدومه إلى بولونيا ؛ وفى حالة مخالفتكم أمرى الشريف لايتقبل منكم أى عذر » .

أعلن ، على أثر هذا الخط السلطانى ، مجلس الأشراف البولونى (Leh Diyet) Henri de Valois ملكا على بولونيا . جاء الملك هنرى إلى بولونيا . لكنه بقى ٤ أشهر و ٢٣ يوما فقط ثم غادرها إلى باريس خلسة دون أن يخبر الشعب الذى انتخبه ملكا . مات أخوه الكبير هنرى ٩ دون أن يخلف ولدا . أعلن ملكا على فرنسا بدلا منه بلقب هنرى ٣ . استاء الديوان . كان عرش بولونيا قد خلى مرة أخرى . تجدد أمل ألمانيا . كانت ألمانيا قد هددت بحرب أكيدة وكان الديوان قد اضطرها إلى العدول عن ذلك ، لكن الديوان كان يخشى من الأمر الواقع . وفى هذه المرة انتخب باقتراح صوقوللو ، الأمير Bathory أمير أردل (ترانسلفانيا) التابعة للعثمانية ، أى أحد المجريين ملكا على بولونيا وتمكن من الحصول على موافقة مجلس الأشراف البولونى (١٥٧٥/١٢/١٣) . يأمر الخط السلطانى (١٥٧٦/١/٢٣) الذى أرسله مراد الثالث إلى الملك باثورى بأنه « أمر وتفضل » بمنح إمارة أردل كذلك ، لكنه سيقوم بإدارة أردل وبولونيا – ليتوانيا كدولتين منفصلتين وأن كلا الدولتين هما جزءان لاينفصلان عن الدولة العثمانية « بمثابة ممالكنا المحروسة وتلتزم بالطاعة والانقياد » . وافقت بولونيا فى معاهدة ١٥٧٧/٧/٣٠ المكونة من ٢٤ مادة على كونها جزءاً من

الدولة العثمانية ، وأن الملك Bathory بصفته ملكا على بولونيا ودوقا - كبيرا لليتوانيا تابع للبادشاه ، وبصفته أمير أردل سيتلقى الأوامر من الديوان بصورة مباشرة .

جلس مراد الثالث ، وقد انضمت دولتان كبيرتان كفاس على الأطلسى فى الغرب ، وبولونيا - ليتوانيا على بحر البلطيق فى الشمال إلى النظام العثمانى .

مات الملك Bathory فى ١٥٧٨ بلا وريث . ووقع الديوان كذلك فى مشكلة . عرض دوق - كبير فلورنسا استعداده لدفع مليون ليرة ذهبا دفعة واحدة للديوان ، إذا ماانتخب ملكا على بولونيا ، وأن يسدد ضريبته السنوية بانتظام .

لم يسع الديوان انتخاب أمير لهذا العرش تابع لإسبانيا . وانتخب الأمير السويدى Sigismund الذى لم يكن لقطره أية مشكلة مع العثمانية . كان إمبرطور ألمانيا رودلف ٢ (١٥٧٦ - ١٦١٢) ، يرغب فى تزويج ابنه بأميرة السويد وتنصيبه ملكا على بولونيا . راجع الديوان ، فرفض ، وبناء على ذلك سار الأرشيدوق Maximilian بجيش ألمانى على بولونيا ودخلها وظفر بالأميرة عنوة وأراد تحقيق رغبته بالأمر الواقع .

هزم الجيش البولونى المعزز بوحدات الصاعقة التركية الألمان فى حرب Krakovi الميدانية (١٥٨٨/٦/٢٦) وأسر الأرشيدوق . أجلس Sigismund الثالث على عرش بولونيا ؛ كما أصبح بالإضافة إلى ذلك فى ١٥٩٢ ملكا على السويد . كان قد ترك المذهب البروتستانتى وأقر المذهب الكاثوليكى عند تتويجه ملكا على بولونيا ، ونظرا لعدم موافقة السويديين فى ١٦٠٤ على ملك كاثوليكى ، ترك عرش السويد ، وظل ملكا على بولونيا فقط . احتل ملك بولونيا الذى توج بحضور طرغد جاووش أحد مرافقى السلطان مراد الثالث بخط سلطانى ، موسكو فى ١٦١٠ - ١٢ ولبس تاج القيصر فى الكرملن . كان عداء السويد وبولونيا تجاه الروس متمشيا مع سياسة الديوان .

نظم كل من Bathory و Sigismund الجيش البولونى على غرار الجيش العثمانى . رفعت المتبوعية العثمانية عن بولونيا بعد ذلك ، لكن النفوذ العثمانى استمر على مدى سنوات طويلة . تعتبر معاهدة ١٥٩١/٩/١٦ وثيقة هامة ، وهى تبين تبعية بولونيا - لتوانيا العثمانية ، وتنص على أن تسدد بولونيا إلى إستانبول ٢٥٠٠٠٠ ليرة ذهبا سنويا

وتسدد من ناحية أخرى ضريبة إلى قرم ، كما تنص على أن تتعهد باتباع السياسة الخارجية العثمانية .

كان الإمبراطور الألمانى ، ليس بصفته إمبراطوراً ، وإنما بصفته أرشيدوق النمسا ، تابعا للبادشاه (هامر ، ٧ ، ٤٠) ، وكان يهتم بإرسال ضريبته إلى البادشاه كل عام . وكان عليه أن يأخذ موافقة إستانبول حتى فى اختيار الأميرة التى سيتزوجها ابنه . وبينما وصلت شوكة العثمانية فى الخارج إلى هذا الحد ، بدأ الفساديدب فى الداخل . لكن العالم الخارجى لم يكن قد أحس بهذا الفساد بعد . كانت « الدولة العالمية العثمانية » أمرا واقعا ، ولم تكن أية دولة تقوم بأى عمل على رغم العثمانية وإنما كانت تستأذنها وتأخذ موافقتها ، وكانت الدول المقاومة للعثمانية كأسبانيا وإيران لاتوفق غالباً فى مساعيها .

ومع أنه لم يشعر لا العالم الخارجى ولا العثمانيون فى تلك الفترة بنثر بذور الانحطاط العثمانى ، كذلك لم يشعر أحد بنثر بذور الانتعاش الروسى . لم تكن لروسيا أية أراض فى القارة الآسيوية فى ١٥٨٧ ، وخلال المدة القصيرة جدا لغاية ١٦٠٠ احتلت قسما لايستهان به من سيبريا ، ومنذ ١٥٩٢ توسعت أراضيها إلى حد ٥ ملايين كم^{٢} و ٧ ملايين نسمة ، وبالنسبة للعثمانية كانت روسيا دولة من الدرجة الثانية تابعة لها بل كانت تابعة لتابعها قرم . ولم تكن فكرة أوروبا عن روسيا مختلفة عن هذه .

كان القيصر بالنسبة لملك بولونيا « سائس خان قرم » . والملك بالنسبة للروس « خادم الأتراك » (Lavisse – Rambaud ، ٥ ، ٧٥٢) . ترك إيفان « الرهيب » (مدهش) (١٥٣٣ – ١٥٨٤) لقب « الأمير – الكبير » لأجداده الحكام واتخذ لنفسه فى ١٥٤٧ لقب « قيصر » (جار) الذى يعنى « ملك – كبير » أو « إمبراطور – صغير » .

كان على سطح الأرض حتى سنة ١٥٨٩، ٤ بطاركة أرثوذكس ، وكان هؤلاء البطاركة المقيمون فى كل من إستانبول ، القدس ، أنطاكية وأسكندرية من رعايا العثمانية وكان الأول الذى « يسمى جهان بطريكى » (بطريك العالم) أرفعهم منزلة . رفع Yeremia بطريك إستانبول فى ذلك التاريخ درجة مطران موسكو إلى

درجة بطريك أرثوذكس خامس بعد ذهابه إلى موسكو مرات متعددة . وهكذا ظهر بطريك ليس من رعايا العثمانية . كان ذلك أول علامة على عدم تمكن العثمانية من احتضان كامل العالم الأرثوذكسى (Lavisse-Rambaud ، ٥ ، ٧٥٨ - ٩) . وإن كانت العثمانية حتى ذلك الوقت قادرة على سحق روسيا . تقدم خان قرم غازى كيراى ٢ فى ١٥٩١ ، حتى أسوار موسكو . وانتصر على القيصر مثلما انتصر أبوه دولت كيراى فى حروب عديدة وأجبره على دفع ضريبة سنوية ، وسوف يسدد القيصر هذه الضريبة لخان قرم لغاية ١٦٨٩ .

١٥) بدء الحرب مع إيران (١٥٧٨/٤/٥)

استقبل الشاه طحمسب جلوس مراد الثالث بسرور بالغ . مثل بين يدى السلطان مراد ، (١٥٧٥/٥/١٣) طوقمان محمد خان من الأتراك الآزريين ابن الصدر الأعظم شاه قولو الذى قدم آنذاك إلى تركية (١٥٦٨/٢/١٦) للتوقيع على معاهدة أدرنه . كان الوفد الإيرانى مكونا من ٢٥٠ شخصا يصحب معه هدايا محملة على ٥٠٠ جمل . قدمت لخاقان العالم ٦ جرارات مليئة بالماس ، الزمرد ، الياقوت ، اللؤلؤ والهدايا الأخرى . مات الشاه طحمسب بعد فترة قصيرة (١٥٧٦/٥/١٤) . دامت سلطنته ٥٢ سنة إلا ٢١ يوما . كان عمره ٦٢ سنة ، وشهران و ٢٠ يوما . وكان قد ترك لإيران الدولة الثانية فى العالم خزينة احتياطية لايصدقها العقل . خلع (١٥٧٧/١١/٢٤) ابنه إسماعيل الثانى الذى خلفه لميله إلى المذهب السنى - الشافعى . خلفه أخوه الكبير محمد خدابنده . كان أعمى وعمره ٤٥ سنة . كانت السلطة الحقيقية بيد أبنائه ميرزا حمزة وعباس . كان الوضع الداخلى لإيران متأزما .

وكانت العثمانية تشعر أنها دائنة ، وتطلب من الصفويين الشىء الكثير . أخذ هذا التفكير يتعاظم على مر الزمن .

عارض صوقوللو بشدة الحرب مع إيران ، لم يتمكن من منعها . حال دون ذهاب البادشاه إلى إيران ، ولم يذهب هو أيضا .

أعطيت القيادة لفاتح قبرص لالا مصطفى باشا . سار القائد من إستانبول . أعلنت الحرب على إيران بصورة رسمية (١٥٧٨/٤/٥) . ولكن بإصرار من

صوقوللو انقسمت جبهة إيران بعد قليل إلى قسمين ، بقيت الجبهة الشمالية لدى الوزير ٣ لالا باشا . عين خصمه اللدود قوجا سنان باشا الذى كان برتبة وزير ٤ فى الديوان ، لقيادة الجبهة الجنوبية (١٥٧٨/٥/٩) . ولم يكلف الوزير ٣ داماد بيالة باشا بواجب فى البر ، لكونه أميراً بحريا .

جاء لالا باشا إلى قونية . قبل غطاء صندوق قبر مولانا . فتح صحيفة من المثنوى - بصورة غير مقصودة - فى حضور المتصوف الكبير المعنوى . كانت أمامه أبيات شعرية تتحدث عن فتوحات إسكندر الكبير . سر القائد . كان لالا باشا قد طلب أوزدمير أوغلو عثمان باشا مساعدا له (رئيس أركان الجيش) . عين عثمان باشا واليا (فريق أول) على البصرة ومن ثم على دياربكر . عزله صوقوللو الذى ينفر منه ، من إيالة دياربكر ، وعين بدلا منه ابن عمه صوقوللو - زاده درويش باشا . لم يذهب عثمان باشا إلى إستانبول خشية إصابته بحادث . كان مقيما فى دياربكر . جاء إلى لالا باشا الذى عسكر فى قرية جنس Cinis (١٥٧٨/٧/١) . كان يحمل مهمات الجيش العثمانى ٤٠٠ قطار من الإبل (القطار الواحد = ٧ جمال) وكان القطار ٢٦ هو الذى يحمل الخزينة والحاجات الثمينة ، أما القطار ١٥٠ فكان يحمل الأعتدة والبقية تحتوى على الأطعمة . كلف القائد العام ، الذى سمع بخبر هزيمة الوالى خسرو باشا لأمير خان قرب وان أوزدميرا أوغلو بمهمة إيقاف الجيش الصفوى المقبل عليه . خرج أوزدميرا أوغلو قبل الجيش ، وصل الجيش العثمانى إلى شمال غربى بحيرة جلدر Çildir . شوهد الجيش الصفوى بقيادة طوقماق خان الذى كان قد جاء إلى إستانبول مع الوفد قبل مدة .

١٦) حروب ميدانية كبيرة فى صيف وخريف ١٥٧٨ وفتح قفقاسيا

كان لدى طوقماق خان ٣٠٠٠٠ فارس. كان مساعداه والى كنجة أمام قولو خان وقره خان أسطه جالو . كان والى أرضروم بهرام باشا ووالى دلقادر (مراش أحمد باشا) ، فى جناحى عثمان باشا . كانت كتيبة الاستطلاع تتقدم الجيش العثمانى بقيادة آمر كتيبة بايبورت بكربك ، ويعقبه فورا كوحدة طليعية والى (برتبة لواء) أردخان عبد الرحمن بك . وسوف يحدد هذا القتال مصير قفقاسيا ، إما أن تظل لدى إيران ، أو تنتقل إلى العثمانية .

كسر عثمان باشا الجيش الصفوى التركمانى الذى يتكلم اللغة ذاتها بسهولة . ترك طوقماق خان الذى قدم ٥٠٠٠ قتيل و ٥٠٠ أسير وآلاف الجرحى ساحة القتال . كانت خسائر العثمانية عبارة عن ٧ أمراء كتيبة من الأكراد و ٢٠٠ شهيد وعدة مئات من الجرحى (حرب جلدر الميدانية ١٥٧٨/٨/٩) . دخل لالا باشا إلى تفليس (١٥٧٨/٨/٢٤) بعد أن احتل آخيلكلك فى ١٠ آب . لم يتمكن Dawith ملك الكرج فى كارثلى Karthli من صيانة مدينة عرشه وكان قد لجأ إلى متبوعه الشاه . كانت مدينة أرثوذكسية مسيحية ، وكان بها مسلمون كثيرون . لم يمس الشعب بأى سوء . عين لالا باشا والى قسطمونى محمد بك ابن صولاق فرهاد باشا والى بغداد ، أول والٍ على تفليس . كان Alexandré ٢ ملك كاختى Kakheti الكرجى الأقل أهمية فى الشرق ، جاء إلى تفليس وقبل يد لالا باشا . جعل لالا باشا من Kakheti إيالة كذلك باسم إيالة كرجستان وعين الكساندرخان واليا (فريق أول) عليها (١٥٧٨/٩/١) .

أصبح من الواضح أن هدف الفتح العثمانى هو شيروان (شمالى آذربيجان) . أراد الصفويون قطع طريق شيروان . جاء أمير خان وطوقماق خان مع ٢٠٠٠٠ من فرسان التركمان . هزم أوزدميرا أوغلو عثمان باشا الجيش الصفوى مرة أخرى (معركة قويون كجيدى الميدانية ١٥٧٨/٩/٩) . قتل ٥٠٠٠ جندى صفوى . مات ١٠٠٠٠ غرقا فى آراس أثناء انسحابهم . أسر أو هرب ٥٠٠٠ من الجرحى . كان بمعية عثمان باشا فى هذا الانتصار ٤ فرقاء أول (ولاة) ، (حلب ، أرضروم ، دياربكر ، دلقادر) . وجدير بالذكر أن عثمان باشا الذى أكسب الدولة كرجستان بانتصاره فى جلدر ، كان قد أكسبها كذلك آذربيجان التى يطلق عليها اسم « شيروان » بانتصاره فى قويون كجيدى . كان لالا باشا أدهى وأذكى رجال الدولة فى عهده . ترك إدارة جميع الحروب لعثمان باشا ، ولم يبد أدنى علامة للغيرة والحسد . وتأخر هو مرحلة عنه إلى الوراء . كان لالا باشا كذلك أكبر عسكرى فى عهده ، لكن عثمان باشا كان يتمتع بدهاء عسكرى منقطع النظير . ولو كان صوقوللو أو سنان مكانه لقضيا فى الحال على جنرال يظلل شهرتهم . سرت إستانبول سرورا كبيرا بفتح شيراون وذلك لكونها بلادا غالبية أهلها سنيون ويتكلمون التركية . بقى لالا باشا فى إرش Eres مركز القطر اعتبارا من ١٢ أيلول حتى ٨ ت ١ . شيد

قلعة عظيمة وضع فيها ١٠٠ مدفع . عين والى (برتبة لواء) صاروخان قيتاس بك ، أول وال (فريق أول) على شيروان (منجمباشى ، ٣ ، ٥٤١) .

كان القطاع الغربى من شيروان قد تم فتحه ، والقطاع الشرقى أى سواحل الخزر لايزال لدى الصفويين . كان شعب هذا القطاع سنيا ، وعند اقتراب العثمانية ثار ضد الصفويين الذين عانوا من ظلمهم وطردوهم . دخل لالا مصطفى باشا وأوزدمير أوغلو عثمان باشا إلى شيروان الشرقية بسهولة وأمعنا النظر فى المياه الخضراء لبحر الخزر بسرور .والآن كان الأمر يقتضى ذهابهم إما إلى داغستان فى الشمال ، أو إلى آذربيجان الجنوبية التى مركزها تبريز فى الجنوب . كلاهما كانا قطرين تركيين . رُجح الذهاب إلى داغستان لكونها سنية لإنقاذ شعبها من سيطرة الشيعة .

أمر لالا بإجراء تعداد فى شيروان . تم تثبيت ضريبة القطر السنوية بـ ٢٥ مليون آقجه ؛ مليون آقجه من هذا المبلغ كان ضريبة تؤخذ من نفط (بترول) باكو . قام بهذا التعداد المؤرخ الشاعر دالى محمد جلبى الذى عين واليا بعد ذلك . عين آمر كتيبة آفلونيا واليا (لواء) على باكو بعد ترفيعه . كلف لالا باشا أولاً فريق أول (والى) دياربكر درويش باشا ومن ثم فريق أول (والى) حلب محمد باشا أن يكونا واليين على شيروان ووعدهما إن وفقا فى واجبهما فسيرفعان خلال عدة سنوات إلى رتبة وزير (مشير) . اعتذر كلاهما رغم هذا الوعد . إذ كان واضحا أن الجيش الصفوى ويحتمل الشاه بالذات سيدخل الإيالة فور انسحاب القائد . طلب أوزدمير أوغلو عثمان باشا هذه الولاية التى لم يرغب فيها أحد . أثنى لالا باشا كثيرا على تضحية صديقه هذه . تشكلت داغستان كإيالة مستقلة . أعطيت إدارة كلا الإيالتين اللتين تفصل بينهما جبال القفقاس إلى أوزدمير أوغلو ، ويمكنه إدارة الإيالتين بواسطة واليين منفصلين يكون هو آمرا لهما . إن هذا الاستعداد لدى أوزدمير أوغلو لتحمل المسئولية سوف يفتح أمامه باب رتبة الوزارة العظمى . رفع القائد قبيل مغادرته رتبة عثمان باشا إلى وزير (مشير) .

حصلت الإمبراطورية خلال الفترة آب – ت٢ من سنة ١٥٧٨ على ٤ إيالات جديدة . كانت أهمها شيروان .

انسحب عثمان باشا الذى كان يتسلم ٢ مليون آقجه كمخصصات،إلى دمير قابو مركز داغستان فى الشمال . أعطى إدارة أرش Eres إلى قيتاس باشا أى ولاه على

شيروان بمخصصات قدرها ۷۰۰۰۰۰ آقجه . قسمت شيروان إلى ١٦ لواء وداغستان إلى ٦ ألوية . خصص لأوزدمير أوغلو ٣٠٠٠ إنكشارى و ١١٠٠٠ سباهي ، ٦٦ مدفعاو ١٨٠ صندوق عتاد . وأعطيت وجدان أخرى لأمراء الأولوية . سدد القائد لالا مصطفى باشا رواتب ٦ أشهر مقدما لأفراد الجيش الذين سيبقون فى القفقاس وانسحب فى شهر ت ١ إلى أرضروم لقضاء فصل الشتاء وكانت دغستان التى تشكل كامل جنوب القفقاس والقطاع الشرقى من شمال القفقاس التى تبلغ مساحتها ١٧٤٠٠٠ كم٢ الغنية ذات الكثافة السكانية والتى يشكل أكثريتها السنيون ، وقد فتحها الصفويون خلال شهرين (٨ آب ـــ ٨ ت ١) . وكانت روان ، أران ، قره باغ وناهجوان لا تزال لدى الصفويين . كان أوزدمير أوغلو عثمان باشا بانتصاره فى معركتين ميدانيتين بفاصل زمنى مدته ٣١ يوما قد أضاف كذلك إلى فتوحاته فى الحبشة واليمن لقب « فاتح قفقاسيا » .

كان الصفويون عازمين على استرداد القفقاس من العثمانية . فى الوقت الذى غادر فيه لالا باشا أرش إلى أرضروم (٨ت١) ، كان أوزدمير أوغلو قد نصب مقره العسكرى فى شمهى Samahi (شماهى Semahi) بين باكووارش Eres . اعلن اميرى الكرج Imerethi فى كوتايس و Guria فى بوتى تابعيتهما للعثمانية (١١ ت٢) . أسس لالا باشا فى هذه المنطقة إيالة جلدر ودعى إليها مصطفى باشا . كانت تشمل بعض أراضى كرجستان وقسما من أراضى لواء قارص الحالى .

كان على الصفويين أن يجتازوا نهر كور Kür (Kura) ليتمكنوا من الدخول إلى شيروان . كان عثمان باشا قد شيد ٥ سفن حربية نهرية للحيلولة دون اجتيازهم النهر . اجتاز الجيش الصفوى المكون من ٢٥٠٠٠ شخص النهر ودخل البلاد بقيادة والى شيروان السابق أوروس خان . وجاء جيش الفرسان التركمانى الذى اجتاز النهر من ساليان وصعد نحو الشمال – الغربى أمام شماهى والتقى بجيش عثمان باشا المكون من ١٤٠٠٠ . جندى . سار جيش صفوى آخر مكون من ١٥٠٠٠ فارس إلى قايتاس باشا الذى كان لديه حينذاك ٣٠٠ جندى فى أرش . عزم الفريق الأول الشاب قايتاس باشا ، بدلا من أن ينسحب ويحصل على الإمداد ، على الدفاع ، استشهد هو مع وحدته ، أسر عبد الرحمن بك أحد الضباط برتبة لواء . دخل الصفويون أرش وذبحوا أهاليها السنيين .

أرسل الديوان الهمايونى الذى كان ينتظر هجوما صفويا كهذا فرسان قرم الذين

اعتادوا على مناورات الشتاء إلى قفقاسيا . دخل عادل كيراى ولى عهد (كالغاى) قرم القفقاس مع ١٥٠٠٠ جندى . كان يرافقه ٣٠٠ انكشارى و ١٠ مدافع ووالى آزاك (روستوف) محمد بك . « تفضل وأمر » الديوان رؤساء القبائل السنية فى قفقاسيا بالذهاب لنجدة عثمان باشا . ولكن قبل أن تصل كل هذه الإمدادات أفنى عثمان باشا جيش أوروس خان عن بكرة أبيه بعد أن دمره وأتلفه بصورة تامة بواسطة الـ ٦٦ مدفعا الموجودة لديه . تمكن عدة آلاف من الجرحى والجنود المشتتين من الجيش الصفوى الذى خسر ١٥٠٠٠ قتيل ، نحو ١٠٠٠٠ أسير من النجاة بشكل غير نظامى (حرب شماهى الميدانية الأولى ١٥٧٨/١١/١١) . أسر القائد العام أوروس خان وابنه ده ده خان واثنان من أمراء التركمان وقطعت رؤوسهم لإعطائهم أمر مذبحة أرش الجماعية . عين عثمان باشا ، بيالة بك أحد الضباط برتبة لواء واليا على شيروان مع ترقيته لرتبة الباشوية بدلا من قايتاس الذى استشهد . وأمر عادل كيراى الذى وصل آنذاك بأن يبيد الوحدات الصفوية التى يلاقيها فى شمال نهر كور Kür وألا يحاول اجتياز النهر نحو الجنوب . علم لالا مصطفى باشا بخبر انتصار شماهى الأول فى أرضروم (٢١ ت٢) التى استغرق قدومه إليها من أرش ٤٤ يوما .

سار ولى عهد الإمبراطورية الصفوية حمزة ميرزا إلى عثمان باشا الذى انتصر فى ثلاث حروب ميدانية بفترات زمنية قصيرة جدا ، على أساس أنه لايمكن القضاء عليه إلا بخروج ولى عهد صفوى يقود الحملة الموجهة إليه . ولكن لكونه صغير السن فى ١٢/٥ من عمره ، كان الهدف من وجوده رفع الروح المعنوية لجيشه فقط . وكانت القيادة الأصلية لدى سلمان خان . سار الصفويون على شكل ٤ فيالق . كان الجيش الصفوى البالغ ١٠٠٠٠٠ شخص يحتوى على أكثر من ٥٠ فريق أول (بكلربك) الذى يسمى « خان » ولواء (سنجق بك) الذى يسمى « سلطان » . كانت قوات أوزدمير أوغلو ١٤٠٠٠ جندى عثمانى و ٢٥٠٠٠ جندى قرامى و٧٦ مدفعا . كان الباشا داخل قلعة شماهى وأما القراميون فكانوا خارج القلعة ؛ حيث إن القلعة ، لم تكن تستوعب هذا العدد من الجند . وقع عادل كيراى فى كمين فى اللحظة التى هاجم فيها وحسب أنه انتصر ، وأسر مع بيالة وسيق إلى سراى قزوين . عرض الشاه هناك على ولى عهد قرم اعتناقه المذهب الشيعى . وعدا أن عادل كيراى رفض ذلك،عشقته زوجة الشاه وكذلك أخت الشاه وأوقع الخلاف بينهما لتنازعهما عليه . أمر الشاه الذى علم بخبر هذه الفضيحة ، بقتل الأمير . كان

عادل كيراى محاربا ممتازا إلى درجة أنه قتل ٧ من أفراد الحرس الصفوى الخاص الذين حملوا عليه ثم سقط « شهيداً للعشق » .

من ناحية أخرى ، لم يكن عثمان باشا قد خضع للصفويين رغم أنه فقد ١٠٠٠٠ من جنده وكبد الصفويين ٢٠٠٠٠ قتيل . لم تسفر حرب شماهى الميدانية الثانية (١٥٧٨/١١/٢٧) عن نتيجة حاسمة . لكن عثمان باشا الذى قل عدد جيشه ، ترك شيروان للصفويين وانسحب إلى دمير قابو (بالفارسية : دربند ، بالعربية : باب الأبواب) فى داغستان (٧ ك٢) . وفى ١٢ ك ٢ ، جاء إلى دمير قابو . أما بيالة باشا الذى وقع فى اسر الصفويين مع عادل كيراى فقد نجح فى الفرار من قزوين إلى سمرقند . استقبل هناك بحفاوة بالغة وأكرمه خاقان تركستان عبد الله خان ، وعاد إلى إستانبول بصحبة سفيره .

حاول الصفويون الذين استرجعوا شيروان أخذ تفليس مفتاح كرجستان قبل حلول الربيع وقدوم لالا بباشا . بدأ حصار تفليس (١٥٧٩/٣/٣٠) . أما لالا باشا ، فلم يتمكن من التحرك قبل ١١ تموز (١٥٧٩) بسبب انتظاره قدوم الجند من الإيالات . سار من أرضروم بـ ١٠٠٠٠٠ جندى .

١٧) حركـات عـام ١٥٧٩

يعتبر دفاع محمد باشا عن تفليس بـ ١٨٠٠ من جنوده تجاه ١٥٠٠٠ من جنود إمام قولوخان ، من أكبر حروب الدفاع فى التاريخ .

بدأ الحصار الشديد فى ٣٠ آذار ، لم يبق من جند فرهاد باشا – زاده محمد باشا فى نهاية تموز سوى ٧٠٠ جندى . أكلت جميع الحمير والقطط والكلاب بعد الخيل الموجودة فى القلعة وأصبح سعر الكلب الواحد داخل القلعة سعرا خياليا مثل ٢٠٠٠ آقجه . وخلال هذه الأيام ، جاء قائد القوات البحرية وناظرها قيليج على باشا إلى Poti (بالتركية : فاش) وشيد فيها قلعة وأسطولا نهريا رفيعا . أما القائد العام لالا باشا ، فقد جاء فى ٢٦ تموز إلى قارص وأمر بإنشاء قلعة محصنة جدا . وبينما الباشا يقترب رفع امام قولو الحصار المدهش الذى دام ١٢٤ يوما (١ آب) . والمشهور

عنه أنه عندما سمع عزف الموسيقى العسكرية (مهترخانة) لم شعثه فى الحال وهرب . وكان والى (فريق أول) دلقادر مصطفى باشا فى المقدمة يقود الوحدة الطليعية . فتح محمد باشا مع ٧٠٠ من جنده الذين أشرفوا على الموت من الجوع ، باب القلعة وحضن مصطفى باشا باكيا . كان قد صرف ثروته البالغة ٥٠٠٠٠ قطعة ذهب التى ورثها عن أبيه للدفاع عن تفليس .

أنجز خلال ٢٧ يوماً بناء قلعة قارص فى ٢٣ آب ، ويعتبر ذلك من ألمع الأعمال والإنجازات فى التاريخ العسكرى التركى . كان مجموع طول الأسوار والحصن ، والخنادق ٥٠٠ / ٣٠ م . فى ٢٧آب ، جاء والى (برتبة لواء) آزاك محمد بك مع ١٠ آلاف جندى إلى دميرقابو (داغستان) والتقى بقوات أوزدمير أوغلو وأعلمه باقتراب خان قرم محمد كيراى . أسس أوزدمير أوغلو أسطول الخزر على أن تكون القاعدة دمير قابو (دربند) كان الديوان قد أرسل ٢٠ قائد سفينة (قبطان) ، جنود بحرية ، مدفعيين ، مهندسين ، معماريين ، أخشاب ، قطران ، مجادف ، مدافع بحرية وأنواع أخرى من المهمات . عين لقيادة أسطول الخزر والى آزاك محمد بك . رفعه أوزدمير أوغلو إلى رتبة فريق أول . كان أسطول الخزر تابعا للديوان مباشرة ، كأسطول الهند (السويس) وألطونة ، وليس تابعا إلى القائد العام ناظر البحرية .

كان لالا باشا فى قارص . أنشأ مدينة بعد إنشائه القلعة . كان العثمانيون قد تسلموا قارص كما تسلموا أرضروم خالية خربة وغير مسكونة . شيد لالا باشا فيها ٥ مساجد ، وجسرين ، وسراى للوالى ومدرسة (التحصيل المتوسط والعلوم الدينية) ، ومكتبا (التعليم الابتدائى) ، ثكنة ، حمامات ومساكن وافتتح المدينة فى ٢٢ أيلول . وطلب قدوم الأهالى من المناطق المجاورة وسكناهم فيها . تم تحصين تفليس . أسر العثمانيون الذين دخلوا روان فى ٦ ت ١ ، ٢٠٠٠٠ صفوى . وجاء محمد كيراى خان إلى دربند فى ٧ ت١ والتقى بأوزدمير أوغلو . كان الخان يبغى الانتقام لأخيه وولى عهده عادل كيراى . وكان قد سار من قرم فى ٢٦ تموز بـ ٨٠٠٠٠ فارس . وفى ١١ ت١ ، سار أوزدمير أوغلو مع الخان من دربند . دخل باكو . قتل فريق أول (والى) شيروان الصفوى محمد خان الذى حاول الدفاع عن شيروان مع ١٥٠٠٠ من جنوده . لم يدم الاحتلال الصفوى فى شيروان سوى

عشرة أشهر ونصف . وقع فى هذه الأيام حادث امتد صداه وشمل العالم بأسره ؛ فقد اغتيل فى إستانبول الوزير الأعظم داماد صوقوللو محمد باشا ، واحتل مكانه الوزير ٢ أحمد باشا . وبذلك ارتقى لالا مصطفى باشا من رتبة الوزارة ٣ إلى الوزارة ٢ ، وأصبح سنان باشا وزيرا ٣ . وفى ٢٢ ت١ انسحب لالا باشا مع جنوده وعددهم ١٠٠٠٠٠ إلى أرضروم لقضاء الشتاء . انتهى موسم هذه الحملة بفتح روان واسترداد شيروان وهماشمالى آذربيجان وأرمنستان الحالية . لكن تحقيق لالا باشا هذه الانجازات بواسطة قواده التابعين له وانشغاله هو فى قارص بإنشاء المدينة مدة شهرين ، ٢٧ يوما وعدم تقدمه ، أفاد كثيرا أعداءه فى الديوان . ورغم أن أوزدمير أوغلو كان قد اقترح على القائد العام لالا باشا بأن هناك ٨٠٠٠٠ جندى قرامى وأنه بالإمكان الدخول إلى قزوين والقضاء على إيران بقيادة لالا باشا ، إلا أنه لم يتمكن من الحصول على موافقته . إذ إن مسألة إيران بالنسبة إلى لالا باشا هبطت إلى الدرجة الثانية . كان كل همه وتفكيره فى تبديل السلطة فى إستانبول . كان مقتنعا بأن أحمد باشا شخصية ضعيفة وأن باب الصدارة قد انفتح له ، وسيمكنه ترأس مقام الإجراء فى الدولة العالمية الذى حاول اقتناصه قبل ١٣ سنة . أما خان قرم فإنه ودع أوزدمير أوغلو فى ٧ ت٢ وذهب إلى قرم . ترك لأوزدمير أوغلو وحدة عسكرية بقيادة أخيه غازى كيراى .

(١٨) حركـــات عـــام ١٥٨٠

كان بقاء الباشا القائد عاطلا فى الوقت الذى كان فيه القضاء على إيران ممكنا خطأ عسكريا وسياسيا كبيرا . ولكن كان الشائع أنه لم يكن يرغب فى إكساب أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى ذاع صيته وفاقه شهرة لقب فاتح إيران . نقل الديوان وزيره ٢ من القيادة العامة لحملة إيران (١٥٨٠/١/٧) ، وعين مكانه الوزير ٣ قوجا سنان باشا الذى كان سيىء السجايا وعديم الأخلاق ، ولا قيمة له من الناحية العسكرية . ومن غير الممكن أن يستعاض به عن لالا باشا ، ويصبح وهو عدو لأوزدمير أوغلو قائدا له . لكن سنان باشا وعد فى الديوان بأنه إذا ماأعطيت القيادة العامة له فإنه سيكبل الشاه بالسلاسل ويقتاده إلى إستانبول ، وقد صدق الديوان هذه الثرثرة . جاء كل من لالا باشا إلى إستانبول ليحتل مكانه كوزير ٢ فى الديوان ، وسنان باشا إلى أرضروم . وبوفاة أحمد باشا بعد عدة أسابيع ، أصبح لالا مصطفى

باشا وزيرا أعظم بعنوان « وكيل السلطنة » (١٥٨٠/٤/٢٨) وكان يستعد للقضاء على سنان باشا ، لكنه مات بعد ٣ أشهر و ٩ أيام من الحياة السياسية والعسكرية الصاخبة . وعندما علم سنان باشا العاطل بدون عمل بوفاة غريمه الأكبر ، أقام احتفالا فى الجيش عندما كان بجوار تفليس وعاد إلى إستانبول بصفة وزير أعظم . وهكذا قضى سنان باشا الذى لم تكن له أبداً نية إرسال جنود إلى أوزدمير أوغلو ، ولا الالتئام به ، سنة ١٥٨٠ دون حركة وبلا مكسب . وأعطى مجالا لإيران لكى تلم شعثها . كان يعلم - رغم كونه قائدا عاما - أنه لو اشترك فى حركات عسكرية فإن النصر سيعود لعثمان باشا وليس له . حيث إن الشعب لم يكن غبيا . كان الكل يعلم أن سنان باشا عسكرى متملق . وعثمان باشا رجل حرب داهية .

١٩) حركـــات عـــام ١٥٨١

هكذا توفى صوقوللو - زاده داماد قره لالا مصطفى باشا (١٥١١ - ١٥٨٠) ، فاتح قبرص وأحد أكبر العسكريين فى القرن ١٦ بعد صدارة دامت ٣ اشهر و ٩ أيام وعمره ٦٩ سنة . أخواه الوزير ٢ دلى خسرو باشا (وفاته ١٥٤٤) وفريق أول (والى) إيالة روملى محمود باشا (وفاته ١٥٨٠) . وقد خلف مؤسسات خيرية كبيرة جدا . تزوج أولا بفاطمة خاتون حفيدة سيباى نائب السلطنة المملوكية فى الشام المولودة من ابنته والسلطان قانصو غورى ، وتزوج بعدها هما سلطان ابنة الشهزاده محمد ابن القانونى . تزوج أحد أبنائه الوزير جعفر باشا (وفاته ١٥٨٧) بصفية خانم سلطان ابنة صوقوللو محمد باشا المولودة من ابنة سليم الثانى .

إن حاجى قوجا سنان باشا عدو لالا باشا مدى الحياة والذى يعتبر من الشخصيات النموذجية لبداية عهد الانحطاط العثمانى - ألبانى (١٥٠٦ - ١٥٩٦) . أخوه الكبير هو الوزير إياز باشا (١٥٠٠ - ١٥٦٠) . كان سنان باشا الذى يكبر لالا باشا سنا ويأتى بعده مباشرة فى القدم متزوجا بأميرة هى (خانم سلطان) ابنة السلطان ياوز سليم . وقد ترك هو كذلك أعمالا خيرية تحير العقل .

انقضت سنة ١٥٨١ بجمود بسبب عجز سنان باشا وطلب إيران الصلح . كان أوزدمير أوغلو قد نقل قاعدته إلى باكو ، واهتم بتحسين إنتاج آبار نفط باكو

وإصلاح قلعة باكو ، كما عنى بتعزيز أسطول الخزر وكان ينتظر قدوم الجند ، لكنه لم يتمكن من الحصول من قرم على أكثر من ٥٠٠٠ جندى فقط . دُمر جيش سلمان خان أثناء محاولته اجتياز نهر كور Kur لاستعادة شيروان على يد غازى كيراى الذى أرسله أوزدمير أوغلو لصده . تمكن ٣٠٠ جندى فقط من النجاة من بين ١٨٠٠٠ من جنود الصفويين (ك٢/١٥٨١) . ثم حاصر سلمان خان آخر وهو صدر أعظم إيرانى باكو لكنه انسحب منهزما . هنأ مراد الثالث عثمان باشا وغازى كيراى . أما الوزير الأعظم سنان باشا ، فإنه لم يكتف بعدم مساعدة عثمان باشا الذى صاحب لالا مصطفى باشا مدى الحياة ، بل إنه كان يبحث عن الوسائل التى تمكنه من القضاء عليه . لكنه لم يتمكن من تحقيق ذلك بسبب شهرة الباشا العسكرية الفائقة . استمرت قيادة سنان باشا الذى عاد إلى استانبول فى ٢٢ تموز (١٥٨١) مدة سنة و ٦ أشهر و ١٥ يوما . وكان قد قضى ٥ أشهر و ٥ أيام من هذه المدة فى أرضروم فى توزيع الإيالات والألوية على مؤيديه .

٢٠) حركـــات عـــام ١٥٨٢

جاء السفير الصفوى إبراهيم خان توركمن فى ١٥٨٢/٣/٢٩ حاملا مقترحات الصلح . وأفاد بأن الشاه موافق على الصلح مع بقاء كرجستان وداغستان لدى العثمانية شريطة إعادة شيروان . لكن شيروان كانت بحوزة العثمانية ، وكان ترك العثمانية شيروان السنية التى حصلت عليها بسكب الدماء معارضا لمبادئها . كانت إيران فى هذه الأثناء تحارب الخاقان التركستانى جنكيز أوغلو عبد الله خان شيبانى. لم يفكر سنان باشا حتى من الاستفادة من هذا الوضع . عزل مراد الثالث ، الذى غضب على طلب السفير الإيرانى استعادة شيروان،سنان باشا من الوزارة العظمى ، كان الشاه فى خراسان فى حملة ضد الخاقان التركستانى . كان وضع إيران حرجا . لكن جبهة إيران ، كانت بعهدة أوزدمير أوغلو مع جيش غير كاف أبدا . ترك الجيش الموجود معظمه فى أرضروم عثمان باشا لحاله فى ضفاف الخزر ، لعدم تسلمه أمراً من إستانبول .

دخل بيكر خان مع ١٥٠٠٠ جندى صفوى إلى شيروان . انتصر على غازى كيراى الذى حمل عليه بـ ٣٠٠٠ فارس قرامى وأسره كما كان قد أسر أخاه الكبير

عادل كيراى . غازى كيراى عسكرى فائق ، يجيد لغات عديدة ، عالم ، شاعر متميز باللغة التركية وملحن قدير جدا . بهر ولى عهد الإمبراطورية الإيرانية حمزة ميرزا بهذا الأمير القرمى الذى يجمع كل هذه الصفات ، وأكرمه كثيرا . عرض عليه أنه يمكنه أن يطلب مايريد فى حالة اعتناقه المذهب الشيعى وحاول معه كثيرا فى هذا الصدد . وعلى أثر معارضة غازى كيراى ، حبسه فى قلعة قهقهة (آلاموت) . بقى الأمير القرامى حفيد جنكيز فى البطن ١٦ وعمره ٢٨ سنة فى الزنزانة عدة سنين لكنه لم يترك اعتقاده السنى . أسر بعد مدة أمير اللواء دال محمد بك (باشا) وسيق إلى حجرة غازى كيراى . كان هو كذلك شاعرا ومؤرخا . بدأ الأميران قضاء الوقت فى الأحاديث وقراءة الأشعار والنظم .

حرر أوزدمير أوغلو عثمان باشا رسالة إلى مراد الثالث . ذكر فيها أنه أصبح ألعوبة بأيدى الرجال عديمى الكفاءة فى إيران ، وأنه ظل منذ سنوات فى الجبهة الإيرانية وأن فرصا كبيرة قد ضاعت ، وأنه فى حالة عدم إصلاحه هذا الوضع فسوف يصاب شرف الدولة بالشوائب . جن الوزير الأعظم والديوان الهمايونى . كيف يمكن لهذا الوزير أن يتجاوزهم ويراجع البادشاه مباشرة ؟ لكن البادشاه لم يعط أذنا مصغية للأقوال الصادرة عن الديوان ، وأرسل جيشا من إستانبول إلى كفة فى قرم . اجتاز الجيش الذى توحد تحت قيادة جعفر باشا فريق أول (والى) كفة جبال القفقاس الهائلة وجاء من كفة إلى دمير قابو خلال ٨٠ يوما (١٥٨٢/١١/٢٤) . حصل عثمان باشا على الجنود الذين كان فى انتظارهم منذ سنين . وتخلص من حرج الوضع .

٢١) حركات عام ١٥٨٣ ، انتصار مشعلة لر (١٥٨٣/٥/١١) ، فتح روان (١٥٨٣/٨/١٥)

منح فرهاد باشا رتبة الوزارة (مارشال) وعين قائدا عاما على الجبهة الإيرانية (١٥٨٣/٣/٢٨) . تحرك القائد فى ١٠ نيسان من إستانبول مع ٦٠/٤٠٠ جندى و ١٠ . . . عامل بناء و ٣٠٠ مدفع للحاق بالجيش فى أرضروم . سار أمام قولو خان الذى علم بخبر قدوم جيش كبير ، بـ ٥٠ . . . جندى قاصدا القضاء على عثمان باشا قبل قدوم هذا المدد . اقترب حتى الضفة الجنوبية من نهر سامور Samur الذى

يفصل شيروان عن داغستان . وجاء إلى سهل بيلاسا Bilasa قرب مدينة كوبا . تقابل الجيشان التركيان مرة أخرى للنزاع على شيروان . ورغم أن الحرب الميدانية بدأت فى ٨ أيار لم يتمكن عثمان باشا من تحقيق نتيجة حاسمة إلا بعد ٣ أيام . كان والى كفه الفريق الأول جعفر باشا فى الجناح الأيسر ، ووالى سيواس الفريق الأول جركس حسن باشا فى الجناح الأيمن . كان القائد العام (السردار) عثمان باشا قد قطر ٣٠ مدفعا أمام جيشه . وفى ليلة ٩ - ١٠ أيار ، اقتتل الطرفان على ضوء المشاعل ليرى كل منهم خصمه ويحسن قتله . تفكك الصفويون فى وقت مبكر من الصباح .

كان الفرسان التركمانيون الصفويون الأبطال الذين خسروا ١١٠٠٠ قتيل و ٣٠٠٠ أسيراً وعشرات الألوف من الجرحى يتساقطون على الأرض الواحد تلو الآخر بمدافع العثمانية . بدءوا فى التراجع . ورغم أن امام فولو خان توركمن تقدم جيشه المنهزم مناديا باللهجة التركمانية : « ياهذا ، إلى اين تذهبون ؟ هل تحرمون عليكم خبزة الشاه ؟ » ، لكنهم اكتسحوه معهم وذهبوا به . انتصر عثمان باشا على الصفويين انتصاره ٤ والأكبر (حرب مشعله لر (المشاعل) الميدانية ١٥٨٣/٥/١١) .

وفى ٣ حزيران دخل أوزدمير أوغلو شماهى للمرة الخامسة . كانت شيروان قد أنقذت وبقيت روان (أرمنستان الحالية) مفتوحة وبدون مدافع أمام العثمانية . أمر عثمان باشا بإنشاء قلعة كبيرة فى شماهى ، أنجزت خلال ٤٤ يوما (٢٠ تموز) ، حفر حولها خندق ملأه من ماء نهير Pirsagat . عين والى (برتبة لواء) آماسيا مصطفى بك واليا (برتبة فريق أول) على شماهى (شيروان) بعد ترقيته إلى رتبة الباشوية وإعطائه مدافع ثقيلة .

أما فرهاد باشا فقد جاء إلى قارص فى ١٢ تموز مع ١٠٠٠٠٠ جندى . وعندما علم بانتصار مشعله لر دخل روان بسهولة (الأيام الأولى من شهر آب) . جاء عثمان باشا إلى باكو فى ١٦ أيلول ، بعد أن مكث فى شماهى ٣ شهر و ١٣ يوما . شيد فرهاد باشا فى روان قلعة كبيرة (٤/٩ - ١٨/١٠/١٥٨٣) . وضع على القلعة التى تحتوى على ٥١ برجاً ، ٥٣ مدفعا . وأصبح خضر باشا واليا على روان . ترك لخضر باشا ٥٦٠١ جندى، ولجغال أوغلو سنان باشا الذى رفع إلى مرتبة الوزارة بصفته قائدا لروان - والذى هو بالأصل أميرال - ٨٠٠٠ جندى ، وانسحب لقضاء

الشتاء . كانت المصروفات السنوية لهذه الوحدات ٥١٤٤٠٠٣٤ آقجه ، ويبين هذا الرقم ماتتكبده العثمانية بسبب الحروب الإيرانية . وعين والى مورا اللواء على بك قائدا لحامية قلعة خوى فى جنوب آذربيجان وخصص له ٨٠٠٠ جندى و ٢٠٠ مدفع . أرسل صوقوللو - زاده حسن باشا مع ٨٠٠٠ جندى إلى باطوم . عين الفريق الأول دلقادر أوغلو ميرزا - على باشا واليا على تفليس . وبعد إنجاز فرهاد باشا هذه التدابير انسحب إلى أرضروم .

غادر أوزدمير أوغلو عثمان باشا دمير قابو (١٥٨٣/١٠/٢١) متجها إلى إستانبول وسوف تستغرق هذه السفرة ٨ أشهر و ٨ أيام . وترك فريق أول (والى) كفة جعفر باشا فى دمير قابو وكيلا لقائد الجبهة . اجتاز نهر Terek فى شهر ت٢ . اجتاز السفوح الشمالية لجبال القفقاس اعتبارا من الشرق إلى الغرب . اجتاز نهر كوبان المنجمد وعبر مضيق كرج ، وبدخوله مدينة كرج وطئت قدماه أرض قرم . جاء إلى مركز الإيالة العثمانية كفة .

٢٢) حركـــات عـام ١٥٨٤

كانت سن محمد كيراى خلال هذه الفترة ٥٠ سنة ، وخانا على قرم منذ ٧ سنوات . ولعدم رغبة سمين محمد كيراى كبير أبناء دولت كيراى الـ ١٨ الذى اعتلى العرش الدخول تحت إمرة وزير عثمانى ، لم يذهب إلى عثمان باشا فى داغستان مختلقا أعذارا واهية ، رغم أمر الديوان ، وأرسل وحدات بقيادة الأمراء القراميين . قرأ عثمان باشا عند وصوله إلى كفة أمر الديوان بعزل محمد كيراى من الإمارة . وصل قائد القوات البحرية وناظرها قيليج على باشا إلى كفة مع ٣٥ سفينة حرب محملة بـ ١٠٠٠٠ جندى . كان قد استصحب إسلام كيراى البالغ عمره ٢٤ سنة الذى كان مقيما فى قونيه منذ ١٠ سنوات ، قرأ الخط السلطانى (الفرمان) بتنصيبه أميرا (خان) . كان إسلام كيراى شقيقا لمحمد كيراى . أعدم (١٥٨٣/٤/٢٤) محمد كيراى الذى أبى أن يخضع لأخيه الذى عمره بقدر عمر ابنه بعد مقاومته . كان حاكما وعسكريا ممتازا . ولو لم يكن مصابا بالشعور بنقص عدم تسلمه الأوامر من الوزراء العثمانيين كبنى جنكيز وتعاون مع عثمان باشا بصورة صادقة ، لكان

بالإمكان الحصول على نتائج مهمة من إيران (بجوى ، ٢ ، ٩٠ – ١ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٥٣ ؛ صولاق – زاده ، ٦٠٧) .

ركب أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى رفع إلى مرتبة الوزارة ٢ على ظهر سفينة الأميرالية لقيليج على باشا المطلية بماء الذهب والمفروشة بالأطلس وجاء بواسطتها من كفة إلى إستانبول (١٥٨٤/٦/٢٨) . كانت قد مضت ٦ سنوات منذ انضمامه إلى الجيش فى مقر أرضروم فى ١ تموز ١٥٧٨ . وفى غضون هذه المدة كان قد انتصر فى ٤ حروب ميدانية تحت أقسى الظروف ، وفتح من إيران التى تعتبر الدولة الكبرى الثانية فى العالم ، أقطارا مهمة جدا تبلغ مساحتها ٣٠٠٠٠٠ كم٢ . استقبله شعب استانبول بمظاهرات كبيرة جدا . كان أبوه أوزدمير باشا ، صديقا شخصيا وكاتم سر معتمدا للسلطان سليمان القانونى جد مراد الثالث . استقبل مراد الثالث عثمان باشا بصورة خاصة فى قصر يالى كشك (القصر المطل على البحر) الواقع على المضيق واجتمع به مدة ٤ ساعات بصورة انفرادية (١٥٨٤/٧/٥) . خلع السيف المرصع المعلق فى خاصرته ، وخنجره المرصع ، وشارة رأسه المكونة من أنواع الماسات النادرة وأهداها إلى عثمان باشا . ويسجل مؤرخو ذلك العهد الثقات أن السلاطين لم يكرموا أحدا أو يحتفسوا به بمثل ماأكرم مراد الثالث عثمان باشا .

لايمكن لاحد أن يضع عائقا أمام بطل وطنى يحمل هذه الصفات ، ولايمكن لأية قوة أن تحرمه من السلطة . عزل سياوش باشا وعين أوزدمير أوغلو عثمان باشا وزيرا أعظم (١٥٨٤/٧/٢٥) . كانت قد مضت ٢٤ سنة على وفاة والده أوزدمير باشا وتعيينه مكان أبيه واليا (فريق أول) على إيالة الحبشة ، و ٦ سنوات على حصوله مرتبة الوزارة . بقى فى إستانبول مدة ٣ أشهر و ١٧ يوما . غادر إستانبول فى ١٥ ت١ (بجوى ، ٢ ، ٩١ – ٥ ؛ صولاق – زاده ، ٦٠٧ – ٨ ؛ منجمباشى ، ٢ ، ٥٥٤ ، ٥) . وكل نيابة عنه الوزير ٢ مسيح باشا كوكيل لرئيس الوزارة (صدارت قائمقامى) . لم يكن هناك نظير للزحام والمظاهرات التى جرت له عند مغادرته إستانبول . يصف حريمى جاووش إستانبول يوم مغادرة أوزدمير أوغلو ببيت من الشعر معناه : « هكذا امتلأت الشوارع بالعوام والخواص – لو رميت إبرة ماسقطت على الأرض من كثرة الأشخاص » .

جاء الوزير الأعظم والقائد الأعلى إلى قسطمونى فى ١٨ ك١ . كان قيليج على

باشا فى سينوب منذ ٢٤ ت١ ، أمر عثمان باشا بقدوم ١٢ فريق أول ، ومن روملى ١٧ لواء ومن إستانبول ٤٠٠ مدفع وتجمعوا فى سيواس ، ونزل خان قرم إلى قفقاسيا . لكن ساءت صحته ، لقد سبب بقاؤه فى قفقاسيا ٦ سنوات بعد أن قضى سنوات طويلة فى حر السودان واليمن الجهنمى وفى الصحراء فى البصرة والأحساء، إصابته بالبرد . لم يتمكن من الركوب على الحصان ، وكان يتقدم بواسطة المحفة .

٢٣) حركـات عـام ١٥٨٥ ، فتح تبريز (١٥٨٥/٩/٢٢)

وجد أوزدمير أوغلو ، عند مجيئه إلى سيواس ، ٢٠٠٠٠٠ جندى بصورة مجتمعة . استكثر هذا العدد وأعاد ٤٠٠٠٠ منهم إلى أماكنهم . وبقدر ضخامة عدد الجيش ، كانت تتعاظم أمور الإقامة والتموين . وفى ١ آب خيم مع ١٦٠٠٠٠ جندى خارج أرضروم . كان سبب مجيئه من قسطمونى إلى أرضروم خلال مدة ٣ أشهر و ٢٣ يوماً ، هو بقاؤه ٢٢ يوما فى آماسيا و ٢٠ يوما فى سيواس وانشغاله بأمور الدولة والجيش . التقى فى طوقات بالقائد العام السابق الوزير فرهاد باشا (وزير أعظم فى المستقبل) الذى غادر أرضروم فى طريق عودته إلى إستانبول وتحادث معه . سر عثمان باشا عند مشاهدته فى أرضروم غازى كيراى ودال محمد بك (باشا) الذين كانا أسيرين لدى الصفويين وسجينين فى سجن قلعة آلاموت بعد فرارهما من السجن . كان كلاهما صديقيه الشخصيين . كانا قد تمكنا من الفرار من قلعة تدهش العقل كآلاموت وإضافة إلى ذلك كانا منفصلين عن بعضهما ، ولايمكن لأحدهما استقصاء أخبار الآخر . أخبر الباشا غازى كيراى بأنه سيعينه خانا على قرم بدلا من أخيه الصغير إسلام كيراى ٢ فى أقرب فرصة . كان غازى كيراى قد فر من أقرب الطرق عن طريق آلاموت – تبريز – وان . ولم يكن دال محمد محظوظا مثله واضطر إلى اختيار طريق آلاموت – أصفهان – شيراز – بصرة – بغداد – دياربكر ، عانى مصاعب لايمكن وصفها فى الأراضى الإيرانية حتى وطئت قدماه أرض البصره ، واضطر إلى التسول حافى القدمين ليستمر فى سفره .

بقى الجيش الهمايونى ١٠ أيام فى أرضروم ، ثم تحرك فى ١١ آب . اشتد مرض

القائد الأعلى . كان سابقا يمتطى جواده العربى الأسود المشهور جدا المسمى قره قايتاس (وتعنى الحوت الأسود) منذ مايقرب من ٣٠ سنة ، كان كل أفراد الجيش يتعرفون على هذا الجواد . كان كثير من أفراد الجيش يعتقد أن الباشا إنما حصل على فتوحاته الفريدة لكون هذا الجواد مسحورا . كان الاعتقاد السائد أن صهيل الجواد إشارة للنصر . تشاءم الجيش عندما لم يشاهد القائد الأعلى على ظهر هذا الجواد . وصل الجيش فى ٧ أيلول إلى صحراء جالدران الذى حصل فيه ياوز على انتصار كبير . كان عثمان باشا يعتقد بأنه سوف يتقابل مع الشاه . تأثر عثمان باشا عندما علم بأن الشاه فر من تبريز فى ٢٧ آب .

شوهدت تبريز فى ٢١ أيلول . أصبح فتح هذه البلدة لدى الباشا الذى كان يتمتم كل يوم « أين أنت ياتبريز ؟» فكرة ثابتة وعقيدة لايحيد عنها . ظهر الجيش التركمانى الكبير لحمزة ميرزا ابن الشاه فى ضواحى آبوار ، لكنه لم يتمكن من صيانة تبريز . وهذه هى المرة ٤ التى يفتح فيها العثمانيون تبريز . وهكذا تأسست إيالة تبريز التى سوف تستمر ١٨ سنة و ٢٨ يوما .

دخل عثمان باشا المدينة فى ٢٥ أيلول ، وفى ٢٦ منه تقبل تبريكات عيد الفطر . وفى ٢٧ منه استمع فى جامع حسن باشا (أوزون حسن) لخطبة الجمعة على الأصول السنية وكان ياوز قد صلى صلاة الجمعة فى ذات الجامع قبل ٧١ سنة و ٩ أيام (بجوى ، ٢ ، ٩٨ - ١٠٠ ؛ منجمباشى ، ٣ ، ٥٥٧ ؛ حريمى ، غونجه باغ مراد ؛ دال محمد بك ، شجاعتنامه) . وفى ٢٩ منه شرع فى بناء قلعة عظيمة على أن تتم خلال شهر . خصص لها ٨٠٠٠ جندى . وعندما ازدادت صحة عثمان باشا سوءا عين سنان باشا وكيلا للقائد العام ، وهو القائد الوحيد فى الجيش برتبة وزير ، وعين والى طرابلس الشام الفريق الأول جعفر باشا واليا على تبريز . وعد جعفر باشا بأنه إذا احتفظ بتبريز مدة ٣ سنوات وأدى خدمات جيدة ، سيمنحه مرتبة وزير ويعطيه إدارة بودين (المجر) . ركز عدة مئات من المدافع فى تبريز . سدد رواتب الجنود الموجودين فى تبريز من دراهمه الخاصة مدة طويلة وبلغت ١٠ ملايين آقجه وعين فريقا أول (والى) حلب محمد باشا معاونا لجعفر باشا لتوفير راتب شخص برتبة فريق أول فى تبريز ، ليكون بديلا عن جعفر باشا فيما إذا أصيب بحادث من قبل حمزة ميرزا الذى يتجول فى المنطقة . خرج من تبريز ، وفى ٢٨ ت١ ، جاء على

رأس جيشه إلى ضاحية شنب غزان . كان حمزة ميرزا قد حصل على معلومات خاطئة تفيد وفاة الباشا . وقام بهجوم ليلى مفاجيء . هجم على مؤخرة العثمانية بـ ۳۰۰۰۰ فارس تركمانى . لكنه هزم وتراجع . كان هذا آخر انتصار سمعه عثمان باشا . وبينا يعسكر الجيش فى ساحل آجى صو توفى ليلة ۲۹ - ۳۰ نحو منتصف الليل (۱٥۸٥) . إن عينيه اللتين أغلقتا كانتا تنظران فى اتجاه تبريز . كان قد ولد فى القاهرة . ودع الحياة وعمره يتجاوز ٥۸ سنة بعدة أشهر ، فى جانب آخر من الدولة العثمانية العالمية قرب تبريز - نقل جثمانه حسب وصيته إلى مدينة دياربكر ودفن فى قبره الموجود فيها . كان عباسيا من جهة الأم ، أى أن والدته كانت أبنة أحد خلفاء العباسية . حقق فتوحات عظيمة فى مناطق تختلف أقاليمها عن بعضها تمام الاختلاف . كان أكبر عسكرى عثمانى فى القرن ١٦ ، عدا القواد من الحكام . ولم تجد العصور التالية بعسكرى على هذا القدر . وحين وفاته ، كانت أمه وزوجته وابنته على قيد الحياة فى إستانبول . أحدثت وفاته حزنا كبيرا فى إستانبول . وضع النعش على ظهر حصانه الذى كان يمتطيه منذ ۳۰ سنة المسمى قره قايتاس مع وضع السرج على المقلوب - حسب الطريقة التركية القديمة - وجيء به إلى عامد (دياربكر) عن طريق وان . قامت المدينة كلها واشتركت فى مراسم تشييع الجثمان .

أصبح الوزير ۲ مسيح باشا وزيرا أعظم بصورة تلقائية وسنان باشا قائدا عاما بالأصالة . لكن عين بعدها الوزير ۳ فرهاد باشا قائدا عاما (۱٥۸٦/۱/۱٤) ، تحرك من إستانبول إلى الشرق لتسلم القيادة من سنان باشا . وفى أثناء ذلك كان ولى العهد الإيرانى حمزة ميرزا وعمره ۱۹ سنة قد جاء أمام تبريز ، وبدأ فى حصار المدينة (۱٥۸٥/۱۱/۱۳) .

۲٤) حركـــات عـــام ۱٥۸٦

دام حصار تبريز ٩/٥ أشهر حتى ۱٥۸٦/۸/۳۰ . كان عثمان باشا يدافع بجنوده البالغ عددهم ۸۰۰۰ تجاه جيش جرار للعدو . لكن كانت لديه مدافع كثيرة والمدافع الصفوية غير كافية . كان حمزة ميرزا يتوقع نفاذ عتاد ومؤن العثمانية واستسلامها بعد تكبدها خسائر كبيرة . أخرج الشعب الشيعى من القلعة توفيرا لاستهلاك

الأطعمة . بقى الشعب السنى فقط فى القلعة . كانت حربا قذرة . سار فرهاد باشا من أرضروم إلى تبريز بجيش عدده ٨٠٠٠٠ جندى . وفى الوقت الذى اعتقد فيه مدافعو القلعة بأن نهايتهم قد دنت إذا بهم يشاهدون أفراد الجيش الصفوى الكبير يمتطون جيادهم وينسحبون بسرعة . أدركوا الوضع بعد فترة قصيرة عند سماعهم صوت الموسيقى العسكرية (مهترخانة) . لم يبق فرهاد باشا فى تبريز مدة طويلة . لكنه أعطى جعفر باشا ٢٠٠٠٠ جندى ودراهم تقدر بـ ٢٢ مليون آقجه . وأطعمة مقدارها حمولة ١٠٠٠ جمل . كان أوزدمير أوغلو قد كدس فى القلعة كمية كبيرة من العتاد ، ورغم الحصار الذى دام ٩/٥ أشهر كان لايزال هناك عتادا يكفى لمدة سنه . تم ترميم القلعة . انسحب القائد العام والجيش الهمايونى إلى أرضروم لقضاء شتاء عام ١٥٨٦ - ٨٧ . هنأ الديوان جعفر باشا لدفاعه عن تبريز ومنحه رتبة وزير (مارشال ، مشير) (شباط ١٥٨٦) . قتل خلال ذلك ولى العهد الإيرانى حمزة ميرزا وعمره ٢٠ سنة فى حادث اغتيال (١٩٨٦/١٢/٥) . ومات الشاه خدابنده وعمره ٥٥ سنة ، بعد عدة أشهر (أيار ١٥٨٧) . صار عباس ميرزا البالغ عمره ٣٠ سنة شاها . دامت ولاية جعفر باشا لتبريز مدة ٨ سنوات ثم عين واليا على إيالة وان .

تشمل الحرب الإيرانية جبهة العراق الجنوبية كذلك . لكن حروب هذه الجبهة لم تصل فى أى وقت من الأوقات إلى درجة عظمة حروب الجبهة الشمالية أى جبهة ققفاسيا . بدأت الحرب فى هذه الجبهة باحتلال دينور على يد والى (فريق أول) شهر زور إسفنديار أوغلو محمد باشا فى ربيع عام ١٥٧٨ . عرض أمير الحويزة الذى يسيطر على المدن كالمحمرة فى القطاع الجنوبى من خوزستان شستر ديزفول تابعيته للعثمانية . وهكذا انتقلت سواحل خليج البصرة الشمالية لحوزة العثمانية . أسست إيالة جديدة فى بلنكان وعين والى (برتبة لواء) أربيل أحمد بك واليا (برتبة فريق أول) عليها . هزم فريق أول (والى) بغداد الورد - زاده (آل الورد) على باشا ، أحد أمراء آقويونلو الصفويين فى حرب ديزفول الميدانية (١٥٨٣/١١/٧) . جاء شعب قبائل وأمراء المناطق التى تعتنق المذهب الشافعى فى غرب إيران إلى العثمانية وأعلنوا خضوعهم وطاعتهم فردا فردا . وهكذا انتقلت الإيالات من الجنوب إلى الشمال خوزستان ، لورستان ، كرمنشاه ، أردلان (كردستان) لحوزة العثمانية . وكانت إيالة آذربيجان فى الشمال قد فتحت كذلك . بقيت إيالات همدان وخمسة

مفتوحة لاحتلال العثمانية . عين جغالوغلو سنان باشا قائدا عاما على الجبهة الجنوبية ، ووضع تحت إمرته كل من ولاة بغداد ، موصل ، شهرزور (كركوك) ، بصرة ، بلنكان . جعل من دينور مركزا لإيالة جديدة وعين لها والى درنتك سنان بك . جاء جغالوغلو إلى ديزفول ، ومنها إلى نهاوند . جعل هذه المدينة مركزا للإيالة وعين لها معاونه محمد بك واليا برتبة فريق أول . سار فريق أول (والى) همدان الصفوى قورقماز خان إلى القائد العام . فقد الصفويون فى الحرب الميدانيـة (١٥٨٧/١٠/٣٠) التى وقعت على مقربة من نهير جاماساب ، ٩٠٠٠ قتيلاً وأسير ، كان الخان بين الأسرى . كان اليوم التالى عيد الأضحى . استمر الوزير ٤ جغالوغلو سنان باشا على قيادة الجبهة الجنوبية حتى تعيينه قائدا للقوات البحرية وناظرا للبحرية بدلا من أولوج حسن باشا الذى توفى فى ١٥٩١/٧/١٢ .

٢٥) حركـــات عـــام ١٥٨٧

خرج فرهاد باشا من أرضروم (١٥٨٧/٧/٣٠) . جاء إلى Gori مركز الإيالة العثمانية (١١ أيلول) . شيد قلعة خلال ٢٧ يوما ، وسماها (حسن آباد) . جعل تومانيس مركزا لإحدى الإيالات . وظلت تفليس ، بين إيالتى غورى وتومانيس . وفى الجنوب كانت تمتد بكلربك (إمارة الأمراء) روان . وفى جنوب نهر آراس ، كانت تبدأ أراضى إيالة تبريز . أنشئت هذه الإيالات الصغيرة لتقوية الأسلوب الدفاعى تجاه الصفويين . عاد فرهاد باشا فى ٣٠ ت١ إلى أرضروم لقضاء فصل الشتاء لعام ١٥٨٧ – ٨٨ .

٢٦) حركـات عـــام ١٥٨٨

غادر فرهاد باشا أرضروم فى ١٥٨٨/٧/٢١ . استغرقت حملته فى العام الماضى مدة ٣ أشهر ، ويوم . واستغرقت حملته أرضروم – كنجة فى هذا العام مدة ٣ أشهر و ١٩ يوما . لم تكن هنالك أية صعوبة فى الاستيلاء على قزوين . لكن فرهاد باشا كان عسكريا من النوع الذى يهتم فى الدرجة الأولى بتأمين الحفاظ على

مابجوزته ، ولم يكن فاتحا مثل أوزدمير أوغلو . كان الشاه عباس فى خراسان فى معركة بقاء أو فناء تجاه جنكيز أوغلو عبد الله خان شيبانى . حاصر عبد الله خان الثانى المسمى « الكبير » مشهد ، المدينة الشيعية المقدسة ، بجيش مؤلف من ۱۰۰۰۰۰ جندى . بادرشاه عباس الذى سيطلق عليه اسم « الكبير » للدفاع عنها . وعلى الرغم من أنه كانت هنالك روابط متينة بين إستانبول وسمرقند إلا أنه لم يتسن تحقيق خطة مشتركة للقتال (هامر ، ٧ ، ١٩٦) .

كانت خاقانية تركستان تعيش أواخر سنين عظمتها ، وبعد مدة سوف تفقد قدرتها على مجابهة إيران وتنقسم إلى خانات صغيرة .

أما العثمانية فكانت منتشرة فى منطقة واسعة جدا ، وكان همها الحفاظ على ماتملكه ، وكانت قد بدأت تفقد دهاءها وقدرتها على الانطلاق نحو تحقيق مامن شأنه أن يغير سير التاريخ ؛ لقد كان القائد فرهاد باشا شديد الخوف من أن يؤدى فشله إلى فقدان مركز الصدارة الذى سوف يستحقه عن قريب أمر الخاقان قائده الأعلى تحريريا بالبحث عن الشاه والانتصار عليه فى معركة حاسمة ، وإن لم يجده ، فالاستيلاء على أقطاره الخالية من جيش العدو ، وأن هذا الاستيلاء فى مقدور أى ضابط . قرر القائد وبحذر شديد فتح كنجة . كان نجاحا مهما ، لكنه لايمكن أن يكون حركة استراتيجية من شأنها هزيمة الصفويين .

كنجة ، شمال آراس هى أهم الأماكن المعدودة التى بقيت بيد الصفويين . البلدة التركية التاريخية الكبيرة ، وطن « نظامى » أكبر شاعر مثنوى (حكاية منظومة) تركى الأصل .

قدم الجيش إلى قارص فى ٢٥ تموز . أرسل السلطان رسالة همايونية (سلطانية) يخبر فيها بتواجد الشاه فى خرسان ، وخلاء قزوين من الجيش وأمر بالاستيلاء عليها .

تظاهر الإنكشارية الذين جرأهم - أغلب الظن - فرهاد باشا ، وهتفوا « ليأت سيادة السلطان شخصيا ، ونذهب سوياً ، إن شاء الله نذهب إلى قزوين فى السنة القادمة ! » تأخر الباشا ١٦ يوما فى قارص ، تحرك فى ١٠ آب ووصل كنجة مركز إيالة قره باغ مجتازا تفليس . مجيئه من أرضروم إلى هنا فى ٤٢ يوما . ذهب الصفويون الذين تيقنوا من عدم إمكانهم الدفاع وانسحبوا . دخل الباشا كنجة وأخذ فى تشييد

قلعة كبيرة . تم إنشاء القلعة التى أحيطت بسور له برج و ٧ أبواب حديدية وبارتفاع ٢٠ ذراعا وعرض ٣ أذرع ، محيطه ٣٨٠٠ ذراع . عين حيدر باشا لإدارة بكلر بكية كنجه . وضع تحت إمرته ٣٠٠٠ جندى . هجم جعفر باشا بكلربك (أمير الأمراء - فريق) شيروان ، بحملة مؤلفة من ٣٠٠٠٠ جندى على زياد أوغلو محمد خان ، بكلربك الصفويين فى كنجة وأفنى نصف الجيش الإيرانى (١٥٨٨/٩/٢٩) . قاد جعفر باشا الجيش وهو فى حالة مرض . مات بعد فترة قصيرة (٢ ت١) . وصار حسن باشا بكلربك حلب ، بكلربك لشيروان برتبة وزير . غادر فرهاد باشا الذى بقى ٤٤ يوما فى كنجة وشيد قلعة خلال ٣٧ يوما ، يوم ١٥ ت١ ، ووصل معسكره فى أرضروم يوم ٨ ت ٢ .

تعنى أذربيجان (تبريز) بالنسبة للصفويين مثل مايعنيه لواء أرطغرل (بيلة جك) ، أو لواء خداوندكار (بورصة) بالنسبة للعثمانيين ؛ فهى موطن الصفويين ؛ وشريان الحياة بالنسبة لإيران . وقد أجبر عدم التمكن من استردادها الشاه عباس على الصلح والانتظار لفترة استعداد طويلة المدى . إن سقوط كامل خراسان فى الشرق (التى تبلغ ٤٥٠٠٠٠ كم٢) بأيدى الأوزبك الأتراك الشرقيين ، واستيلائهم على مشهد المدينة المقدسة أعجز إيران . كانت علاقة بنى تيمور الهند التابعة لإيران ، سيئة كذلك مع أكبر شاه ، وكانوا على خلاف دائم مع الأفغان . كانت الدولة الصفوية التركية الشيعية المحاطة بثلاث إمبراطوريات تركية سنية - حنفية ؛ فى موقف الكفاح من أجل البقاء أو الفناء .

٢٧) معاهدة إستانبول (١٥٩٠/٣/٢١)

كان دحر جعفر باشا بكلربك تبريز بجيشه البالغ ١٥٠٠٠ شخص الجيش الصفوى الذى أغار عليه قد قطع أمل الشاه فى استرجاع تبريز بالمرة .

طلب الصلح . ترأس وفد السفارة الإيرانية بصورة فخرية حيدر ميرزا ابن حمزة ميرزا ولى عهد إيران المقتول . قابل فرهاد باشا الوفد فى مقره الكائن فى حسن قلعة يوم ١٥٨٩/١٠/١٤ . قبل الوزير الثانى فرهاد باشا يد ولى العهد الطفل . أطلقت المدافع فى مقر القيادة العامة العثمانية على شرف حفيد حفيد الشاه إسماعيل . وفى

عيد الأضحى (٢٠ ت١) ، رتب فرهاد باشا وليمة على شرف البكوات الأتراك الصفويين ، وكان على رأسهم مهدى قولو خان أسطة جالو ، والى أردبيل . جاء إلى إستانبول كل من فرهاد باشا الذى رفعت عنه صفة القيادة بانتهاء الحرب فى ١٤/١٠/١٥٩٠ ، وحيدر باشا ومعه معيته الكبيرة العدد فى ٢٨ ك٢ . عين المؤرخ الشهير مصطفى أفندى السلانيكى دليلا لميرزا . خصص قصر برتو باشا الكائن فى وفاء ميدانى لإقامة ولى العهد الصفوى . هب شعب إستانبول ، رجالا ونساء لرؤية ولى العهد الذى استقبله فى أسكدار ، الأميرال الكبير (مشير البحر) أولوج حسن باشا . ولشدة الزحام أخذ الوفد يسير ببطء إلى درجة أنه لم يتمكن من الوصول إلى قصر برتو باشا إلا وقت العشاء . أخلد ولى العهد إلى الراحة فورا . واستعد الديوان بميزانية ضخمة لمصروفات الوفد (يوميا ١٠٠٠٠٠ آقجة و ١٠٠ رأس غنم و ١٠٠ كلة (قطعة كبيرة) سكر و ١٠٠ كيلة شمع ومايناسب العدد من الخضر والفاكهة ، الخ .) . وفى اليوم التالى (١٥ ك٢) ، قدم مهدى قولوخان توركمن أوراق اعتماده إلى الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) قوجا سنان باشا .

استقبل مراد الثالث صدر ميرزا فى ٢٩ ك٢ فى احتفال عمد فيه إلى أن يكون رائعا ليبهر عيون الإيرانيين . يعتبر إرسال ولى عهد الدولة الوحيدة على وجه الأرض ، التى تعتبرها العثمانية معادلة لها إلى إستانبول إشارة إلى أن إيران ، لم تعد تعتبر دولة على قدم المساواة مع الدولة العثمانية . وبعد وليمة الغداء التى قدمها الوزير الأعظم سنان باشا بالصحون الذهبية جلس السلطان مراد على التخت الموجود حاليا فى سراى طوب قابو ، المرصع والمذهب الذى صنع حديثا ، وسمح لولى العهد بتقبيل يده . وبعد إجلاس ولى العهد الطفل على كرسى إلى جانب السلطان أخبر سنان باشا مهدى قولوخان بالإذن له فى الحديث . بدأ المرخص الأول الصفوى بإلقاء خطاب طويل باللغة التركية (طبعا) . استمع السلطان بإنصات . ذكر فى خطابه أن الشاه يعترف بكافة الفتوحات العثمانية ، ويطلب الصلح على أساس مبدأ الـ **Statu quo** = (الوضع الراهن) أى الاعتراف بالوضع الراهن وبقاء الأماكن الكائنة لدى الدولتين حاليا ، بصورة فعلية ، على حالها ، وأن الشاه هو من جملة الحكام الذين يجرون سلطناتهم تحت سيادة السلطان . يعتبر هذا الحادث ذروة الشوكة فى التاريخ العثمانى إنه يعنى أن الشاه قد قبل أن يكون السلطان هو الحاكم الأعلى . ولم يكن الشاه

إسماعيل قد صرح إلى ياوز ، ولابنه تحمسب القانونى بمثل هذا التصريح . قدمت الهدايا التى أرسلها الشاه إلى السلطان ، والموجود أكثرها حاليا فى متحف طوب قابو سراى . يستنتج من كل هذا أن الشاه عباس قد طلب الصلح بشكل قطعى . وأنه قد أيقن أنه سوف لن يتمكن من العثمانيين مالم يلم شعثه بصورة جيدة .

وقعت معاهدة إستانبول بتاريخ ٢١ آذار ١٥٩٠ . وانتهت حرب من أقسى حروب التاريخ العثمانى التى استمرت منذ ١٢ عاما تنقصها ١٤ يوما . حرر المعاهدة الشيخ سعد الدين أفندى (المتن . منشآت السلاطين ، ٢ ، ٢٤٩ – ٥٢) انضمت إلى الدولة العثمانية الأراضى التى فتح أكثرها أوزدمير أوغلو عثمان باشا والبالغة ٥٩٠٠٠ كم٢ ، وأمتدت حدود الدولة بشكل قطعى حتى غربى سواحل بحر الخزر (قفقاسيا الشمالية ، داغستان ، روان ، كرجستان ، شيروان ، آدربيجان ، آردلان ، كرمنشاه ، لورستان ، خوزستان) . وبالاضافة إلى قبول إيران احترام حرية المذاهب السنية فإنها وافقت على عدم سب شخصيات السنة العظام . وتنص المعاهدة على مبادلة الأسرى وعلى رأسهم ٣ بكلربك صفويين لدى العثمانية و ٢ بكلربك عثمانى لدى الصفويين .

زادت هذه المعاهدة من اعتبار العثمانية فى تركستان كذلك . وأساساً ومنذ عهد القانونى فإن تركمان ياكا الذين كانوا يحتلون قسما من تركستان الحالية كانوا يعتبرون العثمانية متبوعة . والوزير الأعظم فرهاد باشا الذى كان يخاطب خاقان تركستان ويصفه بالخاقان المعظم والخاقان الأعظم « عبد الله خان » كان يملى عليه أوامر سلطانه بشكل جلى ضمن هذه الألفاظ التوقيرية الرقيقة (منشآت السلاطين ، ٢ ، ٢٣٩ ومابعده) . وعدا ذلك فإن معاهدة إستانبول أمنت حماية المذهب السنى لمسلمى القفقاس إلى يومنا هذا . ولو استمر الحكم الصفوى لمدة أطول لأصبح أهل السنة القاطنون فى هذه الأقطار شيعة . ولغرض حل مشكلة كيلان ارتأى الديوان إعطاءها إلى الصفويين كتعويض . وكانت سلالة كاركيائى السنية – الشافعية ، تعترف بولاية العثمانية ، على أن يكون مركزها فى رشت – كيلان . والثانى عشر من هذه السلالة أحمد خان الذى استمرت سلطنته أكثر من نصف قرن ، هو من السلاطين الذين نظموا الشعر وكتبوا النثر باللغتين التركية والفارسية ولحنوه ، وفى الأيام الأولى لعام ١٥٩٣ جاء إلى إستانبول ومات فيها ١٦٠٠ .

أقيم لولى العهد حيدر ميرزا ، فى قصر صوقوللو فى ميناء قدرغة فى إستانبول مراسم ختان فخمة (١٥٩٣/٥/١٧) . واشترك فى هذا الحفل الوزير الأعظم قوجا سنان باشا ، وكافة الوزراء وجميع شعب استانبول . وفى جو كهذا بدأت حرب ألمانيا الكبرى . إيران كانت تسعى لإزالة آثار ضعفها . وقد وسع أكبر شاه فى الهند ، سلطنة بنى تيمور . ولو ملكت الإمبراطوريتان التركية فى إيران ، والتركية فى الهند ، الأسطول فى هذا العهد كما ملكه العثمانيون لتغير سير التاريخ العالمى ، ولما تمكن الأوربيون من التدخل فى شئون آسيا .

٢٨) المرحلة الأولى للحرب التركية - الألمانية الكبرى (١٥٩٢ - ١٥٩٥)

ساءت العلاقات التركية - الألمانية ، بالغارات المتوالية التى أجراها تلى حسن باشا بكلربك بوسنة على الأراضى الألمانية ، وخاصة الغارات الأخيرة فى صيف عام ١٥٩٢ . أعلم الإمبراطور رودلف الثانى الديوان بواسطة سفيره فى إستانبول بأن الأراضى الألمانية اخترقت على العمق ، وقتل ٢٠٠٠ جندى ألمانى وجرح الآلاف ، وأسر حسن باشا ١٠٠٠ جندى ألمانى وأرسلهم إلى إستانبول مع ١٢ مدفعاً و ٧ رايات ألمانية ، وبناء على ذلك فإنه بعد الآن سوف يمتنع عن دفع الضريبة السنوية ، وفى العام التالى أغار الألمان إغارة انتقامية على ضفاف نهر كولبا الذى يشكل القسم الشمالى من حدود بوسنة ، إيالة حسن باشا وباغتوه أثناء تواجده فيها مع ١٠٠٠٠ جندى . وأحرز الجيش الألمانى البالغ ٤٠٠٠٠ شخص نصرا حاسما (١٥٩٣/٦/٢٠) قرب قصبة سيساك (Sissek بالتركية شيشكـا) (فى الجنوب - الشرق من زغرب) . واستشهد ٧٠٠٠ جندى عثمانى من بينهم حسن باشا ، وشابان مشهوران جدا من العائلة السلطانية هما الأخوان محمد بك ومصطفى بك وهما ابنا بنت بنت القانونى بكوات برتبة لواء لفرق الصاعقة ، أى أنهما ابنا أخ السلطان مراد الثالث (بجوى ، ٢ ، ١٢٨ - ٩ ؛ نعيما ، ١ ، ٨١ - ٣) . وفور وصول هذا الخبر إلى إستانبول أعلن الديوان السلطانى بعد جلسة صاخبة الحرب على ألمانيا (١٥٩٣/٧/٤) .

كانت الامبراطوريتان:التركية والألمانية فى حالة صلح منذ ٢٥ عاما و ٤ أشهر ، و١٦ يوما . وخلال هذه الفترة جرت حوادث كثيرة جدا على الحدود بصورة

متقابلة ، أكثر هذه الحوادث قام بها الطرف العثمانى . إلا أن هذه الحوادث اعتبرت مناوشات عادية بين الولاة العسكريين فى حدود كلا الطرفين ، ولم يذهب الأمر إلى حد تصعيد تلك المناوشات إلى حروب . ألمانيا كانت تدفع ضريبتها . وفى الحقيقة كان حادث هزيمة Kulpa ضربة قاسية ولكنه كان رداً على غارة حسن باشا فى العام الماضى . لكن استشهاد الشابين الجنرالين حفيدى السلاطين والذين كانت لهما مكانة مرموقة ولدت هياجا كبيرا . كان من رأى الشيخ سعد الدين أفندى ذى النفوذ القوى مساندة إنجلترا وفرنسا وهولندا ، تجاه أعداء الدولة الرئيسيين إسبانيا ، ألمانيا وإيران . وكان سائرا على سياسته هذه بنجاح . ورغم أنه كان عدوا للألمان إلا أنه عارض بشدة إعلان الحرب على ألمانيا ، وتراشق بالألفاظ الشديدة ، مع قوجا سنان باشا الذى يترأس الديوان . وأفاد سنان باشا بأنه سوف يكبل « ملك بج (فينا) » إى إمبراطور ألمانيا بالسلاسل ويحضره إلى إستانبول . كانت هذه الأكذوبة تعادل أكذوبته التى قالها قبل مدة وهى أنه سوف يقوم بأسر الشاه . أفاد سعد الدين أفندى بصراحة أن دعوى سنان باشا هذا كذب وتلفيق . إلا أن الوزراء أيدوا رئيس الوزراء خشية منه وصوتوا فى صالح الحرب (بجوى ، ٢ ، ١٣٣ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٦٥) ، واندلعت حرب كرامة طويلة الأمد ، لا تستند إلى سبب حياتى أو استراتيجى .

أخذ وظيفة السردار الأكرم (القائد الأعلى) على عاتقه الوزير الأعظم قوجا سنان باشا ، خرج فى حملته ضد ألمانيا (١٥٩٣/٧/٢٩ - ١٥٩٤/١/١٠) . وبعد استيلائه على قلعة أو قلعتين لا أهمية لهما انسحب إلى المشتى فى بلغراد (١٥٩٤/١/١٠ - ١٥٩٤/٥/٥) . وخلال انسحابه إلى المشتى شرع الجيش الألمانى فى محاصرة أستولنى - بلغراد . وهزم صوقوللو حسن باشا بكلربك (بودين) (ابن صوقوللو محمد باشا) الذى هرع مع قوته البالغة (٢٠٠٠٠ جندى)وهى أقل بكثر من قوات العدو لفك الحصار عن أستولنى - بلغراد ، واستشهد ٦٠٠٠ ، واستولى الألمان على ٤٤ مدفعا . تمكن ترياكى حسن باشا العسكرى بدهائه من تخليص أستولنى-بلغراد . وهكذا انتهت السنة الأولى للقتال بحصول العثمانيين على قلعتين صغيرتين من الألمان ، وحصول الألمان على ١٠ قلاع صغيرة من العثمانية .

وبعد أن مكث سنان البالغ ٨٠ عاما فى بلغراد مدة ٣ أشهر و ٢٦ يوما تحرك فى ٥ أيار ، واجتاز الحدود الألمانية ووصل يانق قلعة فى ٧ آب (١٥٩٤) . كان فى الجيش الخاقانى ٧ بكلربك . والمدينة التى يسميها الأتراك « يانق قلعة » والتى حوصروا فيها تسمى بالألمانية : Raab وباللغة المجرية ، Györ) ، وتقع على مسافة ١١٠ كم على الشمال – الغربى من بودابست وعلى مسافة ١٠٠ كم من الجنوب – الشرق من فينا و ٦٠ كم على الجنوب – الشرق كذلك من Bratislava . وهى قلعة محكمة جدا تعتبر منفذا لفينا . وكان قد فتحها القانونى من قبل ، وتعذر الحفاظ عليها . استمر الحصار ٥١ يوما . كان الكونت هاردك يحمى القلعة ومعه ١٠٠٠٠ جندى و ٢٩٠ مدفعا . وكان جيش الإمبراطورية الألمانية البالغ ١٠٠٠٠٠ شخص بقيادة الأرشيدوق ماتياس Matthias (الذى صار بعدها إمبراطورا) يراقب الحصار من الساحل الشمالى لنهر الدونة ، ولكنه لم يكن راغبا فى اجتياز النهر ومجابهة الجيش العثمانى الذى يفوقه قوة بكثير والاشتباك معه فى حرب ميدانية كبرى . نصب الجيش العثمانى الجسور على الدونة واجتازها وشتت الجيش الألمانى الذى يضم كتائب الميليشيات الإسبانية ، الفرنسية ، البابوية ، البولونية والروسية ، واستولى الأتراك على ٤٠٠ مدفع ، ١٠ سفن صغيرة و ٦٠٠ زورق على نهر الدونة ومات الآلاف من الألمان . واستسلمت يانق قلعة . ونظرا إلى أن الكونت هاردك استسلم من تلقاء نفسه ودون مقاومة أخذ جيشه البالغ ١٠٠٠٠ جندى وانسحب . لكن الـ ٢٩٠ مدفعا وكافة المهمات الموجودة فى القلعة انتقلت إلى يد العثمانية . ذهب الكونت هاردك وقواده الجنرالات إلى فينا . وضعهم الإمبراطور فى مخزن وبنى فوقهم جدارا . أصبحت يانق قلعة مركزا للإيالة وعين بها عثمان باشا بكلربك (فريق) الذى كان أمير لواء شكودرا .

يعود الفضل فى الدرجة الأولى فى فتح « يانق قلعة » إلى غازى كيراى الثانى خان قرم الذى جاء فى ١١ آب مع ٤٠٠٠٠ خيال أمام القلعة ، وعسكرى كبير آخر ، صار فيما بعد وزيرا أعظم ، هو صوقوللو – زاده لاله محمد أغا (الذى كان رئيسا « أغا » للانكشاريين) . وبفضل التكتيك العسكرى الذكى الذى استخدماه ، أمكن فتح القلعة المهمة ، بالإضافة إلى شريط كبير يمتد بين بودين وفينا كما تمكنا من تشتيت الجيش الإمبراطورى والانتصار عليه فى معركة ميدانية . لكن سنان باشا أرجع الفضل

فى هذه الانتصارات إلى شخصه - كما هى عادته - وأصبح أنفه فى السماء (بجوى ، ٢ ، ١٤٦ - ٥٤ ؛ صولاق - زاده ، ٦٢٠ ؛ هامر ، ٧ ، ٢٧٢) .

وفى ٣ ت٢ (١٥٩٤) ، غادر سنان باشا بودين ، عائدا إلى بلغراد لقضاء فصل الشتاء فيها . وتم تثبيت الحدود العثمانية - الألمانية ، على مسافة ٧٥ كم من فينا (Lavisse - Rambaud ، ٥ ، ٨٠٩) . لكن فويفودات (أمراء) كل من أردل (ترانسلفانيا) أفلاق (رومانيا) وبغدان (مولدافيا) أعلنوا عصيانهم على الدولة العثمانية ، وانضموا فى الحرب إلى جانب ألمانيا .

ويعتبر خريف عام ١٥٩٤ ذروة الدولة العثمانية العالمية . حيث وصلت إلى الحد الأعلى فى التوسع الجغرافى ، واعتبارا من الخريف يبدأ السقوط من الذروة .

وفى ٥ ت٢/١٥٩٤ ، أعلن البابا اتفاقا مقدسا جديدا ضد العثمانية وأعلن أن هذا الاتفاق مفتوح للدول الإسلامية فيما عدا العثمانية . استجاب لهذه الدعوة فورا فويفودا (إمارة) مجرية وأخريان رومانيتان من الإمارات المرتبطة بالدولة العثمانية بروابط التبعية المتينة . لم يكن ذلك أمرا سهلاً ، إذ إن هذه الإمارات كانت منسجمة تمام الانسجام مع النظام العثمانى ، ذلك بالإضافة إلى أن أردل فقط كانت كاثوليكية والأخريان كانتا أرثوذكس . لكن فويفودة بغدان عندما أوضح سبب عصيانه تلفظ بهذه الجملة التاريخية : « إن الأتراك الحاليين هم ليسوا أتراك الأنسال الماضية الذين يفتحون الأقطار بعدالتهم ودون قتال » . ويقتضى أن نشير هنا إلى حادث إجبار سنان باشا هذه الإمارات الثلاث على دفع الجزية بالمقادير الفاحشة لأغراضه الشخصية والتى لم تكن موجودة فى النظام العثمانى إلى ذلك الحين . وهذه الفويفودات (الإمارات) أخذت فى إعدام البويار (الأشراف الذين يرفضون العصيان . وفى أردل أعدم ٧ أمراء من ذوى النسب الرفيع لموالاتهم العثمانية (مكائى **Histoire de Transylvanie Makkai** ، ١٩١) . وأرسلت ألمانيا معونة عسكرية كبيرة لكل من الأمراء الثلاثة (هامر ، ٧ ، ٢٧٦) .

بدأ العصيان فعلا فى الإمارات (١٥٩٥/١١/١٣) أثناء السبات الشتائى فى بلغراد لسنان باشا البالغ سنه ٨٠ عاما . ذبحت معظم الأقلية التركية والرومية الموجودة فى الإمارات بالسيف . قتل ٤٠٠٠ تركى من الساكنين فى بخارست والمشتغلين بالتجارة . أغار بغتة على القلعة التركية المسماة يركوى (بالرومانية :

Giu gİu) وقتل الـ ٤٠٠٠ تركي الموجودين فيها . حرق Mihai Viteazul فويفودا الأفلاق الذى كان يعيش بخيال تأسيس ملكية رومانية كبرى ، قلعة إبرائيل الكائنة فى دلتا ألطونة ، وقصف سلسترة الكائنة مقابل ألطونة وحرقها (٦ ك٢) . وبعد حادث سلسترة بـ ١٠ أيام ، توفى مراد الثالث وانتقلت الحرب الألمانية إلى عهد سلفه محمد الثالث (نعيما ، ١ ، ١٠٣ - ٦ ؛ بجوى ، ٢ ، ١٥٦ - ٦٢ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٢ - ٤ ؛ صولاق - زاده ، ٦٢٢ - ٣) .

٢٩) بعض المسائل الداخلية لعهد مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥)

توفى داماد بيالة باشا فى بداية سلطنة مراد الثالث على رتبة وزير ثان (١٥٧٨/١/٢١) . ولو قدر له أن يعيش سنتين أخريين لأصبح وزيرا أعظم (رئيسا للوزراء) محل صوقوللو . قبطان دريا (مشير بحرى) لمدة ١٤ عاما ، بعدها وزير ثالث وثان لمدة ١٠ سنوات تقريبا ، حقق خلالها حملات بحرية بالأسطول الهمايونى كل عام تقريبا وانتصر فى جميعها ، وفى انتصار « جربة » سجل اسمه ضمن أميرالات التاريخ الخالدين . بعد ٤ أيام توفيت السلطانة مهرماه ، عمة السلطانه جوهران وزوجة بيالة باشا ، كأغنى امرأة فى العالم . كانت الأبنة الوحيدة للقانونى .

زادت المعارضة داخل الديوان الهمايونى وخارجه ضد صوقوللو محمد باشا الوزير الأعظم الأخير للقانونى ، والوحيد لسليم الثانى ، والأول لمراد الثالث . لم يفكر فى تلطيف حكمه الدكتاتورى ، كما لم يفكر فى التنحى عن الحكم كذلك . ولم يكن إعدام ابن عمه صوقوللو ــ زاده مصطفى باشا ، الإدارى الفائق القدرة دون ماسبب تقريبا (١٥٧٨/١٠/١٠) كافيا لتنبيه صوقوللو .. أدار مصطفى باشا إيالة بودين (المجر) مدة ١٢ سنة و٣ أشهر و٧ أيام بدراية فائقة . أخذ مراد الثالث ، ينفر من زوج أخته صوقوللو . وأخيرا طعن أحد الدراويش الوزير الدكتاتور بطعنة خنجر ، أثناء خروجه من إحدى جلساته فى الديوان ، قيل عن الدرويش : إنه مجنون (١٥٧٩/١٠/١٢) . من المؤكد تقريبا أن حادث الاغتيال كان بتدبير السلطان . لم يتمكن من عزله بصورة رسمية ، خوفا من حدوث ثورة ، وذلك لاعتماده على تشكيلات الانكشارية . قضى صوقوللو الذى ترك عددا لا يحصى من المؤسسات

الخيرية مدة ١٤ سنة و٣ أشهر و١٥ يوما فى وظيفة وزير أعظم . ويأتى تسلسله التاسع فى طول مدة بقائه فى رئاسة الوزراء فى تاريخ تركية . لم يخرج بنفسه خلال رئاسته للوزارة لأية غزوة ، وأرسل قادة ، ولم يرض بخروج كل من سليم الثانى ومراد الثالث لأية حملة ، وتجاوز تقاليد عصر القانونى .

خلف صوقوللو فى رئاسة الوزارة - بصورة أوتوماتيكية دون تعيين - أحمد باشا ، بسبب كونه وزيرا ثانيا وكان من معارضى صوقوللو . كان متزوجا بالسلطانة مهرماه وعائشة خانم - سلطانة ابنة رستم باشا . توفى بعد ٦ أشهر و١٦ يوما (١٥٨٠/٤/٢٨) . جاء بعده لمنصب الرئاسة بصورة أوتوماتيكية وبدون تعيين الوزير الثانى لاله مصطفى باشا ، وبعد بقائه فى منصبه هو كذلك مدة ٣ أشهر ، و٩ يوم (٧ /١٥٨٠/٨) جاء بعده رئيسا للوزارة بصورة أوتوماتيكية الوزير ٢ قوجا سنان باشا . عزل من منصبه بعد ٢ سنة و٤ أشهر (١٥٨٢/١٢/٦) جرى حفل الختان الذى أقيم للشهزادة (الأمير) ولى العهد محمد (الثالث) (٢٩ آيار - ٢٤ تموز ١٥٨٢) . فى عهد صدارته ، ويعتبر هذا الاحتفال أكبر احتفال جرى فى العهد العثمانى . كان معرضا باهرا لبيان عظمة دولة عالمية .

أخذ مكان سنان باشا بعد عزله الوزير ٢ ، داماد سياووش باشا الذى عزل بعد سنة و٧ أشهر و٢٠ يوما (١٥٨٤/٧/٢٥) . جرى على عهده حادث وفاة نور بانو ، السلطانة الوالدة « والدة سلطان » (١٥٨٣/١٢/٧) وإرسال شهزاده - ولى العهد محمد إلى مانيسا لجلوسه على عرش ساروهان (١٥٨٣/١٢/١٧) . خلفه أوزدمير أوغلو عثمان باشا الذى توفى فى جبهة القتال (١٥٨٥/١٠/٣٠) ، مدة صدارته سنة و٣ أشهر و٦ أيام . وخلال ذلك توفيت السلطانة أسمهان زوجة صوقوللو وابنة سليم الثانى الكبرى (١٥٨٥/٨/٧) . تم صنع العرش الذهبى للسلطان مراد الثالث وتسليمه له ٢٣ أيلول ١٥٨٥ وهو العرش الذى جلس فيه بنو عثمان فى الأيام الخاصة كاحتفالات الجلوس والأعياد حتى عام ١٩٢٤ .

خلف أوزدمير أوغلو بعد وفاته الوزير ٢ نصوح باشا . كان عمره ينوف على الـ ٨٠ . استقال بعد ٥ أشهر و١٤ يوما (١٥٨٦/٤/١٤) . أصبح سياووش باشا وزيرا أعظم مرة أخرى . وسقط بعد سنتين و١١ شهراً و١٨ يوما فى الثورة التى تسمى واقعة بكلربكى (١٥٨٩/٤/٢) . وخلال ذلك توفى قيليج على باشا فى سن الـ ٨٠ ، وهو الذى كان قبطان دريا (مشير البحرية) منذ أكثر من ١٥ عاما

(١٥٨٧/٦/٢١) . خلف مؤسسات خيرية عديدة ، ورثته ماتوا قبله . ثروته البالغة ٥٦٠٠٠٠ سكة ذهبية انتقلت إلى الخزينة . بعد عدة أشهر توفى المعمار سنان عن عمر يناهز ٩٨ عاما (١٥٨٨/٤/٩) . أخذت سلسلة الدهاة الذين أخذهم القانونى تحت حمايته ورفعهم إلى منزلتهم هذه ، أخذت تتقطع ، وتنقرض ، وتفنى .

وفى الحقيقة فإن واقعة بكلربكى (١٥٨٩/٤/٢) ، أثبتت أن الإمبراطورية ، أخذت تسير نحو الأزمات فى الداخل . إن الدراهم المتداولة لدى العثمانية هى المسكوكات الفضية المسماة « آقجه » ، والمسكوكات الذهبية كانت تستعمل فى المبايعات الكبيرة . كان يدفع القسم الأعظم من الرواتب بالـ « آقجه » . وخلال ١٥٨٤ – ٨٩ ، شرع فى تصغير حجم الآقجه تدريجيا حتى بلغت ٥٠٪ من حجمها السابق . أى أن المسكوك الذى نقص بمقدار النصف من الفضة صار العملة الرئيسية للدولة . كان هذا الوضع يقتضى أن تزيد الدولة الرواتب بمقدار الضعفين . بقيت الرواتب كما كانت فى السابق من ناحية عدد الـ « آقجه » مع العلم بأنها فى الحقيقة فقدت قيمتها بمقدار النصف . ومنذ ذلك التاريخ إلى يومنا هذا (١٩٨٥) أخذت الرواتب فى تركية فى الهبوط بصورة مستمرة . العلاوات التى أضيفت على الرواتب لم تكن فى أية فترة من الفترات كافية لمواجهة تضخم العملة ، وكانت قوتها الشرائية تحت معدل التضخم باستمرار ، الأمر الذى سبب ثورة الإنكشارية . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يطلب من السلطان قطع الرءوس . لم يتمكن السلطان من إخماد العصيان . فقد وزيرا المالية (باش دفتردار) محمود أفندى ودوغانجى محمد باشا حياتهما . نجا الوزير الأعظم سياووش باشا ، المسئول الحقيقى عن الأزمة المالية من الموت بعزله . وهكذا يبدأ عصر قيام الإنكشارية بتشكيل عصبة لهم ، تسعى وراء مطاليب سياسية ، وتعصى عند عدم تحقيق مطالبهم التى سوف تستمر ٢/٥ عصر . وقد كان ذلك من أهم أسباب إضعاف الدولة .

صار ، قوجا سنان باشا ، وزيرا أعظم للمرة الثانية ، عزل بعد سنتين ، و٣ أشهر و٢٩ يوما (١٥٩١/٨/١) . وكما منع صوقوللو فتح قناة السويس وقناة الدونة – فولغا كذلك منع مؤيده سنان باشا فتح قناة مرمرة – صقاريا ، الذى استغرق تصميمها الجهد والوقت الطويل (١٥٩١/٤) . الوزير ٢ فرهاد باشا أخذ مكان سنان باشا . عزل بعد ٨ أشهر و٤ أيام بفضل مؤامرات سنان باشا

(١٥٩٢/٤/٤) . احتل سياووش باشا مجلس الصدارة للمرة الثالثة ، وعزل بعد ٩ أشهر و٢٤ يوما (١٥٩٣/١/٢٨) . عزل من صدارته الأولى بسبب عصيان الإنكشارية ، أما عزله عن صدارته هذه فكان بسبب عصيان السباهية (صنف من الخيالة) . كان عصيان السباهيين أيضا بسبب قضية تخفيض سعر الـ « آقجه » إلى النصف . بدأت فترة الصدارة الثالثة لقوجا سنان باشا الذى فتح فيها بلية الحرب الألمانية (١٥٩٣/١/٢٨) وعزله عن صدارته هذه محمد الثالث بعد ٣١ يوما من وفاة مراد الثالث . استمرت صدارته هذه سنتين و١٩ يوما (١٥٩٥/٢/١٦) .

توفى السلطان مراد خان الثالث بسبب مرض المثانة ، عن عمر يتجاوز الـ ٤٨ عاما بـ ٦ أشهر و ١٣ يوما . دامت سلطنته ٢٠ سنة ، وشهرا ، ويومين . وعندما كان شهزاده (أميرا) ، أصبح صنجق بك (أمير لواء) ، أولا لأقشهر ٣ سنوات ، ثم لصاروهان (مانيسا) لمدة ١٣ سنة و٨ أشهر و٢٧ يوما . ولد فى مرتفع بوزدوغان قرب مانيسا ، وتوفى فى سراى طوب قابو فى إستانبول ، دفن فى ضريحه الكائن فى رواق أياصوفيا . خطاط ، مؤلف كتاب عن التصوف ، شاعر له ديوانان باللغة التركية وديوان فى كل من اللغتين العربية والفارسية . أساتذته فى الدرجة الأولى شيخ الإسلام خواجة سلطانى محمد سعد الدين أفندى (١٥٣٦ - ١٥٩٩) ، بقائى أفندى (وفاة ١٥٩٥) ، الشيخ شجاع أفندى ، إبراهيم أفندى (وفاة ١٥٧٣) ، مربوه ترياكى حسن باشا المشهور ، فروخ بك ، إسفنديار أوغلو سلطان زاده شمسى أحمد باشا .

أكثر من له أولاد من بين السلاطين أجمعهم هو مراد الثالث . صار له ١٠٢ شهزاده (أمير) ، أكثرهم ماتوا وهم فى المهد ، وأطول من عاش من بين هؤلاء الأمراء وصل سن ١٧ ، عدا ابنه الكبير محمد الثالث الذى خلفه فى العرش . أما بناته اللواتى بلغن سن الزواج فهى السلطانة عائشة التى تزوجت ٣ زيجات (١٥٧٠ - ١٦٠٥/٥/١٥) السلطانة فاطمة التى تزوجت ٤ زيجات (١٥٨٠ - ١٦٢٠) ، السلطانة فخرية التى تزوجت زيجتين (١٥٩٤ - ١٦٥٦) ، أما اللواتى تزوجن مرة واحدة فهن السلطانة مهرماه (١٥٩٢؟ - ؟) ، السلطانة خديجة ، السلطانة رقية ، السلطانة مهربان .

زوجة (خاصكى سلطان) مراد الثالث هى السلطانة الوالدة صفية المشهورة

(البندقية ١٥٥٠؟ – إستانبول ، ١٦٠٥/١١/١٠) . وخلال سلطنة ابنها محمد الثالث أصبحت والدة – سلطان (السلطانة – الوالدة) مدة ٩ سنوات وأصبح لها نفوذ كبير . كانت ابنة والى كورفو من عائلة بافو العريقة النسب فى البندقية .

ومع أن الدولة خلال عهد مراد الثالث أعلم رجال بنى عثمان وأكثرهم ثقافة قد وصلت إلى ذروة قدرتها وحدودها وعظمتها إلا أن آثار الانحطاط بدأت تظهر بصورة واضحة ، خلال السنة أو السنتين الأخيرتين؛التضحم المالى ، عصيان صنف قابو قولو فى المركز وتشكيلهم عصبة ، انشغال نساء السراى بالسياسة ، انتشار الرشوة ، تفشى الفخفخة ، الإسراف ، الحرص على المظاهر والعظمة ، إمكان حصول الأشخاص الذين لاقيمة لهم على المناصب الحساسة ، تناسى الفتوحات وإعلاء كلمة الله ، ظهور وزراء يتسمون بالدكتاتورية ، إمكان عزل شيوخ الإسلام كالموظفين ، طروء الفساد على زمرة العلماء ، ظهور زمرة الأشقياء فى الأناضول باسم « جلالى » . كل ذلك بدأ فى الظهور فى هذه الدورة أو بعدها بقليل . رجال الدولة،الفن والعلوم ، الدهاة الذين عاصروا القانونى يتوفون الواحد تلو الآخر ويظل مكانهم شاغرا ، خاصة فى المجالات العسكرية ، البحرية ، الإدارية والسياسية وغيرها ويقل شأن الدولة ، ومن ثم تقع مقدرات الدولة فى أيدى الكوادر الضعيفة ، وهؤلاء بدورهم يبدون اهتمامهم الزائد بانتقاء كوادر أضعف منهم . مع كل هذا فإن أسس الدولة كانت قائمة على درجة من المتانة لايمكن تصديقها ، وكان يجرى بطبيعة الحال بين الحين والآخر حركات إصلاح ، وتمر فترات لامعة ، وهذا هو الذى سبب إطالة حياة وحيوية الدولة والنظام .

ويجب ألا ننسى أن العصر ١٦ هو « عصر الأتراك » . أما العصر ١٧ الذى نحن على أبوابه فيمكننا أن نقول إنه العصر الثانى الأفضل فى تاريخ تركية بأجمعه بعد العصر ١٦ . ومن ناحية أخرى ، فإن أوروبا لم تكن قد وصلت بعد إلى الحد الذى يمكنها معه ابتلاع الشرق ، والإسلام ، والأتراك . ولكى تصل إلى ذلك الحد ، احتاجت إلى عدة عصور . كان كيان المجتمع ، ونظام الدولة ومستوى الرفاهية ، سواء فى العثمانية أو فى العالم الإسلامى وحتى فى آسيا كلها ، متقدما على أوروبا بشكل بارز .

وفى ١٥٩٠ ، حتى شيخ مومباسا الواقعة بين كينيا وتانجانيكا دخلت تحت الحكم

العثمانى (A.Warner, Mombasa, IA,410 a) . كانت الأساطيل التركية فى المحيط الأطلسى والمحيط الهندى . ولو أن البحث عن الانحطاط فى مثل هذا العصر يتراءى كأنه مبالغة إلا أنه حقيقة . وفون هامر يكتب مايلى (٧ ، ٢٩٠) : « عند وفاة مراد الثالث ، كانت الإمبراطورية تمتد من المحيط الأطلسى إلى قفقاسيا ، من الحبشة إلى الدونة وتحوى أراضى ٢٠ دولة ملكية بالضبط . وصل الأتراك إلى فينا وهى منتصف طريق إستانبول – باريس تقريبا. بولونيا كانت دولة يعين البادشاه ملكها وتدفع ضريبة سنوية إلى إستانبول وكذلك تدفع إلى قرم التى هى من أتباع إستانبول الاعتياديين . وكان وضع الدول الأوروبية الأخرى تجاه العثمانية يشابه هذا الوضع » . كان هنالك رجال دولة ، تجار وأصحاب سفن .. دخلهم يفوق دخل ملوك أوروبا . مثلا كان دخل صوقوللو السنوى يفوق مليون سكة ذهبية .

إن الدولة التى خلفها القانونى فى ١٥٦٦ ، كانت تقريبا ١,٩٩٨,٠٠٣ كم٢ فى أوروبا + ٤,١٦٩,١٧٧ كم٢ فى آسيا + ٨,٧٢٥,٧٢٠ كم٢ فى إفريقية = ١٤,٨٩٢,٩٠٠ كم٢ . وفى أواخر سلطنة مراد الثالث كانت : ٢,٨٤٨,٩٤٠ كم٢ اوروبا + ٤,٨١٥,٨٣٢ كم٢ آسيا + ١٢,٢٣٧,٤١٩ كم٢ أفريقية = ١٩,٩٠٢,١٩١ كم٢ . هذا الرقم يبين أوسع ما ملكته العثمانية من الحدود فى آن واحد . وهنالك أقطار أخرى دخلت تحت حكم الأتراك خارج هذه الحدود المذكورة ، وهى واسعة كذلك إلى درجة كبيرة ؛ إن مجموع مادخل فى حكم العثمانية من الأراضى فى التواريخ المختلفة يبلغ ٢٣ مليون كم٢ : ٣,٥٤٣,٦٦٢ كم٢ فى أوروبا + ٥,٧٢٩,٢٨٥ كم٢ فى آسيا ١٣,٧٢٧,٤٦٤ كم٢ فى إفريقية = ٢٢,٩٩١,٤١١ كم٢ . ولا يدخل فى هذا الحساب كافة الأقطار التى وصلتها كتائب الصاعقة والقراصنة وتمكنوا من الاستيلاء عليها ، والتى دخلت ضمن السيطرة العليا ونفوذ العثمانية .

وضمن حدود عام ١٥٩٢ ، احتسبت بولونيا (٦٩٦,٧٣٧ كم٢) فى أوروبا ، فاس وأقطار الزنوج التابعة لها (٣٠٥١٦٩٩ كم٢) فى إفريقية . وألحقت قبرص شمال تونس فى زمن سليم الثانى ، وفى آجه (أندونيسيا) أسس نظام الحماية . وفى عهد مراد الثالث تم ضم أراض تبلغ مساحتها ٥٩٠,٠٠٠ كم٢ من شمال وجنوب

القفقاس مع غرب إيران . وأدخلت أماكن كثيرة فى إفريقية الشرقية ، أفريقية الوسطى . تحت الحماية .

ويقدر عدد سكان كافة الأقطار العثمانية هذه ، فى ١٥٩٢ ؛ ١٠٠ مليون نسمة . ٧ ملايين منها تشكلها بولونيا – لتوانيا و ٩ ملايين تشكلها الأقطار المرتبطة بفاس . بلغ تعداد إستانبول مع الضواحي ١٢٠٠,٠٠٠ وتعداد القاهرة ٧٥٠,٠٠٠ نسمة . أما الإمبراطوريات التركية الأخرى فتقدر هكذا فى نفس التاريخ كما يلى : ٠٠٠ ٦٢١ ١ كم٢ و ١٥ مليون نسمة صفويين إيران ، ٠٠٠ ٦٧٤ ٣ كم٢ و ١٢٠ مليون نسمة بنى تيمور فى الهند ، ٠٠٠ ٥١٣ ٥ كم٢ و ١٢ مليون نسمة بنى جنكيز فى تركستان ، ٠٠٠ ٤٥٣ كم٢ و ٢٢ مليون نسمة بنى عادل شاه فى الهند الجنوبية . وكانت الإمبراطورية الصينية فى هذا التاريخ تقريبا ٠٠٠ ٢٦٨ ١٢ كم٢ والسكان ٨٠ مليون نسمة .

أما فى الدول الأوروبية فكان تعداد النفوس حينئذ قليلا جدا (وضمنها كافة المستعمرات) : ملكية إسبانيا ٠٠٠ ٥٧٥ ٢٤ كم٢ والنفوس ٣٣ مليون ، إمبراطورية ألمانيا ٠٠٠ ٦٥٩ كم٢ والنفوس ١٧/٥ مليون نسمة ، ملكية فرنسا ٠٠٠ ١٤٢ ١ كم٢ والنفوس ١٥ مليون . ملكية إنكلترا ٠٠٠ ٣٤٧ كم٢ والنفوس ٥/٩ مليون ، جمهورية البندقية ٠٠٠ ٥٥ كم٢ والنفوس ٣/٨ مليون ، إمبراطورية روسيا ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ كم٢ والنفوس ٧ ملايين .

نماذج من الدول العالمية الأخرى التى لاتعتبر دولا كبرى : ملكية السويد ١٠٥٨٠٠٠ كم٢ والنفوس ٢/٦ مليون ؛ ملكية الدانمارك ٥٥٩٠٠٠ كم٢ والنفوس ١/٦ مليون ؛ البابوية ٤٥٠٠٠ كم٢ والنفوس ١/٩ مليون ؛ إمبراطورية اليابان ٠٠٠ ٣٧٤ كم٢ والنفوس ١٤ مليون ؛ القطب شاه (أتراك الهند الجنوبية) ٢٩٥٠٠٠ كم٢ والنفوس ١٠ ملايين .

وفى ١٦٠٠ تقريبا كان تعداد العالم حوالى ٥٤٨ مليون نسمه . وتوزيعه على القارات كما يلى : آسيا ٣٥٠ ، أوروبا ١٢٢ ، إفريقية ٦٠ ، أمريكا الشمالية ٩/٥ أمريكا الجنوبية ٥ ، المحيطات ٢ مليون .

٣١) جلوس محمد الثالث (١٥٩٥/١/٢٧) والحوادث الداخلية

جاء محمد الثالث من مانيسا وجلس على العرش فى إستانبول . كان فى سن ٢٧/٥ . كان سنجق بك (أمير لواء) لساروهان فى مانيسا منذ ١١ عاما . عزل قوجا سنان باشا (١٥٩٥/٢/١٦) وعين فرهاد باشا وزيرا أعظم للمرة الثانية . استمرت الصدارة الثالثة هذه سنة و ١١ شهرا و ١٩ يوما . خرج فرهاد باشا لحملة ألمانيا ، وعلم فى روسجك بعزله نتيجة مؤامرات سنان باشا . دامت صدارته هذه ٤ أشهر و١٩ يوماً ، ومجموع الصدارتين سنة و٢٢ يوما . كان عسكريا قديرا . عمل سنان باشا كل ماوسعه لإزاحته باعتباره أكبر منافس له فى الحياة ، وفى النهاية أعدم فرهاد باشا (١٥٩٥/١٠/٩) . إن صدارة سنان باشا الرابعة (١٥٩٥/٧/٧) ، عبارة عن ٤ أشهر و١٣ يوما . صار لاله محمد باشا وزير أعظم ، مات بعد ٩ أيام . اعتلى سنان باشا منصب الصدارة للمرة الـ ٥ (١٥٩٥/١١/٢٨ - ١٥٩٦/٤/٣) . صدارته هذه دامت ٤ أشهر ، و٥ أيام ومجموع صداراته الخمس ٧ سنوات و٤ أشهر و٥ أيام . خلف سنان باشا الجبان بقدر ماهو خائن ، والعاجز جنسيا بقدر ماهو عديم الأخلاق ، خلف ثروة كبيرة لايتصورها العقل ، والقسم الكبير من هذه الثروة حصيلة النهب والرشوة . نظم الشعراء قصائد الفرح عند موته فى صدارته الخامسة .

خلفه الوزير ٢ داماد إبراهيم باشا ، ورؤساء الوزارة على التوالى جغال أوغلو سنان باشا (١٥٩٦/١٠/٢٧) ، إبراهيم باشا للمرة الثانية (١٥٩٦/١٢/٥) ، الوزير الـ ١٣ حسن باشا (١٥٩٧/١١/٣) ، وبعد ٥ أشهر و٦ أيام الوزير الـ ٢ داماد جراح محمد باشا (١٥٨٩) ، وبعد ٨ شهر و٢٧ يوما إبراهيم باشا للمرة ٣ (١٥٩٩/١/٦ - ١٦٠١/٧/١٠) . دامت صدارة إبراهيم باشا الأخيرة سنتين ، و٦ أشهر و٥ أيام ومجموع صداراته الثلاثة ٤ سنوات إلا يومين . توفى خلال ذلك شيخ الإسلام حاجه سلطانى خوجا سعد الدين أفندى وسنه ٦٣ (١٥٩٩/١٠/٢) . كان رجل دولة كبيرا فى عصره وسياسيا ومؤرخا . هو الشخص الذى قال عنه هامر : « هو من أكبر الدهاة الذين شرفوا الأدب العثمانى » (٧ ، ٣٧٣) . هو جد العائلة العلمية المشهورة التى تسمى بالنسبة إليه خوجا

– زاده لر ، وبالنسبة لأبيه حسن خان – زاده لر ، وابنين من أبنائه شغلا منصب شيخ الإسلام . وبعد ذلك بقليل توفى « باقى » الشاعر الأكبر الذى ترك الحياة السياسية عندما كان قاضى عسكر (قاضى عسكرى) لقضاء رومة لى ، قبل أن يتمكن من نيل مقام « شيخ الإسلام » (١٦٠٠/٤/٧) . باقى الذى كان صديقا لسعد الدين أفندى ومنافسه ، والذى يكبره بـ ٩ سنين كان شاعر السلطان سليمان المفضل . وهكذا انتقل آخر دهاة عصر القانونى إلى الماضى .

دامت صدارة داماد يمشجى حسن باشا سنتين وشهرين و٢٥ يوماً (١٦٠١/٧/١٠ – ١٦٠٣/١٠/٤) . كان رجل دولة وعسكريا لاقيمة له . جىء به محل داماد إبراهيم باشا على أثر وفاته . وكان مالقوج أوغلو ياووز على باشا ، الوزير الأعظم الأخير لمحمد الثالث واليا على مصر ، واستدعى من القاهرة إلى إستانبول .

كثرت الاضطرابات فى الأناضول فى عهد سلطنة محمد الثالث . أخذ العصيان يتلو الآخر باسم « ثورة الجلالى » ضد الولاة الذين أرسلتهم إستانبول . وانتقل العصيان إلى إستانبول كذلك (١٦٠٣/١/٦) .

وفى الوقت الذى تعالج فيه العثمانية ، الحرب الألمانية فى الخارج ، وثورة الجلالى ، فى الداخل ؛ كانت إيران تلم شعثها . توفى عبد الله خان٢ ، خاقان تركستان الذى يسمى « الكبير » ، قبل وصول سفيره – الذى سيطلب النجدة لمواجهة إيران – إلى إستانبول بشهر واحد (ك١٥٩٨/٢) . انقسمت تركستان إلى خانلق (مقاطعات يحكمها الخان) لم تعد من بين الدول الكبرى ، ودخلت فى فترة عجز اقتصادى كبير . لأن طرق التجارة تغيرت . استرجع الشاه عباس من تركستان إيالة خراسان العظيمة التى تشتمل على هرات ومشهد . وفى ١٥١٧ قدم إلى إستانبول سفير تيمور أوغلو أكبر شاه سلطان الهند لاستلفات نظر الديوان ضد الخطر الإيرانى .

عكر حادث إعدام الشهزادة الأعظم محمود فى سن ١٦ نتيجة لمؤامرة فى القصر (١٦٠٣/٦/٧) صفو الأيام الأخيرة لمحمد الثالث وفتح طريق العرش للسلطان أحمد بشكل غير متوقع أبدا .

٣٢) حرب ألمانيا : حركات عام ١٥٩٥

تحرك الوزير الأعظم فرهاد باشا إلى جبهة ألمانيا بصفة سردار أكرم (قائد أعلى) (١٥٩٥/٤/٢٧) . وعزل نتيجة مؤامرات سنان باشا ، قبيل اجتيازه الدونة فى رسجك (١٥٩٥/٧/٧) . صار سنان باشا رئيسا للوزارة وقائدا أعلى ، وظل داماد ابراهيم باشا برتبة وزير ٢ كقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول كذلك .

خلال هذه الأيام بدأ الجيش الإمبراطورى الألمانى المؤلف من ٥٠٠٠٠ مشاة و ٢٠٠٠٠ خيال بقيادة الأمير مانسفلد بمحاصرة Estergon (١ تموز) . ولحين قدوم الوزير الأعظم أعطيت قيادة الجبهة إلى ابن قوجا سنان باشا الوزير محمد باشا الذى يفوق أباه فى النذالة ، لايفقه من العسكرية شيئا ، جبان وعديم الشرف ، وكان يلقب بـ « المخنث » . أراد مجابهة الجيش الألمانى بالجيش الموجود تحت قيادته . غلب نتيجة عدم استماعه إلى الجنرالات المقتدرين الموجودين تحت إمرته . وبعد حرب شديدة خارج استركون . استولى الأمير Mansfeld على ١٥٠٠ خيمة تركية و٢٧ راية و٣٩ مدفعاً .

أما سنان باشا فقد دخل الأفلاق لغرض إخماد العصيان (١١ آب) . عبر الدونة فى رسجك وانتقل إلى رومانيا . دخل بخارست فى ٢٨ آب . مركز فويفودة (إمارة) أفلاق فى ذلك العهد لم يكن بخارست وكان فى Tragoviste على بعد ٧٥ كم فى الشمال – الغربى منها . دخلتها الصاعقة أيضا ، ولكن لم يتم العثور على الأمير Mihai والتخلص منه .

قاومت أستركون الحصار مدة شهرين ويومين بعد قصف مدافع الحصار الألمانية الـ ٤٢ التى كانت تقصف بمعدل ٢٠٠٠ قذيفة يوميا . رضى غزاة الأتراك بالتسليم ، بعد أن ظلوا عدة أيام يلعقون المرمر لإزالة عطشهم ، بعد أن قطع الألمان مجارى المياه الواردة إلى القلعة . وافق الأرشيدوق الذى حضر أمام القلعة على انسحاب الأتراك وذهابهم مع مايمكنهم حمله من الحاجيات . ترك بكلربك الأناضول القلعة باكيا وهو يقسم على استعادتها (١٥٩٥/٩/٢) . أستركون ، بلدة الغزاة التى تقع

على طريق بودابست – فينا ، كل حجر من أحجارها مسقى بدم وعرق ودموع العثمانيين والتى كان قد فتحها السلطان سليمان القانونى قبل ٥٢ سنة و ١٣ يوما . وهكذا بدأ الاحتلال الألمانى لإستركون الذى استمر ١٠ سنوات ، وشهرا ، ويوما . وسقطت قلعة فيشغراد بعد ٦ أيام . « عندما احتل الأتراك ، إستركون فى عهد القانونى احترموا كافة الآثار القديمة فى المدينة ، وحافظوا بعناية على القصور وعلى ماتحويه من قطع التماثيل . ولكن الألمان نهبوا كافة الآثار التاريخية وخربوها عند دخولهم المدينة » (فون هامر ، ٧ ، ٣٠٨) .

وأثناء حدوث هذه الكوارث مكث سنان باشا ١٦ يوما فى بخارست ، وعين ساطرجى محمد باشا بكلربك لأفلاق وتركه مع ٢٠٠٠ جندى فى بخارست ، وجاء هو مع ١٠٠٠٠٠ جندى ، إلى خلال ٥ أيام (١٨ أيلول) . وكان الفويفودا Mihai قد أخلى أفلاق وفر إلى أردل . وبذكائه تمكن من تشخيص عدم لياقة سنان باشا ، وكان ينتظر الفرصة للبطش به . لم يمر أكثر من جيل واحد على الزمن الذى كان ينتصر فيه أمراء اللواء على الأباطرة ، والآن يرتجف الصدر الأعظم أمام الفويفودات العصاة .

سنان باشا ، الذى شيد قلعة فى كل من بخارست وتاركوفيشتة (لم تكن هنالك أية قلعة فى الأفلاق وبغدان بموجب النظام العثمانى) ، غادر المدينة فى ١٧ ت١ ، بعد أن أبقى فى تاركوفيشته حيدر باشا – زاده على باشا بكلربك طرابزون . كان الفويفودا ميخائى يتعقب الجيش الهمايونى على مدار الـ ٢٤ ساعة . وفى ١٩ ت١ ، دخل ميخائى إلى تاركوفيشته . أجلس ٣٥٠٠ تركيا على الأوتاد . شوى على النار الخفيفة على باشا وكبار الضباط الأتراك « وأكلهم بكامل الشهية » مع معيته فى طعام العشاء . وأثناء حدوث هذه الوحشية التى لايتقبلها المنطق أمر سنان باشا بالانسحاب ، خوفا من الهجوم المفاجىء . وصل يركوى التى تقع على الدونة ، وعلى الضفة الثانية تقع أمامها مدينة رسجك . بدأ الجيش فى اجتياز الدونة الكبير . حل الخريف ، الدونة هائج بأمواجه المتلاطمة .

فى مثل هذه الحركات العسكرية لايعبر صنف الصاعقة (الكوماندو) الجسر إلا بعد أن يعبره الجيش بكامله ، لحماية مؤخرة الجيش من العدو . حصل الجيش وخاصة الصاعقة على غنائم كبيرة . وينص القانون ، وكذلك الدين على أن يكون خمس الغنائم

من حق الخزينة . كان سنان باشا طماعا لايشبع من المال . عين حرسا على رأس الجسر ، وبدأ بحصر الغنائم والاستيلاء على خمسها . استمر هذا العمل أثناء اقتراب العدو من الجسر . وبسبب ذلك استغرق عبور الجيش ومهماته الجسر مدة ٣ ليال . بقى صنف الصاعقة فى الضفة الثانية . وأثناء وجود جيش الصاعقة فوق الجسر ، أدركهم ميخائى بجيشه (المكون من جنود الأفلاق - بغدان - أردل - ألمان) ، الذى يقال إنه يبلغ ٧٠٠٠٠ وهدم الجسر بنار مدفعيته . حدثت كارثة كبيرة ، سقط خيرة كتائب الصاعقة فى الدونة وغرقوا . تكبدت الصاعقة التى كانت القوة الضاربة الرئيسية فى الفتوحات العثمانية خسائر كبيرة . ولم يتيسر تعويض هذه الخسارة فى المستقبل . ولهذا أصبح الجيش العثمانى بحاجة إلى خيالة قرم لتعويض ذلك . ولأن هؤلاء لم يكونوا منظمين بنفس درجة كتائب الصاعقة فقد سببوا للدولة كوارث عديدة .

لم يظهر سنان باشا تأثرا كبيرا على كارثة الصاعقة ، والتى تتضاءل أمام خياناته السابقة ، ولم يقلق على شيء ، كما قلق على منصبه والتخطيط لرشوة الأشخاص الذين لهم تأثير على بقائه فى منصبه فى إستانبول من الغنائم التى استولى عليها على أنها حق قيادته . دخل ميخائى قلعة يركوى وقتل المسلمين بمن فيهم النساء والأطفال بالسيف وحول المدافع التركية نحو مدينة رسجك الواقعة فى الساحل المقابل وأحدث تخريبات غير قليلة فى هذه المدينة التركية المهمة .

انتشر الجيش هنا وهناك بحجة التشتى ، دون طلب الإذن من الوزير الأعظم (نعيما ، ١ ، ١٦٩ - ٧٢ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٢ - ٤ ؛ صولاق - زاده ، ٦٢٢ ومابعده ؛ هامر ، ٧ ، ٣٠٣ - ٦) . عزل سنان باشا بعد ١١ يوما من عودته من رسجك .

سقطت عدة قلاع فى أردل ، واتسعت حدود أردل حتى بلغت أسوار تامشوار Tamesvar إحدى الإيالات التركية .

وهكذا انتهى عام ١٥٩٥ على هذا الوضع المشئوم جدا .

٣٣) حملة أكرى Egri الهمايونية (١٥٩٦/٦/٢٠ - ١٥٩٦/١٢/٢٢)

تجددت إزاء وضع كهذا ضرورة خروج السلطان للحملة . لم يخرج سلطانان إلى الجبهة منذ وفاة القانونى أى قبل ٣٠ سنة . كما يعبر الكتاب العثمانيون « فطس gebermis) سنان باشا ، ابراهيم باشا ، وصار وزيرا أعظم . دعى السير إدوارد بورتون Sir Edward Burton) سفير اليزابث الذى تحميه العثمانية للاشتراك فى الحملة . خرج محمد الثالث إلى الجبهة ، تاركا فى خزينة السلطان فى إستانبول ٢٢ مليون سكة ذهبية وأخذ معه ١٨/٥ مليون قطعة ذهبية (خزينة السلطان ليست هى خزينة الدولة) .

استقبل الشعب محمد الثالث فى بلغراد ، بحفاوة منقطعة النظير ، جرت مراسم استعراض للجيش . بقى ١١ يوما ثم تحرك (٢١ آب) جاء إلى Segedin (٧ أيلول) . وصل قلعة أكرى . بدأ الحصار (٢٤ أيلول - ١٢ ت١) . كانت أكرى (بالألمانية : Erlau ، بالمجرية : Eger) قلعة مهمة جدا فى المجر الشمالية ، فى حوزة الألمان . لم يتمكن عسكرى مقتدر كالوزير الأعظم قره أحمد باشا فى عهد القانونى من فتحها ، رغم محاصرته لها ٣٩ مرة . يعتبر فتح قلعة كهذه خلال ١٨ يوما ؛ توفيقا كبيرا . قتل ١١٠٠٠ جندى ألمانى . أقيمت صلاة الجمعة فى أكرى يوم ١٨ ت ١ ، وتلا الخطبة سعد الدين أفندى . جعلت مركزا للإيالة وعين لها بكلربك أرضروم ، صوفو سنان باشا (فتح نامة أكرى ، منشئات السلاطين ، ٢ ، ١٠١ - ٢ ؛ بجوى ، ٢ ، ١٩٣ ومابعده ؛ نعيما ، ١ ، ١٤٤ - ٥٣ ؛ صولاق - زاده ، ٦٣٠ ومابعده ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٨٧ ، ٩ ؛ هامر ، ٧ ، ٣١٩ - ٢٤) .

فى حرب هاجوفا الأولى Haçova (٢٢ ت١) انتصر الجيش الألمانى على مقدمة الجيش العثمانى ، سقط ١١٠٠ جندى عثمانى شهيدا وفقد ٤٢ مدفعا ، إن معركة هاجوفا الكبرى الأصلية بدأت بعد ٤ أيام (١٥٩٦/١٠/٢٦) .

كان مع الأرشيدوق Maximilian أخو الإمبراطور ، ٣٠٠٠٠٠ جندى وأفراد مساعدون و ١٠٠ مدفع فى الصحراء التى يسميها الأتراك هاجوفا (بالمجرية : Keresztes-mezoe) التى تقع على الضفة الغربية من نهر Tisa .

كان قوام الجيش الهمايونى ١٤٠٠٠٠ جندى (٦٠٠٠٠سباهى (تمارلى سباهى) خيال و٥٥٠٠٠ من صنف قابوقولو و٢٥٠٠٠ قرمى) كان فتح كيراى أخى غازى كيراى ٢ يقود خيالة قرم .

بدأت الحرب بهجوم الألمان واختراقهم مراكز العثمانية فى العمق ووصولهم بالقرب من المخيم السلطانى .

ترجل محمد الثالث عن حصانه ، دخل خيمته ، على كتفيه بردةالرسول ﷺ الشريفة ، ويمسك بيده رمح الرسول ﷺ ، كان يصلى ويدعو الله .

دخل الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى السرادق ، وقطع الدعاء مخبرا السلطان بأن انسحابه أصبح من الضرورات العسكرية ، ومن المؤكد أنه كان يخشى وقوع السلطان فى الأسر ، فيصيب الدولة مكروه لايمكن إصلاحه ، لأنه كان طيبا وعسكريا شجاعا . استمع محمد الثالث للتوصية ، وحالما امتطى جواده أمسك خوجة سعد الدين أفندى رئيس أساتذته وأساتذة أبيه بعنان الجواد قائلا : إن الجيش الذى لايرى السلطان فى مكانه يتشتت ، وإن الحرب مستمرة وليس هناك هزيمة ، وإن روح الرسول تنظر إليهم . بدأ أفراد الصاعقة الذين شاهدوا البادشاه على صهوة جواده وأستاذه يمسك بالأعنة بهجوم مدهش .

هزم الجيش الألمانى . قتل ٥٠٠٠٠ من أفراد العدو فى ساحة القتال و٢٠٠٠٠ فى المستنقعات التى سيقوا إليها ، واغتنم ١٠٠ مدفع . كانت خسائر العثمانية عبارة عن عدة آلاف من الشهداء . كانت جثث قتلى العدو مكدسة فى ساحة القتال الواحد فوق الآخر . وتعقب كل من فتح كيراى وجغال أوغلو سنان باشا العدو المغلوب ، وأسرا قسما منه .

كانت هاجوفا Haçova من أكبر إنتصارات العثمانيين . ولكنه انتصار لم يقيّم استراتيجيا . عادوا إلى الخلف بعد إفناء جيش العدو . ولو ذهبوا بالبادشاه إلى الأمام لفتحوا بالتأكيد أقطارا عديدة . ولكن العثمانية كانت قد بدأت تأخذ بفكرة الحفاظ فقط على ماتملكه . فقد العثمانيون روح الفتوحات وطاقة التحرك . حملة أكرى ، هى الحملة الهمايونية الوحيدة خلال الـ ٥٥ عاما من ١٥٦٦ إلى ١٦٢١ (كاتب جلبى ، الفذلكة ، ١ ، ٩٠ ومابعده ، بجوى ، ٢ ، ١٩٥ - ٢٠٣ ؛ صولاق -

زاده ، ٦٣٤ ومابعده ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٥٩٠ ومابعده ؛ نعيما ، ١ ، ١٥٥ – ٦٨ ؛ هامر ، ٧ ، ٣٢٨ ومابعده) .

فى السنة التالية ، عين الوزير الشاب ساطرجى محمد باشا قائدا عاما للجبهة الألمانية (١٥٩٧/٦/٩ – ١٥٩٩/١/٦) . لم يكن الوزير الشاب هو الشخص الذى يمكنه القيام بمثل هذا الواجب العسكرى . جاء إلى بلغراد فى ١٣ آب ، وقضى فيها مدة ٢٣ يوما . أثناء اقتراب القائد من بودين ، كان الألمان يحاصرون يانق قلعة . وفى ٢ ت١ خسروا ٢٠٠٠ قتيل ثم انسحبوا . استولى صاطرجى باشا على Tata وأبعد الألمان عن شمال بودين وخلص Yanik و Tamesvar ، إلا أن يانق قلعة انتقلت إلى يد الألمان بشكل غير متوقع (١٥٩٨/٣/٢٩) . كان الألمان يتجسسون من فينا على القلعة التى تبعد عنها ٩٠ كم . كانت الأرزاق تصل إلى القلعة عن طريق أستولنى – بلغراد .

جاءت ليلا قافلة تتكلم التركية وأفادت بأنها تحمل الأرزاق . فتح الحرس الذين كانوا سكارى باب القلعة . اجتاز الألمان الذين كانوا فى كمين الجسر ، ودخلوا القلعة . أشعل بكلربكى محمود باشا مخزن البارود مع ٣٠٠ جندى ، وقتلوا كلهم مع مئات الألمان نتيجة الانفجار . كانت حامية القلعة تتألف من ٤٠٠٠ جندى ، إلا أنهم كانوا منتشرين فى النواحى المجاورة ، ولايتوقعون هجوما شتويا ، بقى فى القلعة ٣٠٠ جندى فقط تحت قيادة ضابط انكشارى سكران اسمه يحيى أغا . لم يستمر الحكم الثانى للعثمانية فى يانق قلعة إلا ٣ سنوات و٦ أشهر ويومان . وكأنما تعادل النصر الذى حصلت عليه العثمانية فى فتح أكرى مع هذه الخسارة .

عند حُلول الصيف تفقد الباشا مع غازى كيراى ٢ الجبهة . استولى القائد على جاناد (Csanad) وآراد ، وفى ٢ ت ١ شرع فى حصار فارات ، وفى ٣ ت٢ رفع الحصار ، وخلال هذه الأيام شرع الأرشيدوق Matthias فى محاصرة بودين بقوته البالغة ٨٠٠٠٠ جندى (٢٨ أيلول) ، لكنه انسحب فى ٢ت٢ . احترق ٨٠٠٠ بيت فى بودين نتيجة قصف مدفعية العدو . كانت خسائر الطرفين كبيرة . استشهد ٢ بكلربكى ، جرح ترياقى حسن باشا . عزل صاطرجى محمد باشا عن القيادة بعد عودته إلى بلغراد بـ ٢٩ يوما . وفى نفس اليوم عزل فى إستانبول عن الصدارة جراح محمد باشا . صار داماد إبراهيم باشا وزيراً أعظم وقائداً أعلى (١٥٩٩/١/٦) .

دامت قيادة صاطرجى سنة و ٦ أشهر و ٢٧ يوما (نعيما ، ١ ، ٢٠٤ ؛ منشآت السلاطين ، ٢ ، ١١٨ - ٩) .

٣٤) حملتا أويفار Uyvar (١٥/٥ - ١٥٩٩/١١/٢٦) وقانيجة Kanije (٨/١٤ - ١٦٠٠/١١/٣٠ لداماد إبراهيم باشا

خرج إبراهيم باشا من إستانبول إلى الجبهة بعد ترأسه الوزارة بـ ٤ أشهر و١٠ أيام (١٥٩٩/٥/١٥) . انضم غازى كيراى ٢ إلى الجيش . استولى إبراهيم باشا على أويفار (بالسلوفاكية : Nové Zamky) القلعة الألمانية المهمة (حاليا فى جيكوسلوفاكيا) . طلبت ألمانيا الصلح ، جزع الفويفودا Mihai من ذلك ، وعرض عبوديته واسترحم الديوان الهمايونى كى يقبله . عين للمفاوضات بكلربك دياربكر قويوجى مراد باشا ، وهو صهر قاضى - زاده على باشا بكلربك بودين . لكن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة . قضى ، الوزير الأعظم والقائد الأعلى داماد إبراهيم باشا الشتاء فى بلغراد (١٥٩٩/١١/٢٦ - ١٦٠٠/٨/١٤) . حاصر قانيجة (١٢ أيلول) وفتحها (١٦٠٠/١٠/٢٢) . انتقلت قلعة مهمة تقع بين بحيرة Balaton ونهر Dtava (بالمجرية : Nagy - Kanisza) ليد الألمان بعد أن كانت فى السابق لدى العثمانية . ورغم أن Philippe Emmanuel دوق Lothringen (Lorraine) هرع لنجدة قانيجة بـ ٤٠٠٠٠ جندى ؛ إلا أنه هزم وانسحب . جعلت قانيجة مركزا لإيالة وخصص لها ٥٠٠٠ جندى .

قضى إبراهيم باشا فى بلغراد شتاء آخر (١٦٠٠/١١/٣٠ - ١٦٠١/٧/١) . تحرك بحملة جديدة على ألمانيا ، توفى فى الطريق (١٠ تموز) . ختم حياته العسكرية والسياسية بشكل لامع . أدار دفة الحرب لصالح العثمانية باستيلائه على قلعتين مهمتين جدا كأويفار وقانيجة وقلاع كثيرة فى الدرجة الثانية من الأهمية . لم يكن خلفه الوزير الأعظم والقائد الأعلى يمشجى حسن باشا جديرا بهذا المنصب . تحرك من إستانبول (١٦٠١/٨/٩) . وفى هذه الأيام ، قتل ميهاى ، وعندما استولى محمود باشا على الأفلاق بكاملها عرضت بغدان وأردل طاعتهما . سيبدأ يمشجى حسن باشا مرحلة تثبت عجزه وتخريبه للمخطط العسكرى الموفق الذى ورثه عن سلفه إبراهيم

باشا ، شاهد الألمان تجوال القائد الأعلى فى الحدود دون جدوى ، جاءوا فى الخريف أمام قانيجة .

٣٥) محاصرة قانيجة (١٦٠١/٩/٩) والانتصار (١٦٠١/١١/١٨)

جاء الأرشيدوق Ferdinand الإمبراطور فى المستقبل بقوته البالغة ١٠٠٠٠٠ جندى و ٤٧ مدفع حصار أمام قانيجة . سيقوم بالدفاع عن القلعة تجاه الأرشيدوق البالغ سنه ٢٣ بكلربك ترياكى حسن باشا البالغ سنه ٨٠ ، والذى قضى حياته على الحدود ، كان ذكيا ، بقدر ماهو حاضر الحيلة ، وداهية عسكريا ، شهد الحرب والضرب فى عصر القانونى . كانت قواته ٩٠٠٠ جندى و ١٠٠ مدفع دفاع . كان ١٠٠٠٠ جندى من بين جيش الأرشيدوق أرسلهم البابا ، وكانت هنالك وحدات إيطالية ، مالطية ، ووحدات متطوعة مجرية وفرنسية . وخلال نفس الأيام بدأ جيش ألمانى أصغر منه بمحاصرة أستولنى - بلغراد .

بدأ حصار قانيجة ، وكان يطلق عليها يوميا من ١٠٠٠ إلى ٢٠٠٠ قذيفة . وبالرغم من أن حسن باشا كان موجوداً على مقربة من القلعة الا أنه لم يجسر على المجىء لنجدتها « أودع كانيجة لأمان الله » وانسحب إلى مشتاه . أذهل حسن باشا العدو بحيله البارعة .

رفضت الوحدات المجرية فى الجيش الألمانى القتال مع الأتراك ، كما سرى التشاؤم من موت ابن أخى البابا برصاصة أطلقت من القلعة من بندقية تركية وحالات شبيهة .. كل ذلك أدى إلى تضعضع الألمان . نصب الألمان الأكواخ فوق الثلوج واستمروا فى الحصار . قلت ذخيرة ترياكى حسن باشا ، ولم يبق الا القليل . وبحيلة عسكرية تمكن من إيهام الألمان بهجوم ليلى ، على أساس أن قوات يمشجى حسن باشا على وشك الوصول . كانت ليلة ١٧ - ١٨ ت٢ - وهو اليوم ٦٩ من الحصار - استولى الرعب الشديد على الألمان ، ظنا منهم أن الجيش الهمايونى أغار عليهم بغتة وأخذوا فى التراجع .

ترك الألمان الذين خسروا ٨٠٠٠٠ جندى كافة مهماتهم . انتقل ليد الأتراك ،

٤٧ مدفع حصار بحجم هائل و١٤٠٠٠ بندقية و٦٠٠٠٠ خيمة و١٤٠٠٠ معول ومسحاة ، آلاف العربات المليئة بالطعام والملابس والأدوية والبارود والأسلحة ، وسرادق الأرشيدوق وخزينته . تمكن الأرشيدوق من امتطاء جواده بملابس النوم والهروب . تعقب ترياكي حسن باشا العدو بواسطة ٣٠٠٠ من خيالته حتى داخل الأراضي النمساوية . انتقلت ٣٠٠٠ قرية ألمانية إلى سيادة الأتراك . ولد إفناء الجيش الألماني بشكل غير متوقع السرور العظيم في إستانبول . منح محمد الثالث رتبة الوزارة (الماريشالية ، مشير) إلى ترياكي حسن باشا ، وسيفا مرصعا وباركه بكتاب همايوني (نعيما ، ١ ، ٢٥٤ - ٨١ ؛ هامر ، ٨ ، ٩ - ١٤) .

استرجع يمشجي حسن باشا ، الذي تحرك من بلغراد ، أستولني - بلغراد ، التي انتقلت إلى يد الألمان ، خلال هذه الأيام (١٢ تموز - ٦ آب ١٦٠٢) . حاصر الألمان بودين بـ ٨٠٠٠٠ جندي . إلا أنهم هزموا بخروج لاله محمد باشا (١٦٠٢/١١/١٨) ، لاله باشا أصبح وزيراً ٣ وقائداً أعلى . خرج إلى الجبهة في ١٦٠٣ (١١ أيار - ٢١ أيلول) ، جرت معارك عنيفة قرب بودين ، انسحب إلى بلغراد لقضاء الشتاء . توفي محمد الثالث في هذه الأثناء (١٦٠٣/١٢/٢١) .

٣٦) وفاة محمد الثالث ، جلوس أحمد الأول (١٦٠٣/١٢/٢١)

عاش محمد الثالث ٣٧/٥ عاما ، دامت سلطنته ٩ سنوات إلا ٢٥ يوما ويعرف بـ « فاتح أكري » ، وكان مثقفا ثقافة عالية وله ديوان شعر . أساتذته الرئيسيون شيخ الإسلام سعد الدين أفندي (وفاة ١٥٩٩) قاضي عسكر عزمي أفندي (وفاة ١٥٨٢) ، نوالي أفندي (وفاة ١٥٩٥) ، جعفر أفندي (وفاة ١٥٧٤) ، حيدر أفندي (وفاة ١٥٨٠) ، مربيه الوزير الأعظم مانيسالي لاله محمد باشا (وفاة ١٥٩٥) (هو ليس الوزير الأعظم صوقوللو - زاده لاله محمد باشا العسكري الكبير) رمضان أفندي ، مصطفى باشا - زاده قورد بك ، لاله علي باشا الذي استشهد عندما كان بكلربك لتبريز (وفاة ١٦٠٤) . سماه القانوني وهو ابن الحفيد الأول له . عند وفاة القانوني كان عمره ٣ أشهر و١٢ يوما .

جده سليم الثاني وأبوه مراد الثالث ، كانا سلطانين بمعنى الكلمة ، لهما حظهما

من الدهاء لترعرعهما على عهد القانونى . كان محمد الثالث شخصية ضعيفة ، وقد كان السبب فى إحياء سلطنة النساء فى الدولة وإظهار كافة مساوئها بسبب ضعفه الشديد تجاه والدته وبقائه تحت تأثيرها . أبناؤه أولو شهزاده (١٥٩٥ – ٩٧) سليم (١٥٨٠ – ١٥٩٧/٤/٢٠) ، شهزاده جهانكير (١٥٨١ – ١٥٩٦) ، أولو شهزاده (١٥٩٧ – ١٦٠٢) محمود (١٥٨٧ – ١٦٠٣/٦/٧) ، أحمد الأول ، (الذى خلفه) . له ١٠ بنات وصلن سن الزواج . أصغر أولاده مصطفى الأول .

ولد أحمد الأول فى قصر مانيسا (١٥٩٠/٤/١٨) . ولد أبوه محمد الثالث وجده مراد الثالث فى مانيسا كذلك . جلس أحمد الأول على العرش بعد ولاية عهد دامت ١/٥ سنة ، وكان عمره يجاوز سن ١٣ بـ ٨ أشهر ، لم يكن قد تم تختينه ، فجرى ختانه فورا . لم يرسل إلى مانيسا بسبب صغر سنه ، ولهذا فقد كان أول سلطان اعتلى العرش دون أن يوفى وظيفة سنجق بك (أمير لواء).. استمرت الحرب الألمانية خلال السنوات الـ ٣ الأولى من سلطنته وأسفرت عن نتائج .

٣٧) الصفحة الأخيرة للحرب الألمانية (١٦٠٤ – ١٦٠٦) ، معاهدة Sitvatorok (١٦٠٦/١١/١١)

جاء من القاهرة إلى إستانبول ، مالقوج أوغلو ياووز على باشا بكلربك مصر ، الذى صار وزيرا أعظم بدلاً من يمشجى حسن باشا (١٦٠٣/١٢/٢٩) . كان السلطان أحمد الثالث حينذاك سلطانا منذ ٣ أيام . أخذ القيادة العامة فى ٢ شباط (١٦٠٤) ، من صوقوللو – زاده لاله محمد باشا على عاتقه . تحرك من إستانبول (١٦٠٤/٦/٣) . لكنه توفى عند وصوله إلى بلغراد (١٦٠٤/٧/٢٦) . صار صوقوللو زاده لاله محمد باشا وزيراً أعظم وقائداً أعلى . تحرك من بلغراد (٥ آب) ، وصل بودين فى ٢٥ أيلول ، حاصر Estergon ٣١ يوما ، لم يتمكن من فتحها . نقل المبادرة فى الحرب إلى الطرف العثمانى بشكل قطعى . وبعد بقائه فى بلغراد عدة أشهر قدم إلى إستانبول فى ٩ شباط (١٦٠٥) ، تحرك فى ١٦ أيار . وفى ٢٩ آب (١٦٠٥) كان أمام أستركون . دام الحصار ٣٥ يوما ، كان الحصار شديدا جدا .

فتحت أستركون التى أكملت حديثا السنة الـ ١٠ من سنين بقائها تحت الاستيلاء الألمانى ، فى (٣/١٠/١٦٠٥) . وكذلك تم استرداد قلاع عديدة كفيشغراد ، تبة ده لن ، جكرده لن (حاليا فى جيكوسلوفاكيا) ، Vespirem , Palota . وخلال نفس الشهر استرجع سرخوش إبراهيم باشا ابن أخى لاله باشا أويفار Uyvar وصار بكلربك لها . كانت أويفار ، حاليا فى جيكوسلوفاكيا ، قلعة مهمة ، تقع على بعد ٥٠ كم فى الشمال – الغربى من أستركون . وخلال ت ١ / ١٦٠٥ ، فتح سخوش إبراهيم باشا مع ٢٠٠٠٠ من جنود الصاعقة akinci على الحدود النمساوية واجتاح كل من النمسا الشرقية ، Karinthia , Karniol , Stirya . وصل لاله باشا إلى أقصى الشمال الشرقى من المجر . وفى صحراء راكوش (حاليا أوكرانيا ، أقصى الشرق من الجمهورية السوفيتية) ، منح أمير أردل Istvan Bocskay لقب « ملك » وألبسه التاج (٢٠/١١/١٦٠٥) . ركع الأمير أمامالقائد الأعلى وقبل يده ثلاث مرات . عاد لاله باشا إلى إستنانبول (١٦/٣ / ١٦٠٦) . كان قد أدار دفة الحرب لصالح العثمانية دون جدال . توفى صوقوللو زاده لاله محمد باشا بعد أن عين الوزير ترياكى حسن باشا وكيلا للقائد الأعلى فى بلغراد ، أثناء استعداده للخروج لحملة جديدة ، ولم يشهد المصالحة (نعيما ، ١ ، ٤١٢ ، ٢٥ ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٠١ – ٨ ؛ صولاق زاده ، ٦٩٠ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٦٢٢ ، ٣ ؛ هامر ، ٨ ، ٨١ ومابعده) .

أدركت ألمانيا خسارتها فى الحرب فكانت تريد الصلح . وكانت العثمانية من أجل التفرغ لإيران وخروج لاله باشا لحملة إيران ، تطلب الصلح كذلك . أزيح العدو من المجر وفتحت سلوفاكية الجنوبية . قام بالمفاوضات التمهيدية والهدنة مع الألمان قويوجو مراد باشا ، أما المعاهدة الأصلية فأجراها أبو زوجته قاضى زاده على باشا بكلربك بودين . جرت المفاوضات فى بودين (بودابست) . وفى النهاية تم الاتفاق على المعاهدة الشهيرة المسماة Sitvatorok ١١/١١/١٦٠٦) .

انتهت بلية الحرب العثمانية – الألمانية الكبرى التى زج فيها قوجا سنان باشا الدولة دون سبب والتى استمرت ١٣ سنة و٤ أشهر و٨ أيام . كانت هذه المعاهدة طويلة الأمد ؛ استمرت ٥٦ سنة و٥ أشهر ، ويوما حتى إعلان تركية الحرب مجددا على ألمانيا فى ١٢/٤/١٦٦٣ .

تتألف المعاهدة التى اتفق الأطراف على استمرارها ٢٠ عاما قابلة للتجديد والتى أبرمت نتيجة المؤتمر الذى استمر ٢٢ يوما فى موقع سيتفاتوروك (Zsitvatorok)

وهى قصبة تركية تقع بين أستركون و Komarno على مقربة من الشمال الغربى لبودين – من ١٧ مادة . وأهم شروطها :

تسدد ألمانيا إلى العثمانية غرامة حرب قدرها ٦٧٠٠٠ سكة ذهبية . إلغاء الضريبة التى يسددها الإمبراطور للبادشاه ، ويستعاض عنها بهدية عينية يقدمها للبادشاه كل ٣ سنين ، على ألا تقل عن قيمة معينة . يعامل البادشاه الإمبراطور « بشفقة مثل معاملته لابنه » . تثبيت الحدود على أساس الأراضى الموجودة لدى الطرفين فى تاريخ عقد المؤتمر ، وليس هنالك مبادلة فى الأراضى . تمتنع الدولة العثمانية بعد الآن عن مخاطبة ومكاتبة الإمبراطور الألمانى بصفة « ملك » ، وتعترف بصفته إمبراطورا وتستعمل هذه الصفة فى كافة الوثائق الدبلوماسية . (كانت هذه هى أهم مواد الاتفاقية) . يوضح هذا أن العثمانية تركت ماسبق وأن دافع عنه الديوان بشدة ، وطلب كل من الفاتح والقانونى رعايته بإصرار ، وهو أن إمبراطور روما الفرد فى أوروبا هو الخاقان العثمانى . إن الصفة الرسمية لإمبراطور ألمانيا هو « إمبراطور روما الغربية » ولم يكن تعبير « إمبراطور ألمانيا » رسميا . ولكنه استعمل بكثرة فى ذلك العصر ، كما يستعمل فى يومنا هذا ؛ وعلى هذا فإن قبول الديوان الهمايونى للقب إمبراطور روما الغربية لحاكم ألمانيا يعنى ضمنا موافقة البادشاه على أنه ليس هو إمبراطور روما الوحيد ، وأنه تقبل كونه إمبراطورا لروما الشرقية (البيزنط) فقط . ولكن ، يظهر من معاهدة سيتفاتوروك التى تنص على أن يكون البادشاه أبا والإمبراطور ابنا أنه حصلت الموافقة على أن البادشاه هو الإمبراطور الأكبر . وهذه القاعدة ، مطابقة للقاعدة التى كانت معتبرة فى وقت ما فى روما . حيث كان فى روما إمبراطوران حتى عام ٣٩٥ م ، ولكن كان أحدهما يعتبر أرفع شأنا من الآخر . ويستخلص من ذلك ، أن المعاهدة تحافظ على علو منزلة الدولة العثمانية والخاقان الذى يمثلها . من ناحية أخرى :تقوم ألمانيا بتخلصها من عبء دفع الضريبة السنوية (التى تقلل شأن دافعها) بدفعها كل ٣ سنين ، أو بحصولها على موافقة أقوى دولة فى العالم ، على قبول اللقب الحقيقى لحاكمها ، تكون قد حصلت على مكسب منهم بالقياس إلى ماسبق ، وعلى أقل تقدير من ناحية صيانة كرامتها ، إذ إنه لم يتمكن حتى أقوى الأباطرة قدرة مثل Charles-Quint ولا أخوه F erdinand من الحصول على ذلك .

وتنص إحدى فقرات معاهدة سيتفاتوروك ، على أن شروط هذه المعاهدة مفتوحة بالنسبة لإسبانيا كذلك ، إلا أنه من الناحية العملية لم يكن معقولاً أن يوقع الديوان على صلح مع إسبانيا ، حيث كانت هذه الأعوام تصادف الفترة التي قضت فيها أسبانيا على البقية المتبقية من المسلمين :

وفى أيلول ١٦٠٩ صدر مرسوم ملكى باسم فيليب الثالث ابن وخلف فيليب الثانى ينذر كافة المسلمين الموجودين فى إسبانيا بتركهم الأراضي الملكية خلال ٧٢ ساعة ، وإذا عرفنا أنه ليس بالإمكان فى ذلك العهد السفر بين أقرب مدينتين خلال ٧٢ ساعة فإن القصد يكون واضحاً جدا ؛ وهو إفناء آخر من بقى من المسلمين ، وقد استمر هذا الافناء ١٠ أشهر ، وتم فى تموز عام ١٦١٠ .

كان قد بقى فى البلاد فى هذا التاريخ ، ٦٠٠٠٠٠ عربى ، وقد سهل قتلهم انتشارهم على نطاق واسع فى إيالات بلنسية ، الأندلس ، مرسية ، قشتالة ، أرغون وقاتلونيا . كان هذا هو عدد البقية المتبقية من ملايين المسلمين . البقية قتلوا ، نصروا ، هربوا إلى إفريقية الشمالية . كان هنالك مهاجرون أندلسيون مستوطنون فى الأناضول ، وأيضا فى إستانبول . القسم الأعظم من الإسبان اليوم فى إسبانيا الجنوبية ، هم عرب برابرة من جهة الدم . قتل ٤٠٠٠٠ مسلم وهم الذين قاوموا بالسلاح فى جبال بلنسية . ويقدر المؤرخون أن ١٥٠٠٠٠ عربى نقلوا بالسفن العثمانية إلى الجزائر و٥٠٠٠٠ وهبت لهم حياتهم لقاء عبوديتهم وتنصرهم ، و ٤٠٠٠٠٠ منهم قتلوا خلال ١٠ أشهر (Pirenne ، ٢ ، ٥٦١ ؛ Lavisse - Rambaud ، ٥ ، ٦٥٢) .

كان العرب فى طليعة سكان القطر تقدما فى الفنون اليدوية والصناعة والزراعة . ولم يتمكن الإسبان من ملء الفراغ الذى أحدثه العرب لجهل الأسبان وتخلفهم بالقياس إلى العرب .

فقدت البلاد قدرا كبيرا من رفاهيتها . وفى نفس عام ١٦٠٩ ، انفصلت هولندا عن إسبانيا ، بعد صراع دموى استمر ربع قرن ، وصارت دولة مستقلة ، أخذت مكانها بسرعة كبيرة بين الدول الكبرى فى الشئون البحرية والمصرفية . أما بلجيكا الكاثوليكية فظلت مع إسبانيا . أما هولندا ، التى أسرعت فى الدخول فى مجال

الاستعمار فقد دخلت جاوا فى ١٦١٠ ، وأخذت مكان البرتغاليين فى المحيط الهندى . ملأت هولندا الفراغ الذى أحدثه انضمام البرتغال إلى إسبانيا خلال هذه الأعوام . وهكذا يكون القرن ١٦ قد مر بسيطرة البرتغال البحرية فى المحيط الهندى ، والقرن ١٧ بسيطرة هولندا ، والقرن ١٨ بسيطرة إنكلترا .

٣٨) الحروب التركية - الإيرانية (١٦٠٣ - ١٦١٨)

بدأت الحرب بين تركية العثمانية وإيران الصفوية بهجوم الصفويين على تبريز ، بعد صلح دام ١٣ سنة و ٦ أشهر و ٦ أيام (١٦٠٣/٩/٢٦) . كانت هذه هى السنين الأخيرة لحكم محمد الثالث . بدأ شاه عباس الكبير بتطبيق سياسة الاسترداد بالقوة العسكرية . كان عازما قدر الإمكان على استعادة الأقطار التى لم يتمكن من الحفاظ عليها ، واستولت عليها العثمانية .

افتتح الشاه دورة القتال تجاه العثمانية واستعد دبلوماسيا بعد مراسلات طويلة مع البابا والإمبراطور وملك إسبانيا . وعدا هذه الدول التي هى فى حالة حرب مع العثمانية أرسل سفراء إلى الأقطار الأخرى كإنكلترا ، أسكوجيا ، فرنسا ، روسيا ، بولونيا ، هولندا ، وهى الدول التى يستبعد احتمال دخولها فى حرب مع العثمانية طالبا الاتحاد معها . وحاول الاتفاق مع بنى تيمور الهند الذين يكرهون الصفويين (Hammetr, VIII, 38; Lavisse-Rambauel, 871: Grenard, 93) كان الشاه مقتنعاً بأنه أجرى صلحا مهدراً لكرامته مع العثمانية ، وأنه اعترف رسميا بأن البادشاه حاكم أعلى ، لذا كان يريد أن ينتقم . وبهجوم مفاجىء أسقط تبريز خلال ٢٢ يوما . انتهى فى تبريز آخر حكم عثمانى كان قد استمر ١٨ سنة و ٢٨ يوما . وباستيلائه بعدها بصورة سريعة على القسم الأكبر من أذربيجان الجنوبية ؛ أزاح فعلا الإيالة العثمانية من الوجود . انتقل إلى شمال آراس . استولى كذلك على إيالة ناهجوان (١٦٠٣/١٠/٢٦) . وبعد حصار شديد دام ٦ أشهر و ٢٣ يوما ، استولى على مركز إيالة عثمانية أخرى وهو روان (١٦٠٤/٦/٨) حاليا أرمنستان السوفيتية التى كانت حينذاك قطرا تركيا صرفا .

صار جغال أوغلو سنان باشا الوزير الأعظم السابق قائدا أعلى على الجبهة الإيرانية وتحرك من إستانبول (١٦٠٤/٦/١٥) . لم يتمكن من اجتياز قارص وأغلق موسم الحملة (١٦٠٤/١١/٨) . وفى آب أغار على تبريز آملا استعادة أذربيجان . وغلب فى معركة أورمية الكبرى أمام الجيش التركمانى الصفوى المؤلف من ٥٠ ٠٠٠ شخص ، بقيادة الشاه شخصيا (١٦٠٥/٩/٩) ، انسحب إلى دياربكر وتوفى فيها متأثرا بهزيمته (١٦٠٥/١٢/٢) . عين مكانه سردار (قائد) ، دلى فرهاد ، أحد الوزراء وتحرك من إستانبول (١٦٠٦/٦/٢٥) . أما الصفويون فقد استولوا على كنجة (١٦٠٦/٧/٦) وشماه (١٦٠٧/٦/٢٧) واجتازوا نهر كور ، واستولوا على القسم الأكبر من شيروان . لم يتمكن الشاه من التقدم أكثر من ذلك . ودخلت الحرب فى دور الركود .

عين الوزير الأعظم (رئيس الوزراء) قويوجو مراد باشا سردار أكرم (قائدا أعلى) على الجبهة الإيرانية (١٦١٠/٤/٢٩ - ١٦١١/٨/٥) ، تحرك من إستانبول . تقابل فى أرضروم مع سفراء الشاه . طلب الشاه الذى أرسل هدايا ثمينة جدا الصلح على أساس معاهدة أماسيا التى عقدت فى عهد القانونى . جاء قويوجو باشا إلى تبريز التى يتواجد فيها الشاه . حاول الشاه إفناء الجيش العثمانى خارج تبريز مدة ٥ أيام و ٥ ليال ولكن ، لم يتمكن كلا الطرفين من إحراز نصر حاسم على الآخر . كرر الشاه طلب الصلح (١٦١٠/١١/١٦) . انسحب الباشا الذى لم يرض عن قضاء الشتاء فى تبريز إلى (عامد) فى دياربكر ، توفى هناك (١٦١١/٨/٥) . عين مكانه الوزير نصوح باشا بكلربك دياربكر وزيراً أعظم وسرداراً أكرم (قائدا أعلى) . قدم إلى إستانبول (١٦١٢/٩/٢٧) ووقع على معاهدة إستانبول مع إيران (١٦١٢/١١/٢٠) . انتهت الحرب التى دامت ٩ سنوات وشهرا و٢٤ يوما . فى هذه المعاهدة اتفق على حدود معاهدة أماسيا التى تختلف قليلا عن حدود إيران العراقية والتركية الحالية . أعيد بموجب هذه المعاهدة مايقارب ٤٠٠ ٠٠٠ كم٢ من مجموع الأراضى البالغة ٥٧٠ ٠٠٠ كم٢ التى حصلت عليها العثمانية قبل ربع قرن . انتقلت إلى الصفويين المناطق المحيطة ببحيرتى أورمية وكوكجة ، شرق مجرى نهرى أراس وكور ، وبعبارة أوضح ، روان ، نهجوان ، قرة باغ (عران) أذربيجان (شيروان) الشمالية والجنوبية ، وفى مقابل ذلك يبقى القسم الأكبر من كرجستان وداغستان وقفقاسيا الشمالية لدى العثمانية .

لم يدم الصلح أكثر من سنتين و ٦ أشهر و ٣ أيام . أعلنت الحرب على إيران . صار الوزير الأعظم داماد أوكوز قرة محمد باشا ، سرداراً أكرم (١٦١٥/٥/٢٢) ، غادر فى ١١ حزيران ووصل حلب فى أيلول . ظل فيها ٧ أشهر ، ثم تحرك (١٦١٦/٤/١٨) بجيشه البالـــــغ ١٠٠٠٠٠ شخص ووصل روان (١٦١٦/٩/١١) حاصرها مدة ٥٤ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . كان الشاه موجودا فى نهجوان التى تبعد ١١٥ كم فى الجنوب - الشرق . لم يتمكن من الحملة على الجيش العثمانى . انسحب العثمانيون عند حلول فصل الشتاء . صار السردار الأكرم الوزير الأعظم الجديد خليل باشا (١٦١٧/٦/١٥) . قضى شتاء عام ١٦١٧ - ١٨ فى دياربكر . وجاء جانى بك كيراى ، خان قرم مع ٤٠٠٠٠ خيال من قفقاسيا الشمالية وقلب إيالات كنجة ونهجوان رأسا على عقب ، وبقضاء فصل الشتاء مع الوزير الأعظم جاء هو كذلك إلى دياربكر . تحرك الوزير الأعظم مع الخان من هنا فى ١٦١٨/٥/١٦ . كان قالغاى (ولى عهد قرم) شاهين كيراى فى المقدمة ، وقع أسيرا فى يد الشاه ، أطلق الشاه سراح قالغاى ، دليلا على طلبه الصلح . دخل الجيش الهمايونى أذربيجان الجنوبية . ووصل قرب أردبيل ، المدينة المقدسة للصفويين . وفى الحرب الميدانية المسماة بول شكسته (قيريق كوبرى) (١٦١٨/٩/١٠) خسر العثمانيون ١٥٠٠٠ مابين شهيد وجريح و ٥٠٠ أسير ، واستشهد ٣ بكلربك (فزيق) ، ووقع اثنان منهم فى الأسر ، لكن خليل باشا تمكن من لم شعث الجيش وأثناه عن التراجع . كرر الشاه طلب الصلح . وقعت أمام أسوار أردبيل معاهدة أردبيل (١٦١٨/٩/٢٦) ، وهى تختلف عن معاهدة إستانبول فى أنها خفضت الـ ٢٠٠ حمل من الحرير الذى تقدمه إيران كخراج سنوى إلى العثمانية ؛ إلى ١٠٠ حمل . دام الصلح ٥ سنوات . وبعد ٥ سنوات استولى الصفويون على بغداد ، توسعت الحرب العثمانية - الصفوية بدرجة لم يشهد لها مثيل .

٣٩) المسائل الداخلية لعهد أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧)

على أثر وفاة الوزير الأعظم والسردار الأكرم مالقوج أوغلو ياووز على باشا فى بلغراد أخذ صوقولوزاده لاله محمد باشا على عاتقه كلا الوظيفتين وحافظ على زمام

السلطة بيده حتى وفاته مدة سنة و١٠ أشهر و٢٦ يوما ، محرزا انتصارات لامعة (١٦٠٤/٧/٢٦ - ١٦٠٦/٦/٢١) . مدة سلطة سلفه ياووز على باشا ، الصدر الأعظم الأخير لمحمد الثالث والأول لأحمد الأول . عبارة عن ٩ أشهر و١١ يوما . خدم لاله باشا فى بلغراد كما خدم كذلك فى الجيش .

صار درويش محمد باشا وزيرا أعظم وولى فرهاد باشا سردارا (قائدا) على إيران . على أثر إعدام درويش باشا ، حل مكانه قويوجو مراد باشا ، الصدر الأعظم القوى السلطة ، ذو الشخصية الكبيرة فى عهد أحمد الأول . دامت سلطته حتى وفاته ٤ سنوات ، و٧ أشهر و٢٧ يوما (١٦١٦/١٢/٩ - ١٦١١/٨/٥) . وهى أطول مدة صدارة ، منذ وفاة صوقولو قبل ٢٧ سنة .

كان مراد باشا سياسيا صبورا ، ماهراً ، صلبا جدا ، قائداً جيداً ، كبير السن ، رجل دولة مجربا . وكان صهرا لقاضى زاده على باشا الذى قام بإدارة المجر فترة طويلة وبلياقة تامة بلقب بكلربك . سقط من على ظهر جواده ، أثناء مصادمته مع الصفويين ، سقط فى البئر قبل ٢١ عاما (١٥٨٥) عندما كان بكلربك فى معية أوزدمير أوغلو ، قام الصفويون بانتشاله من البئر وسجن فى **Alamaut** ثم عاد من إيران . أطلق عليه لقب « قويوجو » نسبة إلى « البئر » . ولقب « قوجا » (الكبير) لكبر سنه .

كان يقصد مراد باشا الذى غادر إستانبول فى ١٦٠٧/٧/٢ تخليص الدولة من الجلاليين الذين أصبحوا دولة داخل الدولة ، وكان يتعاون معهم كثيرون من البكلربكى (فريق) وسنجق بكى (أمير لواء) . اختل الأمن فى الأناضول ، وتدهور الوضع الاقتصادى الممتاز الذى كانت عليه البلاد فى العصر ١٦ .

كان يرافق مراد باشا الوزير ترياكى حسن باشا بكلربك روملى البالغ عمره ٨٠ عاما ، وفى الطريق قتل وسفك دماء كثيرة من الجلاليين ، حتى وصل حلب فى ٩ ت ٢ (١٦٠٧) .. حيث قضى الشتاء فيها واستمر فى تنظيف الدولة من الجلاليين فى السنة التالية . عاد إلى إستانبول فى ١٦٠٨/١٢/١٨ . وهكذا تكون حركة تنظيف الجلاليين قد استمرت سنة و٥ أشهر و١٧ يوما . تم إخماد الجلاليين ، ولكن لم يقض عليهم ؛ لأنهم كانوا يمثلون قسما من شعب الأناضول . لم يخرج

مراد باشا للجبهة فى ١٦٠٩ . ظل يؤدى واجبه فى استانبول مدة سنة و٥ أشهر و٧ أيام . غادر إستانبول فى ١٦١٠/٥/٢٤ ، وجاء إلى تبريز ثم عاد إلى دياربكر ومات هناك . وهكذا توفى آخر من أدرك عهد القانونى من رجال الدولة . صار فى ١٥٦٠ معاون بكلربك اليمن ، وفى ١٥٦٥ سنجق بك لمصر ، وفى ١٥٧٦ بكلربك لكل من اليمن ، ثم قره مان ، دياربكر روملى .

بدأت صدارة داماد نصوح باشا التى استمرت ٣ سنوات و شهرين و ١٣ يوما (١٦١١/٨/٥ - ١٦١٤/١٠/١٧) . كان فى مدينة دياربكر مع مراد باشا . وعين مكانه . مكث فى جبهة إيران سنة وشهرا و٢٣ يوما . وفى ٢٧ أيلول جاء إلى إستانبول ووقع مع إيران معاهدة صلح . ارتاح الشعب لعقد صلح مع إيران ، بعد ألمانيا وحل مشكلة الجلاليين فى الأناضول - ولو بصورة مؤقتة .

وخلال هذه الأيام ترعرع السلطان أحمد وأجتاز مرحلة الشباب وأصبح خاقانا ناضجا ، عاقلا وحذرا . تفقده تراقيا الغربية ، وذهابه إلى غاليبولى مع ٤ ضباط فقط فتح قلب الشعب وملأه سرورا . ذهب إلى بولاير وزار قبر الغازى سليمان باشا ، فاتح روملى ، وغطى قبره بوشاح فخم ملىء بشغل الذهب الكثيف . أخذ مسجد السلطان أحمد الملىء بالظرافة والذوق الرفيع والفن الذى يلقى فى القلب البهجة والسرور فى الارتفاع مقابل أياصوفيا . سمى الشعب هذا الميدان (الساحة) ، وقد كان يسمى منذ عصور « آط ميدان » باسم « سلطان أحمد ميدانى » دامت سياحته لتراقيا ، ٤ أشهر و١٤ يوما . سكن فى إستانبول ٦ أشهر و٢٠ يوما فقط . ثم ذهب إلى أدرنة مرة أخرى . قضى فصل الشتاء وعاد فى ربيع عام ١٦١٣ إلى إستانبول .

أعدم الوزير الأعظم نصوح باشا . ترك ثروة عظمى . صار داماد قره إبراهيم باشا وزيرا أعظم مدة سنتين و شهرا و يوما (١٦١٤/١٠/١٧ - ١٦١٦/١١/١٧) . كان رجل دولة قديرا . جاء سفراء فاس وألمانيا (١٦١٦/٩/٤) وعرضوا ضرائبهم وهداياهم وتابعيتهم وإجلالهم للبادشاه باسم حكامهم (فون هامر ، ٨ ، ٢٢٦ - ٣٣) . عزل محمد باشا الذى لم يتمكن من الاستيلاء على روان وعقد صلح مع إيران . وأخذ مكانه خليل باشا . وفى عهد صدارته ، افتتح جامع السلطان أحمد للصلاة (١٦١٧/٦/٩) . استمر الإنشاء مدة

٧ سنوات و٥ أشهر و٦ أيام ، وهو المسجد الوحيد فى العالم الإسلامى ذو المآذن الست من آثار قوجا محمد أغا المبدع .

أهم حملة بحرية فى هذه المرحلة هى حملة البحر الأبيض (٥/١٣ - ١٦١٤/١١/٢٨) . التى حققها « قبودان دريا » (مشير البحر) داماد خليل باشا ، الذى صار بعد ذلك وزيراً أعظم . استشهد مراد رئيس ، آخر من بقى من نسل البحارة القدامى ، فى سن متقدمة جدا ، عندما كان سنجق بك (أمير لواء) مورا بعد إفنائه أسطولا مالطيا (١٦٠٩) ، وكان فى سن ٨٠ . كانت حالة الحرب مستمرة مع مالطة ، البابوية وإسبانيا ، كانت الإيالات البحرية الجزائر ، تونس وطرابلس الغرب ، التى تملك القطع البحرية تلعب دورا مهما فى مثل هذه الحروب ، إلا أن سفر دايى ، وكيل بكلربك فى طرابلس ، ماطل فى تنفيذ الأوامر . أنزل خليل باشا الجنود إلى مالطة ، بواسطة ٤٥ سفينة من الأسطول الهمايونى وخربها ، ثم جاء إلى طرابلس ، وأعدم سفر دايى الذى كان يظلم الشعب ، أمام داره . سعى فى شئون السكان المهاجرين فى أماكن كأدرنة ، طرسوس ، طرابلس الشام ، وغلطة فى إستانبول (Mühimme, LXXV111,441) .

بعد ٨٩٩ عاما من فتح المسلمين لإسبانيا والبرتغال ، وبعد ١١٨ عاما من سقوط آخر دولة إسلامية فى إسبانيا لم يبق مسلم واحد فى إسبانيا والبرتغال ؛ كانت طائفة من الذين تنصروا لايزالون يصلون سراً فى مساكنهم ويذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد . كانوا يقدمون المعلومات عن الأسطول الإسبانى ، موانئه وقواته العسكرية إلى بكلربك الجزائر بواسطة رسائل سرية . وبعد مدة انتهت أيضا هذه الأعمال . قوضت كافة بدائع الهندسة المعمارية الإسلامية . وفى أواسط القرن ١٧ أصبح من الممكن أن نقول : إنه لم يكن هنالك فى أى وقت من الأوقات حكم إسلامى فى شبه جزيرة إيبريا ، وأن هذا القطر كان كاثوليكيا منذ الأزل . لكن المشاهد الذى يدقق عن كثب ، الهندسة المعمارية الإسباية ، الموسيقى ، الرقص ، العرف والعادات يمكنه أن يلمس استمرار التراث العربى الذى لانفاذ ولانهاية له .

أرسل الديوان فى ١٦١٠ ، الحاج إبراهيم أغا إلى لندن سفيرا فوق العادة ، ولقد كان الغرض الحقيقى من ذهابه إلى أوروبا الغربية هو جمع الأندلسيين الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى شمال إفريقية ، ولجئوا إلى غرب أوروبا والذين كان أكثرهم فى عداد

العبيد . جمع العائلات التى تمكن من العثور عليها ونقلها إلى الأراضى العثمانية ، ويعتبر هذا نموذجا مريرا لسياسة الشفقة الإسلامية للدولة العثمانية . وفى ١٦٠٦ ، أعلن مصطفى باشا ، الذى قدم من الجزائر ، مولاى زيدان ، سلطانا . ولكن الباشا قتل فى فاس فى تموز عام ١٦٠٩ . أستمر أكثرية الذين جلسوا على عرش فاس فى استلام المعونة العثمانية والاعتراف بالبادشاه – خليفة متبوعا (August Cour, Etablissement des Chérifs du Moroc Les Tures, Paris 1904, ص ١٤٩ ومابعده) .

٤٠) وفاة السلطان أحمد خان الأول (١٦١٧/١١/٢٢)

توفى السلطان أحمد على حداثة سنه ، بعد مرض أصابه فى بطنه يصاحبه حمى ، دام عدة أسابيع . كان قد تجاوز سن ٢٧ بـ ٧ أشهر و ٤ أيام . وحتى ذلك التاريخ ، لم يتوف أى خاقان فى مثل هذا السن عدا موسى جلبى . سببت وفاته فى هذا السن جلوس بادشاهات أطفال وحديثى السن على العرش لمدة طويلة . وكانت هذه من بين العوامل التى أدت إلى تعرض الإمبراطورية لاضطرابات داخلية . نضج السلطان أحمد مبكرا وأظهر فى سن طفولته قدرات حكام عظام ، وسوف تظهر هذه القدرات بشكل أبرز فى أبنائه عثمان الثانى ومراد الرابع . لأول مرة منذ عهد القانونى ، يسعى سلطان فى أمور الدولة ، بشكل جاد ولايترك كل شيء لوزرائه . كان معتدلا فى ذوقه وأنسه ، لايشرب المسكرات ، متدينا جدا ، ملبسه بسيط ، عدوا لسيطرة النساء فى السراى ، مولويا كأجداده ، شاعرا فى اللغتين التركية والفارسية ، مصارعا بارعا فارسا ، راميا ويستعمل السلاح بمهارة . رمى الـ « ششبر » (آلة حربية – كرة ذات ٦ رءوس) من برج علوه ٣٠ مترا وأصاب هدفا على بعد ٥٠٠ متر . وشيد فى مكان سقوط (الششبر) مسلة (نشان طاش) وهو نصب تذكارى حجرى ليكون ذكرى أبدية لهذه الرمية القياسية (رفعت عثمان ، أدرنة سرايى ، ٢٨) .

ولد فى مانيسا وجاء إلى إستانبول مع أبيه البادشاه وعمره ٥ سنوات . ولصغر سنه ، لم يرسل إلى مانيسا لتعلم إدارة الألوية . لم يخرج للجبهات . خرج للأماكن القريبة مثل أدرنة ، بورصة ، جناق قلعة . لم يمض سنين سلطنته فى السفر إلى الأقطار

والقارات والحروب كبقية السلاطين . لكنه عمل مابوسعه لحماية مصالح الدولة العليا ، إلا أن عمره لم يمهله كي يعيش أكثر من ذلك ومات فى مقتبل عمره . تمكن فى سن طفولته من تحجيم النفوذ السيئ لجدته (والدة أبيه) السلطانة - الوالدة صفية وتدخلها فى السياسة فى عهد أبيه ، وفور جلوسه على العرش ، أخرجها من سراى طرب قابو ونفاها إلى السراى القديم . توفيت السلطانه صفية التى لم تتمكن من العيش بدون سياسة بعد عدة أشهر وهى فى حالة حزن شديد . أما خانداں ، والدة السلطان أحمد ، السلطانة - الوالدة (١٥٧٤؟ - ١٦٠٥/١١/٢٦) فقد توفيت فى شبابها فى نهاية السنة الثانية من سلطنة ابنها . لم يكن من الممكن للسلطان أحمد المعارض لسيطرة النساء إلى هذه الدرجة أن يتنبأ بأن إحدى زوجاته كوسم ماه بيكر ستكون أكثر النساء تدخلا فى السياسة فى تاريخ تركيا كلها وتظهر على المسرح بأدوار منحوسة للغاية . ورغم أنه كان مولويا فقد كان شيخه عزيز محمود خدائى المتصوف الكبير جدا (وفاة ١٦٢٨) ، شيخا للطريقة الجلوتية التابعة البايرامية . ورئيس أساتذته هو حاجة سلطانى آيدنلى مصطفى أفندى (وفاة ١٦٠٧) وهو والد شيخ الإسلام مسعود أفندى (وفاة ١٦٥٦) .

جلس أبناء السلطان أحمد الأول الثلاثة على العرش ، ومجموع مدد مكوثهم على العرش ١٩ سنة و شهرا و ١٩ يوما . تسلسل أبنائه كما يلى : عثمان الثانى (١٦٠٤/١١/١٣ - ١٦٢٢/٥/٢٠) ، ولى عهد - شهزاده (أمير) (١٦١٨ - ١٦٢١) محمد (١٦٠٥/٣/٨ - ١٦٢١/١/١٢) ، مراد الرابع (١٦١٢/٢/٢٧ - ١٦٤٠/٢/٨) ، ولى عهد - شهزاده (١٦٢٣ - ١٦٣٥) بيازيد (١٦١٢/١٢ - ١٦٣٥/٧/٢٧) ، ولى عهد - شهزاده (١٦٣٥ - ١٦٣٨) قاسم (١٦١٤ - ١٦٣٨/٢/١٧) ، شهزاده سليمان (١٦١٥ - ١٦٣٥/٧/٢٧) . والشهزادات (الأمراء) الـ ٥ الآخرون لم يعيشوا أكثر من ٤ سنوات .

بناته - عدا بناته الـ ٤ اللواتى توفين وهن صغيرات جدا - السلطانة عائشة (١٦٠٥ - ١٦٥٧/٥) التى تزوجت ٨ مرات (٤ منهم وزير أعظم) ، السلطانة فاطمة (١٦٠٦ - ١٦٧٠) التى تزوجت ٦ مرات (واحد منهم وزير أعظم) ، السلطانة جوهران (١٦٠٨ - ١٦٦٠) التى تزوجت بـ ٢ وزير أعظم ،

السلطانة خانزاده (١٦٠٩ - ١٦٥٠/٩/٢١) التى تزوجت مرتين (أحدهم وزير أعظم) ، السلطانة برناز عاتكة (١٦١٤ - ١٦٧٤) التى تزوجت ٣ مرات ، السلطانة عابدة (١٦١٨ - ١٦٤٨) التى تزوجت مرة واحدة .

لم يستمر نسل بنى عثمان من أى من هؤلاء وإنما استمر من السلطان إبراهيم ، أصغر أبناء السلطان أحمد (١٦١٥/١١/٥ - ١٦٤٨/٨/١٨) . احتل مكان السلطان أحمد أخوه مصطفى الأول وصار سلطانا لمدة ٣ أشهر ، ثم جلس على العرش بعده عثمان الثانى ، الابن الكبير للسلطان أحمد .

٤١) الحرب البولونية ، حملة خوتين الهمايونية (١٦٢١ - ٢٢)

كان الوزير غازى إسكندر باشا المختص بشئون بولونيا هو الذى يتولى قضايا الحدود مع بولونيا خلال هذه السنوات . وهو من الأشخاص الذين دربهم غازى ترياكى حسن باشا . خرج إسكندر باشا بحملة ضد بولونيا ، على أثر تدخلها فى شئون بغدان (Moldavya) واجتيازها Dnyestr (بالتركية : Turla) التى تشكل الحدود . كان جانى بك كيراى خان قرم يقود المقدمة . وفى الحرب الميدانية المسماة « ياش » (١٦٢٠/٩/٢٠) خسر البولونيون ١٠٠٠٠ قتيل . تعقب الباشا العدو . وفى الحرب الميدانية Dnyestr (Turla) (٧/ ١٠/١٦٢٠) التى جرت بعد ١٨ يوما ، أفنى كامل جيش بولونيا تقريبا ، البالغ عدده ٦٠٠٠٠ ومن بينهم القائد العام Zolkiewsky ، تمكن ٤٠٠ جندى بولونى فقط من الفرار ، اغتنم الجيش العثمانى ١٢٠ مدفعاً ومئات من عربات المهمات (هامر ، ٨ ، ٢٦٠) . كان الجيش العثمانى ، ٤٢٠٠٠ شخص ؛ ٣٠٠٠٠ منهم من قرم . أسر مئات من الجنرالات البولونيين وذوى النسب العريق ، وتم سوقهم إلى إستانبول . وبعد عدة أشهر فى أوائل عام ١٦٢١ توفى إسكندر باشا .

افرحت هذه الحملة روسيا ! قضت بولونيا الشتاء وهى فى حالة حذر خشية عودة الأتراك فى صيف عام ١٦٢١ . وفى الحقيقة كان السلطان عثمان الثانى قد قرر الخروج إلى الحملة بنفسه . كان قد مضى على الحملة الهمايونية لجده محمد الثالث على أكرى - خاجوه ، مدة ٢٥ عاما . انتقل الخاقان الشاب ، فى ٨ آذار إلى مقر

الجيش ، وفى ٢١ أيار (١٦٢١) تحرك من إستانبول . كان فى مقدمة الجيش مهترخانة همايون (موسيقى الجيش الهمايونية) وأمامها الفيلة الـ ٤ هدية الشاه عباس وكل منها يحمل طبلا (كوس) . كان عدد الجيش العثمانى ١٠٠٠٠٠ جندى . وفى أيلول ، جاءوا أمام قلعة خوتين (Hotin) الواقعة على خط العرض ٤٨ ، ٣٠ ، فى الساحل الجنوبى لـ Dnyestr وهى المدخل إلى Podolya وحتى غاليجية ، كانت قلعة بولونية مهمة . جاء جانى بك كيراى فى اليوم الثانى ، وقبل يد الخاقان . وفى اليوم الأول من حصار خوتين فى ٣ أيلول والذى سيستمر ٣٣ يوما ؛ استشهد بكلربك بوسنة . وفى الأيام التالية استشهد كل من قرة قاش محمد باشا بكلربك بودين (المجر) ودوغانجى على باشا بكلربك قرة مان . وبالرغم من تحقيق ٦ غارات عامة وتقديم آلاف الشهداء وقيام جيش الصاعقة بضرب بولونيا فى العمق وجلبهم ١٠٠٠٠٠ أسير فقد قاومت القلعة . لكن بولونيا طلبت الصلح . وبناء على ذلك ، أبرمت معاهدة صلح خوتين (١٦٢١/١٠/٦) : التى نصت على : اعتبار أحكام المعاهدة التى أبرمت مع بولونيا فى زمن القانونى سارية المفعول ، وكذلك الحدود التى تقرها تلك المعاهدة ، يهدم البولونيون جميع القلاع التى شيدوها على حدود العثمانية منذ ذلك العهد ، تستمر بولونيا فى دفع الضريبة السنوية إلى قرم ، تترك خوتين إلى العثمانية . يمكن للعثمانية نقل جنودها من أوروبا الشرقية إلى المجر فى أى وقت تشاء بإخطار مسبق شرط عدم إحداث أية تخريبات مهما كانت صغيرة .

تعتبر شروط هذه المعاهدة شديدة بالنسبة لبولونيا ، وأعتقد أنها تشكل الصفحة الأولى من خروج عثمان الثانى إلى البلطيق ، ولأن هذه المعاهدة جعلت دولة شديدة العداء لروسيا فى وضع حرج فإنها فى الحقيقة لم تكن تحقق النفع للعثمانية فى المستقبل ، ولكنها تشكل بالنسبة لروسيا نموذجا فى كيفية ضرب بولونيا كبرى . استمرت الحملة الهمايونية ٨ أشهر و ٥ أيام . عاد البادشاه إلى إستانبول فى منتصف الشتاء (١٦٢٢/١/٢٥) شاهد كافة نقاط الضعف بعينه وعن قرب نفر – محقا كان أم غير محق – من جيش هذا وضعه . عاد الجيش وهو ناقم على حاكم يخفى عدم رضائه الشديد منه .

٤٢) السلطان مصطفى والسلطان عثمان

عند وفاة السلطان أحمد الأول كان المفروض أن يجلس على العرش ابنه الكبير وولى عهده السلطان عثمان . إلا أن طبع هذا الطفل ، الذى دخل حديثا سن الشباب والذى يفوق طبع أبيه شدة – أخاف الكثيرين . وخاصة أن زوجة أحمد الأول المفضلة ماه بيكر خاصة كى التى تسمى « كوسم » أنفقت كل ثروتها وجندت ذكاءها الشيطانى لمنع حدوث هذا حيث كان من المحتمل أن يضر بأبنائها . خرقت القوانين ، وتم إجلاس السلطان مصطفى ابن السلطان أحمد الأول الصغير المريض على العرش .

ولكن اتضح بعد مدة أن السلطان مصطفى مجنون . كان من الواضح أن سلطنته ستكون قصيرة الأمد . ليس من الممكن – لا من الناحية الشرعية ، ولا من حيث العرف العثمانى – أن يكون بادشاه خليفة شخصا مجنونا . وخلال هذه الفترة القصيرة كانت مهبيكر خاصكى تأمل أن تتخلص من الأميرين وليي العهد الأولين للسلطان أحمد ، السلطان عثمان والسلطان محمد ؛ بواسطة السلطانة – الوالدة ، والدة مصطفى الأول ، التى كانت حذرة وغادرة ، بقدر ما كان ابنها متخلفا عقليا . وشهزادات (الأمراء أولاد السلطان أحمد الأول) الذين يأتون بعد ذلك هم مراد ، قاسم ، إبراهيم والسلطانة عائشة وفاطمة وقد ولدوا كلهم من كوسم مهبيكر . كانت كوسم فى هذه الأثناء ، أرملة فى الـ ٢٩ من عمرها .

صار مصطفى الأول ، الذى ولد فى مانيسا عام ١٥٩٢ ، ولى عهد لمدة ١٠ أشهر ، لحين ولادة الابن الأول لأخيه الكبير أحمد الأول (١٦٠٣/١٢/٢١ – ١٦٠٤/١١/٣) . كان عمره عند جلوسه ٢٥ عاما . خلع بعد ٣ أشهر و ٤ أيام . جلس السلطان عثمان على العرش . كان رد فعله شديدا على الذين استهتروا بالحق وخالفوا القوانين بشكل يهدد نظام الدولة وأجلسوا عمه المجنون على العرش . كان سنه يزيد على ١٣ سنة بـ ٣ أشهر و٢٤ يوما . لكنه سبق أباه فى النضوج والكمال . كان يؤمن بحاجة الدولة إلى تبديل نظامها فى كافة المجالات بإصلاحات جذرية . الخاقان على العرش ، على صغر سنه هذا ، آخذا الصلاحيات التى تمكنه من تحقيق إصلاحات
- البارى عز وجل . شيد قبرا لأبيه فى رواق مسجده المشهور .

أمه خديجة مهفيروزة السلطانة - الوالدة (١٥٩٠ - ١٦٢١) باش خاصكى (زوجة السلطان) لأحمد الأول منذ ك ٢ / ١٦٠٤ ، وأصبحت الآن السلطانة - الوالدة ، لكنها توفيت بعد ٣ سنين . السلطانة - الوالدة هذه هى التى ولدت كلا من الشهزادة (أمير) بيازيد ، الشهزادة سليمان ، الشهزادة حسين ، ويحتمل أن تكون قد ولدت سلطانتين (أميرتين) أو أكثر ولو أنها تظهر كأنما هى والدة للشهزادة محمد كذلك ، الذى هو ولى عهد الآن ، إلا أن اليوم الذى ذكر تاريخاً لميلاده يضعف هذا الاحتمال .

عزل عثمان الثانى خليل باشا الذى ظل فى مقامه منذ سنتين و٣ أشهر ويومين ، وعين مكانه داماد أوكوز قره محمد باشا وزيراً أعظم لمرتين (١٦١٩/١/١٨) . عزله بعد ١١ شهرا و٦ أيام (١٦١٩/١٢/٢٣) . ومجموع صدارتى محمد باشا ٣ سنوات و٧ أيام . صار سنجق بك لبحرية دمياط (مصر) ، بكلربك يمن ، وزير قبه ، قبطان دريا . وعلى عهده أمر السلطان عثمان بخنق أخيه الشهزادة سلطان محمد الذى كان حينذاك ولى عهد (١٦٢١/١/١٢) . تسبب مقتل الابن الثانى للسلطان أحمد الشاب هذا عن عمر يزيد على الـ ١٥ سنة بـ ١٠ شهر و٥ أيام ، المفجع والذى لاداعى له - فى بث الكراهية ضد البادشاه . كان الشهزادة قد نشأ نشأة حسنة ، إن دعاءه أثناء موته على أخيه بأن تصيبه نفس العاقبة - مشهور . والذى يليه من إخوة السلطان عثمان هو السلطان مراد (الرابع) الذى صار وليا للعهد .

تجمد المضيق بشكل لم يسبق له مثيل منذ عهد البيزنطيين ، سبب عبور الناس مشيا على الأقدام من أسكدار إلى إستانبول (١٦٢١/٢/٩) ، وارتفاع أسعار المواد الغذائية بسبب البرد غير الطبيعى ، زيادة التذمر لدى الشعب . وخلال هذه الأيام ، توفى كوزلجة جلبى على باشا (١٦٢١/٣/٩) . دامت صدارته سنة ، وشهرين و١٧ يوما . جاء الصدارة أوهريلى حسين باشا ، ولعدم مساعدته منافسه محمد باشا بكلربك بودين أثناء حصار خوتين وخيانته فى الحركات العسكرية عزل من منصبه أثناء استمرار الحصار (١٦٢١/٩/٧) . استمرت صدارته ٦ أشهر ، و٩ أيام . لم يكن الوزير ديلاور باشا بكلربك دياربكر الذى عين مكانه بأليق منه . استمرت صدارته حتى ١٦٢٢/٥/١٩ مدة ٨ أشهر ، ويومين ، قتل على يد الإنكشارية . لم يتمكن عثمان الثانى من انتقاء الشخصيات الجديرة بسبب قلة تجربته ،

وإضافة إلى ذلك فقد قلت بشكل بارز فى كافة القطاعات الإدارية للدولة الشخصيات الفذة التى كانت موجودة فى العهود السابقة .

جرت الحملة البحرية على إيطاليا (صيف عام ١٦٢٠) ، التى حققها داماد خليل باشا ، خلال إشغاله منصب قبطان - دريا للمرة الثالثة ، فى عهد السلطان عثمان . قصفت السواحل الإدرياتيكية لإيطاليا . بدأت فى أوروبا خلال هذه الأيام حروب الثلاثين سنة المفجعة (١٦١٨ - ١٦٤٨) . بدأت كحرب كاثوليكية - بروتستانتية ، خلال هذه الأيام أيضا (تموز ١٦١٨) تم إعلان سلطان فاس تابعيته ، وإظهار الشاه عباس رغبته فى استمرار الصلح بإرساله هدايا ثمينة جدا .. كل هذا من جملة التطورات الإيجابية الأخرى .

٤٣) الهائلة العثمانية (هائلة عثمانية) (١٨ ، ١٩ ، ٢٠ أيار ١٦٢٢)

فكر عثمان الثانى فى إصلاحات عامة فى كافة القطاعات ، بدأ بتطبيق بعضها .

الموضوع الذى يستحق الاهتمام هو إلغاء التشكيل العسكرى الذى يسمى (قابو قولو) وتنظيم جيش مركزى جديد . شرع فى محاولاته الجدية بهذا الشأن وأرسل تعليمات سرية إلى العديد من البكلر بك (فريق) . وطبعا سمع الناس بمحاولات البادشاه هذه . وبسبب تقليصه - غير العادي - لصلاحيات العلماء ، حدثت مواجهة معهم ، وحتى مع أبى زوجته شيخ الإسلام خوجه أسعد أفندى ، وهو ابن شيخ الإسلام خوجه سعد الدين أفندى وأخوشيخ الإسلام محمد أفندى .

كانت فكرة إصلاح الجيش وخاصة صنف قابو قولو وصنف الإنكشارية ، من بنات أفكار الخوجه سعد الدين أفندى . تشير التحريات الأولية إلى أن ذلك يرجع إلى عام ١٥٩٦ ، ثم ورث هذه الفكرة بعد ذلك حاجه سلطانى (أستاذ السلطان) عمر أفندى وهو أستاذ عثمان الثانى ، وهو الذى لقن البادشاه الشاب فكرة كثير من الإصلاحات . بعبارة أخرى نريد أن نقول:، إن فكرة إصلاح بعض المؤسسات فى الإمبراطورية لم تكن من بنات أفكار عثمان الثانى . لكن السلطان عثمان أخذ يجرى هذا العمل باستعجال شديد دون مراعاة شعور الناس ، مما سبب تخوفهم . هذا فضلا

عن أن نجاح الإصلاحات يحتاج إلى إعداد كوادر جديدة ؛ و لم يكن هنالك أثر لهذه الكوادر . كان البادشاه يعتقد أن كل ماينطق به .. قانون . كان هذا الاعتقاد مضرا ، لأنه كان حبرا على ورق .

صبر تشكيل قابو قولو بما فيه الكفاية على البادشاه الذى حقرهم بصورة علنية . لكن إعلان البادشاه عزمه على مغادرة إستانبول بحجة ذهابه إلى الحج ورفضه بفظاظة كافة المحاولات لإثنائه عن عزمه ، ونصبه سرادقه وفتحه البيارق فى ضحية يوم ١٨ أيار فى صحراء أسكدار – سبب عصيان تشكيلات قابو قوله ، وبالأصح تشكيل الإنكشارية الذى صادف عصيانهم نفس ساعات خروج البادشاه . والمعروف أن خاقانات العثمانية اعتبارا من ياووز لايذهبون إلى الحج ، رغم أنهم خلفاء ، لأن أداء مناسك الحج يستغرق وقتا طويلا ، الأمر الذى يؤدى إلى ابتعاد البادشاه عن أعمال الدولة مدة طويلة . وهنالك فتاوى لشيوخ الإسلام تفيد بأن اشتغال الخاقان بأمور الدولة والشعب عبادة تفوق عبادة الحج .

كان عصيان الإنكشارية وإجتماعهم فى جامع السليمانية ، بعد ساعتو ونصف فقط من ركز البيارق فى أسكدار دليلا كافيا على مبلغ تيقظهم واستعدادهم . جاء الإنكشاريون إلى ساحة سلطان أحمد ، أى أمام سراى طوب قابو الذى يتواجد فيه البادشاه ، حاملين بأيديهم الفتوى التى حصلوا عليها من شيخ الإسلام خوجه – زاده أسعد أفندى والتى تقول « لالزوم لحج البادشاهات ، البقاء فى مكانهم والعدل أولى لهم . حتى لا تكون هناك فتنة » .

كان من الواضح تأييد العلماء للإنكشارية . إن أى عصيان عسكرى فى التاريخ العثمانى لايؤيده العلماء كان يخمده الخاقان ، و لم يحدث أن استطاع أى خاقان إخماد عصيان عسكرى أيده العلماء .

كانت الإنكشارية تريد ألا يغادر البادشاه إستانبول . ولما مزق السلطان الفتوى وألقاها فى وجوههم وأصر على الذهاب إلى الحج انقلب الوضع إلى ثورة ؛ إذ إنه أصبح من المعروف أن البادشاه اتخذ بورصة عاصمة مؤقتة ، وأنه سيأتى إلى إستانبول مع الجنود الذين جمعهم من الأناضول ويلغى جنود القابو قولو ، وأنه أعطى الأوامر بهذا الشأن إلى الأسطول . وعند اقتراب مساء يوم ١٨ أيار ، اشتد تأزم الوضع .

ورغم إعلان السلطان عثمان عدم تركه إستانبول وقف الثوار أمام حاكم البلاد بطلبات جديدة ، لقد أيقنوا أنه لاخلاص لهم من شر هذا الخاقان وأنه سيبطش بهم فى أول فرصة .

وفى اليوم التالى (١٩ أيار) من هذه الثورة التى سميت فى تاريخ تركية « الهائلة العثمانية » والتى ليس لها شبيه توترت أعصاب كلا الطرفين . صلى الثوار صلاة الصبح ، مع جماعة كبيرة فى جامع فاتح . هدد الإنكشارية أصناف الكابوكولو الآخرين والعلماء الذين لا يساندوهم بالموت وقدموا إلى ساحة سلطان أحمد . وطلبوا من السلطان رءوس ٦ أشخاص ، أولهم حاجه سلطانى (أستاذ السلطان) عمر أفندى الذى يعتقدون أنه هو صاحب الفكرة الحقيقية للإصلاح ، وكان حينئذ تسلسله فى بروتوكول العلماء الثانى بعد شيخ الإسلام . وعد بيان البادشاه - رغم إصرار المحيطين به - بأنه لن يعدم أحدا من الـ ٦ الذين يطلبون إعدامهم فإنه أخذ فى تهديد الثوار علنا . فتح الثوار باب السراى التى تركت مفتوحة دون دفاع نتيجة للخيانة ، وتجمعوا فى الرواق الأول . كان وراء الثوار السلطانة - الوالدة ، والدة السلطان مصطفى ، وكوسم مهبيكر خاصكى والوالدة ولى عهد شهزادة مراد . وكانتا قد سخرتا الكثيرين من رجال السراى . ولما لم تكن فكرة احتمال إجلاس عمه المجنون السلطان مصطفى على العرش مرة ثانية ، قد خطرت على بال السلطان عثمان كما لم يخطر على باله أيضا احتمال إجلاس أخيه مراد الذى لم يكمل سن العاشرة ، فانه لم يمسسهما بسوء ، وقتل فقط كبير إخوته الصغار الشهزاده محمد .

وعند اقتراب المساء قتل الوزير الأعظم دولار باشا ، الذى لم يتخذ أى تدبير ضد الثورة . صدارته دامت ٨ أشهر و يومين . كان العلماء يعتقدون بإمكان ارتداع البادشاه وإجباره على الطريق الصواب ، فلم يطلبوا خلعه بشكل قطعى . لكن الإنكشارية شهروا السيوف . إن محاولة إجلاس البادشاه المجنون السلطان مصطفى وصرف النظر عن ولى العهد - شهزادة مراد الشرعى ، وخاصة عدم معرفة ماهية المؤامرة التى جرت بشكل لايخطر على البال - أخافت العلماء ، واتضح أن الثورة قد فقدت منطقها . ومن المحتمل أن تدبير الإنكشارية لهذه المؤامرة وهم يعلمون جيدا بأن شخصا مجنونا لايمكن بقاؤه على العرش إنما كان بغرض الحصول على إكرامية الجلوس عند جلوس السلطان مصطفى ، ثم الحصول على إكرامية أخرى

عند خلعه جبرا وجلوس السلطان مراد . وقد ظهر نتيجة الحوادث الأخيرة ، أنهم ارتشوا وحصلوا على وعود كبيرة من السلطانة – الوالدة ، والدة السلطان مصطفى المرأة الغبية ، ومن السلطانة أخت السلطان مصطفى ومن زوجها الوزير داود باشا .

بعد ظهر ١٩ أيار بايع العلماء السلطان مصطفى تحت ظل السيوف . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى منذ الجلوس الأخير للسلطان محمد الفاتح فى ١٤٥١ يجرى جلوس بادشاه قديم مجددا ، سوف لايتكرر بعد ذلك مثل هذا الحادث . دامت سلطنة السلطان عثمان ٤ سنوات و شهرين و ٢١ يوما . وهو أحد البادشاهات النوادر الذين ولدوا وهم أولياء عهد . ظل ولى عهد لمدة ١٣ عاما و ٣ أشهر و ٢٣ يوما ، وفى هذا السن جلس على العرش . وبعد مقتل دولار باشا على يد العصاة عين أوهريلى حسين باشا وزيراً أعظم للمرة الثانية ، لكن حسين باشا قتله العصاة كذلك فى اليوم التالى . فر السلطان عثمان فى بداية الأمر إلى بورصة وأراد المقاومة ، ولكنه عندما شاهد قطع العصاة للطرق ، لجأ إلى باب الآغا ، مقر الإنكشارية والمحل الذى يتواجد فيه رئيس (آغا) الإنكشارية الكائن فى السليمانية وقضى تلك الليلة هناك .

وفى صبيحة اليوم الثالث والأخير لـ « هائلة عثمانية » ٢٠ أيار ١٦٢٢ خطب السلطان عثمان فى جماعة العصاة الإنكشاريين . قطع خطابه بين الحين والآخر ولم يحصل على نتيجة ، وقيل فى ذلك اليوم إن السلطان مصطفى وداماد قره مصطفى باشا الذى انتخبته الإنكشارية فى الحقيقة وزيرا أعظم قد تلقيا أمرا من أم زوجته السلطانة – الوالدة بالقضاء على السلطان عثمان . ولأن السلطان كان مجنونا ومصيره الخلع فإن خوف عثمان كان كبيرا جدا . كان رأى جنرالات الإنكشارية المحافظة على حياة عثمان ، إلا أنه بالرغم من النقاش الشديد لم يستطيعوا إملاء رأيهم هذا على تابعيهم من الإنكشارية . أخذ العصاة عثمان الثانى من أورطة جامع فى السليمانية وتوجهوا به إلى يدى كولة . وهناك حمل عليه ١٠ جلادين . ورغم أنه كان أعزل قتل ٣ منهم ثم قتل خنقا بخيط من حرير . وذلك مساء يوم ٢٢ أيار .

كان عثمان الثانى شخصية فذة جدا ، بأفكاره الابتكارية عن الإمبراطورية خلال إدارته لها . كان قد تجاوز سن ١٧ بـ ٦ أشهر و ١٧ يوما . كان متزوجا بعائشة خاتون ابنة المرحوم برتو باشا ، الوزير ٢ وبعقيلة خاتن ، ابنة شيخ الإسلام أسعد

أفندى . خلف ٢ شهزادة (أمير) وسلطانة (أميرة) واحدة ، توفوا فى المهد . منح بصورة استثنائية رئيس أساتذته خاجه سلطانى آماسيالى عمر أفندى (إستانبول ١٥٥٥ - مكة ، شباط ١٦٣٠) مرتبة المشيخة التى يحملها شيوخ الإسلام ، وهو أول من منحت له هذه المرتبة فى التاريخ العثمانى من بين منتسبى فئة العلماء الثلاثة الذين نالوا هذه الرتبة قبل أن يصيروا شيوخ إسلام فعلا . كان شيخه عزيز محمود خدائى أفندى وأحد أساتذته شيخ قره باشا عبد الرحمن أفندى ، ومستشاره الرئيسى فى دار السعادة أغاسى مصطفى أغا . وتحصيله العلمى ممتاز جدا ، قرأ كتبا أوروبية وأصبحت لديه فكرة عن أوروبا . كتب أشعارا جيدة . كان قوى الجسم جدا . مصارعا ماهرا ويستعمل السلاح بدراية . يسمى بأسماء كنج (شاب) ، غازى وشهيد ، ويسميه الشعب « كنج عثمان » . قلد السيف من قبل أسعد أفندى أحد أساتذته . أقام صلاته الشاعر الأعظم شيخ الإسلام يحيى أفندى .

٤٤) السلطنة الثانية لمصطفى الأول (١٦٢٢/٥/١٩ - ١٦٢٣/٩/١٠)

طالت مدة سلطنة السلطان مصطفى الثانية بشكل غير متوقع أبدا سنة ، و٣ أشهر و٢١ يوما . أمه السلطانة - الوالدة ، كانت نائبة السلطنة ، وزوج ابنها الوزير الأعظم قره داود باشا كان فى الظاهر رأس الثورة . كانت السلطة فى الحقيقة بيد جماعة الإنكشارية . مضت مدة سلطنة السلطان مصطفى كلها ، بردود فعل حادثة « هائلة عثمانية » وانتشار الثورة فى كافة أنحاء الإمبراطورية . فى صبيحة ٢٢ أيار وزع على جماعة القابو كولو ، مبلغ مليون ونصف سكة ذهبية ، إكرامية الجلوس .

بدأ شعب الإمبراطورية الذى لم يشعر بالمحبة تجاه البادشاه فى حياته ، يذرف الدموع الغزيرة على استشهاد السلطان عثمان بشكل مفجع . إن الثورة المنفرة التى تعتبر كربلاء التاريخ العثمانى صارت وجها لوجه أمام ثورة معادية وضربة مضادة . انتهز الفرصة داود باشا أحد أنذل من شهده التاريخ العثمانى ، ونهب سراى طوب قابو ، وسرق حتى السيوف والخيول والحاجيات الأثرية الخاصة بالسلطان عثمان (بستان - زاده يحيى أفندى ، واقعة سلطان عثمان) ثم أراد قتل شهزادات السلطان أحمد ، ابتداء من ولى عهد - شهزاده مراد (نفس الأثر) ولما كان السلطان مصطفى

لايقرب النساء فإن أحداً لم يكن يعلم كيف يفكر فى استمرار السلالة . انتقلت الدولة إلى أيدى أشخاص لايشعرون بالمسئولية على أى وجه ، وأنما يفكرون فقط فى قضاء يومهم . عين داود باشا أحد رجاله (آغا) للباب الهمايونى ووعده برتبة الوزارة وإيالة مصر إذا تمكن من القضاء على ولى العهد . تقدم نحو ولى العهد شاهرا السيف ، لكن أحد حراس ولى العهد الرماة رماه بالششبر (كرة ذات ٦ رءوس) فأصابه فى رأسه فسقط على الأرض ، توالى عليه الحراس ضربا بالسيوف والخناجر وتمزق شر ممزق . وفى اليوم التالى صلب على شجرة فى ميدان سلطان أحمد (نفس الأثر ، ٤٩ ب) . اقشعر الشعب مرة أخرى دهشة ونفورا . الشهزادة الذى أريد قتله عمره ١٠ سنين . تكونت شخصيته وسط هذه الحوادث . لايستطيع أحد آنذاك أن يتنبأ بأن ١٠ سنوات فقط ستكون كافية لسفك دماء هؤلاء الثوار وإفنائهم عن بكرة أبيهم .

لم يستطع داود باشا الحفاظ على وظيفته أكثر من ٢٤ يوما وساءت سمعته وأصبح يلقب بـ « قاتل البادشاه » (نعيما ، ٢ ، ٢٣٦) جيء بدلا منه بـ قرة حسين باشا ، وهو من الوزراء المعزولين من بكلربك مصر والموجودين فى إستانبول (١٦٢٢/٦/١٣) وقد كان أحد أجهل وأعجز وزراء العثمانية . عرنووطى (ألبانى) كان طباخا للقائد الوزير صاطرجى محمد باشا ، يتكلم التركية بصعوبة . كان قد لختلس ٣٠٠٠٠٠ سكة ذهبية فى مصر أثناء الاضطرابات فى فترة الثورات (من المؤسف أن يتولى السلطة أمثال هؤلاء) . وفى اليوم الـ ٨ من صدارته ٢١ حزيران صعد أحد ضباط السباهيين الشباب على إحدى شرفات مآذن جامع السلطان أحمد وقتل رميا بالنبل ٨٠ جنديا هجموا عليه ، وهكذا ظهر أول طالبى دم السلطان عثمان . هيج هذا الحادث الشعب ، وقوبل بالرضا من جميع أفراده . لم يتمكن قرة حسين من البقاء فى السلطة أكثر من ٢٥ يوما . وأعطى المهر الهمايونى (الختم السلطانى) إلى لفكة لى مصطفى باشا (١٦٢٢/٧/٨) زوج مربية السلطان مصطفى . صار صدراً أعظم عندما كان بدرجة وزير ٤ . لم ترض الإنكشارية بهذا الصدر الأعظم الذى يبدى ليناتجاه معارضى الثورة . عزلته السلطانة – الوالدة (١٦٢٢/٩/٢١) . ظل فى السلطة شهرين و ١٤ يوما . جاء مكانه كرجى محمد باشا .

اضطربت فى هذه الأثناء الأناضول بكاملها ، انتشر التذمر حتى وصل إلى سورية والعراق ، وفى كل إيالة ظهر من يطالب بدم السلطان عثمان ، كثيرون من البكلربك والسنجق بك (أمراء الألوية) القضاة ، والشعب بالذات ، وأخذوا يقتلون الإنكشارية الذين يشاهدونهم فى الخارج ، وإن لم يستطيعوا ذلك كانوا يحقرونهم .

دبر أول ثورة مضادة بكلربك أرضروم آبازا محمد باشا ، وجمع حوله عددا آخر من البكلربك (أمير الأمراء) وقتل من وجدهم من الإنكشارية بالسيف . لم يكن هذا البكلربك يبلغ الـ ٣٥ من عمره ، ومن المعروف أنه كان من ولاة الإيالات التى اتفقت مع السلطان عثمان مسبقا وبصورة سرية على الإصلاح العسكرى ، وبينما كان الشعب يندب السلطان عثمان وينظم ويلحن المرثيات فيه ثار فى إستانبول صنف السباهى . مرة ثانية (١٦٢٢/١٢/٣١) ، وطلبوا قتل المسئولين عن مقتل السلطان ، وأعلنوا أن شرفهم العسكرى قد ضاع (نعيما ، ٢ ، ٢٤٧) . أعلن فروخ جلبى (مشيخته ١٥٩١ - ١٦٣٠) رئيس طريقة المولوية الساكن فى قونية أنه سوف يساند آبازا محمد باشا فى المطالبة بدم السلطان عثمان . قام السباهيون فى اليومين الأولين لعام ١٦٢٣ فى ١ و ٢ك٢ فى إستانبول بترتيب مظاهرات للمرتين: الثالثة والرابعة .

ساندت أكثرية الإنكشارية السباهيين ، وأعلنوا أنهم لاعلاقة لهم بمقتل البادشاه ، وأن هذا الجرم قد ارتكبه بعض الخونة من بينهم وأنهم يؤيدون معاقبتهم . الديوان الهمايونى الواقع تحت تأثير نائبة السلطنة التى هى فى نفس الوقت السلطانة - الوالدة ، انتابه القلق . العلماء يطالبون بمعاقبة القتلة وخلع البادشاه . صمم الديوان فى صبيحة يوم ٧ ك٢ ، على قتل داود باشا . أعدم داود باشا وعدة أشخاص من القتلة فى اليوم التالى ، وخلال ذلك أعدم دلاويش باشا بكلربك بودين ، عزلت السلطانة - الوالدة التى أيقنت أن عاقبة ابنها قد اقتربت كرجى محمد باشا الذى يقارب عمره الـ ٨٠ عاما بعد ٤ أشهر و ١٤ يوما ، وعينت مكانه للمرة الثانية قرة حسين باشا (١٦٢٣/٢/٥) .

خلال مدة ٦ أشهر ٢٣ يوما ظلم قره حسين باشا واختلس الكثير فى سبيل إطالة سلطنة السلطان مصطفى (وفى الحقيقة سلطنة السلطانة - الوالدة) . جمع شيخ الإسلام يحيى أفندى العلماء فى جامع فاتح وأقنعهم بعزل هذا الشخص الجاهل .

صار الوزير ٤ إسبارطة لى كمانكش قره على باشا صدرا أعظم (١٦٢٣/٨/٣٠) . كان قد عين بوظيفة وزير قبة بعد تواجده فى إيالات دياربكر وبغداد . ضغط خليل وكرجى محمد باشا من رؤساء الوزراء السابقين على على باشا لخلع السلطان مصطفى . كان على باشا بالذات يتفق معهما . كان قد اتفق مع كوسم مهبيكر خاصكى والدة ولى عهد – شهزادة مراد وأخذ منها مبلغا كبيرا من الدراهم لتوزيعها على الجهات اللازمة . وزع الدراهم على الجهات اللازمة كل من الوزير بابور محمد باشا بكلربك مصر الذى قدم إلى إستانبول ، وأخيه قاضى إستانبول حسن أفندى . وتمكن الصدر الأعظم الجديد على باشا من الحصول على فتوى الخلع ، بعد هذه المساعى التى استمرت ١١ يوما أيدت جماعة القبو قولو ذلك ، لأنهم سيمنحون إكرامية الجلوس كما أنهم كانوا يفكرون فى ضرورة إزالة آثار عدم رضا الرأى العام .

خلع السلطان مصطفى للمرة الثانية فى ١٠ أيلول ١٦٢٣ . وفى الحقيقة فإنه لم يكن له علم لابسلطنته ولابعزله عنها . وزع فى هذه المرة ٢ مليون سكة ذهبية لإكرامية الجلوس . وإكراميات الجلوس لاتسدد من خزينة الدولة ، بل من خزينة البادشاه المنفصلة عنها . ولعدم وجود هذا القدر فى خزينة السلطان جمعت أوانى وأطباق السراى وسكت منها عملات ذهبية . كان رصيد خزينة السلطان أحمد من المسكوكات الذهبية فقط ٥٠ مليون قطعة . وكان هذا المبلغ هو أكبر مبلغ يملكه حاكم من حكام العالم كله (Pirenne ، ٢ ، ٥٢٥) . لكن هذا المبلغ تم تبديده وإهداره خلال السنة والنصف التى استمرت فيها الثورة بشكل لايقره العقل والشرع . أرسلت أم السلطان مصطفى إلى شقتها فى السراى القديم . وحجر السلطان مصطفى ، فى شقته الموجودة فى سراى طوب قابو . ومجموع سلطنتيه سنة و ٦ أشهر و ٢٥ يوما . عاش بعدها أكثر من ١٥ سنة . مات بأجله وعمره ٤٧ (١٦٣٩/١/٢٠) . وهو مدفون فى ضريحه الكائن فى أياصوفيا . كان ابن أخيه عثمان الثانى قد دفن فى مقبرة سلطان أحمد بجوار أبيه .

تم إجلاس ولى عهد – شهزادة مراد على العرش بلقب « مراد الرابع » . كان سنه يزيد على ١١ سنة بـ شهر و ١٥ يوما . أمه كوسم مهبيكر ، السلطانة – الوالدة ، صارت نائبة السلطنة . كانت فى سن ٣٤ عاما . وصار الشهزاده بيازيد الذى يصغره بـ ٥ أشهر فقط ولى عهد (نعيما ، ٢ ، ٢٠٨ – ٦٣ ؛ فذلكة ،

٢ ، ٤ ومابعده ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٨٠ - ٩٨ ؛ صولاق - زاده ، ٧٠٣ - ٣٦ ؛ منجم باشى ، ٣ ، ٦٥٠ - ٧ روضة الأبرار ، ٥٣٥ - ٥٥ صولاق - زاده نوعى ، سبب خلاص سلطان مصطفى ، يحيى أفندى ، واقعة سلطان عثمان خان ، Madame de Gomez, Histoire d'Osman مجلدين باريس ١٧٣٤ ، هامر ، ٨ ، ٢٨٤ - ٣٧٦ ؛ Lorga ، ٣ ، ٤٤٨ ومابعده ؛ دانشمند ، ٣ ، ٢٩٠ - ٣٢٤) .

٤٥) الدورة الأولى لسلطنة مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٣٢)

كان إسبارطة لى على باشا مغرورا بسبب إجلاسه ولى العهد المشروع السلطان مراد . أراد التخلص من الصدرين الأعظمين الأسبقين داماد خليل باشا وكرجى محمد باشا ، لاعتباره إياهما منافسين له ، واتهامهما بمناصرة الثورة المضادة . لم يحتمل ذلك لاكوسم والدة ولاتشكيلات القابوقولو التى تساندها ، قطع رأس على باشا بعد ٧ أشهر و٤ أيام (١٦٢٤/٤/٣) . كان من الممكن أن ينجو بعزله ، لكنه ارتكب جرم الكذب على البادشاه الذى يعتبر ذنبا عظيما فى النظام العثمانى . وضع السلطان موضع الطفل ولم يذكر الصدق وإنما تأول فى موضوع سقوط بغداد .

أعطت كوسم والدة الختم الهمايونى لابنها إلى جركس محمد باشا الشخص المسن والمجرب الذى صار وزير قبة بعد أن كان بكلربك على الشام ، ولغرض إخماد عصيان الأناضول واسترداد بغداد من الصفويين صار سردارا أكرم وغادر إستانبول (١٦٢٤/٦/١٧) . صار الصدر الأعظم السابق كرجى محمد باشا وكيل الصدارة . كان القسم الأعظم من الأناضول يتلقى أوامره من أباضه محمد باشا وليس من الديوان ، وكان لأباضه مؤيدون كثيرون بين رجال الدولة فى إستانبول . كانت خزينة السلطان التى سلبت فى واقعة السلطان عثمان وصرف منها ٤ إكراميات جلوس خلال ٦ سنوات فارغة تماما (هامر ، ٩ ، ٣ ، ٢٣) . تجاسر أباضه محمد باشا إلى حد محاصرة مدينة بورصة . استمرت حملة جركس باشا للأناضول حتى ٢٨ك ١٦٢٥/٢ ، لكنه اتفق مع أباضه محمد باشا ثم عاد . توفى الصدر الأعظم ، أثناء قضائه فصل الشتاء فى طوقات (١٦٢٥/١/٢٨) . كان يستعد للحملة على بغداد

فى الربيع ، أصبح الوزير داماد حافظ أحمد باشا بكلربك الذى كان حاضرا مع الجيش فى طوقات صدراً أعظم وسرداراً أكرم . تزوج من السلطانة عائشة الابنة الكبيرة للسلطانة كوسم . عاش أياما عصيبة أمام بغداد . كان رجل دولة جيدا وشريفا ، لكنه لم يكن قائدا قديرا . وعندما لم يتمكن من استرداد بغداد عزل بعد سنة و ١٠ أشهر و٢١ يوما (١٦٢٦/١٢/١) . صار داماد خليل باشا ، صدراً أعظم للمرة الثانية . غادر إستانبول فى ٤ كانون ٢ (١٦٢٦) لحل مشكلة الأباضة . ظل فى حلب ٣ أشهر و١١ يوما ، وفى ٧ آب (١٦٢٧) جاء إلى عامد (دياربكر) . حاصر أرضروم مدة ٤١ يوما ، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها . ولأنه لم يستطع حل قضية الإباضة عزل بعد عودته لقضاء فصل الشتاء فى طوقات ومكوثه فيها مدة ٣ أشهر و٢٧ يوما (١٦٢٨/٤/٦) . دامت صدارته سنة و٤ أشهر و٥ أيام ومجموع صدارتيه ثلاث سنوات و٧ أشهر و٧ أيام .

صادف مجىء تيمور أوغلو باى سنغر ميرزا إلى إستانبول فى سنة ١٦٢٨ هذه جلوس ابن عمه شاه جهان على عرش الهند وقتله ٣ من إخوته . لجأ إلى تركية . أحسن السلطان مراد استقباله وإكرامه بشكل منقطع النظير ، لكنه لم يحصل على المعونة العسكرية التى طلبها (هامر ، ٩ ، ٩٨) . وعاد إلى الهند .

صار داماد خسرو باشا ، الذى ارتقى من رتبة أغا للإنكشاريين إلى وزير قبة قبل سنة و ٤ أشهر فقط صدراً أعظم . كان متزوجا من السلطانه عائشة ، إحدى بنات محمد الثالث وهو ابن أحد بكلربك المسمى خضر باشا . كان ذكيا ، ماكرا ، قوى الشكيمة ، ظالما للغاية ، طموحا ، متآمرا أنانيا ، قائدا جيدا . جاء إلى طوقات بعد تعيينه واستلامه الصدارة بـ شهر و٢٤ يوما . وتحرك بعد شهر و٢١ يوما ، ووصل أرضروم بعد شهر و ٩ أيام وبدأ فى الحصار بعد ٧ أيام ، وخلال ١٤ يوما أجبر أباظة محمد باشا على التسليم (١٦٢٨/٩/٢٢) . أغلقت مسألة أباظة التى استمرت ٦ سنوات ، سيق إلى إستانبول . تحرك خسرو باشا الذى ظل ٢٢ يوما أخر فى أرضروم ووصل إستانبول خلال شهر و ٢٦ يوما (١٦٢٨/١٢/٩) . سرح الجيش الذى كان فى حالة تأهب فى الأناضول منذ ٤/٥ سنة . قابل مراد باشا ، أباظة محمد باشا عند حضوره ، وبعد توبيخه بشكل صورى أرسله إلى بوسنة برتبة بكلربكى . والحقيقة أن مقاومة الباشا مدة ٦ سنوات للمطالبة بدم أخيه الكبير عثمان كانت قد أسّرته .

مكث خسرو باشا فى إستانبول ٧ أشهر و يوما . تحرك لحملة إيران (١٦٢٩/٦/١٠) . قاد الحروب الإيرانية الشديدة خلال ١٦٢٩ – ٣١ ، لكنه لم يستطع الاستيلاء على بغداد . عزل عندما كان فى طوقات (١٦٣١/١٠/٢٥) . دامت صدارته ثلاث سنوات و ٦ أشهر و ١٩ يوما . جاء حافظ أحمد باشا إلى الصدارة مرة أخرى .

ظلم خسرو باشا الكثيرين وأعدم وبطش . تقمص شخصية الوزير الدكتاتور بكل مافى الكلمة من معنى . كان يستند على جماعة الإنكشارية فى إستانبول . كان يوجه تلك الجماعة فى إستانبول بواسطة داماد رجب باشا . كان هذان الوزيران رغم أنهما يقومان بأعمال من شأنها إخافة السلطان مراد ، الذى أخذ يكبر كلما تقدم الوقت ، فإن وضعهما يدل على أنهما كانا على استعداد لإجراء حركات أكبر من ذلك . كانا يريدان سلطانا مطيعا لهما فاقد العزيمة . أنتج عزل خسرو باشا ونقل السلطة إلى حافظ أحمد باشا أحد رجال السراى الموالين للبادشاه ؛ أخافة هذه الزمرة . أحدث رجب باشا عصيانا فى جماعتى الإنكشارية وسباهية قابوقولو وأضاف إليهما زمرة العاطلين عن العمل فى إستانبول وأحدث ثورة ١٩ رجب (١٦٣٢/٢/١٠) . وتعتبر هذه الثورة التى حدثت فى فصل الشتاء « هائلة عثمانية » على نطاق صغير . كان الهدف منها إسقاط حافظ أحمد باشا وتهديد البادشاه . استشهد حافظ أحمد باشا أمام أنظار البادشاه بشكل مفجع . استمرت الصدارة الثانية ٣ أشهر و١٦ يوما فقط ، تحملتها طغمة الأشقياء بصعوبة . مجموع صدارتيه سنتين ، وشهرين و ١٨ يوما . وبضغط الجماعة وإرادة نائبة السلطانة التى تتحرك بمؤازرة الجماعة صار داماد رجب باشا الذى يسميه مراد الرابع « رئيس الأشقياء » صدراً أعظم .

لكن السلطان مراد كان يعلم أن خسرو باشا المعزول الموجود فى طوقات والأذكى منه والأكثر طموحا يقف وراءه ويسانده . أمر السلطان مرتضى باشا بالقبض على خسرو باشا . جاء مرتضى باشا إلى طوقات وعرض الخط الهمايونى للبادشاه . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يعترض وزير على فرمان (أمر سلطانى) الخاقان المقدس ولايسلم نفسه . قصف مرتضى باشا قصر خسرو باشا بالمدفع وقطع رأسه . شهر السلطان مراد الرأس المقطوع على شعب إستانبول بعد شهر بالضبط ، يوم ١١ آذار (١٦٣٢) . وفى اليوم التالى حدثت الثورة الثانية . وهذه ثورة ٢٠ شعبان .

وبتحريض من رجب باشا جمعت العصبة القابو قولو وجميع شذاذ الآفاق الموجودين فى إستانبول وكدستهم أمام باب السراى . ولإفزاع البادشاه طلبت رءوس أقرب الناس إلى البادشاه . خرج مراد الرابع للمواجهة العلنية التى تسمى (آياق ديوانى) . حدثت حوادث قتل ونهب . طرحت فكرة إجلاس ولى عهد - شهزادة بيازيد على العرش ، لكن نائبة السلطنة كوسم مهبيكر السلطانة - الوالدة عارضت ذلك ، لأنها لم تكن هى والدة السلطان بيازيد . فشل التمرد فى إخضاع السلطان مراد فى هذه المرة كذلك . أمر بإعدام زوج أخته داماد رجب باشا فى ١٨ أيار (١٦٣٢) . مدة صدارة طوبال رجب باشا كانت عبارة عن ٣ أشهر و٧ أيام . تجمع المتآمرون فى ساحة سلطان أحمد فى ٨ حزيران . دعا السلطان مراد ، الديوان والعلماء لعقد اجتماع . ألقى خطابا طويلا ذكر فيه أن الفوضى تغلغلت فى كيان الدولة ، وأن الجيش أصبح لايحارب ، وأن الجندى أصبح لايؤدى واجبه بسبب تدخله فى السياسة وأنه غير مستعد لأن يقدم الدولة لقمة سائغة للأشقياء واللصوص ، وأنه سوف لايتردد فى البطش بمن لايطيعه مهما كان ذلك الشخص . أحدثت الخطبة أثرها فى الشعب فأخذوا يهتفون مؤيدين البادشاه ، ذلك أن تحكم الأشقياء كان قد أضر بالكثيرين من أفراد الشعب ورجال الدولة . مضى على « الهائلة العثمانية » ١٠ سنين و ١٩ يوما بالضبط . كانت واقعة كنج عثمان سببا فى فتح الباب أمام فترة فوضى دامت هذا القدر الطويل من الزمن . انتهت فترة نيابة السلطانة كوسم التى دامت ٨ سنوات و٨ أشهر و١٣ يوماً . سحبت السلطانة - الوالدة البالغ سنها ٤٣ عاما يدها من السياسة وهى رهينة الحزن والتأثر .

افتتحت الدورة الثانية لسلطنة السلطان مراد التى ستكون إرادته فقط هى الحاكمة فى هذه الدورة ، ولن يسمح لأية قوة بالتدخل فى إرادته .

٤٦) الدورة الثانية لسلطنة مراد الرابع (١٦٣٢ - ١٦٤٠)

دامت هذه الدورة حتى وفاة البادشاه ٧ سنوات و٨ أشهر ويوما . ألغى فصيل « أورطة » الذى ينتسب إليه الإنكشارية الـ ١٠ قتلة عثمان . وكان الإنكشارية بالذات يلعنون هذا الفصيل بمراسم عسكرية كبيرة يرتبونها كل ٣ أشهر ، دامت لحين إلغاء صنف الإنكشارية فى ١٨٢٦ .

هدد السلطان مراد الرابع والدته الحريصة جدا على السياسة ومنعها من التدخل فى شئون الدولة . بحث عن كل شخص له علاقة قريبة أو بعيدة بمقتل كنج عثمان وأمر بقتله . ثم انتقل إلى الأناضول وأمر بإعدام كل من ارتكب الشقاوة فى المنطقة أو تظاهر بها أو سرق أموال الدولة أو ظلم الشعب . منع استعمال التبغ فى ١٦ أيلول ١٦٣٣ . كانت القهوة تشرب فى إستانبول منذ عام ١٥٥٥ مدة ٧٨ سنة والتبغ يدخن منذ ١٦٠٥ مدة ٢٨ سنة . لم يكن التدخين متفشيا بكثرة فى حينه ، كان العلماء يناقشون شرعيته من عدمها (وفى النهاية قرروا أنه مضر ولكنه ليس حراما وسمح باستعماله) . هدمت كافة المقاهى لأنها كانت مركزا لتجمع أفراد الجيش والمداولة فى السياسة بدلا من قيامهم بالتدريب العسكرى فى ثكناتهم . الراغب يشرب القهوة فى داره . لكن التبغ كان ممنوعا تدخينه حتى فى الدار (رفع هذا الحظر فى عام ١٦٤٠) ؛ لأن حريق إستانبول الكبير فى ١٦٣٣/٩/٢ ، حدث بسبب النار التى ولدها تدخين التبغ واحترق ٢٠٠٠٠ مسكن . كان ذلك فى الحقيقة مجرد وسيلة ، أما غرض السلطان الحقيقى ، فقد كان إحاطة الدولة بجو إرهابى بحجة تدخين التبغ . ولأول مرة فى التاريخ العثمانى يعدم شيخ الإسلام أخو زاده حسين أفندى (١٦٣٤/١/٧) . لايقر النظام العثمانى إعدام أى فرد من أفراد طائفة العلماء ، حتى ولو كان فى أدنى المراتب ، ويمكن فقط عزله أو نفيه . والآن يقطع رأس الشخص الذى هو فى ذروة هذه الطائفة . كان السلطان مراد يريد أن يثبت بذلك أن ليس هنالك امتياز لأى صنف من الأصناف أمام سلطة الدولة . كان ذلك إخطارا للعلماء الذين أصبحوا آلات عمياء مسخرة فى أيدى الأشقياء فى واقعة « هائلة عثمانية » . وفى ١٦٣٤/٨/٥ منع شرب المشروبات الكحولية . أغلقت كافة أماكن الشرب ، حظر الشرب على المسلمين ، حتى فى بيوتهم ، لأن الشريعة منعت تعاطى الخمر . كان حظر المشروبات الكحولية قد صدر قبل نصف قرن ولكن لم يكن مطبقا ، والآن أعدم فى محل الارتكاب كل من شرب الخمر أو دخن التبغ رغم المنع . كان البادشاه يعطى شعبه درسا فى إطاعة أوامر الدولة ، لكنه كان هو نفسه يتعاطى المشروب فى السراى .

وفى جو كهذا ، كادت تحدث حرب بولونية . البادشاه الذى قرر حملة همايونية بعد ١٣ سنة من حملة أخيه الكبير على بولونيا التى امتنعت عن دفع الضريبة وهدم

قلاع الحدود ، جاء فى ٢٧ نيسان إلى أدرنة (١٦٣٤) . لكنه اتفق مع بولونيا وتحرك عائدا إلى إستانبول فى ٢٧ تموز .

عندما كان مراد الرابع فى حملة إيران الأولى أرسل أمرا إلى إستانبول أعدم بموجبه ولى عهد - شهزاده بيازيد الذى كان فى ٢٣ من عمره وشهزاده سليمان فى ٢٠ من عمره بحبل حريرى . ولم يمس الشهزادة قاسم الذى كان سنه متوسطا بين هذين السنين بسوء لكونه شقيقه من السلطانة كوسم ، وصار ولى عهد . الشهزادتين (الأميرين) المقتولين دفنا فى مقبرة أبيهما السلطان أحمد . الشهزادة بيازيد ، كان أميرا مقتدرا جدا ، وكان ولى عهد أخيه الكبير مراد الرابع منذ جلوسه قبل ١١ سنة و ١٠ أشهر و ١٧ يوما . بدأت الألسن فى آسيا وإفريقية تلوك هذا الحادث بشكل كبير . تعالج هذا الموضوع (مأساة) **Racine** ذات الـ ٥ فصول والتى تسمى تراجيديا **Bajazet** (١٦٧٢) وعندما كان البادشاه فى حملة إيران الثانية أرسل أمرا إلى إستانبول بموجبه قتل خنقا أخوه قاسم المولود من نفس الأم البالغ سنه ٢٤ عاما والذى كان ولى عهد منذ سنتين و٦ أشهر و٢١ يوما . دفن الشهزاد فى مقبرة مراد الثالث الكائنة فى أياصوفيا . أصغر إخوة البادشاه إبراهيم المولود من السلطانة كوسم من أم وأب واحد صار ولى عهد ، كان سنه ٢٢ عاما ، ولم يبق عداه من بنى عثمان على قيد الحياة . شهزادات السلطان مراد كانوا يموتون بعد ولادتهم بعدة أشهر .

عندما تسلم السلطان مراد زمام السلطة بيده وأعدم رجب باشا عين طابانى ياصى محمد باشا صدراً أعظم . ساعد هذا الصدر الأعظم البادشاه متطوعا ، وعمل مابوسعه لإعادة سلطنة الدولة مجددا . عزل بعد ٤ سنوات و ٨ أشهر و ١٥ يوما (١٦٣٧/٢/٢) . كان موجودا عند عزله فى مقر الجيش فى عامد (ديار بكر) ، أرسل إلى بودين (المجر) وصار بكلربك لها . عين مكانه صدر أعظم ووزير مقتدر مثله وهو داماد بايرام باشا . كان متزوجا بالسلطانة خان - زاده الأخت الكبيرة للبادشاه منذ ١٥ عاما . كان قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول أثناء السنوات التى كان فيها طابانى ياصى محمد باشا فى الجبهة الإيرانية ، ونائب السلطنة عندما كان السلطان مراد فى حملة إيران الأولى . صار بايرام باشا كذلك سردارا أكرم مثل محمد باشا .

حولت الفوضى التى استمرت ١٠ سنين كافة الأنظار إلى حوادث العصبة (Junto) فى إستانبول ، حدث شغب كبير فى الإيالات . ضعف نفوذ بكلربك الإيالات البحرية ، الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ، وزاد نفوذ جنرالات الإنكشارية الذين يسمون « دايى » . كان أيدن باشا يحافظ بصعوبة على أراضى الحبشة الواسعة ، وفى اليمن لم يتمكن قانصو باشا ، من الوقوف أمام الإمام الزيدى ، وانسحب تاركا له كافة الأقسام الجبلية للقطر ، عدا الساحل (١٦ - ٣٣) . وحتى قوزاق أوكراينا استولوا على قلعة آزاك (Rostov) (١٦٣٧/٧/٥) .

توفى الصدر الأعظم بايرام باشا ، عندما كان مع البادشاه قرب بيرة جك مع الجيش الهمايونى (١٦٣٨/٨/٢٦) . دامت صدارته سنة و ٦ أشهر و ٢٢ يوما . حل مكانه وزير مقتدر آخر هو طيار محمد باشا الذى كان - من قبيل الصدف - مثل بايرام باشا من أهالى لادك أيضا (بين صمصون وآماسيا) . كان الوزير موسى باشا فى إستانبول يقوم بوظيفة محافظ العرش (نائب السلطنة) وفى نفس الوقت ، قائمقام الصدارة . لكن طيار محمد باشا سقط شهيدا أمام أسوار بغداد بعد ٣ أشهر ، ٢٨ يوما (١٦٣٨/١٢/٢٣) ، وبعد يومين فتحت بغداد . كان أبوه أوجار مصطفى باشا قد استشهد كذلك على يد الصفويين عندما كان بكلربك لبغداد . دفن محمد باشا فى الأعظمية خارج بغداد وشيد له قبر فيها . صار « كمانكش » مصطفى باشا صدراً أعظم ، ولقب بهذا اللقب لأنه كان من أشهر رماة السهام فى عصره ، ومنذ شبابه يلقب « كمانكش » كان قبطان دريا برتبة وزير .

وبعد حملة إيران الثانية تفادت العثمانية بصعوبة نشوب حرب مع البندقية Venedik . ونشأ الخلاف من الوضع المتقابل للقلعة العثمانية فى دالماجيا وقلعة البندقية تم تفادى الحرب أو على الأصح أجلت لمدة ٦ سنوات بمعاهدة إستانبول (١٦٣٩/٧/١٦) . سددت البندقية غرامات قدرها ٢٥٠٠٠٠ سكة ذهبية . ومع ذلك أمر السلطان مراد بتأهب الأسطول تجاه البندقية ، لكنه توفى قبل إعلانه حربا مع البندقية ، بعد أن ترك فكرته هذه ميراثا لأخيه السلطان إبراهيم .

ضعف نفوذ البكلربك الذين أرسلتهم إستانبول إلى الجزائر ، وأصبحوا يمثلون فى البروتوكول فقط . وسيطر جنرالات الإنكشارية فى الجزائر الذين يسمون « دايى » على الإيالات فعلا . اكتسب أسطول الجزائر قوة كبيرة ، إلا أن اهتمام أميرالات

الأسطول بشئون إدارة الدولة أصبح أقل مما كان عليه فى السابق ، واتخذوا من الأسطول أداة للقرصنة . كانوا يقومون بتحركات معلومة عند تسلمهم الأوامر من إستانبول ، وبعدها كانوا ينضمون إلى الأسطول الهمايونى ، ويخرجون للقرصنة فى فراغهم . كان مجالهم وسط وغرب البحر الأبيض والأطلسى . وكان الأسطول الجزائرى المكون من ٢١٠ قطعة ، وكل قطعة مجهزة بـ ٢٥ - ٤٠ مدفعا أكبر قوة بحرية فى العالم بعد الأسطول الهمايونى . ولد ضعف الأسطول والقدرة العسكرية الإسبانية فرصا كبيرة . جرت عدة حملات وغارات بحرية فى هذه الفترة وهى (ستعالج الأحداث فى الميحط الأطلسى فى الصفحات التالية) : الاستيلاء على ٩٣٦ سفينة خلال ٨ أعوام وجلبت إلى الجزائر السفن التى نهبت فى عرض البحر وأغرقت ، خارج هذا العدد . شرع بعد ذلك فى التعرض للسفن الفرنسية، ترك الديوان سياسة حماية فرنسا بمناسبة ضعف إسبانيا . وخلال ١٦٢٩ - ٣٤ تم فى الأطلسى الاستيلاء على ٥٢ ، وفى البحر الأبيض على ٢٨ سفينة فرنسية وجلبت إلى الجزائر . كان الهدف هو السفن الإسبانية والإيطالية التابعة لإسبانيا لأن أمر الديوان كان ينص على ضربها أينما وجدت . كانت حالة الحرب مستمرة بين العثمانية وإسبانيا . وفى ١٦٣٦ أغار الأسطول الجزائرى على ميناءى **Reggio** و **Messina** . تم تحقيق إنزال على كورسيكا ، وفى ربيع العام التالى ١٦٣٧ جرى إنزال على **Sardunya** . وفى الخريف تم إنزال الجيش فى **Gaeta** بين نابولى وروما . وفى ١٦٣٩ عاد على رئيس من سواحل صقلية وكالابريا بغنائم كبيرة . كانت القطع البحرية لتونس وطرابلس أصغر . وكانوا يقلدون الجزائر ويحذون حذوها قدر طاقتهم . أسس آخر من نفى من العرب من الأندلس عام ١٦١٠ نوعا من الجمهورية فى الأس البحرى Sale الكائن على المحيط الأطلسى فى فاس على مقربة من شمال الرباط ، متخذين تشكيلات الأسطول التركى نموذجا لهم . كبدوا السفن الإسبانية فى المحيط الأطلسى أضراراً فادحة ، ساندتهم الجزائر وتسلموا أوامر منها .

٤٧) الصفحة الأولى للحرب التركية -الإيرانية الجديدة (١٦٢٤ - ١٦٣٥)

استولى الصفويون على بغداد بعد حصار دام ٣ أشهر (ليلة ١١ - ١٦٢٤/١/١٢) . فتح الباب للشاه ليلا - بصورة سرية - درويش محمد بك ،

ابن بكر باشا بكلربك بغداد ، الذى كانت علاقته متوترة مع أبيه . منحه الشاه رتبة بكلربك بلقب « خان » عذب الشاه عباس بكر باشا الذى رفض أن يكون شيعيا ، مدة ٧ أيام ثم أركب فى زورق ملىء بالنفط ، وأشعل فيه النار . قتل كل من قاضى بغداد عمر نورى أفندى خطيب أولو جامع محمد أفندى ومئات من ضباط وموظفى العثمانية ، أشراف السنة بنفس الطريقة . سيقت زوجاتهم وبناتهم إلى دور الزنى العامة فى إيران . تصادف هذه الفترة تماما فترة حروب الثلاثين سنة المدهشة التى ذبح فيها الكاثوليك والبروتستانت بعضهم البعض وهدم فيها أحدهم مدن وقرى الآخر وسحقها وجعلها مزارع . افتتحت سلطنة مراد الرابع بمثل هذه الفاجعة .

أصبح صافى قولو خان تركمن بكلربك بغداد للصفويين . بدأت دورة حكم الصفويين فى بغداد – لمدة ١٥ سنة – (التى قد فتحها من قبل السلطان سليمان القانونى جيث تسلمها من الشاه طحمسب قبل ٨٩ سنة وشهر و٤ أيام) . حاصر بغداد الصدر الأعظم والسردار الأكرم حافظ أحمد باشا (١٦٢٥/١١/١٣ – ١٦٢٦/٧/٣) . حضر الشاه فورا ، لكنه لم يجرؤ على مواجهة حرب ميدانية مع العثمانية ، وإن كان مجيئه قد ثبط عزم العثمانية على استرداد بغداد . عاد حافظ باشا . أهدر الحصار الذى دام ٧ أشهر و٢٠ يوما دماء الكثير من الطرفين . انتقلت المدن المقدسة ككربلاء والنجف ليد إيران . لم تتمكن السياسة العثمانية فى هذه المرة كذلك من تشكيل استراتيجية موحدة مع الهند وتركستان ، اللتين هما فى حالة حرب وخلاف دائمين تقريبا مع إيران ؛ الأمر الذى يقتضى أن يكونا حلفاءها الطبيعيين . توالى ذهاب ومجيء السفراء من تركستان ومن الهند ، ولكن لم يسفر ذلك عن اتفاق جدى .

أحس الشاه عباس بأنه على وشك إكمال سلطنته التى قضاها بالسطوة والقوة . كان أمله الوحيد هو إجبار العثمانية على الموافقة على بقاء العراق الوسطى لديها ، لكنه لم يتمكن من تأمين ذلك ، لأنه كان على درجة من بعد النظر ، بحيث يستطيع التنبؤ بأن العثمانية سوف تسترد بغداد بعده بصورة أكيدة . مات فى سن ٧١ وهو أعظم حاكم فى العالم بعد مراد الرابع (١٦٢٨/١/٢٧) . دامت سلطنته ٤٠ سنة و ٨ أشهر ، كان معاصرا لـ ٥ بادشاهات عثمانيين . كان قد أمر بقتل ابنه ولى العهد صافى ميرزا . جاء مكانه ابن صافى ميرزا هذا ، ولقب « الشاه صافى الأول » وجلس على عرش جده ، ولكن البون كان شاسعا بين قدراته وقدرات جده . وخلال هذه

السنوات اكتسب بنو تيمور فى الهند مقدرة كبيرة جدا وازدهروا وصاروا أقوى دولة فى العالم بعد العثمانية ودفعوا إيران الصفوية من الدرجة الثانية التى حافظت عليها مدة أكثر من ١٢٠ سنة إلى الدرجة الثالثة . ظل الشاه صافى على العرش حتى عام ١٦٤٢ أى أكثر من ١٤ عاما .

تحرك الصدر الأعظم والسردار الأكرم الجديد دماد خسرو باشا من إستانبول (١٦٢٩/٧/١٠) للاستيلاء على بغداد التى لم يستطع حافظ باشا الاستيلاء عليها . لكنه بدلا من أن يتجه إلى بغداد قضى الشتاء فى كركوك . انتقل ٣٩ سنجق (لواء) كردى وتركانى مع أكثر من ٢٠ عشيرة كردية - الذين كانوا فى السابق تابعين للعثمانية - من الحكم الصفوى إلى الحكم العثمانى مرة أخرى . وجاء بكواتهم فردا فردا إلى السردار الأكرم وأعلنوا طاعتهم . استرجع بارمقسز مصطفى باشا بكلربك طرابلس الشام ؛ الحلة ، كربلاء ، النجف ، الكوفة وضواحيها من الإيرانيين . تراجع الصفويون إلى داخل أسوار بغداد . أعدم الشاه خان خانان (الصدر الأعظم) زينل خان بسبب هزيمته مع جيشه البالغ ٤٠٠٠٠ شخص ، أمام العثمانية فى المعركة الميدانية المسماة « مهربان » .

اجتاز خسرو باشا الأراضى التى يسكنها الأكراد ، ودخل الأراضى الإيرانية التى يسكنها الأتراك فتح همدان (١٦٣٠/٦/٩) ومع أنها كانت قد فتحت فى عهد القانونى الا أن ذلك كان نصرا مهما ، حيث كانت مركزا للعراق العجمى ومدينة العرش لسلاجقة العراق (على مسافة ٤٠٠ كم (مسافة مستقيمة) عن شمال شرق بغداد ، و ٢٥٠ كم على الجنوب الغربى من طهران) . جاء الجيش الهمايونى إلى دركوزين على طريق همدان - قزوين فى ١٨ حزيران . وتمكن من إفناء حسين خان بكلربك لورستان مع جيشه البالغ ٨٠٠٠ خيالة و ٤٠٠٠ مشاة حاملى البنادق . وعلى هذا تكون كافة إيران الغربية (العراق العجمى) ، وبتعبير أوضح إيالات كرمنشاه ، كردستان (أردلان) ، لورستان وخوزستان قد انتقلت إلى الحكم العثمانى . إلا أن الديوان الهمايونى اتهم خسرو باشا بمخالفة الأوامر وعدم استيلائه على بغداد وسوقه الجيش إلى داخل إيران على خلاف ماهو مخطط . وفى ٥ ت١ حاصر بغداد راميا ٥٠٠ قذيفة مدفع يوميا (هامر ، ٩ ، ١٥١) رفع الحصار بعد ٣٩ يوما (١٦٠٣/١١/١٤) . كانت الأعظمية بيد العثمانية . استشهد الوزير

مرتضى باشا.رابط خليل باشا بكلربك دياربكر فى الحلة مع ١٠٠٠٠ جندى .
ولما انسحب خسرو باشا ، جاء الشاه صافى بنفسه واستولى على الحلة وكركوك .
مكث خسرو باشا ٤١ يوما فى الموصل و٤ أشهر فى ماردين . وجاء إلى دياربكر ،
وهنا انضم ٣٠٠٠٠ خيال قرمى إلى الجيش الهمايونى . لكن خسرو باشا علم بعزله
خلال تواجده فى هذه المدينة . انسحب إلى طوقات . كان الجيش متعبا ، كما أنه
تحمل خسائر كبيرة فى حملة إيران ، ولم يسترح منذ مدة طويلة .

خرج الصدر الأعظم والسردار الأكرم طابانى ياصى محمد باشا من إستانبول إلى
الجبهة (١٦٣٣/١٠/٢٢) . رافقه مراد الرابع لغاية أزميت . قضى الصدر الأعظم
شتاء عام ١٦٣٣ – ٣٤ فى حلب . ثم انتقل إلى دياربكر وانتظر قدوم البادشاه .

٤٨) الحملة الهمايونية الإيرانيــة (روان) الأولى (١٦٣٥/٣/٢٨ – ١٦٣٥/١٢/٢٧)

أثناء مغادرة مراد الرابع إستانبول ، لحملة إيران (٢٨ آذار) ، تحرك جيش آخر
بقيادة طابانى ياصى محمد باشا من دياربكر (٦ نيسان) ووصل أرضروم (٥
حزيران) . سار البادشاه رويدا ، كان النظام والسكون المطلق مستتبين فى الجيش
إلى درجة لم يشاهد عليها أبدا منذ عهد القانونى . قبض على العصاة وأعدموا فى
كل مكان يمر به الجيش . صعد الخاقان إلى حضور مولانا جلال الدين (قدس الله
سره) المعنوى فى قونية . وفى ١٧ حزيران التقى فى بايبورت البادشاه مع الصدر
الأعظم . وفى طريق إستانبول – بايبورت أمر السلطان مراد بإعدام وزير
(مارشال) و٣ بكلربك (فريق) ، سنجق بك (أمير لواء) قضاة قونية ،
قيصرى ، ازمير ، قره أغاج وكثيرين من موظفى الدولة الأصغر رتبة وعدد كبير
من الشعب الذين يهددون الناس . ظل ٩ أيام فى أرضروم وتحرك فى ١١ تموز .
ترك ٥٠٠٠٠ جندى فى أرضروم . ولتسهيل إمداد المؤن تحرك مع ٢٠٠٠٠٠
جندى و ١٣٠ مدفعا ثقيلا فقط روضة الأبرار ، ٥٨٥ – ٦) . وفى الاستعراض
الذى نظمه خارج أرضروم ، أثبت وجود ضبط ونظام لامثيل لهما فى الجيش
الهمايونى . يسجل ذلك كاتب جلبى عالم عصره الكبير الموجود آنذاك فى الجيش

فى الـ ٢٥ من عمره ، فيقول إنه لم يجتمع – فى أى وقت من الأوقات – جيش ضخم كهذا .

بدأت محاصرة روان فى ٢٧ تموز . كان يدافع عن القلعة طهمسب قولوخان ابن أمير كونة خان بكلربك الإيالة . وعندما علم بأن الهدف هو روان أدخل الشاه فى آخر لحظة إلى القلعة ١٢٠٠٠ من المشاة حاملى بندقية ، وعزز دفاعه . ورغم وجود الجيش الإيرانى الإمبراطورى بقيادة رستم خان فى مكان قريب لم يفكر فى حرب ميدانية مع العثمانيين . استسلمت روان بعد ١١ يوما (١٦٣٥/٨/٨) . وهكذا استرجعت القلعة التى بقيت لدى العثمانية خلال ١٥٨٣ – ١٦٠٤ بعد ٣١ سنة و شهرين . ولد فتح روان التى لم يقدر القانونى على فتحها فى وقت قصير كهذا صدى كبيراً . أقام شيخ الإسلام يحيى أفندى صلاة الجمعة فى ١٠ آب . تعقب السلطان مراد الذى ظل ١٢ يوما الجيش الصفوى وواصل النزول إلى الجنوب الشرقى على امتداد نهر آراس ؛ لكنه لم يتمكن من التوصل إلى العدو . لم يسر الصفويون دخول الجيش العثمانى إلى روان بنظام لامثيل له ودون سفك قطرة دم بل بالعكس ، أصابتهم الدهشة . وأثناء اقتراب البادشاه إلى مدينة بيازيد رأى غرابا على مئذنة الجامع مضى بحصانة المسمى « نوكاى الجيسى » مسرعا ومن مسافة مرمى السهم ، رمى الجريدة وأصاب الغراب . وضع نصبا تذكاريا من المرمر فى مكان سقوط الغراب كتب عليه السلطان مراد الذى دخل خوى فى ١ أيلول دخل تبريز فى ١١ أيلول . هذا هو سادس فتح لتبريز على يد العثمانية . ويدون المؤرخون أن تعداد هذه المدينة كان فى ذلك الحين ٥٥٠٠٠٠ نسمة (Chardin ، ٢ ، ٣٢٨) بينما كانت مدينتان فقط من مدن المسيحيين هما لندن وباريس يبلغ تعدادهما هذا الرقم .

انتقلت تبريز مرة أخرى من العثمانيين إلى الصفويين قبل مايقارب ٣٢ سنة . ظل البادشاه ٤ أيام ثم تحرك . ولمرضه عدل عن خطة ذهابه إلى أصفهان . مكث فى دياربكر وقدم الكثيرين من موظفى الدولة والمشبوهين فى كسبهم إلى الجلاد . عاد إلى إستانبول بعد ٩ أشهر بالضبط . كانت سنه ٢٣/٥ عاما . وفور انسحاب العثمانيين جاء الصفويون إلى روان وعلى رأسهم الشاه صافى . وبعد حصار دام ٣ أشهر و ٧ أيام فى وسط الشتاء واستشهاد الوزير مرتضى باشا استسلمت روان . استمر الحكم العثمانى فى هذه المرة ٧ أشهر و٢٤ يوما . واسترجع الصفويون تبريز

والقسم الأكبر من أذربيجان . ثم نزل الشاه إلى الجنوب . وفى معركة مهران الميدانية (١٦٣٦/٩/٢) قاوم الوزير كوجوك أحمد باشا بكلربك الشام ، رغم مرضه ، لكنه غلب واستشهد . أعاد الشاه - الذى أعجب ببطولة هذا الباشا - جسده إلى العثمانيين . عاد الصدر الأعظم والسردار الأكرم طابانى ياصى محمد باشا الذى كان قد ذهب خلال الشتاء من دياربكر إلى قارص ولم يتمكن من إمداد الجيش فى كلا المنطقتين . غضب عليه مراد الثالث وعزله ، لم يعدمه على خلاف عادته نظرا لخدماته الكثيرة وعينه بكلربك على بودين .

٤٩) الحملة الهمايونية الإيرانية (بغداد) الثانية (١٦٣٨/٥/٨ - ١٦٣٩/٦/١٢)

غادر السلطان مراد إستانبول لحملة إيران الثانية مستصحبا معه شيخ الإسلام الشاعر الكبير يحيى أفندى الذى كان يكن له محبة كبيرة ويدعوه « بابا » البالغ سنه ٨٥/٥ سنة . طريق بغداد - إستانبول وهو مقسم إلى ١١٠ منازل وقد أنشئ فى كل منزل ، مراكز لتموين الجيش . وفى ١٧ حزيران صعد الخاقان إلى حضور مولانا جلال الدين المعنوى فى قونية . ووصل فى ٢٢ تموز حلب التى هى نصف مسافة طريق إستانبول - بغداد تماما . التقى فى بيرة جك مع جيش الصدر الأعظم داماد بايرام باشا . لكن بايرام باشا توفى قرب أورفة فى ٢٦ آب . صار طيار محمد باشا صدراً أعظم . جاء الخاقان الذى بقى ١٠ أيام فى دياربكر إلى الموصل فى ٧ ت١ وافق على دخول رسل تيمور أوغلو شاه جهان إلى حضرته . قطع طريق إستانبول - بغداد خلال ٥ أشهر و ٨ أيام وشرع فى محاصرة بغداد فور وصوله ليلة ١٥ ت ٢ .

كانت فى المدينة حامية قوية جدا مؤلفة من ٤٠٠٠٠ جندى تحت قيادة بكتاش خان تركمن . كان الشاه صافى فى قصر شيرين مع جيشه السيار ، تابع الحصار العثمانى يوما بيوم ، لكنه كان لايستطيع الاقتراب من الجيش العثمانى . ورغم دخول السلطان مع ١٢٠٠٠ سباهى داخل إيران وسحقه منطقة شهربان لم يستطع إجبار الشاه على الدخول فى معركة ميدانية . كان الشاه يعتمد على جيشه المرابط فى بغداد وعلى أبراج قلعته الـ ١٢ ومئآت مدافعه . كان يؤمل انسحاب السطان مراد بعد

أن ييئس من الحصار . ولما وصلت المدافع الثقيلة إلى العثمانيين عن طريق دجلة اشتد الحصار . نصبت خيام الجرحى حول سرادق البادشاه . كان السلطان مراد يزور الخيام كل يوم ويقدم لكل غاز ٥٠ آقجة . كان شيخ الإسلام فى المقدمة وفى أسفل السور يقوم بتشجيع الغزاة . بدأ قتال شديد بين كلا الجيشين التركيين . كان أحد الأطراف ينادى « شاه » والطرف الآخر ينادى « بادشاه » . وفى ٢٣ ك ١ استشهد طيار محمد باشا برصاصة أصابته فى جبينه ، وكان أبوه أوجار مصطفى باشا قد استشهد أيضا برصاصة صفوية فى بغداد سابقا .

طيار محمد باشا هو رابع صدر أعظم يسقط شهيدا فى ساحة الحرب فى التاريخ العثمانى . لكنه كان قد استولى على عدة أبراج . وقبل مضى ٤٨ ساعة استسلمت بغداد (١٦٣٨/١٢/٢٤) . دام الحصار ٣٩ يوما . خلال هذه المدة استشهد ٥٠٠٠ جندى عثمانى وجرح مايقارب ١٠٠٠٠ . وقتل مايقارب ١٠٠٠٠ جندى صفوى . تم تخليص المدينة التى بقيت تحت الاحتلال الصفوى ١٤ سنة و ١١ شهراً ، ١٣ يوما . بقيت بغداد فى الإدارة العثمانية بعد فتح القانونى لها مدة ٨٩ سنة و شهرا و ٤ أيام . أما بعد أن فتحها مراد الرابع فقد ظلت ٢٧٨ سنة ، ٣ أشهر ، ويومين فى الإدارة العثمانية . مجموع المدتين ٣٦٧ سنة و ٣ أشهر و ٦ أيام . بعد فتح بغداد صار يدعى السلطان مراد باسم « فاتح بغداد » .

أمكن استعادة بغداد بعد أدمى وأكبر حروب تركية – إيرانية استمرت ١٥ عاما . قدم الطرفان خسائر كبيرة . استشهد فى هذا السبيل الكثيرون من ذوى الرتب العالية آلاى بك ، سنجق بك ، بكلربك بمن فيهم الوزراء وصدرور أعظم عثمانيون . يكفى أن نتذكر أن رئيس الكتاب (وزير الخارجية) إسماعيل أفندى استشهد مع طيار محمد باشا فى نفس اليوم . كان هنالك شاب أكرمه السلطان مراد شخصيا ، استشهد أبوه وعمه واثنان من أخوته وعدة أشخاص من أقربائه فى هذه الحرب . كانت حربا وحشية إلى حد بعيد . ومما زاد فى وحشية الحرب إصرار ٢٠٠٠٠ جندى صفوى بقوا فى القلعة الداخلية – على المقاومة ، وقد قتل جميعهم عدا ٣٠٠ بالسيوف . وقع عدة خانات للصفويين (بكلربك) وكثير من سلاطين (سنجق بك) أسرى بيد العثمانيين وسيقوا إلى إستانبول . ولم تنته الفاجعة عند هذا الحد . قام قسم من الأهالى الشيعة بتفجير مخزن البارود ، وتسبب ذلك فى قتل

٨٠٠ جندى عثمانى . تم سجن وقتل ١٤٠٠ شيعى . أرسل أهالى المدينة الشيعة كلهم إلى أماكن مختلفة فى وسط العراق وأسكنوا هناك . منع لمدة طويلة إقامة غير أهل السنة فى المدينة . آلاف الأجساد تكدست فى شوارع المدينة ، ثم ألقى بهم فى نهر دجلة لعدم إمكان دفنهم . ولكون الموسم شتاء لم تحدث أمراض . جىء بعشرات الألوف من الأتراك من الأناضول وأسكنوا بغداد وضواحيها . إن الذين لايزالون يتكلمون اللغة التركية فى خانقين،يعقوبة،مندلى هم من نسل هؤلاء ، أما الذين فى بغداد فإنهم نسوا التركية فى النصف الأخير من القرن . إن مجرد قراءة الفذلكة لكتاب جلبى أكبر علماء عصره الذى اشترك فى الفتح والحصار تكفى لمعرفة مبلغ شدة هذه الحروب الدموية .

وأثناء ذهاب السلطان مراد ، لم يعرج على الأعظمية قائلا « ليسل لدى اللياقة للصعود إلى حضور الإمام الأعظم ! » ولكنه زاره عند عودته . تم إصلاح وبناء قبر أبى حنيفة ووضعت فيه حاجيات ثمينة جدا . عين كوجوك حسين باشا بكلربك (أمير الأمراء) لبغداد ووضع تحت إمرته ١٢٠٠٠ جندى ؛ ٨٠٠٠ منهم إنكشارية . وعندما شاهد الخاقان خلال عودته عدم كفاية هذه الحامية أرسل وحدات جديدة إلى المدينة ، تم إصلاح كافة الأسوار والقلعة ، وجددت المدافع . أصبحت المدينة فى وضع لايمكن الصفويين من اقتحامها . مكث البادشاه فى بلدة الخلفاء ٢١ يوما وتحرك يوم ١٤ ك٢ (١٦٣٩) . صلى الجمعة فى الأعظمية . أبقى الصدر الأعظم والسردار الأكرم قرة مصطفى باشا فى بغداد ، لإجراء مفاوضات الصلح . وفى ١٨ ك٢ ، علمت إستانبول خبر فتح بغداد ، كان اليوم ١٣ رمضان . قام شعب إستانبول الذى لاتفوته مثل هذه الفرص خاصة وأنه ضاق كثيرا بإجراءات الإدارة العرفية للسلطان مراد التى لم يشاهد مثلها حتى ذلك التاريخ – بترتيب الأفراح ورفهوا عن أنفسهم مدة ٢٠ يوما حتى العيد بحجة الاحتفال بفتح بغداد .

تحرك البادشاه والجيش من الأعظمية فى ١٧ ك٢ ، ومن الموصل فى ٢٨ ك ٢ . أراد السلطان مراد أن يقضى الشتاء فى دياربكر ويحمل فى السنة القادمة على أصفهان ، إلا أن المرض اشتد عليه وأصابه ألم شديد . ويعتقد أنه كان يشكو من مرض « دمله » (بالفرنسية : Goutte) وسيروز (تشمع الكبد) . المرض الأول وراثى لدى بنى عثمان . اضطر إلى مغادرة الموصل والتوجه إلى دياربكر خلال ٨

أيام . بقى هناك طريح الفراش مدة ٧٠ يوما . وهو على الفراش كان يصدر أوامره ويرسل أفراد الصاعقة إلى إيران ، كما أملى تعليمات شروط الصلح وعالج أمور الدولة الأخرى والتعيينات . تحرك قرة مصطفى باشا نحو إيران فى ٢٣ آذار بعد أن ترك فى بغداد ٢٠٠٠٠ جندى . وأثناء تقدمه نحو الشمال الشرقى فى قزلرباط جاء رسل الشاه وطلبوا الصلح . قال الصدر الأعظم ، إن لديه تعليمات بالدخول إلى أصفهان فى حالة عدم عقد الصلح فورا . ومن الناحية الأخرى تحسنت صحة السلطان مراد نسبيا وتمكن من المجيء من دياربكر إلى أنقرة خلال ٣٤ يوما (١٦٣٩/٥/٢٠) . وكان يرافق ركب القادمين مع البادشاه إلى إستانبول ٢٢ بكلربك صفوى يحملون لقب « خان » فى إيران ، مئات – أكثرهم تقريبا من أصل تركى – من رجال الصفويين فيهم علماء ، فنانون ، موسيقيون . كان شيخ الإسلام يحيى أفندى البالغ سنه ٨٦/٥ الذى يرافق البادشاه ، – أبوه زكريا أفندى صار شيخ الإسلام كذلك – ينتسب إلى إحدى عائلات أنقرة ، الشهيرة استضاف البادشاه فى داره الواسعة داخل مزرعة كروم الكائنة فى أنقرة والتى ورثها عن أبيه . والطباخ الذى أعجب السلطان بأكلته المشهورة « أورمان كباب » عاش حتى عام ١٦٩٤ وافتخر بهذه الحادثة أكثر من نصف قرن (نعيما ، ٣ ، ٤١ ، ٤١٩) .

وقبل أن يستقبل شعب أنقرة بكامله السلطان مراد خارج المدينة وقع الصدر الأعظم مع إيران على معاهدة قصر شيرين (١٦٣٩/٥/١٧) . قصر شيرين التى عقدت فيه المعاهدة يقع على الجنوب – الشرق من كركوك ، على الحدود العراقية – الإيرانية ، وقع المعاهدة صارى خان توركمن نيابة عن الشاه ، ثم تبودلت وصدق عليها الشاه والبادشاه . وهكذا انتهت الحرب التركية – الإيرانية التى استمرت ١٥ سنة و ٤ أشهر و ٧ أيام . المعاهدة التى وقع عليها على أساس بقاء الوضع على ماهو عليه تحدد تقريبا الحدود التركية – الإيرانية والتركية – العراقية الحالية . حتى إنها تحدد حدود تركية – جمهورية أرمنستان السوفيتية كذلك . وبعد ذلك وبين الحين والآخر قدم العثمانيون هذه الحدود داخل الأراضى الإيرانية نحو أقصى الشرق ، ولكن فى النهاية ظلت حدود معاهدة قصر شيرين معتبرة حتى هذا اليوم . كان الشاه يخشى من استيلاء عثمانى ولذلك فقد صدق على المعاهدة بعد ٣ أيام من التوقيع عليها .

عاد السلطان مراد إلى إستانبول يوم ١٢ حزيران ١٦٣٩ من هذه الحملة الهمايونية

التى استغرقت سنة و شهرا و ٤ أيام . سحب السلطان من الأسطول الهمايونى فى أزميت ٥٨ قادرغة (قطعة بحرية) أرسلت إلى إستانبول . جرت مراسم استقبال عظيمة . أعلنت الأفراح فى كافة الإمبراطورية مدة أسبوع . عاش السلطان مدة ٨ أشهر و ٢٦ يوما بعد عودته إلى إستانبول . وفى هذه المرة صرف النظر عن الحملة التى كان يريد توجيهها إلى أوروبا . أمر بإنشاء كشك روان الظريف لإحياء ذكرى حملة روان . ثم أمر المعمار قاسم أغا بإنشاء كشك بغداد الذى يعتبر من بدائع الهندسة المعمارية التركية فى ١٦٤٠/١/٥ ، أى قبل وفاة البادشاه بـ ٣٤ يوما ؛ ولقى من السلطان مراد تقديرا وبقى تأثير هذا التقدير ساريا بعد سنين طويلة من وفاة السلطان مراد ، لم يبدل خلفه وأخاه السلطان إبراهيم ، هذا الصدر الأعظم .

٥٠) وفاة السلطان مراد خان الرابع (١٦٤٠/٢/٨) وشخصيته

مراد خان الذى أصبح طريح الفراش فى اليوم الثانى من عيد الأضحى توفى بعد أسبوعين فى ٨ شباط ١٦٤٠ الساعة ٢٠ . كانت سنه قد تجاوزت الـ ٢٧ عاما بـ ٦ أشهر و ١٢ يوما . أغمض عينيه فى غرفة منام أخيه من أمه وأبيه أولو شهزاده — سلطان قاسم . دامت سلطنته ١٦ سنة و ٤ أشهر و ٢٨ يوما ، وكان قبلها ولى عهد لمدة سنتين و ٧ أشهر ، ٢٩ يوما . أطلق عليه « فاتح بغداد ، غازى ، صاحب قران » . مولوى ، شاعر ، خطاط ، ملحن كبير . كان مرتبطا معنويا بالشيخ عزيز محمود خدائى أفندى . ظل ٩ سنوات تحت نيابة والدته وهى سنين الفوضى ، ومارس السلطنة شخصيا مايقارب ٨ سنوات . كان شيخه فى المولوية أبا بكر جلبى (١٥٥٨ — ١٦٤٢ ، مشيخته ١٦٣١ — ٤٢) . مجموع مدة حملتيه الهمايونيتين ١ سنة و ١١ شهراً و ٣ أيام . وعدا ذلك فله سفرات سياحية إلى أدرنة ، بورصة أزميت . فى أوروبا لم يتعد أكثر من أدرنة . مستشاروه السريون كوجى بك وروزنامه جى إبراهيم أفندى . سكن مدة طويلة فى سراى إسكدار . ولد له ١١ أبنا و٤ بنات توفوا فى المهد وأكثرهم بعد الولادة مباشرة . بناته الآتية أسماؤهن ، وصلن سن الزواج : السلطانة رقية التى تزوجت مرتين (١٦٤٠ —ك١٦٩٠/٢) ، السلطانة قايا أسمهان التى تزوجت الصدر الأعظم

غازى ملك أحمد باشا (١٦٣٣ - ١٦٥٩/٢/٢٨) السلطانة خان - زاده (١٦٣١ - بعد ١٦٧٥) ، السلطانة كوهر - خان (الولادة شباط ١٦٣٠) والسلطانة صفية التى استمر نسلها حتى هذا الوقت . وبناء على ذلك فإن السلالة العثمانية استمرت إلى زمننا هذا من السلطان إبراهيم أصغر أبناء السلطان أحمد المقتدرين .

ومراد الرابع هو أكبر مستبد فى تاريخ تركية كلها . وفى الحقيقة فإن استبداده استمر ٨ سنوات . لكن اسمه حفظ النظام وأرجف القلوب لمدة طويلة حتى بعد موته . جلس على العرش كسلطان والدولة فى حالة فوضى ، لم يشهد التاريخ العثمانى مثيلا له.تعرض للاغتيالات وهو فى سن الطفولة . كان طفلا تربى على يد أم لاتتردد فى عمل أى شىء فى سبيل السياسة والسلطة . كانت تلك الأم أداة شر بيد جنرالات العصبة الذين يطلق عليهم اسم تشكيلات الأغوات (أوجاق أغالرى) وكانت تتقاسم مصالح الدولة معهم بشكل غير مشروع . مات فى سن مبكرة من الشباب تاركا سلطة قوية مستقرة للدولة ، ونظاما وطاعة فى الجيش لم يشاهد مثلها منذ عهد القانونى ، شهرة واسما كبيرين على سطح الكرة الأرضية .

تأثر الشعب كثيرا لوفاة السلطان مراد - الذى يقال إنه لتأمين النظام فى الدولة أمر بقتل ٢٠٠٠٠ شخص خلال فترة مابين ٧ - ٨ سنين . جرت لمراد الرابع مراسم تشييع الجثمان على الطراز الذى كان يجـرى لخاقانات الأتراك قبل الإسلام بشكل لايكاد ينسجم مع الأعراف الإسلامية . وضعت السروج على العكس على ٣ من خيله التى ركبها فى غزواته ، وسيرت أمام الجثمان . وفى تشييع جثمان السلاطين الذين تلوه تركت هذه العادة القديمة . دفن السلطان مراد فى رواق جامع السلطان أحمد فى القبر المتواضع جنب أبيه أحمد الأول وأخيه الكبير عثمان الثانى . لأن العرف العثمانى على عكس الدول الأخرى ينظر إلى صنع القبور الفخمة على أنها خطيئة . إن مراد الرابع أكبر سلاطين العثمانية خلال ٢٤٢ سنة من وفاة السلطان سليمان القانونى (١٥٦٦) حتى جلوس محمود الثانى (١٨٠٨) وبالنسبة إلى هامر ، أطال حياة الدولة وعظمتها مدة نصف قرن ، ولو لم يأت هو لما بدأ الانحطاط فى ١٦٨٣ ، ولبدأ قبل نصف قرن . « كان رجلا جميلا حسن المنظر . كان أمهر وأقدر محارب فى إمبراطوريته . كان طويل القامة متناسب البدن . تنبع من وجهه آثار العظمة

والمهابة . وكانت له عينان زرقاوتان لماعتان ذواتا تأثير « (Abrégé des Vies des Empereurs Turcs ، أمستردام ، ١٦٦٥ ، ص ١٨٨). » داهية مثقف ، لكنه ظالم جدا (M.d'Ohsson ، ١ ، ٤١٢) .

إن نعيما الذى حرر تاريخ هذه الفترة يخصص ١/٥ مجلد من مصنفه المكون من ٦ مجلدات للسلطان مراد (٢ ، ٢٦٣ - ٤٥١ ؛ ٣ ، ٢ - ٤٣٥) . ويسرد مايلى : من ناحية الصفة والقدرة يشبه السلطان ياووز سليم جده فى البطن السادس . أجرى مثله حملتين فى أسيا . لكنه عند جلوسه لم يجد نظام الدولة الذى وجده ياووز عند جلوسه . كان الجيش يفتقد الضبط ، والنظام مختل ، والمالية فى حالة يرثى لها . جلس على العرش وهو طفل ولم يجلس فى سن الكمال كما جلس ياووز (فى سن ٤٢) . كان فى الوقت الذى يثقف فيه علميا يتعلم كيفية إدارة الدولة . لذلك لم يقدر له أن يكون جهانكير (فاتح عالمى) . لكنه أحرز توفيقا كبيراً فى المجالات العسكرية وإدارة الدولة . كان قائدا عظيما . أبدى صلابة إلى حد الظلم . لكنه لم يكن يبالى بقول الحق ، كان يستفيد من الآراء القيمة . ويمكن إيراد أمثلة كثيرة فى هذا المجال . ولو عاش لكان أهلا لتحقيق نجاحات أعظم ، لأنه كان قد أسس سلطة تمكنه من تحقيق ماينطق به أو مايفكر فيه . كان يميل جدا إلى الهزل ، النكتة ، الطرب ومع الأسف إلى السفاهة ، لم تكن مثل هذه النقائص ، لدى جده ياووز . لم يكن رجال الدولة المحيطون به ذوى قيمة بدرجة رجال الماضى . ولو كان رجال الدولة القدامى على عهده لكان من المحتمل أن يسبق كافة سلاطين العثمانية الذين أتوا قبله . هذه هى خلاصة آراء المؤرخ العثمانى الكلاسيكى الذى عالج هذا الدور بشكل موسع جدا .

فتن الجيش ، دهاؤه ، ذكاؤه المفرط ، بعده تماما عن الشعور بالخوف ، احتماله جميع أنواع المشقات ، ولادته وهو عسكرى . ملأ الخزينة التى وجدها فارغة تمام الفراغ حتى نهايتها وسلمها إلى خلفه على هذا الوضع . إن السهم الذى يسحب قوسه يقع أبعد من مرمى البندقية ، ولاتوجد مادة لايمكن ثقبها بالجريدة التى يرميها (هامر ، ٩ ، ٣٨٥) . كان باستطاعته رفع الكرز (كرة حديدية تزن ٢٠٠ أقة . كان يستعمل كافة الأسلحة بنفس الدرجة من المهارة . تعلم رمى السهام سنين طويلة عن رماة عصره الكبار حسام - زاده عبد الرحمن أفندى وحاجى سليمان أغا

وصارى صولاق أغا (أولياء جلبى ، ١ ، ٢٥٧) . تعلم الفروسية على يد أمير آخور جندى خليل باشا (بجوى ، ٢ ، ٤٤٢) وصار أمهر فرسان جيشه . كان ترسه من جلد الكركدان الذى جلبه ظريف بك سفير شاه جهان من بادشاه الهند على أساس أنه « لاتمضى فيه الرصاصة ولا السيف » ، ثقبه أمام أعين السفير ثقبين الأول بالحربة والثانى بالسهم . حفظ الترس للذكرى بين الحاجيات الأثرية (نعيما ، ٣ ، ٣٣٨) . إن الجريدة التى رماها من السراى القديم (البناء المركزى لجامعة إستانبول) ، أصابت هدفا موضوعا فى أسفل مئذنة جامع بيازيد . والرمح الذى رماه من قلعة حلب أصاب الهدف الموضوع فى ميدان سراجخانة فى المدينة ، وفى أوق ميدانى أصاب هدفا على بعد ١٠٧٠/٥ ذراع وحصل على رقم قياسى وشيد نصبا تذكاريا فى محل سقوط السهم (أولياء ، ١ ، ٢٥٧ ؛ كانى ، تلخيص رسائل الرماة) . الـ ١٢ ترسا التى ثقبها بالجريدة علقت للذكرى على باب بج (فينا) لبودابست ، والـ ١٢ درعا التى ثقبها بالسهم علقت على قلعة القاهرة (تاريخ غلمانى ، ١٧) . كان يحب الخيل إلى درجة مرضية . كانت الخيول المسماة « طيار » ، داغلر دليسى ، جلالى ياغيزى ، نوكاى الجيسى وخاصة آغا آلاجاسى .. خيولاً ليس لها مثيل على وجه الأرض (بجوى ، ٢ ، ٤٤٢) .

خلف نظاما واستقراراً فى الداخل،دولة تهاب شوكتها كل الدول ، وجيشا جعله أكبر قوة ضاربة فى العالم ، ومالية منتظمة . أصلح أجهزة المخابرات الموجودة فى أوروبا مجددا وجعلها كما كانت عليه فى عهد القانونى . وعند وفاته كانت خزينة البادشاه تحتوى على ١٥ مليون سكة ذهبية ، ونفس القدر من الدراهم الفضية التى تسمى (آقجة) والماس المنقطع النظير (Sagredo ، ٤ ، ٤٢١) . وعلى أيامه خاصة أمر بإجراء غارات مهمة على أوروبا ودرأ الخطر القادم من تلك الجهة . اجتاح جيش الصاعقة شبه جزيرة Stirya بكاملها واجتازوا النمسا ودخلوا بافيرا وحرقوا عاصمتها ريجنسبورغ (Ratisbon) . لم تحدث غارة كهذه منذ عهد القانونى . وينبغى ألا ننسى أن ريجنسبورغ تقع على بعد ٣٢٠ كم (مسافة مستقيمة) على الشمال - الغربى من فينا . وبالنسبة إلى Sagredo (١١ ، ١٣٨)،قرأ ماكيافلى واستلهم عنه . باليوز (سفير) البندقية الذى قابله وهو لايتجاوز الـ ١٧ عاما خشى من ذكائه وصلابته ، وأخبر مجلس الأعيان الجمهورى بأنه على وشك تحقيق أعمال

كبيرة (هامر ، ٩ ، ١٠٢ ؛ بجوى ، ٢ ، ٣٩٩ ؛ أولياء جلبى ، ١ ، ٢٢٢) . كان تأثيره كبيرا فى أوروبا ، رغم أنه لم يجر أية معركة مهمة . الأناضول مليئة بذكرياته . كان قد شيد فى الجنوب الشرق من الأناضول الخانات (المنازل) ومحطات الاستراحة الكبيرة ، وطرقا وجسورا كبيرة . وأحد روافد الفرات لايزال يحمل اسمه .

٥١) عهد السلطان إبراهيم (١٦٤٠ - ١٦٤٨)

جلس السلطان إبراهيم على عرش أخيه ، وكان الوحيد من بنى عثمان الذين بقوا على قيد الحياة ، ولم يسبق للسلالة أن تكون فى وضع كهذا فى أى وقت . ولو مات السلطان لانقطع النسل من جهة الرجال . مرت الأشهر الأولى للسلطان الجديد وهو فى هذا الوضع المقلق . كان الأمر يقتضى للعرش ورثة جددا .

كان سن إبراهيم خان عند وفاة أبيه السلطان أحمد سنتين . قضى فترة إمارته (شهزاده) طيلة عهد أخويه المخيفين عثمان الثانى ومراد الرابع فى أحد شقق سراى طوب قابو . شاهد إعدام إخوته الكبار الأربعة الآخرين الذين كانوا كالأبطال والذين آخرهم الأمير قاسم المولود معه من نفس الأم بأمر أخويه السالف ذكرهما . وبالسلطان إبراهيم يجلس أول شخص على العرش دون أن يكمل تحصيله العلمى أو العسكرى ، جلس وهو يفتقر إلى كل هذا . وعلاوة على ذلك كان قد أمرضه الخوف المستمر من الجلادين ، ويعتقد أنه مصاب بالشقيقة . وبسبب ذلك كان عصبيا ومضطربا لايقر على شىء . عند جلوسه حاول أن يقلد أخاه الكبير مراد الرابع ويسير على نهجه . ولكن لم تكن له صفات أخيه .. عين للرئاسة قرة مصطفى باشا ، وعندما شاهد هذا ضعف السلطان بعد قوة السلطان مراد ؛ زاد استبداده . كانت كوسم مهبيكر السلطانة - الوالدة هى والدة السلطان إبراهيم كما كانت والدة السلطان مراد الرابع . حافظت على عرش السلطانة - الوالدة (مقام السلطانة - الوالدة يأتى بعد الخاقان ، وفى البروتوكول العثمانى يعتبر المقام الثانى ، إن مكانها هذا ، لم يتبدل فى أى وقت ، ويأتى تسلسل ولى عهد - أمير بموجب البروتوكول ، الثالث بعد السلطانة - الوالدة ، إلا أنه فى حالة عدم وجود السلطانة الوالدة ، أى إذا كانت متوفاة مسبقا يكون الثانى) .

كان السلطان إبراهيم ولى عهد منذ إعدام أخيه الكبير قاسم سنتين (إلا ١٠ أيام) . أراد السلطان مراد قتل إبراهيم أيضا . لكن والدته السلطانة كوسم التى سألته عما إذا كان يريد انقراض سلالته منعته من ذلك بصعوبة . كان السلطان مراد ينتظر أن يكبر أولاده الشهزادات (الأمراء) ويصلون إلى سن معينة ، ليقتل أخاه الذى لايعيره أية أهمية ، ولكن لم يعش أى أمير من أمرائه (أولاده) . وكان السلطان إبراهيم مريضا ، ولكنه لم يكن أحمق . كان يعلم حرص أمه على السياسة . ولذا أخذت علاقته تتأزم مع والدته ، وفى النهاية اضطر إلى تهديدها بإبعادها من سراى طوب قابو ، فى حالة تدخلها فى شئون الدولة وإرسالها إلى قبرص . هذا هو وضع السلطان الذى جلس على العرش عن عمر يتجاوز الـ ٢٤ سنة بـ ٣ أشهر .

وفى ٢ك١٦٤٢/٢/٢ ولد ولى عهد – شهزاده (أمير) محمد وبعده عدة أمراء ، وانتهى بذلك كابوس احتمال انقراض السلالة العثمانية الذى استمر سنتين . إن وحدة وقدرة الإمبراطورية تستند على بنى عثمان . والكل يعلم دون تردد ، بأنه فى حالة عدم وجود بنى عثمان فإنها تنقسم وتتفرق . أبعد السلطان إبراهيم ندماء أخيه الكبير الذين سببوا انحرافه إلى حياة اللهو . لكنه انخرط هو بالتدريج فى نفس تلك الحياة . أفسدت أخلاقه المداواة التى جرت له لكى يحصل على ابن ، وتقديم جاريات عديدات . كانت الكتابات التى صدرت بشأنه عبارة عن مبالغات من تلفيقات المؤرخين الذين لايلتزمون ، وأكثر ماكتبوه بعيد عن الحقيقة . لم يكن لمرضه علاقة بالجنون أبدا . أما عهده الذى استمر ٨ سنوات فقد سمى بـ « صامور دورى » ، وصامور نوع من الفرواى « دور الفرو » وهذا التعبير كناية عن الفخفخة ، واللهو والسفاهة .

عين الوزير سميز محمد باشا قائدا عاما (١٦٤٢/٢/٣) وأرسل لاسترداد آزاك (Rostov) التى انتقلت ليد الروس فى ١٦٣٧/٧/٥ محمد باشا كان كبير السن نوعاً ما . هدم الروس القلعة وانسحبوا . شيد الباشا القلعة مجددا . فى صيف ١٦٤١ جرت غارة جديدة وكبيرة على Bavyera (هامر ، ١٠ ، ١٠) . وفى صيف عام ١٦٤٢ أحرق قبطان دريا (مشير البحر – أكبر رتبة بحرية) كوجوك بيالة باشا ، سواحل كالابريا Kalabriya الإيطالية التابعة لإسبانيا (هامر ، ٣٣/١٠) . وفى ١٦٤٢/٥/١٤ توفى الشاه صافى الأول بعد سلطنة دامت ١٤ سنة و٣ أشهر و ١٨

يوما كثالث حاكم ذى قدرة فى العالم بعد بنى عثمان وبنى تيمور . وجلس بعد الشاه الصفوى الـ ٧ لمدة ٢٥ سنة ابنه البالغ ٩ سنين الشاه عباس الثانى . إن دور التوقف الذى بدأ بالشاه صافى الذى توفى فى سن ٣٤ ، وظهر بشكل واضح فى دور الشاه عباس الذى يكتب الشعر بالتركية والفارسية سبب تحول السياسة العثمانية نحو أوروبا .

أعدم كانكش قره مصطفى باشا بالذى استمرت صدارته فى عهد السلطانين ، مدة ٥ سنوات و شهرا و ٨ أيام ولم تطل صدارة أى شخص منذ وفاة صوقوللو عام ١٥٨٩ كما طالت صدارته (١٦٤٤/١/٣١) . وأعطى السلطان قليل التجربة السلطة لوزراء لاقيمة لهم . وفى البداية صار محمد باشا الذى يسمى « سلطان - زاده ، جوان قابوجى باشى ، سمين » صدرا أعظم ، وهذا ابن بنت بنت سليمان القانونى . كان شديد التملق . وهو أحد الذين رغبوا إليه حياة السفاهة . وبوفاة شيخ الإسلام يحيى أفندى بعد سقوط قره مصطفى باشا بـ ٢٧ يوما (١٦٤٤/٢/٢٧) فقدت الدولة عنصرا آخر من عناصر التوازن الكبيرة . وأخذ يشغل فى بعض الأوقات مقام المشيخة (الوظيفة المهمة الثانية للدولة) أشخاص غير لائقين . كان يحيى أفندى عند وفاته فى سن ٩١ عاما وشهر ، شغل مقام المشيخة ٣ مرات لمدة ١٨ سنة ، وشهرين و ٢٤ يوما (وهو الخامس بين كافة شيوخ الإسلام فى طول مدة بقائه فى الوظيفة) . كان رجل دولة مثقفا سمحا ، مفرط الذكاء . من أكبر شعراء الغزل فى الشعر التركى . مئات الألوف اشتركوا فى تشييع جثمانه . أقيمت صلاته فى مسجد فاتح بزحام كبير ملأ الشوارع .

وفى ١٦٤٥ ، أرسل Aleksiy الأول من عائلة رومانوف ، البالغ سنه ١٥ عاما إلى السلطان هدايا بالغة القيمة ، وأبلغه أنه جلس على العرش بلقب القيصر الثانى . هنأه البادشاه قائلا: بأنه يعترف به على أساس أنه « ملك موسكو » Mosku وأخطره فى الكتاب الهمايونى « أرسلوا الضرائب التى كانت ترسل فى القديم إلى خان قرم كالمعتاد وفى موعدها » وتحرك جيش قرمى ووصل إلى مكان قريب من جنوب روسيا ، لإخطار القيصر الجديد (هامر ، ١٠ ، ١٣٠) .

عزل سمين أحمد باشا ، ذليلاً بعد سنة و ١٠ أشهر و ١٧ يوما (١٦٤٥/١٢/١٧) . وصار الباش دفتردار (وزير المالية) صالح باشا ، صدراً

أعظم . وبعد بقائه فى وظيفته مدة سنة و ٩ أشهر أعدم (١٦٤٧/٩/١٦) . صار صدراً أعظم لمدة ٥ أيام فقط ، الوزير موسى باشا من مارشالية البحر السابقين ثم عين مكانه هزار بارة أحمد باشا الذى صار وزيرا ثانيا قبل ٥ أيام (١٦٤٧/٩/٢١) . وهو شاب ، مُراء ، متملق .

٥٢) حربا البندقية وكريت (١٦٤٥ - ١٦٤٨)

إنه مما يدعو إلى الدهشة أن ترضى دولة عالمية ، لها أسطول دائم فى المحيط الأطلسى الذى يمتد إلى إندونيسيا بأن تكون جزيرة كريت التى تقع فى متناول يدها لدى دولة مثل البندقية ، تبلغ مساحة كريت قدر قبرص ، لكنها جبلية أكثر منها بكثير ، مما يجعلها ملائمة جدا للدفاع ، معظم سكانها يتجمعون فى القسم الشمالى منها . الجزر تعزل بحر (إيجة) عن البحر الأبيض ، ومن الجنوب تسد بحر جزر الأرخبيل . تقترب حافتها الشمالية - الشرقية من الأناضول بمسافة ١٨٠ كم تقريبا . وتبعد عن مورا ٩٥ كم . فتحها المسلمون العرب وأسسوا فيها إمارة عربية دامت ١/٥ قرن ، وفى عام ٩٦١ استرجعها البيزنط من المسلمين . ولاختلاط الدم العربى ، فإن الشعب المحلى يختلف عن بقية اليونانيين . وفى ١٢٠٢ انفصلت عن البيزنط وأصبحت مستعمرة للبندقية . عامل البندقيون وهم كاثوليك إيطاليون الشعب الروم الأرثوذكس « معاملة الكلاب » . وأصبح الرهبان الأرثوذكس فى وضع لايتمكنون معه من القيام بشعائر مذهبهم ، فرضت ضرائب باهظة على الشعب ، كانت تطبق عليهم معاملة استعمارية ظالمة (Hippolyle Noiret, Documents Inédits Pour Servir à l'Histoive de la Domination Venitienne en Créte, Paris 1892, S.V, vl; Perrot, L'llede Créte . Paris 1867, S. 151)

ثار الروم فى الجزيرة ٢٠ مرة خلال الـ ١٥٠ سنة الأخيرة . كانت كل ثوراتهم تسفر عن مذابح جماعية . كانت البندقية تُبقى فى الجزيرة فى الأوقات الاعتيادية ٢٠٠٠٠ جندى وأسطولا كافيا وتعزز قواتها هذه عندما تكون فى حالة حرب مع العثمانية . كان آيدن أوغلو عمر بك قد قصف كريت فى حملته البحرية عام ١٣٤١ .

أما أول غارة للأسطول العثمانى فكانت فى ١٤٢٧ . واعتبارا من ١٤٥٣ أخذت البندقية فى تحصين الجزيرة تجاه الخطر العثمانى ، وسعت لأن تجعل من كاندية Kandiye ، خاصة قلعة لايمكن إسقاطها . وكان بربروس خير الدين باشا قد حقق فى السنتين المتعاقبتين ١٥٣٧ و ١٥٣٨ إنزالين كبيرين على الجزيرة وقصف كاندية ، وصعد إلى سواحل Resmo ودخل Suda وخرب خانيا Hanya . وفى ١٥٦٧ نفذ إنزالاً جديداً . كان السلطان مراد عازما على حل هذه المشكلة . وعند نشوب الحرب العثمانية — البندقية الجديدة كانت كريت (بالعربية اقريتش ، باليونانية : كريتى Kriti) قد بقيت تحت الحكم البندقى مدة ٤٤١ عاما .

قرر الديوان فتح كريت على أثر استيلاء قراصنة مالطيين على سفينة تركية فى تموز عام ١٦٤٤ خارج جزيرة كارباتوس Kerpe فى طريق إستانبول – إسكندرية وبيع قسم من الغنيمة – خلافا للمعاهدات المرعية – فى ميناء خانيا فى كريت ، وتحصيل البندقية ضريبة عن هذا البيع ، وإذاعتها هذا الخبر على أوروبا . أذاعت العثمانية بأن الحملة تقصد فتح مالطة . كانت جزيرة كريت هى الأراضى الوحيدة لجمهورية البندقية فى البحار المفتوحة . ورغم تصديق البندقية هذه الرواية إلى حد ما ، أرسلت ٢٣ سفينة مليئة بالجنود والمهمات لتقوية الجزيرة .

كان السلطان إبراهيم يذهب يوميا إلى الترسخانة (ميناء صنع السفن) ويشرف على الاستعدادات . وفى ١٦٤٥/٤/١٩ أعلن بصورة رسمية بأن الحملة ستكون على مالطة ، أعطيت القيادة العليا لمشير البحر (قبطان دريا) الوزير يوسف باشا ، ووزيرين مساعدين له . تحرك يوسف باشا من إستانبول فى ٣٠ نيسان (١٦٤٥) مع ١٠٦ (قدرغة) سفينة و ٣٠٠ ناقة جنود و ٧١٠٠٠ جندى و ٥٠ مدفع حصار و ٣٠٠٠٠ فورس . مكث ٣١ يوما فى نافارين منتظرا أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب . وفى ٢١ حزيران جمع الأميرالات على ظهر سفينة القائد وفتح كيس القذيفة المختوم وقرأ الخط الهمايونى للبادشاه ، عندها علم الأميرالات بأن الحملة التى كانوا يظنون أنها ستكون على مالطة ستتجه إلى كريت .

وخلال ٣ أيام وصلوا إلى كريت من نافارين وشرعوا فورا فى نثر الجنود على البر . استمر حصار خانيا ٥٥ يوما من ٢٧ حزيران إلى ٢٢ آب (١٦٤٥) . كان يحمى المدينة ٣٧٥ مدفعا (هامر ، ١٠ ، ٩٧ ، ١٠٠) . كانت الأسوار على

ـرجة من السمك بحيث يمكن لـ ٥ خيالة من المسير عليها جنبا إلى جنب بكل راحة . أما فى المنحدر الواقع خلف الأسوار فبإمكان ٢٠ خيالا المسير جنبا إلى جنب فوقها . عمق الخندق الملىء بالماء الذى يحيط بالقلعة ١٨ مترا وعرضه ٨٦ مترا . ذخائر القلعة محفوظة فى مخزن محاط بالرصاص (هامر ، ١٠ ، ١٠٠) . كان يدافع عن خانيا الجنرال نافاكيرو Navagiero .. ومع كل هذا استسلمت هذه القلعة أركب كافة البندقيين مع نسائهم وأطفالهم وحاجياتهم التى يمكنهم حملها على ظهر ٥ سفن تركية وأرسلوا إلى كاندية مخترقين الجيش التركى . ولأن الروم المحليين ، وبقية اليونانيين أجمعهم من التبعة العثمانية ؛ فقد استقبلوا الأتراك بسرور حقيقى كبير ، انتقلت كافة مدافع البندقيين ليد العثمانية . تم الاستيلاء على أهم قلعة ومدينة فى الجزيرة بعد كاندية . لكن يوسف باشا كرر الخطأ الذى وقع فيه سفنديار أوغلو فى محاصرة مالطة عام ١٥٦٥ ، فبدلا من ذهابه إلى القلعة الأولى للجزيرة أغار على القلعة الثانية . وكانت فكرته أنه فى حالة سقوط هذه القلعة تضعف القوة المعنوية لكاندية مركز الجزيرة ، وقد كان هذا حسابا خاطئا أدى إلى إطالة الحرب إلى ربع قرن .

تلقت أوروبا إنزال كريت بالدهشة . قدمت دول كثيرة مساعدات عسكرية إلى البندقية ، وأخذت المساعدات فى الازدياد كلما مضى الوقت . كان Girolamo Morosini ، ينتظر فى عرض البحر مع الأسطول البندق مراعيا أن يكون بعيدا عن الأسطول الهمايونى ، وكان يستعد للإنزال على الجزيرة ، فى حالة انسحاب الأتراك ، وفى ٢١ ت١ ، غادر الأسطول الهمايونى كريت التى ظل فيها مدة ٤ أشهر إلا ٤ أيام . وأبقى كوجوك حسن باشا بكلربك روملى مع ١٢٠٠٠ جندى للمحافظة على خانيا ، عادت أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس إلى أسسها . لم يتمكن يوسف باشا من الاستيلاء على الأسطول البندق الذى تسانده أساطيل الحلفاء ؛ رغم تتبعه له حتى Cerigo (بالتركية جوها) ، ولو أمكن إفناء أسطول العدو لانتهت الحرب ولاستكمل فتح كريت . جاء يوسف باشا إلى إستانبول بعد شهر ١٦٤٥/١١/٢٠ . إلا أنه أعدم بعد ٦٣ يوما نتيجة المؤامرات التى دبرها رجال الدولة الذين يحسدونه (١٦٤٦/١/٢٢) .

صار الوزير الثانى حسين باشا محافظا لخانيا (١٦٤٦/٢/٢) ومن ثم قائدا أعلى على كريت (١٦٤٦/٨/١٢) وهو أكبر عسكرى فى هذا العصر من الذين كونهم

السلطان مراد الرابع . صار قائدا أعلى ، على أثر وفاة الصدر الأعظم السابق سمين محمد باشا الذى توفى نتيجة عدم تحمله ويلات الحرب فى الجزيرة . وبسبب بدء الفوضى فى إدارة الدولة فى إستانبول .

لم يعد الجيش العثمانى الموجود فى كريت يتسلم من المعونات إلا القليل . أما البندقيون فقد انهالت عليهم المساعدات من كافة أوروبا . وأصبحت كريت ساحة حرب بين شعوب أوروبا والعثمانية . فتحت Resmo المدينة الثالثة للجزيرة (١٦٤٦/١١/١٥) .

وفى السنة التالية بدأ حصار كاندية (١٦٤٧/٧/٧) . جاء المشير البحرى (قبطان دريا) فضلى باشا وحصل على إمدادات (١٦٤٧/٩/٢٨) ، وانتصر المشير البحرى الآخر عمار – زاده محمد باشا على الفينيقيين فى المعركة البحرية أيبسارا Ipsara (١٦٤٨/٣/٩) غرقت ستة وعشرون سفينة (قدرغة) ومات الأميرال الكبير Grimavy (هامر ، ١٠ ، ١٤١) لكن كاندية لم تسقط ، كما لم يتمكنوا من إزاحة الأسطول البندقى من بحر الأرخبيل ، بل إنه تجرأ على القدوم إلى مدخل مضيق جناق قلعة . أغلقت مرحلة حرب كريت التى جرت فى عهد السلطان إبراهيم . فتحت أواسط وغرب الجزيرة بإراقة دماء عثمانية غزيرة . كان القسم الشرقى لايزال بيد البندقيين .

٥٣) خلع السلطان إبراهيم (١٦٤٨/٨/٨)

بدأ أغوات التشكيلات فى التكتل ، وتشكيل عصبة مجددا ونهب الدولة حاول السلطان إبراهيم التخلص من الأغوات ، ولكنهم علموا بمقصده . حدثت ثورة . اضطر إلى عزل الصدر الأعظم هزار – بارة أحمد باشا (١٦٤٨/٨/٧) الذى مزقه العصاة إلى قطع . وصار الوزير الصوفى المولوى غير المناسب قليل العقل الظالم المسمى قوجا محمد باشا الكبير السن والمتآمر مع العصبة .. صدراً أعظم . دامت صدارة أحمد باشا ١٠ أشهر و ١٦ يوما . كانت تقف وراء الثورة السلطانة كوسم ، التى ترغب فى أن تكون نائبة السلطنة . خُلع السلطان إبراهيم ، وسقط حاكم غير قدير إلى حد كبير ، لكن وجوده كان سيمنع – على الأقل – الكثير من

سوء التصرف ، أصبحت الدولة عرضة لكل سوء تصرف وفوضى ؛ لجلوس طفل على العرش . « لم يكن السلطان إبراهيم ظالما كالسلطان مراد الرابع ولاأحمق كالسلطان مصطفى الأول . ولإظهار قدرته الجنسية أنجب أكثر من ١٠٠ ولد كالسلطان مراد الثالث . كتب المؤرخون كثيرا عن سفاهته وفضائحه ، ولم يكن هذا صحيحا تماما ؛ فسفاهته كانت مقصورة على شخصه ، أما الدولة فلم تتأثر كثيرا بذلك ، كما أن الدولة لم تتعرض على أيامه إلى أى تأثير خطر .. لكن وقوعه تحت سيطرة النساء والخليلات وحياة السفه .. أدى إلى وصف معاصريه له بالسوء » (فون هامر ، ١٠ ، ٢) .

كان عمر السلطان إبراهيم الذى قتل بعد ١٠ أيام من خلعه يتجاوز الـ ٣٢ بـ ٩ أشهر و ١٣ يوماً . دفن فى قبره الكائن فى رواق جامع أياصوفيا ، إلى جانب عمه مصطفى الأول . ٣ من أولاده جلسوا على العرش الواحد تلو الآخر ، مجموع سلطنتهم ٤٦ سنة و ٥ أشهر و ٢٩ يوما : محمد الرابع (١٦٤٢/١/٢ - ١٦٩٣/١/٦) ، سليمان الثالث (١٦٤٢/٤/١٥ - ١٦٩١/٦/٢٢) وأحمد الثانى (١٦٤٣/٢/٢٥ - ١٦٩٥/٢/٦) ابنه الآخر الشهزاده سليم توفى بأجله وعمره ٢٥/٥ سنة . وتوفى له من ناحية أخرى ٨ أبناء و٣ بنات عند بلوغهم سنة وسنتين . بناته البالغات هن : السلطانة أم كلثوم التى تزوجت بوزير واحد (ك١٦٤٢/٢ - ١٦٥٥) ، السلطانة فاطمة التى تزوجت بـ ٣ وزراء مختلفين (أيلول ١٦٤٢ - ١٦٨٢؟) ، السلطانة عاتكة التى تزوجت بوزيرين (١٦٤٦ - ١٦٨٦) ، السلطانة جوهر - خان التى تزوجت بـ ٣ وزراء (١٦٤٢ - ١٦٩٤/١٠/٢٧) ، السلطانة بكخان التى ولدت مع محمد الرابع من نفس الأم وتزوجت بـ ٣ وزراء اثنان منهم شغلوا وظيفة صدر أعظم (١٦٤٥ - ١٧٠١/٣/٤) ، السلطانة قاية التى تزوجت بوزير واحد (١٦٤٢؟) ، السلطانة عائشة التى لم تتزوج أبدا (١٦٤٢ - بعد ١٦٧٥) .

٥٤) سلطنة الأغوات (١٦٤٨/٨/٨ - ١٦٥١/٩/٣)

أجلس على العرش الابن الكبير للسلطان إبراهيم وولى عهده الذى تجاوز عمره الـ ٦ سنوات بـ ٧ أشهر و٨ أيام ؛ السلطان محمد خان الرابع . أصبحت نائبة

السلطنة السلطانة – الجدة كوسم مهبيكر ولم تصبح والدته الشابة السلطانة – الوالدة خديجة تارخان . وتسمى فترة نيابتها للسلطنة التى استمرت ٣ سنوات و ٢٦ يوما – وهى الدورة الأولى لعهد سلطنة محمد الرابع – « سلطنة الأغوات » فقد سيطر أغوات الإنكشارية وجنرالات العصبة junto على زمام الحكم كله متجاوزين بذلك الحكومة ومخالفين أحكام الدولة . كانت غايتهم أن يكونوا أغنياء بجمع المال ، أما غاية السلطانة كوسم فكانت بث سيطرتها وإعطاء الأوامر وإدارة الدولة . كانت تعشق السلطة والسياسة وأسيرة لهما ، ولم تكتف بخلع ابنها من العرش ، بل سلمته بعد ١٠ أيام إلى الجلاد وقتلته (١٦٨٤/٨/١٨) لأنه كان متهما بتهديدها بإبعادها عن السياسة ونفيها إلى رودس Rodos فى حالة استمرارها فى التدخل فى شئون الدولة (نعيما ، ٤ ، ٣١٧ ؛ هامر ، ١٠ ، ١٦٥ ، ١٧٧) . دبرت هذا الحادث بمهارة فائقة وسرية تامة ووجهت تشكيلات (أوجاق) الكابوكولو ، العلماء ، الوزراء بدراية منقطعة النظير ، إلى حد أن الشعب أشفق عليها – مخدوعا – لما تعرضت له من مصائب بخلع ابنها وقتله . ولد خنق السلطان ابراهيم عنوة بحبل حريرى ، شعور المحبة الفائقة تجاهه . ظهر المطالبون بدم السلطان إبراهيم ، وتضعضعت مكانة العصبة وخاصة تشكيلات القابو قولو ؛ فقد ولد قتل سلطان ثان بعد مضى ٢٦ عاماً على قتل أخيه الكبير السلطان عثمان الشاب – النفور . ثار السباهيون ودحرتهم الإنكشارية بشكل دموى . تقاتل صنفا الجيش الهمايونى الذى كان قدوة للعالم فى نظامه فى حرب ميدانية وفى ساحة السلطان أحمد وأمام سراى البادشاه وقد مات مئات القتلى .

عزل صوفى محمد باشا الذى يناهز عمره الـ ٨٠ عاما ، بعد ٩ أشهر و ١٥ يوما (١٦٤٩/٥/٢١) وخنق بعد عدة أيام . عُيّن أحد أغوات الإنكشارية ، قره مراد أغا ، رغم أنه برتبة بكلربك (فريق) ولم يحصل على رتبة وزير (مشير) صدراً أعظم خلافا للأصول المتبعة . كان هذا هو أقدر أفراد العصبة ، أشرفهم ، عسكريا جيدا ورجل دولة ذكيا . قدم الاستقالة إلى نائبة السلطنة فور تهديده بالقتل ، عند إصراره على عدم تحقيق رغبات أصدقائه غير المشروعة (١٦٥٠/٨/٥) . استمرت صدارته سنة و شهرين و ١٥ يوما . صار الصدر الأعظم داماد ملك أحمد باشا أحد الوزراء والذى نشأ على يد مراد الرابع وكان صهرا له . لم يتمكن أحمد باشا اللين

بعد مراد باشا الصلب من الوقوف أمام الفوضى . وبعد هذا ثار الشعب الذى نهبته العصبة . استقال ملك باشا بعد صدارة دامت سنة و ١٧ يوما (١٦٥١/٨/٢١) . صار أباضة سياوش باشا وزيراً أعظم . لم ينجح هذا التدبير المسكن فى إطالة سلطة الأغوات والسلطانة كوسم أكثر من ١٣ يوما ؛ لأن ثورة الشعب لم تكن ضد ملك باشا ، بل كانت ضد جنرالات العصبة الذين لم تكن السلطانة كوسم تستطيع سحبهم من مسرح السياسة ، لأنها لاتملك القدرة على ذلك ، ولأن ذلك لم يكن يلائمها ، لأن سلطتها هى كذلك ستنتهى ، فهى شريكة مع العصبة فى جرائم عديدة ؛ ولأنه كانت وراء الثورة السلطانة - الوالدة خديجة تارخان أم البادشاه الطفل . فإن السلطانة كوسم (التى تعلم ذلك) أرادت لكى تكسر شوكة سلطة زوجة ابنها وتعزلها من عرش السلطانة - الوالدة (والدة سلطان) - قتل حفيدها محمد الرابع الذى لم يكمل بعد سن الـ ١٠ سنوات ، وإجلاس ولى عهد - أمير سليمان الذى هو من أم أخرى . كشفت هذه الخطة القذرة . خنق رجال السلطان والسلطانة - الوالدة السلطانة كوسم ، حيث اقتحموا منزلها ليلة ٣/٢ أيلول (١٦٥١) .

كانت السلطانة - الوالدة الكبيرة (الجدة) كوسم مهبيكر أشهر نساء التاريخ العثمانى بأجمعه ، فى الـ ٦٢ من عمرها . دفنت فى مقبرة السلطان أحمد ، إلى جانب زوجها أحمد الأول وابنها مراد الرابع . كان قد مضى ٤٧ عاما بالضبط على زواجها بأحمد الأول عام ١٦٠٤ . كانت السلطانة - الوالدة (والدة سلطان) خلال مدة سلطنة ابنيها مراد الرابع وإبراهيم خان مدة ١٧ سنة و ٦ أشهر و ١٢ يوما و ٨ سنوات و ٥ أشهر و ٢٨ يوما = جمعا ٢٤ سنة و ١٠ شهر و ٢٨ يوما + ونائبة السلطنة خلال فترة سلطنة حفيدها محمد الرابع مدة ٣ سنوات و ٢٦ يوما . ولما كانت نائبة السلطنة كذلك خلال فترة طفولة ابنها مراد الرابع مدة ٨ سنوات ، ٨ أشهر و ٨ أيام ، فيكون مجموع رئاستها الدولة العالمية بصورة رسمية وبصفة نائبة ١١ سنة و ٩ أشهر و ٤ أيام . كانت ذكية إلى درجة استثنائية . ماكرة مراوغة ، أستاذة فى صنع خطط سياسية ومؤامرات متعددة الوجوه ، مؤثرة ومقنعة فى كلامها . كانت تعنى بإرضاء الشعب ، لذا فقد تركت مؤسسات خيرية كثيرة العدد إلى درجة لايستوعبها العقل . انتقلت ثروتها العظمى إلى الخزينة .

كانت المعونات إلى كريت بدرجة غير كافية خلال فترة سوء التصرف فى شئون

إدارة الدولة بسبب الثورة الداخلية فى إستانبول . القتال الدموى مستمر فى الجزيرة .. ولأول مرة منذ سنتين أخذ دلى حسين باشا معونة من قبطان دريا وزير داماد فوينوك أحمد باشا . لكن القبودان دريا (مشير البحر) استشهد عندما كان يقصف قلعة Suda من البحر (١٦٤٩/٧/٢٨) . شدد حسين باشا الضغط على كاندية . قتل الكونت Colloredo والى كريت العام القائد العام أثناء خروجه من القلعة (١٦٤٩/٨/٣٠) . حصل حسين باشا ، على شهرة واسعة فى أوروبا . صنع الرسامون له ولحصانه المسمى قايتاس صورا كبيرة طبعت ثم بيعت . أصيب برصاصتين الأولى ثقبت واخترقت فمه وخرجت ، والأخرى بقيت فى فمه . ربط فمه بالمنديل واستمر فى القتال .

٥٥) سنوات نيابة السلطانة – الوالدة تارخان (١٦٥١/٩/٣ – ١٦٥٦/٩/١٥)

كان سن نائبة السلطنة الجديدة السلطانة – الوالدة خديجة تارخان ٢٤ عاما ، كانت جارية ، عنيت بتربيتها وتثقيفها أخت زوجها السلطانة عاتكة ، إحدى بنات أحمد الأول وقدمتها إلى أخيها إبراهيم . كانت من أصل أوكرانى مثل السلطانة خرم « طويلة القامة ، لطيفة القوام ، زرقاء العينين ، ذهبية الشعر ، بيضاء صافية اللون » (Petit de la Croix ، ١ ، ٥٥٦) وبولادتها مولودها الأول السلطان محمد نجت السلالة من الانقراض . لم يترك الشعب ميدان سلطان أحمد خاليا منذ ليلة فقدان السلطانة كوسم حياتها . كانوا يطالبون برءوس أغوات العصبة . الذين اختفى كل واحد منهم فى مكان . كان يقبض كل يوم على واحد أو اثنين منهم ويعدمان . أعدم ٣٨ منهم وانتقلت ثرواتهم غير المشروعة إلى الخزينة (Ricaut ، ١ ، ٤٨ ، ٥٨ ، ٧٢) وجدوا لدى أحد جنرالات الإنكشارية الذى يسمى قول كاهيه سى ، من الدراهم النقدية فقط خمسة ملايين سكة ذهبية وفضية ، ويبين هذا مبلغ مانهب من الإمبراطورية خلال ٣ سنين .

انتهت سلطة الأغوات ، لكن نظام الدولة خرج عن طوره . كانت النائبة الشابة مهتمة بالبحث عن الصدر الأعظم الذى يمكن أن تعتمد الدولة عليه ، لكنها لم تجد

ضالتها . أعدم سياوش باشا بعد ٩ أشهر . وأخرج درويش محمد باشا (١٦٥٣/٣/٢١) بعد سنة و ٧ أشهر و ٨ أيام بسبب إصابته بالفالج ، وعلى أثر ذلك جاء داماد أبشير باشا (١٦٥٣/١٠/٢٨) الذى أعدم بعد ستة أشهر و١٤ يوما ثم جيء للمرة الثانية بقرة مصطفى باشا (١٦٥٥/٥/١١) وباستقالته بعد ٣ أشهر ، ٩ أيام (مجموع صدارتيه ١ سنة و ٥ أشهر و ٢٤ يوما) جيء بداماد سليمان باشا (١٦٥٥/٨/١٩) وباستقالته بعد ٦ أشهر و ١٠ أيام جاء للصدارة الوزير الثانى القائد الأعلى دلى حسين باشا (١٦٥٦/٢/٢٨) ، وبعد ٦ أيام ، وقبل مجيئه من كريت إلى إستانبول وللضرورة ؛ أعطيت الصدارة إلى مصطفى باشا (١٦٥٦/٣/٥) . وبعد صدارته التى استمرت ٦ ساعات وهى أقصر مدة صدارة فى التاريخ العثمانى ، تصدر سياوش باشا للمرة الثانية وعلى أثر وفاته بعد شهر و ٢٢ يوما (مجموع صدارتية شهران و ٢٩ يوما) ، تصدر جانكلى (من صمصون) بوينو أكرى (مجروح الرقبة) محمد باشا (١٦٥٦/٤/٢٦) ، كل هؤلاء أخذ نصيبه من السلطنة ، ولكن لم يستطع واحد منهم تأمين النظام الذى كانت تنشده نائبة السلطنة . عزل بوينو أكرى محمد باشا البالغ عمره ٨٠ عاما بعد ٤ أشهر و ١٩ يوما لعدم تمكنه من إبعاد الأسطول البندقى من باب مضيق جناقلعة .

كانت حرب كريت مستمرة . اشتبك الأسطول الهمايونى الذى يقوده قبودان دريا الصدر الأعظم الأسبق مراد باشا مع الأسطول البندقى فى فتحة مضيق جناقلعة . وكانت قطع الأساطيل التى أرسلت من كل من الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ؛ منضمة إلى الأسطول الهمايونى . دام القتال مدة ٦ ساعات . غلب البندقيون الذين خسروا سفينة الأميرالية الكبيرة وسفينة الأميرالية الثانية ، و ٤ سفن أخرى و ٣٠٠٠ وبضع مئات من الجرحى . تعقب الأسطول العثمانى البندقيين إلى جزر Kikland . أرسلت قطع أساطيل الجزائر ، تونس ، طرابلس الموجودة فى كريت إلى أقطارها . حمل الأسطول الهمايونى الذى قدم إلى إستانبول معه ٢٥٠٠ أسير بندق . جرى القتال البحرى فى فتحة جناقلعة بتاريخ ١٦٥٤/٥/١٦ (هامر ، ١٠ ، ٢٤٠ – ١ ، ٣٤٢) . لكن الأسطول البندقى تمكن من لم شعثه ، وبعد سنتين فى ١٦٥٦/٦/٢٦ جاء مرة أخرى إلى فتحة مضيق جناقلعة . تمكن البندقيون من إنزال جنود فى جزر بوزجه آدا ، لمنى وسمنديرك واحتلوها عندما تعرض الأسطول الهمايونى بقيادة قبطان

دريا (مشير البحر) داماد كنعان باشا لعاصفة جعلته يتفرق . كانت الخسارة البحرية هذه واستيلاء الجزر من الأسباب التى صاحبت سلطة كوبرولو والتى ولدت هياجا كبيرا .

تمكن نور الدين قرم (ولى العهد الثانى) عادل كيراى من الوصول إلى ضواحى موسكو . سدد القيصر الروسى ١٠٠٠٠٠ سكة ذهبية وعقد صلحا مع قرم . زادت بولونيا ضريبتها السنوية إلى قرم إلى ٢٤٠٠٠٠ سكة ذهبية (حليم كيراى ، قرم تاريخى ، ص ١٠) .

كانت الوالدة تارخان فى محاولة للبحث عن مخرج للدولة ، مع مستشاريها السريين أمثال سرمعمار قوجا قاسم آغا فوجى بك ، صولا قزاده ، شامى زاده محمد أفندى ، وكان قاسم أغا البالغ عمره ٨٠ عاما يلقن الوالدة ويوصيها بإصرار بالوزير المسن وغير المشهور كوبرولو محمد باشا منذ مدة طويلة . وفى النهاية رضيت نائبة السلطنة بمقابلة كوبرولو باشا بتأثير مستشاريها الذين يفوقون قاسم أغا علما وفنا . قابلته بشكل سرى وخاص . دهشت عندما وضع الوزير الكهل شروطا عديدة لقبوله الصدارة . لم يسبق فى النظام العثمانى أن يسرد الوزير شروطا لقبوله الصدارة . تمكن الوزير الكهل من إقناع نائبة السلطنة بأنه سوف لن يتمكن من أداء الخدمات المنتظرة للدولة إذا ماتصدر دون أن يعطى الصلاحيات المطلقة التى طلبها (١٦٥٦/٩/١٥) . بدأ دور كوبرولو (عائلة كوبرولو) الذى سيستمر مدة ٢٧ عاما حتى ١٦٨٣ . أعلن رشد محمد الرابع عند تجاوز سنه الـ ١٤ بـ ٨ أشهر و ١٦ يوما ، وانتهت فترة نيابة جدته (أم أبيه) وأمه التى استمرت ٨ سنين و شهرا ، ٨ أيام .

كانت نيابة الوالدة تارخان قد استمرت ٥ سنوات و ١٢ يوما . وعندما تركت السلطة كانت فى الـ ٢٩ من عمرها . أما صفتها السلطانة – الوالدة فقد استمرت مدة ٣٤ سنة و ١٠ أشهر و ٢٨ يوما لغاية وفاتها وبلوغها الـ ٥٦ من عمرها فى ١٦٨٣/٧/٥ . وهو أطول مدة لصفة السلطانة – الوالدة فى التاريخ العثمانى . تركت مؤسسات خيرية عظيمة جدا . لكن الخدمة التى أدتها إلى الدولة العثمانية قد سبقت بكثير حتى الآثار الخيرية التى تركتها . لم يكن لديها أى حرص شخصى . كانت تملك الشخصية والذكاء وحب الوطن ، والتضحية والشجاعة التى تؤهلها لحماية

هذه المصلحة بكفاءة . أعطت السلطة إلى كوبرولو . ولم تتدخل بعدها فى السياسة ، ولكنها استمرت فى تلقين دروس التضحية وحب الوطن إلى ابنها بصورة سرية حتى وفاتها . خلصت الدولة من فوضى مدهشة وفتحت دور « الكوبرولو » . أعدت لأبنها سلطنة ذات شوكة ، تشابه تلك التى فى عهد القانونى . على درجة من الذكاء تماثل ذكاء أم زوجها السلطانة كوسم ، لكنها لم تصرف ذكاءها مثلها إلى الشر وإلى الأمور الشخصية ، بل صرفتها إلى الخير وإلى صالح الدولة . شخصت ماهية الأضرار التى تكبدتها الدولة بسبب تدخل أم زوجها فى السياسة . عملت بكل مافى إمكانها لمنع تدخل نساء السراى فى السياسة ، ولم يكن ذلك سهلا أبدا ، بسبب كونها هى امرأة ، وعلى رأس جماعة النساء . وقد وفقت فى هذا إلى الدرجة التى أغلقت نهائيا الدور المسمى فى التاريخ العثمانى « سلطنة النساء » ، والذى كان يظهر بين

الفترة والأخرى خلال الفترة الزمنية المنحصرة بين عهد السلطانة خرم وعام ١٦٥٦ وهو تاريخ انسحابها من النيابة . لم يشاهد فى التاريخ العثمانى بعد ذلك أية امرأة والدة أو زوجة سلطان تتدخل فى شئون الدولة . اهتمت بتربية زوجة ابنها أمة الله كلنوش – التى ستكون السلطانة الوالدة لسلطانين – وربتها على هذه النشأة وزوجتها بابنها . علمتها ولقنتها واجبات الخاصكى (زوجة السلطان) السلطانة – الوالدة فى الدولة العثمانية العالمية بدقة ، وليس من بين هذه الواجبات ماهو ذو علاقة بالسياسة . لم يهتم المؤرخون بذكر هذه الخدمة بالذات للسلطانة تارخان . ومن آثارها التى تتذكرها الأجيال بالخير الجامع الفخم وسوق مصر المسمى « مصر جارشيسى » الذى شيده المعمار مصطفى أغا . دفنت فى أحد زوايا هذا الجامع الذى هو عبارة عن كلية عظمى .

٥٦) صدارة كوبرولو محمد باشا (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٦١/١٠/٣٠)

أعطيت لكوبرولو القيادة العليا (سردار أكرم) . كانت الشخصية التى اقتدى بها كوبرولو ، هى شخصية مراد الرابع . لكنه لم يكن لديه الثقافة العالية التى كانت لدى مراد الرابع . تمكن فقط من تطبيق سياسة الشدة التى اشتهر بها مراد الرابع . اتخذ سياسة الترهيب وإراقة الدم (دون مبرر مرات كثيرة) لتأمين سلطة الدولة .

ومع ذلك فقد كان داهية حقا ، حيث أنقذ الدولة من شفا هاوية ، وأدخلها فى الدور الذى يسمى فى التاريخ بدور « كوبرولولر » الذى يشبهه بعض المؤرخين بدور القانونى . جاء إلى جناقلعة وفتش كلا ضفتى المضيق . كان الأسطول البندق مقتربا جدا من المضيق . هدف شاب من جنود المدفعية على مخزن البارود فى سفينة الأميرالية الكبرى فأصابها بقذيفة مدفعية . انفجرت سفينة الأميرالية الكبرى وتناثرت فى الجو ، ونسف الأميرال الكبير Mocenigo الذى يسميه الأتراك « القبطان الأعور » . أكرم الصدر الأعظم ، المدفعى الشاب من الذهب ملء الحضن . انسحب أسطول العدو من أمام المضيق . اعتبر افتتاح دور سلطة الصدر الأعظم بمثل هذا الحادث فأل خير . تم فى ١ أيلول تخليص جزيرة بوزجة إدا وفى ١٥ ت٢ لمنى من الاستيلاء البندق .

كان أكبر ظلم وجور ارتكبه كوبرولو هو إعدامه الغازى حسين باشا . الوزير الأعظم السابق ، الوزير ٢ ، القائد الأعلى لكريت منذ سنوات عديدة ، البطل الوطنى . دعاه كبير عساكر دوره إلى إستانبول بحجة تكليفه الصدارة (١٦٥٨/١٢/٢٩) . سبب هذا الحادث حزن الشعب العميق . وصار لكوبرولو صيت مفزع . تولى القيادة العليا وأخذ على عاتقه حل مسألة أردل (Transilvanya) (١٦٥٨/٦/٢٣) .

استولى أمير أردل György Rakoczi الثانى (١٦٤٨ - ١٦٦٠) (الولادة ١٦٢٠) ، فى آذار ١٦٥٧ - على Krakovi العاصمة السابقة التى أخذتها بولونيا من وارشو ، وفى أيار أخذ Brest-Litovsk (Brezese) الواقعة شرق وارشو . كان الديوان يرى أن هذه الانتصارات فى صالح الدولة . لكن بعد مقابلة كوبرولو لسفير بولونيا الذى جاء يشكو له من أمير أردل أمر الأمير بإيقافه حركات بولونيا ، وإخلائه الأراضى البولونية ، وقطع علاقته مع السويد . أرسل Györqy الثانى رسله إلى إستانبول مستفسرا عن سبب تكديره ، فى الوقت الذى وسعت فيه العثمانية حدودها . غضب كوبرولو لهذا الاستفسار وأصر على تنفيذ أمره فورا ، أمر محمد كيراى خان قرم بدخول أردل . تمكن محمد كيراى من العثور قرب سواحل Vistül على جيش أردل المجرى المغرور بفوزه المتعاقب على بولونيا ، وأفناه (١٦٥٨/٧/٣١) . إلا أن هذا الحادث بدلا من أن يسبب إطاعة جيورجى الثانى سبب عصيانه السافر للدولة العثمانية .

كان حساب جيورجى الثانى هو سقوط كوبرولو كأسلافه من الصدور خلال مدة قصيرة والاتفاق مع الصدر الأعظم الجديد . ولم يفكر قط فى بقاء كوبرولو . دخل كوبرولو إلى أردل مستصحبا معه أمراء أفلاق وبغدان . وجاء خان قرم كذلك . أعلم ملك بولونيا الصدر الأعظم بأنه صادق وممتن للبادشاه وطلب حماية دولته من الأردليين . أخذ كوبرولو أردل الغربية بكاملها من الإمارة وألحقها بإيالة بودين (yanova, Arad, Sebes, Lugos) ظل كامل الإمارة تحت السيطرة العثمانية ، مدة سنين . لجأ جيورجى الثانى إلى ألمانيا ، وفى ١٦٦٠/٥/٢٢ مات (,Makkai Histoire de Tiansilvanie ، ص ٢٤١ - ٥) عين القبطان دريا (مشير البحر) الوزير كوسه على باشا سردار وصهر كوبرولو ، الوزير سيدى أحمد باشا ، مساعدين له وتمكنا من الاستيلاء على قلعة Varat (بالألمانية : Grosswardein بالرومانية : Dradea Mare بالمجرية : Varad) المهمة جدا والتى كانت تحت السيطرة الألمانية ، خلال حصار دام ٤٥ يوما (١٦٦٠/٨/٢٧) . تم اغتنام ٧٠٠ مدفع فى القلعة . وجعلت القلعة مركزا لإيالة جديدة ، ومن أجل مراقبة الأفلاق بشكل أدق طلب كوبرولو أن يسكن الفويفودا فى بخارست ، وليس فى عاصمة الإمارة Tarqoviste ، وهكذا أصبحت بخارست عاصمة لرومانيا (١٦٥٩/١١/١٢) . قلص كوبرولو الذى جعل من يانوفا (بالمجرية : Jeno) إيالة إمارة أردل ودفعها ضمن حدود ضيقة جدا . أخذ البروتستانت الموجودين فى الإمارة تحت حمايته ، كان هؤلاء البروتستانت من أصل كومان - قيبجاق الذين تنصروا سابقا ، أى أنهم من أصل تركى . توترت علاقات الباب العالى مع ألمانيا التى تساند عصيان أردل (نعيما ، ٦ ، ٣٠٢ - ٥٩) ؛ سلاحدار ، ١، ١٩٣ - ٢٢٠ ؛ أولياء ، ٦ ، ١٧ ؛ Iorqa ، ٤ ، ٩٢ - ١٠٢ ؛ Makkai ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ - ٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣) .

وفى هذه المرة أصبح كوبرولو « سردارا أكرم » فى مواجهة الجلاليين (١٦٥٨/١١/١٣) . اتفق العديد من البكلربك والسنجق بك فى الأناضول ، الذين يخشون كوبرولو وقرروا إسقاط الصدر الأعظم . طلب ١٥ بكلربك و ٥٠ سنجق بك من السلطان عزل هذا الصدر الأعظم الظالم ؛ فصلوا فى عريضتهم المظالم التى ارتكبها كوبرولو بالتسلسل واحدة بعد أخرى ، وأفادوا بأن غايته الوحيدة هى التخلص منهم وعدم إبقاء رجال دولة فى الدولة . ورشحوا للصدارة الوزير أحمد

باشا ، ابن طيار محمد باشا الصدر الأعظم لمراد الرابع الذى استشهد أمام أسوار بغداد . أعطى محمد الرابع هذه العريضة التى أرسلها الولاة العسكريون الذين يحكمون تقريبا كامل الأناضول وسورية ، إلى كوبرولو محمد باشا دون أن يبدى أية ملاحظة . تجمع العديد من البكلربك (فريق) والسنجق بك (أمير لواء) فى حلب . أعلن كوبرولو أن كافةالولاة الذين تركوا مراكز عملهم دون أخذ موافقة إستانبول وذهبوا إلى حلب .. عصاة . دعا الوزير مرتضى باشا ٣١ باشا إلى قصره فى حلب (القصر الحكومى) بحجة التفاهم فى مسألة كوبرولو خلال وليمة العشاء ، وقطع رءوسهم جميعا وسط الوليمة .

خشى كوبرولو ، من رد فعل إعدام ٣١ باشا مرة واحدة . أرسل الوزير بوشناق إسماعيل باشا بوظيفة « مفتش الأناضول » . ويروى أن إسماعيل باشا أمر بقتل ١٠٠٠٠ شخص بتهمة الجلالية . ويمكننا أن نقول إن عهد الجلالية قد أغلق بعد هذا التاريخ .

بسبب تدخل روسيا المتزايد فى شئون أوكراينا ، ولكون القسم الأكبر منها أراضى عثمانية تأزمت علاقة الدولتين . سار محمد كيراى بجيش قرمي - عثمانى . تمكن من العثور على الجيش الروسى فى Konotop فى نقطة عرض ٥٢° التى تتصل فيها حدود أوكراينا - روسيا البيضاء - روسيا شرق مستنقعات Pripet ، على مسافة ١٥٠ كم غرب جرنيكوف . كان الروس الذين يقودهم الأمير Trubeckoy ، ٣٥٠٠٠٠ جندى ، هزم هذا الجيش الذى لم يدرب أى تدريب عسكرى جدى ، بسهولة ، قتل ١٢٠٠٠٠ روسي وأسر ٥٠٠٠٠ ، وكان القائد بين القتلى . قطع هذا النصر على روسيا طريق أوكراينا لمدة نصف قرن (نعيما ، ٦ ، ٤٠٦ ومابعده ؛ هامر ، ١١ ، ٦٩ - ٧٣) . وفى ١٦٦١ ، تم فى أوكراينا إنشاء القلعة المسماة سد الإسلام أو دوغان كجيدى وأريد بذلك منع دخول الروس إلى أوكراينا والقفقاس الشمالية . أدت هذه القلعة - التى وصفها هامر تمثال عظمة الدور العثمانى وسط جرداء أوكراينا وصحراء التترستان (١١ ، ٧٩) - واجبها مدة طويلة ، اتضح من الرسائل التى ضبطت أن البطريق العالمى الأرثوذكسى فى إستانبول Parthenios الثالث تراسل مع روسيا ضد تركية . أعدم البطريق ، وأبطل كوبرولو الفرمان الذى يعطى البطريق درجة وزير فى البروتوكول والذى منحه السلطان الفاتح

للبطريق عام ١٤٥٣ ، وأنزله إلى بروتوكول بكلربك . سوف تعاد للبطريق امتيازاته السابقة بعد التنظيمات (E.Pitzipios, L'Eglise Orientole ، روما ١٨٦٦ ، ٣ ، ٨٣) .

وفى ١٦٥٦ جاءت رسل شاه جهان. حمل هدايا شاه جهان ، بادشاه الهند ، ٢٥ شخصا . كان شاه جهان ، يطلب بعض التسهيلات للحجاج القادمين من الهند ، والتضييق على إيران من الغرب ، وأحد معمارى القبب العثمانية (قبل فترة وجيزة شيد تاج محل أحد طلاب المعمار سنان) . وفى ١٦٥٨ أرسل محمد الرابع ، معان — زاده حسين بك سفيرا للهند . وخلال نفس العام ، خلع شاه جهان عن العرش بعد سلطنة رفيعة دامت ٣١ عاما وعن عمر يناهز الـ ٦٥ عاما . جاء مكانه ابنه أورنكزيب عالمكير شاه وهو حفيد تيمور فى البطن الـ ١٠ وبابور فى البطن الـ ٥ . وهكذا افتتحت سلطنة عالمكير شاه من مواليد ١٦١٨ التى ستستمر ٤٩ عاما .

نشب فى أواخر أيام كوبرولو ، أكبر الحرائق ، البلية الكبرى لإستانبول ، أكثر بلدان العالم — ذات البيوت الخشبية — زحاما (١٦٦٠/٧/٢٤) . تلف ثلث إستانبول الأصلية الكائنة داخل الأسوار . احترق ٨٠٠٠٠ دار و٣٠٠ سراى وقصر و٣٦٠ مسجدا و١٠٠ خان تجارى و٤٠ حماما عاما وماشابه ذلك من الأبنية الكثيرة العدد . مات أو جرح ٤٠٠٠ شخص ، تلفت أو تضررت آثار تاريخية مهمة . استمر الحريق ٤٩ ساعة .

توفى كوبرولو بعد صدارة دامت ٥ سنوات وشهرا و١٥ يوما (صباح ٣٠/ ١٠/ ١٦٦١) . توفى فى أدرنة . نقل إلى إستانبول ودفن قرب مسجده . كان عمره ٨٣ عاما . وبناء على وصيته أعطى محمد الرابع الختم الهمايونى إلى كبير أبنائه كوبرولو — زاده فاضل أحمد باشا .

٥٧) حرب ألمانيا (١٦٦١ - ١٦٦٤)

كان فاضل أحمد باشا أصغر رئيس وزراء فى تاريخ تركية عمره ٢٦ سنة . عنى أبوه الجاهل بتحصيله عناية فائقة ، تخرج من القسم العالى لمدرسة إستانبول ، صار مدرسا ، بكلربك ووزيرا. كان قد سافر إلى الأناضول ، سورية ، روملى . قضى

عام ١٦٦٢ فى الانشغال بشئون الإمبراطورية الداخلية ، وسنة ونصفا فى إستانبول وأدرنه ، فى تفهم شئون الدولة المركزية . ومع مافيه فإنه سيترك بعد الآن مهام مركزه إلى مرزيفونلى قرة مصطفى باشا بصورة دائمة ، ويكرس جهوده إلى الأمور الخارجية والحروب . مضى على عقد معاهدة سيتفاتوروك ٥٦ سنة و ٥ أشهر . حدثت خلال هذه المدة مع ألمانيا خلافات ، مناوشات موضعية ، اشتباكات لكنها لم تنقلب إلى حرب شاملة . أعلنت الحرب على ألمانيا (١٦٦٣/٤/١٢) على أثر إنشاء الألمان خلافا لمعاهدة سيتفاتوروك قلعة Serinwar (بالتركية ينى قلعة) على الحدود ، مقابل قلعة العثمانية وعدم هدمهم لها رغم إخطار الديوان .

تحرك الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) فاضل أحمد باشا من أدرنة (١٢ نيسان) ووصل المجر . الجيش الهمايونى المؤلف من ١٢٠٠٠٠ جندى ، ١٠٠٠٠٠ خيال قرمى و ١٥٠٠٠ مشاة قرمى ، عدا ذلك ، وحدات الصاعقة ، ١٢٣ مدفع صحراء ، وذخائر محملة على ٦٠٠٠٠ جمل و ١٠٠٠٠ بغل ، دخل سلوفاكيا من إستركون مجتازا الدونة (٣ تموز) . ورغم أن الجنرال Forgacs ، حاول وقف الاجتياز لكنه خسر أكثر من ٥٠٠٠ قتيل وأسير . حوصرت قلعة أويفار فى ١٨ آب (بالألمانية : Neuhausel بالسلوفاكية : Nove Zamky بالمجرية : UJvar) . أويفار التى انتقلت إلى العثمانية مرات عديدة ، حصنها الألمان وجعلوها فائقة الاستحكام لكى تصبح أقوى قلاع أوروبا ، تقع شمال - غرب بودابست ، على الشرق من فينا بـ ١١٠ كم ، ومن براتسلافا بـ ٨٠ كم . كان خان قرم محمد كيراى الرابع ، وفويفودات (أمراء) أردل ، بغدان ، أفلاق ضمن الجيش العثمانى . سلم الجنرال Forgacs القلعة بعد ٣٧ يوما (١٦٦٣/٩/٢٤) . انسحب جند الألمان من بين صفوف الأتراك وهم يعزفون الموسيقى وذهبوا إلى النمسا . قلبت فرق الصاعقة رأسا على عقب كلا من سلوفاكيا ، النمسا ، بوهيميا ، مورافيا ، سيليزيا ، بولونيا وحرقوا براتسلافا ووصلوا أمام فينا . أحدثت هذه الحملة والتى تسمى حملة أويفار السرور العظيم فى الإمبراطورية وأدهشت أوروبا من الناحية الأخرى (راشد ، ١ ، ٤١ - ٨) ، وبعدها استسلمت حوالى ٣٠ قلعة ألمانية : أهمهن Novigrad (٤ ت٢) و Nrutra (بالسلوفاكية : Nitra) فى شمال أويفار (١٨ ت٢) . أسست إيالة أويفار فى جنوب سلوفاكيا التى تشكلها السهول . تم الاستيلاء على

سلوفاكيا حتى جبال تاترا . ازدادت الدهشة عندما دخلت فرق الصاعقة Olmütz (بالجيكية : Olomoue) ، قلب جيكوسلوفاكيا (٢ أيلول) .

قضى كوبرولو - زاده الشتاء فى بلغراد . وتحرك فى الربيع (١٦٦٤/٥/٧) . تعاطف كل حكام أوروبا مع الإمبراطور ، حتى لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، أكبر أعداء ألمانيا ، أرسل لأمر الإمبراطور فرقة ممتازة مؤلفة من ٥٠٠٠ شخص . جاء كوبرولو - زاده إلى كانيجة واجتاز الحدود الألمانية وفتح ينى قلعة (Serinwar) (٦ حزيران) ، وهى القلعة التى شيدها الألمان حديثا وسببت نشوب الحرب . تقع القلعة فى الموقع الذى يبتعد فيه نهر مور عن درافا . أصيب القائد العام للإمبراطورية الكونت Von Strozzi ومات . جاء مكانه قائد عام للإمبراطورية ، الماريشال كونت Montecueulli ، وهو من أشهر العسكريين فى القرن ١٧ .

كان الجيش الألمانى فى الغرب على الضفة الأخرى من نهر رعب (Raba) بينما كان كوبرولو - زاده أمام ينى قلعة .

وبعد أن اجتاز ١٠٠٠٠ جندى تركى إلى الطرف الآخر من الماء نسف Montecuculli الجسر بقذائف المدفعية .

جرت حرب الجيش الألمانى غير المتكافىء مع هؤلاء الـ ١٠٠٠٠ جندى أمام أعين الجيش العثمانى الكبير الموجود على الضفة الأخرى (١٦٦٤/٨/١) .

لم يستطع كوبرولو - زاده إلا أن يرسل مساعدات قليلة للطرف الآخر ، كما لم يسمح بإطلاق نيران المدافع والرصاص ؛ لأن الـ ١٠,٠٠٠ عثمانى كانوا مختلطين ومتداخلين مع الألمان إلى الدرجة التى لو فتح فيها النار من الجهة المقابلة لأثرت على الجند العثمانى بنفس الدرجة التى تؤثر فيها على الآخرين . استمر القتال بين ٦٠٠٠٠ ألمانى و ١٠٠٠٠ عثمانى مدة ٧ ساعات . وحاول كوبرولو - زاده خلال هذه المدة نصب جسر والعبور إلى الطرف الآخر ، إلا أن نار مدفعية العدو والمطر الغزير حالا دون ذلك . أفنى الـ ١٠٠٠٠ جندى عثمانى المتشكلين من السباهية والإنكشارية على التساوى وعلى رأسهم إسماعيل باشا بكلربك بوسنة فرقة المقدمة للجيش الألمانى المكونة من ٣ أفواج مشاة وفوج خيالة ، واستولى على قرية

Mukkestrof وحاول الاحتماء باستحكامات مستعجلة ، لكن أمير Baden أسقط القرية وحاصر الأتراك وأفناهم . تقدر خسائر العدو بـ ١٠ ٠٠٠ (Ricaut ، ٢ ، ٥٩٦ - ٨) . قتل ٦٠ جنرالا وشريفاً من العدو . طلب الإمبراطور الصلح .

تم التوقيع على معاهدة فاشفار (بالمجرية : Vasvar) بعد ٩ أيام (١٦٦٤/٨/١٠) . فاشفار (بالألمانية : Eisenburg ،) هى قصبة تقع بين كانيجة و Szombathly . عقد ممثلو الطرفين مؤتمرا فيها . كانت قصبة عثمانية تبعد عن حدود النمسا ٢٥ كم . وعند التوقيع على المعاهدة المكونة من ١٠ مواد بدأ الجيش الهمايونى بإطلاق المدافع والرصاص وترتيب الأفراح . بموجب هذه المعاهدة تبقى جميع مواد معاهدة سيتفاتوروك معتبرة ، وتدفع ألمانيا غرامات حرب رمزية قدرها ٢٠٠ ٠٠٠ سكة ذهبية ، وتبقى كافة القلاع مثل أويفار ، نوفيكراد ، ينى قلعة التى فتحها الأتراك لدى العثمانية . وعلى هذا تكون الحرب قد انتهت خلال سنة ، و٣ أشهر و٢٨ يوما . تحرك الصدر الأعظم بعد أن اتخذ التدابير اللازمة على الحدود ، إلى أدرنة (١٦٦٥/٤/١٧) (سلاحدار ، ١ ، ٢٣٥ - ٣٧٤ ؛ راشد ، ١ ، ٢٥ - ٩٠) .

٥٨) إكمال فتح كريت من البندقيين (١٦٦٤ - ١٦٧٠)

أرسل الإمبراطور ، بعد الصلح ، الكونت Leslie إلى محمد الرابع مع هدايا ثمينة . ورد عليه السلطان بإرسال محمد باشا إلى فينا بلقب بكلربك (أمير الأمراء) وسفير فوق العادة . دخل الباشا مع معيته البالغة ٢٩٩ شخصا . تكدس الشعب الذى كان متلهفا على مشاهدة العثمانيين فى الشوارع . أجر لأشراف الأماكن فى محلات المرور بأبهظ الأسعار . كانت فرقة موسيقى الجيش (مهتر طاقمى) تتقدم الوفد تسير بخطا هائلة عازفة إحدى قطعها المهترية التى ترتجف بصداها السماء والأرض (Takáts ، Macaristan Türk Âleminden Cizqiler ، ٣١٥) . وفى ١٦٦٥/٦/١٨ استقبل الإمبراطور محمد باشا عند حضوره باحتفال لم يجر قبلا لأى سفير ، وخلافا للعادة كان أولياء جلبى أكبر كتاب العصر فى معية الباشا . نظم حكام أوروربا بعد هذا الحادث فرق موسيقاهم على غرار المهترخانة (مؤسسة

الموسيقى العسكرية) التركية . وافق الباشا على إجراء مقابلات عديدة مع الدوقات والماركيزات والكونتسات ، وكان يجيب بحرية على أسئلتهن عن تركية والمرأة العثمانية . كان يصلى صلاته للأوقات الخمسة فى حديقة السراى المخصص لإقامته ، وكان يحدث زحام كبير أمام الحديقة فى أوقات الصلاة (هامر ، ١١ ، ١٥٥) .

من ناحية أخرى كانت العلاقات مع فرنسا تسير نحو التأزم . واعتبارا من ١٦٤٨ كانت أقدر دولة مسيحية هى فرنسا وليست إسبانيا . فرنسا وإنكلترا ، كانتا تنموان ، بنما كانت إسبانيا تسير نحو الانحطاط . كسر رئيس الوزراء الكاردينال ريشيليو شموخ ألمانيا ، قلل من شأن إسبانيا ، أخضع الإقطاعيين الأشراف فى الداخل للملك وخلف دولة فرنسية ذات مكانة . بدأت اللغة الفرنسية وأدبها الرفيع فى الانتشار بين الشعوب المسيحية كافة . سبقت الفرنسية اللاتينية والإيطالية بمراحل ، وصارت فى أوروبا Lingua Franca التى ستحافظ على وضعها هذا فى العالم أجمع حتى ١٩٤٠ ، وسوف تترك فى هذا التاريخ مكانها إلى اللغة الإنكليزية . كان الملك لويس ١٤ مسيحيا متعصبا ، ويلقب بـ « الكاثوليكى المركز » . كان يساند بصورة دائمة البندقية التى كانت فى حالة حرب مع تركية ، ويرسل إلى كاندية فى كريت وحدات ومساعدات كبيرة . حقر سفراء عديدين لهذا السبب ؛ لكنه لم يمتنع عن مساعدة البندقية . وافق كوبرولو – زاده على مقابلة الشاب السفير LaHaye ، وبعد أن هدده وحقره بوصفه « يهودى » وطرده من حضرته ، وعند خروجه صفعه على خده أحد مرافقى الصدارة (١٦٦٥/١٢/٧) (فون هامر ، ١١، ١٥٩ – ٦٠) . حرضت إستانبول أسطول الجزائر ، على ضرب فرنسا . أنزل الأسطول الفرنسى بقيادة دوق Beaufort ٨٠٠٠ جندى مشاة على Cieclli واستولى على هذا الميناء الجزائرى . أدركهم شعبان أغا قائد الإنكشارية فى الجزائر وذبح بالسيف ٢٠٠٠ فرنسى ، وركب البقية سفنهم وهربوا إلى فرنسا . جرى هذا الحادث فى ١٦٦٤ . وصار له صدى كبير بحيث لم يتمكن الفرنسيون من تحقيق إنزال آخر على الجزائر الا بعد ١٦٦ سنة فى عام ١٨٣٠ (Watbled, Expédition du Duc de Beaufort Contre Gigelli, Revue Africaine, 1873; Montchicourt, L'Expédi tion de Djidjelli en 1664, Revue Maritime, 1898) .

أعطيت القيادة العليا لحرب كريت إلى كوبرولو - زاده (١٦٦٦/٥/١٥) . مضت ٢١ سنة على فتح حملة كريت . كانت كاندية وعدة قلاع صغيرة تقاوم حتى الآن . كانت أوروبا تمطرها بالمساعدات . الوحدات الفرنسية ، الإنكليزية ، الإيطالية ، الألمانية ، البابوية جعلت من كريت الشرقية ساحة مناورات . أخذ الأمر شكل مسألة كرامة بالنسبة للمسيحيين تجاه الإسلام . تحرك البادشاه مع كوبرولو - زاده من أدرنة وشيع السردار الأكرم لغاية ميناء Golos فى Tesalya . صعد فاضل أحمد باشا إلى خانيا بـ ١٦٧ قطعة بحرية (١٦٦٦/١١/٣) . قضى فصل الشتاء هناك . اشتغل بتجهيز جيشه مدة ٦ أشهر و ١٣ يوماً . تحرك من خانيا فى ١٦ أيار وشرع فى حصار كاندية صباح يوم ٢٦ أيار ١٦٦٧ .

دام الحصار ٦ أشهر و ٢١ يوما . لم تسقط القلعة . استشهد خلال هذه المدة ٨٠٠٠ جندى . انفجر ٨٠٠٠ لغم . استهلك ٢٠٠٠٠ قنطار من البارود . أمطرت القلعة بمعدل ٤٠٠ قذيفة يوميا . وفى ١٦ ت ١٦٦٧/١ رفع الصدر الأعظم الحصار لكنه لم يترك مواقعه أمام كاندية . قضى فصل الشتاء تحت الأرض فى المدينة ، فى الملجأ الذى حفره أمام كاندية ، كانت والدته عائشة خاتون وأخوه الصغير على بك يرافقانه . لأول مرة فى التاريخ يدخل جيش كبير تحت الأرض ويمضى الشتاء .

وفى ٣٠ حزيران ١٦٦٨ بدأت حرب كاندية مجددا بهجوم العثمانية . تحرك السلطان من أدرنة (١٦٦٨/٦/١٨) وجاء إلى Golos ، حتى إنه فكر فى العبور إلى كريت . قضى الجيش الهمايونى والصدر الأعظم شتاء عام ١٦٦٨ - ٦٩ فى مدينة تحت الأرض أمام كاندية . جاء فى ذلك الشتاء من البندقية إلى أدرنة أحد السفراء فوق العادة . وبناء على طلبه سمح له بالمثول أمام الوزير الثالث من زيفونلى قره مصطفى باشا ، قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) . صرح بأنه مفوض للتفاهم حول أى طلب تطلبه العثمانية لعقد الصلح ، شرط أن تبقى كاندية لدى البندقية . وأفاد بأن المسألة لو كانت فى سلطة مجلس أعيان الجمهورية لترك كاندية منذ زمن بعيد ، فقد أصبحت هذه القضية بلية ، ولاتستأهل فقدان البندقيين هذا القدر من النفوس والأموال ، لكنه يخشى أن يحاسبهم حكام الدول الأوروبية العديدة

وعلى رأسهم البابا ولويس الرابع عشر على ماأرسلوه من مساعدات وجنود ونقود كثيرة إلى كاندية .

كان لويس ١٤ قد أرسل إلى Morosini ، الذى يدافع عن كاندية فرقة بقيادة دوق ومبالغ كبيرة من النقود (Bougeois ، ١ ، ٧١) ، ومن ناحية أخرى كان السفير التركى سليمان أغا المرسل إلى باريس ، يستقبله لويس ١٤ بمراسم فوق العادة . إن الذى عرف القهوة – التى يحب شربها الفرنسيون الآن – للفرنسيين وجعلهم يتذوقونها هو سليمان أغا هذا . وقد انتشرت فى فرنسا مع هذه البعثة عادات وأزياء ملابس الطراز التركى وأصبحت طرازا ونموذجا عاما . إن موليير يستهزىء بهذا الطراز المسمى « Turquerie » فى كتابه Bourgeois Gentilhomme وينقد أشراف الفرنسيين الذين يقلدون الأتراك (هامر ، ١١ ، ١٩٥ ؛ Vandal, Marquis de Nointel ، ٢٢ ٣٤) . وقد لحن ملحن القرن ١٧ الفرنسى الكبير Lulli الأغانى على شرف السفير التركى .

وخلال المرحلة الأخيرة لحرب كاندية كان محمد الرابع يتجول فى Tesalya للعبور إلى كريت إذا اقتضت الضرورة . وذات مرة تسلق على ذروة جبل أوليمبوس الذى يعتبر ملتقى آلهة اليونان القدامى . وأثناء تسلقه سقط حصانه الذى كان يركبه إلى الهاوية ومات . ورغم أن البادشاه نجا من قبيل الصدف ، إلا أنه استمر على الصعود مشيا على الأقدام . والمشهور عنه أنه أثناء اقترابه من الذروة قفز بحصانه من حافة هاوية عريضة مما أدهش معيته الذين لم يجسروا على ذلك (هامر ، ٢٠٠/١١) .

بدأ الحصار النهائى لكاندية فى ١ حزيران ١٦٦٩ . وفى ٢٤ حزيران جاء الأسطول الفرنسى ودخل الميناء بغتة ، وأنزل ١٦٠٠٠ جندى فرنسى آخر إلى القلعة . كان هذا الجيش يضم عدة أمراء فرنسيين وأشراف . قتل فى ٢٥ حزيران دوق Vendôme الأمير François (١٦١٦ – ١٦٦٩) حفيد هنرى ٤ وابن أخ لويس ١٤ ، وفى ٢٩ حزيران قتل الدوق Beaufort أحد دوقات الإنكليز . خرج الإنكيز الموجودون فى القلعة وبيدهم العلم الأبيض وأفادوا بأن الدوق هو ابن أخ الملك ، ورجوا تسليم الجثة إليهم لإرسالها إلى إنكلترا ، ووصفوا الامير بإسهاب .

أمر الصدر الأعظم بالبحث عن الجسد ، ولم يعثر عليه بين آلاف القتلى . وفى ٣ تموز ، نقلت ١٥ سفينة فرنسية و ٩ بابوية و ٧ مالطية و ٤ بندقية المعونات إلى كاندية . كان يدافع عن القلعة ١١٠٠ مدفع بندق ، عدا مدافع الأسطول الراسى فى الميناء . لم تكن السفن التركية تستطيع الدخول إلى الميناء ، إذ إن جهة القلعة التى تشرف على البحر كانت تحمى بمدافع جبارة . وفى ٩ آب ، أصيب كونت Waldeek أحد الحكام الألمان ومات .

كان Francesco Morosini يتولى الدفاع عن كاندية منذ ١٣ عاما ويعتبر من أكبر العسكريين فى عصره . جمع جنرالات وإميرالات الأقطار المختلفة فى مجلس عسكرى ، وأفاد بأنهم يملكون القسم السطحى فقط للقلعة وأن الأتراك أسسوا مدينة تحت القلعة وشقوا لها شوارع وأزقة ، وأنهم يفجرون الأنفاق عدة مرات يوميا . أفهمهم بأن ليس بالأمكان الدفاع عن هذه القلعة أكثر من ذلك ، وحتى لو أمكن استمرار الدفاع فإن القلعة لاتعادل حجم الخسائر فى الأرواح والأموال . راجع Moro Sini فى ٢٨ آب (١٦٦٩) فاضل أحمد باشا ، وطلب المفاوضة .

وأثناء استمرار المفاوضات يوم ٣١ آب جمعت الأساطيل الفرنسية والبابوية والمالطية جنودها الأحياء والجرحى وتركت كاندية . وبخ البابا بعد ذلك ، أشد التوبيخ أميراله الذى ترك كاندية قبل انتهاء المفاوضات . ولم يوافق لويس ١٤ حتى نهاية حياته على مقابلة الدوق Noailles لهروبه من كاندية . لقد أفزعت دموية ووحشية الحرب الأوروبيين . والحقيقة هى أن القائد العام البندقى موروسينى لم يطلب المفاوضة وضمان الأمان من العثمانية ، إلا بعد تصريح دوق Noailles الذى حدث فى ٢٠ آب والذى ذكر فيه أنه سيسحب جنوده إلى فرنسا وأنه تكبد خسائر فادحة .

وقعت المعاهدة يوم ٥ أيلول وأوقفت الحرب . دام حصار كاندية النهائى هذا ٣ أشهر و ٤ أيام . تنص معاهدة كاندية المحتوية على ١٨ مادة والتى عقدت بعد مؤتمر دام ٨ أيام على مايلى :

تنتقل إلى العثمانية كاندية والـ ١١٠٠ مدفع الموجودة بداخلها وجميع المهمات العسكرية. تعود جزيرة كريت لتركية . تترك ٣ قلاع صغيرة للبندقية ، شرط عدم

استعمالها فى غير المعاملات التجارية (ضمت هذه القلاع بعد مدة إلى العثمانية) . يمكن لأفراد حامية كاندية الذهاب إلى البندقية سالمين حاملين معهم مايستطيعون حمله من المال والسلاح . لايسمح بحمل الأموال بواسطة الدواب . تخلى المدينة وتسلم إلى الجيش العثمانى خلال ١٢ يوما . لايسمح خلال هذه المدة بإجراء أية معاملة سيئة ، مهما كانت ، تجاه المسلمين الأسرى الموجودين داخل القلعة ، وأساسا فإنه سيتم خلال هذه المدة مبادلة أسرى كلا الطرفين ، وفور التوقيع على المعاهدة ، ستعلن الهدنة بإطلاق المدافع وسوف لايطلق بعد ذلك أى سلاح .

وهكذا انتهت الحرب العثمانية – البندقية التى دامت ٢٤ سنة و ٤ أشهر و ١٦ يوما والتى كانت دموية حقا بمؤتمر صلح دام ٨ أيام فقط . مضى على الحصار الأول لكاندية الذى أجراه فاضل أحمد باشا سنتين و ٣ أشهر و ٢٠ يوما و وخلال هذه المدة فقط استشهد تقريبا ٣٠٠٠٠ جندى عثمانى ، استهلك ٧٣٠٠٠٠ قنطار من البارود ، فجر ٣٥٠٠ لغم (نفق أرضى) أما البندقيون فخلال نفس المدة خسروا ٢٠٠٨٨ قتيلا ، حققوا ٨٠ خروجا ، صدوا ٦٩ هجوما عثمانى وفجروا ١٣٦٩ لغما . ويروى أن ١٣٠٠٠٠ عثمانى قتلوا فى كريت خلال ربع قرن . وبهذا فقط أمكن إزاحة حكم الإيطاليين من الجزيرة الذى دام ٤/٥ قرن . كان عزم كوبرولو – زاده هو الذى حقق فتح الجزيرة . ولولا وجود شخص يعتمد عليه تمام الاعتماد ، فى العاصمة مثل مرزيفونلى قره مصطفى باشا لما وجد أى صدر أعظم فى نفسه الجرأة الكافية للابتعاد عن المركز هذه المدة الطويلة . إذ إنه لم يخرج من كريت أبدا طيلة ثلاث سنوات ونصف . وقد عمل ذلك ليكون قدوة للجيش .

وفى الساعة ٩ من صباح يوم ٢٧ أيلول (١٦٦٩) قدم البندقيون إلى السردار الأكرم داخل صينية فضية مفاتيح كاندية الـ ٩٣ . بدأت الوحدات التركية فى دخول المدينة . أخذ الروم المحليون يهتفون الهتافات الموالية ؛ لأن آخر قطعة أرض يتكلم ساكنوها اليونانية تنضم إلى الدولة العثمانية . و بعد ذلك ، استقبل كوبرولو – زادة Moroxsini الذى دافع عن القلعة بشرف سنين طويلة . حادثه بكلمات رقيقة جدا وقدم له الهدايا الثمينة . قام باشوات العثمانية بزيارات مجاملة للأشراف الإيطاليين ، الفرنسيين ، الألمان ، الإسبان ، الإنكليز الذين كانوا يدافعون فى الخنادق المقابلة لهم وكان بينهم أيضا **Duc de la Feuillade** من أكبر أشراف الفرنسيين . زار أغا

الإنكشارية (ينى جرى أغاسى) الجنرال Coigny السويسرى وأثنى على قدرته العسكرية وهنأه على ذلك . كان العدو ممتنا بقدر ماكان الأتراك كذلك عند إنزال الصلبان الموجودة على القلعة ورفع العلم التركى ذى الهلال مكانها . استقبل الكل بسرور انتهاء هذه الحرب الجنونية .

أنيرت الجزيرة بكاملها ٧ ليال وأطلقت القذائف الضوئية تعبيراً عن الفرح طيلة ٧ ليال . قبل كوبرولو - زاده يد والدته المسنة عائشة خاتون ، التى أصرت على عدم الذهاب إلى الحج قبل أن ترى فتح كاندية .عاشت مع ابنها تحت الأرض ، وتحركت الآن متوجهة إلى الحج مرتاحة الضمير . والمعلوم أن كوبرولو محمد باشا ، مدين برخائه لثروة زوجته الكبيرة عائشة خاتون والكوبرولو الأصلى هو يوسف أغا والد عائشة خاتون الذى كان فويفودا (أمير) الجسر (كوبرى) لـ (وزير كوبرى) . كان محمد الرابع فى هذه الأثناء يذهب من ينى شهر إلى آغرى يوز ، كان فى Livadya (شمال - شرق أثينا) . عندما أيقظ مرزيفونلى قره مصطفى باشا قائمقام الصدارة السلطان من نومه ليلا وأعلمه بفتح كاندية ؛ أظهر الخاقان سروره بقوله « الحمد لله » . وبينما كان يريد التوجه إلى كريت قرر العودة إلى سلانيك . أرسل إلى كوبرولو - زاده سيفا مرصعا وخطا همايونيا يبلغه فيه تبريكه .

قضى كوبرولو - زاده شتاء عام ١٦٦٩ - ٧٠ كذلك فى كريت وأشرف على إصلاح القلاع والأسوار والأبنية وإنشائها مجددا وجرى العمل على قدم وساق . غادر الجزيرة بعد فتح كاندية بـ ٧ أشهر و ٨ أيام (١٦٧٠/٥/٥) . قضى فى جزيرة كريت بصورة كاملة مدة ٣ سنوات و ٦ أشهر ، ٣ أيام يشاهد بدهشة عظيمة التغيرات والحفر الكبيرة والتلال الصناعية التى أحدثتها مدافع وألغام الطرفين فى طبغرافية الجزيرة . صار الوزير عنكبوت أحمد باشا قائد كريت السابق بكلربك على كريت . نزل كوبرولو - زاده إلى البر فى تكرداغ وذهب إلى أدرنة لمقابلة البادشاه . وفى ١ تموز ١٦٧٠ استقبله محمد الرابع بتلطف لم يسبق له مثيل إلى ذلك الحين - خارج أدرنة وهو على ظهر جواده . كان البادشاه قد بلغ ٢٨/٥ عاما والصدر الأعظم يكبره بـ ٦ أعوام فقط .

لم يسبق حتى ذلك اليوم وفى أى قطر من أقطار العالم أن يكرّس جهد لقلعة واحدة كما كرس لكاندية ، ولم يسبق أن يصرف على أى موقع مستحكم هذا القدر

من الأنفس والأموال . حوصرت القلعة ٣ مرات خلال ٢٥ عاما . قصف كلا الطرفين الآخر بقذائف يزن بعضها ٥٠٠ ليبره . أطلق البندقيون ، للدفاع عن القلعة ما مجموعه ٢٧٦٧٤٣ قذيفة مدفعية و ٤٨١١٩ قبرة ، ١٠٠٩٧٠ قبرة يدوية ، ٤٨٧٤ قبرة كيماوية واستهلك لذلك ١٨٠٤٤٩ قنطارا من الرصاص ، ١٢٥ ١٣٠ فتيلة ، ٥٢٧٠ برميل بارود . أما الأتراك فاستهلكوا ٠٠٠ ٧٣٢ قنطارا من البارود (فون هامر ، ١١ ، ٢٢٧) .

قسمت إيالة كريت إلى سناجق (ألوية) خانيا ، كاندية ريسو وانتقل أحد المراكز البحرية من المراكز الثلاثة التى تركت للبندقية Granbosa فى ١٦٩٢ و SUda و Spinalonga فى ١٧١٥ إلى العثمانية ، وهذه آخر بقايا حكم إيطاليا الكاثوليكية واللاتين الذى استمر عصورا طويلة – وكلها من نتائج الحروب الصليبية التى تم قلعها من أرخبيل الجزر وشرق البحر الأبيض .

٥٩) تشكيلات الإنكشارية فى المغرب (مغرب أوجاقلرى ، بحريات إيالات الجزائر ، تونس ، طرابلس ، ليبيا)

إن خدمات القطع البحرية للجزائر ، تونس ، طرابلس كانت خدمات كبيرة طيلة فترة استمرار حرب كريت وذلك إما بدخولها إلى مياه كريت واشتراكها فى القتال ، أو بقطع طرق المعونات الأوروبية . ومنها قوة جزائر البحرية . كانت أسطولا بالمعنى الصحيح . وفى ربيع عام ١٦٥٠ قصف الأسطول الجزائرى خليج ليون ، Côte d'Azur ، بحر ليكوريا ، كورسيكا وفى أيلول شوهد فى نابولى . وفى عام ١٦٥١ التالى حققوا إنزالا على Civitavecehia ووصلوا قرب روما . وفى ١٦٥٣ قصفوا Balearlar وخرجوا إلى المحيط الأطلسى ودخلوا بحر المانش وأحرقوا Saint Malo مركز قراصنة الفرنسيين مع السفن الراسية فى الميناء ، ثم دخلوا ميناء Plymouth وحرقوا السفن الإنكليزية . وبهذا يكونون قد انتقموا منهم لمساعداتهم التى قدموها لكريت .

وعند تثبيت نهر Tafna حدودا فى ١٦٤٩ انتقلت Vacda – وهى أهم مدن فاس القريبة من الجزائر – إلى إيالة الجزائر . كانت تطوان مركز البحر الأبيض ،

وسالة مركز المحيط الأطلسي لقراصنة فاس . كان أكثرية الربابنة أتراكا من الأناضول ، وأكثرية الملاحين من المهاجرين الأندلسيين . الأميرالان : رئيس القراصنة الأندلسي الأصل المسمى عياشي وخلفه غيلان كانا يتسلمان المعونات سواء من الجزائر أو من إستانبول رأسا ، وكانا يرسلان الهدايا إلى السلطان .

وفى عام ١٦٦١ سار أسطول الجزائر فى البحر الأدرياتيكى واليونانى واقتحم المدن التابعة للبندقية وإيطاليا . وعاد إلى الجزائر بغنائم تقدر بـ مليونين سكة ذهبية . وبعد ضرب إسبانيا و **Balearlar** ، جرى إنزال على **Livorno** . وفى ١٦٦٣ اقتحم أحد الأساطيل نابولى ، واقتحم الآخر قادش **Cadiz** أكبر مركز بحرى لإسبانيا على المحيط الأطلسى . وحصل أسطول الجزائر (الذى اقترب حتى ميناء البندقية فى ١٦٦٤) ، فى السنة التالية فى المحيط الأطلسى بقطعه طريق السفن التى تنقل البضاعة من الهند - على غنائم تقدر بـ ٢ مليون سكة ذهبية . اقتحمت نابولى فى ١٦٦٦ ، وبعدها جرى إنزال على **Otranto** .

وفى ١٦٦٧ أوقف أحد الأساطيل فى الأطلسى السفن التى تنقل البضاعة من الهند ، وحقق أسطول آخر إنزالا على سواحل نابولى وجزيرة كابرى . وفى ١٦٦٨ تم حرق السفن الراسية فى ميناء **Genova** ثم قصفت سواحل **Pulya** . وفى ١٦٦٩ قصفت **Côte d'Azur** وخلال ذلك تم قصف ميناءى **Genova** و **Monaco** . وفى العودة تم تحقيق إنزال على كورسيكا . وتم فى ١٦٧٠ تخريب موانىء خليج **Man Fredonia** فى الأدرياتيك . وفى ١٦٧١ تم قصف سواحل **Kalabria** ، **Pulya** صقلية التابعة لإسبانيا . وتم فى ١٦٧٢ تخريب سواحل نابولى والأدرياتيك . وفى ١٦٧٥ تم قصف سواحل **Latium** التابعة للبابوية ، ومحيط روما وجنوب إيطاليا العائدة لإسبانيا وصقلية . وقصف ميناء **Malaga** العائد لإسبانيا وموانىء البرتغال الواقعة على الأطلسى (لخص عن **Grammont**) .

كان فى الأسطول الجزائرى ، عام ١٦٢٠ ، ٣٠٠ ربان (قبطان) تركى ماهر ، ٨٠ سفينة ومئات من السفن الصغيرة . كان قوام تشكيلات (أوجاق) الإنكشارية فى الجزائر ٢٢٠٠٠ شخص . أما صنف قول أوغوللرى ووحدات الخيالة من العرب البرابرة المحليين فكانوا يشكلون وحدات منفصلة . تغير هذا الوضع فى أواخر العصر ١٧ أخذ عدد الأتراك القادمين من الأناضول وروملى إلى الجزائر يقل جدا . وعدد

جنود البحارة الإنكشاريين (لوند) أخذ يقل هو الآخر بشكل خطر . عدد الإنكشارية هبط من ٥٠٠٠ فى ١٧٦٩ ، إلى ٣٢٠٠ فى ١٨١٧ . اضطر البكلربك (دايى) إلى تقديم رتب جماعة « القول أوغوللرى » وتشكيل الجيش من أفرادهم . إن « القول أوغوللرى » هم أتراك مولودين من النساء المحليات و لم يكن فى استطاعتهم تنفيذ شئون البحارة (لوند) ، لكنهم كانوا عساكر بر قديرين . أخذت عناية إستانبول بالجزائر تقل على مر الزمن لانشغالها فى مشاكلها . لم تكن المساعدات تصل كما كانت فى السابق . هيأت هذه العوامل الجو الملائم لفرنسا للاستيلاء عليها عام ١٨٣٠ .

وفى ١٦٧٩ اقتحمت فى الأطلسى جزر Asor التابعة للبرتغال ، وفى ١٦٨١ اقتحمت سواحل كورسيكا ، صقلية ، نابولى ، لاتيوم وتم الاستيلاء على ١٠ سفن بابوية راسية فى Civitavecchia . وفى ١٦٧٩ أراد سلطان فاس إسماعيل الكبير ، الاستيلاء على الجزائر لكنه هزم وانسحب . وفى ١٦٨٢ تم الاستيلاء على ٢٩ سفينة فرنسية ، و ٣٥٠ سفينة إنكليزية خلال ٤ سنوات . وقبل ٣ أيام من بدء مرزيفونلى قره مصطفى باشا محاصرة فينا صار ميزومورتا حسين رئيس « دايى » فى الجزائر (١٦٨٣/٧/١١) ومنح رتبة الباشوية وبكلربك (فريق) . هذه الشخصية صارت بعد ذلك قبطان دريا (مشير بحرى) وهو آخر أميرال داهية أنجبه الأتراك . وفى ١٦٩٠ استدعى ميزومورتا حسين باشا إلى إستانبول ، وترك شعبان دايى نائبا عنه فى الجزائر . صار فى البداية أميرالا لأسطول السفن الحربية الشراعية (كاليون) ، وبعد مدة صار قبطان دريا . وفى ١٦٩٣ دخل مولاى إسماعيل الكبير إلى الجزائر مع ١٤٠٠٠ مشاة و ٨٠٠٠ خيال ومدفعى ، واسترجع Vacda . أدركه شعبان دايى مع ١١٠٠٠ انكشارى و ٣٠٠٠ سباهى و ١٠٠٠ خيال عربى.رغم تكبد الجيش الفاسى ٥٠٠٠ قتيل ، ظلت Vacda لدى فاس . استاءت إستانبول من إدخال دولة إسلامية كفاس جنودها فى إيالة الجزائر فى الوقت الذى تخوض فيه العثمانية مع أوروبا معركة حياة أو موت . أرسلت إستانبول سفيرا إلى مكناسة . أراد سلطان فاس إرسال مولاى عبد الملك أحد أبنائه إلى الجزائر لحل مشاكل الحدود . إلا أنه لم يحصل اتفاق . غلب وجرح السلطان إسماعيل الذى يقود ٥٠٠٠٠ جندى تجاه مصطفى دايى وقتل أكثر من ٣٠٠٠٠ فاسى فى الحرب الميدانية جدوئة

(١٧٠٠/٤/٢٨) . وانتقل مزراق السلطان ليد الأتراك . ترك مولاى إسماعيل الذى عاشت فاس على عهده آخر أيام عظمتها التدخل فى شئون الجزائر .

وفى السنين ١٦٩٢ و ١٦٩٥ طلب الديوان انسحاب الأسطول الجزائرى إلى بحر الأرخبيل ، كان أسطول الجزائر حتى ١٦٩٩ يشترك فى حروب العثمانية ضد الدول الأوروبية ، وضرب فى كل عام تقريبا إيطاليا وصقلية . إلا أنه فى هذا التاريخ عقد صلح بين العثمانية وأوروبا . وقلت الغنائم التى كانت ترد إلى الجزائر . وبسبب عدم مجىء (لوند) بحارة إنكشارية من الأناضول ، أخذ أسطول الجزائر يتقلص . ازدادت الحاجة إلى البحارة إلى درجة أن أسطولا جزائريا جاء فى عام ١٧٠٠ إلى ميناء فوجا فى أزمير وأخذ ماصادفه من الشباب بالقوة إلى الجزائر وسجلوهم بحارة . احتسبت هذه العملية ضد أسطول الجزائر ، حيث ألغى الديوان الهمايونى ، امتياز تسجيل الجزائر لشباب الأناضول الراغبين اختياريا الانخراط فى سلك البحرية والذى كانت الجزائر قد حصلت عليه منذ منح السلطان ياووز سليم هذا الامتياز إلى أخوة بارباروس ، لكنه أجاز ذهاب شباب الأناضول الراغبين إلى الجزائر وتسجيلهم بحارة (لوند) وقد بقى هذا السماح الأخير حبرا على ورق . إذ إن ذهاب شاب أناضولى فى ذلك العهد إلى الجزائر بإمكاناته الخاصة لم يكن بالأمر السهل (Mühimme ، ١١١ ، ٤٩٣) . وفى مستهل القرن ١٨ كانت بحرية بكلربكية الجزائر العظمى فى قمة عظمتها ، ثم أخذت فى التدهور .

ونفس الحكم سار بالنسبة لبحريتى البكلربكوية الآخريين من بحريات البكلر بكوية الثلاث التى يطلق عليها العثمانيون اسم « مغرب أوجاقلرى » وهى بحرية تونس وطرابلس (ليبيا) .

وفى تونس بقيت الإيالة تحت إدارة أغوات الإنكشارية فعلا والتى تسمى (دايبلق دورى) فترة الدايات التى استمرت ٦٥ سنة من ١٦٤٠ إلى ١٧٠٥ .

وفى ١٧٠٥ عاد حكم البكلربك . صار حسين باشا ابن تورك على باشا بكلربك (١٧٠٥/٧/٩) . بدأ بعد هذا التاريخ فى تونس تعيين البكوات من هذه العائلة ، تأسست السلالة التى تسمى الحسينيين ، والتى يطلق عليهم اسم « بكوات تونس » . أما فى طرابلس فقد بدا عهد « الداى » بعد أن خسر عثمان باشا الكفاح ضد

الإنكشارية (١٦٧٢/٤/٢٩) . ولكن كان بعض البكلربكوات يملون رغباتهم على الدايات ويتحكمون فى إدارة الإيالة .

٦٠) حرب بولونيا (١٦٧٠ - ١٦٧٦)

فى هذه الفترة التى أخذ فيها نجم أوروبا الغربية كفرنسا ، إنكلترا ، هولندا ، السويد فى التألق دخلت بولونيا (بالتركية لهستان) فى دور الانحطاط مثل إسبانيا والبندقية . ورغم أنها كانت آنذاك دولة أهم من روسيا إلا أنها استنفدت قوتها السابقة (فى عام ١٧٠٠ تقريبا ، كان تعداد روسيا وبولونيا يساوى أحدهما الآخر وكل منهما ١٢ مليونا) . عين سوبياسكى Sobiesky فى ١٦٥٦ سفيرا فى إستانبول (هو الذى سينتخب ملكا فى ١٦٧٤) . ويروى أن تفشى الطاعون عام ١٦٦٠ ، قضى على ثلث نفوس بولونيا (A.Jobert, Histoire de la Pologna ، ص ٢٩) (وبعدها طاعون عام ١٧١٠ - ٢٠ السارى ، أفنى الملايين من البولونيين ، نفس الكتاب ، ٣١) . ومع ذلك كانت بولونيا - ليتوانيا لاتزال الثالثة من جهة التعداد فى قارة أوروبا بعد تركية ، فرنسا ، ألمانيا ، بينما كان تعداد الدول كروسيا ، إسبانيا ، إنكلترة فى قارة أوروبا أقل من ذلك . ومع أن بولونيا دخلت فى فترات مختلفة تحت النفوذ العثمانى حتى إنها اعترفت بتبعيتها للسلطان ودفعت ضريبتها السنوية إلا أن خلافات تركية معها والتى كانت تتطور بين الحين والآخر إلى درجة القتال لم تحقق النفع للعثمانية ، وفيما لو أخذنا بعين الاعتبار التطورات التى حصلت بعد ذلك وأنها - لكونها كانت تؤمن النفع لروسيا - فإنها كانت مضرة للعثمانية ، إذ لم يكن بالإمكان فى القرن ١٧ رؤية التطورات المقبلة حيث إن بولونيا كانت فى البداية دولة أقوى وأكثر أوروبية من روسيا ، وكان منَ الطبيعى أن ترجح العثمانية الوقوف أمام الأقوى . ثم إن بولونيا كانت كاثوليكية . ولم تكن علاقات العثمانية حسنة مع العالم الكاثوليكى . ولم يتسن فى أى وقت من الأوقات عقد صلح مع دولة البابوية ، أو التوقيع معها على معاهدة . لأنه لم يأت بابا على الإطلاق مستعد لترك فكرة إزاحة العثمانية من القارة الأوروبية . أما روسيا فكانت أرثوذكسية ، ولم يكن ارتباطها بالبابا بل بالبطريق العالمى فى إستانبول . إذ إن باتريك (بطريق) موسكو كان تابعا لبطريق

فنر Fener فى إستانبول . أما البادشاه بصفته إمبراطور البيزنط (بالعثمانية قيصر الروم) فقد كان حاميا للأرثوذكسية والباتريك العالمى وفى نفس الوقت حاكمهم . كان عدم جعل الأرثوذكسية لقمة سائغة للكاثوليكية هو مبدأ سياسة العثمانية الذى لم يتغير لعدة عصور . إن تحركات روسيا كان فى الإمكان وقفها عند حدها بواسطة خان قرم . أما بولونيا فقد استوجبت تحركاتها إدخال الجيش فيها مرات عديدة حيث كان يسهل على بولونيا أكثر من روسيا الاتفاق مع الدول الأوروبية للوقوف ضد العثمانية .

كانت القضية الرئيسية .. أوكراينا . كانت سواحل البحر الأسود لأوكراينا الحالية مسكونة بالأتراك ، وتحت إدارة العثمانية – وكان يسكن بقية البلاد ، الأوكران (الأوكرانيون) وهم أرثوذكس ، والقسم الأكبر من اوكراينا كان تحت إدارة قرم أو تحت نفوذها . أما القسم الشمالى – الغربى من البلاد ، فكان تحت حكم بولونيا الكاثوليكية . وكان احتمال تدخل الروس من الشمال يزداد يوميا . هتمان (أمير) أوكراينا دوروشنكو ، صار تابعا للعثمانية ومنح رتبة صنجق بك بينما كان تابعا لبولونيا . وعندما عارضت بولونيا ذلك ، أرسل الديوان الهمايونى ٦٠٠٠ جندى لمساندة دوروشنكو ضد الإستيلاء البولونى ، سرت روسيا لتورط العثمانية وبولونيا بسبب أوكراينا سرورا كبيرا . لم يفزع بولونيا ادعاء العثمانية حكم أوكراينا بأجمعها ، ومساندة هذا الإدعاء بالسلاح والجيش ، ولم تتخل عن اوكراينا . على أثر ذلك ، قررت الحملة الهمايونية (الحملة التى يقودها البادشاه بنفسه) . وكان قد مضى على الحملة الهمايونية لعثمان الثانى عم محمد الرابع – على بولونيا ، ٥١ عاما .

تحرك محمد الرابع للحملة الهمايونية مع الجيش من أدرنة (١٦٧٢/٦/٤) . كانت القيادة الفعلية للصدر الأعظم كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا . نصب أحد ضباط الاستحكامات المسمى بلغرادلى زعيم يوسف أغا على نهر دجلة جسرا طوله ٥٦٥ مترا وعرضه ٧ أمتار واجتاز عليه الجيش إلى مولدافيا (سلاحدار ، ١ ، ٥٧٥) . كان فويفودا افلاق هتمان دوروشنكو ، خان قرم سليم كيراى ، ضمن الجيش العثمانى . جاءوا إلى قلعة كامانيجو (بالاوكرانية : Kamenec Podolsk ، بالبولونية : Kaminiee) وبعد حصار دام ٩ أيام ، فتحت القلعة (١٦٧٢/٨/٢٧) . تقابل هذه القلعة قلعة خوتين التى استولى عليها الأتراك على

عهد عثمان الثانى ، وتقع خوتين على الساحل الجنوبى مـــن نهر Dnyestr (بالتركية تورلا) ، أما كانيجه فتقع على مسافة ٢٠ كم فى الشمال – الشرق وعلى الضفة الشمالية من النهر ، وتقع مدينة جرنوفيج على مسافة قريبة من جنوب – غربى خوتين .

كان يقدر للقلعة أن تقاوم مدة شهرين ، ولما سقطت خلال ٩ أيام ، ولد ذلك الذعر فى وارسو . كان القائد العام البولونى سوبياسكى ، على رأس قواته ، وكان يراقب حركات الجيش العثمانى من مسافة معينة ، ويحرص على عدم الاقتراب . تقدم الوزير قبلان مصطفى باشا (الذى كان صهرا لكوبرولو محمد باشا،كما كان مرزيفونلى قره مصطفى باشا) ، نحو الشمال – الغربى مع عدة فرق ، وحاذى السواحل الشمالية لنهر Dnyestr حتى وصل مصبه . وخلال شهر أيلول استولى على بولونيا بأسرها وغاليجيا . وفى ٩ أيلول ، فتح Lwow (Lemberg / Leopol بالتركية ايلباف) وهى من أكبر مدن بولونيا (حاليا فى اوكراينا) وصار يذكر باسم « فاتح ايلباف » . استمر نحو الشمال – الغربى واستولى على مدينة Lublin ، والمناطق الواقعة على شرق نهرى سان وفيستول . وصل نقطة عرض ٥٢ وعلى بعد ١٠٠ كم من وارشو . طلبت بولونيا الصلح ، فأوقفت العثمانية الحركات العسكرية .

وقع فى قصبة بوجاس (Buezacz) فى بولونيا على معاهدة ذات ٤ مواد (١٦٧٢/١٠/١٨) :

تبقى بولونيا لدى العثمانية وغاليجيا ، لدى بولونيا ، تقطع بولونيا كافة علاقاتها مع اوكراينا ، وتعترف بالبادشاه متبوعا لها وتدفع ضريبة سنوية قدرها ٢٢٠ ٠٠٠ سكة ذهبية . تم تأسيس بكلربكوية (إمارة) Ilbav فى بلاد Padolya بين Dnyestr و Bug ، استمرت الحملة الهمايونية ٦ أشهر ، ٥ أيام وعاد محمد الرابع إلى أدرنة (١٦٧٢/١٢/٩) .

تحرك البادشاه والصدر الأعظم اللذان بقيا فى أدرنة ٨ أشهر ، لحملة بولونيا الثانية فى ١٦٧٣/٨/٧ . اعترض ديت بولونيا (مجلس الأشراف) على معاهدة بوجاش . كانت كل من اوكراينا وبادوليا فعلا بيد العثمانية ، لكن عدم الاعتراف بمعاهدة موقعة ، أدى إلى الحرب . وكانت العثمانية ، قد أخلت بموجب معاهدة بوجاش ، غاليجيا والأراضى البولونية التى تقع على شمالها .

كذلك كانت بولونيا قد اعتمدت ، على وعود المانيا والبابا بالمساعدة . استعاد سوبياسكى من العثمانية ، فى فصل الشتاء لوبلين (على بعد ١٥٥ كم من جنوب – شرق وارشو) ، وحتى Lwow . ثم هزم بجيشه البالغ ٨٠٠٠٠ جندى ، جيش صارى حسين باشا البالغ ٣٠٠٠٠ جندى فى حرب ميدانية خلال ٣ ساعات واستعاد خوتين (١٠/١١/١٦٧٣). أدى هذا الانتصار إلى انتخاب سوبياسكى ملكا.

بقى الجيش الهمايونى مع البادشاه والصدر الأعظم ٦١ يوما فى اساكجه على نهر الدونة ، وفى ٢٠ ت٢ ، دخل المشتى فى حاجى اوغالو بازارى . تحرك الجيش الهمايونى ، مع البادشاه والصدر الأعظم ، من حاجى اوغلو بازارى فى ١٦/٦/١٦٧٤ . دخل اوكراينا وبولونيا . طلب سوبياسكى الصلح ، بقى محمد الرابع ٣٢ يوما فى Ladjin (Ladyzyn) على نهر Bug بين بودوليا واوكراينا ، وبعد تثبيت مواد الصلح ، تحرك فى ١٨ أيلول وعاد إلى أدرنة (٢١/١١/١٦٧٤) . دامت حملة بولونيا الثانية سنة وثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما ، ووقعت معاهدة Zorawno (٢٧/١٠/١٦٧٦) على أن تبقى خوتين بادوليا ، Lwow (Ilbav) ، اوكراينا لدى العثمانية ؛ غاليجيا ولوبلين لدى بولونيا . وهكذا انتهت الحرب التركية – البولونية التى استمرت ٤ سنوات ، ٤ أشهر ، ٢٣ يوما . أمَّنت هذه المعاهدة بين الدولتين صلحا لمدة ٧ سنوات . والغت المادة التى تنص على تبعية بولونيا للعثمانية فى معاهدة بوجاش .

٦١) وفاة كوبرولو – زاده فاضل أحمد باشا وصدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا (٣/١١/١٦٧٦)

توفى فاضل أحمد باشا عن عمر يناهز ٤١ عاما ، بعد أن بقى فى الصدارة بصورة مستمرة ١٥ سنة ، ٤ أشهر (تسلسله فى طول المدة ، الخامس بين رؤساء وزراء تركية) . قضى القسم المهم من صدارته فى جبهات المانيا ، البندقية (كريت) ، بولونيا . بقيت الإدارة الداخلية خلال هذه المدة بيد وكيله الوزير ٣ مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، بصفة وكيل رئيس الوزراء . ولم تكن صدارة الوزير ٢ ، داماد صاحب مصطفى باشا ، موضوع بحث ؛ بسبب كونه من المنتسبين إلى السراى .

كان فاضل أحمد باشا أحد أكبر رؤساء الوزارة فى تاريخ تركية المعدودين ، لم يخلف ولدا . استمر نسل كوبرولو ، من أخيه فاضل مصطفى باشا . كان فاضل أحمد باشا ذا عينين كبيرتين فاتحتين ، أبيض البشرة ، طويل القامة ، ضعيفا ، ذا لحية صغيرة ، جذابا ، محبوبا ، جادا ، كريما ، وقورا ، مجتهدا . زاد بالمشروب اتلاف جسمه الرقيق ، وكان كلامه منسقا جدا ومؤثرا ينفر من الرشوة إلى حد أنه لايقبل هدية . (يعيد الهدية ولايحقق طلب مرسلها ، إن كان له طلب) . لم يرث عن أبيه ظلمه واستبداده ، بل ورث عنه عزمه ودهاءه . قوى الذاكرة ، واضح التفكير ، سريع البديهة ، حذرا ، حازما عند اللزوم . لايعد بما لا يستطيع تنفيذه . ينفر من المرائين والثرثارين والمتملقين . يتكلم باحترام مع الأشخاص الجادين والعلماء ، ويحاول تحقيق كل طلباتهم ، وعلاوة على ذلك ، كان يحميهم شخصيا . وكان غنيا جدا . خصص معظم ثروته للأعمال الخيرية . كان عالما . بدأ حياته المسلكية كمساعد لشيخ الإسلام قره جلبى – زاده عبد العزيز أفندى . كان عالما فى حقول الفقه ، الكلام ، التاريخ . كان من طلاب درويش على أفندى ، خطاطا جيدا وقوى النثر فى الكتابة . مقتدرا على كتابة أعوص المسائل على شكل تقارير دولة ودون كتابة مسودة . كان الشاعر الكبير نابى ، يقوم بوظيفة سكرتاريته الخاصة . حصل على شهرة عالمية تملى الخشية والاحترام لفتوحاته اويفار ، كانديه ، كامانيه ، حروبه فى جبهات المانيا ، كريت ، بولونيا . جعل الدولة تحيا حياة الرفاهية والنظام والعظمة التى كانت فى عهد القانونى ، مدة ١٥ عاما . وكانت السلطانة – الوالدة تارخان ، تلقن سرا ابنها محمد الرابع مساندة صدره الأعظم فى كل الأمور . لم يكن اعتباره لدى الحكام الأجانب بأقل من البادشاه . حقيقة لقد سحق بولونيا ، مما سبب توسع روسيا وتوليد العداء تجاه العثمانية فى بولونيا ، لكن بولونيا كذلك كانت مخطئة بنفس الدرجة فى عدم رؤيتها المستقبل البعيد .

ولد خلفه مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، من عابده خاتون فى قرية Marinca القريبة جدا من مرزيفون ، فى نفس العام الذى ولد فيه فاضل أحمد باشا من عائشة خاتون فى قصبة وزير كوبرى . أبوه اوروج أغا ، أحد ضباط السباهية الذين استشهدوا تحت أسوار بغداد فى محاصرة مراد الرابع لبغداد عام ١٦٣٩ ، وفى هذا التاريخ كان قره مصطفى فى الرابعة من عمره . كان اوروج ، فى ذلك التاريخ برتبة

مقدم وكتن أقرب أصدقائه خلال ذلك ، هو سنجق بك (أمير اللواء) كوبرولو محمد بك (باشا) . وقد اعتنى كوبرولو بتربية ابن صديقه مع أبنائه فاضل أحمد وفاضل مصطفى ، المتقاربة أعمارهم ، اصطحبه إلى استانبول واعتنى بتحصيله ، واعتبره ابنه المعنوى ، ثم زوجه بعد ذلك بابنته وجعله صهرا له . كان الشعب يعتبر مرزيفونلى ، الابن الآخر لكوبرولو باشا . أدار الدولة العالمية ، مع أخى زوجته ، صديق طفولته وأخيه المعنوى فاضل أحمد باشا بتناسق تام . وخلال سنوات حملات فاضل أحمد باشا الطويلة ؛ أقام فى إستانبول وأدرنه وأدار دفة الإمبراطورية بجدارة وبصلاحيات غير محدوده . صار سنجق بك (أمير لواء) فى سن ٢٤ ، وبكلربك وتسنم وظيفة قبطان دريا (مشير البحر) مدة ٤ سنوات ، شهر ، ١٤ يوما ووكيل رئيس الوزراء مدة طويلة . تنحدر عائلة مرزيفونلى – زاده – مثل عائلة كوبرولو – زاده – من ناحية الأم ، من صالحه خاتون بنت كوبرولو الذين أدركوا زماننا هذا وقدموا للدولة العثمانية العديد من رؤساء الوزراء ، وزراء ، بكلربك ورجال دولة . أهدى منجم باشى شيخ أحمد ده ده ، كتابه المسمى جامع الدول ، أبدع وأروع ماكتب فى التاريخ العثمانى باللغة العربية ؛ إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا .

٦٢) عهد مرزيفونلى قره مصطفى باشا ،وحرب روسيا (١٦٧٦ – ١٦٨٣)

نشبت الحرب مع روسيا بسبب اوكرانيا ، عين فى أوائل عام ١٦٧٧ الوزير شيطان ابراهيم باشا سردارا ، وكان يرفقته سليم كيراى خان قرم . حضر ٤٠ ٠٠٠ جندى عثمانى – قرمى أمام قلعة جهرين (Czehryn) فى اوكراينا . أبدى الـ ٦٠ ٠٠٠ جندى روسى واوكرانى الموجودين فى القلعة ، مقاومة مدهشة . رفع السردار الحصار (١٦٧٧/٨/١٤) ، عزل كل من السردار والخان . وهكذا عزل قره مصطفى باشا ، شخصا قديرا جدا ، آخر عسكرى قرمى كبير مثل سليم كيراى ، وعين مكانه مراد كيراى وهو شخصية ضعيفة وجعله خانا .

غادر محمد الرابع والصدر الأعظم استانبول للحملة الهمايونية الروسية الأولى (١٦٧٨/٤/٣٠) . هذه هى الحملة الأولى لسلطان عثمانى على روسيا . كان يقوم بهذه المهمة فيما مضى – والى ذلك التاريخ – القائد الأعلى وخاصة خان قرم . جاء

الجيش أمام قلعة جهرين على ساحل نهير Tiasmin (بالتركية : تاسما) قرب الساحل الجنوبى لنهر Dnyepr ، ولهذا السبب تسمى هذه الحملة « حملة جهرين » أيضا . كانت قلعة جهرين تقع على مسافة ٤٠ كم فى الجنوب – الغربى من مدينة Kremençug ، وجنوب – شرق كييف بمسافة ٢٣٠ كم . كانت مركزا لقوزاق اوكراينا ودخلها الروس بموافقة القوزاق . كان تحصين القلعة جيدا لاحاطتها بالمستنقعات والصخور المرتفعة وكانت الأراضى ضيقة إلى درجة لاتسمح لجيش كبير بولوجها ومحاصرتها . كان الجيش الروسى البالغ ٢٠٠٠٠٠ شخصا والذى يقوده الأمير Romo danowsky ، مرابطا على الجهة الأخرى من المستنقعات ، أى أنه كان يتخذ المستنقع حاجزا بينه وبين العثمانية .

سقطت جهرين ، رغم ذلك ، بعد حصار دام ٣٢ يوما (١٦٧٨/٨/٢١) . قتل ٢٠٠٠٠ جندى معاد والقيت أجسادهم فى نهر Tiasmin . لم يتقدم محمد الرابع إلى جهرين ، حيث كانت روسيا دولة من الدرجة الثانية ، وبقى فى سلستره ، ثم عاد إلى أدرنه ، وعاد مرزيفونلى كذلك إلى أدرنه فى ١٦٧٨/١١/٢٠ .

غادر محمد الرابع استانبول للحملة الهمايونية الروسية الثانية (١٦٨٠/١٠/٢٩) . بعد مضى سنتين على الحملة الأولى ، وقضى فصل الشتاء فى أدرنة ، لكنه عقد صلحا مع روسيا ولم تتحقق هذه الحملة .

بموجب معاهدة أدرنه (١٦٨١/٢/١١) : التى وقعت عليها العثمانية مع روسيا ، دون وساطة قرم ، ومدتها ٢٠ عاما ؛ تقسم اوكراينا بين العثمانية وروسيا . تبقى ضفاف Dnyepr الشمالية التى تقع بعد كرمنجوغ لدى روسيا ، وضفافه الجنوبية لدى العثمانية ، تبقى مدينة كييف الارثوذكسية المقدسة التى تقع على ضفافها الغربية لدى روسيا ، وعلى هذا الأساس ، فان شريطا سميكا شمال اوكراينا ينتقل إلى روسيا . يستمر القسم الأكبر من البلاد تحت الحكم العثمانى وقرم . تستمر روسيا فى تقديم الضريبة السنوية إلى قرم وتدفع المتراكم خلال سنوات الحرب الثلاث ، دفعة واحدة . بعد عقد الصلح فى استانبول استقبل محمد الرابع ، السفير الروسى (١٦٨١/٥/١٦) ، وقدم السفير هدية القيصر وهى ١١٩٤ قطعة فرو زبلن ، ١٠ مورس انثى ، ١٠ طيور صيد (هامر ، ١٢ ، ٥٥) . قال البادشاه للسفير : « قل

لمليكك ، أن يراعى الصلح ، والا تعرض للعقاب » (سلاحدار ، ١ ، ٧٥٣) .
تتضح من هذه الافادة ، ماهية روسيا ومنزلتها بالنسبة إلى العثمانية .

كان لنهيبة Côted Azur فى ١٦٦٢ ودحر الأسطول الفرنسى فى البحر الأبيض على يد الأسطول الجزائرى واغتنامه ٢٩ سفينة حربية فى ١٦٨١ ، وقع أليم على فرنسا . لم يتلق سفراء فرنسا الذين قدموا شكاوى عديدة لاستانبول ، اية اجابة ؛ لأن الباب العالى ، لم ينس تأييد فرنسا للسياسة الكاثوليكية للبندقيين والألمان اثناء ماكانت العثمانية فى حرب . يقدر عدد السفن التى كان يستولى عليها شهرياً من فرنسا وتجلب إلى الجزائر خلال العصر ١٧ ، بـ ٢٠ سفينة . كان لويس الرابع عشر ، يشعر بآثار الضرب والصفع على وجهه . لويس الرابع عشر هو الذى ضُرب سفيره بالفلقة وصفع وحبس فى يدى كوله – ولم تكن فرنسا لتجسر على مجابهة الإمبراطورية العثمانية بالحرب ، بسبب مصالحها التجارية الكبرى معها . ولكنها ساندت اعداءها جهرا فى الحروب ضد العثمانية دون أن تدخل الحرب . وهكذا ، فانه فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية فى مستهل خلاف شديد جدا مع المانيا ، كانت علاقتها متوترة جدا مع فرنسا التى هى أقدر دولة مسيحية ، وكانت فى حرب مستمرة مع أسبانيا ، علاقتها مع بولونيا سيئة جدا . البندقية وروسيا ، تمنيان النفس بالخلاص من صفع العثمانية . كان هنالك شيىء واحد يريح النفس ، فى هذا المشهد السياسى ، وهو أمانها فى الشرق من إيران .

كانت وفاة الوزير قبلان مصطفى باشا فى سفينة الإميرالية (١٦٨٠/١٢/٥) فى أزمير ، خسارة كبيرة للدولة . قبلان مصطفى باشا الذى كان صهرا لكوبرولو محمد باشا ، شغل وظيفة قبطان دريا ٧ سنوات ، ١١ شهرا ، ١٠ أيام . وخلال هذه الأيام كذلك ، منح فاضل مصطفى بك ، ابن كوبرولو فاضل محمد باشا المتوسط ؛ رتبة وزير (مشير) (١٦٨٠/٦/٢٩) .

كانت الدولة العثمانية العالمية فى قمة اعتبارها . كان هذا الاعتبار ، على الأغلب ، يقوم على الخوف . كانت العثمانية ، قد افزعت أوروبا بدرجة كبيرة ، وكانت أوروبا تريد الخلاص من هذا الخوف ، وتبحث عن وسيلة لذلك ، ولكنها لاتجدها . أقلق فينا قلقا عظيما استيلاء القائد اوزون ابراهيم باشا على كامل سلوفاكيا من أولها إلى آخرها ، وإسقاطه قلعة Fülek بعد حصار دام ١٧ يوما (١٦٨٢/٩/٢٩) واستيلائه على ٢٨ قلعة فى المنطقة ، ومنح Tökeli Lmre ، القومى المجرى عدو

الألمان ، لقب « ملك المجر الوسطى » . كانت المانيا وراء سياسة استعادة سلوفاكيا وأخذ أردل (ترانسلفانيا) تحت نفوذها ، دون أن تدخل مع العثمانية فى حرب شاملة . وكانت هذه السياسة ، تغضب قره مصطفى باشا ، وأخذت تستحوذ عليه فكرة ضرب المانيا ضربة قوية لكف يدها عن التدخل فى شئون المجر ، وتمكن من إقناع البادشاه والديوان بذلك .

٦٣) الحرب مع المانيا

اتخذ الديوان الهمايونى قرار إعلان الحرب على المانيا (١٦٨٢/٨/٦) تحرك محمد الرابع على رأس الجيش الهمايونى من ادرنه (١٦٨٣/٤/١) ، كان قد مضى على مصالحة فاشفار ١٨ سنة ، ٧ أشهر ، ٢٢ يوما ، والسلطان وابناه الشهزاده (ابن السلطان – امير) مصطفى (الثانى) والشهزاده أحمد (الثالث) ظلوا فى بلغراد . تحرك الصدر الأعظم قره مصطفى باشا مع الجيش من بلغراد (١٦٨٣/٥/٢٤) . إن تحرك السردار الأكرم « للإستيلاء على النمسا بجيش لم تتمكن أية دولة حتى ذلك التاريخ من تأليفه وجمعه » (Fernard Grenad ص ٩٩) ، لم يقلق المانيا وحدها فقط ؛ بل أقام أوروبا وأقعدها .

عند أى حد سيقف هذا العثمانى ؟ هل يريد الوصول إلى الراين ويجاور فرنسا ؟.

كان يحمى مقدمة الجيش الهمايونى بكلربك دياربكر الوزير قره محمد باشا والمؤخرة الوزير حسين باشا بكلربك الشام . وجاء كل من خان قرم ، وملك المجر الوسطى ، وفويفودات أردل وبغدان وافلاق وقبلوا رداء الصدر الأعظم فردا فردا وانضموا إلى الجيش الهمايونى . حضر بانات الخروات والسلوفينيا إلى الجيش واقروا للسلطان بأنهم أحقر التابعين له . كانت ١٥٠ قطعة من السفن غير العريضة فى الدونة تتقدم مؤخرة الجيش .

أبلغ لويس ١٤ ، الامبراطور بأنه يمكنه سحب جميع قواته الموجودة على الراين واستعمالها ضد الأتراك ، وقدم له تأكيدا بعدم حدوث أى ضرر من فرنسا وأنه سيرسل له فرقة أخرى . أخذت الحرب العثمانية – الألمانية ، طابع القتال بين

المسيحيين – الإسلام ، أوروبا – آسيا ، الصليب – الهلال . وبينما كان حزب Whig فى انكلترا ، يؤيد العثمانية ، وحزب Tory يؤيد الألمان ، اتخذ حزب Whig فى ١٦٨٣ قرارا بمساندة حزب Tory والتحرك ضد العثمانية . كانت هولندا ، تنفذ رغبات انكلترا ، وكانت إيطاليا وأسبانيا والبرتغال أيضا إلى جانب ألمانيا ، دعا البابا كافة المسيحيين إلى الجهاد المقدس . كانت بولونيا والبندقية مصممتين على التحامل على العثمانية وتعويض أضرارهما . كان القيصر بترو الكبير ، لايزال مترددا ، فقد كان يخشى قرم وبولونيا والسويد ، كانت السويد ، تقف على الحياد ، وكان الدانمارك عدو السويد إلى جانب المانيا .

فى ٢٧ حزيران (١٦٨٣) جمع الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، مجلس الحرب فى Istolni - Belgrad (بالمجرية : Székesféhervr بالألمانية : Stuhlweissenburg) . وأعلن أنه سيستولى على فينا ويملى على المانيا شروط الصلح هناك ، لأن مجرد الإستيلاء على يانق قلعه (بالمجرية : Raba ، بالألمانية Raab) ، لايمكن أن يخضع المانيا ويجعلها تكف يدها عن شئون المجر . تحير الوزراء . وقال الوزير داماد إبراهيم باشا بأن إرادة البادشاه هى الاستيلاء خلال هذا العام على يانق و Komorn ومناوشة أوروبا الوسطى بواسطة كتائب الصاعقة ، ويحتمل أن تكون الحملة إلى فينا فى العام المقبل . أجاب مصطفى باشا أنه فى الوقت الذى يتجمع فيه جيش كهذا ، فإن الأمر يقتضى إنزال ضربة قاضية ، والا فستطول الحرب ، وأن المانيا عقدت الصلح مع فرنسا وبقيت حرة فى الغرب وأن الملك سوبياسكى ، اتفق مع الإمبراطور لاستعادة بادوليا ، ولابد من أن تكون البندقية كذلك ضمن هذا الاتفاق ، وأن روسيا ، فى محاولة البحث عن السبل التى توقع بها العثمانية ، وأن الدول التى لم تعقد صلحا مع تركية كاسبانيا ، البابوية ، مالطه ، فلورنسا من الطبيعى أن تكون بجانب المانيا ، إن هذا الاتفاق ، إما أن يكسر هذا العام ، أو أن الحرب ستطول كثيرا إلى زمن غير محدد . لم يبلغ السردار الأكرم ، البادشاه بتوجيه حملته نحو فينا ؛ إلا بعد بدء الحصار بـ ٦ أيام فى ١٨ تموز وقال محمد الرابع مخاطبا وكيل رئيس الوزارة الوزير الثالث ابراهيم باشا : « لو كنت أعلم ذلك مقدما لما أذنت » (سلاحدار ، ٢ ، ٣٩) ؛ وعلى هذا فإن رجال العثمانية يكونون قد انقسموا إلى قسمين: فريق يرى

أن تهديد فينا عاصمة المانيا الإمبراطورية سيخيف كافة أوروبا ويحرضها على القيام ، ويؤيد هذا الرأى قره مصطفى باشا ، وفريق يرى أن الاستيلاء على يانق قلعة ، سيخيف المانيا ويحول دون حصول اتفاق كبير ضد العثمانية وهذا هو الذى يراه البادشاه .

٦٤) بدء حصار فينا الثانى (١٦٨٣/٧/١٤)

وصل الجيش الهمايونى أسوار فينا (بالعثمانية بج) بعد ٣ أشهر ، ١٣ يوماً من حركته من أدرنة (١٦٨٣/٧/١٤) . جاء السردار الأكرم إلى المحل الذى نصب فيه السلطان سليمان القانونى سرادقه الهمايونى قبل ١٥٤ سنة . وخلال ذلك ، كانت وحدات الصاعقة قد استولت بشكل تام على ايالات Burgenland Stirya وايالة النمسا الشرقية النمساوية ، ووادى الدونه حتى Linz ، وكذلك دخلت بعض وحدات الصاعقة إلى سويسرا . بدأ قره مصطفى باشا الحصار بـ ٦٠٠٠٠ جندى ووزع جيشه على ساحة واسعة جدا كان قصده ، قطع طريق المساعدات القادمة ، لكن ذلك كان فى الحقيقة خطأ عسكريا .

هُزم دوق لورين (Lothringen) جارلس (الملك) الذى عين قائدا عاما لجيوش الإمبراطورية أمام قره مصطفى باشا ، وبدأ فى جمع جيوشه فى شمال - غربى فينا وأخذ ينتظر الجيوش التى ستأتى من أوروبا ، وترك الإمبراطور ليوبولد الأول فينا وابتعد والشعب يصيح ويصرخ . نهب الشعب الغاضب ، سراى الإمبراطور وبقى دفاع فينا على عاتق الكونت Ernest rüdger Von Starhem berg المسن . كانت المدينة تعتمد على مدافعها التى تعد بالالآف ، وأُسوارها المتينة وخنادقها ، وقوات الإمدادات التى ستصلها . فتح حسين باشا براتسلافا (بالالمانية : Pressburg) واغتنم تاج امبراطور المانيا الموجود فيها (١٦٨٣/٦/١١) . وبعدها تم الاستيلاء على كامل سلوفاكيا إلى حد مورافيا وغاليجيا - راتسلافا هى مركز سلوفاكيا الموجود على حدود النمسا ، على مسافة ٣٠ كم عن شرق فينا - وصل الأتراك كذلك إلى حد بافيرا .كان الامبراطور ليوبولد ، فى لينز ، أما القائد العام كارل فقد كان فى ليوبولد ، على بعد ١٥ كم من فينا ، وأرسل مرزيفونلى محمد باشا ، بكلر بك أدنه

للحملة على كارل ، وقد كان لدى كارل دوق اللورين ، ٤ فرق المانية وفرقتان بولونيتان وبعد التحامه مع الأتراك الذى دام ساعتين ، هزم وطلب إلى جنرال شولتر نسف الجسر الموجود على الدونة وانسحب إلى الضفة الأخرى من النهر . ونفذ قراره القطعى والصائب بعدم دخول أية حركة مالم يتسلم الإمداد . دخل الأتراك مدينة ليوبولد وأحرقوا قصر الإمبراطور الصيفى (هامر ، ٩ ، ٩٨ - ٩) .

كان قره مصطفى باشا ينتظر وهو متأكد من سقوط المدينة ، وفى أواخر أيام الحصار استشهد ٢٠٠٠ سباهى خيال تقريبا ، ٢٠٠٠ خيال قرمى تقريبا ، ٢٥ يايا باشى (نقيب انكشارى) ، ١٦ شوربه جى (مقدم انكشارى) ٣ ، بكلربك (فريق) . وبالنسبة إلى هامر (١٢ ، ٥٠٨ - ١٠) كان الجيش الهمايونى يتكون من ٠٠٠ ١٦٢ جندى تقريبا ؛ حوالى مائة الف منهم منتشرون على ساحة واسعة ، ومايقارب ستين الفا يشتركون فى الحصار . كان مدافعو فينا ، فى بداية الحصار ١١٥٠٠ جندى ، انخفض عددهم إلى ٥٥٠٠ ، البقية ماتوا ، وقتل من أفراد الشعب ١٦٤٨ شخصا .

كان لدى دوق لورين ٠٠٠ ٨٥ جندى . أما الملك سوبياسكى فكان فى الطريق مع ٣٥٠٠٠ جندى وعلى وشك الانضمام إلى جيش الألمان الإمبراطورى السيَّار . وكان ٠٠٠ ٤٠ من هذا الجيش البالغ ٠٠٠ ١٣٥ جندى ، خياله . اعتبارا من أول أيلول ، بدأت الجيوش فى الانضمام ، وبدأت المساعدات فى الوصول من جميع الأطراف . استحوذت جاذبية فينا على قره مصطفى باشا ، وشلت بصيرته . وبدلا من أن يفرق هذا الجيش ، كان ينتظر سقوط المدينة . والواقع أنه لو تمكن من إفناء جيش العدو أو على أقل تقدير ، لو كسره وشتته ، لسقطت المدينة لحالها . التأمت جيوش الأعداء بشكل كامل فى ٧ أيلول ، وترك دوق لورين القيادة العامة إلى سوبياسكى الذى يفوقه منزلة فى السلطة ، لكن العسكرى الفعلى الكبير ، هو الملك دوق لورين . وبينما استكملت كافة استعدادات المتفقين فى ١١ أيلول ؛ كان الكونت يشعر من فينا بأن سقوط القلعة رهين بأيام أو ساعات . وعلى هذا أقدموا على عمل ، كثيرا ماترددوا فى فعله ، وهو عبور جسر الدونه جبرا ، مع القبول بالخسائر الكبيرة التى ستحدث ، لأن الجسر بيد الأتراك .

لم يكن بالإمكان إيصال الإمدادات إلى فينا دون عبور الجسر . كلف قره مصطفى باشا ، خان قرم مراد كيراى بمهمة حراسة الجسر ، ونسفه عند الضرورة وعدم السماح للعدو بعبوره . كان مراد كيراى . يكره الصدر الأعظم الذى يعامله معاملة قائد صغير . كان يعتقد بأن فشل الصدر الأعظم فى فينا ، يسقطه من السلطة ، ولم يكن يخطر بباله بأن خسارة كهذه ، ستغير مجرى التاريخ العالمى . قرر حفيد جنكيز ، فى البطن ١٨ ، أن يظل متفرجا على عبور المتفقين الجسر بحرية وفكهم الحصار ، وتوضيحا لهذه النقطة ينبغى أن نذكر أنه كان بالجيش العثمانى وزراء وبكوات (بكلربك) عديدين يخشون جدا من أن يكون قره مصطفى باشا فاتحا لفينا ، التى لم يقدر السلطان سليمان القانونى على فتحها . ويذكر المؤرخ الكبير ، ومحافظ مخزن الأسلحة السلطانى مستقبلا فندقلى محمد آغا ، الذى اشترك فى الحصار بالذات ، مسألة عبور المتفقين الجسر كما يلى بالضبط (٢ ، ٨٢) :

« كان حضرة الخان مكلفا بحماية جسر اسكندر (Insburg) الحجرى الكائن على نهر الدونه العلوى الذى يبعد عن بج (فينا) مسافة ٦ ساعات مع جنوده التتر منذ بدء الحصار . وبينما كان قادرا على منع مرور الجيشين النمساوى والبولونى ، لم يصدهما وأخذوا بالمرور فوجا فوجا وأغاروا على عساكر المسلمين. كان منذ يوم واحد يقف ممتطيا جواده على مكان عال مشرف على الجسر وبيده السوط ؛ ضاغطا على قبضته بكفه واضعا يده على خصره يتفرج على مرور الكفار (من الجسر) . وعندما اقترب إليه الإمام الموجود فى معيته قائلا « أيها الخان ألا يمكن ضرب هؤلاء الكفار الذين يمرون فوجا فوجا وقطع مؤخرتهم ؟ » أجاب : يأفندى ، أنت لاتعلم مبلغ الظلم الذى لاقيناه من هؤلاء العثمانيين . قللوا من شأننا إلى درجة أن قيمتنا لديهم لم تعد بقدر قيمة كفرة افلاق وبغدان ؛ كتبت وأعلمت (السردار الأكرم) مرات عديدة ، عن تجمعات وحركات هذا العدو .. لم يرتد عن عناده ولم يعر كلامى أى اهتمام . وفى أجوبته العديدة المليئة بالعتاب التى أرسلها ، كتب يقول : إننا سوف نأكل لحم الحصان الجائف ، إن شاء الله تعالى ، إن دفع هذا العدو ، كان سهلا بالنسبة لى ، وأعلم أن ذلك خيانة ، لايسمح بها ديننا ، فلير العثمانيون ماذا يعادل قدرهم (كم قرشا يعادل قدرهم) ، وليعلموا منزلة التتر . قال ذلك ولكز حصانه آخذا جنوده التتر ، سائرا أمام الكفار ... متلكئا ، اليوم (١٩ رمضان = ١١ أيلول الجمعة) الوقت يقترب إلى العصر ،

جاء إلى الجيش الهمايونى الكائن أمام فينا متوجها إلى سرادق السردار الأعظم ونزل وسرد واقع حال العدو (عبوره الجسر) » .

وبهذه الفاجعة التى حدثت فى ١١ أيلول ، جرت خيانة من أكبر الخيانات التى شهدها التاريخ التركى . وفى يوم السبت المصادف ٢٠ رمضان ١٠٩٤ من الهجرة و ١٢ أيلول ١٦٨٣ من الميلاد ، قبل العيد بـ ١١ يوما ، تقابل الجيشان أمام عاصمة إمبراطورية روما الغربية ليتجمد سير تاريخ المستقبل .

٦٥) معركة KAHLENBER 6 (بالعثمانية : المان داغى) الميدانية (١٦٨٣/٩/١٢)

كان ضمن جيش المتفقين ، ملك بولونيا ، رئيس وزرائها ، وخمسة أمراء لواء بولونى ، ومن الألمان ٨ دوق ، ٢ Margrav (ماركيز) ، ٧ كونت ، ٤ أمراء ، (أكثر هؤلاء حكام المان) ، ٩ من هؤلاء برتبة مارشال (مشير) وكل واحد منهم على رأس فرقة من الجيش . ومن ناحية أخرى ، كان فى جيش العثمانية ٩ مارشالية و ٨ برتبة فريق (للتعرف على أسمائهم : هامر ، ١٢ ، ١١٤) . يقول المؤرخ الكبير النمساوى البارون فون هامر « كان هذا جيشا جيدا ويوم ١٢ أيلول ١٦٨٢ ، كان يوما جيدا » .

كان المتفقون مزهوين باجتيازهم الدونه دون أن تسكب قطرة دم واحدة ، ولكنهم كانوا مع ذلك حذرين . كان العثمانيون فى حالة سأم ، لعدم تمكنهم من إسقاط فينا ومذهولين لاجتياز العدو الجسر . لم يتبلور الوضع بصورة تامة فى الحرب الميدانية التى بدأت صباحا ، حتى وقت الظهر . لم يقاتل القرميون كما يجب بل كانوا مشغولين بحماية أنفسهم وغنائمهم ، ذلك أنهم كانوا قد حصلوا على غنائم ثمينة جدا ولايشغلهم إلا إيصال هذه الغنائم إلى بلادهم وهم أحياء . كانت علاقة الوزير قوجا إبراهيم باشا ، قائد الجناح الأيمن ، سيئة جدا مع الصدر الأعظم ، وبعد الظهر بقليل ، سحب الجناح الأيمن من ساحة الحرب وانفصل ، فى الوقت الذى لم تكن هنالك أية علامة للهزيمة .. هذه الخيانة سببت الهزيمة . هجم العدو بكل قوته على مركز العثمانية ، وحوالى الساعة ٤ (١٦) ، أدرك المتفقون أنهم على وشك

الانتصار . لم يكن الجيش العثمانى يحارب جيدا ؛ فقد شرب طيلة مدة الحصار آلاف البراميل من الشراب ، وعاشر آلاف النساء ، وحصل على غنائم ثمينة . وفى الساعة ٧ (١٩) مساء ، قطع السردار أمله فى النصر ، ولكى ينقذ الجيش ، أعطى أمر الانسحاب . نجت فينا فى الساعة الـ ٧ مساء (هامر ، ١٢ ، ١١٥) .

وقع فى يد المتفقين ، سرادق السردار الأكرم الذى يقارب حجمه السراى الكبير ، ٥٠٠٠ خيمه ، ٣٠٠ مدفع ، أرشيف الجيش ومهمات كثيرة جدا . استشهد مايقارب ١٠٠٠٠ جندى عثمانى ، وجرح آلاف . وكانت خسائر العدو بنفس الدرجة . لم يعد أمام قره مصطفى باشا مايفعله ، سوى تركه ساحة القتال وقد وفق فى تحديد ساعة الانسحاب بشكل صائب جدا ؛ فقد كانت مقاومته أكثر من ذلك تولد فاجعة ، وانسحابه قبل ذلك ، كان من الممكن أن يسبب كارثة أيضا . فتح فى السور ٦ فتحات ، كل فتحة بعرض مترين ولتوسيع هذه الفتحات ، وضعت الألغام وهى على وشك التفجير ، أدهش هذا المنظر ، قيادات المتفقين . جرح الكونت Von Starhemberg وفقد ثلثى جنده ، قتل ٢ كونت ٣ بارون . أخذ الجيش التركى معه أثناء انسحابه ٨١٠٠٠ أسير ، أمكن إنقاذ البقية (هامر ، ١٢ ، ١١٩) . وفى اليوم التالى كان الملك سوبياسكى ، يكتب إلى ملكته الحبيبة الفرنسية الأصل هذه الرسالة : « إننى عاجز عن تعريف العظمة والثراء والذوق الرفيع الذى شاهدته فى سرادق مصطفى باشا . داخل السرادق ، توجد حمامات ، حدائق ، حنفيات وطيور ... إن أهم غنيمة حصلت عليها من بين حاجيات داخل السرادق ، نطاق ملىء بالماس ، ساعتا جيب مرصعتان بالماس ، يواقيت لآلى ، يواقيت زرقاء ، أثمن أنواع السجاد وألف خارقة لم أستطع كتابتها . ولاننس أثمن أنواع الزبلن (الفرو) على وجه الأرض . لكننى لم أستطع أن أظفر بخزينة الجيش . يظهر أن الأتراك هربوها . إن الحاجيات التى ذكرتها أعلاه ، كلها حاجيات السردار الشخصية » .

٦٦) نهاية حملة فينا

وهكذا غادر الجيش الذى يقوده قره مصطفى باشا فينا ومعه ٨١٠٠٠ أسير والغنائم التى يمكن حملها ، وتركت المهمات الثقيلة للعدو .

وتؤكد وثائق الأرشيف البولونى التى نشرت ، أن خيانة مراد كيراى ، لم تكن بالشىء البسيط ، وإنما كانت خيانة كبيرة جدا ، اقترفت عمدا ، فهو يصرح فى رسالته التى كتبها لسوبياسكى بأنه سينسحب دون قتال . ويظهر أن ذلك أعطى لسوبياسكى الجرأة على عبوره الجسر دون خشية . ومن ناحية أخرى فإن أخطاء قره مصطفى باشا كانت كبيرة كذلك ، فمثلا أثناء احتفال المسيحيين بيوم خلاص فينا التى يقدسونها ، انسحب قره مصطفى باشا المغرور ، البخيل والحريص من النمسا إلى المجر ، ولم يحاول إسقاط فينا بهجوم عام ؛ فقد أدى بخله المفرط إلى الحرص على ألا ينهب جيشه المدينة ، وانتظر استسلامها لحالها » (فون هامر ، (١٢ ، ١٢١ - ٢) . حيث ينص القانون الدولى ، على ألا تنهب المدن التى تستسلم لحالها .

فقدت الدولة التركية ، بهزيمة فينا ، ديناميكية الهجوم والتوسع الذى بدأه السلطان الب ارسلان فى ٢٦ آب ١٠٧١ . ينتظر تركية ، بعد هذا التاريخ التوقف ، الانسحاب ، الانفكاك ، السقوط . وسوف يصل هذا فى ١٩٢١ إلى حد نهر صقارية .

جاء الجيش الهمايونى الذى حاصر فينا ٥٩ يوما أمام يانق قلعة فى ١٤ أيلول وهو نصف طريق فينا - بشته . كان داماد إبراهيم باشا بكلر بك بودين (المجر) ينتظر قدوم الجيش هنا . جاء إبراهيم باشا الذى قيل إن « تركه ساحة القتال لغرض شخصى وإقدامه على الفرار قبل الكل ، كان سببا للهزيمة » (راشد ، ١ ، ٤٢٠) ، فقد قصد الإيقاع بقره مصطفى باشا ، لكى يعود ذليلاً . عزل إبراهيم باشا ، الذى ترك ساحة الشرف دون أن يكون هنالك أى سبب عسكرى ودون أن يحصل على إذن من القائد الأعلى ، وسبب انكسار ثلث الجيش التركى والهزيمة النهائية فى الحرب ، نزل أمام سرادق السردار وقبل رداء السردار » (سلاحدار ، ٢ ، ٨٨) . وبخه مصطفى باشا قائلا « أيها الشيخ الملعون ، فررت ، وبفرارك كنت السبب الكلى فى هزيمة العساكر الإسلامية كافة » وأمر بقتله .

لم يكن إبراهيم باشا جبانا ، أو عسكريا غير قدير ، فحياته العسكرية الطويلة مليئة بالشرف ، ولكنه ارتكب هذه الخيانة التى لايصدقها العقل ، لإسقاط مصطفى باشا لاغير هامر (١٢ ، ١٢٢ ــ ٣) . وقبل قطع رأسه ، قال للشاويش باشى

(رئيس مرافقى السلطان) هذه الجملة : « قل لبادشاهنا ، لايستطيع أحد أن يتلافى مافات غير مصطفى باشا » . يقصد بذلك ، ألا يعزل البادشاه مصطفى باشا بسبب الهزيمة،وأن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يزيل آثار الهزيمة هو مصطفى باشا . يظهر أن ضميره أنبه وأدرك إضراره بمستقبل الدولة التى منحته مؤخرا رتبة الوزارة وبنت السلطان .

وفى هذه الأثناء ، كانت كنائس فينا كلها تدق أجراسها ، فتجاوبها كل الكنائس القريبة التى تسمع صوت الأجراس . وهكذا وخلال عدة أيام ، بدأت كافة أجراس العالم المسيحى تدق - إلى أبعد الأماكن فى أوروبا - على شرف خلاصها من الخطر التركى .

سيطر مرزيفونلى ، الذى مكث ٣ أيام فى يانق قلعة على ضبط الجيش بشكل تام . لم يكن هنالك خسائر مهمة . كان الجيش الهمايونى ، يقدم عادة خسائر بنفس هذه الدرجة فى انتصاراته الكبيرة . كانت هنالك فى أيالتى Stirya و Burgenland النمساوية وحدات عثمانية تحت قيادة ٣ بكلربك . وعند سماع هذه الوحدات خبر الهزيمة ، التأمت أولا ، قرب Graz ، ثم انسحبت إلى Kanije (هامر ، ١٢ ، ١٢٤ - ٥) . وفى ٢٢ أيلول ، قدم الجيش إلى بودين . ظل قره مصطفى باشا ، هنا ٢٤ يوما إلى ١٦ ت١ . ولكى يعدم مراد كيراى فى أول فرصة ، عزله وعين مكانه ابن عمه حاجى كيراى ، خانا . عزز قلاع الحدود .

من ناحية أخرى ، تحرك جيش المتفقين من فينا ، على أمل استقطاع بعض الشىء من العثمانية ، قبل فوات موسم القتال ، كان الملك Tökeli قد أخلى Bratislava وانسحب إلى Kosiee (بالعثمانية كاشا) . اجتاز المتفقون نهر Raba نحو الشرق ودخلوا الأراضى العثمانية . كانت هنالك ضاحية جكردلن (بالألمانية : Parkany) فى الساحل الشمالى من الدونة واستركون (حاليا جيكوسلوفاكيا) وكان يربطهما جسر (بقايا هذا الجسر الحجرى العظيم المنهدم تشاهد على نهر الدونه فى الحدود المجرية - الجيكية ، كنموذج يظهر عظمة العثمانيين حتى يومنا هذا . كان بكلربك (فريق) بودين الوزير قره محمد باشا ، حديث السن ، جسورا ، عسكريا مقتدرا . جاء إلى هنا وأخذ ينتظر العدو ، تقابل هنا الملك سوبياسكى بجيشه البالغ ٦٠٠٠٠ مع ٣٠٠٠٠ من جنود محمد باشا . قتل محمد باشا ، الذى خرج من بين الأدغال

بغتة أمام الفرق البولونية فى المعركة الميدانية جكردلن (١٦٨٣/١٠/٧) ١٠٠٠٠ جندى معادى بخسائر طفيفة . تراجع سوبياسكى الذى ظن أن قره مصطفى باشا باغته . وبعد يومين توحد مع دوقين لورين ؛ فأصبح ١٥٠٠٠٠ جندى معاد أمام ٣٠٠٠٠ من جنود محمد باشا ، وانسحب بعد أن خسر ٧٠٠٠ شهيدا و ٣٠٠٠ جريح. وتسمى هذه الهزيمة معركة جكردلن الميدانية الثانية . استشهد بكلربك بوسنه خضر باشا وأسر كل من خليل بآشا بكلربك سيواس ومصطفى باشا سنجق بك سلستره . كان Tökeli Imre مع ٣٠٠٠٠ مجرى وحاجى كيراى مع ٣٠٠٠٠ خيال قرمى على وشك اللحاق . وعندما علموا بهزيمة محمد باشا ، عادوا على أعقابهم . قاومت استكون تجاه المتفقين ٢٢ يوما وسقطت يوم ١ ت١٦٨٣/٢ . كان المتفقون قد نسفوا جسر استركون - جكردلن الكبير على نهر الدونه ومنعوا وصول الإمدادات ؛ ومعنى ذلك أن محمد باشا لم يتمكن إلا من إدخال ٥٠٠ جندى فقط إلى استركون . انتقل فى استركون إلى يد المتفقين ٥٠ مدفعا و ١٠٠٠ كنتال بارود . كانت كل من جكردلن واستركون مركزا هاما لكتائب الصاعقة ، وكلتاهما من فتوحات السلطان سليمان القانونى ، وقد ظلت تحت الحكم العثمانى ١٢٨ سنة (١٥٤٣ - ١٥٩٤ ١٦٠٥ - ١٦٨٣) . فتح ، هذه القلعة التى كانت محل إقامة أسقف المجر والمركز الدينى للبلاد ؛ القانونى تجاه ٥٠٠٠٠ من جنود الأرشيدوق ماثياس Mathias وحكمها حكما عظيما جدا وفى اليوم التالى ، عاد سوبياسكى ، مودعا دوق لورين إلى وارشو .

من ناحية أخرى ، أمر ، قره مصطفى باشا الذى جاء من بودين إلى بلغراد خلال ٣٣ يوما (١٨ ت٢) خان قرم ، أن يقضى الشتاء فى الحدود . وعندما علم مراد الرابع بالهزيمة ، تحرك فى ١٢ ت ١ من بلغراد إلى أدرنة . حاجى كيراى البالغ عمره ٣٥ عاما ، اتخذ مدينة ياش مقرا لمشاته . وهكذا أغلق عام ١٦٨٣ المشئوم.تسلقت العثمانية وآسيا إلى القمة ، ثم سقطت منها . شرح الفرنسى Fernard Grenard الاخصائى الكبير فى تاريخ آسيا ، التوازن العالمى فى تلك الحقبة فى أثره الذى كتبه عام ١٩٣٨ كما يلى :

« نحن الآن فى النصف الثانى من القرن ١٧ ، فى عهد لويس ١٤ . آسيا فى ذروة عظمتها وسطوتها . هذه القارة ، تحت سيطرة ٤ دول كبرى - الثلاث الأول

تركية - الهند ، ايران - والصين . تضم بين جوانحها أقدم حضارات العالم وذكريات التاريخ البشرى التى تستحق أجل الاحترام . أما الشعوب الأوروبية ففى نزاع تتقاسم قطع الإمبراطورية الوحيدة التى ورثوها ، روما الغربية ... تعداد آسيا فى ذلك التاريخ ، ٣ أضعاف تعداد أوروباوهذه النسبة التى انخفضت اليوم (١٩٣٨) إلى نسبة ١/٨ ، تكون بالضبط بنسبة ٣/٤ . كانت تعيش بسعادة فى جو عظمة ورفاهية ، تنبع تربيتها عن عاداتها وأعرافها ، لها تاريخها البعيد الجذور فى الفن والأدب لقد وصلت المدى الذى لايتصور أن تصل إلى أبعد منه . كان ثراء مواردها وخزائنها ، يبهر العقول ويغذى الخيال . أما الغربيون ، فمجتمعون حول بضعة ملايين من الذهب المتداولة فى أوروبا ، يولولون ويصرخون ولولة وصراخا عظيمين ، وبنو تيمور فى الهند مستغرقون فى رفاهية لامثيل لها . كأنهم فوق هاوية لاقعر لها مليئة بالذهب ، والفضة ، والماس . أما تركية فتمتاز فوق ذلك بأنها أقدر قوة عسكرية على وجه الأرض .. إن أباطرة الشرق هؤلاء ، حتى ولو أنهم اعترفوا بحكام أوروبا ، كحكام ؛ إلا أنهم ينظرون إليهم من علو شاهق . يقبلون السفير ، لكنهم يتعالون عن إرسال سفير دائم إلى أوروبا ... » .





البحث السادس

عصر التوقف
(١٦٨٣ - ١٧٦٨)



عصـــر التـــــوقف
(١٦٨٣ - ١٧٦٨)

(١) سقوط مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٨٣/١٢/١٥)

انتهت الدولة العثمانية العالمية . كانت العثمانية لاتزال أيضا الدولة الأولى فى العالم ، لكن العصور التى كان فيها نفوذها يعبر القارات ويوجه سياسة وتاريخ العالم ، أصبحت فى ذمة الماضى . كانت قد بليت وانقرضت فيها قوة الاندفاع ، الفاعليه ، الجرأة ، دهاء التوسع . وفى العصر التالى ستكون غايتها الوحيدة هى الحفاظ قدر الإمكان ، على ماتملكه .

تلقى محمد الرابع خبر الهزيمة ، ولم يعره اهتماماً فى البداية ؛ فالأمر لايزيد على أنهم فشلوا فى الاستيلاء على قلعة !! وهكذا الحرب .. لاتنتهى ضرورة بالنصر !! .

فتح كوبولو – زاده فاضل أحمد باشا ، كاندية بعد جهود دامت سنوات طويلة . أرسل إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، عندما كان فى بودين ، سيفا مرصعا وكتابا همايونيا يواسيه ويباركه لتمكنه من إعادة الجيش إلى بودين بخسائر قليلة .

كانت السلطانة – الوالدة الذكية التى تتبنى عائلة كوبرولو ، قد توفيت قبل هزيمة فينا ببضعة أشهر (١٦٨٣/٧/٥) . وقد عبر الشعب الذى يعلم دورها الكبير فى الدولة عن تأثره بهذه الجملة « ذهب ركن الدولة الأعظم » (راشد ، ١ ، ٤١٥) .

كان مرزيفونلى ، حديث السن ، ولم يكن معتل الصحة مثل فاضل أحمد باشا ، كان قوى البنية ، لايتعاطى المشروب ، ترى هل سيبقى صدراً أعظم إلى نهاية حياته ويكون استمرارا لدور الباشوات كوبرولو محمد باشا وفاضل أحمد باشا ؟ .

كان كثير من الوزراء يتحرقون شوقا لمنصب الصدارة ، ولم يكن هنالك ذريعة ، أحسن من هزيمة فينا . فى المرة القادمة وفى أول فرصة ، سيعدل مرزيفونلى الوضع بصورة أكيدة ، وسوف لايمكن إزاحته بعد ذلك عن منصبه مطلقا . أخذ العديد من رجال الدولة فى التأثير على مراد الرابع لإسقاط صدره الأعظم . كان رائدهم الوزير الثالث وقائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) قره مصطفى باشا . المعروف فى استانبول عن صارى سليمان باشا ، أنه عندما سمع خبر هزيمة فينا ، أمسك المنديل بيده وأخذ يرقص . لأن مرزيفونلى ، كان وزيرا شديدا ومغرورا . فاضل أحمد باشا كذلك ، كان محسودا ، لكن الحملة ضده لم تكن قوية جدا . يكن مغرورا ولامتكبرا ، وكان يعامل أصدقاءه من الوزراء معاملة الصديق لصديقة ولايتكبر عليهم .

ولما لم تجد اللمذات والايحاءات التى دبرتها أخت البادشاه (التى أمر مرزيفونلى بإعدام زوجها الخائن ابراهيم باشا) ، فى اقناع البادشاه ، عندئذ رتبوا رسائل مزيفة تفيد أن الجيش لايريد مرزيفونلى وأنه سوف يعلن عصيانه ، إذا بقى على رأسه صدرا أعظم مغلوبا .. تمكنوا من غش محمد الرابع . ولما كان الجيش هو درع الدولة الأول ، ولايمكن اللعب معه ، عزل محمد الرابع ، قره مصطفى باشا وعين مكانه الوزير الثالث قره إبراهيم باشا (١٦٨٣/١٢/١٥) . صدارة مرزيفونلى ، دامت ٧ سنوات ، وشهرا ، ١٠ أيام . وأعدم بعد ١٠ أيام (٢٥ ك١) . قرأ قره مصطفى باشا الذى سعى ليلا ونهارا فى تجهيز الحملات والذى يملك مكانة ممتازة فى الجيش ، الخط الهمايونى الذى حمله له رئيس تشريفات السلطان ، كزار – زاده أحمد أغا بكل هدوء . صلى . ثم صاح بالجلاد بنفسه وطلب قطع رأسه . سودت هذه الفاجعة التى جرت فى بلغراد ، مستقبل الدولة وقضت على الشخص الوحيد الذى كان يملك القدرة لتعويض ماضاع . كان فى سن ٤٨/٥ .

انتهى دور كوبرولولر (عائلة كوبرولو) . وبدأ « قحط الرجال » ، كما كان فى الأزمنة التى تسبق عهد كوبرولو محمد باشا قبل ٢٧ عاما . بدأ الأشخاص الذين لايستطيعون تنفيذ واجباتهم التى تقتضيها مقاماتهم ، يتعاقبون الواحد تلو الآخر . قره مصطفى باشا ، الذى يقال عنه « من أعظم وزراء العثمانية ومن أعظمهم غرورا بنفس الدرجة » (هامر ، ١٢ ، ١٣٥) المكروه لدى العالم المسيحى آنذاك والآن أيضا .

كان قائمقام الصدارة فى المركز لسنوات عديدة ، طيلة مدة بقاء قره مصطفى باشا فى الحملات ، بايبوردلى قره مصطفى باشا ، فى ٦١ من عمره وزيرا حريصا ، ولئيما ، وجبانا وغير كفء . وقد حافظ داماد صاحب مصطفى باشا أحد رجال السراى الذى يحمل لقب الوزير الثانى منذ سنوات عديدة ؛ على مقامه . ينشغل بأعمال السراى والأمور العلمية والفنية ، ولايتدخل كثيرا بالسياسة ، ولايؤمل أن يكون صدرا أعظم . قره إبراهيم باشا ، هو الشخص الذى سانده مرزيفونلى وأعطاه الرتبة . وهذا يعنى أن مرزيفونلى ، لم يتمكن حتى من اختيار الوكيل الجديد له . كان هنالك وزير يمكنه صيانة الإمبراطورية من المصائب ، وهو كوبرولو – زاده فاضل مصطفى باشا ، لكن قره إبراهيم باشا ، عين هذا الوزير الذى يصغر مرزيفونلى بسنتين خارج استانبول فورا . كان كأنما هنالك اتفاق بين العديد من رجال الدولة على التخلص من (كوبرولولر) عائلة كوبرولو .

٢) السنوات الأولى للحرب الكبرى (١٦٨٤ - ١٦٨٦)

تسمى فترة الـ ١٥ سنة ، ٤ أشهر ، ١٤ يوما التى مضت بين هزيمة فينا وصلح كارلوفجه فى التاريخ العثمانى « سنوات المصيبة » . حرب العثمانية لوحدها أمام ائتلاف أوروبى (١٦٧٣/٩/١٢ - ١٦٩٩/١/٢٦) أعلن الحرب على العثمانية كل من امبراطور المانيا ، ملكية بولونيا ، جمهورية البندقية ، البابوية ، ملكية اسبانيا ، دوقية توسكانا الكبرى ، فرسان مالطه ، وبعد مدة ، روسيا القيصرية . وكانت العثمانية فى وضع صيانة حدودها الممتدة من قفقاسيا إلى فاس . لكن الحروب الكبرى جرت فى المجر ، بولونيا ، اوكراينا ، دالماجيا ، مورا . المفروض أن تبقى فرنسا على الحياد ، ولكنها ساندت المتفقين بإرسالها وحدات . إن الائتلاف المسمى « Sainte - Allianee » (الاتفاق المقدس) ، كان يحمل الروح الصليبية والنزعة الكاثوليكية . كانت الغاية منه إخراج المسلمين والأتراك من أوروبا إلى آسيا ، وتنحية تركيا ، وجعل آسيا بلا مدافع لوضع اليد على أكبر قارة فى العالم .

الصدر الأعظم الذى سيدافع عن العثمانية تجاه هذا الائتلاف ، هو الصدر الأعظم قره مصطفى باشا الذى يجزع من الخروج إلى الحملات . كان قره مصطفى باشا

يريد فقط أن يكون صدراً أعظم ويتخلص من تحكم مرزيفونلى . أعطى قيادة الجبهة الألمانية إلى الوزير بكرى مصطفى باشا ، وجبهة بولونيا إلى الوزير الثالث صارى سليمان باشا . انضمت البندقية إلى الاتفاق ١٦٨٤/٤/٢٥ وأعلنت الحرب على تركيا . عين على جبهة البندقية من الوزراء الباشوات بالتسلسل كور شعبان ، شاهين مصطفى ، اسباناقجى اسماعيل ، خليل باشا . ومن بين هؤلاء القواد كان بكرى مصطفى باشا من القواد متوسطى الدرجة . صارى سليمان باشا تافه للغاية وعاجز ، والبقية عسكريون عديمو الكفاءة . كان هدف المانيا المجر ، وهدف بولونيا Podolya ، وهدف البندقية مورا ، وإن أمكن هرسك ، وهدف روسيا ، الحصول على قطعة كبيرة من اوكرانيا . وأخطر هؤلاء ، كانت المانيا . كان القائد العام للإمبراطورية أحد حكام الألمان دوق لورين (Karl) V. Charles (Lothringen) ، عسكريا كبيرا .

كانت أكبر حروب عام ١٦٨٤ هى حرب حصار بودين الذى جرى من قبل الألمان واستمر ٣ أشهر ، ١٩ يوما (١٥ تموز – ٣ ت٢) . دافع عن بودين بكرى مصطفى باشا . معاوناه هما العسكريان الكبيران ، وكلاهما برتبة وزير ؛ ديوريكلى قره محمد باشا بكلربك بودين الشاب ، وداماد شيطان إبراهيم باشا الكهل . كانت بودين تقصف يوميا بمعدل ١٠٠٠ – ١٥٠٠ قذيفه و ٧٠٠ – ٨٠٠ قنبله ، هذا عدا فتح الألغام . وكان الأتراك يحققون تقدما متواصلا . حاول الألمان قطع مجارى المياه للمدينة ، لكنهم لم يوفقوا . تسمر الألمان أمام بودابست هذا العام ؛ كما تسمر العثمانيون أمام فينا فى العام الماضى . ترك بكرى مصطفى القلعة إلى قره محمد باشا بكلربك بودين وانسحب . قطعت إحدى القذائف ، يد محمد باشا فى ٢٠ تموز . استمر فى الدفاع بعد سكب زيت زيتون حار على يده . وفى آب ، أصابت إحدى القذائف بطن الوزير الشاب . نادى محمد باشا ، الباشوات محاولا جمع أمعائه بيده السالمة ، وأخبرهم بأنه عين مكانه داماد شيطان إبراهيم باشا ، وأمرهم باطاعته والدفاع عن بودين حتى آخر جندى ثم استشهد . جاء إلى بودين فى ٩ أيلول منتخب بافيرا ؛ أهم حاكم المانى بعد الإمبراطور ، حصل على امدادات وتسلم القيادة . وانتقلت الحرب إلى خارج القلعة .

خسر الألمان ثلاث حروب ميدانية : انهزم الألمان فى كرز الياس ، أمام قاضى

كويلي محمد باشا بكلربك روملي (١٩ أيلول) ، وفي أوفا قابوسى ، أمام سياووش باشا بكلربك دياربكر (٢٧ أيلول) ، وفي بشته ، أمام أحمد باشا بكلربك أكرى (٢٤ ت١) . انسحب الألمان في ليلة ٢ - ٣ ت٢ . وعلى أثر هذا النصر ، استبدل محمد الرابع لقب داماد إبراهيم باشا من « شيطان » إلى « ملك » . وعينه قائدا مكان بكرى مصطفى باشا ، وعين عبد الرحمن عبدى باشا أحد الوزراء المسنين ؛ بكلربك على بودين (سلاحدار ، ٢ ، ١٤٠ - ٨٥) .

كان سليم كيراى الذى عاد وصار خانا لقرم ؛ عسكريا كبيرا . تمكن بمهارته من تعويض عجز سليمان باشا قائد عام جبهة بولونيا . هزم سليم كيراى ، الملك سوبياسكى في الحرب الميدانية كامانيجه (١٦٨٤/٩/٢٦) . فر غالب فينا ، تاركا وراءه ٢٧ مدفعا ثقيلا للحصار وآلاف القتلى (سلاحدار ، ٢ ، ١٨٥ - ٨) .

قدمت البندقية في ١٥ تموز إلى الباب العالى ، مذكرة إعلان الحرب . وحققت إنزالات عديدة على سواحل داماجيا ، هرسك ، البانيا ، مورا . كان قائد عام البندقيين موروسينى ، هو العسكرى الكهل الذى سلم كانديه ، إلى كوبرولو - زاده . أطلق البابا بصورة رسمية ، على هذا الاتفاق المقدس الجديد اسم « الحملة الصليبية ١٤ ضد الأتراك » . وكما لاحظ هامر (١٦١/١٢) ، أن هذه الحرب هى الحرب الأولى والأخيرة في تاريخ البندقية كلها التى أعلنت فيها البندقية الحرب على العثمانية ، أما في بقية الحروب الأخرى ؛ فكانت تركية هى التى تعلن الحرب . احتلت البندقية جزيرة آيا مافرى خلال ٦ أيام (٨ آب) ، وسيبينيك (Sebenico) وأماكن عديدة في داماجيا ، واحتلت Preveze في ٧ أيام (٢٨ أيلول) وأغلقت عام ١٦٨٤ وهى رابحة (سلاحدار ، ٢ ، ١٩١ - ٢٠٠) . ولكن فندق مصطفى باشا بكلربك بوسنه ، تمكن في السنة التالية من هزيمة البندقيين في الحرب الميدانية المسماة شين (بالإيطالية : Sign) (١٦٨٥/٤/٧) واغتنام ٩٠ راية . تمكن البندقيون الذين أنزلوا جيوشهم في Koron جنوب مورا ، من الاستيلاء عليها بعد حصار طويل وذبحوا كافة سكانها المسلمين .

استولى الألمان على Szolonk ، وهجم العثمانيون على يانق قلعة . حاصر ملك إبراهيم باشا استركون مدة ١٦ يوما ، لم يتمكن من الاستيلاء عليها . استسلمت اويفار إلى دوق لورين بعد حصار دام ٥٠ يوما (١٦٨٥/٨/١٩) (هامر ، ١٢ ،

١٨١ ؛ راشد ، ٤٧٤ – ٧ ؛ سلاحدار ، ٢ ، ٢١١ – ٤) . استمر آخر حكم للأتراك فى اويفار ، منذ فتح كوبرولو – زاده الأخير لها ٢١ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٥ يوما . وهكذا زالت من الوجود ، إيالة عثمانية صغيرة . لكن جنوب – شرق سلوفاكيا ، مازال عثمانيا . كان الاستيلاء على اويفار ، سببا فى إقامة الأفراح فى العالم المسيحى كافة (هامر ، ١٢ ، ١٨٤) .

اجتاز الكلك سوبياسكى دنيستر نحو الجنوب ، معلقا آمالا كبيرة على النصر ، ولكن جيش سليم كيراى المؤلف من ٨٠٠٠٠ شخص (٥٠٠٠٠ قرمى) ، هزم الملك فى الحرب الميدانية المسماة بويان Bojan) (١٦٨٥/١٠/١٠) . انسحب سوبياسكى تاركا وراءه ٦٠٠٠ قتيل و ٥٠٠٠ أسير .

استمر قره إبراهيم باشا فى أعماله الدنيئة وأعدم العسكرى الفذ والمسن ، داماد ملك إبراهيم باشا ، الذى اتهمه بمسؤليته عن سقوط اويفار ، وقد كانت الحقيقة أنه كان يخشى أن يحتل مكانه . قطع رأس ملك إبراهيم باشا فى بلغراد فى ١٦٨٥/١٢/٣ (سلاحدار ، ٢ ، ٢١٥ – ٧) . لكن قره إبراهيم باشا ، لم يتمكن من الحفاظ على مقامه بعد منافسه ، سوى ١٥ يوما . عزل محمد الرابع ، الصدر الأعظم هذا ، لرفضه الخروج للحملات (١٦٨٥/١٢/١٨) ، ونفاه إلى جزيرة رودس وأمر فى آيار ١٦٨٧ بإعدامه هناك . دامت صدارته سنتين ، ٤ أيام . جيء مكانه بالوزير الثالث يناجى صارى إبراهم باشا ، وهو مثال النذالة والجبن وآخر من يصلح للصدارة بسبب كونه عديم الشأن محروما من الاخلاق ومن العلم العسكرى والشجاعة . تمكن من الحفاظ على السلطة وادعاء شرف النصر الذى احرزه سليم كيراى فى معركتين ميدانيتين فى سنتين متتاليتين تجاه سوبياسكى فى جبهة بولونيا . جاء فى ك٢ من عام ١٦٨٦ إلى أدرنة وتسلم الختم الهمايونى . ولم يكتف بذلك ، وإنما أصبح علاوة على ذلك سردارا أكرم (قائدا أعلى) على جبهة ألمانيا (سلاحدار ، ٢ ، ٢٢٥ ــ ٦ ، ٢٢٨ ــ ٣٠ ؛ راشد ، ٤٨٤ ــ ٦) .

كانت مورا ، لواء (سنجق) بحريا عثمانيا مقسما إلى ٢٣ قضاء . كان هذا اللواء ، هدف البندقية . وكان استيلاء البندقية عليها سيغطى على ضياع كريت بشكل واسع . استولى موروسينى على نافارين خلال ١٣ يوما (١٦٨٦/٦/١٥) (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤١ – ٢) . واسقط كورون بعد حصار دام ٣٠ يوما (١٢

آب) . كانت هذه الأماكن كلها تعود إلى البندقيين وفتحت خلال عهدى فاتح وبيازيد الثانى . احتل موروسينى ، عدا قطع البندقيين ، فرقة سكسونية وفرقة Braunschweig ، وفرقة من ميلانو بقيادة الأمير Visconti ، وفرسان مالطه واحد كبار عسكريى العصر وهو الماريشال السويسرى الكونت Königsmark . أكمل موروسينى فتح مورا بعد أن استولى فى تموز ١٦٨٧ على باتراس ، وبعدها على Korinthos . انسحب السردار أحمد باشا من مورا إلى أثينا . واجه المتفقون العثمانية فى جبهة مورا ، بقوات كبيرة ودهاة عسكريين مثل موروسينى وكونيكسمارك . أما إستانبول ، فلم تتمكن من إرسال قوات كافية ولاقادة ذوى مقدرة عسكرية . ورغم ذلك ، تمكن القبطان – دريا مصرلى أوغلو إبراهيم باشا من تشتيت الأسطول البندقى خارج ميديلى ، فى معركة بحرية استمرت ٣ ساعات (ت١/١٦٨٦) . منح مجلس السناتو (الأعيان) الجمهورى البندقى ، موروسينى أعلى رتبة للأصالة ، وهى رتبه لم تمنح لغيره خلال الألف سنة من تاريخ البندقية ؛ الا لشخصين فقط (هامر ، ١٢ ، ٢٢٥) .

٣) سقوط بودين (١٦٨٦/٩/٢)

شرع المتفقون الذين اتعظوا من هزيمة بودين فى العام الماضى ، بمحاصرة المدينة بواسطة جيش كبير (١٦٨٦/٦/١٨) . كان البكلربك (الفريق) عبد الرحمن عبدى باشا ، الكبير السن ، يدافع عن المدينة . سار الصدر الأعظم والسردار الأكرم آيناجى صارى سليمان باشا من بلغراد مع جيش عدده ٥٠٠٠٠ جندى ووصل المجر . يشبه هامر ، جيش الاتفاق الذى جاء إلى بودين ، بجيش الصليبيين الذى خرج أمام يبلديرم بيازيد فى نيغبولى قبل ٢٩٠ عاما ؛ من ناحية أنه كان ممثلا لكافة شعوب أوروبا تقريبا (١٢ ، ١٩٨) . كان عدد الجيش الألمانى ٨٠٠٠٠ جندى وبقية الجيش من الشعوب الأخرى . أما عبدى باشا الذى يناهز عمره الـ ٧٠ عاما ، فكان لديه ١٦٠٠٠ جندى ممتاز ومدرب وعتاد كاف ومهمات كثيرة .

أهم قواد الجيش الصليبى : من اسبانيا دوق Vexas ، دوق Escalona ، ١١ ماركيزاً اسبانيا ، من فرنسا ٣ ماركيز و ١ كونتا ، من انكلترا الابن غير الشرعى

للملك جيمس الثانى ، أمير Ruppert ، ٤ لورد ، من ايطاليا ٥ كونت أحدهم ماريشال ، من المانيا منتخب بافيرا ، دوق لورين ، دوق كروى ، دوق Courland ، أمير Neuburg أمير Velden ، ماركيز Baden ، ٩ كونت ٢ منهم برتبة ماريشال ، ٢ بارون الخ . كان الجيش الألمانى يتألف من ٨٠٠٠ جندى أرسلوا من Brandenburg - Prusya ، ٥٠٠٠ من ساكسونيا ، ٨٠٠٠ تحت قيادة منتخبهم البافارى بنفسه ٦٠٠٠ من دوق Würtemberg ، ٣٠٠٠ من دوق ساكسونيا ، وكان الجيش الشخصى للإمبراطور عبارة عن ٥٠٠٠٠ جندى (هامر ، ١٢ ، ١٩٨ - ٩) . ولو أن القائد العام ، كان منتخب بافيرا اسما ، باعتبار أنه كان أعلى حاكم ، لكن القيادة العسكرية الفعلية ، كانت بيد العسكرى الكبير جارلس ، دوق لورين .

كان الحصار ، شديدا جدا . سقط ٤ كونتات قتلى . وفى ١٦ تموز أصيب ميناء إنشاء السفن النهرى لبودين (ترسخانه) ، وأدى انفجار ٣٦٠٠٠ قطار من البارود إلى استشهاد ٤٠٠٠ جندى عثمانى . انفتحت فى الأسوار ثغرة بعرض ٦٠ قدما ، وحدد هذا الحادث مصير بودين . تغير مجرى نهر الطونه من شدة الانفجار (هامر ، ١٢ ، ٢٠١) . أعلم دوق لورين عبدى باشا ، بأنه ليس بإمكانه بعد الآن الدفاع عن القلعة التى دافع عنها حتى اللحظة الأخيرة ببطولة مكنته من إنقاذ شرف البادشاه ، وعرض عليه ترك بودين والذهاب مع جنده أحرارا . رفض الباشا . وفى ٢٧ تموز ، حدثت أمام باب بج (فينا) للمدينة ، معركة دموية شديدة سقط على أثرها وخلال ساعات ٢٦٠٠ جندى نمساوى ، ٤٠٠ بروسى ، ٨٠٠ - منهم أكثر من ٢٠٠ ضابط - بافيرى . تمكن عبدى باشا ، من صد ودحر ١٨ هجوما عاما كما تمكن من تكبيد العدو عشرات الآلاف من الخسائر ، ولكن لو تمكن ذلك الشخص الجبان الذى يحمل رتبة السردار الأكرم عن غير جدارة ولياقة ، من التدخل من الخارج لأمكنه إنقاذ بودين . إلا أن سليمان باشا اقترب إلى حد حمزه بك ، ولكنه بعد أن خسر ٣٠٠٠ شهيد ، انسحب مذعورا تاركا بودين لقدرها ، انتشر خبر حصار بودين فى جميع أنحاء الإمبراطورية . كانت تجرى مراسم الدعاء فى كافة المساجد لأجل المدافعين عن بودين . كما كانت تجرى مراسم الدعاء فى كنائس أوروبا لفتح بودين ، وهكذا تطور القتال ، إلى صراع بين الهلال - الصليب .

فى اليوم الـ ٧٤ لمحاصرة بودين (حصار فينا الثانى استغرق ٥٩ يوما) ، لم يبق لعبدى باشا إلا نفر قليل جدا . كان يحاول الدفاع عن باب بج بالسيوف فقط ، كانت أكبر فتحة فتحتها مدافع العدو ، فى تلك الناحية . قتل الدوق Asty الذى كلفه دوق لورين جارلس بالهجوم وقتل معه آلاف ، نتيجة قصف المدفعية التركية . دخل الصف الثانى من العدو إلى المدينة من باب بج واستشهد الوزير عبدى باشا الذى كان أمام الباب وبيده السيف ، وسحقته أقدام آلاف الجنود الذين مروا متجهين نحو ميدان بالى باشا . تجمع حفنة من الجنود الأتراك ، فى الميدان الذى يحمل اسم الغازى بالى باشا ، ابن عمة السلطان سليمان وأول بكلربك على بودين ، وهم يستعدون للدفاع الأخير . فضلوا جميعهم الشهادة على التسليم واستشهدوا . وبينما حاول بضعة من الجنود الأتراك النجاة بإلقاء أنفسهم فى الطونه ، عادوا وانضموا إلى الجيش ثانية عند مشاهدتهم شروع العدو فى ذبح الأهالى المسلمين القاطنين فى المدينة . ورغم إخلاء القسم الأعظم من الأهالى المدنيين من المدينة قبل بدء الحصار ؛ فإن عائلات تركية كثيرة لم ترض بالنزوح من بودين . تمكن بضع مئات من هؤلاء فقط من الهرب عن طريق الطونه . وعندما مل العدو من القتل العام للأهالى ؛ أسر عدة آلاف وهى البقية الباقية من الأتراك . حرقت آلاف الآثار المعمارية التركية وفى مقدمتها ٨١ مسجداً ، بمثل هذه البربرية . هرع الكونت Marsigli وهو جنرال إيطالى من Bologna فى خدمة الألمان مع بضعة من جنوده إلى القصور ، المكتبات ، المساجد وتمكن من إنقاذ الكثير من الكتب والآثار الفنية التركيةالتى أهدى فيما بعد قسما منها إلى المكتبة الإمبراطورية فى فينا ، وقسما منها إلى المكتبة والمتحف الموجودين فى Bologna . كان الكونت Marsigli الذى مكث مدة طويلة فى استانبول ، يجيد التكلم باللغة التركية . وله مؤلف قيم جدا فى التشكيلات العسكرية العثمانية .

لايستطيع أى مؤرخ أن يدعى أن العثمانية لم تدافع جيدا عن بودين . وهكذا انتهى الحكم الإسلامى التركى فى المدينة التى فتحها فاتح المجر السلطان سليمان خان القانونى بنفسه قبل ١٦٠ عاما . عبدى باشا ، الذى عين قبل سنة واحدة و ١٠ أشهر على بودين ، كان البكلربك (الفريق) الـ ٨٦ على بودين وآخرهم (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤٩ – ٥٣) . وبعد ٢٤ يوما (صباح ٢٦ أيلول) ارتجت إستانبول لخبر سقوط بودين ، ارتجاجا لم يحدث من قبل عند سماع نصر أو هزيمة .

حدثت مظاهرات ضد الحكومة ، وتطاول البعض على السلطان علنا ، وكتبت المرثيات ولحنت .

استولى دوق لورين ، بعد انتصاره هذا ، الذى أقام أوروبا وأقعدها والذى كتب حوله مئات من كتب الثناء والتبجيل ؛ على القسم الأكبر من المجر . بعد ضياع أكبر بلدة من بلدان الحدود ، التى لم يحرزها العدو فى أى وقت من الأوقات . تضعضعت معنويات الجيش التركى وأخذت القلاع الموجودة فى المجر فى الاستسلام الواحدة تلو الأخرى . لم تكن المصيبة الحقيقية ، محاصرة فينا الفاشلة قبل ٣ أعوام ، بل كانت سقوط بودين .

سقطت شيموتورنا (Simotornia) فى (١٥ أيلول) ، شيكلوش (Siklos) ذات الـ ١٣ مسجداً (١٩ أيلول) ، بج Peç (بالمجرية : Pécs ، بالألمانية : Funfkirchen) ذات الـ ١٧ مسجداً ، مركز لواء تركى مهم (١٠ ت١) ، سكدين (Segedin) بعد دفاع دام ٢٤ يوما (١٢ ت١) ، كابوشفار (Kaposwar) (٢٩ ت١) . وعلى أثر انتقاد شيخ الإسلام جاتالجالى على أفندى للحكومة انتقادا شديد اللهجة ، عزله محمد الرابع بضغط من قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) رجب باشا . كان يشغل مقام المشيخة الإسلامية منذ ١٢ سنة ، ٧ أشهر ، ٣ أيام (سلاحدار ، ٢ ، ٢٤٥ - ٨) .

توقفت الحركات العسكرية فى شتاء عام ١٦٨٦ - ٨٧ ولم يجرؤ العدو على اجتياز Drava كان الصدر الأعظم ، مع ٥٠٠٠٠ جندى فى بلغراد وقالغاى قرم مع ٦٠٠٠٠ خيال تقريبا فى تامشوار (راشد ، ١ ، ٤٩٠ ومابعده)

٤) حركات عام ١٦٨٧

استغرق إعادة تجهيز جيش دوق لورين جارلس زمنا ، بسبب تكبده خسائر كبيرة فى بودين ، وهذا هو الذى أخر افتتاحه موسم الحرب . أما العثمانية فكان همها الدفاع وكانت فى وضع صعب . اقترب كونت Pallfy من Osiyek لكنه هزم وقتل (٢٠ تموز) . أنسحب جيش الاتفاق على أثر ذلك ، إلى موهاج . جاء صارى سليمان

باشا ، الذى شعر بتردد دوق لورين بعد هزيمة Osiyek ، إلى موهاج . كان قد مضى على إفناء السلطان سليمان القانونى ، جيش الملكية المجرية الكبرى فى صحراء موهاج (١٥٢٦/٨/٢٩) ١٦٠ سنة ، ١١ شهرا و ١٤ يوما بالضبط . كان جيش الاتفاق يفوق الجيش العثمانى عددا ، وكان سليمان باشا ، على علم بذلك . ترك ساحة القتال بعد أن خسر ٢٠٠٠٠ شهيد . كانت خسارة المتفقين ١٠٠٠ قتيل (١٦٨٧/٨/١٢) (هامر ، ١٢ ، ٢١٣) . العدو يستولى على سرادق صدر أعظم آخر قبل أن تمضى على هزيمة فينا ٤ سنوات ، وهذا السرادق عبارة عن سراى سيار يحتوى على ١٤ شقة . أخذه منتخب بافيرا . « كان Karl-Ludwig دوق لورين على الجناح الأيمن ، ومنتخب بافيرا على الجناح الأيسر . كانت قيادة الأتراك غير جيدة ، وكانوا يحاربون بشكل جيد . اتخذ الأتراك من الأشجار سدا ودافعوا فترة من الزمن ، ثم تركوا لنا ساحة القتال وانسحبوا بشكل غير منتظم ، ولم يتمكنوا من أخذ معظم مدافعهم ومهماتهم وانتقلت الينا . وقد حققت حرب موهاج هذه فوائد كبرى للعالم المسيحى والإمبراطورية . كانت السبب فى جلب المصائب الكبرى للسلطان » (كونت Marsigli ، ص ٢٣٥) .

لم يذق محمد الرابع الطعام مدة ثلاثة أيام . مرضت رابعة أمة الله كلنوش ، السلطانة – خاصكى (زوجة السلطان) (السلطانة – الوالدة بعد ذلك) . وصل الحزن والاستياء حده الأقصى فى الإمبراطورية وخاصة فى إستانبول . كان كامل نصف المجر تقريبا فى هذه الأثناء بيد الألمان ، أما نصفه الشرقى الأكبر فكان بيد العثمانية إلا أن الألمان أوقفوا حركاتهم فى التقدم عند حلول فصل الخريف .

كانت جبهة بولونيا فى عهدة السردار (القائد) العسكرى الجيد الوزير داماد بوزوكلو (من يوزغات) بيبقلى مصطفى باشا . قوته تتألف من ٥٨٠٠٠ جندى (٢٠٠٠٠ منهم تمارلى (نوع من الخيالة) ، ٨٠٠٠ انكشارى ، ٣٠٠٠٠ قرمى) . أراد الملك سوبياسكى أخذ كامانيجه لكنه دحر وتراجع (١٦٨٧/٩/٣) . دخلت روسيا كذلك الحرب فى هذه الأثناء . أرسل مصطفى باشا ، بعد انتصار كامانيجه ؛ نور الدين قرم (ولى العهد الثانى) على الجيش الروسى . تمكن نور الدين من العثور على الجيش الروسى الذى يقوده Prens Galitzyn قرب كييف Kiev وهزمه بسهولة .

تمكن الجيش البندقى الذى تسانده قطع اسبانيا ، توسكانيا ، ميلانو ، مالطه ، البابوية ، المانيا ، السويد من عبور برزخ Korinthos والدخول إلى شبه جزيرة Attika . استولى على أثينا (١٦٨٧/٩/٢٥) . خربوا ونهبوا المدينة بشكل فظيع . « الألمان والبندقيون الذين هم أكثر همجية من الأتراك ، هدموا ماحافظ عليه الأتراك لعصور طويلة من الآيات الفنية الأثرية التى تعتبر رمز الآثار القديمة وجعلوها هباء منثورا ، وتحولت المدينة المعمورة ، خلال أيام معدودة ، إلى كتل من الحجارة وبقايا الحريق . سقطت إحدى القنابل التى أطلقت من سفينة بندقية فى وسط Parthenon ونسفت أجمل قسم من المعبد » (فون هامر ، ١٢ ، ٢٢٧) ، كانت أثينا تحتوى على عدد قليل من الأتراك . ولأن الشعب كان أرثوذكسى المذهب ، فقد ذبحهم الكاثوليك بلا رحمة؛ لأنهم كانوا يعتبرون الأرثوذكس مسيحيين منحرفين .

كان الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) آيناجي صارى سليمان باشا ، الذى لعب أهم وأقبح دور فى إسقاط مرزيفونلى ، عديم الأخلاق والضمير ، ظالما ، عديم الكفاءة . أفسد النظام والضبط الصارم الذى أسسه الكوبرولولر (المنتسبين إلى عائلة كوبرولو) فى الجيش التركى بشق الأنفس . تمرد الجيش وأراد قتل الصدر الأعظم . فر صارى سليمان باشا إلى إستانبول ، واستقال (١٦٨٧/٩/١٩) . دامت صدارته سنة ، و ٩ أشهر ، ويومين . أمر محمد الرابع بإعدام صارى سليمان باشا ، وعين سياووش باشا ، صدرا أعظم وسردارا أكرم . كان سياووش باشا صهرا لكوبرولو محمد باشا . كان يحمل هذه الميزة ، لكنه شخصيا لم يكن شخصا ذا قيمة . تمرد الجيش ، بقيادة عصبة من ضباط الإنكشارية ذوى الرتب الصغيرة وطلب خلع البادشاه من عرشه ، كان يريد التحكم فى الدولة ونهبها كما حدث قبل ٣١ سنة فى العهد الذى يسبق كوبرولو . لم يعد مثل هذا الجيش يعير شأنا للقتال . لم يكن شعب إستانبول يريد البادشاه ، فقد حدثت على عهده هزائم لم تحدث فى تاريخ الدولة . لكن الحقيقة أن عدم الرضا الذى يظهره شعب إستانبول ، كان بسبب مكوث البادشاه بصورة مستمرة فى أدرنة وقلة مجيئه إلى إستانبول ، واستفادة أدرنة من ميزات كونها مدينة العرش .

٥) خلع محمد الرابع (١٦٨٧/١١/٨) وشخصيته

يمكننا القول إن كربرولو – زاده فاضل مصطفى باشا ، هو الذى رتب هذا الأمر . اتخذ موقفاً مضادا من البادشاه وشهزاداته (أبنائه) الاثنين . كان فاضل مصطفى باشا يرى أن هذا البادشاه ، هو الذى سبب ضعف الدولة العالمية بإبعاده عائلة كوبرولو عن السلطة منذ هزيمة فينا . خلع كوبرولو – زاده ، الذى عينه محمد الرابع وكيلا للصدارة ، البادشاه فى إستانبول ، عندما كان الجيش المتمرد فى ادرنه . كان السلطان مصطفى (الثانى) الأبن الكبير لمحمد الرابع ؛ هو ولى العهد الشرعى . لكن كوبرولو – زاده ، انتقاماً لأبيه ، أبعد كلا من ابنى مراد الرابع . وأجلس على عرش الشهزاده (الأمير) السلطان سليمان كبير أخوى محمد الرابع الذى على قيد الحياة . وبهذا شذ عن قاعدة الوراثة المتبعة للسلالة السلطانية .

كانت أكبر عيوب مراد الرابع ابتلاءه وشغفه بالصيد . إلى درجة مرضية . وصار لايمكنه العيش بدون الصيد . وفى الحقيقة ، كان مراد الرابع حاكما من النوع الذى يفوض إدارة الدولة للوزراء ويقوم بواجب رئاسة الدولة بكل وقار . لكن المجتمع العثمانى ، لم يكن معتادا على مثل هذا النوع من الحكام . كان يريد خاقانا يجمع كامل السلطة فى يده ويعرف كيفية إدارة هذه السلطة .

ترك السلطان محمد خان الرابع العرش إلى أخيه الذى يصغره بـ ٣أشهر ، ١٣ يوما . استمع إلى قرار خلعه بكل هدوء . وسأل دون اهتمام ، فيما إذا كان قد صدر قرار باعدامه أم لا . وعندما علم بعدم صدور قرار بقتله ، لم يظهر أدنى علامة للسرور . كان هدافا إلى درجة لاتصدق . فارسا ممتازا . وفى يوم شتاء ، امتطى الجواد من يان بولو إلى أدرنه طيلة ٢٠ ساعة دون أن يترجل من على الحصان إلا لتبديله فقط ودخل السراى دون أن تظهر عليه إمارات التعب ، أما معيته فمرضوا وأصبحوا طريحى الفراش لعدة أيام . قصد بإجراء سفرة كهذه أن تكون عبرة لمعيته الذين أخطئوا بقولهم للسلطان أنه من غير الممكن السفر فى شتاء كهذا الشتاء . كان أحد أشهر رماة الجريدة من بين الرماة الذين أحرزوا أرقاما قياسية فى الإمبراطورية . كتب عدة أشعار . وسار على التقليد المتبع فى رعاية الشعر والأدب والموسيقى والفن . لكنه بقى بعيدا عن التعمق فى ولوج هذه الحقول كما فعل

أجداده . جلس على العرش وعمره ٦ سنوات و ٧ أشهر و ٧ أيام ، ورغم أنه استمر على تحصيل العلم أثناء سلطنته مدة طويلة ؛ لكن تثقيفه لم يكن كأجداده . كان محظوظا جدا ، من جهة وجود أم له مثل السلطانة – الوالدة خديجه تارخان . ارتاح جدا فى دور الكوبرولولر (عائلة كوبرولو) (١٦٥٦ – ١٦٨٣) ، وقضى سلطنة ذات شوكة عظمى تشبه تلك التى فى عهد القانونى . وفى كل فرصة سنحت له ، ترك إستانبول التى تذكره بالثورات التى جرت فى طفولته وسكن أدرنه ، ولم يكن هذا مناسبا من ناحية صيانة نظام الدولة . عاشت أدرنه فى عهده المع وأعظم فترات تاريخها ودخلت ضمن أكبر بلدان العالم المعدودة . لم يكن مغرما بالنساء أو المشروب . ولدت الباشخاصكى (زوجته المفضله) السلطانه رابعة أمة الله كلنوش ، التى عنيت بتربيتها والدة زوجته ، له ابنيه ، ولو أنها لم تكن الزوجة الوحيدة له ، إلا أنها احتلت مكانها المرموق كزوجته المفضلة بين الحرم الهمايونى . أعدامه ، قره مصطفى باشا ، وتعيينه بدلا منه باشوات غير جديرين ، أحدهم أسوأ من الآخر مثل إبراهيم باشا وسليمان باشا ؛ وضع السد المانع ضد سلطنته ، وأولاده وضد استمرار الدولة العالمية . أكمل بقية حياته سعيدا فى سرايات إستانبول وادرنه . لم يعش طويلا لتأثره من حرمانه من الخروج للصيد .

دامت سلطنته ٣٩ سنة ، ٣ أشهر ، ويوما . كان عمره عند خلعه يتجاوز الـ ٤٥ عاما بـ ١٠ أشهر و٧ أيام . هذه المدة ، هى أطول مدة لرئيس دولة فى تركية بعد عام ١٥٦٦ . مدة هذه السلطنة هى الرابعة فى التاريخ العثمانى بعد مدة سلطنات ارطغرل غازى والقانونى وعثمان غازى . كان من السلاطين النوادر الذين أصبحوا « ولى عهد » فور ولادتهم . عاش بعد خلعه ٥ سنوات ، وشهرا ، ٢٨ يوما . مات فى سارى أدرنه وعمره يتجاوز الـ ٥١ بـ ٥ أيام (١٦٩٣/١/٦) . نقل جثمانه إلى إستانبول ودفن جوار والدته السلطانه تارخان . ورغم مناداته سنجق بك (أمير لواء) على ساروخان (مانيسا) فى أواخر ولايته للعهد (ك ١٦٤٦/٢) ، فإنه لصغر سنه ، لم يلتحق باللواء . زار فى الأناضول ، الأماكن القريبة مثل جناقلعه ، أزميت ، بورصه . أما ناحية روملى فشاهدها كما زار تلك المناطق بشكل موسع حتى داخل بولونيا . توجب علينا الحقيقة أن نذكر مسيرته إلى عدة حملات همايونية ، ولو أنه لم يكن هو قائدها بنفسه .

جرت عملية ختانه بعد جلوسه على العرش بسنة واحدة وشهرين ونصف ، مع إخوته الثلاثة ، رئيس أساتذته (باش معلم) خواجه سلطاني وانى محمد أفندى . ومن بين أساتذته الذين يستحقون الذكر ، كل من المؤرخ الشهير والشاعر الوزير الثانى عبد الرحمن عبدى باشا ، شيخ الإسلام منقارى - زاده يحيى أفندى ، عمته السلطانه عاتكه . أستاذه فى التاريخ ، هو المؤرخ المشهور جدا والطبيب هزار فن حسين أفندى (وفاته ١٦٩١) . لم يفارقه بعد خلعه ابناه الإثنان . عاش مع ابنيه وأمهما السلطانة رابعة فى قصر طوب قابو حتى ربيع عام ١٦٨٩ ، ثم فى السراى الهمايونى فى أدرنه . يلقبه العثمانيون « آوجى » (صياد) و « غازى » ، ويلقبه الأوربيون بـ « الكبير » .

أولاده : السلطان مصطفى الثانى (١٦٦٤/٦/٥ - ١٧٠٣/١٢/٣٠) ، السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣/١٢/٣١ - ١٧٣٦/٧/١) ، السلطانة خديجة (١٦٦٢ - ١٧٤٣/٥/٩) ، السلطانة فاطمة (١٦٨١ - ١٧٠٠/١٢/٦) ، السلطانة أمة الله « آمى » « كوجوك » (١٦٧٠ - ١٧٠٠/١٢/١٣) . توفى له ٣ شهزاده (أمير) و سلطانه (أميره) وهم أطفال ، استمرت السلالة إلى زماننا هذا عن طريق أحمد الثالث ، لكن ابنى مصطفى الثانى كذلك جلسا على العرش . السلطانة خديجه ، تزوجت أولا بالوزير الثانى داماد صاحب مصطفى باشا (وفاته ت ١٦٨٦/١) ، ثم بالصدر الأعظم مورالى سلاحدار أنشته حسن باشا (١٦٥٦ - أيار ١٧١٣) ، وأنجبت من الأول ٤ ومن الثانى ولدين . إن والدة السلطانه خديجه ، هى كذلك السلطانه رابعة كلنوش والدة كل من مصطفى الثانى وأحمد الثالث . تزوجت السلطانه فاطمه بداماد طرناقجى جركس إبراهيم باشا (وفاته شباط ١٦٩٧) ، وبداماد طوبال يوسف (وفاته ت ١٧١٦/٢) ، وخلال الفترة بين زواجيها آنفى الذكر ، تزوجت بالداماد مصرلى محمد باشا ، ورزقت ببنت من كل من ابراهيم باشا ويوسف باشا . جرى نكاح السلطانة أمة الله وهى طفلة إلى مرزيفونلى قره مصطفى باشا ولكن لم يجر الزفاف ، ثم تزوجت بالداماد سلاحدار جركس كوجوك عثمان باشا (وفاته ١٧٢٧/١/٨) وأنجبت منه ٣ خانم سلطان (سلطانه) .

تنقسم سلطنة محمد الرابع إلى هذه الأدوار : ١) دور النيابة (١٦٤٨/٨/٨ -

١٦٥٦/٩/١٥ = ٨،١،٨) : أ- نيابة أم أبيه السلطانة - الوالدة الكبرى كوسم مهبيكر (١٦٤٨/٨/٨ - ١٦٥١/٩/٣ - ١٦٥٦/٩/١٥ = ٥،- ١٢،) ٢) دور الكوبرولولر (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٨٣/١٢/١٥ = ٢٧ ، ٣ ،-) : أ - صدارة كوبرولو محمد باشا (١٦٥٦/٩/١٥ - ١٦٦١/١٠/٣٠ = ٥، ١، ١٥) ،
ب - صدارة كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا (١٦٦١/١٠/٣٠ - ١٦٧٦/١١/٣ = ١٥ ، -، ٤) ،
ج - صدارة مرزيفونلى قره مصطفى باشا (١٦٧٦/١١/٣ - ١٦٨٣/١٢/١٥ = ٧ ، - ، ١ ، ١٢) ، ٣) الدور الأول من سنى المصائب (١٦٨٣/٢/١٥ - ١٦٨٧/١١/٨ = ٣ ، ١٠ ، ٢٤) : أ - دور الحرب التوازنية إلى سقوط بودين (١٦٨٣/١٢/١٥ - ١٦٨٦/٩/٢ = ٢ ، ٨ ، ١٨) و ب - دور الهزيمة التامة (١٦٨٦/٩/٢ - ١٦٨٧/١١/٨ = ١ ، ٢ ، ٦) .

كانت الدولة فى تاريخ خلع محمد الرابع ، قد فقدت ٠٠٠ ٢٨ كم٢ تقريبا من أراضيها للبندقيين و ٠٠٠ ١٠٠ كم٢ تقريبا لألمانيا وكلها كانت أقطارا مهمة للغاية : القسم الأعظم من المجر الوسطى والغربية ، قسم من سلوفاكيا ، سلوفينيا ، خرواتيا ، مورا ، جزيرة آيا مافرى Aya Mavri ، أثينا وجوارها ، Preveze و Inebahti ، دالماجيا التركية . وخلال ذلك ، سقطت بكلربك (إمارة) بودين (بودابست) الإيالة الثانية بعد مصر وإيالة اويفار الصغيرة وذهبت فى ذمة الماضى .

٦) الدور الأول لسلطنة سليمان الثالث (١٦٨٧/١١/٨ - ١٦٨٩/١٠/٢٥)

سليمان الثالث ، هو الابن الثانى للسلطان إبراهيم . أمه السلطانة - الوالدة صالحة دلاشوب (١٦٢٧ - ١٦٨٩/١٢/٥ ، فى سراى أدرنه) . سمى المؤرخون العثمانيون ، سليمان ١ « أمير سليمان » وطفروا وسموا القانونى « سليمان ١ » وسليمان ٣ هذا ، سموه « سليمان ٢ » . استعمل الاورروبيون تعابير سليمان ١ ، ٢ ، ٣ - كما استعملناها نحن فى كتابنا هذا - على شكله الصحيح .

أساتذته ، حاجه سلطانى عرب - زاده عبد الوهاب أفندى ، شيخ الجلوتية آطبازارلى عثمان فضلى أفندى (وفاته ١٦٩١) . وبسبب منع الشهزادات (الأمراء

أبناء السلاطين) من إنجاب الأولاد فى العصرين ١٧ و ١٨ ، لم يرزق خلال فترة سلطنته بأولاد ، رغم أنه كان متزوجا بـ ٦ زوجات . كان سليمان ٣ المسمى « غازى » ولى عهد لمدة ١٦ سنة تقريبا ، خلال الفترة من جلوس أخيه الكبير محمد الرابع (١٦٤٨/٧/٨) إلى تاريخ ولادة مصطفى ٢ الابن الأول لأخيه الكبير (١٦٦٤/٦/٥) . (حتى أنه توجد محاولة انقلابية فى ١٦٥١/٩/٣ لخلع محمد الرابع وإجلاس الشهزادة الكبير سليمان) . وفى آذار ١٦٨١ ، عين الوزير السابع كوبرولو - زاده فاضل مصطفى باشا ، مرافقا لحماية كل من سليمان ٣ وأخيه أحمد ٢ ، خلال سفرتهما من إستانبول إلى أدرنه ، وبذا سنحت له الفرصة للتعرف على هذين الشهزادتين عن كثب ، أحبهما وصار مؤثرا فيما بعد لجلوس كليهما على العرش . عاش مدة طويلة فى أدرنه عندما كان أميرا . انشغل كثيرا بالخط . وحصل على أجازتين فى خط الثلث والنسخ من طوقاتلى أحمد أفندى .

سقط سياووش باشا ، صهر كوبرولو من الصدارة بعد ٥ أشهر و ٩ أيام (١٦٨٨/٣/٢) ، صار ، آياشلى نيشانجى اسماعيل باشا ، صدراً أعظم . سببت ثورة ٢٨ ربيع الأول ، سقوط سياووش باشا ، وهذه الثورة من أقذر ثورات التاريخ العثمانى ، فلقد قتل الثوار العصاة الذين اقتحموا سراى سياووش باشا ، الباشا مع ١٥٠ من رجاله (هامر ، ١٢ ، ٢٥٠) .

وبينما أصبح السفلة أصحاب النفوذ فى إستانبول ، كان يجرى فى المجر قتال دموى عنيف . استولى الجنرال Caraffa ، على مركز الإيالة اكرى (بالمجرية : Eger بالألمانية : Erlau) مع Vire (١٦٨٧/١٢/١٤) . وهكذا خرج شمال المجر من الحكم العثمانى . كان محمد الثالث قد فتح أكرى قبل ٩١ سنة ، وشهرين ، ٣ أيام . سبب استسلام القلعة لحالها بعد سقوط البكلربك حسن باشا شهيدا ، هو كثرة نفوس المسلمين فى المدينة . خرج هؤلاء بأمان . لكن الألمان نسفوا كافة الآثار المعمارية العثمانية فى المدينة ومن بينها ٤١ مسجدا ، جعلوها قاعا صفصفا . إلى حد أنه لايمكن لأحد أن يقول بأن هذه البلدة ، شهدت حكما عثمانيا . وتوجد الآن فى أكرى ، مأذنة واحدة - لاأحد يعلم كيف سلمت - كأنها تشهد على الماضى . تقع أكرى على بعد ٩٥ كم فى شمال - شرق بودابست . اغتنم الألمان الـ ١١٣ مدفعا الموجودة فى القلعة . اولو جامع (المسجد الكبير) صار كنيسة القديس ليوبولد . الذى احتل أكرى ، هو المؤرخ الشهير الكونت ماسيكلى مساعد Caraffa .

انتخب موروسينى الذى فتح كامل مورا ١٦٨٧/٨/١١ ، دوج على البندقيين (رئيس جمهور) . انتقلت إلى يد البندقيين ، كامل دالماجيا تقريبا ، كان يسكن اثينا ٣٥٠٠ تركى ، جاءوا إلى أزمير .

لم يتمكن اياشلى اسماعيل باشا من البقاء فى السلطة ، أكثر من شهرين . وأصبح تكرداغلى بكرى مصطفى باشا ، صدراً أعظم (١٦٨٨/٥/٢) .

انهارت كامل جبهة المانيا تقريبا ، فى صيف عام ١٦٨٨ . وصل منتخب بافيرا إلى القرب من بلغراد . سقطت قلعة Golumbacz ، وهى القلعة التى فتحها بيلديرم بيازيد . كانت هنالك عائلات تركية تسكن منذ ٢٩٠ عاما . نصروا ٣٠٠ إمرأة مسلمة وزوجوهن بالجنود الألمان . سقطت أستولنى - بلغراد (بالمجرية : Székesfé hervar) ، مركز لواء مهم على بعد ٥٠ كم فى جنوب - غرب بودابست ، رغم دفاعها الشديد (١٦٨٨/٩/٦) . قتل خلال هذا الدفاع أمير Liechtenstein و ٤ حكام ألمان يحملون لقب كونت . جرح دوق Mantova ، أمير Savoie المشهور Eugen ، كان القائد العام منتخب بافيرا بين الجرحى . استشهدت كامل الحامية العثمانية لاستولنى - بلغراد البالغة ٧٠٠٠ شخص وذبح كافة المسلمين الموجودين فى المدينة . انتقل ليد العدو ٧٩ مدفعا عثمانيا ، وقد دهش الألمان عند مشاهدتهم أحدها الذى كان يقذف قذيفة بحجم ٤٤٠ « ليفره » . أهدى المنتخب ماكسيميليان Maximilian الراية العثمانية التى اغتنمت ، إلى البابا Innocentius الحادى عشر . علق البابا هذه الراية إلى جانب راية مرزيفونلى قره مصطفى باشا التى سبق أن أرسلها إليه سوبياسكى .

سقطت قلعة بلغراد بعد سقوط استولنى - بلغراد بيومين وبعد قتال شديد جدا (١٦٨٨/٩/٨) . استمر الحصار ٢٩ يوما . كان قد تم إجلاء الشعب المسلم وإرسالهم إلى الداخل عن طريق الطونه . ذُبح الذين لم يرغبوا فى الذهاب ، بالسيوف مع بقية الحامية التركية . حـول أكثر من ١٠٠ مسجد ، إلى كنيسة .

دخل والى بادن Ludwig ، أيالة بوسنه واحتل Banyaluka و Zvornik (١٦٨٨/٩/٤ ، ١٦٨٨/١٠/٤) . أزيح الأتراك بصورة كاملة من درافا التى كانوا قد وصولها فى عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٢ - ١٣٨٩) . لكن البكلربك

الوزير محمد باشا ، هزم العدو فى بيهاج وتمكن من الحفاظ على خط الطونه .

كان النصر ، فى جبهتى بولونيا وروسيا ، يلازم الطرف العثمانى . وفى شتاء عام ١٦٨٨ فى المعركة الميدانية Sireth . اقترب الجيش الروسى الذى يقوده الأمير Vassili Galitzyn لأول مرة فى التاريخ إلى اورقابو ، وهى باب قرم . لكن الجيش المؤلف من ٣٠٠٠٠٠ شخص انهزم بشكل قطعى فى الحرب الميدانية أمام سبيم كيراى (١٦٨٩/٥/٣٠) .

جاء موروسينى ، فى عام ١٦٨٨ إلى أثينا . كان يريد الاستيلاء على آغريبوز . سلم القيادة العامة إلى العسكرى السويدى الكبير الماريشال الكونت Königsmark . كان مساعداه ، أميرا Wütem berg و Braunschweig ، وأمير d'Harcourt الفرنسى . كان جيشا إيطاليا – ألمانيا كبيرين.جاء أسطول الاتفاق المؤلف من أساطيل البندقية – البابوية – مالطه – توسكانا ، إلى بيره Pire . كان الأسطول مكونا من ١٣٤ سفينة حربية و ٢٠٠ سفينة نقل . كان يدافع عن آغرى بوز ، جلبى إبراهيم باشا . تحرك أسطول الاتفاق من بيره (١٦٨٨/٧/١١) ودخل ميناء آغرى بوز ، مركز جزيرة آغرى بوز (باليونانية : Chalkis ، بالإيطالية : Egripo) . هذه القلعة ، قريبة جدا من شبه جزيرة Attika وتقع على مضيق آغرى بوز الذى يفصل الجزيرة عن شبه الجزيرة . تمكن جلبى إبراهيم باشا من الدفاع عن الجزيرة أمام العدو الذى يفوقه عسكريا وبحريا بدرجة لاتقبل القياس ؛ مدة ١٠٦ أيام . أصيب القائد العام الماريشال الكونت Königsmark ومات ، احتل مكانه ، أحد الحكام الألمان أمير Barunschweig . جرح أمير Würtemberg (٢٠ آب) بلغ القتال الذى يجرى وجها لوجه فوق الأسوار ، والصدام الذى يجرى تحت الأرض بحفر الانفاق ، درجة مخيفة . أمر موروسينى ، برفع الحصار وإخلاء الجزيرة (١٦٨٨/١٠/٣٠) . قتل ٢٣٠٠٠ جندى من الأعداء وجرح عشرات الألوف منهم . لم تجد نفعا الـ ١٨٢٠٠٠ قذيفه و ٣٦٠٠٠ قنطار من البارود التى قذفت القلعة العثمانية . كان نصرا عظيما لجلبى إبراهيم باشا الذى قصفه العدو بمعدل ١٨٠٠ قنبلة يوميا . شخّص موروسينى المجرب ، خور قوات البندقية . اكتفى بـ Mora . وأيقن عدم إمكان تقدمه أكثر من ذلك . أراد أن يرسل الأسطول إلى سواحل الأناضول لاستعراض قوته وإخطار العثمانية ، لكن القبطان دريا (مشير البحر ، أكبر رتبة بحرية) مصرلى

أوغلو إبراهيم باشا ، هزم الأسطول البندقي بعد إغراقه ٨ سفن معادية ، وفقد البندقيون في السنة التالية كذلك ٩ سفن . أما قلعة العثمانية الأخيرة في مورا ، بنفشه (Malvasia) فقد استسلمت بعد نفاد قنابل الـ ٧٨ مدفعا الموجودة فيها وبعد مقاومتها مدة ١٤ شهرا (١٦٩٠/٨/١٠) .

جاء سليمان الثالث إلى أدرنه ، على أثر سقوط بلغراد . وبتحركه منها ، وصل صوفيا خلال ١٩ يوما (١٦٨٩/٦/٢٥) . انتهت هنا الحملة الهمايونية الألمانية التي أعلنت في ٦ حزيران (١٦٨٩) . لأن الوزراء لم يجرؤا على إرسال البادشاه إلى أبعد من ذلك .

كان البادشاه مريضا . وكان سردار (قائد) جبهة ألمانيا ، عرب رجب باشا ؛ عديم الكفاءة بشكل كبير . انهزم في المعركتين الميدانيتين Batucina (٣٠ آب) وبعدها نيش (٢٤ أيلول ١٦٨٩) . استولى ماركيز بادن الذي اغتنم ٢٠٣ مدافع عثمانية ، على نيش . نقل الوزراء الذين ارتأوا خطورة بقاء البادشاه حتى في صوفيا ، سليمان الثالث الذي كان يسكنها منذ ٥ أشهر ، إلى أدرنه . أعدم رجب باشا . أسقط الألمان الذين استولوا على صربيا ، Vidin ، ودخلوا بلغاريا ، وأخذوا يقتربون إلى اسكب ، مكدونيا والبانيا . تم وقف البندقيين ، وتم دحر البولونيين والروس باستمرار . ولكن ، كأنما لاتوجد هنالك أية قوة لوقف الألمان . قرر شورى السلطنة في أدرنه بالإجماع أن الحل الوحيد هو تعيين كوبرولو – زاده فاضل مصطفى باشا ، صدرا أعظم وسردارا أكرم وعرض ذلك على البادشاه ، وقد صوت تكرداغلي مصطفى باشا ، الذي يشغل منصب الصدارة منذ سنة ، ٥ أشهر ، ٢٤ يوما (والذي عمل مابوسعه دون حصوله على نتيجة) ، مؤيدا ذلك (١٦٨٩/١٠/٢٥ . كان فاضل مصطفى باشا البالغ عمره ٥١/٥ عاما ، محافظا لجزيرة ساقز ، استدعيَ إلى ادرنه . كان حاصلا على رتبة وزير قبل ٩ سنين وعمره ٤٢ عاما . بينما أخاه ، كان قد حصل على رتبة الوزير وعمره ٢٤ عاما وصدراً أعظم وعمره ٢٦ عاما .

٧) الدور الأخير لسلطنة سليمان الثالث (١٦٨٩/١٠/٢٥ - ١٦٩١/٦/٢٢)

يعود شرف طرح فكرة تكليف كوبرولو – زاده فى شورى السلطنة لأول مرة والتذاكر فى هذا الموضوع ، إلى شيخ الإسلام دباغ – زاده محمد أفندى . أما البادشاه ، فكان يضمر الامتنان نحو كوبرولو – حيث أن هو الذى نحى ولى العهد السلطان مصطفى وأجلسه على العرش ، إلا أن رجال الدولة ، كانوا على درجة من ضعف السجية والأخلاق ، وكأنهم عقدوا اتفاقا سريا بينهم لإبعاد عائلة كوبرولو من السلطة ، وذلك خوفا من مجيء صدر أعظم قوى على رأسهم ، يقف أمام مطامعهم فى سلب الدولة كيفما يشاءون . لم يكن سليمان الثالث بالشخصية التى تستطيع أن تقف أمام النظام العثمانى الصارم ذى القدرة المدهشة . لكن دخول العدو إلى الأقطار التى فتحت فى عهد مراد خداوندكار ، كان السبب فى إذعان الجميع أمام كوبرولو – زاده .

كان فاضل مصطفى باشا ، أحد أكبر دهاة الإداريين فى التاريخ العثمانى . كان يعلم عدم إمكانه دخول الحرب بجيش لايتردد جنوده فى نهب مهمات جيشهم فى ساحة القتال ويعتبرونها كأنها غنائم حرب سلبت من العدو . وكان يعلم كذلك بأن أمامه شتاءً واحداً فقط ، لإصلاح مثل هذا الجيش ، حيث أن الألمان سوف لن يمهلوهعند افتتاح موسم القتال فى الربيع القادم ، ولاأحد يعلم عندئذ ، إلى أى مدى سيتقدمون .

عندما أعلم سليمان الثالث ، بأن كوبرولو – زاده ، حمل الختم الهمايونى ، بنفس الصلاحيات التى حملها أبوه محمد باشا ، أخيه الكبير أحمد باشا وزوج أخته قره مصطفى باشا ، جزع المتمردون ، إن المتمردين فى هذا الدور ، هم الضباط صغار الرتبة ، أما عدد الجنرالات المشاركين معهم ، فقد كان قليلا جدا . كان الجنرالات قد سئموا من تحكم هؤلاء ، وكانوا مستعدين وراغبين باسم الدولة فى مساندة صدر أعظم كهذا . وينبغى أن نذكر أن المتمردين الذين سبقوا كوبرولو محمد باشا ، لم يكونوا من الضباط صغار الرتبة ، بل كانوا من الجنرالات .

كانت المشكلة الخارجية الوحيدة لكوبرولو محمد باشا ، هى دفع الأسطول البندق

الذى اقترب إلى فتحة مضيق جناقلعة ، كما أنه يمكن القول بأن أدرنه ، لم تكن سالمة من الخطر ، عند مجيء فاضل مصطفى باشا إلى السلطة . كان لدى كوبرولو الوقت الكافى لتصفية المتمردين ، وإن كان الوقت بشكل عام ضيقا جدا ، ورغم ذلك ، فقد وفق توفيقا خارقا للعادة ، من ت ١٦٨٩/٢ حتى تموز ١٦٩٠ (مدة ٨ أشهر) ، لم ينم ليلا ولانهارا ، وعاد بنظام الدولة إلى مستوى نظام عام ١٦٨٣ تقريبا .

أحدث إصلاحات جذرية فى مجالات المالية والزراعة وأنظمة الدولة ترتقى إلى درجة إصلاحاته فى الجيش . انشغل بالسياسة الخارجية . استحوذ جنون لذة الفتوحات على الألمان ، ودخلوا إلى عمق الأراضى العثمانية وسط الشتاء . ذبح سليم كيراى بالسيف فى صحراء Kosova ٢٠٠٠٠ جندى ألمانى واغتنم ٣٢ مدفعا . المشهور عن هذه المعركة الميدانية ، أنه لم يتمكن سوى جنديين المانيين فقط من الهرب والنجاة (سلاحدار ، ٢ ، ٤٩٤) ، لأنهم كانوا قد ابتعدوا جدا عن مراكزهم . ظفر قالغاى دولت كيراى مع حسن بك – زاده محمد باشا بجيش ألمانى آخر فى Prizrin وتمكنا من إفنائه . كان منقوشا على صدور جنود هذا الجيش المؤلف من ٨٠٠٠ شخص – كما فى الحروب الصليبية – صلبان كبيرة . طارد سليم كيراى العدو حتى صربيا وجاء إلى ادرنه ، أخبر السلطان كوبرولو – زاده بأنه تعب جدا وعرض عليه قبول تنازله عن العرش (١٦٩٠/٢/٢٣) . رفض كوبرولو – زاده طلبه مخبرا إياه بأن الزمن ، زمن جد . وقع خبر مجيء كوبرولو – زاده إلى السلطة فى أوروبا ، وقع القنبلة . لأن الألمان كانوا قد تذوقوا طعم إسقاط السردارات (القواد) الذين كان كل منهم أتفه من الآخر .

سقطت قلعة Kanije ، قبل خروج كوبرولو – زاده من أدرنه إلى الحمله ، بيومين (١٦٩٠/٧/١١) . كانت القلعة مركزا للإيالة بين سلوفينيا فى المجر وحدود النمسا . استمر حكم العثمانية فى كانيجه ١٥٨ عاما ، إلا ١٨ يوما . لم يتمكن كوبرولو – زاده من مغادرة أدرنه ، إلا فى ١٣ تموز (١٦٩٠) . وخلال تقدم ميزومورتا حسين باشا ، أميرال أسطول القطع النهرية (القليلة العرض) للطونه ، نحو بلغراد ؛ تحرك هو من أدرنه ووصل شهر كوى (Pirot) واستعاد هذه القلعة من الألمان ، وأجبر جيش الإمبراطورية الذى يقوده Von Schenkendorf على التراجع

مغلوبا على أمره . واستولى على قلعة موسى باشا (١٢ آب) ، وعلى نيش التى يحميها ١٠٠٠٠ جندى المانى بواسطة ٩٠ مدفعا ، بعد حصار ٢٣ يوما (٩ أيلول) ، وخلال يومين استولى على سمندره (٢٧ أيلول) ، Vidin ، اورشوفا وفتح الإسلام ووصل بلغراد .

عنى العثمانيون بصيانه قلعة بلغراد وتحصينها تحصيناً جيدا ، وكان الألمان قد أصلحوها بشكل فائق . كانت القلعة مكونة من ٩ طوابق ، ١١٦ برجاً ، وأسوار متتالية يمكنها مقاومة أضخم الجيوش بكل سهولة لمدة شهرين أو ثلاثة . هذه القلعة استولى عليها كوبرولو – زاده بعد قصفها مدة ٧ أيام ليلا ونهارا بواسطة ٤٩ مدفعا ضخما (١٦٩٠/١٠/٨) . استشهد ٥٠٠٠ جندى تقريبا . استشهد بكلربك روملى مصطفى باشا برصاصة أصابت رأسه . صلى عليه ، فاضل مصطفى باشا بنفسه وقام بمهمة الإمام . خسر الألمان ١٥٠٠٠ قتيل و ٣٩٦ مدفعا المانيا ، تم الاستيلاء على ١٢ سفينة حربية على الطونه (هامر ، ١٢ ، ٣١٤) . أسر آلاف الألمان . كانت بلغراد قد بقيت تحت حكم الألمان مدة سنتين ، وهكذا بدأ دور حكم العثمانية الجديد فى بلغراد لمدة ١٨٨ عاما . عاد القليل من الأتراك الذين تركوا المدينة قبل عامين . خرجت بلغراد ، عن كونها مدينة تركية . وفقدت كذلك هويتها كمدينة مجرية . وأخذت تزدهر كمدينة صربية . استعيدت الأراضى الممتدة من Vardar إلى Darva التى تزيد على ٢٦٠٠٠٠ كم٢ . استعيدت كامل صربيا . تم طرد العدو من بوسنه وبلغاريا بشكل تام . اقتحم فرسان قرم Esklavonya ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على Osiyek . كان الصربيون يتعاونون مع الألمان . عفا كوبرولو – زاده عن الصربيين ووزع البذور والحيوانات والحبوب مجانا على مناطق القحط . تم إرضاء الصربيين وكسب ودهم بشكل حال بينهم وبين التفكير فى العصيان ضد الدولة العثمانية طيلة عصر واحد .

قدم البادشاه من أدرنه إلى إستانبول ، على أثر سماعه بخبر الانتصار . استقبل الشعب كوبرولو – زاده بمظاهرات ترحيب عظيمة . خلع ، سليمان الثالث فى السراى ، البردة الموجودة على ظهره والبسها لفاضل مصطفى باشا . ودعا له باكيا . استعد فاتح نيش ، فيدين ، سمندره وبلغراد ؛ لاسترداد المجر فى العام المقبل . زاد الخوف فى المانيا ، جددت تحصينات قلعة فينا ، كما أعيد تحصين بودابست .

ورغم استشهاد جركس أحمد باشا برصاصة مسدس معاد ، تمكن من هزيمة جيش الجنرال Caraffa البالغ ٢٦٠٠٠ جندى فى معركة Zernest الميدانية (١٦٩٠/٨/٢١) . نجا ٢٠٠ جندى معاد فقط ، وقتل ١٢ وأسر ١٨ جنرالا من الأعداء . اغتنم العثمانيون ٣٠ مدفعاً، ٧ رايات ، ١٥ علما . كان عدد شهداء الأتراك قليلا جدا وجرح ٣٠٠ منهم . على أثر ذلك جاء ماركراف (ماركيز) بادن Ludwig فى السنة التالية بجيش أضخم ، بقصد الاستيلاء على أردل (Transilvanaya) أيضا واستولى على هذه البلاد المجرية . الغيت الإمارة المجرية فى أردل وضمت إلى الإمبراطورية الألمانية كمقاطعة (١٦٩١/١٢/٤) . وانتهى الحكم العثمانى الذى استمر ١٦٥ سنة (Makkai, Histoire de T,ansylvanie ، ٢٥٣ - ٤) .

سار كوبرولو - زاده من أدرنه لحملة المانية ثانية (١٦٩١/٦/١٤) . توفى سليمان الثالث الذى كان مريضا منذ زمن طويل ، بعد ٨ أيام (١٦٩١/٦/٢٢) . دامت سلطنته ٣ سنوات ، ٧ أشهر ، ٤ أيام . كان عمره يتجاوز الـ ٤٩ بشهرين و٧ أيام . نقل جثمانه من أدرنه إلى إستانبول ، ودفن فى مقبرة جده السلطان سليمان الثانى القانونى .

غادر كوبرولو - زاده أدرنه ، وهو يعلم أن البادشاه على فراش الموت ، لكنه لم يرغب فى تأجيل تاريخ مسيرته وتفويت الموسم . كان قبل ذهابه ، قد هدد كافة رجال الدولة لإجلاس أخ البادشاه ، السلطان أحمد على العرش ؛ حيث كانت الأكثرية تريد إعادة إجلاس محمد الرابع على العرش ، وكان قسم آخر ، يريد إجلاس ولى عهد - سلطان مصطفى ، الابن الكبير لمحمد الرابع ، وقليل أولئك الذين كانوا يريدون إجلاس السلطان أحمد . وعلى الرغم من هذا الوضع ، فقد تم إجلاس السلطان أحمد على العرش خوفا من كوبرولو .

٨) دور السلطان أحمد الثانى (١٦٩١/٦/٢٢ - ١٦٩٥/٢/٦)

أحمد الثانى ، هو الابن الثالث للسلطان إبراهيم . وهو أصغر من أخيه الأكبر محمد ٤ بسنة ،أشهر ، ٢٤ يوما ، وأصغر من أخيه الكبير الآخر سليمان الثالث بـ ١٠ أشهر ، ١٠ أيام . أمه خديجه معزز الخاصكى (زوجة السلطان) الثانية ، كانت

قد توفيت قبل ٤ سنين (١٦٢٧؟ - ١٦٨٧/٩/١٢) . صار ولى عهد ، طيلة سلطنة أخيه الكبير سليمان الثالث ، بضغط من كوبرولو ، ولكن بعد سليمان الثالث ؛ كان عدد الذين يريدون إجلاس محمد الرابع مرة أخرى أو إجلاس ابنه السلطان مصطفى ، أكثر . جلس على العرش وعمره ٤٨ عاما و ٣ أشهر و ٢٥ يوما وهو أكبر من جلس على العرش عمرا حتى ذلك التاريخ . كان مولويا ، شاعرا ، خطاطا ، ملحنا ومؤلفا وكان مستوى تحصيله أعلى من كل من أخويه الكبيرين . ولده الوحيد عدا ٣ سلطانات (أميرات) و شهزاده (أمير) توفوا فى سن صغيرة جدا هو الشهزاده - سلطان إبراهيم (١٦٩٢/١٠/٦ - ١٧١٤/٥/٤) الذى ولد توأما ، وصار ولى عهد لابن عمه أحمد ٣ مدة ١٠ سنوات ، ٨ أشهر ، ١٢ يوما وتوفى وعمره يتجاوز الـ ٢١ عاما بـ ٧ أشهر ، دفن فى مقبرة جده السلطان إبراهيم . وفى ١٧٠٣ حدثت محاولة لإجلاسه محل أحمد ٣ ، الإ أن مؤيدو أحمد ٣ ، انتصروا . زوجة أحمد الثانى ووالدة ولى عهد - شهزاده سلطان إبراهيم ، هى رابعة خاصكى - سلطان (زوجة السلطان) (وفاتها ١٧١٢/١/١٤) ، مدفونة فى مقبرة القانونى .

كان الجيش الإمبراطورى ، تحت قيادة ماركيز بادن Salankamen على بعد ٥٠ كم (مسافة مستقيمة) من شمال - غرب بلغراد . كان جيشا كبيرا مؤلفا من ٥٠٠٠٠ مشاة و ٥٠٠٠٠ خيال ووحدات أخرى . قضى الألمان الشتاء فى الاستعداد بشكل جيد وحصلوا على امدادات . انضم الملك Tökeli مع ٨٠٠٠ مجرى إلى الجيش العثمانى ، أما خان قرم فكان فى الطريق . أخذ قائد أسطول الطونه مصطفى باشا يتقدم باسطوله النهرى صاعدا إلى مابعد بلغراد . وعلى مقربة من Salankamen فى الموقع الذى يصب فيه Tisa على الدونه ، تقابل مع ٨٠٠ سفينة نقل نهرية المانية تحمل العتاد والمهمات . أغرق القسم الأكبر منها وأسر قسما آخر . كان الألمان مترددين ، بسبب هزيمة العام الماضى واسم كوبرولو . كانوا يدافعون عن المجر ويعلمون أنهم سيفقدونها نتيجة لإحدى الهزائم . حفز وضع الألمان المتردد هذا ، أركان العثمانية ، وكوبرولو الذى ينتظر الجيش القرمى الذى يبعد مسافة ٧ ساعات ، على الهجوم قبل وصول القرميين . بدأت المعركة الميدانية عصرا باطلاقات المدافع المتبادلة بين الطرفين (١٦٩١/٨/١٩) . وخلال ساعات ، أخذت صفوف الألمان

فى الانحلال والتراجع . شهر فاضل مصطفى باشا سيفه وتقدم فى الصف الأول لتشجيع جيشه وتحقيق نتيجة حاسمة . وفى تلك اللحظة ، أصابت جبينه إحدى الرصاصات . صاح شخص أو شخصان من عديمى الأخلاق الموجودين حوله منادين باستشهاد السردار بشكل كأنما يراد به إسماع كافة الجيش ، فانحلت الصفوف . جمع الماركيز Ludwig الذى شاهد تغير الوضع ، فرقه المبعثرة وشرع فى الهجوم . لم تقدم الأفواج التركية على القتال وبدأت فى الانسحاب . وهكذا تسلم الألمان الذين تكبدوا خسائر جسيمة ، ساحة القتال من العثمانية التى كانت أضرارها طفيفة . لم يتمكن الماركيز الذى خسر ٤٠٠٠٠ جندى من مطاردة الأتراك. كان عدد شهداء الأتراك ٥٠٠٠ تقريبا . غير أن القسم الكبير من المدافع والمهمات العثمانية انتقلت ليد الألمان . سعادت كيراى خان الذى جاء إلى بلغراد مع جيشه بعد يومين ، شاهد باكيا ، دخول الأفواج العثمانية إلى المدينة . الحقيقة أنه تأخر ، لأنه لم يكن يملك سطوة سليم كيراى ، ولم يتمكن من جمع جيشه فى الوقت المحدد . وتمكن فقط من مطاردة العدو . جاء أولا إلى صحراء Salankamen . شاهد القتلى الألمان الذين يبلغ عددهم أضعاف الشهداء الأتراك ، متروكين دون دفن وشاهد حرق قسم من المهمات العثمانية التى لم يتمكن العدو من نقلها بكاملها . طارد الألمان حتى Petervaradin . قتل فى هذه المعركة دوق هولشتاين Christian أحد الحكام الألمان مع ٣ كونت من الحكام أيضا . كان رئيس أركان الماركيز ، هو المارشال الكونت Von Caprara . كانت الخسارة الكبيرة التى تفوق خسارة الحرب والتى لايمكن تعويضها ؛ هى استشهاد فاضل مصطفى باشا . دامت صدارته ١٢ سنة ، ٩ أشهر ، ٢٥ يوما . كان عمره ٥٣ عاما . استمرت عائلة كوبرولو ، من أبنائه الصدر الأعظم نعمان باشا ، السردار الوزير عبد الله باشا ، الوزير أسعد باشا .

صار قائمقام الصدارة ، عربه جى خوجه قوجا قاضى على باشا ، صدراً أعظم (١٦٩١/٨/٣٠) . كان شيخا حريصا وظالما . كان من غير الممكن أن يسد الفراغ الذى تركه كوبرولو - زاده . والحقيقة أنه لم يكن هنالك من يستطيع سد هذا الفراغ . جىء بقوجا خليل باشا بكلربك حلب ؛ قائدا عاما لجبهة المانيا .

استمر القتال فى خريف عام ١٦٩١ . انهزم الملك سوبياسكى فى كامانيجه أمام قهرمان باشا ، انهزم الألمان أمام Lippa تجاه طوبال حسين باشا بكلربك (أمير

الأمراء) تامشوار . أعدم على باشا ، ٣ من منافسيه مدعيا أنهم السبب فى هزيمة Salankamen . عزل سعادت كيراى الذى لم يتمكن من اللحاق بالجيش فى الوقت المحدد ونفاه إلى رودس حيث توفى هناك بعد مدة وجيزة . انشغل مدة ٦ أشهر و٢٩ يوما باجراءات كهذه . نفى إلى رودس وأعدم فيها ، وصار الصدر الأعظم البكلربك على دياربكر الوزير مرزيفونلى جالك حاجى على باشا (١٦٩٢/٣/٢٧) . كان وزيرا قديرا . أرسل الإمبراطور ، الكونت Marsigli الذى اشترك فى كافة المعارك فى الجبهة الألمانية منذ حصار فينا فى سنة ١٦٨٣ والذى يجيد اللغة التركية ، لغرض عقد صلح . استقبله أحمد الثانى مرتين فى إستانبول وفى أدرنه ، لم تؤد المفاوضات إلى أية نتيجة . خرب القرميون فى ١٦٩٢ غليجيا وشمالها الأقصى وخلال ذلك مدينة Lwow استسلمت Varat (بالرومانية : Oradeà Mare ، بالمجرية : Warasdin بالألمانية : Grosswardein) إلى الألمان مع ٩١ مدفعا ، ٢٠٠ كنتال قذائف ، ٧٠٠ كنتال بارود التى كانت موجودة فيها (١٦٩٢/٦/١٢) .

جاءت أساطيل البندقية – مالطه – البابوية – فلورنسا إلى كريت تحت قيادة الأميرال الكبير موروسينى وانسحبت بعد محاصرتها خانيا مدة ٤١ يوما وخسارتها ٤٠٠٠ جندى (١٦٩٢/٨/٢٨) . دافع عن خانيا ، الوزير اسباناقجى إسماعيل باشا . دخلت جيوش البندقية ، دالماجيا من ناحية ، ودخلت الجيوش الألمانية من ناحية أخرى ، خرواتيا ، ولكن دحر كلاهما .

منح جالك على باشا ، القيادة العليا . سار من أدرنة بعد ٥ أشهر ، ١٢ يوما (١٦٩٢/١٢/١٢) . عين سليم كيراى – كان عمره ٥٨ عاما – خانا على قرم للمرة الثالثة (١٦٩٢/١١/٦) . كان جالك على باشا وزيرا ذا أخلاق عالية كما كان اداريا قديرا . لكنه لم يكن رجل الأزمات الكبرى . تمكن من حمل عبء الصدارة مدة سنة ، ويوما ثم استقال (١٦٩٣/٣/٢٧) . توفى فى كاندية عندما كان واليا على كريت عام ١٧٠٠ عن عمر يناهز الـ ٦٠ عاما (سلاحدار ٢ ، ٦٩٥ ومابعده) . عين مكانه بوزوقولو (من أهالى يوزغات) بييقلى مصطفى باشا ، وهو أيضا من ذوى الأخلاق العالية ومن الأشخاص الذين دربهم مرزيفونلى قره مصطفى باشا ، وأعطيت له القيادة العليا (سردار أكرم) كذلك .

سار بوزوقلى بييقلى مصطفى باشا من أدرنة (١٦٩٣/٧/٦) . اجتاز فى ٢٧ تموز الطونه من Tutrakan . كان يريد استعادة أردل . لكنه غير اتجاه مسيرته ، عندما علم بأن الألمان توجهوا نحو بلغراد . حاصر الجيش الألمانى الذى يقوده دوق Croy ، بلغراد فى ٢٩ تموز . رفع الحصار فى ١٢ أيلول . قتل ١٠٠٠٠ ألمانى ، ٤٤٠٠ شهيد تركى . دافع عن القلعة ، جعفر باشا ، طارد الصدر الأعظم مصطفى باشا ، العدو المنهزم حتى Petervaradin ، وكبده خسائر جسيمة وعاد إلى بلغراد (١٧ أيلول) . دخل سليم كيراى كذلك أردل ، أسر ٢٠٠٠٠ جندى . عاد مصطفى باشا ، إلى أدرنة بعد ٤ أشهر ، ٢٤ يوما (١٦٩٣/١١/٢٩) . عزل بعد أن قضى فى الصدارة ١١ شهراً ، ١٨ يوما ، (١٦٩٤/٣/١٤) .

أرسل الختم الهمايونى إلى الوزير ديمه توكالى سورمه لى على باشا بكلربك (فريق) طرابلس الشام . جاء إلى أدرنة خلال ٣٠ يوما . ومنح القيادة العليا وسار من أدرنة لحملة Varadin (١٦٩٤/٦/٢٨) . حاصر فارداين مدة ٢٣ يوما ، ولم يتمكن من فتحها (٢ ت١) . عاد إلى أدرنة من حملته التى استغرقت ٥ أشهر ، ١٠ أيام (١٦٩٤/١٢/٨) .

تحرك أسطول البندقية – البابوية – التوسكانية – المالطية المشترك من البندقية ، بقيادة الدوج (رئيس جمهور) فرانسيسكو موروسينى وجاءوا إلى مورا . مات هنا العسكرى الكبير Morosini ، احتل مكانه Antonio . نشر ١١٥ سفينة حربية بحرية ، ١٢٠٠٠ جندى فى ميناء ساقيز أمام جشمه واحتل القلعة والجزيرة بقصفها من البحر (١٦٩٤/٩/٢١) . استمر الحصار ١٥ يوما ، ولأن القلعة استسلمت لحالها ، تمكن الأتراك من الذهاب أحرارا إلى جشمه . لكن سقوط ساقيز ، التى هى جزء من الأناضول قلبت إستانبول رأسا على عقب . قال البادشاه « ساقيز ، أحرقت قلبى ، لو رأيت استعادة ساقيز ، ومت ، لما اكترثت » لكنه مات متأثرا ولم يشهد استعادة ساقيز (١٦٩٥/٢/٦) . سبب ضياع ساقيز ، المصائب للعديد من رجال الدولة .

نقل السلطان أحمد خان الثانى الذى توفى فى أدرنة ، إلى إستانبول ودفن فى مقبرة سليمانية . كان عمره يتجاوز الـ ٥١ عاما بـ ١١ شهراً و ٩ أيام . عاش أكثر بقليل من سلفيه وهما أخواه الكبيران . ومن أغرب الصدف ، أن مدة سلطنته

دامت بالضبط ، (بحساب الأيام) بقدر مدة سلطنة أخيه الكبير سليمان الثالث ٣ سنوات ، ٧ أشهر ، ١٤ يوما . خطأً ، عندما كان شهزاده (أمير) قرائين جميلة جدا . كانت لديه خبرة باللغات الشرقية . فى حوزتنا دفتر مذكراته اليومية عندما كان شهزاده ، لايوجد لأى بادشاه مثل هذه المذكرات . فاق اهتمامه بأمور الدولة ، اهتمام أخويه الكبيرين .

٩) المعارك البحرية مع البندقيين (١٦٩٥)

خرج ولى عهد – شهزاده سلطان مصطفى خان ، الذى علم بوفاة عمه بعد دقائق – دون دعوة من أحد – من جناح ولى العهد فى السراى الهمايونى فى أدرنة وجاء إلى جناح الهنكار (السلطان) وجلس على العرش ونادى رجال الدولة لمبايعته . كان عمره يقرب من الـ ٣١ عاما . هو كبير ابنى محمد الرابع . أمه السلطانه – الوالدة رابعة أمة الله كلنوش (١٦٥٢ – ١٧١٥/١١/٦) ، « سمراء ذات عينين سوداوين وشعر مسترسل أسود » كانت امرأة جميلة جدا ، عنيت بها أم زوجها السلطانه تارخان ، طيلة مدة كونها السلطانه – خاصكى (زوجة السلطان المفضلة) وجهزتها بعناية فائقة بما تحتاج إليه من الخصال لتكون أهلا لمنصب السلطانة ــ الوالدة (والدة السلطان) شغلت عرش السلطانة الوالدة ، خلال فترة حكم ابنيها الاثنين مدة ٢٠ عاما و٩ أشهر بلياقة كبيرة جداً . وبموجب التربية التى حصلتها ، لم تزج نفسها فى أعمال الدولة أو الأمور السياسية . شيدت آثار خيرية كبيرة واشتهرت بكرمها الواسع .

جدد العرش ، شبابه . كان مصطفى الثانى ، الذى احتل مكان عمه ، يصغره بـ ٢٠ عاما . أسقط كوبرولو – زاده فاضل مصطفى باشا حقه فى ولاية العرش ، حيث أجلس على العرش مكان أبيه الذى خلع ، عميه الاثنين الواحد تلو الآخر . وعلى هذا يكون مصطفى الثانى قد حرم من إمكان جلوسه قبل ٧ سنوات ، ٣ أشهر عندما كان فى الـ ٢٣ من عمره . اشترك فى عهد أبيه فى الحملات الأوروبية ، وعاش فى عهد أعمامه حرا فى إستانبول وأدرنة . جلس على العرش وهو السلطان الأكثر فعالية وثقافة والأكبر مقدرة من جميع السلاطين الذين حكموا بعد مراد الرابع . والحقيقة ، أن تحصيله كان عاليا .

كان أحمد الثانى ، قد اهتم قبل وفاته بتجهيز الجيش والبحرية لاسترداد ساقيز . صار السردار الأكرم (القائد الأعلى) الوزير مصرلى اوغلو ابراهيم باشا . القبطان دريا (مشير البحر) السابق وبكلر بك طرابلس الغرب السابق ، عزل ميزومورتا حسين باشا بكلربك الجزائر السابق من منصب قبطان دريا وصار قبطان الكاليونات قائد « فريق البحر » أسطول المراكب الشراعية الحربية) .

تمكن ميزومورتا بالأسطول الهمايونى البالغ ٤٨ قطعة من العثور على الأسطول البندقى المكون من ٦٥ قطعة . جرت معركة مضيق ساقيز البحرية ، فى المجال البحرى الكائن فى شمال - شرق الجزيرة . كان الأسطول البندقى المعزز بأساطيل البابوية ، مالطه ، وتوسكانا ، بقيادة الأميرال الكبير (مشير البحر) Benedetto Pisani أصيبت سفينة الأميرالية المسماة Vittorio (الظفر) ، ومات ، وعندما شاهد مساعده الأميرال Contarini الذى احتل مكانه ، غرق ٦ من سفنه وإصابة الكثير منها ، وغرق سفينتين فقط للعثمانية ؛ انسحب إلى ميناء ساقيز (١٦٩٥/٢/٩) .

بعد ٩ أيام ، ظفر ميزومورتا فى هذه المرة بالأسطول البندقى ، على مقربة من جنوب جزر قويون (صباح ١٨ شباط) الذى يقرب من موقع المعركة السابقة . ورغم غرق ٩ سفن من سفن الأميرال الكبير لم يتمكن من إغراق سفينة عثمانية واحدة . ترك ساقيز وهرب إلى مورا . وبهذا اتضح مصير ساقيز (راشد ، ٢ ، ٣٠٥ - ١٠ ؛ نصرت - نامه ، ١ ، ١٠ - ١٦ ؛ Rycault, History of The Turks ٥١٨ - ٢٦ ؛ هامر ، ١٢ ، ٣٧٧ - ٨ ؛ ف . قوردوغلو ، Mezomorta Hüseyin Pasa ، ٥٩ - ٦٢ ؛ وثائق ارشيفيه : صفوة بك ، Koyunadalari Deniz Harbi ، ٣ ، ١٥٠ - ٧٧) .

تم استرداد ساقيز (١٦٩٥/٢/٢٢) . كانت مدة الحكم البندقى فى الجزيرة عبارة عن ٥ أشهر ، ويوم فقط . انتقلت ليد العثمانية ٨ سفن بندقية راسية فى الميناء ، وفى القلعة ١١٢ مدفعا ، ٥٠٠ بندقية ، ٣٥٠٠٠ قذيفة ، ١٢٠٠ قنطار بارود ، ٢٥٠٠ قنطار رصاص ، ٨٠٠ قنطار فتيل ، ٦٠٠٠ كيلة حنطه ، ٥٠٠٠ كيلة ذره (لم يتمكن العدو من نقلها معه) ، و ٧٨٠ جنديا بندقيا (نصرت - نامه ، ١ ، ١٦) . رفع ميزومورتا حسين باشا ، الذى حقق استعادة ساقيز ، إلى رتبة قبطان دريا (أميرال كبير ، مشير البحر) مع منحه لقب وزير .

تجمع البندقيون ، فى مورا ، ودخلوا مرة أخرى ، ارخبيل الجزر (ايجه) مع اسطول مكون من ٧٧ قطعة بحرية . وبعد أن أعجز ميزومورتا حسين باشا ، العدو خارج مياه جزيرة Sisam (١٧ أيلول) ، طاردهم مدة يومين وظفر بهم فى هذه المرة فى Yera خارج مياه جزيرة ميديلى (١٦٩٥/٩/١٩) . غرقت سفينتان بندقيتان وأصيبت ١٠ سفن باصابات بليغة ، فتحولت إلى قطع يمكن سحبها فقط كسفن احتياطية . قتل ٥٠٠٠ بندق . لم يقع أى ضرر على السفن العثمانية وكان مجموع الشهداء مع الجرحى ، عبارة عن ٣٠٠ .

وفى بداية عام ١٦٩٥ ، اجتاح شهباز كيراى ، ابن سليم كيراى خان ، مع ٧٠٠٠٠ خيال ، غاليجيا ووصل حتى Lwow ، خرب ١٠٠٠٠ قرية وقصبة ، عاد ومعه ٣٠٠٠٠ أسير .

عندما علم مصطفى الثانى بخبر استرداد ساقيز ، عزل رجل الدولة السيىء سورمه لى على باشا بعد صدارة دامت سنة ، شهرا ، ١٩ يوما (١٦٩٥/٥/٢) ، وعين مكانه الماس محمد باشا ، الذى كان قد حقره سلفه تحقيرا شديدا (عمره ٣٣ عاما) . لكن هذا التعيين ، أثار الغيرة الشديدة بين رجال الدولة . وفى ٢٥ أيار ، أمر باستقدام أستاذه شيخ الإسلام السالف فيض الله أفندى من أرضروم وجعله شيخ الإسلام مرة ثانية . سيحتفظ فيض الله أفندى بمقامه هذا إلى نهاية سلطنة البادشاه .

١٠) الحملتان الهمايونيتان ، الأولى والثانية على ألمانيا (١٦٩٥ ، ١٦٩٦)

سار السلطان مصطفى مع الصدر الأعظم ، من أدرنة للحملة الهمايونية الأولى على ألمانيا (١٦٩٥/٦/٣) . اشترك شيخ الإسلام حاجة سلطانى أرضروملى سيد فيض الله أفندى فى الحملة . ولدت الانتصارات على البندقية وبولونيا ، جوا من التفاؤل . استولى على Lwow ، وأفنى جيشا بولونيا عدده ١٢٠٠٠ جندى (نصرت - نامه ، ١ ، ٢٣) .

مكث البادشاه أسبوعين فى صوفيا واستقبل فى ٢ آب فى بلغراد بـ ٤٠٠ إطلاقة مدفعية . كان الجيش الهمايونى ١٥٣٠٠٠ جندى ، ومن ناحية أخرى ، كانوا فى

انتظار الجيش القرمى . حضر كذلك ملك المجر الوسطى Tökeli Imre . جاء البادشاه إلى Tamesvar مركز الإيالة . يسجل فندقلى لى محمد آغا ، خازن الأسلحة الشهريارى (السلطانى) الموجود فى معية البادشاه فى الحملة ، بأن مصطفى الثانى هو البادشاه الأول الذى يصل إلى تامشوار (نصرت - نامه ، ١ ، ٧٢) . استولى على Lippa مع الـ ٤٣ مدفعاً الموجودة فيها خلال ساعة ونصف (٩ أيلول) . أسر الماريشال Marquis de Mirmillis الفرنسى الأصل والذى كان فى خدمة الإمبراطور . كان جيش الإمبراطورية الألمانى فى صحراء Lugos . جرت هنا حرب ميدانية (١٦٩٥/٩/٢٢) سقط آلاف الألمان قتلى ، أسر ٥٠٠٠ . كان القائد العام Frederico Veterani ورئيس أركان جيشه أمير Liechtenstein بين القتلى . استسلمت قلعة Lugos . ينوف عدد الشهداء على الـ ٧٠٠ ويقارب عدد الجرحى الـ ١٠٠٠ . كان بين الشهداء وزير (شاهين محمد باشا) ، ابكلربك ، اسنجق بك (أمير لواء) . دفنوا بملابسهم الملطخة بالدماء فى صحراء النصر . أما جراح محمود باشا بكلربك روملى ، فكانت بليغة ، ولانه مات بعد مدة ، فقد جرت مراسم دفنه حسب الأصول . جرح بكلربك واحد وسنجق بك واحد (نصرت - نامه ، ٩٥) .

تم الاستيلاء على قلعة شبش (بالمجرية : Sebes) ، وهكذا اكتسب الحكم العثمانى الصفة القطعية فى Banat وادمج جنوب - غرب أردل فى إيالة تامشوار . كانت أردل مفتوحة للاستيلاء العثمانى بعد انتصار Lugos . لكن روح الفتح والدولة العالمية كانت قد ماتت لدى العثمانية . اقنعوا البادشاه بالعودة بحجة حلول الخريف . عاد مصطفى الثانى إلى إستانبول بعد ٤ أشهر ، ١٨ يوما (١٦٩٥/١١/١٨) . عين الوزير جلبى ابراهيم باشا ، قائدا عاما على المجر والوزير مصرلى أوغلو إبراهيم باشا قائدا عاما على مورا تجاه البندقيين . وأحال إلى التقاعد وزيرا واحدا و ٦ بكلربك وهم الذين لم ترقه خدماتهم فى هذه الحملة ، وخصص لكل منهم راتبا تقاعديا قدره ٣٠٠ آقجه (عملة فضية) يوميا .

كان معروفا ، أن هدف القيصر بطرس الكبير هو الوصول إلى البحار المفتوحة ، خاصة البحار المفتوحة الدافئة . البحر الدافىء المفتوح ، هو البحر الأسود . فى الوقت الذى كانت فيه السويد تسد البلطق ، والعثمانية تسد البحر الأسود عن روسيا ؛ كانت

روسيا تعيش كأية دولة برية ، تتحسر على حرمانها من نعم البحار . ورغم محاولاتها ، لم تتمكن من النهوض والدخول فى عداد الدول الأوربيـة . جاء جيش بطرس الشاب مع ۳۰۰۰۰۰ جندى أمام آزاك (Rostov) . ولو تمكن من الإستيلاء عليها لأمكنه الوصول إلى البحر الأسود من أقصى حافته . دافع عن القلعة ، مرتضى باشا بكلربك كفه Kefe مدة ٣ أشهر ، ٤ أيام . جرى قتال عنيف جدا . تسجل المصادر الروسية أنه ، قتل مايقارب ۳۰۰۰۰ وبالنسبة للمصادر العثمانية ۶۰۰۰۰ جندى روسى . طارد ٥٠٠٠ جندى عثمانى ، القيصر أثناء انسحابه وقتلوا ٤٠٠٠ جندى روسى آخر تقريبا (نصرت - نامه ، ۱ ، ۱۲۱ - ۹ ؛ هامر ، ۱۲ ، ۳۹٥ - ٦) . درس بطرس أسباب هذه الهزيمة بدقة ، وتوصل إلى نتيجة مؤداها أنه لايمكن محاصرة قلعة دون حيازة المعلومات التكنولوجية ، وأن الجيوش الكثيفة بدون ضبط وتعليم ، هى قطعان لافائدة فيها . وفى ١٣ ت١/١٦٩٥ وقبل مضى سنة واحدة على الهزيمة ، جاء إلى آزاك ١٦٩٦/٦/٣ . شيد مصنعا للسفن الخفيفة (النهرية) فى Voronej على الدون ، وأخذ فى انتاج السفن ، وعلاوة على ذلك ، أعطى قيادة الجيش الروسى إلى الجنرال الاسكتلندى Gordon وإلى الفرنسى السويسرى Lefort . جاء مع ١٠٠٠٠٠ جندى . لم يكن الجيش العثمانى قد أصلح بعد قلعة آزاك و لم يعزز الحامية . حفر المهندسون البندقيون والسويديون ، والدانماركيون والهولنديون والانكليز الأنفاق المؤدية إلى قلعة آزاك . لم يتمكن ٥٠٠ جندى عثمانى وهم الموجودون فى القلعة من المقاومة أكثر من ٦٣ يوما واستسلمت فى ٦ آب . أعدم ٣ بكلربك الذين لم يتمكنوا من إمداد القلعة فى حينه . حكم بطرس قلعة آزاك واحتفل بنصره هذا فى موسكو بإقامة الأفراح . ومن ناحية أخرى ، أستولى على القرية التركية الواقعة على الساحل الشمال - الشرق من بحر آزاق المسماة Taygan وسماها Taganrogوجعلها مركزا بحريا . حكم العثمانيون ضفتى مضيق Kereç وكذلك عززوا Karasnodar الواقعة على نهر Kuban . قوبل ضياع آزاك باستياء فى إستانبول ، (نصرت - نامه ، ١٥١) ، ورغم أن آزاك سوف تسترجع بعد ١٥ سنة ، فإن روسيا كانت قد تذوقت طعم البحر الأسود .

سار القبطان دريا ميزومورتا حسين باشا مع ٦٦ قطعة بحرية إلى الحملة (١٦٩٦/٥/١٣) ، انضم إليها فى فوجا Foça ١٠ سفن حربية جزائرية

و ٥ تونسية و٣ طرابلسية . ظفر بالأسطول البندق فى ١٨ أيلول فى المياه المفتوحة لجزيرة Andros من جزر Kikland . غرقت ١٣ سفينة بندقية ، و٦ عثمانية . قتل ٥٠٠٠ بندق واستشهد ٣٠٠ تركى . قتل ٢ أميرال بندقيان وقطعت اليد اليسرى لآخر .

سار السلطان مصطفى الثانى من إستانبول للحملة الهمايونية الثانية (١٦٩٦/٤/٢٠) . ظل شهرا ، ٢٠ يوما فى أدرنة . جاء إلى بلغراد فى ٣ آب . كان الملك Tökeli Imre ضمن الجيش العثمانى .

كان الجيش الألمانى يتكون من ٤٥٠٠٠ خيال ، ٤٠٠٠٠ مشاة ، ووحدات إضافية ، و ١١١ مدفعا . القائد العام للإمبراطورية ، هو منتخب ساكسونيا Friedrich - August الذى يسميه الأتراك – بسبب كونه عسكريا فظاً – « نالقيران » (كاسر النعل) وهو الذى انتخب كذلك ملكا على بولونيا بعد وفاة سوبياسكى فى هذه الأثناء كان رئيس أركانه الماريشال الكونت Von Caprara ، قائد الجناح الأيمن الماريشال Von Taafe ، قائد الجنـاح الأيسر الماريشال Von Haeusler . كان السلطان مصطفى ، على وشك دخوله المجر ، عندما علم بمحاصرة الملك ـــ المنتخب ، لتامشوار ، فغير اتجاهه إلى تلك الناحية . أما الملك فإنه عندما علم بقدوم البادشاه نحوه ، رفع الحصار وجاء إلى الصحراء .

أصدر الملك المنتخب ، أمر التراجع عند خسارته ١٦٠٠٠ قتيل فى الحرب الميدانية Olas (١٦٩٦/٨/٢٧) ، كان بين القتلى Von Haeusler و ٣ كونت من حكام الألمان . كانت خسارة الأتراك مايقارب ١٥٠٠ شهيد و ٢٠٣٢ جريحا . استشهد وزير واحد وبكلربك واحد ، وقطعت إحدى القذائف اليد اليسرى للوزير مصطفى باشا ، أخ الصدر الأعظم الماس محمد باشا ، لكنه نجا من الموت . اغتنم العثمانيون ٢٢ مدفعا و ٩ رايات ومهمات على نطاق واسع . وبعد هذا الانتصار كذلك ، لم يفكرون فى استعادة أردل . جاء الجيش الهمايونى إلى تامشوار فى ٣١ آب . شيخ الإسلام وحاجه سلطانى (أستاذ السلطان) فيض الله أفندى الذى اشترك فى هذه الحملة ذبح القرابين ؛ لأن ٩ قذائف ألمانية مرت من فوق رأس البادشاه وارتكزت فى الأرض . استمرت الحملة مدة ٦ أشهر و ٥ أيام . عاد مصطفى الثانى إلى أدرنه (١٦٩٦/١٠/٢٥) .

وفى ١٦٩٦ ، اجتاح سعادت كيراى غاليجيا أيضا إلى Lwow وعاد ومعه ١٠٠٠٠ أسير (نصرت - نامه ، ٢١٧) . ظفر ميزومورتا حسين باشا فى ١٦٩٧ بأسطول البندقية وحلفائها ، خارج مياه جزيرة Andros وهزمه (٢ أيلول) . حاصر البندقيون قلعة أولكون (بالصربية : Ujcin ، بالإيطالية : Duleigno) على ساحل قره داغ . تسجل المصادر الأوربية أنهم خسروا ٥٠٠٠ ، وتسجل المصادر العثمانية أنهم خسروا ١٢٠٠٠ قتيل ثم انسحبوا . وفى ١٦٩٧ اجتاح القرميون دلتا الفولغا حتى استرخان . ساند القالموقيون البوذيون هنا (إحدى العشائر المغولية) الروس ، ولم يساندوا الأتراك . وفى السنة التالية ، ظفر ميزومورتا حسين باشا بالأسطول البندق فى المياه الخارجية لزيتون بورنى جنوب ميديلى (١٦٩٨/٩/٢٣) . غرقت سفينتان للبندقيين ، أصيب أكثرها ، وسقط ١٢٠٠ قتيل و ٢٥٠٠ جريح تقريبا . خسائر العثمانية ٣٠٠ شهيد و ٥٠٠ جريح تقريبا . جرح الأميرال الكبير Cornaro فى يده اليمنى .

١١) الحملة الهمايونية الثالثة ، هزيمة Zenta (١٦٩٧/٩/١١)

سار مصطفى الثانى من أدرنه للحملة الهمايونية الثالثة (١٦٩٧/٦/١٧) . جاء إلى بلغراد فى ١٠ آب . كان فى انتظار البادشاه فى هذه المرة ، أحد أكبر العسكريين فى العصر وهو أمير Savoie الماريشال Eugen بصفته قائد الإمبراطورية . الأمير الذى ولد فى باريس عام ١٦٦٣ ، يكبر السلطان مصطفى بسنة واحدة . كان قد طلب من لويس ١٤ قيادة فوج ، وعلى أثر إفادة الملك بأنه حديث السن ، غادر فرنسا ، وحصل من الإمبراطور على قيادة فوج ، اشترك فى القتال بصفته هذه وهو فى سن الـ ٢٠ أمام مرزيفونلى قره مصطفى باشا فى معركة Kahlenberg الميدانية (بالعثمانية المان داغى) ، وتمكن بدهائه الخاص من التعمق فى فهم أصول القتال التركى وتشكيلاته العسكرية . حارب الأتراك بصفة قائد فوج ، لواء ، فرقة ، جيش . عين فى ١٦٩٧ قائدا عاما على القوات البرية للإمبراطورية الألمانية وعمره ٣٤ عاما . سيحارب الأتراك بصفته هذه للمرة الأولى وأمامه الخاقان - الخليفة العثمانى بنفسه وليس سردارا اعتياديا .

اجتاز الجيش الهمايونى ٩ جسور ووصل Zenta . وهى قرية تقع فى جنوب المجر ، وتبعد ٤٠ كم عن جنوب Srgedin و ٣٥ كم عن جنوب – شرق Subotica . ونهرها هو Tisa . الأراضى المجرية ، تأتى بعد عبور الجسر . أسر الألمان فى هذه الأثناء ، أحد البكلربك الخونة المسمى كوجوك جعفر باشا . قابل هذا الشخص الأمير أوجين . يقول الكونت Marsigli الذى اشترك فى هذه الحرب (ص ٢١٤) : « علم الأمير من الباشا التركى بأن السلطان اجتاز Tisa مع الخيالة ، وأن المشاة والمهمات جاهزة للعبور وأن الجيش بكامله سوف يعبر خلال أيام . جاء إلى Zenta ، وشاهد صحة ماقاله الباشا التركى ، وأدرك أن الفرصة سنحت له » .

قصف الأمير أوجين بنار المدفعية ، الجسر الذى يجتازه الجيش الهمايونى . سقط فى النهر آلاف الجنود العثمانيين من الجسر الذى انهار من ناحيتين . والأنكى من ذلك ، أن الجيش انقسم إلى شطرين ، وظل على ضفتى النهر . كان الوزير بيوك جعفر باشا ، بكلربك روملى فى الجناح الأيمن ، والوزير مصرلى أوغلو إبراهيم باشا بكلربك الأناضول فى الجناح الأيسر . وكان الملك Tökeli Imre وشهباز كيراى أمير قرم كذلك موجودين ضمن الجيش . جرت المصيبة المسماة معركة زنتا Zenta الميدانية بين الألمان وشطر الجيش الذى تمكن من العبور . بقيت الوحدات العثمانية التى لم تتمكن من العبور متفرجة فقط ، ولم تتمكن حتى من فتح النار . لأن النار التى ستفتح يمكن أن تصيب الطرفين ، بسبب تشابكهما .

تقول المصادر الألمانية أن حوالى ٢٠٠٠٠ عثمانى استشهدوا ، و ١٠٠٠٠ تقريبا غرقوا فى النهر (فون هامر ، ١٢ ، ٤٢٣) . أما بالنسبة لراشد (٢ ، ٤١٤) فمجموع شهداء الأتراك ١٣٠٠٠ تقريبا . استشهد كل من الصدر الأعظم الماس محمد باشا بكلربك الأناضول وأميرال عصره الشهير مصرلى أوغلو الوزير إبراهيم باشا ، بكلربك تامشوار الوزير قوجا جعفر باشا ، بكلربك روملى الوزير بلطه جى أوغلو محمود باشا . انتقل إلى حوزة الألمان الختم الهمايونى الذى يتأبطه الصدر الأعظم ، مدافع كثيرة ، ٩٠٠٠ عجلة ، ٦٠٠٠٠ جمل ، ١٥٠٠ ثور ، ٧٠٠ حصان ، ٢٦٠٠٠ اطلاقة مدفعية ، ٥٥٣ قذيفة ، ٥٠٠ طبل ، ٨٨ جرسا ، ٤٠٠٠٠ سكة ذهبية نقدية ، عربة البادشاه التى تسحبها ٨ خيول . وانتقل إلى حوزة الألمان كذلك التاج الملكى المجرى الذى كان لدى Tökeli Imre . عندما

قدمت الغنائم إلى الإمبراطور ، أبدى سروره بهذا التاج والختم الهمايونى .

كان انتصار الأمير أوجين كبيرا؛ حيث أنه لم يصغ لأمر الإمبراطور ببقائه فى حالة الدفاع وعدم دخوله حرب ميدانية بسبب عدم خسارة أى بادشاه ، فى حرب ميدانية حتى ذلك التاريخ ؛ ولم يفوت الفرصة عندما ظفر بالجيش الهمايونى على الجسر . والحقيقة ، أنه حتى ذلك التاريخ ، - عدا معركة انقره - لم يهزم أى بادشاه فى حرب ميدانية ، فى أية حملة همايونية . ولأن معركة انقرة خسرت تجاه حاكم مسلم ، فيكون الأمير أوجين ، قد أظهر فعلا ، إمكان انتصار جيش مسيحى على خاقان عثمانى فى حرب ميدانية . إذ لم يكن البادشاه ، قائدا عاما فى أية معركة سابقة انتصر فيها المسيحيون .

كان البادشاه وكذلك الصدر الأعظم فى شطر الجيش الذى اجتاز إلى الضفة الثانية . وبتضحيات كبيرة ، أمكن إنقاذ حياة البادشاه وإعادته إلى الخلف . لكن الجنود ، لم يعاملوا الصدر الأعظم بنفس المعاملة . بل بالعكس ، شهر الانكشاريون الخناجر على الماس محمد باشا ، استشهد الصدر الأعظم وجرح أخوه الوزير مصطفى باشا (الذى كان ذا ذراع واحدة) بجراح بليغة . ألقى الجند مسئولية نسف الجسر على عاتق الصدر الأعظم . والذى ألقى هذه الفكرة فى أذهان الجنود ، هم منافسو الماس باشا الذين يريدون التخلص منه . وبطبيعة الحال فانه ليس من السهل ، الحرب بجيش بهذا الوضع . أدرك مصطفى الثانى ذلك . « وأثناء انسحاب البادشاه بسكون مع سباهيته الخيالة إلى تامشوار ، لم يستصحب معه أية وحدة من وحدات الانكشارية التى يكرهها . لم يتمكن الأمير أوجين من مطاردة الأتراك ، بسبب وجود النهر الذى يفصل بين الفريقين . وبعد انتصارنا انتقلت إلى حوزتنا كافة القلاع التى كانت باقية لدى الأتراك . أكثرها استسلمت بسبب الجوع وانسحبت وحداتها وذهبت بحرية . لم يبق بعد الآن علاقة للأتراك بالمجر . والأهم من ذلك ، انقطع أملهم فى استعادة المجر » (Kont Marsigli ص ٢١٥ ، ٢٦٠) .

هكذا انتهت صدارة الماس باشا التى دامت سنتين و ٤ أشهر و ١٠ أيام صار عموجه - زاده حسين باشا ، صدراً أعظم . كان أعظم وزراء عصره . كان عمره ٤٩ عاما . وهو ابن عم لكل من كوبرولو - زاده فاضل أحمد باشا وفاضل مصطفى باشا . كان حسين باشا ، الذى يسمى كذلك باسماء « كوبرولو - زاده ، يكن

(ابن عم) ، مولوى ، سرخوش (سكران) » ؛ يريد توجيه الدولة نحو الصلح .
أما مصطفى الثانى ، فكان يزعم أنه سوف يسترجع المجر ويعتبر هزيمة زنتا ، صدفة سيئة
نعيما ، كتب تاريخه المشهور الذى اسمه الأصلى روضة الحسين ، على اسم حسين
باشا هذا .

وبهجوم مفاجىء ، دخل الأمير أوجين ، بوسنة سراى بعد زنتا بشهر واحد
(١٦٩٧/١٠/١٧) . لاتوجد قلعة فى بوسنة سراى . إذ إنها كانت تعتبر مدينة
داخلية . ولم يكن فى المدينة جنود ، فكلهم ذهبوا إلى الحملة . ولم يكن بكلربك
بوسنة كذلك موجودا فى المدينة . كانت بلدة ثقافية عثمانية كبيرة يبلغ عدد نفوسها
١٢٥ ٠٠٠ نسمة ، تحوى ١٧٧ مسجداً ، ١٨٠ مدرسة ، ٤٧ تكية ، ٧٣
خان ، ٣ كروان سراى (منزل) ٧ عمارات (مراكز توزيع الطعام للفقراء) .
بقى الأمير ٢٤ ساعة فى البلدة وحرق ١٢٠ مسجدا (هامر ، ١٢ ، ٤٢٧ – ٨) ؛
راشد ، ٢ ، ٤٢٢ — ٣) ولأنه حقق هذه الغارة الجرئية بقوة بسيطة قوامها
٤٠٠٠ خيال ، ٢٥٠٠ مشاة ، ١٤ مدفعا ، فقد انسحب فى الحال عندما علم
بقدوم وحدة عثمانية نحوه .

١٢) معاهدة-كارلوفجه (١٦٩٩/١/٢٦)

كانت كل من المانيا وفرنسا ، تستعدان فى هذه الأثناء لحرب ترث فيها إسبانيا .
اخذت كل من انكلترا وهولندا ، مكانها بجانب المانيا وكانتا عازمتين على سحق فرنسا
فى هذه الحرب . دولتان بحريتان كبيرتان كانكلترا وهولندا ، اتحدتا تحت إدارة وليم
٣ William (بالفلامانية : Willem) وكان لويس ١٤ ملك فرنسا عازما على
تفريق هذا الاتحاد . وفى إستانبول ، كان لورد Lord Paget سفير انكلترا و Collyer
سفير هولندا يمثلان اصلاً ، نفس الحاكم (رئيس الدولة) . وليم ، الحاكم الهولندى
الأصل الذى صار – فى نفس الوقت – ملكا على انكلترا بلقب « وليم ٣ » . إن
قوة انكلترا – هولندا معا ، تقل عن قوة فرنسا . إلا أنه ، لو أمكن إدخال ألمانيا
كذلك فى هذا الاتفاق ، لأمكن التفوق على القوة العسكرية الفرنسية . لذا شرع
السفيران فى إستانبول فى الدعاية الكبيرة لاقناع رجال الدولة بمصالحة ألمانيا وقدموا
رشاوى كبيرة . ولو تقدمت المانيا بالصلح ، فسوف تتلهف على الدخول فيه بطبيعة

الحال البندقية ، بولونيا وروسيا لأنهم سيكونون لقما سائغة للعثمانية بدون ألمانيا .

كان الصدر الأعظم عموجه – زاده حسين باشا ، يريد إنهاء هذه الحرب وتضميد جراحات الدولة . رجال الدولة الآخرين كانوا يؤيدون الصدر الأعظم ، سواء لأنهم كانوا يؤيدون الصلح باخلاص ويرون أن سلامة الدولة فى هذا الاتجاه ، أو لأنه غرر بهم سفيرا انكلترا وهولندا الموجودان فى إستانبول . لم يجد مصطفى الثانى حوله من يؤيده فى الحرب إلا القليل جدا . كان قبول الصلح ، يعنى ترك المجر ومورا . جهز مصطفى الثانى جيشا عظيما وسط الشتاء لاستعادة المجر . لكن الوزراء مانعوا فى مسيرة البادشاه إلى الحملة عام ١٦٩٨ . ومرت السنة بكاملها فى مفاوضات الصلح ومحاولات السفيرين – لصالح العثمانية كما يزعمون – للوساطة فى الصلح . فرنسا التى شعرت بالإحاطة بها كانت ترغب وتستحث العثمانية على الاستمرار فى الحرب . لكن الباب العالى ، كان قد سئم من تقلب لويس ١٤ . كان يعلم أنه عدو الإسلام والأتراك ، ولايعتمد عليه إطلاقا . وفى الواقع فإن فرنسا ، كانت تزين فقط ، ولاتقترح دخول الحرب بجانب العثمانية . ومن جهة أخرى ، فان السفيرين كانا محايدين فى الظاهر ، ولكنهما فى الحقيقة ، كانا يخدمان مصالح المانيا حليفة رئيسى دولتيهما ، ويسعيان فى تحقيق صلح لصالح ألمانيا على قدر الإمكان . Collyer الذى يمثل هولندا فى إستانبول منذ ٢١ عاما ، يتكلم التركية ، ويذهب إلى بيوت الوزراء ويأكل الطعام متربعا على الطريقة العثمانية ، ويشرب القهوة والجبك (نوع من الغليون طويل الأنبوب) . وبناء على ذلك فإنه كان بالنسبة للكثيرين من رجال الدولة العثمانية السذج كافراً يحب العثمانيين . كان عموجه – زاده الذى كان إداريا جيدا ولكنه لم يكن عسكريا يخشى من خروج البادشاه بحملة جديدة ويريد التعجيل بالصلح . وفى جو كهذا ، لم تحدث أية حركة عسكرية مهمة فى الجبهات خلال عام ١٦٩٨ .

كانت البندقية ، تغرى فيينا بعقد الصلح خشية احتمال فقدانها مورا فى حالة استمرار الحرب وتيقنها كذلك من عدم قدرتها على استقطاع شىء جديد من العثمانية ، بسياستها الواقعية . بولونيا عاجزة أمام القرميين الذين يجتاحون غاليجيا ويدمرونها كل عام ، وتطلب الصلح . والقيصر بطرس فقط ، اقتناعاً بأنه لم يتمكن من استقطاع شىء من العثمانية ، واعتماداً على حصانته الجغرافية ، ولأنه ، لايبالى بعدد الجنود الذين يفقدهم فى الحرب ؛ كان يعارض الصلح مع فيينا .

كان العالم الإسلامى ، متأثرا من تكبد العثمانية خسائر كبيرة فى هذه الحرب . قدم الشاه إلى العثمانية فى إيران ضمانات أكيدة لأمن الحدود من جهة إيران وأنه يمكنها سحب جنودها الزائدة من الحدود الشرقية لاستعمالهم فى الحرب فى أوروبا ، وقد بر بوعده ، أرسل مصطفى الثانى رئيس الكتاب السابق (وزير الخارجية) محمد باشا إلى أصفهان وشكر الشاه حسين . ويبدو أنه قد انتهت الفترة التى كان لايمكن لأوربا فيها مقاتلة العثمانية ، إلا بمساعدة إيران ، والآن ، أصبحت أوربا ، مقتنعة بأنها تستطيع تحقيق ذلك بمفردها ، إذا مااتفقت فيما بينها . أما تيمور أوغلو أفرنكزيب علمكيرشاه ، الذى وفق للمرة الثانية فى التاريخ – بعد السلطان علاء الدين محمد – فى توحيد الهند تحت ظل دولة موحدة واحدة والحاكم المقتدر النانى على وجه الأرض بعد البادشاه ، فإنه لم يظهر أية إشارة تدل على ميله نحو العثمانية . كان من الواضح أنه يحسد البادشاه على حيازته صفة الخلافة . وبسبب كثرة عدد حجاجه ، ووجود تجارة عثمانية – هندية واسعة النطاق ، لم يظهر كذلك أى عداء تجاه العثمانية . وكان وجود ايران ، بين الدولتين ، يمنع ذلك . إن خانات تركستان وخاصة سبحان قولوخان ، الذى هو أعظمهم اقتدارا (١٦٨٠ – ١٧٠٢) ، ساند العثمانية فى هذه الحرب مساندة علنية . أفاد خطيا بأن البادشاه العثمانى ، كما أنه خليفة له بالذات ، فهو كذلك خليفة المسلمين كافة وأخ كبير له (سلاحدار ، ٢ ، ٤١٨) . ولكن لم يكن باستطاعته عمل الكثير . ساق جيشا ، وعزل روسيا عن قرم ، وهذه ليست بالخدمة اليسيرة ؛ إذ يسر بذلك للجيش القرمى أن يحارب فى جبهات بولونيا وألمانيا وهو فى أمان من ناحية روسيا . سلطان فاس اسماعيل ، ولو أنه يعتبر حاكما أقل شأنا بالنسبة لبادشاهات الأتراك فى الهند وايران ، لكنه على كل حال ، حاكم دولة كبيرة وأكبر شأنا من خانات تركستان وقرم ، لم يكن وضعه مواليا تجاه العثمانية . أزعج إيالة الجزائر بصورة مستمرة ، حيث كانت الجزائر مضطرة لإرسال أسطولها سنويا إلى مجالات الحرب العثمانية ، لكنه لم يحصل على شىء سوى الخسارة . وهكذا ، فانه بينما لم يكن هنالك اتحاد فى العالم المسيحى ، كذلك لم يكن هنالك اتحاد فى العالم الإسلامى .

منح حسين باشا ، فى ٣ أيار (١٦٩٨) رتبة السردار الأكرم (القائد الأعلى) وسار من أدرنه ، جاء إلى صوفيا . أرسل رئيس الكتاب (وزير الخارجية) رامى

محمد أفندى إلى بلغراد من أجل مؤتمر الصلح الذى سيجتمع فى كارلوفجه . وسافر مفوضا انكلترا وهولندا ، فى المؤتمر بصفة وسيطين ، وحصل هذان الوسيطان فى ٢٢ تموز من الصدر الأعظم على وثيقة تقر بقبول أساس الـ Statu quo (على حاله) فى المفاوضات ، أى قبول بقاء الأماكن الموجودة الآن لدى أية دولة ، على وضعها الحالى . هذه الوثيقة ، حددت مهمة رامى أفندى الدبلوماسية بشكل كبير . وسببت له المصاعب الكبيرة . ولايعلم أحد ماهية سلسلة الخيانات التى تمخضت عنها تقديم هذه الوثيقة إلى السفراء .

وإزاء احتمال فشل المفاوضات ، تجمع فى بلغراد ١٠٠٠٠٠ جندى عثمانى و٣٠٠٠٠ قرمى . بقى عموجه – زاده ستة أشهر و١٥ يوما فى بلغراد وعاد إلى أدرنة فى ١٤ ك١ (١٦٩٨) . كان بزوقلو مصطفى باشا ، خلال هذه المدة ، قائمقام الصدارة فى أدرنة . وكانت ٢٠٠ قطعة من الأسطول الخفيف (النهرى) تنتظر فى بلغراد . كان سليم كيراى خان فى البداية ، فى بلغراد ثم انسحب إلى تامشوار لقضاء الشتاء . أخذت ٤٥ قطعة من الأسطول تجوب فى شمال البحر الأسود . جاء القيصر إلى فيينا وتكلم مع الإمبراطور شخصيا لإقناعه بترك الصلح . أفاد الإمبراطور بعد أن شرح وضع الأتراك العسكرى ، أن كافة الدول أصبحت تريد الصلح مع العثمانية . غادر القيصر فييناغاضبا . كانت روسيا ، قد أصبحت على قدم المساواة مع بولونيا من حيث القدرة .

تقع كارلوفجه ، التى عقد فيها المؤتمر على بعد ٦٥ كم عن شمال – غرب بغلراد ، قريبة من Petervaradin . كان ممثلو ألمانيا هم الماريشال كونت Wolfgang Von Ottingen الماريشال Von Schlink ، الفريق الكونت Marsigli الذى يجيد التركية . لم يتمكن الممثلون البولونيون والبندقيون والروس والعثمانيون من الحضور قبل ٢٤ ت١ وأفتتحت الجلسة الأولى للمؤتمر فى ١٣ ت٢ (١٦٩٨) .

يقول الكونت Marsigli الذى اشترك كممثل ألمانى ثالث (ص ٥٢) « لايمكن تصور عمل أصعب من عقد صلح مع الأتراك ، من شأنه أن يجلب لهم المصائب والشقاء أو أن يكون سببا فى تركهم مدينة ... أما المعاهدة التى أبرمت فى كارلوفجه فهى أكثر المعاهدات إضرارا بالأتراك من بين المعاهدات التى وقعوا عليها حتى الآن . إن الحرب بالنسبة للأتراك عمل أسهل وأخف من عقد صلح . عند جلوسهم على

مائدة الصلح ، يغطون فى نقاش لانهاية له ويخلقون كل المصاعب للطرف المقابل . وعند البحث على مائدة الصلح عن كلمة حدود ، تسليم مدينة ، تخريب أو إنشاء قلعة أو كلمة لاتعجبهم فى متن المعاهدة ، يعملون كل مايخطر أو لايخطر على البال من فنون الخداع والحيل . يطيلون المفاوضات ويوقعون الطرف المقابل فى الضجر والملل ، وكأنهم يبحثون عن ذريعة لرفض الصلح والقتال مجددا . ولذا فان الممثلين المسيحيين ، أصبحوا بين الحين والآخر ، فى حالة يرثى لها أمام الأتراك » . يبدو أن الكونت شرح نسبيا وضعه الشخصى أمام رامى أفندى فى كارلوفجه .

وفى ٢٤ ك٢ ، وقع الممثلون الروس على صلح لمدة سنتين . وتقرر عقد مؤتمر فى إستانبول لمفاوضات الصلح النهائية . (أى أن روسيا ، لم توقع على معاهدة كارلوفجه) . وقع على المعاهدة ، قبل الظهر بقليل فى الساعة ١١/٤٥ باجراء المراسم بعد افتتاح الجلسة الأخيرة فى الساعة ١٠ من صباح يوم ٢٦ ك٢/١٦٩٩ . وبعد تبادل التوقيعات ، خرج حشد المراسلين من باب الصالة وتحركوا فورا إلى إستانبول ، أدرنة ، فيينا ، البندقية ، وارشو ، لندن لاعلان انتهاء المؤتمر والتوقيع على المعاهدة . طلقات الفرح التى أطلقت من المدافع فى كارلوفجه ، أجابت عليها فى مساء نفس اليوم ، مدافع الألمان التى أطلقوها فى بيترفارادين والأتراك فى بلغراد . لم يلق الصلح استحسانا فى فيينا ، وارشو والنبدقية وأعتبر أن السياسيين الأتراك غرروا بالطرف الآخر . انتقدت بشدة ، المواد التى تعطى للعثمانية إينه باختى (Lepanto) و Preveze من البندقية ، والتى تنص على إخلاء القلاع الألمانية الأقل أهمية الموجودة فى الحدود المجرية وإعطائها إلى العثمانية ، رغم أن المؤتمر افتتح على أساس الـ Statu quo . « لكن معاهدة كارلوفجه ، كانت تلغى الضرائب السنوية المخلة بالكرامة التى كان يسددها الإمبراطور والبندقية إلى تركية ، وكذلك الضرائب التى تسددها بولونيا إلى خان قرم الذى يعتبر تابعا بسيطا للبادشاه . وتعيد لهذه الدول كرامتها . كانت تبعد الأتراك وتخرجهم من بولونيا والمجر بصورة أبدية . تمحى من مخيلة أوربا التفوق العسكرى المدهش الذى كانوا يصفون به الأتراك . توضح إمكان هزيمة الأتراك واستقطاع أقطار منهم . الانحطاط التركى ، كان أعظم مما يتصور ، وتدل الاصطلاحات والنجاحات التى حققها مراد الرابع وعائلة كوبرولو ، أنها كانت مؤقتة وغير كافية لتضميد الجراح » (فون هامر ، ١٢ ، ٤٧٣ – ٤) .

وحتى البادشاه ، وافق على مخاطبة حكام أوروبا فى مكاتباته بخطاب « أنتم » ، بينما كان يخاطبهم فى السابق بخطاب « أنت » . كانت أول اتفاقية فى صالح أوروبا وضد تركية . « إن عام ١٦٩٩ من أهم أعوام التاريخ . كان يظهر انتقال التفوق الآسيوى إلى أوروبا » (Grenard) . كانت الاتفاقية ، تنهى حالة الحرب بين العثمانية وكل من ألمانيا التى استمرت ١٥ سنة و ٦ أشهر و ٢٥ يوما ، بولونيا ، التى استمرت ١٥ سنة و ٤ أشهر و ٩ أيام ، البندقية التى استمرت ١٤ سنة و ٦ أشهر و ١٢ يوما ، روسيا ، التى استمرت ٩ سنوات و ٧ أشهر و ٢٧ يوما . وتغلق فترة الـ ١٥ سنة التى تسمى « سنين المصائب » فى التاريخ العثمانى . إن حالة الحرب ، كانت مستمرة رسميا مع دول البابوية ، مالطه ، توسكانا وأسبانيا ولكنها فعلا ، أخذت تنقلب إلى حالة هدنة .

تُركت أراض مجموع مساحتها ٣٤٦٠٠٠ كم٢ تقريبا ، منها ٢٤٩٠٠٠ كم٢ إلى ألمانيا ، و ٣٢٠٠٠ كم٢ إلى البندقية ، و ٤٥٠٠٠ كم٢ إلى بولونيا ، و ٢٠٠٠٠ كم٢ إلى روسيا . ورغم أن بولونيا هزمت ، فقد تخلت العثمانية عن إيالة بولونيا ومنحتها لتلك الدولة .

بالنسبة للمعاهدة الموقعة مع ألمانيا (عشرون مادة) : تنتقل كامل المجر ، سلوفاكيا ، خرواتيا ، أسكلافونيا ، سلوفينيا وترانسلفانيا من العثمانية ، إلى ألمانيا . هذه خسائر هائلة ، فقد كانت المجر ، اسكلافونيا وترانسلفانيا (بالتركية أردل) لدى العثمانية منذ ١٥٢٦ ، ولأن نهر ماروش ، يشكل خط الحدود ، فقد ظلت قطعة صغيرة ، تدخل ضمن المجر الحالية ، بيد العثمانية (جنوب سكدين = Szegedin) . كانت بانات وتامشوار بكاملها لدى العثمانية . تشكل جبال الالب الترانسلفانية فى الجنوب ، والكاربات الشرقية فى الشرق ، الحدود التركية - الألمانية . مولدافيا وعلى شمالها Bukovina (جرنوفيج وخوتين ، حاليا لدى السوفييت) كانتا لدى العثمانية . ولأن البلاد التى كانت تسمى فى حينه ، المجر واليوم ، خروات والتى تسمى « Esklavonya » الواقعة بين Sava و Drava ، تركت لألمانيا القديمة ، ظلت بلغراد ، على الحدود ولدى تركية . وعلى ذلك ، تكون حدود العثمانية التى انحدرت فى الغرب إلى أقصى الجنوب ، كانت فى الشرق ، لاتزال فى أقصى الشمال . بقى فى حوزة الأتراك ، لواء سمندره (بلغراد) فقط من إيالة بودين .

أما إيالات بودين ، كانيجه ، اويفار فأصبحت بعد الآن فى حوزة ألمانيا . كان نهر Una يشكل الحدود الشمالية – الغربية . وعلى هذا الأساس ، تبقى خرواتيا ، لدى ألمانيا وبوسنة ، لدى العثمانية (بضع مئات ألوف من المجريين القاطنين فى Banatلايزالون يحملون الجنسية العثمانية) . أما الكتلة المجرية الكبيرة التى تعيش فى المجر ، اسكلافونيا وترانسلفانيا ، فقد كانت المعاهدة بالنسبة لهم ، بداية لأيام تعسة ، لأن الألمان سوف يعاملون المجريين ، بدون رحمة .

تتكون المعاهدة التى عقدت مع البندقية من ١٦ مادة : تترك مورا ، وعلى جنوبها Cerigo (بالتركية : جوها) وCerigotte وHydra وSalamin الواقعة على الشمال – الشرقى منها ، وجزر آيا مافرى (باليونانية : Leukas) ودالماجيا التركية ، إلى البندقية . ونظرا لبقاء مدينة Korinthos (بالتركية : Cördes) لدى العثمانية ، تكون السيطرة على برزخ كورينثوس ، لدى العثمانية ، وتعاد إلى العثمانية ، الأماكن الكائنة فى ATTika فى شمال خليج كورينثوس والموجودة فى حوزة البندقيين (أثينا ، كان قد استرجعها العثمانيون خلال الحرب) .

وتتكون المعاهدة التى عقدت مع بولونيا من ١١ مادة : تعطى قلعة كامانيجة ومعها Podolya ، غاليجيا التركية وبعض الأراضى فى أوكراينا ، إلى بولونيا ، كان نهر Dnyestr (بالتركية : TUrla) يشكل الحدود . كانت Bukovina ، خوتين ، بيسارابيا لدى العثمانية . جبال الكاربات تخط الحدود البولونية – الألمانية . تبقى لدى ألمانيا ، كاربات أوكراينا التى يسكنها المجر (حاليا لدى السوفييتية ، Munkaç ومحيطها) .

سوف تركز السياسة العثمانية هدفها بعد الآن على استعادة مورا من البندقية وآزاك من روسيا وسيتحقق هذان الهدفان . ولكن ، ورغم كل الجهود ، سوف لايمكن استعادة ولو قسم من الأماكن التى ظفر بها الألمان . سوف لاتطبق سياسة الاسترجاع تجاه بولونيا بعد الآن ، وسوف لاتحدث حرب تركية – بولونية بعد الآن ، سوف تتكثف الجهود السياسية التركية المقبلة ، فى الحيلولة دون إبتلاع ألمانيا وخاصة روسيا لبولونيا .

عقد الصلح مع روسيا بمعاهدة استانبول (١٧٠٠/٧/١٤) . وبالنسبة لهذه المعاهدة المكونة من ١٤ مادة والتى وقع عليها نتيجة مفاوضات استمرت ٥ أشهر :

تترك Azak (روستوف ومحيطها) إلى روسيا ، تعاد إلى العثمانية الـ ٤ قلاع التى استولى عليها فى هذه المنطقة بعد هدمها . يوافق الباب العالى على أن روسيا « دولة مستقلة » ويلغى الضريبة التى كانت تدفعها إلى خان قرم . وقع على هذه المعاهدة ، رامى أفندى (راشد ، ٢ ، ٥٠٠ - ٣) . وأغرب مادة تستلفت النظر فى هذه المعاهدة هى (المادة ١٤) التى تنص على أن ذهاب وإياب السفير الروسى إلى إستانبول ، يكون عن طريق البر ولايكون مروره عن طريق البحر الأسود . حيث أن البحر الأسود ، بحر عثمانى مغلق لاتطأه قدم روسى . أجاب مصطفى الثانى ، عندما التمس منه القيصر الروسى السماح للسفن التجارية الروسية بالملاحة فى بحر آزاك : « أسمح للروس أن يدخلوا سرايى الهمايونى ، أما جولانهم فى البحر الأسود ، فان سماحى الشاهانى ، لن يشمل ذلك أصلا » .

اقتسمت السلطة ، بعد الصلح - بتسلسل النفوذ بعد السلطان - بين شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، الصدر الأعظم حسين باشا ، رئيس الكتاب (وزير الخارجية) رامى أفندى . لكن نفوذ شيخ الإسلام ، كان أقوى وفى ازدياد على مر الزمن . لم يحصل أى شيخ إسلام فى الدولة العثمانية ، على مثل هذا النفوذ لاقبله ولابعده .

جاء إلى إستانبول ، فى ٢٦ أيلول ١٦٩٩ ، وفد سفارة إمبراطور ألمانيا برئاسة كونت Ottingen ومعه دوق هولشتاين Adolf-August و ١٥ حاكما ألمانيا بدرجة كونت وأمير واحد . وكما أشار إلى ذلك هامر (١٣ ، ٢٤ - ٥) لم يسبق أن اجتمع فى آية هيئة سفارة ، جماعة من الأشراف على هذه الدرجة من الكثرة . اهتدى إلى الإسلام من بين هذه الهيئة ، عام ١٧٢٠ تقريبا ، الأمير Ernst Sehmid Von Anhalt - Zerbst وهو العم الأصلى للأميرة التى ستكون امبراطورة لروسيا باسم Ekaterina الثانية .

قابل مصطفى الثانى ، ذلك بالمثل ، وأرسل الأميرال إبراهيم باشا الذى اشترك فى حملة فيينا عام ١٦٨٣ ، مع وفده البالغ ٥٧١ شخصا والذى يحوى ٤٢٢ حصان ركوب ، ١٠١ حمار ، ١٨١ جملا ، ٢١٥ عربة حاجيات ، مئات الخيول والبغال . كانت حادثة فوق العادة ، إلى درجة أن الإمبراطورة ، كانت على فراش النفاس ؛ لكنها أرادت بإصرار مشاهدة دخول العثمانيين إلى فيينا . طلبت تكريم الوفد فى يانق

قلعة لعدة أيام ولحين الولادة . نفذ طلبها . حيث استقبل الوفد عندما كان لايزال فى Osiyek الكونت الماريشال Guido Von Starhemberg . كانت المهترخانة (الموسيقى العسكرية العثمانية) تتقدم الوفد . ثم نشر بعدها علم تركى حريرى أحمر واسع جدا . ومن بين الملابس الرسمية لجنود حرس الباشا السفير ، فراء النمور والفهود الملقاة على أكتافهم . صرفت ألمانيا لتكريم وفد السفارة هذا مبلغ ٤٥٠ ٠٠٠ عملة ذهبية لكيلا تكون مقصرة ويصيبها الخجل . أخبر وزير المالية ، الإمبراطور بأن مالية البلاد لاتتحمل صرف هذا المبلغ لمثل هذه المظاهر . لكن الإمبراطور ، أجاب بأن صرف مبلغ كهذا ، فى محله وهو لايختلف عن صرفه فى الحرب ، وذلك لكى تثبت ألمانيا لجارتها تركيا أن حاكم ألمانيا ، ليس حاكما أقل شأنا من البادشاه وملوك فرنسا وأسبانيا . لم يستوعب الوفد التركى سراى واحد ، وخصص له ثلاث سرايات Takatsa, Macaristan Türk Âleminden, Cizqiler ، ٣١٩ - ٢١ ، ٣٢٣) .

أرسلت بولونيا إلى إستانبول ، هيئة سفارتها المكونة من ٥٠٠ شخص تقريبا وصانت بذلك شرفها الوطنى . كان سفير بولونيا فى إستانبول Winiawa Leszcynsky ، جداً لأب لزوجة لويس ١٥ وجداً لأب كذلك لام أب لويس ١٦ . أول سفير قديم إلى إستانبول ، كان سفير البندقية الذى دخل إلى الميناء على ظهر مركب جدافى عظيم (قادرغة) .

اتخذت الدولة ، تدابير واسعة على الحدود الجديدة . أرسلت وحدات عسكرية إلى مابين نهرى دون وكوبان . مضيق كرج ، خوتين ، السواحل الجنوبية لنهر دنيستر ، أجريت فيها استحكامات مهمة . أخذت تشكيلات الإنكشارية التى قلص البادشاه عددها من ٧٠ ٠٠٠ إلى ٣٤٠٠٠ تستعد للإيقاع به . كان القبطان دريا ميزومورتا حسين باشا ، يؤمن بفوات دور المراكب الجدافية (القادرغة) وأنها صارت ملكا للتاريخ ولاتفى بالمرام . استبدل بالمراكب التى تسير بالجدف ، السفن الشراعية (القاليون) وخلال عدة أعوام ، فاق عدد القاليونات ، عدد المراكب الجدافية (القادرغة) وتوقف بعد مدة ، صنع المراكب الحربية الجدافية . أعفى الأهالى فى الحدود الذين تضرروا .. من الضرائب ، وأرسلت المعونات إلى المحتاجين منهم . سمح لروسيا فى ١٧٠٢ بتمثيلها بسفير دائم فى إستانبول . منح هذا السماح ، لها بعد السماح الممنوح لكل من البندقية بـ ٢٤٩ ، ولفرنسا بـ ١٦٠ ، ولانكلترا

وهولندا بأكثر من ١١٠ ، ولألمانيا وبولونيا بأكثر من ١٠٠ سنة . لم يتوقف مولاى اسماعيل الكبير عن استقطاع الأراضى من الجزائر . وسار نحو الجزائر بجيش كبير ، هزم وانسحب إلى فاس (J-L. Miege, Le Maroc ، ٣٦) . آخر ملك لمجر الوسطى للأتراك Emeric Thököly (وفاته ١٧٠٥/٩/١٣) والملكة Ilona توفيا فى أزميت نقلت عظامهما فى ١٩٠٦ فى احتفال مهيب من أزميت إلى المجر . كان صديقا كبيرا للعثمانية وعدوا لألمانيا . ترأس حركة التحرير المجرية Ferenc Rakoczy ، صهر الملك ، الذى سيسعى طيلة مدة حياته لتحرير المجر من ألمانيا بمساندة تركية وفرنسا (Lavisse- Rambaud ، ٦ ، ٥٩٧ – ٨) . نقل نصف مليون مجرى من اسكلافونيا إلى المجر . وهكذا أصبحت حدود المجر فى الجنوب ، نهر درافا Drava بينما كان سافا Sava . وأصبحت البلاد المجرية الواقعة بين النهرين ، أقطارا خرواتية وسلافية .

توفى فى ١٧٠١/٧/٢١ خارج مياه جزيرة Paros من جزر Kiklad فى غرفة النوم فى سفينة الإميرالية وهو على رأس الأسطول الهمايونى ، ميزومورتا حسين باشا ، البحار الأخير الذى أنجبته تركية على نطاق عالمى والذى سن قوانين جديدة وحقق إصلاحات أساسية فى القوات البحرية . حقق عندما كان مشيرا للقوات البحرية ٨ معارك بحرية انتصر فيها جميعا ، هذا عدا انتصاراته عندما كان بكلربك فى الجزائر . كان عدد القطع البحرية فى الأسطول البندق – البابوى – المالطى – التوسكانى فى المعارك الـ ٨ ، أكثر من عدد القطع العثمانية (فوزى قورد أوغلو ، ميزومورتا حسين باشا ، ص ٩٢) . دامت قيادته العامة للقوات البحرية ٦ سنوات و ٣ أشهر و ١٦ يوما . منح خلال الفترة بين قيامه بوظيفة بكلربك فى الجزائر وتعيينه مشيرا للقوات البحرية ، منح رتبة قيادة كاليونات (السفن الشراعية الحربية) الأسطول الهمايونى . وفى عهده جددت كافة قطع الأسطول وإضافة إلى ذلك أصلح جميع مصانع السفن وأكسبها حيوية جديدة . نص فى أنظمته الجديدة بصورة صريحة ، على عدم إمكان حصول أى شخص على رتبة الضابط البحرى العثمانى ،مالم يكن أبوه ضابطا أو جنديا حائزا على سجل مشرف فى الأسطول الهمايونى . هذه المادة ، كانت تطبق سابقا ، فى تركية – كما كانت تطبق فى انكلترا – لكنها لم تكن مادة مكتوبة . نقل جثمان ميزومورتا حسين باشا ، بمراسم عسكرية كبرى أجرتها البحرية الهمايونية ، من Kiklad إلى جزيرة ساقيز ودفن فى الجامع الموجود فيها .

١٣) واقعة أدرنة (١٧٠٣/٨/٢٢)

استقال عموجه – زاده حسين باشا من الصدارة فى ٤ أيلول ١٧٠٢ . استمرت صدارته مدة ٥ سنوات إلا أسبوعين . سبب الاستقالة ، تدخل شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، بصورة غير قانونية فى جميع أمور الدولة ، تدخله فى التعيينات ، تعيين أقاربه فى مناصب عالية وتدخله فى صلاحيات الصدر الأعظم وعرقلته نظام الدولة . السبب الآخر ، كان الادعاء القائل بأن ابن عمته قبله لى – زاده على بك ، أصبحت له علاقة سرية مع إحدى السلطانات (أميرات الإمبراطورية العثمانية) ، أمر البادشاه باعدام الشاب ، رغم توسلات حسين باشا . كان على بك قائدا للاسطبلات الهمايونية (أمير آخور أول شهريارى) وبرتبة بكلربك .

كان السلطان مصطفى ناقما على عموجه – زاده لإجباره على توقيع معاهدة كارلوفجه وينتظر الفرصة لعزله وكذلك ، كان شيخ الإسلام لايرغب فى بقاء هذا الكوبرولو – زاده القوى السلطة ، فى مقام الصدارة . لذا نرى أن الختم الهمايونى ، أعطى إلى مناصطرلى مصطفى باشا ، الوزير التافه الجاهل . جاء مصطفى باشا ، من بغداد الذى كان بكلربك عليها ، إلى أدرنة (٢٧ أيلول) وتسلم الختم الهمايونى ، وجد أمامه فى الديوان ، رامى أفندى القوى السلطة . منح فى عهد عموجه – زاده رتبة وزير (مارشال) إلى ٣ من عائلة كوبرولو : نعمان باشا ، الأبن الكبير للصدر الأعظم الشهيد فاضل مصطفى باشا (الذى صار فيما بعد داماد (صهر) وصدراً أعظم فى تموز عام ١٧٠٠ ، وعبد الله باشا ، الابن المتوسط له وصهر شيخ الإسلام فيض الله أفندى (صار قائمقام الصدارة فى بداية عام ١٧٠٣) ، على باشا الابن الوحيد لمرزيفونلى قره مصطفى باشا عمره ٢١ عاما ، رجل دولة قدير جدا ، فى آذار ١٧٠١ (زوج ببنت مصطفى الثانى السلطانة صفية) (راشد ، ١١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، ٥٧٨) .

أصبح رامى أفندى الشاعر والكاتب الذى اشتهر فى أوروبا بأنه دبلوماسى كارولوفجه القدير ، وزير قبه ، بينما كان رئيسا للكتاب (وزير الخارجية) (١٧٠٢/١٢/٢١) (راشد ، ٢ ، ٥٦٤ – ٥) . اتفق مع شيخ الإسلام على عزل مصطفى باشا ، الذى تجرأ على مخالفة شيخ الإسلام (١٧٠٣/١/٢٤) دامت صدارة مصطفى باشا ٤ أشهر و ٢٠ يوما ، أعدم بعد ٣ أيام (راشد ، ٢ ، ٥٦٥ – ٧٦) . صار رامى باشا صدرا

أعظم قبل مضى شهر واحد من حصوله على رتبة الوزير . كان دبلوماسيا لامعا فى الـ ٤٩ من عمره ، وكان مثقفا جدا . حاول ان تكون علاقته جيدة مع حميه فيض الله أفندى ، لكنه لم يوفق . قرر اسقاط شيخ الإسلام ، حفاظا على نظام الدولة . لم يكن بالإمكان إقناع البادشاه بذلك ؛ إذ إن هذا يعنى عزل السلطان ، فى الحال . حاول تحقيق ذلك بتحريك الجيش ، هذا علاوة على أنه سعى للحصول على تأييد العلماء الذين كانوا فى حالة عدم رضا . وفى النظام العثمانى ؛ اتفاق الجيش + العلماء = يعنى الثورة .

فيض الله أفندى ، عالم قدير فقيه ، متدين لكنه حريص وشديد التحيز لأقاربه . وزع أعلى المناصب العلمية بين أبنائه وأقاربه ، بحيث لم يكد يبق للعلماء الآخرين منصب يرقون إليه . منح أبنه الكبير درجة المشيخة للمرة الثالثة والأخيرة فى التاريخ العثمانى والتى تعادل درجة الصدارة . ولكونه كبير السن ، فكأنه أعلن ولى العهد لمنصب شيخ الإسلام ، صار كل من فتح الله أفندى نقيبا للأشراف ، أخيه مصطفى أفندى قاضيا عسكريا على الأناضول ، ابن عمه محمد أفندى قاضيا عسكريا على روملى . الأفندية القضاة العسكريون على روملى والأناضول الذين تأتى درجتهم بعد درجة شيخ الإسلام ، يصيرون أعضاء فى الديوان الهمايونى (الحكومة) . وهكذا وزعت المناصب بين فيض الله – زاده لر (عائلة فيض الله) .

السبب الآخر للانقلاب ، هو أن أدرنة صارت مركزا للعرش (العاصمة) بصورة فعلية منذ نصف قرن . وكان مصطفى الثانى ، كأسلافه ، يصر على السكنى فى أدرنة ، الأمر الذى كان يسبب حرمان شعب إستانبول وتشكيلات القابوقولو الموجودة مقارهم فى إستانبول ، من منافع عديدة . بدأت الثورة فى إستانبول (١٧٠٣/٧/١٨) . أشعل نار العصيان ٢٠٠ جيبه جى (فرق الاعاشة فى الجيش) الذين حرضوا على ذلك وانضم إليهم الإنكشارية . انضم العاطلون والرعاع إلى الجيش البالغ عدده ٢٢٠٠٠ جندى ، فتشكل زحام بشرى قوامه ٥٠٠٠٠ شخص . تحرك هذا القطيع فى ٩ آب ، من إستانبول إلى أدرنة . كان فى أدرنة ٨٠٠٠٠ جندى . ورغم أنه من المؤكد ، أنه كان باستطاعة هؤلاء تفريق هذا الحشد القادم بكل سهولة ، فإن كل الجهات وكل شخص ، ومن بينهم البادشاه ، خشوا اندلاع حرب داخلية . خلع البادشاه من العرش (١٧٠٣/٨/٢٢) . لكن المعارضة أو بالأحرى التردد ، كان كبيرا نحو ولى العهد – شهزاده أحمد الذى كان

أخا من نفس الأم والأب لمصطفى الثانى . وفى الوقت الذى كان فيه ، من المعهود فى النظام العثمانى ، أن يكون هنالك خلاف - فى أغلب الأحيان - بين البادشاهات وولاة العهد ؛ إلا أن علاقة هذين الأخوين كانت ممتازة . كان العصاة يخشون انتقام السلطان أحمد . وطالبوا باجلاس ابن عمه ، أى ابن السلطان أحمد الثانى ولى العهد الثانى الشهزادة (الأمير) السلطان إبراهيم الذى لم يكمل الـ ١١ من عمره ، ليعبثوا كيفما يشاءون تحت ظل سلطان طفل . لكن طلبهم هذا ، لم يتحقق ، وأجلس ولى عهد - شهزاده على العرش فى أدرنة بعنوان « أحمد الثالث » .

١٤) شخصية مصطفى الثانى

دامت سلطنة مصطفي الثانى الذى ولد ، جلس على العرش ، وخلع من العرش فى أدرنة ، مدة ٨ سنوات و٦ أشهر و١٦ يوما . هو من الشهزادات النوادر الذين ولدوا وهم « ولى عهد » . مات بسبب تأثره بعد خلعه بـ ٤ أشهر ، ٩ أيام (نصرت - نامه ، ٢ ، ٢٠٩) . كان عمره يتجاوز الـ ٣٩ بـ ٦ أشهر ، ٢٥ يوما . والواقع أنه بعد « مصالحة كارلوفجه » ، أصبح لايبالى بشىء . دفن فى مقبرة ينى جامع جوار أبيه . شاعر ، موسيقى ، خطاط ماهر ، ذو ثقافة عالية . أساتذته فى الخط ، الحافظ عثمانه أفندى (١٦٤٢ - ١٦٩٨) وخواجه - زاده محمد أفندى ، أساتذته الآخرون القضعسكر (القاضى العسكرى) أدرنة لى ابراهيم أفندى ، سيد محمد أفندى (وفاته ١٦٧٠) ، بورصه لى شيخ محمد أفندى ، وانى محمد أفندى وصهر هذا ، هو رئيس أساتذته شيخ الإسلام حاجه - سلطانى شهيد سيد قيض الله افندى . مجموع مدة حملاته الهمايونية الثلاث سنة ، شهر ، ٢٩ يوما . أشترك فى الحروب فى عهد أبيه ، مطلع بصورة جيدة على منطقة روملى ، لكنه لم يطلع على الأناضول . دامت سلطنته حتى مصالحة كارلوفجه ، ٣ سنوات ، ١١ ، شهرا ، ٢١ يوما ، المدة بين المصالحة وواقعة أدرنة هى ٤ سنوات ، ٦ أشهر ، ١٩ يوما .

أبناء مصطفى الثانى : محمود الأول (٢/٨/ ١٦٩٦ - ١٣/١٢/١٧٥٤) ، عثمان الثالث (٣/١/١٦٩٩ - ٣٠/١/١٧٥٧) ، ٩ شهزادات (أمراء) توفوا وهم صغار السن جدا وأطول من عاش من بينهم هما شهزادة سليمان (١٧٠٣ -

١٧١٠) وشهزادة محمد (١٦٩٨/١١/٢٢ – ١٧٠٣/٦/٥) ؛ وشهزادة السلطان حسن (١٦٩٩/٣/٢٧ – أيار ١٧٣٣) . ولأن أيا من هؤلاء لم يخلف ولدا ، فقد استمرت السلالة عن طريق أخيه أحمد الثالث وليس من مصطفى الثانى .

بنات مصطفى الثانى : السلطانه أمة الله (١٧٠١/٦/٢٢ – ١٧٢٧/٤/١٢) ، تزوجت بوزير واحد ورزقت بإبنة واحدة ، السلطانة عائشة (١٦٩٦/٤/٣٠ – ١٧٥٢/٩/٢٦) ، تزوجت أولا بكوبرولو – زاده داماد نعمان باشا ، وعلى أثر وفاته (١٧١٩/١/٢٨) تزوجت بـ ٣ وزراء آخرين ، لم تنجب ولدا ، السلطانة أمينة (١٦٩٦/٩/١ – ١٧٣٩) ، تزوجت بـ ٤ وزراء أشهرهم الصدر الأعظم داماد سلاحدار جورلولوا على باشا (وفاته ١٧١١/١٢/٢٧) ، لها ابن واحد ، السلطانة صفية (١٦٩٦/١٢/١٣ – ١٧٧٨/٥/١٥) ، تزوجت بمرزيفونلى قره مصطفى باشا – زاده داماد كنج على باشا وبعد وفاته (ت ١٧٢٢/٢) ، تزوجت بوزيرين ، رزقت من زيجاتها الثلاث بـ ٤ أبناء وابنة .

ترك العرش بعد أن نصحه أخوه . تأثرت السلطانة – الوالدة رابعه أمة الله كلنوش ، لخلع ابنها لكن وضعها لم يتبدل . لأنها كانت والدة أحمد الثالث كذلك . استمرت صفة السلطانة – الوالدة التى تحدثنا عنها .

مصطفى الثانى هو آخر خاقان تركى سار إلى الحرب . لم يصبح أى أحد من البادشاهات الذين تلوه ، قادة فعليين . كان أحمد الثالث الذى احتل مكانه ، يصغره بـ ٩ سنوات ، ٦ أشهر ، ٥ أيام . وهنالك فى التاريخ العثمانى سلطانان آخران ولدا من أم واحدة ، هما مراد الرابع – إبراهيم خان .

واقعة أدرنة ، هى أحدى الثورات المشئومة والدنيئة فى التاريخ العثمانى . والحقيقة أنه لايوجد انقلاب فى التاريخ العثمانى لم يأت بالضرر الكثير . مزق العصاة ، فيض الله أفندى وابنه الكبير فتح الله أفندى (راشد ، ٣ ، ٧٧) وأعلن العلماء أنهما شهداء ، وهو شيخ الإسلام الثالث والأخير فى التاريخ العثمانى الذى قتل . تمكن أبناؤه الآخرون من النجاة من القتل . إثنان منهم صارا فيما بعد شيوخ إسلام . استمرت عائلة فيض الله (فيض الله زاده لر) كأشهر عائلة من العائلات العلمية ، إلا أن أحمد الثالث لم يوظف أحدا من هذه العائلة حتى ١٧٣٠ . قضت واقعة أدرنة ،

على الحياة السياسية لرامى باشا . صار واليا على رودس ومصر وتوفى فى ١٧٠٨ عن عمر يناهز الـ ٥٤ . وقضت كذلك واقعة أدرنة على بقاء أدرنة عاصمة فعلية . لم يجرؤ بعدها أى بادشاه على ترك إستانبول والسكنى فى أدرنة لمدد طويلة . استصحب أحمد الثالث ، أخاه الكبير مصطفى الثانى ، ووالدته ، والسلطان ابراهيم الذى هو ولى عهد - شهزادة وذهب إلى إستانبول مع الجيش ورجال الدولة .

١٥) الدول العالمية خلال تلك السنين

كان وضع الدول العالمية فى سنة ١٧٠٠ كما يلى : تركية ١٥٩٢٤٦٠٦ كم٢ ، والنفوس ٢٨٥٠٠٠ ٧٨ نسمة (فى أوربا ١١٦٧٣٩٤ كم٢ و ٢٤٨٣٠٠٠٠ نسمة فى آسيا ٤٠٩٦٦٧١ كم٢ و ٢٧٨٥٠٠٠٠ نسمة فى افريقيا ١٠٤٧٠٠٠٠ كم٢ و ٢٥٧٤٥٠٠٠ نسمة) ، نفوس أكبر المدن الأوربية والأفريقية (مع ضواحيها بصورة تقديرية) إستانبول ١٥٠٠ ٠٠٠ ، القاهرة ٦٥٠ ٠٠٠ ، أدرنة ٣٥٠ ٠٠٠ ، جزائر ١٥٠ ٠٠٠ ، اسكندرية ١٣٠ ٠٠٠ ، تونس ١٢٥٠٠٠ ، بخارست ١٠٠ ٠٠٠ (عدا المدن الموجودة فى قارة آسيا) .

امبراطورية بنى تيمور الهندية ، كانت الدولة العالمية الثانية : ٤٦٢٢٨٨٥٠٠٠ كم٢ و ١٧٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة . وتليها الإمبراطورية الصفوية الايرانية : ١٩٥٦٧٩١ كم٢ و ١٨٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ويقتضى بعدها ، وضع الإمبراطورية الصينية فى التسلسل : ١٢٢٦٨٢٠٨ كم٢ و ١٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

ملكية فرنسا ، كانت أقدر دولة مسيحية (مع مستعمراتها) : ٣٦٤ ٤٩٤ ٤ كم٢ و ٢١٤٠٦٠٠٠ نسمة (باريس ٧٣٠ ٠٠٠ ، ليون ١٠٠ ٠٠٠ ، مارسيليا ٩٠ ٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٨٣٣٤٧٨ كم٢ و ٩٠١١٠٠٠ نسمة (لندن ٦٧٤ ٠٠٠) . هولندا ١٠٢١٢٧٤ كم٢ و ٧٥٣٠٠٠٠ نسمة = ٢٨٥٤٧٥٢ و ١٦٥٤١٠٠٠ نسمة (امستردام ١٨٠ ٠٠٠) ، كانت هاتان الدولتان قد اتحدتا تحت ادارة حاكم واحد بصورة مؤقتة .

الإمبراطورية الألمانية ٨٠٣٨٢١ كم² و ٠٠٠ ٤٧٩ ٢٢ نسمة (فيينا ٠٠٠ ١٥٠ ، هامبورغ ٩٥٠٠٠) . ملكية اسبانيا التى لاتزال تحت إدارة عائلة هابسبورغ ١٥٠٨٦٠٠٣ كم² و ٠٠٠ ٤٠٥ ٣٠ نسمة (نابولى ٠٠٠ ٢٨٠ ، ميلانو ٠٠٠ ١٣٠ ، مدريد ٠٠٠ ١٢٥ ، المكسيك ٠٠٠ ٩٠) .

ملكية السويد ١٢٧٨٠٢٣ كم² و٠٠٠ ٤٥٠٠ نسمة (ستوكهولم ٠٠٠ ١٠٠) ؛ جمهورية البندقية ٦٢٦٨٣ كم² و٠٠٠ ٤٥٠٠ نسمة (البندقية ٠٠٠ ٢٤٠) ، امبراطورية روسيا ١٤٥٦٨٥٤٠ كم² و٠٠٠ ١٢٠٠٠ نسمة (موسكو ٠٠٠ ١٢٠) ، ملكية بولونيا ٧٦٠٤٠٧ و ٠٠٠ ١٢٠٠٠ نسمة .

امبراطورية فاس ٣٠٥١٦٩٩ كم² و ٠٠٠ ٨٠٠٠ (فاس ٢٥٠٠٠٠ ، مكناس ٠٠٠ ١٠٠ ، مراكش ٠٠٠ ١٠٠) . مجموع الخانات التركية فى تركشتان ٥٥١٢٨٠٠ كم² و ٠٠٠ ١١٥٠٠ نسمة . امبراطورية اليابان ٣٧٣٥١٢ كم² و ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ . ملكية البرتغال ٨٧٦٨٢٠٥ كم² و ٠٠٠ ٥٩٠٠ نسمة (ليشبونة ٠٠٠ ٢٢٠) . ملكية الدانمارك ٥٣٨٩٥٧ كم² و ١٤٠٨٠٠٠ نسمة . جمهورية سويسرا ٤٠٠٣١ كم² و ٠٠٠ ١٦٠٠ نسمة . البابوية ٤٣٣ ٤٧ كم² و ٠٠٠ ٢٢٠٠ نسمة (روما ٠٠٠ ١٦٠) .

دوقية توسكانا الكبرى ٤٨٩ ٢١ كم² و ٠٠٠ ١٠٠٠ نسمة .

كانت هنالك أقطارا مازالت مجهولة ، وتقديراتها كالتالى : مناطق الزنوج المجهولة فى افريقيا ١٣٠٨٩٠٧٩ كم² و ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ نسمة . المناطق الشمالية من أمريكا الشمالية التى يسيطر عليها البيض ١١٣٠٢٧٦٠ كم² و ٠٠٠ ١٦٠٠ نسمة . قارة اوقيانيا (عدا جزر هاواى) ١٦٢ ٢٣٦ ٩ كم² و ٠٠٠ ٣٠٠٠ نسمة .

١٦) السنوات الأولى لدور أحمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧١١)

أحمد الثالث الذى شغل منصب ولى العهد مدة ثمانى سنوات ونصف ، فى عهد أخيه الكبير الذى كان منسجما معه تمام الانسجام ؛ لم يكن عسكريا ، قائدا ، مغرورا ، جسورا كأخيه . ولد فى حاجى اوغلو بازارى فى دوبروجه عندما كان

أبوه فى الحرب . كان عمره ، فى فاجعة فيينا ١٠ أعوام ، وعند خلع أبيه ١٤ عاما . لذا كان يحب السلم ، لكنه لايتورع عن دخول الحرب إذا اقتضى الحال . لم تكن درجة ثقافته بقدر أخيه . لكنه كان شاعرا ، موسيقارا ، وبوجه خاص كان خطاطا كبيرا . كان من أبطال رماة السهم فى عصره . حصل على أجازة فى خط الثلث والنسخ من الحافظ عثمان أفندى . ومن بين أساتذته يمكن ذكر شيخ الإسلام فيض الله أفندى ، شيخ الإسلام بورصه لى محمد أفندى (وفاته ١٧٢٩) ، سيد محمد أفندى ، قضعسكر (القاضى العسكرى) والامام السلطانى إبراهيم أفندى . كان هو كذلك كأخيه الكبير ، مطلعا على منطقة روملى ولو أنه لم يكن بدرجته ، كان قد زار مورا لكنه لم تسنح له فرصة الذهاب إلى الأناضول . كان عمره عند جلوسه يقارب الـ ٣٠ عاما . كان ولوعا بالنساء والأنس والملذات . كان يملك وقار الحاكم . أول عمل قام به ، هو اعتقال فاعلى واقعة أدرنة المفجعة ، أمر بقتل كافة الذين خانوا أخيه . لم يبعد أحدا من منصبه مالم يرتكب خطأً جوهريا . كان يحمل فكرة الاصلاح . يؤمن بتجديد المؤسسات . عمل مابوسعه لأجل ذلك . هذه الاصلاحات ، لايمكن أن ينتظر منها أن تكون إصلاحات جذرية ، وإنما حركة تجديد فقط . لايقدم على الاصلاح الجذرى إلا عندما تكون الدولة فى خطر .

كان أحمد الثالث يحاول العثور على صدر أعظم قدير . لأن الصدر الأعظم ، فى النظام العثمانى ، هو الوكيل المطلق للخاقان ، المسئول عن كافة القضايا العسكرية والمدنية والمالية . عزل قاوانوز نيشانجى أحمد باشا ، الذى جيء به مكان رامى باشا ، بعد شهرين ، ٢٦ يوما (١٧٠٣/١١/١٧) . أما داماد أنشته حسن باشا ، فلم يتمكن من البقاء فى السلطة أكثر من ١٠ أشهر ، ١١ يوما (١٧٠٤/٩/٢٨) . عزل قيصريلى قالايلى قوز أحمد باشا بعد شهرين ، ٢٧ يوما (١٧٠٤/١٢/٢٥) . وصار ، قبطان دريا (مشير البحر) محمد باشا ، صدراً أعظم . رجل السراى الصادق الذى ضحى بكل ثروته فى واقعة أدرنة فى سبيل تأمين إجلاس أحمد الثالث وليس الشهزادة إبراهيم ، عزل بعد سنة ، ٤ أشهر ، ٩ أيام (١٧٠٦/٥/٣) . لم يكن أى أحد من هؤلاء رجل منصبه . وفى النهاية ، جاء إلى السلطة رجل الدولة المهم سلاحدار داماد جورلولو على باشا .

كان على باشا وزيرا شابا فى الـ ٣٠ من عمره . قام بادارة الدولة مدة ٤ سنوات ،

وشهرو ١٤ يوما . لم يتدخل البادشاه كثيرا فى أعماله . فتح وهران فى الجزائر من أيدى الأسبان . وقدمت مفاتيح المدينة إلى السلطان أحمد بتاريخ ١٤ ك١/١٧٠٨ . رغبة الصدر الأعظم جوررلولو ، فى إعلان الحرب على روسيا ومعارضة البادشاه له ، كانت سببا فى عزله (١٧١٠/٦/١٦) واعدامه بعد سنة ونصف . استمرت عائلة جورلولو ، إلى يومنا هذا . جاء مكانه كوبرولو – زاده داماد نعمان باشا . لم يتمكن من شغل المنصب أكثر من شهرين ويومين ، لم يعط الوقت الكافى ليتمكن من انجاز عمل ، وبعد ٤ سنوات جاء بلطجى محمد باشا من حلب ، صار صدرا أعظم للمرة الثانية (١٧١٠/٨/١٨) .

١٧) الحــرب مع روســيا (١٧١١)

كان إعلان العثمانية الحرب على روسيا قبل مضى ١١ سنة ، نتيجة لحرب الشمال . ملك السويد كارل ١٢ ، انتصر على الدنمارك ، بولونيا ، روسيا واستولى على بولونيا ودخل إلى أعماق روسيا . لكن عدم إدخال جورلولو ، العثمانية فى الحرب فى تلك الأثناء ، أعطى الفرصة للقيصر . تمكن القيصر بطرس من لم شعثه وأنتصر على ملك السويد فى Poltava . اجتاز الملك الحدود العثمانية ولجأ إلى تركية . وأثناء مطاردة القيصر للملك ، دخل إلى قسم من الأراضى العثمانية . اعتبر الباب العالى ذلك ، سببا للحرب . أما السبب الحقيقى فهو فكرة استرداد آزاك – التى تركت فى معاهدة كارلوفجه إلى روسيا – وقد كانت هذه الفكرة بمثابة خط سياسى لايتبدل لدى الكثيرين من رجال الدولة العثمانية . اضطر البادشاه الذى لايرغب فى الحرب إلى إعلان الحرب على روسيا . أعطيت القيادة العليا إلى بلطجى محمد باشا .

سار بلطجى من إستانبول (١٧١١/٤/٩) مع ١٤٠ ٠٠٠ جندى وتمكن من العثور على جيش القيصر البالغ ٦٠ ٠٠٠ جندى فى موقع فالجى (بالرومانية : Falciu) على نهر بروت وحاصره . لذا اشتهرت هذه الحرب بحرب بروت . وهذا الموقع هو موقع عثمانى يقع متوسطا بين مدينتى كالاس وياش . حاول القيصر منع الجيش العثمانى من عبور نهر بروت . لكن عثمان باشا ، تمكن تحت نيران قصف العدو من نصب ٤ جسور والعبور بجيشه بسرعة إلى الضفة الشمالية من بروت . ولذا ، فإن بطرس الكبير الذى تحاشى الدخول فى حرب ميدانية ، اختبأ فى الخنادق التى حفرها على عجل . أجرى بلطجى عدة هجمات ، لكنه لم يوفق فى اختراق الخنادق

الروسية بسبب عدم حماس الإنكشارية لذلك . أرسل القيصر ، رئيس الوزراء البارون شافيروف إلى بلطجي وطلب منه أن يسمح له بالانسحاب مع جيشه وأنه سوف يعيد آزاك وكافة الأماكن التى أخذت فى معاهدة كارلوفجه . مشاوروا بلطجي الصدر الأعظم الثلاثة الذين رشاهم البارون بمجوهرات بالغة القيمة ، تمكنوا من إقناع بلطجي بقبول هذا العرض . هذا هو الوجه الأول من المسألة ، أما الوجه الثاني ، فهو اعتقاد بلطجي المحق فى عدم إمكانه اجتياز الخنادق والتحكيمات الروسية جبرا . كان لايعتمد على جيشه ولديه المبررات لذلك . وكان ملك السويد وخان قرم أعدى أعداء الروس ، على وشك الوصول إلى مقر السردار الأكرم ، وكان مجيئهم سوف يضطر بصورة مؤكدة بلطجي إلى الاستمرار فى القتال ؛ لذلك كله .. عقد الباشا الصلح على عجل . لكن الحقيقة أن وعود القيصر ، كانت حبرا على ورق ، كان همه الوحيد ، هو التخلص من الحصار العثمانى . كانت الأمنية الكبرى للقيصر ، التي توجه كل تصرفاته ، هى الهبوط إلى البحر الأسود ، وسوف لايتمكن من تحقيق هذه الأمنية فى حياته .

كانت العثمانية ، حتى ذلك اليوم ، قد أفنت جيوشا روسية كثيرة جدا ، ولكن روسيا مازالت حية . إن الحكاية التى رويت فيما بعد ، حول مقابلة بلطجي لعشيقة القيصر وامبراطورة المستقبل Ekaterina واستغفالها له ، ليس لها أى أساس صحيح ، فبلطجي لم يقابل ، لا القيصر ولا الإمبراطورة ابدا .

وأثناء التوقيع على مصالحة بروت فى ٢١ تموز باتفاق كافة الوزراء الموجودين فى الجيش ، قام بلطجي بهجوم أخير ، أخذ الجيش الذى لم يقاوم نيران أكثر من ١٢٠ مدفعا روسيا ، بالانسحاب بصورة غير منتظمة ، ولاشتداد الظلام ، لم يشاهد الروس ذلك . المادة المهمة فى المصالحة هى ، إعادة آزاك أى روستوف التى هى فتحة نهر الدون إلى العثمانية . المواد الأخرى التى كانت تبدو كأنها فى صالح العثمانية وتشدد على روسيا ، كانت افلاطونية ويشك فى إمكان تطبيقها . بعد فترة وجيزة من التوقيع ، حضر ملك السويد أكبر عسكرى فى عصره إلى مقر العثمانية وترجل عن حصانه الذى يرغو شدقه زبدا . وبعد نقاشه مع الصدر الأعظم نقاشا شديدا ، عاد غاضبا قائلا بأنه سوف يشكوه إلى البادشاه . وحقق ماقاله . أحمد الثالث الذى أمر باقامة حفلات الفرح فى البداية ، عزل الصدر الأعظم عند عودته إلى أدرنة من

الحملة التى دامت ٧ أشهر و ١١ يوما (١٧١١/١١/٢٠) . دامت صدارته سنة ، ٣ أشهر و ٣ أيام ومجموع مدة صدارتيه سنتان و ٧ أشهر ١٢ يوما . كان عمره يتجاوز قليلا الـ ٥٠ . مات فى السنة التالية .

أصبح أغا يوسف باشا ، ثم نيشانجى سلاحدار سليمان باشا صدراً أعظم لمدة ١١ شهرا و ٢٢ يوما (١٧١٢/١١/١٢) . وعندما لم يرض القيصر باعادة آزاك ، جاء البادشاه إلى أدرنة بنفسه للخروج إلى الحرب .

طلب القيصر الأمان . وقعت معاهدة أدرنة (١٧١٣/٦/٢٤) . استعيدت آزاك . انسحب الروس من بولونيا ، حافظ البحر الأسود على وضعه كبحيرة تركية لمدة ٦٠ عاما أخرى . لم يتمكن القيصر من الهبوط إلى المياه الدافئة . كارل ١٢ (بالعثمانية دمير باش شارل) الذى ظل فى تركية خمس سنوات ونصف ، قطع أمله فى زج تركية فى حرب ضد روسيا ، على أثر مصالحة أدرنة ، وغادر تركية (١٧١٤/٩/١٩) . غادر **Dimetoka** مع ٢٥٠٠ جندى سويدى و ٦٠٠ جندى عثمانى يرافقونه وذهب عن طريق افلاق إلى أردل عائدا إلى السويد .

وكنتيجة حرب الشمال ، لم يتمكن القيصر من الهبوط إلى البحار الدافئة ، إلى الجنوب ، لكنه تمكن تماما من الصعود إلى البحار الباردة أى البلطق . الروس الذين احتلوا مصب **Neva** (١٧٠٣/٥/١٣) ، أسسوا قواعد مدينة **Sankt Petersburg** (لنينغراد حاليا) . اضطرت السويد ، إلى ترك ساحل مهم فى البلطق إلى روسيا . وصلت روسيا إلى البحار المفتوحة . حصل بطرس فى السنوات الأخيرة من حياته على لقب « إمبراطور » . اما « جار » الذى كان لقبه السابق ، فمعناها إمبراطور صغير أو ملك كبير . اما لقب إمبراطور ، فيدل على ان « الجار » صار يملك صفة حاكم روما الشرقية أى حاكم البيزنط . لم تتقبل هذا اللقب الدول الأوروبية ، وخاصة الدولة العثمانية التى حافظت فعلا على عنوان إمبراطور روما الشرقية . ادعى إيفان الرابع منذ أواسط القرن ١٦ بأنه هو « جار » أى إنه صغير امبراطور روما الكبير الذى هو البادشاه . والآن ، يدعى بطرس أنه الإمبراطور الكبير لروما الشرقية . وعلى هذا يكون تاج روما الشرقية مقسما بين البادشاه والجار . كان أمنية وأمل الروس أن يكون الجار ، إمبراطور روما الشرقية الوحيد ، لكن هذا الخيال لم يتحقق فى أى وقت من الأوقات .

بعد عزل سليمان باشا بعد ٤ أشهر و ٢٥ يوما ، صار القبطان دريا (الأميرال الكبير) خوجه ابراهيم باشا ، صدرا أعظم (١٧١٣/٤/٦) . أعدم أولالى إبراهيم باشا ، بعد ٢١ يوما . كان أميرالا عظيما . عين مكانه ، ايزنيكلى داماد شديد سلاحدار على باشا ، صدر أعظم . سمى « داماد » (صهر) بسبب نكاحه – دون حدوث الزفاف مطلقا – فاطمة الطفلة ، أبنة أحمد الثالث الكبيرة . كان مثقفا بدرجة كبيرة ، له نفوذ لدى البادشاه ، فى سن ناضجة ، ذا مقدرة ، اداريا .

١٨) الحرب مع البندقية والمانيا (١٧١٥ – ١٧١٨) ، معاهدة باساروفجه (١٧١٨/٧/٢١)

استرد ، ماأعطى إلى روسيا فى معاهدة كارلوفجه . وبالنسبة إلى على باشا ، جاء دور استرداد ماأعطى إلى البندقية وألمانيا . أعلنت الحرب أولا على الأضعف ، البندقية (١٧١٤/١٢/٨). مضت على كارلوفجه ١٥ سنةو ١٠ أشهر و١٣ يوما سار الصدر الأعظم على باشا– الذى صار سردار أكرم (قائدا أعلى)– من إستانبول على رأس الجيش الهمايونى (١٧١٥/٤/١) . شيعه البادشاه حتى أدرنة . تبع القبطان دريا (مشير البحر = الاميرال الكبير) جانم خوجه محمد باشا ، السردار الأكرم بالأسطول الهمايونى وأستولى على جزيرة ثينوس (بالتركية استنديل) من جزر كيكلاد التى كانت بحوزة البندقيين (١٧١٥/٦/٧) . دخل على باشا فى ٢٧ حزيران إلى مورا (وهى اراض بندقية) ، عن طريق كورينثوس .

كان فى مورا فى هذه الأيام ، أكثر من الفى قرية ، قصبة ، مدينة . جعل البندقيون مدينة Nauplion (بالتركية : Anabolu) مركزا . كانوا يذيقون الأهالى الروم الوانا من الظلم . استقبل الروم ، العثمانيين بسرور صادق وحقيقى . وقد ساعد هذا على فتح الجزيرة وسهل عملية الفتح خلال ٥٥ يوما . احتل على باشا كورينثوس (١٧١٥/٧/٤) ، Nauplion (٧/١٩) ، وخلال ٨ أيام Modon (٨/٢١) . ثم ميناء Monemvasia (بالتركية بنفشه (٩/٤) ، جزر Egin و Salamin (٧/٦) ، جزيرة آيامافرى (بالايطالية : Santa Maura) فى البحر اليونانى (١٠/٥) ، وخلال ذلك ، تم احتلال موانىء البندقية (٩/٢٤) الموجودة فى

كريت . سقطت نافارين وكورون فى ١٣ آب . هرب الأسطول البندقى ، من الأسطول العثمانى . حتى ذلك التاريخ ، كان ترتيب الأسطول البندقى ، الثانى بعد العثمانية فى البحر الأبيض . خرجت البندقية من صفوف الدول الكبرى فى عام ١٧١٥ ، بعد فقدانها مورا وانقطاع علاقتها ببحر إيجه . وفى ١٧٩٩ امُحيت من الوجود بشكل تام .

قضى على باشا ، شتاء عام ١٧١٥ – ١٦ فى إستانبول . كان يريد فى هذه المرة ، فتح جزيرة كورفو (التى لم يتسن الاستيلاء عليها حتى فى عهد القانونى) ، وتنحية البندقية بشكل تام . أعلنت ألمانيا التى أيقنت فورا أن الدور لحقها ، الحرب (١٧١٦/٤/٢٤) . كان على باشا قد غادر إستانبول فى ١١ نيسان ونظم جيشه لحرب البندقية . كان يلزم لمجابهة ألمانيا ، جيش أكبر ، ورغم ذلك ، غير طريقه وتوجه إلى المجر . جاء إلى بلغراد (١٧١٦/٧/٢٢) ، ولم يستمع للذين أشاروا عليه بقضاء الشتاء فيها والاستعداد لفتح المجر بقوات أكبر فى الربيع ، وقال أنه سينهى قضية المجر هذا العام ويصل إلى الحدود التى كانت فى عهد عائلة كوبرولو . ولأن المجريين يئنون تحت نير ظلم الألمان الشديد ، فقد كان يرى أنه من الممكن فتح المجر بتشتيت الجيش الإمبراطورى فى معركة ميدانية . لعب الوزير بوشناق صارى أحمد باشا بكلربك روملى ، دورا مشئوما فى هذا القرار وخدع الصدر الأعظم باقناعه بهذا الرأى وتنصر بعد مدة ودخل فى خدمة ألمانيا . مثل هذا يعتبر حادثة من اندر الحوادث الاستثنائية التى وقعت فى العثمانية .

تقابل الجيشان فى بترفارادين . فى ٢ آب شتتت مقدمة الجيش العثمانى البالغة ١٥٠٠ شخص ، مقدمة جيش الأمير اوجين البالغة ٨٠٠٠ شخص فى **Karlofca** وبدلا من أن يواصل الهجوم فورا- بينما العدو فى حيرة من أمره- تأخر على باشا ٣ أيام بناء على مشورة صارى أحمد باشا . بدأت معركة **Petervaradin** الميدانية فى الساعة ٧ من صباح يوم ٥ آب (١٧١٦) بهجوم الجناح العثمانى الأيسر الذى يشكله سباهية روملى « تمارلى » (نوع من الخيالة) وشروعه فى تشتيت الجيش الألمانى . ولكن الجناح الأيمن تشتت ، فور سقوط الوزير تورك أحمد باشا بكلربك الأناضول شهيدا . وعندما أراد على باشا تدارك الأمر فتقدم دون احتياط إلى الأمام ، سقط شهيدا برصاصة أصابت جبينه . تركت الوحدات التركية التى علمت بموت

السردار ساحة الحرب وبدأت فى الانسحاب إلى بلغراد . سببت عادة ترك ساحة القتال عند وفاة السردار - وهى عادة سيئة وقديمة لدي الجيش العثمانى - إحراز الأمير اوجين نصرا كبيرا . بعد ١٩ عاما من انتصاره على مصطفى الثانى فى معركة Zenta الميدانية ، ينتصر على أحد سردارات (قائد أعلى) العثمانيين كذلك . كان عمره فى هذه الاثناء ٥٣ عاما واشتهر بأنه عسكرى العالم المسيحى الذى لايقهر ، بطل ألمانيا الوطنى . غنم الأمير ، سرادق على باشا وعدة آلاف من كتبه ذات القيمة الفائقة المخطوطة بثلاث لغات شرقية والتى اعتاد استصحابها معه فى الحملات .

وبذلك تكون صدارة شهيد على باشا قد دامت مدة ٣ سنوات ، ٣ أشهر ، ٨ أيام . حقق خلال هذه المدة أعمالا كبيرة . لكن الفشل فى حملة ألمانيا ، جلب على الدولة مصيبة كبيرة . صار الوزير حاجى خليل باشا محافظ بلغراد ، صدراً أعظم وموشقارالى ابراهيم أفندى (نوشهرلى داماد ابراهيم باشا) الموجود فى الجيش ، قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) . كان ابراهيم باشا ، فى خدمة أحمد منذ كان شهزادة وكان مقربا إليه . صارى أحمد باشا الذى لم ترقه هذه التعيينات ، تنصر ولجأ إلى الألمان ، قبض عليه الجند الأتراك خارج بلغراد ومزقوه .

سار الأمير اوجين فور انتصار بترفارادين مع ١٨٠٠٠٠ جندى نحو تامشوار . وبعد حصار دام ٤٤ يوما ، استولى على قلعة تامشوار المهمة جدا وهى مركز الإيالة ومدينة مجرية حتى ذلك التاريخ (١٧١٦/١٠/٢٠) . استولى الألمان على Banata . انقطعت علاقة العثمانية بالمجر بصورة تامة . حاصر الأمير اوجين بلغراد (١٧٦٧/٧/٦) . اتحد جيش الصدر الأعظم والسردار الأكرم البستانلى حاجى خليل باشا ، مع ٧٠٠٠٠ من خيالة قرم الذين يقودهم سعادت كيراى خان وهجم من الخارج بغرض فك الحصار عن بلغراد ، لكنه انسحب بعد أن فقد ٢٠٠٠٠ شهيد ، وجريح واسير . دخل الأمير اوجين بلغراد (١٧١٧/٨/١٨) . عرض الألمان الذين احتلوا بلغراد خلال ٤٢ يوما الصلح وهم فى مركز قوة . كان أحمد الثالث وإبراهيم باشا قد قدما إلى صوفيا . تزوج قائمقام الصدارة ابراهيم باشا ، بابنة أحمد الثالث الكبيرة السلطانة فاطمة البالغ عمرها ١٣ عاما وأصبح صهرا له (داماد) . السلطانة فاطمة التى استشهد زوجها شهيد داماد على باشا ، قبل زفافها ، بقيت أرملة . عزل خليل باشا بعد صدارة دامت سنة ، ٢٢ يوما

(١٧١٧/٨/٢٦) . صار قيصريلى نيشانجى محمد باشا ، صدرا أعظم لمدة ١٤ يوما . احتل مكانه داماد ابراهيم باشا (١٧١٨/٥/٩) . أدى عدم حنكة وبصيرة خليل باشا ، إلى احتلال ألمانى لبلغراد دام ٢٢ عاما ، علاوة على عدم إمكان استعادة تامشوار فى أى وقت من الأوقات . ولأن بلغراد استسلمت لحالها ، غادرها المسلمون على شكل قوافل كبيرة . لم تعد بعد ذلك بلغراد ، مدينة تركية . هاجر المجريون إلى الشمال . وبعد ٢٢ عاما انتقلت إلى العثمانية مجددا على شكل مدينة صربية . استسلمت تامشوار كذلك لحالها ونزح منها الأهالى المسلمون . أخذ الرومانيون فى الاستيطان هناك ، وفى الأماكن التى أخلاها الأتراك ، وفقدت تامشوار هويتها كمدينة مجرية .

كان داماد إبراهيم باشا الذى أصبح صدراً أعظم بعد ماكان قائمقام الصدارة لمدة سنة و ٧ أشهر و ٧ أيام من مؤيدى الصلح كأبى زوجته البادشاه . كلاهما كان مقتنعاً بعدم إمكان الحرب بمثل هذا الجيش . كانت تقوية الجيش تستوجب إضافة معدات تكنولوجية جديدة ، ولتحقيق ذلك ، كانت الدولة تحتاج إلى فترة صلح طويلة الأمد . بعد ١٢ يوما من صدارة ابراهيم باشا ، وقعت العثمانية مع ألمانيا والبندقية معاهدة Pasarofca (١٧١٨/٧/٢١) وهى الاتفاقية المفجعة التى وقعت عليها العثمانية بعد كارولوفجه .

تنهى المعاهدة المكونة من ٢٠ مادة مع ألمانيا ، و ٢٦ مادة مع البندقية ، حالة الحرب مع البندقية التى استمرت منذ ٣ سنوات و ٧ أشهر و ١٤ يوما ، ومع ألمانيا التى استمرت منذ سنتين و شهرين ، ٢٧ يوما . تترك Banat مع مركزها Tamesvar إلى ألمانيا ، نهر Sava يشكل الحدود ، غير أن مدينتى بلغراد وسمنديره اللتين تقعان فى جنوب سافا ، تبقيان لدى ألمانيا . لايبقى تقريبا للعثمانية أية رعايا من المجريين ، ومقابل ذلك تحوز ألمانيا ، على قسم من الرعايا الصرب . كان المسلمون القاطنون فى بلغراد وسمنديره ، (اللتان كانتا مدينتين إسلاميتين حتى ذلك التاريخ) ، ينسحبون إلى الأراضى العثمانية . لم تكن الفتوحات التى أحرزت من البندقية بالأهمية التى يمكن معها تعويض ماأعطى لألمانيا . تبقى مورا ، جزيرة آيامافرى والجزر الأخرى ، لدى العثمانية ، لكن الجزيرة الصغيرة التى تقع بين كريت ومورا تبقى لدى البندقية .

١٩) دور لاله (١٧١٨ - ١٧٣٠)

أغلق الدور الأول لسلطنة أحمد الثالث الذى دام ١٤ سنة و ١١ شهرا و ويومين بمعاهدة باساروفجه . ويطلق على الدور الثانى لسلطنته « لاله دورى » (دور السنبل) وهو الذى يصادف داماد إبراهيم باشا والذى استمر ١٢ سنة ، وشهرين ، ١١ يوما . وفى نهاية هذا الدور حدثت حرب إيران التى كانت أحد أسباب اغلاق هذا الدور .

يمكن تعريف « دور لاله » ، بأنه يتمثل فى رغبة إستانبول والمدن التى تقلدها والتى ملت ويلات الحرب والانقلابات ، فى الاستفادة من نعم الحياة المادية بقيادة إبراهيم باشا . تم إعمار إستانبول والمدن الأخرى ؛ فمثلا ، شيدت القرية التى ولد فيها الصدر الأعظم المسماة موشقاره ، على شكل مدينة وأصبح اسمها نوشهر . ولأول مرة ، يركز الاهتمام على الإعمار المدنى بدلا من الإعمار الدينى ، أستعمل فى البناء الأسلوب الذى يعكس المرح والجانب المشرق للحياة ، تطورت هندسة الحدائق بشكل فائق . أصبحت هواية تربية الأزهار وخاصة « اللاله » (السنبل) الشغل الشاغل للناس ، إبتداء من البادشاه إلى الفقير المعدم . انعكست هذه الروح المرحة المرتبطة بالحياة ، على الشعر والموسيقى . بزغ فى هذا المجال أفذاذ كثيرون . وخاصة نديم الذى تغنى فى اشعاره جو « دور لاله » ، وخاطب فيها القلب بأسلوب وجدانى سلس ، وحتى التصوف الكثير الرواج فى المجتمع العثمانى ، وحياة التكايا والطرق الصوفية ، زادت انفتاحا على الحياة ، وصارت تنظر إلى الحياة بكثير من المحبة والسرور والشكر لنعم الخالق عز وجل . أصبحت كل واحدة من تكايا الطرق الصوفية لدى العثمانية (والتى يطلق على صغيرها زاوية ، وعلى المتوسطة تكية ، وعلى الكبيرة دركاه وعلى الكبيرة جدا آستانة) ، اكاديمية للفنون الجميلة ونادیا يجتمع فيه أهل القلوب . أخذت العلوم العملية حصتها من هذا الجو . بدأ توجيه الاهتمام نحو العلوم العملية ذات العلاقة بالعلوم العسكرية ، دور لاله ، هو بداية حركة التجدد . انفتحت الحركة الأولى على الاقتباس من الثقافة الأوروبية . ثم تلا ذلك التحرى والانتقاء . أخذ المثقفون من العثمانيين يشعرون برغبة ملحة لكشف وتفهم مايجرى واقتباس مايتذوقونه ويعجبون به من الحياة الأوروبية . افتتحت مطبعة الدولة فى عام

١٧٢٧ . كان سبب تأخر تأسيس مطبعة وطنية ، إلى درجة أن الإمبراطورية كانت تطبع كتبها لدى المطابع الخاصة ، وتجلب الكتب المطبوعة من أوربا ، هو الخوف من البطالة التى ستصيب جيش الخطاطين . تم تأمين معيشة الخطاطين بمنع طبع الكتب الدينية فى المطابع (كتب الكونت Marsigli أنه كان فى عام ١٧٠٠ ، ٩٠٠٠٠ شخص يتعيشون بواسطة الخط،الأرجح إن هذا الرقم مبالغ فيه) .

لم يحقق إبراهيم باشا ، هذا الجو بإصلاحات جبرية وفورية ، بل بلين وبإجراءات نموذجية . ومع ذلك ، فإن جماعة المتعصبين المتشددين الذين لم ترقهم هذه التجديدات ، أخذت فى الازدياد .

٢٠) الحرب مع إيران (١٧٢٣ - ١٧٣٠)

جاءت خلال هذه السنوات سلالة أويسى من الأفغان واحتلت إيران بما فيها اصفهان . خربت مدنية الصفويين العريقة . استفاد القيصر بطرس من قتال الصفويين مع الأويسيين ، ودخل ايران . اضطربت العثمانية لذلك بشدة . خرجت داغستان السنية فى ١٧٢٢ من تبعية ايران وأعترفت بالعثمانية متبوعا لها مجددا . ورغم نفور ابراهيم باشا من الحرب ، اضطر إلى التدخل فى ايران . بدأت الحرب بدخول الجيش العثمانى فى تموز عام ١٧٢٣ إلى القسم التابع إلى إيران من كرجستان . احتل بكلربك أرضروم الوزير سلاحدار إبراهيم باشا ، تفليس وغورى وضم شرق البلاد كذلك إلى العثمانية . دخل بكلربك وان الوزير كوبرولو - زاده عبد الله باشا ، إلى اذربيجان . وفى الجنوب قام بكلربك بغداد الوزير ايوبلى حسن باشا باحتلال ايالات لورستان ، اردلان ، كرمنشاه،وهمدان . وهكذا انتقلت إيالات إيران الخمس (١٦٤٠٠٠ كم٢) إلى حوزة العثمانية . أما فى الشمال فتم الإستيلاء على إيالات روان وتبريز (كرمنشاه ١٧٢٣/١٠/١٥ ، سينه ١٧٢٣/١١/١٠ ، خوى ١٧٢٤/٥/٦ ، همدان ١٧٢٤/٨/٣١ ، تبريـــــز ١٧٢٥/٨/٣ ، روان ١٧٢٤/١٠/٣ ، كنجه ١٧٢٥/٩/٤ ، خرم آباد ١٧٢٤/٩/٦) . وبهذا يكون قد تم فصل غرب وشمال - غرب إيران وقفقاسيا الجنوبية عن إيران لصالح العثمانية،وتم الاستيلاء على المدن الكبيرة المذكورة أعلاه الواحدة تلو الأخرى . أحرز كوبرولو -

زاده عبد الله باشا ، شهرة كبيرة بفتح تبريز (هو الأبن الكبير للصدر الأعظم داماد كوبرولو – زاده نعمان باشا) . وهكذا تم فتح ١٢٦٠٠٠ كم² من الأراضى فى الشمال (جمعا ٢٩٠٠٠٠ كم²) . تم التوصل إلى حدود عهد مراد الرابع مجددا ، وتم التوصل إلى الخزر من جديد . أعترف بكل هذه الفتوحات أشرف شاه اويسى بمعاهدة همدان (١٧٢٧/١٠/٤) .

ظهر بعد ذلك فورا نادر خان اوشار . أعلن هذا البك التركمانى أن الأويسيين مغتصبون وغير شرعيين . أجلس على العرش طفلا ، أخذ يسعى فى تطهير إيران باسم الشاهات الصفويين من الاحتلال الأفغانى من ناحية ، والعثمانى من الغرب من ناحية أخرى . أحتل نهاوند من العثمانيين (١٧٣٠/٧/٢) ، اختطف بكلربك همدان عبد الرحمن باشا ، وبكلربك كرمنشاه بجوى باشا واستولى على كلتا المدينتين ، وخلال شهر تموز (١٧٣٠) ، استرجع إيالتى همدان وكرمنشاه (٨٥٠٠٠ كم²) بحملة واحدة . عند ذلك ، ركزت أعلام الحرب للبادشاه فى صحراء اسكدار فى ٣ آب . لكن البادشاه وصهره الصدر الأعظم أرادا تأجيل الحملة إلى ربيع عام ١٧٣١ على أساس انتهاء موسم القتال . كثف المعارضون الدعاية ضد الصدر الأعظم بحجة أن نادر خان يذبح السنة فى إيران (كانت سلالة أويسى الأفغانية سنية – حنفية) .

٢١) ثورة باترونا (٢٨ أيلول – ١ ت١/١٧٣٠)

حدثت بعد ٢٧ عاما من واقعة أدرنة ، ثورة اتعس وأكثر شؤما منها . إيثار إبراهيم باشا ، أقاربه بالمناصب العالية ، وسلطته التى بدا وكأنه لانهاية لعهدها ، والخشية من انتقال السلطة إلى أحد أقاربه فى حالة وفاته .. كل هذه الأمور استعملت كأدوات إثارة ضده . زج أحمد الثالث فى هذه البلية ، وكذلك كان قد أبتلى ، قبل ٢٧ عاما أخوه الكبير مصطفى الثانى بسبب توزيع شيخ الإسلام فيض الله أفندى مقامات المشيخة والمناصب العالية بين أقاربه بشكل غير مألوف .

كان إبراهيم باشا . رجل دولة حر الفكر جدا ، وعادلا ورحيما . لم يكن معارضوه كثيرين ، لكن عدم اعتماده على تشكيلات صنف القابوقولو بسبب الحرب

الألمانية الأخيرة ، وعزمه على تجهيز الجيش باصناف تكنولوجية جديدة ، وإظهاره عدم الاعتماد على الجيش فى حرب إيرانية ، أثار الانكشارية .

حدثت الثورة فى هذه المرة بين أفراد جنود الانكشارية ولم يشترك فيها إلا عدد قليل من الضباط وبسبب عصيان باترونالى (من أهالى بأترونا) خليل وهو جندى من صنف البحرية ورفاقه ، اشتهرت هذه الثورة التى أنهت دور لاله ، باسم « ثورة باترونا » وهى إحدى أكبر وأعنف وأشهر الثورات فى التاريخ العثمانى . اعتبر الصدر الأعظم مسئولا عن هروب بكلربك تبريز الوزير جاووش باشى قره مصطفى باشا من تبريز دون أن يطلق طلقة واحدة ، مما يسر لنادرخان احتلالها وقيامه بقطع أفواه وأنوف الشعب السنى .

بدأ العصاة فى التجمع فى ٢٨ أيلول . أهمل أمرهم فى بداية الأمر بشكل لايصدق ، وازداد عددهم ، وبينما كان تشتيتهم من أسهل الأعمال ، لعدم وجود أى رجل دولة على رأسهم أو حتى ضابط . ولعدم تصدى أى شخص فى العاصمة لتحمل المسئولية ، وترك الأمر فى بدايته دون مواجهة بل بتراخ وعدم اكتراث ، انقلب الأمر إلى اقتحام السجون وإخراج المسجونين وتسليحهم ونهب البيوت . وفى ٣٠ أيلول ، طلب العصاة من أحمد الثالث قطع رأس ٣٧ شخصا .

أعدم فى ١ ت ١ الصدر الأعظم نوشهرلى داماد إبراهيم باشا مع صهريه قبطان دريا الوزير قايماق مصطفى باشا (حفيد مرزيفونلى قره مصطفى باشا من ابنته) وكتخدا الصدارة (وزير الداخلية) الوزير محمد باشا . هكذا كانت نهاية أقدر صدر أعظم فى القرن ١٨ دون منازع ، طلب الثوار استقالة البادشاه ، لعلمهم بأنه سوف ينتقم . دعا أحمد الثالث ابن أخيه ولى عهد – شهزاده السلطان محمود فى الساعة ٩/٣٠ (٢١/٣٠) من مساء يوم ١ ت١ ، وجعله يقبل يده وقدم له النصح وأعلمه بأنه تخلى عن السلطنة لصالحه .

دامت صدارة داماد إبراهيم باشا ١٢ سنة و ٤ أشهر و ٢٢ يوما . هو رئيس الوزراء الثانى عشر فى تسلسل مدة البقاء فى الوزارة بين رؤساء وزراء تركية ، وهو الثانى فى التسلسل بعد رءوف باشا ، من بين الصدور الأعظم الذين تصدروا بعد وفاة فاضل أحمد باشا فى ١٦٧٦ حتى نهاية السلطنة ، إلا أن صدارة رءوف باشا

فى النصف الأول من القرن ١٩ ، لم تكن على فترة واحدة وأنما هى مجموع مدة بقائه لـ ٥ مرات . ابراهيم باشا الشاعر ، الملحن كان راعيا للعلوم والفنون والأدب والشعر والموسيقى وكان من كبار مشجعى حركة الأعمار .

كان عمر أحمد الثانى يتجاوز الـ ٥٦ عاما بـ ٩ أشهر ويومين . عاش بعدها فى شقته الكائنة فى سراى طوب قابو مع شهزاداته ونسائه مدة ٥ سنوات و ٩ أشهر ، يوم وتوفى وعمره يتجاوز الـ ٦٢ بـ ٦ أشهر و يوم (١٧٣٦/٧/١) . دور لاله ، كان دور استقرار كبير . شيخ إسلام هذا الدور هو ينى شهرلى عبد الله أفندى بقى فى مقامه مدة ١٢ سنة و ٢٤ يوما (١٧١٨/٥/٦ - ١٧٣٠/٩/٣٠) . وهو التاسع فى تسلسل المدة بين شيوخ الإسلام .

يندر من وصل من بين أولاده الذين يبلغ عددهم ١٢ شهزاده (أميرا) و٢٢ سلطانة (أميرة) سن السنتين ، كلهم ماتوا اطفالا . الذين توفوا وهم أطفال ولم يصلوا سن البلوغ هم : السلطانة رابعة (١٧٢٢ - ١٧٢٩) ، السلطانة أم سلمه (١٧٢٥ - ١٧٣٢) ، السلطانة عاقلة (١٧٣٠؟ - ١٧٣٧) ، السلطانة نائلة (١٧٢٢ - ١٧٢٦/١٢/١٠) ، السلطانة أمينة (١٧١٠ - ١٧٢٠) .

أبناؤه : مصطفى الثالث (١٧١٧/١/١٨ - ١٧٧٤/١/٢١) ، عبد الحميد الأول (١٧٢٥/٣/٢٠ - ١٧٨٩/٤/٧) ، السلطان سليمان وهو شهزاده عظيم جدا (١٧١٠/٨/٢٥ - ١٧٣٢/١٢/١١) ، الشهزادة السلطان محمد (١٧١٧/١/١ - ١٧٥٦/١٢/٢٢) الذى صار وليا للعهد لمدة سنتين و ٩ أيام (١٧٥٤/١٢/١٣ - ١٧٥٦/١٢/٢٢) ، الشهزادة السلطان بيازيد الذى صار وليا للعهد لمدة ١٣ سنة و ١١ شهرا و ٦ أيام (١٧١٨/١٠/٤ - ١٧٧١/١/٢٥) ، شهزاذه نعمان (١٧٢٣/٢/٢٢ - ١٧٦٤/١٢/٢٩) ، شهزادة سيف الدين (١٧٢٤ - ١٧٣٢) . والذين جلسوا على العرش من بين هؤلاء هم مصطفى ٣ وعبد الحميد ١ ، صار لهما أولاد ، لكن السلالة استمرت إلى يومنا هذا عن طريق عبد الحميد ١ **فقط** .

بناته : ١) **السلطانة فاطمة** (فاطمة الزهـراء) (١٧٠٤/١٠/٢٢ - ١٧٣٣/١/٣) ، جرى نكاحها للصدر الأعظم داماد شهيد سديد سلاحدار ازنيكلى فاضل على باشا ، ولم يحدث الزفاف (١٦٦٧ - ١٧١٦/٨/٥) ، وتزوجت بعده

بالصدر الأعظم داماد نوشهرلى إبراهيم باشا (١٦٧٠؟ - ١٧٣٠/١٠/١) وانجبت ابناً واحداً . ٢) السلطانة أم كلثوم (١٧٠٨/٢/٧ - ت١٧٣٢/٢) ، تزوجت بابن أخ ابراهيم باشا ، الوزير داماد نوشهرلى كنج على باشا (١٦٩٨؟ - ١٧٣٢) ، أنجبت ٤ أبناء وابنة واحدة . ٣) السلطانة عاتكة (١٧١٢/٢/٢٨ - ١٧٣٧) ، تزوجت بابن ابراهيم باشا ، داماد نوشهرلى كنج محمد باشا (١٧٠٢ - ١٧٦٨/٦/١٦) وانجبت ابنا واحدا هو نوشهرلى - زاده سلطان - زاده حاجى ابراهيم بك (١٧٣٠؟ - ١٨١٩) وهو الذى استمرت عائلة نوشهرلى إلى يومنا هذا عن طريقه . ٤) السلطانة صالحة (١٧١٥/٤/٢٠ - ١٧٧٨/١٠/١١) ، تزوجت ٥ مرات وأشهرهم رابعهم الصدر الأعظم داماد قوجا محمد راغب باشا (١٦٩٩ - ١٧٦٣/٤/٨) ، ورزقت من زوجها الأول (وزير داماد صارى مصطفى باشا ابن الصدر الأعظم غازى دلى حسين باشا) بـ٣ بنات وابن واحد . ٥) السلطانة عائشة (١٧١٥/١٠/١١ - ١٧٧٥/٧/٩) ، تزوجت ٣ مرات ورزقت ببنتين وولدين ، زوجها الثانى هو داماد وزير أحمد راتب باشا ، ابن الصدر الأعظم طوبال عثمان باشا ؛ أما زوجها الثالث فهو الصدر الأعظم داماد سلاحدار محمد باشا . ٦) السلطانة خديجة (١٧١٩/١١/٢٠ - ١٧٣٨) ، تزوجت بالداماد حافظ أحمد باشا ابن الوزير داماد كوجوك جركس عثمان باشا . ٧) السلطانة أسماء (١٧٢٦/٣/١٤ - ١٧٨٨/٨/١٣) ، تزوجت ٣ مرات وآخرهم هو الصدر الأعظم داماد محسن - زاده محمد باشا (١٧٠٦؟ - ١٧٧٤/٨/٤) ، ورزقت منه بابنة واحدة . ٨) السلطانة نظيفة (أيار ١٧٢٥ - ١٧٦٤/١٢/٢٩) لم تتزوج . ٩) السلطانة زبيده (١٧٢٨/٣/٢٩ - ١٧٥٦/٥/٦) ، تزوجت بوزيرين . ١٠) السلطانة زينب (١٧١٤/٤/٨ - ١٧٧٤/٣/٢٥) ، تزوجت أولا بداماد نوشهرلى سنك كوجوك مصطفى باشا ابن أخ إبراهيم باشا (١٧٠٩؟ - ١٧٦٤/٢/١١) ورزقت منه بابن واحد ، ثم تزوجت بالصدر الأعظم داماد ملك محمد باشا (١٧٢٠ - ١٨٠٢/٢/٢٢) .

٢٢) دور السلطان محمود خان الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤)

السلطان محمود الأول الذى جلس على العرش ، هو الابن الكبير لمصطفى الثانى . يعرف بلقب « غازى » . أمه السلطانه - الوالدة صالحة سبقتى (١٦٨٠؟ -

١٧٣٩/٩/٢١) . وبعد وفاة الشهزادة ابراهيم ابن عمه أحمد الثانى ، صار مكانه وليا للعهد (١٧١٤/٥/٤) . وبعد بقائه فى منصب ولاية العهد مدة ١٦ سنة و ٤ أشهر و ٢٨ يوما ، جلس على العرش مكان عمه أحمد الثالث وعمره يتجاوز الـ ٣٤ بشهرين ويوم . شاعر ، وحفار أختام وملحن كبير للأغانى الموسيقية التركية (الساز) . تزوج من ١١ زوجة لكنه لم يرزق باولاد ابدا . من بين اساتذته يمكن ذكر قضعسكر (قاضى عسكرى) روملى فيض الله - زاده ابراهيم افندى نذير آغا ، عثمان باشا وأول أستاذ له هو شيخ الإسلام ارضروملى فيض الله أفندى . أول من بايعه عند جلوسه ، شهزادات (أمراء ، أولاد السلاطين) عمه أحمد الثالث الـ ٧ (أحمد الثالث ، مدفون فى مقبرة ينى جامع بجوار أبيه وأخيه الكبير) .

كان محمود الأول ، عاقلا ، دقيقا ، حذرا ، وقورا ، ذا ثقافة عالية ، وعلى خلق . قتل بعد مدة وجيزة جميع مدبرى ثورة باترونا خليل وأنهى الثورة القصيرة وحكم التمرد ، ثم استمر على السير على نمط تراث دور لاله . اتعظ بعاقبة أبيه وعمه وبدل رؤساء الوزراء بصورة مستمرة ، ولم يبق أى صدر أعظم ، مدة طويلة فى السلطة . عين فى مقام المشيخة ، ابنى شيخ الإسلام ارضروملى شهيد حاجه سلطانى فيض الله أفندى (فيض الله - زاده مصطفى أفندى ١٧٣٦/٤/١٣ - ١٧٥٤/٣/٤ وفيض الله - زاده مرتضى أفندى ١٧٥٠/٦/٢ - ١٧٥٥/١/١٢) .

الذين شغلوا منصب الصدر الأعظم خلال دور السلطان محمود ، بعد نوشهرلى ابراهيم باشا هم : سلاحدار داماد محمد باشا ٣ أشهر و ٢١ يوما ، قاره حصارلى قاباقولاق ابراهيم باشا (١٧٣١/١/٢٢) ٧ أشهر و ١٩ يوما ، طوبال عثمان باشا (١٧٣١/٩/١٠) ٦ أشهر ويومين حكيم أوغلو على باشا (١٧٣٢/٣/١٢) ٣ سنوات و ٤ أشهر و يوم ، اسماعيل باشا (١٧٣٥/٧/١٢) ٥ أشهر ، ١٣ يوما ، ديمه توكالى سلاحدار محمد باشا (١٧٣٥/١٢/٢٤) سنة ، ٧ أشهر و ١٦ يوما . (١٧٣٧/٨/٦) ٤ أشهر و ١٤ يوما ، علائيه لى يكن محمد باشا (١٧٣٧/١٢/١٩) سنة و ٣ أشهر و ٤ أيام ، حاجى عوض باشا (١٧٣٩/٣/٢٢) سنة و ٣ أشهر ، ويومين ، انطاليه لى حاجى أحمد باشا (١٧٤٠/٦/٢٣) ١ سنة و ٩ أشهر و ٢٨ يوما ، حكيم أوغلو على باشا للمرة الثانية (١٧٤٢/٤/٢١) سنة و ٥ أشهر و يومين و شبين قره حصارلى سيد حسن

باشا (١٧٤٣/٩/٢٣) سنتان و ١٠ أشهر ، ١٦ يوما ، ترياكى حاجى محمد باشا (١٧٤٦/٨/٩) سنة و ١٦ يوما و كركوكلى حسن باشا - زاده بوينو أكرى عبد الله باشا (١٧٤٧/٨/٢٤) سنتان و ٤ أشهر و ١٠ أيام ، محمد أمين باشا (١٧٥٠/١/٣) سنتان و ٥ أشهر ، ٢٩ يوما ، صوفو عبد الرحمن باشا - زاده باهر مصطفى باشا (١٧٥٢/٧/١) . توفى محمود الأول على عهد هذا . كان عمره يتجاوز الـ ٥٨ بـ ٤ أشهر ، ١٢ يوما . العسكرى الكبير ورجل الدولة الممتاز بين هؤلاء الصدور الأعظم ، هو حكيم الوغلو على باشا . هو أعظم رئيس وزراء فى العصر ١٨ بعد نوشهرلى . أيضا كان طوبال أحمد باشا ، عسكريا كبيرا .

٢٣) الحرب مع ألمانيا وروسيا (١٧٣٦ - ١٧٣٩) ، معاهدة بلغراد

ساءت العلاقات مجددا مع روسيا . ساندت روسيا ، نادرشاه فى حرب العثمانية مع إيران . أزعج إستانبول ازدياد تدخلها فى شئون بولونيا على مر الأيام ، وإرسالها الجنود إلى بولونيا باستمرار ، وبهجوم مفاجىء غير متوقع ، استولى الروس على قلعة آزاك بعد حصار دام ٣٤ يوما (١٧٣٦/٥/٣) . استنادا على ذلك ، أعلن الباب العالى الحرب على روسيا (١٧٣٦/٦/١٦) . وبهجوم مفاجىء كذلك وبقيادة الماريشال Münich الألمانى الأصل، اجتاز الروس لأول مرة فى التاريخ اورقابو ودخلوا قرم وقاموا خلال شهر ، بتخريب كبير (١٧٣٦/٥/٢٨) . هزم فاتح كيراى الثانى الروس وأخرجهم من قرم ، وطاردهم إلى أعماق أوكراينا وعاد إلى قرم مع مائة ألف أسير .

على أثر هزيمة الروس ، أعلنت ألمانيا حليفة روسيا التى خططت تقسيم بولونيا معها بصورة مشتركة ، الحرب على العثمانية (١٧٣٧/٧/١٢) . اجتاز الألمان الحدود العثمانية من ثلاث نقاط وبثلاثة جيوش مختلفة ودخلوا افلاق (رومانيا) وبوسنه وصربيا . سقطت نيش (١٧٣٧/٧/٢٧) . لكنهم هزموا أمام بكلربك بوسنه - الصدر الأعظم السابق - فى المعركة الميدانية بانياقولو (١٧٣٧/٨/٤) . وفى جبهة صربيا ، استرجع كوبرولو - زاده أحمد باشا ، نيش (١٧٣٧/١٠/٢٠) . وفى المعركة الميدانية Vidin هزموا أمام الوزير عوض محمد باشا (١٧٣٧/٩/٩) ولم يكن حظ الألمان حسنا فى افلاق وبغدان كذلك ؛ حيث

هزموا فى تلك المناطق واخرجوا ودفعوا إلى ماوراء الحدود . هزم الروس كذلك أمام آزاك . جاء الماريشال كونت Von Münich (١٦٨٣ - ١٧٦٧) مع ١٨٠ ٠٠٠ جندى و٩٠ مدفعا أمام القلعة التركية المهمة Özö (بالروسية : Oczakov) بجوار Odesa . وعند تسلم Münich القلعة بعد أن ضحى بـ ٣٠ ٠٠٠ جندى روسى ، دهش عند مشاهدته ٧٠ جنديا بقوا على قيد الحياة من مجموع ٦٠٠٠ من جنود يحيى باشا وهنأ الباشا على ذلك (Mür'ü't-Tevarih ، ورق ٣٧٢ آ - ب) .

أدخل الألمان إلى بوسنة فقط ١٥٠ ٠٠٠ جندى ، كانوا قد فقدوا فى حرب بانيالوكا Banyaluka الميدانية ٦٠ ٠٠٠ جندى من مجموع ٨٠ ٠٠٠ جندى الذين اشتركوا فى المعركة ، وفقدوا فى معركة Vidin الميدانية ٦٠٠٠ جندى .

عند بدء الحرب مع روسيا ، كانت الدولة فى حرب مع إيران . وعلى أثر دخول ألمانيا الحرب ، عقد الباب العالى الصلح مع إيران بصورة مستعجلة ، لتأمين جهه الشرق . لم تكن العثمانية تثق فى نادرشاه . ولذلك فقد حاربت ثلاث امبراطوريات ، الايرانية ، الألمانية والروسية .

صعد عوض محمد باشا ، إلى الشمال واسترجع من الألمان فتح الإسلام ، آداقلعة وسمنديره . أما نعمان باشا فاسترجع من الروس قلعتى Özö وقيلبورنو . وهب الباب العالى السويد ١٥٠ مليون آقجه وحصل على وعد منها بفتح الحرب من الشمال ضد روسيا ، ولكن على أثر انضمام الدانمارك للجانب الروسى - الألمانى ، لم تتمكن السويد من دخول الحرب واستمرت تركية لوحدها . كانت السويد تحث الباب العالى على سحق روسيا ، أما بروسية فكانت تحثه على سحق ألمانيا (النمسا) وكلاهما تحثان الباب العالى بالقول ، دون أن تقدم أية مساعدة فعلية . أما انكلترا وهولندا وفرنسا فكانوا يغرون تركية بالصلح . أعلم ، يكن محمد باشا الديوان بأن الجيوش الألمانية سحقت فى كافة الجبهات ، وأنه ليس هنالك أسهل من إستعادة تامشوار والمجر وطلب الأذن للهجوم على المجر . لكن الديوان الذى فقد القدرة على إصدار القرارات الصائبة ، لم يسمح بذلك .

سار عوض محمد باشا متجها نحو بلغراد . وصول حكيم أوغلو على باشا ، من بوسنة أعاد الحياة للجيش الهمايونى . بقى ٤٢٠٠٠ جندى ألمانى الذين يبغون الدفاع

عن بلغراد ، فى ساحة الحرب . طلبت ألمانيا الصلح (١٧٣٩/٨/١٣) ، وأعقبتها روسيا فى طلب الصلح . كانت العثمانية تحاصر بلغراد منذ ٢٦ تموز . دخل حكيم أوغلو إلى خرواتيا ودمر Una وKulpa . بدأت أزمة سياسية فى فيينا وقامت مظاهرات ضد الامبراطور . ولكن ، فى الجبهة الروسية ، استولى الماريشال فون مونيخ على خوتين (١٧٣٩/٨/١٩) . ثم أستولى على ياش مركز Bukovina وبغدان . أوقف صارى أحمد باشا الروس عند نهر بروت . لم تكن هذه الانتصارات مفيدة للروس . لأن المفاوضات كانت قد تقدمت فى هذه الأثناء وكان قد تم التفاهم على أسس المصالحة العثمانية – الروسية .

طلبت ألمانيا ، وساطة فرنسا وانكلترا وهولندا وإيران لعقد الصلح فى غضون عام ١٧٣٩ ؛ ذلك أن ألمانيا كانت قد قطعت الأمل فى بلغراد ، وأدركت أنها سوف لاتتمكن من الدفاع كذلك عن تامشوار إذا استمرت الحرب إلى السنة التالية . أجرى الوساطة الحقيقية ماركيز Villeneuve سفير فرنسا فى إستانبول ؛ وبهذا تكون دبلوماسية لويس ١٥ قد وصلت الذروة فى أوربـا . تولى المفاوضات الصدر الأعظم والسردار الأكرم حاجى عوض محمد باشا بنفسه . وقع فى ١٨ أيلول ١٧٣٩ على معاهدة بلغراد المكونة من ٢٣ مادة مع ألمانيا ، ١٥ مادة مع روسيا. أخليت بلغراد فى ٤ أيلول وسلمت إلى الأتراك . دام الاحتلال الألمانى للمدينة مدة ٢٢ سنة ، و١٧ يوما. تنتقل سمنديره ، بوغوردلن (Czabacz) ، آدا قلعة إلى العثمانية وكذلك الأراضى التى أعطيت إلى ألمانيا فى معاهدة باسا روفجة ١٧١٨ عدا بانات وتامشوار . تهدم قلعة آزاك وتعطى أراضيها إلى العثمانية ، ويتعهد الروس والعثمانيون كذلك بعدم انشاء قلعة فيها (كانت هذه هى عاقبة قلعة آزاك التى قال عنها السلطان محمد الفاتح « قلعة آزاك ، مفتاح إستانبول ») Mür'üt-Tevarih ورق ٣٧٩ ب – ٨٠ ب) . لاتبحر أية سفينة روسية فى بحر آزاك والبحر الأسود . سيحافظ البحر على وضعه كبحيرة عثمانية . يخاطب الباب العالى ، بعد الآن ، الحاكم الروسى فى المكاتبات بـ « امبراطور » أو « امبراطورة » (وهكذا تمت الموافقة بصورة رسمية على أن روسيا امبراطورية) . تعيد روسيا بشكل كامل خوتين وياش اللتين احتلتهما فى الأونة الأخيرة . بدأت كافة الدول تعتبر وجود خوتين لدى العثمانية ، ضمانا لاستقلال بولونيا . أكرمت فرنسا بمنحها المزيد من الحقوق التجارية المسماة

Capitulation . طبقت جميع بنود المعاهدة ، إلا أن الباب العالى ظل مصرا لسنوات طويلة ، على عدم استعمال لقب « امبراطور وامبراطورة لحكام روسيا ، واعتبر فقط ، سفراء روسيا ، معادلين لبقية السفراء .

معاهدة بلغراد ، وثيقه تثبت أن العثمانية ، هى الدولة العالمية الأولى ، بشكل لايقبل الجدل ؛ حيث أنها حاربت امبراطوريات روسيا ، ألمانيا ، إيران ، انتصرت وحصلت على أراض . تمكنت تركية ، فى أوروبا ، من تأمين فترة سلم ورفاهية استمرت مدة ٢٨ سنة . أثبتت هذه الحرب كذلك ، أن روسيا ، اكتسبت قوة بعد بطرس الكبير وبإصلاحاته التى وضعها ، وأن قوتها العسكرية اقتربت من القوة العسكرية الألمانية .

٢٤) الحرب مع إيران (١٧٣٠ - ١٧٤٦)

استمرت الحرب التى بدأت مع إيران ، على عهد أحمد الثالث ، إلى عهد محمود الأول كذلك . استرجع السردار (القائد) الوزير أحمد باشا بكلربك (فريق) بغداد ، كرمنشاه (١٧٣١/٧/٣٠) ، واسترجع همدان كذلك فى معركة كوريجان الميدانية بعد إفناء ثلاثة أرباع الجيش الصفوى المؤلف من ٤٠٠٠٠ شخص (١٧٣٠/٩/١٦) ، أما السردار الوزير حكيم الوغلو على باشا فاحتل فى الجبهة الشمالية مدينة أورمية (١٧٣١/١٠/١١) واسترد مدينة تبريز (١٧٣١/١٢/٤). وفى ١٠ ك١٧٣٢/٢ ، وقع أحمد باشا على معاهدة الصلح . أعيدت كامل إيران الغربية إلى إيران (بضمنها تبريز ، اذربيجان الجنوبية ، همدان ، كرمنشاه ، لورستان ، اردلان ، خوزستان) . نهر آراس ، يحدد الحدود . أما روان التى كانت تعود فى السابق إلى الصفويين ، نهجوان ، شيروان ، أران أى أذربيجان الشمالية ، كرجستان الشرقية وداغستان فبقيت لدى العثمانية . ورغم تضحية تركية بايران الغربية بغرض إمكان حفاظها على قفقاسيا الجنوبية وحدود بحر الخزر ؛ فإن ذلك لم يكن كافيا لتطمين نادر خان . دام الصلح سنة واحدة وبدأت الحرب بهجوم نادرخان فى ١٧٣٣ ؛ وبعد أن أحتل أربيل ، جاء أمام بغداد (١٧٣٣/١/١٢) . كان أحمد باشا يدافع عن المدينة ، لكنه لم يكن بامكانه الخروج من القلعة بسبب محاصرة الجيش الصفوى الكبير لها . عند قدوم الوزير طوبال أحمد باشا ، إلى بغداد مع ٨٠٠٠٠ جندى ، كانت المدينة تحت الحصار منذ ٧ أشهر ، ٨ أيام . هزم عثمان باشا نادرخان ، أكبر عسكرى فى القرن

١٨ فى العالم أجمع والفاتح العالمى الأخير الذى أنجبه القوم التركى ، بشكل حاسم فى الحرب الميدانية الكبرى التى أستمرت ٩ ساعات (١٧٣٣/٧/١٩) . جرح نادر ، قتل ٣٠٠٠٠ من جنده ، ترك مدافعه وسرادقه إلى العثمانية وانسحب . تم الاحتفال بالنصر فى إستانبول مدة ٣ أيام مع لياليها ومنح السلطان محمود لقب « غازى » .

وفى السنة التالية ، اقتحم نادرشاه بصورة مفاجئة مقر عثمان باشا الصدر الأعظم السابق والباشا السردار المريض جدا الذى كان يقضى الشتاء فى كركوك وقتله شهيدا ودخل كركوك . أعلن نفسه شاها وأنهى بذلك السلالة الصفوية ، وهى من أكبر سلالات التاريخ ، وبدأت فى إيران سلالة آوشار (١٧٣٦/١/٢٧) . انتصر على الوزير كوبرولو - زاده عبد الله باشا الذى صار سردارا (قائدا) مكان عثمان باشا فى معركة باجاى وقتله شهيدا . استولى على روان ، كنجه ، تفليس . واسترجع كافة الاقطار التى حصلت عليها العثمانية منذ ١٧٢٣ . وفى وضعه هذا المتمكن ، طلب الصلح . كان يعلم بأن العثمانية ستقبل الصلح ، لأنها دخلت فى حرب مع ألمانيا وروسيا ، وكان هو (نادرشاه) قد قرر فتح الهند . وافق الطرفان على أسس معاهدة قصر شيرين لعام ١٦٣٩ ووقعت معاهدة إستانبول (١٧٣٦/١٠/١٧) . لم تحصل العثمانية التى سالت دماؤها مدة ١٣ سنة ، من إيران على شيء . كان نادرشاه التركمانى الخالص الدم والمصطبغ بالصبغة الإيرانية ، كما هو الحال فى شاهات الصفويين الأخيرين ، سنيا - حنفيا فى الباطن . أراد إعلان المذهب بصورة رسمية ، إلا أنه خشى من ظهور الاضطرابات . وبناء على ذلك ، أدخل المرونة على مذاهب الإثنى عشرية المفرط للشاه إسماعيل وأعلن مذهب الجعفرية الأكثر اعتدالا ، وأصبح هذا المذهب هو مذهب الشيعة الرسمى والذى هو مذهب إيران منذ ذلك التاريخ وحتى الآن . راجع الخاقان العثمانى ، (الذى هو الخليفة) ، لغرض الاعتراف بالجعفرية مذهبا شرعيا خامساً ، أحال السلطان محمود الموضوع إلى هيئة العلماء برئاسة شيخ الإسلام ، حيث إن الخليفة لايصدر الفتاوى شخصيا ، رفض المجلس بالاجماع الاعتراف بالمذهب الجعفرى كمذهب خامس . لكنه سمح للشيعة بالذهاب إلى الحج فى الأراضى العثمانية ، وزيارة المدن المقدسة فى العراق بحرية كما كان الحال سابقا . كانت هنالك فى النجف ، مدرسة شيعية عالية . وكانت الإدارة العثمانية تتغاضى عن تدريسها العلوم الدينية على الأصول الشيعية ، منذ القدم .

دام الصلح مع إيران مدة ٦ سنوات و ٧ أشهر و ١٣ يوما . بدأ مجددا فى ٢٩ أيار ١٧٤٣ ، وفى هذه المرة استمر لمدة ٣ سنوات و ٣ أشهر و ٦ أيام . أنزل نادر خلال هذه المدة ، ضربة كبرى ببنى تيمور الهند ، وصار سببا لأحد التحولات التاريخية المضرة جدا بالتاريخين التركى والإسلامى . وبهذه الضربة تقوضت سلطة بنى تيمور - الفريدة فى نوعها - فى القارة الهندية وتبعثرت . بدأ الهندوس فى الاعتراض على الحكم الإسلامى الذى استمر عصورا طويلة . تشكلت دولا عديدة واعترفت اسما فقط ، ببادشاه دلهى . وأصبحت الهند ، عرضة لتدخل وإستيلاء خارجى . تراجعت الدولة التيمورية عن وضعها كقوة عالمية ثانية ، واستولت إيران مرة أخرى على هذه الأماكن .

(كانت المدن الموجودة فى القارة الآسيوية كبيرة ومزدحمة جدا نسبيا و لم نذكرها هنا بسبب عدم توافر المعلومات التى يمكن أن تكون أساسا لتقدير عدد نفوس كل منها) :

تركية العثمانية ، كانت لاتزال الدولة الأولى فى العالم : المساحة ١٥٥٣٨٠٠٠ كم^2 والنفوس ٧٦ ١٥٠ ٠٠٠ (إستانبول ١٤٠٠ ٠٠٠ ، القاهرة ٥٨٠ ٠٠٠ ، أدرنة ٣٥٠ ٠٠٠ ، جزائر ١٢٥ ٠٠٠ ، تونس ١١٥٠٠٠ ، اسكندرية ٩٣٠٠٠) . لم تعد الإمبراطوريات الآسيوية ، تأتى بعد تركية من حيث القدرة والأهمية ، كما كانت قبل فترة وجيزة ، وإنما تأتى دولتان أوربيتان هما أولا فرنسا ، ثم بريطانيا العظمى (مع كافة مستعمراتها) :

الملكية الفرنسية ٥٣٩٦ ٢٦٢ كم^2 و ٢٢ ٦٥٣٠٠٠ نسمة (باريس ٦٠٠ ٠٠٠ ، ليون ١٠٣ ٠٠٠ ، مارسيليا ١٠١ ٠٠٠ ، نانتس ٩٩٠٠٠ ، بوردو ٩٤٠٠٠) . ملكية بريطانيا العظمى ١٨٧١٦٢٩ كم^2 و ١٢٩٨٥ ٠٠٠ نسمة (لندن ٨٠٠ ٠٠٠) .

بعد ذلك يمكن ذكر امبراطوريتى الصين وإيران بالتسلسل . كانت إيران قبل عدة سنوات ، الدولة الثانية ولكنها فقدت وضعها هذا بعد وفاة نادر مباشرة : الصين ١٠٧٩٧٨٠٤ كم^2 ، ١٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، إيران ١٧٥١٧٩١ كم^2 ، ١٦٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت مساحة الامبراطورية الألمانية ٨٣٤٠٠٩ كم٢ ونفوسها ٠٠٠ ٢٦٣٤٤ (فيينا ٠٠٠ ١٦٠ ، ميلانو ٠٠٠ ١٣٠ ، هامبورغ ٠٠٠ ١١٠) . ثم تأتى بعد ذلك الإمبراطورية التيمورية الهندية : ٢٤٣ ١٠٣ ٣ كم٢ ، ٠٠٠ ٠٠٠ ١٤٠ نسمة .

كانت ملكية أسبانيا فى دور الانحطاط ١٥٠٩٨٤٥٥ كم٢ ، ٣٢٤٢٧٠٠٠ نسمة (نابولى ٣١٠٠٠٠ ، المكسيك ١٠٤٠٠٠ ، مدريد ١٠٢٠٠٠ ، باليرمو ٩٥٠٠٠) . الإمبراطورية الروسية ١٨٥ ٥١٧ ١٦ كم٢ ، ٠٠٠ ١٥٠٠٠ نسمة (موسكو ٠٠٠ ١٢٠ ، بطرسبورغ ٠٠٠ ١٠٠) . ومن ثم يمكن ذكر الإمبراطورية الأفغانية لأحمد شاه درانى الكبير (١٧٤٧ - ١٧٧٣) التى اتبعت طريق نادر فى ضرب الإمبراطورية الهندية : ١٦٥٢٠٤٢ كم٢ ، ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٢ نسمة .

كانت ملكية بولونيا التى هى فى دور الانحطـاط ٤٠٠ ٧٩٠ كم٢ ، ٠٠٠ ١٥٦٠٠ نسمة . ملكية بروسيا ٢٢٤ ١٢١ كم٢ ، ٠٠٠ ٢٤٠٠ نسمة (برلين ١٠٥٠٠٠) كانت بروسيا قد دخلت حديثا فى عداد الدول الكبرى بفضل فريدريك الكبير (١٧٤٠ - ١٧٨٦) . جمهورية هولندا ٢٧٤ ١٠٢١ كم٢ ، ٠٠٠ ٧٩٥٠ نسمة . وقد خرجت فى ١٧١٣ من عداد الدول الكبرى (امستردام ٠٠٠ ٢٠٠) . ورغم أن ملكية السويد ٧٩٤٢٧٨ كم٢ و ٠٠٠ ٤٥٠ ٣ نسمة ، فإنه يمكن اعتبار أنها خرجت من عداد الدول الكبرى .

امبراطورية فاس لاسماعيل الكبير (١٦٧٢ - ١٧٢٧) كذلك يمكن اعتبار أنها خرجت من عداد الدول الكبرى بعد وفاته (نفوس فاس مع أقطار الزنوج) : ٣٥٠١٦٩٩ كم٢ ٠٠٠ ٨٠٠٠ نسمة (فاس ٠٠٠ ٢١٠ ، مكناس ٩٢٠٠٠ ، مراكش ٠٠٠ ٩٠) . ولم تكن جمهورية البندقية كذلك فى عداد الدول الكبرى فى ١٧١٥ : ٥١٠٤٠ كم٢ و ٠٠٠ ٣٠٠٠ نسمة (البندقية ٠٠٠ ١٧٠) .

مجموع مساحة الخانات التركية فى تركستان ٥٥١٢٨٠٠ كم٢ وتحوى على ٠٠٠ ١١٥٠٠ نسمة ، كانت الإمبراطوريـة اليابانيـة ٣٧٣٥١٠ كم٢ و ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٠ نسمة .

ومن بين الدول الأوروبية الأخرى : ملكية البرتغال ٨٧٦٨٢٠٥ كم[٢] و ٦٦٠٠ ٠٠٠ نسمة (لشبونه ٢٥٠ ٠٠٠) ، ملكية الدانمارك ٢٥٨ ٩٥٧ كم[٢] و ١ ٧٦٠ ٠٠٠ نسمة ، الملكية العظمى لتوسكانا ٤٨٩ ٢١ كم[٢] و ١٠٥٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية السويد ٤٠٠٣١ كم[٢] و ١٨٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانت أفريقيا ١٣٠٨٩٠٧٩ كم[٢] و ٣٣٠٠٠ ٠٠٠ نسمة وأمريكا الشمالية ١٠٥٤٨ ٣٠٢ كم[٢] و ٣٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ؛ مجهولة تماما من قبل البيض .

كانت توزيع الإمبراطورية العثمانية على القارات بصورة تقريبية كما يلي : فى أوروبا ١١٢٨٠٠٠ كم[٢] و ٢٣٨٠٠ ٠٠٠ نسمة ، فى آسيا ٣ ٩٤٠ ٠٠٠ كم[٢] و ٢٦ ٥٥٠ ٠٠٠ نسمة ، افريقيا ١٠٤٧٠ ٠٠٠ كم[٢] و ٢٥٨٠٠ ٠٠٠ نسمة (٣٠٤٠ ٠٠٠ كم[٢] و ٧٠٠٠ ٠٠٠ نسمة منها ، ملكية بورنو الزنجية المسلمة التابعة إلى البادشاه نظرياً) .

ويمكن تقدير نفوس العالم فى ١٧٠٠ بـ ٦٨٤١٠٤٠٠٠ نسمة وفى ١٧٥٠ بـ ٧٠٠٣٩٩ ٠٠٠ نسمة ، (ليست هناك زيادة مهمة) . وتوزيع النفوس على القارات فى ١٧٠٠ و ١٧٥٠ هو كما يلى : زادت نفوس آسيا من ٤٥٤٩٠٠٠٠٠ - ٤٤٧٠٨٠٠٠٠ ، أوربا من ١٣٤٤١٢٠٠٠ - ١٥٢٣٤٨٠٠٠ أفريقيا من ٧١١١٩٠٠٠ - ٧٥٠٥٥٠٠٠ ، أمريكا الشمالية من ١٠٨٢٣٠٠٠ - ١١٧٢٦٠٠٠ ، أمريكا الجنوبية من ١٠٦١٠٠٠٠ - ١١١٣٠٠٠٠ ، اوقيانيا من ٣١٤٠٠٠٠ - ٣١٤٠٠٠٠ .

٢٦) دور السلطان عثمان خان الثالث (١٧٥٤ - ١٧٥٧)

جلس مكان محمود الأول ، أخوه الصغير عثمان الثالث لمدة سنتين و ٥ أشهر . أبوه ، مصطفى الثانى ، أمه السلطانة - الوالده شهسوار (١٦٨٢؟ - ١٧٥٦/٤/٢٧) . كان وليا للعهد خلال مدة سلطنة أخيه الكبير التى دامت ٢٤ سنة ، شهرين ، ١١ يوما (١٧٣٠/١٠/٢ - ١٧٥٤/١٢/١٣) . رئيس أساتذته هو القضعسكر فيض الله - زاده ابراهيم أفندى . كانت لديه ٤ زوجات ، ولكنه كأخيه الكبير محمود الأول ، لم يرزق بأولاد . لذا فإن السلالة ، لم تستمر من مصطفى الثانى ، بل استمرت من أبنى أخيه أحمد الثالث . إن مدة سلطنة السلطان

عثمان الذى دفن فى مقبرة ينى جامع جوار أخيه الكبير ، عبارة عن سنتين ، شهر ، ١٨ يوما . توفى وعمره يتجاوز الـ ٥٨ بـ ٢٨ يوما . جلس على العرش وعمره ٥٦ عاما ، وهو أكبر السلاطين الذين جلسوا على العرش عمرا إلى ذلك التاريخ .

عثمان الثالث ، من الحكام العثمانيين القليلى الذكر جدا ، وتوجد إمارات تدل على ضعف نصيبه من الخلق العالى . عنيد جدا . صعب المراس ، عصبى ، متردد . لم يتعايش أبدا مع أى صدر أعظم . كان كوسه بدر مصطفى باشا ، صدرا أعظم عند جلوسه على العرش ، وهو ابن الوزير جورلولو صوفو عبد الرحمن باشا . ظل فى مقامه هذا مدة سنتين ، ٧ أشهر ، ١٤ يوما . تصدر حكيم اوغلو على باشا للمرة الثالثة (١٧٥٥/٢/١٥) . لم ينسجم مع البادشاه وعزل بعد ٣ أشهر ويوم بعد نقاش حاد (١٧٥٥/٥/١٨) . مجموع صداراته الثلاث ٥ سنوات ، ٤ أيام . الذى تصدر مكانه ، هو نائلى عبد الله باشا من الرجال المدنيين ، عالم ومن وزراء المالية . عزل بعد ٣ أشهر ، ٧ أيام (١٧٥٥/٨/٢٤) . أما الرجل الشاب بيبقلى على باشا فاعدم بعد ٢ شهرين ويومين (١٧٥٥/١٠/٢٥) . عزل يرمى سكيز جلبى – زاده محمد سعيد باشا بعد أن شغل السلطة مدة ٥ أشهر ، ٧ أيام (١٧٥٦/٤/١) . كان رجلا جيدا ، تواجد فى شبابه فى باريس عندما كان أبوه يرمى سكيز جلبى محمد أفندى سفيرا فيها ، له الفضل فى افتتاح أول مطبعة وطنية ، مؤلف كتب تركية وفارسية . توفى فى ١٧٦١ . أصبح باهر مصطفى باشا صدراً أعظم للمرة الثانية لمدة ٩ أشهر ، ١٠ أيام . واحتل مكانه قوجا محمد راغب باشا (١٧٥٧/١/١١) . دبلوماسى ممتاز جدا عمره ٥٨ عاما ، رجل دولة كبير وشاعر ممتاز . أحسن صدر أعظم فى القرن ١٨ بعد نوشهرلى إبراهيم باشا وحكيم أوغلو باشا .

٢٧) دور السلطان مصطفى خان الثالث (١٧٥٧ – ١٧٧٤)

كان ولى عهد عثمان الثالث ، وابن عمه الذى يصغره بـ ١٨ عاما ، هو السلطان محمد . توفى وفاة عثمان الثالث بـ ٣٩ يوما فقط عن عمر يناهز الـ ٤٠ عاما . كان شهزاده(أمير) نشأ نشأة حسنة ، وفاته أحدثت تأثرا كبيرا . دفن فى ينى جامع جوار أبيه أحمد الثالث . كان أخوه السلطان مصطفى الذى يصغره بـ ١٧ يوما

فقط ، ولى عهد وأصبح بعد ٣٩ يوما بادشاها على أثر وفاة ابن عمه عثمان الثالث . وارتقى أخوه السلطان بيازيد الذى يصغره بسنتين إلى منصب ولى عهد .

مصطفى الثالث ، هو ابن أحمد الثالث . أمه أمينة مهرشاه قادين أفندى (زوجة السلطان) الثانية (١٦٩٣؟ - ١٧٣٢) ، كانت قد توفيت منذ سنين ، وهى والدة الشهزادة سليمان بن أحمد الثالث الكبير ووالدة ولى عهد - شهزادة بيازيد كذلك . دامت سلطنة السلطان مصطفى الذى جلس على العرش وعمره ٤٠ عاما ، مدة تقل عن ١٧ سنة بـ ٨ أيام وتوفى وعمره يزيد على ٥٧ عاما بـ ٤ أيام ، دفن فى قبره الكائن فى جامع لاله لى الذى شيده هو . سمى « غازى » منذ ١٧٦٩ . شاعر وخطاط . سليم الثالث ، هو ابن مصطفى الثالث . ولعدم إنجاب سليم الثالث ، استمرت السلالة من عبد الحميد الأول ، أخ مصطفى الثالث وخلفه . والشهزادة محمد ، الابن الآخر لمصطفى الثالث ، توفى قبل بلوغه سن السادسة (١٧٦٧/١/١٠ - ١٧٧٢/١٠/١٢) . توفيت بناته الخمس قبل بلوغهن سن الـ ٤ ، توفيت السلطانة مهرشاه فى السادسة من عمرها (١٧٦٣/١/٩ - ١٧٦٩/٢/٢١) ، أما بناته الـ ٣ اللواتى عشن فهن : (١) السلطانه شاه (١٧٦١/٤/٢١ - ١٨٠٣/٣/١١) ، جرى عقد قرانها للصدر الأعظم ياغلقجى - زاده حاجى محمد أمين باشا (١٧٢٣ - ك١٧٦٩/١) لكنها لم تزف ، ثم تزوجت بالوزير داماد نيشانجى سيد مصطفى باشا (وفاته ١٨١٣) وأنجبت ٣ بنات . (٢)السلطانة بيخان (١٧٦٦/١/١٣ - ١٨٢٤/١١/٧) ، تزوجت بالوزير داماد سلاحدار بريشان جليك مصطفى باشا (١٧٤٨؟ - ١٧٩٨) وخلفت بنتا واحدة . (٣) السلطانة خديجة (١٧٦٨/٦/١٣ - ١٨٢٢/٧/١٧) ، تزوجت بالوزير داماد سيد أحمد باشا (١٧٤٧ - ١٧٩٩) ، ابن داماد سليمان باشا وأبى داماد علاء الدين باشا .

منحت آخر اكرامية جلوس ، عند جلوس مصطفى الثالث فى ١٧٥٧ ثم تركت هذه العادة بعد ذلك التاريخ . كان مصطفى الثالث ، مجددا وكذلك مشجعا للحركة العمرانية . قام بإصلاحاته الجديدة بعناية ودون إثارة تشكيلات القابو قولو التى يكرهها . لكن هذه الاصلاحات لم تكن كافية وظلت قاصرة . فكر فى فتح قناة السويس . أسس بدلا من المدرسة التى تخرج المهندسين والمسماة « مهندسخانه

همايون » التى كانت قد أسست فيما مضى ، مدرستى « مهندسخانه برى همايون ومهندسخانه بحرى همايون » أى مدرسة الهندسة البرية الهمايونية ومدرسة الهندسة البحرية الهمايونية . الأولى ، جامعة إستانبول التكنولوجية الحالية ، والثانية المدرسة الحربية البحرية . ومن هذه المدرسة تخرج ضباط الاستحكام والمدفعية والبحرية وتم تدريب ضباط الخيالة والمشاة الذين يشكلون نواة الجيش ، فى معسكرات الجيش . ولخشيته من الانكشارية ؛ لم يتمكن من المساس بصنف المشاة . كان هماما ووطنيا . حدث على زمانه زلزال إستانبول الكبير فى ٢٢ أيار ١٧٦٦ . أعاد إنشاء جامعى أيوب سلطان وفاتح اللذين هدما فى الزلزال .

كان ، الصدر الأعظم ، عند جلوسه راغب باشا . توفى بعد صدارة دامت ٩ سنوات و وشهرين و ٢٨ يوما (١٧٦٣/٤/٨) . كان فى سن الـ ٦٤ . لم يملأ الفراغ الذى حدث بوفاته . كانت حرب السنوات السبع فى أوروبا قد انتهت فى عام وفاة راغب باشا ، اسقطت انكلترا ، فرنسا إلى الدرجة الثانية وأصبحت أقدر دولة مسيحية ، أثبتت ملكية بروسيا الصغيرة ، أنها قوة عسكرية لايستهان بها . وبناء عليه ، فإن ميزان قوى الدول فى أوروبا كان قد تبدل . لم يدخل راغب باشا الحرب ، رغم مساندته بروسيا والملك فردريك تجاه روسيا . عاشت تركية عهد استقرار ورفاهية ، فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تشتعل بنار الحرب . لم يكن بالامكان إيجاد حل لضعف بولونيا ، وبالرغم من مساندة العثمانية وفرنسا لها ، فإنها بقيت تحت تهديد ضغوط كل من روسيا ، ألمانيا (النمسا) وبروسيا .

جاء مكان راغب باشا ، نيشانجى حمزه حامد باشا لمدة ٦ أشهر و ٢٣ يوما ، ثم تصدر باهر مصطفى باشا للمرة الثالثة (١٧٦٣/١١/١ - ١٧٦٥/٣/٢٨) . عزل بعد سنة و ٤ أشهر و ٢٧ يوما واعدم بعد ٢٧ يوما . مجموع صداراته الثلاث ٤ سنوات و ٩ أشهر و ٢١ يوما . احتل مكانه داماد محسن - زاده محمد باشا ، رجل الدولة القدير وابن الصدر الأعظم محسن - زاده عبد الله باشا ، عزل بعد ٣ سنوات و ٤ أشهر و ١٠ أيام (١٧٦٨/٨/٧) . لم يتمكن سلاحدار حمزه ماهر باشا البالغ سنه ٤٠ عاما ، من البقاء فى السلطة ، أكثر من شهرين و ١٤ يوما . بدأت على عهده حرب كبيرة جدا مع روسيا .

صار ، ياغلقجي – زاده داماد نيشانجي حاجي محمد أمين باشا ، البالغ سنه ٤٥ عاما ، صدرا أعظم (١٧٦٨/١٠/٢٠) . عزل بعد ٩ أشهر و ٢٣ يوما (١٧٦٩/٨/١٢) . قطع رأسه بعد مدة وجيزة . لم يتمكن قاسطامونيلى مولدوفاجى على باشا ، من البقاء فى الصدارة أكثر من ٤ أشهر و يوم . شغل عوض – زاده خليل باشا ابن عوض محمد باشا ، من الصدور الأعظم السابقين ، منصب الصدارة لمدة ١٠ أشهر و ١٤ يوما (١٧٦٩/١٢/١٢ – ١٧٧٠/١٠/٢٥) . أما داماد سلاحدار محمد باشا ، فظل فى السلطة مدة سنة ، شهر و ١٧ يوما . أصبح محسن – زاده صدرا أعظم للمرة الثانية (١٧٧١/١٢/١١) . ومجموع صدارتيه الاثنتين بفاصل ثلاث سنوات ونصف ؛ ٦ سنوات ، ٤ أيام . توفى على عهده مصطفى الثالث وجلس عبد الحميد الأول .



البحث السابع

دور الانحطاط
(١٧٦٨ - ١٨٢٦)



دور الانحطاط
(١٧٦٨ - ١٨٢٦)

١) الحرب مع روسيا (١٧٦٨ - ١٧٧٤)

بدأت الحرب الروسية – العثمانية الكبرى ، بسبب إدخال روسيا الجنود إلى بولونيا ، رغم مذكرات الاحتجاج العديدة التى أرسلها الباب العالى . أعلنت الحرب على روسيا التى أخذت تطارد الوطنيين البولونيين حتى داخل الأراضى العثمانية (١٧٦٨/١٠/٨) . مر على مصالحة بلغراد ٢٨ سنة و ١٠ أشهر و ١٩ يوما . مرت على تركية فترة صلح غير اعتيادية ، ولعدم دخول الجنود الحرب ، نسوا حتى كيفية القتال . أما الجيش الروسى ، فقد جهزته الإمبراطورة كاترينا الثانية بشكل جيد على الطراز البروسى . حتى ذلك التاريخ . لم تكن دولة أوروبية بمفردها قد استطاعت أن تنتصر على العثمانية .

بدا القتال بصورة فعلية بهجوم شتائى مفاجىء قام به خان قرم كيراى مع جيشه البالغ ١٠٠ ٠٠٠ خيال (١٧٦٩/١/٣١) على اوكراينا وقلبها رأسا على عقب وعاد مع مئات الألوف من الأسرى . أما الصدر الأعظم والسردار الأكرم ياغلقجى – زاده محمد أمين باشا ، فسار من إستانبول (١٧٦٩/٤/٣) ووصل Isakel (١ أيار) على الطونه فى شمال Dobruca وظل فيها ٢٥ يوما . وخلال قضاء الصدر الأعظم وقته مع الجيش الهمايونى فى دوبروجه ، بدأ القتال فى خوتين على نطاق واسع .

خوتين ، باب بولونيا ، تقع على نهر دنيستر وعلى نقطة عرض ٤٨ ٣٠ . لايمكن دخول الروس إلى بولونيا ورومانيا ، دون إسقاط هذه القلعة ، إلا أن يكون ذلك استيلاء مؤقتا . أما القلعة العثمانية القديمة كامانيجه (Kamenec Podolsk) الواقعة فى الضفة المقابلة من دنيستر ، فهى الآن بيد الروس ، وترى خوتين على الضفة المقابلة ، وكانت مدينة جرنوفيج الواقعة على مقربة من جنوب - غرب خوتين ، لدى العثمانية . ولأهميتها الاستراتيجية هذه ، اجتاز الأمير Galitsin مع ٦٥٠٠٠ جندى فى ٢٦ نيسان (١٧٦٩) ، دنيستر ودخل الأراضى العثمانية ، وبعد ٤ أيام وصل أمام خوتين . ولكن الجيش العثمانى الذى خرج فى اليوم الأول من أيار ، شتت الجيش الروسى . لم يتمكن الأمير من لم جيشه وتنظيمه قبل مضى ٣ أشهر و ١٢ يوما ، ثم جاء ثانية أمام خوتين . خرج آخيسكالى حسن باشا من القلعة وهزم الجيش الروسى مرة أخرى (١٢ آب) . لكن الجيش التركى الذى كان تحت إمرة قادة لايفقهون العسكرية ولم يسبق أن دخلوا الحرب ، كان فى حيرة من أمره . تركت حامية خوتين - التى استاءت من سحب الصدر الأعظم الجيش إلى اساكجى لغرض قضاء الشتاء - القلعة وتبعت الجيش . عندما دخل الأمير Galitsin فى ٢١ أيلول إلى القلعة شاهد بدهشة ، عدم بقاء جندى تركى واحد ، ووجود ٣٠٠ مدفع وبجواره عتاد ضخم ترك على حاله . وهكذا ، انقلبت الحرب التى بدأت بانتصار الأتراك ، إلى سقوط خوتين فى خريف عام ١٧٦٩ ، بيد الروس . دخل الروس إلى قفقاسيا كذلك واستولوا على بعض الأراضى التابعة للعثمانية .

كان الأسطول الروسى فى بحر البلطق ، بسبب كون البحر الأسود بحيرة عثمانية مغلقة . فى عام ١٧٦٨ ، أبحر الأسطول الروسى من Kronstadt المركز البحرى له فى خليج فنلنده متوجها إلى المحيط الأطلسى ، واجتازه إلى البحر الأبيض . أخبر السفير الفرنسى الكونت - Saint Priest ، الباب العالى ، بتحرك الأسطول الروسى إلى البحر الأبيض . لكن أحدا من الوزراء ، لم يصدق إمكان اجتياز أسطول العدو لتلك البحار ووصوله إلى المياه العثمانية . (كان بعض الوزراء لايصدقون وجود أسطول روسى بالمعنى الصحيح) . كان أغلب قادة الجيش الروسى جنرالات ألمان ويحوى أسطولهم على أميرالات وضباط انكليز . كان على رأس الأسطول - فى الظاهر - أحد عشاق الإمبراطورة Kont Aleksiy Orlov ، لكن قيادة الأسطول الروسى ،

كانت فى الحقيقة ملقاة على عاتق الأميرال الأسكتلندى Elphiston ومعاونيه الضابطين الانكليزين Dugdale, Gregg .

أنزل الأسطول المكون من ٢٤ سفينة حربية وسفن عديدة مساعدة أخرى ، جنودا فى مورا وأدى ذلك إلى تمرد الروم . جاء محسن – زاده محمد باشا إلى مورا وقذف الروس إلى البحر وقتل ٧٠٠٠٠ من الروم العصاة الذين تجمعوا فى تريبوليجه وسفكوا الدم العثمانى فى مورا (١٧٧٠/٤/٩) . دخل الروس إلى بحر إيجه لتعويض اندحارهم فى مورا .

تقابل الأسطولان العثمانى والروسى فى شمال ساقيز ، غرقت سفينة من كل منهما . انسحب Elphiston من مجال القتال على أثر مشاهدته غرق سفينة الأميرال Spiridov وغرق ٧٠٠ روسى وإنقاذ الكونت Fedor من البحر بصعوبة (صباح ٦ تموز ١٧٧٠) . كان القتال قد استمر مدة ٤ ساعات . القبطان دريا (مشير البحر ، قائد القوات البحرية) ، كان قانعا بانسحاب الروس . رست السفن بصورة متقاربة ودون احتياط . اقتربت إلى الميناء ليلا سفينتان صغيرتان من السفن المساعدة الروسية التى يقودها Dugdale . أراد العثمانيون فى البداية اغراقهما . انتظروا اقترابهما بعد أن قررتا انهما قادمتان لغرض اللجوء . وكانتا فى الحقيقة سفينتى احراق (بالفرنسية : brulot) . كانت فكرة جريئة لـ Elphiston . أشعلت قنابل الحريق التى أطلقتها السفينتان ، شراعات السفن التركية الشراعية وانتقل الحريق إلى السفن الأخرى التى رست جنبا إلى جنب ، ثم انفجرت المعدات الموجودة بالسفن . إحترق الأسطول العثمانى برمته ، عدا سفينتين . دخل الفستون ، ميناء جشمه وقصفه . نجا أكثرية أفراد البحرية العثمانية بقفزهم إلى البحر فى بداية الحريق . أحدثت غارة جشمه هذه (ليلة ٧/٦ تموز ١٧٧٠) صدى عظيما فى أوروبا ، وزادت من اعتبار روسيا . حاصر الروس ميناء Mondros فى جزيرة ليمنى مدة شهرين . أجبر جزائرلى حسن باشا-الذى سار إلى الروس بـ ٢٣ قطعة بحرية – أسطول العدو على التراجع . منح رتبة القبطان دريا وبصورة رسمية لقب « غازى » .

احتل الكونت Romanzov قسماً كبيرا من بغدان (Moldavya) بواسطة ٣٠٠٠٠ جندى . أما الكونت Panin فبدأ بحصار قلعة Bender بواسطة ٦٠٠٠٠

جندى . كانت بندر قلعة عثمانية مهمة فى Besarabya على الساحل الجنوبى من Dnyestr (بالتركية تورلا) ، قرب مدينة كيشنيف Kisnev . انهزم الصدر الأعظم والسردار الأكرم عوض - زاده خليل باشا ، أمام رومانزوف فى موقع كارتال (بالرومانية : Kagul) قرب ايساكجى (١٧٧٠/٨/١) . ذبح بالسيف ٥٠٠٠٠ جندى عثمانى الذين طوردوا بعد تركهم القتال وهروبهم . وبذلك ، سقطت Bender (١٧٧٠/٩/٢٧) . ذبح الروس الذين تكبدوا خسائر كبيرة فى بندر ، كافة المسلمين بالسيف . الآباء الأتراك الذين قتلوا بأيديهم نساءهم وأولادهم بالخناجر ؛ رموا بأنفسهم بين صفوف الروس ليستشهدوا .

وعلى هذا ، كانت روسيا هى المنتصرة فى الحرب فى بداية خريف عام ١٧٧٠ . وهذه ، نقطة تحول فى التاريخ ، فلأول مرة فى التاريخ تغلب دولة اوروبية لوحدها فى حرب شاملة ، الدولة العثمانية . إن تركية التى كانت حتى هذا التاريخ ، الدولة الأولى فى العالم ، سقطت من حيث القدرة إلى الدرجة الرابعة بعد انكلترا ، فرنسا ، روسيا بالتسلسل .

بدأ الأمير Dolgoruki مع ٩٠٠٠٠ جندى بمحاصرة أورقابو (بالروسية : Perekop) وهى مدخل لقرم واحتلها بعد محاولات دامت ٣ أشهر (١٧٧١/٦/٢٤) . وعدت الإمبراطورة ، خان قرم سليم كيراى الثالث ، بأنها ستعترف بقرم ، دولة مستقلة ، فى حالة انفصاله عن العثمانية . فرق هذا الوعد القرميين إلى فريقين ؛ فريق يريد الاستمرار فى القتال ولايريد الانفصال ، وفريق سيطرت عليه رغبة تكوين دولة مستقلة ، يريد عقد صلح مع الروس ، والانفصال عن العثمانية .

كان جيش قرم المكون من ٨٠٠٠٠ خيال ، جيش قرون وسطى ، لايمكنه دخول حرب جديدة دون مساندة المدفعية والوحدات الفنية الأخرى للجيش العثمانى ، وكان هذا الجيش مفيدا فقط كوحدات للصاعقة . تخلى عن العرش ، سليم كيراى الذى لايرغب فى الدفاع عن قرم منقسمة إلى شطرين ، وجاء إلى إستانبول . ذهب ابناه إلى بطرسبورغ ، لغرض التفاوض مع الإمبراطورة حول استقلال قرم المزعوم . لم يحارب الجيش القرمى وحاربت الوحدات العثمانية الموجودة فى قرم فقط ، واستسلموا مع قائدهم القرمى الونير سلاحدار إبراهيم باشا (١٧٧١/٧/٣) . استولى

الأمير Dolgoruki على كامل الجزيرة . وبذلك انتهى حكم العثمانية الفعلى فى قرم بعد ٢٩٦ عاما . اتضح بشكل مؤكد ، أن روسيا انتصرت فى الحرب بشكل حاسم وأن الدولة العثمانية ، ليست هى الدولة العالمية الأولى ، حققت روسيا حلمها القديم ، وهبطت إلى البحر الأسود بشكل واسع . لم يعد البحر الأسود بعد الآن بحيرة عثمانية . بدأ استيلاء روسى مفجع على الجزيرة التى تضم مليونا ونصف مليون تركى .

وخلال عام ١٧٧١ استولى الروس على بغدان (مولدافيا) ثم على أفلاق (رومانيا) كذلك . ورغم أن الجنرال Essen أراد عبور الطونه نحو الجنوب بجيشه البالغ ٢٠٠٠٠٠ ، فإنه عدل عن ذلك عند تكبده الخسائر (١٧٧١/٩/١٢) . أراد الصدر الأعظم محسن - زاده محمد باشا ، استرجاع بخارست . انهزم فى Dumbovitza أمام الجيش الروسى البالغ عدده ٣٠٠٠٠ جندى (١٧٧١/١٠/٣٠) . استولى الروس الذين طفروا إلى جنوب دلتا الطونه ، على تولجا ، وعلى أثر اقترابهم من باباداغى ، سحب القائد محسن - زاده مقره الموجود فيها ونقله إلى حاجى أوغلو بازارى ، فى شمال فارنا . (وعند مجيئه إلى شومنو ، لقضاء الشتاء ، علم بإعادة تعيينه صدرا أعظم) . إزاء ذلك لم يتمكن الروس من اسقاط القلاع التركية الموجودة فى اوديسا وجوارها الكائنة على البحر الأسود ، وانسحبوا بعد تكبدهم الخسائر .

خارت أنفاس الروس الذين حققوا فتوحات كبيرة . لم يقوموا بأية حركات مهمة خلال عام ١٧٧٢ . أنفقت كاترينا الثانية ، كامل خزينتها الاحتياطية فى الحرب كما فعل مصطفى الثالث . كانت فرنسا وألمانيا (اوستريا) تتبعان سياسة خارجية موالية للعثمانية بسبب قلقهما من التوسع الروسى ، وخشيتهما بوجه خاص من ابتلاع روسيا لبولونيا . أما بروسيا وانكلترا فكانتا تتبعان سياسة موالية لروسيا . ولكنهم كانوا جميعا يبذلون جهدهم للابتعاد عن نار الحرب . جرت مفاوضات صلح ، لكنها لم تصل إلى نتيجة ، إزاء طلبات الروس المفرطة .

أظهرت الحركات الفاشلة التى قام بها الروس فى عام ١٧٧٣ أنهم قد استنفدوا قدرة الهجوم ؛ فمثلا ، فشل الجنرال Unger أثناء عزمه على استيلاء فارنا (١٧٧٣/١٠/٢٠) . عقد مؤتمر صلح فى قصبة كوجوك قاينارجه قرب الطونه فى ربيع عام ١٧٧٤ . كان الأمير Renin والماريشال Romanzov ممثلين عن روسيا

وكتخدا الصدارة (وزير الداخلية) الدبلوماسى الشهير رسمى أحمد أفندى ورئيس الكتاب (وزير الخارجية) الدبلوماسى المعروف كذلك منيب أفندى ممثلين عن العثمانية .

٢) معاهدة قاينارجه (١٧٧٤/٧/٢١)

يومان من المفاوضات ، كانا كافيين للاتفاق على أسس المعاهدة . ورغم أن الممثلين العثمانيين وقعوا على المعاهدة فى ١٧ تموز ، فقد أخر الأمير Renin التوقيع مدة ٤ أيام ووقعها فى ٢١ تموز ، هو يوم ذكرى محزنة لروسيا ، يوم الذكرى الـ ٦٣ لمعاهدة Prut .

احكام المعاهدة المكونة من ٢٨ مادة ومادتين إضافيتين ، كالتالى :

تنفصل خانية قرم ، عن العثمانية ، وتكون دولة مستقلة . روسيا تعترف بصورة رسمية بالخاقان العثمانى خليفة لكافة المسلمين . وبناء على ذلك ، فان تبعية خان قرم للخاقان من الناحية الدينية وتنظيم الأمور الدينية لقرم من قبل شيخ الإسلام فى إستانبول ؛ لاتعتبر منافية لاستقلال قرم . على الجيش الروسى . أن ينسحب من قرم فى أول فرصة تراها روسيا مناسبة . يكون التتار الذين يسكنون على ساحل البحر الأسود التى يسميها الأتراك « بوجاق » فى بيسارابيا ، والتتار الذين يسكنون فى المنطقة التى تسمى « كوبان » فى بحر آزاك ، مستقلين عن الأتراك ، ويشكلون مناطق محايدة عازلة بين روسيا والعثمانية . تترك تركية ، إلى روسيا ساحل البحر الأسود القصير الواقع بين نهرى Bug (بالتركية : آقصو) و Dnyepr (بالتركية : اوزو Özö) ، ميناء كرج المسيطر على مضيق كرج فى قرم وميناء آزاك (Rostov) الواقع فى نهاية بحر آزاك وحواليهما. تبقى لدى تركية سواحل البحر الأسود الواقعة بين Bug و Dnyestr (بالتركية : تورلا) ، وبضمنها Özö وخوجاباشا (Odessa) . تعطى تركية الإمارتين الرومانيتين (أفلاق وبغدان) الاستقلال النسبى ، وسوف يأخذ الباب العالى بعين الاعتبار الطلبات المعقولة من الناحية الدينية لروسيا فى هذه الامارات الارثوذكسية . تعامل العثمانية الملايين من تبعيتها الارثوذكس بشفقة . تستفيد روسيا كذلك كانكلترا وفرنسا من الحقوق

التجارية والعدلية المسماة « Capitulation » فى الإمبراطورية العثمانية . ولأن البحر الأسود سيكون مشتركا بين الدولتين ، فسوف تبحر فيه السفن التجارية الروسية بحرية، وتمر بحرية كذلك من المضايق إلى البحر الأبيض وبالعكس . ستسدد تركية لروسيا خلال ٣ سنوات ، غرامات حرب مقدارها ٧٥٠ مليون آقجه .

على الرغم من أن معاهدة قارينارجه لم تفقد تركية سوى اراض قليلة جدا بالإضافة إلى قرم ، فإنها تعتبر من أتعس المعاهدات التى وقعت عليها تركية على مدى تاريخها .

يشير تحليل الاتفاقية باختصار إلى النتائج التالية :

ترفع المعاهدة روسيا دفعة واحدة إلى الدرجة الثالثة بين الدول بعد انكلترا وفرنسا ، أما تركية فتسقطها مرة واحدة من القمة إلى الدرجة الرابعة .

ينتهى تحكم العثمانية فى البحر الأسود ، ولايقف الأمر عند حيازة روسيا ساحلا لأول مرة ، بل يكون خروجها إلى البحر الأسود بشكل موسع . ومن الطبيعى أنها ، ستؤسس بعد ذلك فى البحر الأسود موانىء لإنشاء وتصليح السفن ويكون لها أسطول فيه ، وإن كانت ستستعمل هذا الأسطول فى البحر الأسود فقط لعدم إمكانها إمرار سفنها الحربية من المضايق ، (المسموح به فقط هو السفن التجارية) .

بسبب وجود رعايا أرثوذكس كثيرى العدد فى الدولة العثمانية والعطف المتوالى على المذهب الارثوذكسى ، فسوف تكون الأمور الدينية هذه ، ذريعة لتدخل روسيا فى شئون العثمانية ، وسوف تبدأ برومانيا .

مع الاعتراف رسميا بأن البادشاه هو خليفة لكافة مسلمى العالم ، إلا أن هذا لايعنى أن البادشاه سيمكنه التدخل فى شئون المسلمين فى روسيا ، لأن تدخلا كهذا ، لايمكن تحقيقه إلا بالقوة العسكرية ، ومن الواضح أن تدخل الطرف الضعيف سيبقى رمزيا فقط .

تدفع الدولة العثمانية غرامات حرب لأول مرة فى التاريخ .

يترك مستقبل قطر صغير كقرم ، القطر التركى منذ ١٥ قرنا والذى يسكنه ١/٥ مليون تركى (يعتبر هذا الرقم عاليا جدا بالنسبة إلى ذلك الزمن) وذى الأهمية الاستراتيجية الكبرى ، بشكل تام إلى نوايا روسيا الطيبة .

دخلت العثمانية هذه الحرب ، التى ساقتها إلى الدمار ، فى سبيل استقلال بولونيا . وقد خشيت كل من فرنسا وسويسرا اللتين تؤيدان استقلال بولونيا بنفس الدجة ، من دخول الحرب . لأنهما ، خشيتا من دخول انكلترا وبروسيا اللتين تتبعان نفس سياسة انكلترا . إن الدولة العثمانية التى لم تستطع الدفاع عن بولونيا ، صارت فى وضع تجهل فيه تماما ، مايمكنها أن تعمله لهذه الدولة بعد الآن ، وبناء على ذلك فسوف تبقى بولونيا دون مدافع ومفتوحة أمام نوايا جاراتها السيئة. والواقع أن روسيا ، لايمكنها وضع اليد على كامل بولونيا دون أن تعطى حصة لكل من جارتيها ألمانيا (اوستريا) وبروسيا ، وحينئذٍ تكون معرضة للصدام مع اتحاد تركى – سويدى – بروسى – ألمانى – فرنسى مخيف . ولكن فى حالة منحها حصة لألمانيا وبروسيا ، فسوف لايكون هناك اتحاد سياسى يمنعها من اقتسام بولونيا . وفى الواقع فان روسيا أظهرت استعجالا بدرجة ما ، باقتسامها بولونيا الاقتسام الأول فى ١٧٧٢ مع بروسيا وألمانيا قبل انتهاء الحرب العثمانية ، ولكن فور احتلالها لقرم وتيقنها بانتصارها فى الحرب ، صارت بولونيا بعد الآن ، « بولونيا صغيرة » ، خرجت عن نطاق الدول العظمى إلى درجة أنها كانت حتى فى حدودها الجديدة هذه ، معرضة لتقسيم جديد .

أعطيت فى معاهدة قاينارجه ، صلاحية تعيين خانات قرم إلى تركية ، وبالأحرى إلى الخاقان – الخليفة ، وقد كان ذلك لمجرد إظهار أن قرم مازالت تابعة للعثمانية ؛ لكن الحقيقة هى أن روسيا كانت تتحفز لضمها فى أول فرصة . وصار من الواضح أن العثمانية ليس لديها القدرة على منع ذلك .

خوتين ، كانت لاتزال لدى العثمانية ، كأنها ذكرى تاريخية لها فى الشمال بين أوروبا الوسطى والشرقية . لقد أبقيت خوتين فى حوزة العثمانية لأن انتقالها إلى روسيا ، سوف يولد المزيد من شكوك ألمانيا . وحقيقه الحال ، أن العثمانية لم تعد فى وضع يمكنها من أن تستعمل خوتين كضمان لاستقلال بولونيا ، كما أن تأمينها القوة التى تستطيع بها تحقيق ذلك كان من الصعوبة بمكان . وبالإضافة إلى مامضى فإن بولونيا كانت قد قسمت التقسيم الأول . إن التقسيم الأول لبولونيا ، لم يكن بالمعنى الصحيح وعلى المدى الطويل فى صالح ألمانيا (النمسا) ، ولا فى صالح بروسيا ، وإنما كان فى صالح روسيا فقط ؛ كان يقرب روسيا ، بصورة أكثر إلى أوروبا الوسطى ، ويجعلها جارة للبلاد الألمانية .

لقد اشتركت فيينا وبرلين فى التقسيم للحيلولة دون ابتلاع روسيا لكامل بولونيا . ولم تكن هذه الأمور ، بعد ، لتشغل بال انكلترا التى أصبحت الدولة العالمية الأولى .

كانت أوروبا البرية ، خارج نطاق السياسة العالمية لانكلترا ؛ فقد كان اهتمام انكلترا موجها إلى القارات الأخرى والمستعمرات . كانت فرنسا فى هذا التاريخ ، هى المنافسة لها فى هذا المجال ، ولم تكن روسيا . وبناء على ذلك ، كانت انكلترا مستعدة لمساندة أى اتفاق ضد فرنسا . اقتسام بولونيا ، كان مخلا بالاعتبار إلى درجة كبيرة كذلك بالنسبة إلى السياسة الخارجية الفرنسية . استمرت الحرب ٥ سنوات و ٩ أشهر و ١٤ يوما،وضعضعت أركان الدولة العثمانية . أظهرت أن الجيش العثمانى فقد روح القتال والقدرة عليه ، وإذا لم يكن الأمر كذلك تماما ، فإن هذه الروح وهذه القدرة قد قلت لديه كثيرا ، وعلى ذلك فانه يكون فقد قوته المهابه والرادعة . ويكون من الصعب عليه،بعد الآن ، وقف تدفق السلاف إلى البلقان وقفقاسيا . لقد كان المد السلافى ، ينساب كذلك نحو الغرب واوروبا الوسطى ، ضد العرق الجرمانى .

ينهى هامر التاريخ العثمانى الكبير بمعاهدة قاينارجه ١٧٧٤ هذه . يبدأ جودت باشا بالتاريخ العثمانى الكبير لفترة ٥٠ سنة اعتبارا من هذه المعاهدة .

حاولت العثمانية منذ هزيمة فيينا ١٦٨٣ وحتى هذا التاريخ ، المحافظة على وضعها كدولة عالمية أولى . خرجت فى ١٦٨٣ من كونها دولة عالمية . لكن قوتها العسكرية والبحرية ، كانت لاتزال تخيف العالم قرابة عصر كامل إلى وقت الحرب الروسية ، فقد كانت لاتزال فى الوضع الذى لم تستطع فيه دولة منفردة الانتصار عليها . كانت لاتزال تحكم الأقطار العظيمة فى القارات الثلاث . ولعدم تحقيق الانقلاب الصناعى فى اوروبا حتى ذلك التاريخ ، كانت بعض الأقطار العثمانية – وإن لم تكن بكاملها – داخلة ضمن الأقطار العالمية الغنية .

إن الحرب التى بدأت فى ١٧٦٨ ، والتى أخذت تميل نحو هزيمة تركيا فى ١٧٧٠ ، ثم اكتسبت الهزيمة صفتها الأكيدة بالاحتلال الروسى لقرم فى ١٧٧١ ثم تسجيل ذلك الوضع فى ١٧٧٤ .. هذه الحرب جعلت تركية العثمانية تهبط دفعة واحدة من وضعها كدولة عالمية أولى ، إلى المرتبة الرابعة ، دون مرورها بالمرتبتين الثانية والثالثة .

وبناء على ذلك ، تفتح صفحة جديدة فى تاريخ الدولة العثمانية . تبدأ بالبحث عن وسائل الإصلاح ، بعد الهزيمة .

ولوجود جيش مغلوب ، فإنه من الطبيعى أن يؤمن الأتراك بأن الإصلاح ينبغى أن يبدأ من الجيش .

لكن الجيش موزع ومفرق إلى عصابات ، اشبه ماتكون بالميليشيات ، ويرفض أن يكون من نفسه جيشا جديدا ، ويخشى من حرمانه من امتيازاته ، وكسبه غير المشروع ، ومايقوم بنهبه .

بسبب ذلك ، أقدم البادشاهات وقسم من الصدور العظام والوزراء على الإصلاح بتردد ، رغم أنهم يؤمنون بضرورته .

لم يتحقق إصلاح جذرى . عرضت زمرة القابوقولو ، ثورة كهذه ، بقطع الرءوس . عاشت الدولة مثل هذه المغامرة فى الفترة التى استمرت حتى ١٨٢٦ . التجديد ، لم يكن بشكل جذرى . بينما كانت فى اوروبا ، فترة النصف قرن التى استمرت حتى ١٨٢٦ ، هى الفترة التى حدث فيها الانقلاب الصناعى ، وصلت رءوس الأموال إلى مبالغ ضخمة . بدأت التكنولوجيا تدخل فى صلب الجيش والبحرية وتصبح لاغنى عنها ، بدأت الميكنه فى انكلترا فى صناعة النسيج ، وتحولت المصانع الصغيرة إلى مصانع ضخمة ، فزاد الإنتاج وأخذ يغزو الأسواق الخارجية ، انتقل هذا الانقلاب – الذى هو المرحلة الأولى للانقلاب الصناعى – فورا إلى فرنسا ومنها إلى دول أوروبا الغربية الأخرى ، وبعدها ، إلى كافة أوروبا تقريبا . أما الدولة العثمانية التى لم تتمكن من إيجاد الفرصة المناسبة لاتخاذ قرار التجديد الجذرى ، الا فى ١٨٢٦ ، فقد وجدت أمامها أوروبا بكاملها تقريبا ، قد تمكنت من تحقيق الانقلاب الصناعى ، ووجدت أوروبا الغربية ، قد اقتربت من المرحلة الثانية من هذا الانقلاب . وسوف نعرض فى الكتاب السابع ، هذا الدور الذى يتميز بتجارب التجديد التى لم توفق إلى تحقيق تغيير جوهرى فى الداخل . أما فى الخارج فسنجد أنه دور يتميز بسياسة استقطاع الدول الأوروبية الكبرى ، التى شخصت ضعف الدولة ، قطعا من العثمانية .

٣) دور عبد الحميد الأول (١٧٧٤ - ١٧٨٩) ، قضية قرم

مات مصطفى الثالث ، بسبب تأثره من الحرب الروسية . وعند جلوسه على العرش ، كان أخوته بيازيد ، ونعمان ، وعبد الحميد أولياء العهد الأول والثانى والثالث بالتسلسل . وبوفاة الشهزادة نعمان (١٧٦٤/١٢/٢٩) صار السلطان عبد الحميد ولى عهد ثانى وبوفاة أولو شهزادة بيازيد (١٧٧٠/١٢/١٩) ، أصبح ولى عهد السلطنة . وبعد ولايته للعهد لمدة ٣ سنوات ، جلس بعد وفاة أخيه الكبير الذى دامت سلطنته ٨ سنوات ، وشهرا ، و٢٣ يوما . وكان عمره ٤٩ عاما تقريبا (٤٨ سنة ، و ١٠ أشهر ، و ٣ أيام) .

عبد الحميد الأول ، هو أصغر أبناء أحمد الثالث . توفيت أمه رابعة شرمى قادين عام ١٧٣٢ ، عندما كان السلطان عبد الحميد فى الـ ٧ من عمره . وعند وفاة أبيه المخلوع ، كان عمره ١١ عاما . استمرت السلالة العثمانية إلى يومنا هذا ، من السلطان عبد الحميد الأول هذا فقط . منح لقب « غازى » بصورة رسمية فى ١٧٨٨/٩/٢١ . دامت سلطنته مدة ١٥ سنة و شهرين و ١٧ يوما . توفى وعمره يتجاوز الـ ٦٤ بـ ١٨ يوما . ومنذ ١٥٦٦ ، أى منذ عهد القانونى ، لم يبلغ أى بادشاه هذا القدر من العمر . دفن فى مقبرة الحميدية فى بقجه قابو .

توفى لعبد الحميد الأول ٩ شهزاده (أمير) و ١٢ ابنة فى سن صغيرة . وأطول من عاش ، هما شهزاده سليمان (١٧٧٩/٣/١٣ - ١٧٨٦/١/١٩) وشهزاده محمد (١٧٧٦/٨/٢٢ - ١٧٨١/٢/٢٠) . واولاده الآخرون هما مصطفى الرابع (١٧٧٩/٩/٨ - ١٨١٨/١١/١٦) ومحمود الثانى (١٧٨٥/٣/٢٠ - ١٨٣٩/٧/١) واستمرت السلالة من هذا الأخير . أما بنات عبد الحميد الأول فهن : (١) اختر - ملك خانم (١٧٥٨ - ١٧٨٦) تزوجت بابن الصدر الأعظم محمد عزت باشا ورزقت منه بابن واحد . (٢) السلطانة عائشة در شهوار (١٧٦٧ - أيار ١٨٢٦) ، تزوجت بالداماد أحمد نظيف أفندى (١٧٤٧؟ - ١٧٨٩/٥/٢١) ورزقت منه بابنتين أحداهما زوجة ابن الصدر الأعظم قوجا يوسف باشا . (٣) السلطانة أسماء (١٧٧٨/٧/١٧ - ١٨٤٨/٦/٤) ، هى زوجة قبطان دريا (مشير البحر) الوزير داماد كوجوك حسين باشا (١٧٦١ - ١٨٠٣/١/٨)

ولم تنجب أولادا . (٤) السلطانة هبة الله (١٧٨٩/٣/١٦ - ١٨٤١/٩/١٨) . زوجة الداماد الوزير علاء الدين باشا (١٧٧٤؟ - ك١٨١٣/٢) ولم تنجب أولادا . علاء الدين باشا هذا ، هو ابن سيد أحمد باشا صهر مصطفى الثالث الذى هو ابن سليمان باشا صهر أحمد الثالث .

حدثت فى عهد عبد الحميد الأول ، حرب إيرانية استمرت ٤ سنوات تقريبا (١٧٧٥ - ١٧٧٩) . البادشاه الذى وقع على معاهدة قاينارجه بعد ٦ أشهر من جلوسه ، جابه إيران بعد عدة أشهر . ظهرت فى هذه الأثناء سلالة تركمانية جديدة ، وهم القاجاريون ، يحاولون جمع شمل إيران . من منافسى تلك السلالة ، كريم خان زند ، بدأ بمحاصرة البصرة فى آذار (١٧٧٥) . على أمل أنه إذا انتصر على العثمانية التى خرجت من الحرب الإيرانية منهزمة ، سيقضى على القاجاريين . أعلن الباب العالى الحرب على إيران (١٧٧٦/٥/٢) . سقطت البصرة فى نيسان ١٧٧٦ بعد صمودها للحصار مدة ١٣ شهرا وبقيت فى الحكم الإيرانى ٣ سنوات تقريبا . هزم السرعسكر (قائد) الوزير حسن باشا بكلربك الموصل ، الجيش الإيرانى فى معركتين ميدانيتين (٢٢/ ١٧٧٧/٤ ، ١٧٧٧/٥/٥) . جرت الثانية فى اردلان قرب سينه . دخلت الحرب بعد ذلك فى فترة التوقف وانتهت بإعادة البصرة إلى العثمانية دون حدوث أى تغيير .

توفى الصدر الأعظم والسردار الأكرم محسن - زاده داماد محمد باشا إثر اشتداد مرضه نتيجة تأثره بمعاهدة قاربنارجه ، فى الطريق أثناء عودته إلى إستانبول (١٧٧٤/٨/٤) . دامت صدارته الثانية سنتين ، ٧ أشهر ، ٢٤ يوما ومجموع صدارتيه ٦ سنوات ، ٤ أيام . أعقبه الصدور العظام التالية أسماؤهم : عزت محمد باشا ، الذى كان قائمقام الصدارة فى إستانبول ، البالغ عمره ٥٠ عاما ، صدرا أعظم وهو من سلالة روم محمد باشا ، أحد الصدور العظام فى عهد فاتح . عزل بعد ١١ شهرا ، ٣ أيام (١٧٧٥/٧/٦) ، ثم جاء كتخدا الصدارة دارنده لى جبجى - زاده محمد باشا لمدة سنة ، ٥ أيام ، ثم فى (١٧٧٨/٩/١) اغا الانكشارية قالافات محمد باشا لمدة ١١ شهراً ، ٢٠ يوما ، أعقبه فى (١٧٧٨/٨/٢١) سلاحدار عربسونلى قره محمد باشا لمدة سنة ، ٥ أشهر ، ٢٩ يوما . وبهذا يكون ٦ أشخاص مختلفين باسم محمد باشا ، تصدروا الواحد تلو الآخر . وبوفاة قره محمد باشا

(١٧٨١/٢/١٩) تصدر مجددا ، عزت محمد باشا الذى كان بكلربك ارضروم ، لمدة سنة ، ٦ أشهر ، ٤ أيام ومجموع صدارتيه سنتان ، ٥ أشهر ، ويوم . عزل علائيه لى يكن محمد باشا (١٧٨٢/٨/٢٥) بكلربك روملى الذى أحتل مكانه ، بعد ٤ أشهر ، ٦ أيام (١٧٨٢/١٢/٣١) . وأخيرا أعتلى السلطة أول صدر أعظم لم يكن أسمه محمد ، وهو اسبارطه لى خليل حميد باشا .

كان خليل حميد باشا فى سن ٤٦ . وكان مصلحا . ولكنه بدلا من أن يتعاون مع البادشاه الذى كان مصلحا كذلك ، أراد خلع السلطان عبد الحميد الأول ، وجعل ابن أخيه ولى العهد السلطان سليم الذى يفوقه رغبة فى الإصلاح ، خاقانا . اكتشفت المؤامرة . عزل (١٧٨٥/٣/٣١) بعد صدارة دامت سنتين ، ٣ أشهر . وأعدم . وبالرغم من علم ابن أخيه (الذى سيكون سليم الثالث فى المستقبل) ، بالمؤامرة وعدم إخباره بها ، لم يمسسه السلطان عبد الحميد بسوء ، لكنه حدد حركاته نسبيا بعد ذلك حيث كانت كل الآمال متعلقة بالسلطان سليم ؛ إذ إن أبناء عبد الحميد الأول كانوا لايزالون اطفالا . كان ولى عهد - شهزاده (الامير ولى العهد) ، يرسل سفيرا بصورة شخصية إلى لويس ١٦ ملك فرنسا ويتراسل معه . عرقلت محاولة خليل حميد باشا الفاشلة ضد البادشاه ، حركة الاصلاح . لأن رجال البادشاه الآخرين المنتقدين له:قره - وزير محمد باشا الذى توفى قبل مدة ، صهر البادشاه نظيف أفندى وقبطان دريا (الاميرال الكبير) جزائرلى غازى حسن باشا - كانوا كلهم محافظين ولايرغبون فى الاصلاح الجذرى . جاء محافظ اوزو إلى إستانبول وتصدر لمدة ٩ أشهر ، ٢٤ يوما . احتل مكانه قوجا يوسف باشا (١٧٨٦/١/٢٤) . ازداد نفوذ قبطان دريا جزائرلى حسن باشا ، إلى حد التحكم على الصدر الأعظم . وقوجا يوسف باشا هذا ، كان كذلك من جماعة حسن باشا الملتزمين ، وولده المعنوى . لكنه كان رجل دولة قديرا . وهو الصدر الأعظم الأخير لعبد الحميد الأول ، والأول لسليم الثالث .

سببت معاهدة كوجوك قاينارجه اختلال التوازن الدولى . لم تحل مشكلة واحدة ، وتمخضت فقط ، عن روسيا كبيرة . لم تطبق روسيا المادة التى تنص على إخلاء قرم من الجيش الروسى . وكذلك لم تخل الدولة العثمانية مناطق بوجاق (بيسارابيا الجنوبية) وكوبان فى قفقاسيا الشمالية . أبلغت العثمانية بأنه إذا سحبت روسيا جيشها من قرم ، فإنها سوف تسحب جيشها المتواجد فى هذه المناطق وتمنح

لها الاستقلال . رفضت روسيا . لأنها كانت عازمة على السيطرة على قرم بشكل تام . ومستعدة لأن تعمل أى شيء فى هذا السبيل . كانت كل من الدولتين تستعدان للحرب بكل مافى وسعهما . كانت روسيا قد خرجت من الحرب متقطعة الانفاس متكبدة خسائر كبيرة ، ولم تكن لدى العثمانيين ، ولا لدى روسيا ، القدرة على دخول حرب جديدة بعد عدة سنوات .

انقسم الشعب التركى فى قرم الذى يطلق عليهم العثمانيون اسم « تتار » إلى قسمين : مؤيدى العثمانية ومؤيدى الروس . كانوا يريدون العثمانية ويخشون روسيا . كان الحزبان ، كأن احدهما عدو للآخر . كان صاحب كيراى الثانى من مؤيدى الروس . تخلى عن العرش بتأثير العثمانية وأحضر إلى إستانبول ، وعين مكانه دولت كيراى المؤيد للعثمانية . ورغم تصديق السلطان عبد الحميد على كونه خانا ، لم يتمكن من البقاء أكثر من سنة ، ٧ أشهر (حزيران ١٧٧٥) . وأجلس مؤيدو الروس ، برشاوى الروس ، شاهين كيراى ، أحد أخوة صاحب كيراى الثانى على العرش . اضطر الباب العالى إلى التصديق على تعيين هذا الشاب المنحط ، خانا . عاش شاهين كيراى عدة سنوات فى سراى الإمبراطورة فى بطرسبورغ ، وكان من المعجبين بالروس والمتطبعين بعاداتهم .

لم تطق العثمانية الصبر على هذه الحال فى قرم ، وكان لدى الشعب العثمانى إصرار كبير على استرداد قرم ، وبينما كانت العثمانية على وشك اتخاذ قرار الحرب ، عرضت فرنسا الوساطة . وافقت روسيا على هذه الوساطة . وعلى هذا الأساس ، عقدت بين روسيا والعثمانية معاهدة آينالى قاياق (اسم السراى الكائن على الخليج فى إستانبول) (١٧٧٩/٣/٢١) . لكن الاتفاقية ، كانت ضد العثمانية ؛ لأنها تلغى حق الأعتراض على خان قرم ، وسوف يصادق البادشاه ، بعد الآن ، أوتوماتيكيا على أى أمير ينتخبه القرميون خانا ، شرط أن يكون من سلالة كيراى ، وستكون كذلك قرم متبوعة لصفة الخليفة . خلال ذلك ، أسقط العثمانيون شاهين كيراى وجعلوا القرميين ينتخبون سليم كيراى الثالث ، ولكن تدخل الروس بعد عدة شهور ، وجعلوهم ينتخبون شاهين كيراى مرة أخرى . كانت خانية شاهين كيراى الثانية التى دامت ٤ سنوات اياما مظلمة لقرم . كان يلبس ملابس الجنرالات الروس المتميزين ويعلق على صدره الأوسمة التى تسلمها من الإمبراطورة . ويسير بين الشعب

راكبا عربته التى صنعها فى بطرسبورغ ولايسير ممتطيا الحصان كما كان يفعل أجداده ، يرتب الولائم بالمشروبات ويجعل المسلمين يرفعون اقداحهم شاربين نخب الشرف . يلغى الأوقاف ويضع يده على إيراداتها ، يحاول تأسيس أسطول لإلغاء سيطرة « العثمانيين الرجعيين » على البحر الأسود .. إلى غير ذلك من الأمور .

كان مقتنعاً بأن الإمبراطورة (الجاريجه) تقدره وتحبه . أما فى إستانبول فكان يضطر لتقبيل أردية الوزراء . لكن هذا العثمانى الغرير ، الذى غره بهرج المدنية الروسية ، سيوقف عند حده ! نفد صبر القرميين .خلعوا ، فى ١٧٨٢ شاهين كيراى من العرش وانتخبوا أخاه الكبير بهادر كيراى الثانى خانا وعرضوا ذلك على تصديق العثمانية . فر شاهين كيراى إلى بطرسبورغ وشكا إلى إمبراطورته ، القرميين وكذلك العثمانيين . أرسلت الإمبراطورة ، شاهين كيراى إلى قرم مع جيش روسى وأجلسته على العرش بعد ٧ أشهر . فربهادر كيراى إلى إستانبول . ولم تدم سلطنة شاهين كيراى ، الذى كان يعتقد أنها ستطول مدى حياته ، أكثر من شهور معدودة .

أستولى الوزير على باشا الموجود فى Kubon ، على Taman . وعندما صرح شاهين كيراى بأن Taman منطقة حيادية وطلب سحب جنده ، أمر على باشا باعدام السفير الذى جاء بالطلب ، لابسبب كونه سفيرا لدولة مستقلة ، بل بسبب كونه خائنا للوطن . أعترض الروس على المعاملة التى جرت مع السفير وأستولوا على شبه جزيرة تامان شمال نهر كوبان ، زاعمين أنهم يعملون ذلك مساندة لشاهين كيراى . نصب الأمير Potemkin القائد العام للإمبراطورية الروسية ومن المع عشاق كاترينا الثانية ، مقره فى قره صوبازارى . لم تذع العكاز Ukaz (ارادة الإمبراطورة) وأخفيت عن الناس رغم توقيع الإمبراطورة عليها فى ١٩ نيسان . تليت بالروسية على أهالى قرم يوم ذكرى جلوس كاترينا الـ ٢١ (١٧٨٣/٧/٩) . تتضمن هذه الإرادة ، ضم قرم إلى روسيا كأيالة جديدة ، ويطلب من أهالى قرم كافة ، يمين الاخلاص للإمبراطورة ، والذين لايرغبون فى أداء اليمين يتركون احرارا ويعطون الاذن فورا للهجرة إلى تركية ، وسوف لايتدخل فى ديانة وعرف وعادات وحرية الذين يرغبون فى البقاء . وبذلك تنتهى سلطنة بنى جنكيز . نقل مركز قرم من باغجه سراى إلى آق مسجد وأرسل إليها وال روسى . توصل إلى ذروة قلة الحياء ، بالتصريح القائل بأن السبب الموجب ، لضم قطر مثل قرم لايسكنه فرد روسى او

مسيحى ، هو التخلص من مشكلة بسيطة تثير حربا جديدة مع العثمانية .

هذا ماآلت إليه خانية قرم التى لم تمس حتى العثمانية استقلالها منذ ٣ قرون . أعدم الأمير بوتمكين أكثر من ٣٠٠٠٠ قرمي وكلهم من الطبقة الممتازة خلال أقل من شهرين . قتل أكثرهم نتيجة التعذيب بتهمة التجسس لحساب العثمانية ! قضى بهذه الطريقة على جميع أصحاب الأراضى . بدأ سيل المهاجرين الروس إلى قرم . مئات الألوف من الأتراك انتشروا على البيوت الساحلية لقرم . بدأو فى البحث عن النسبل التى توصلهم إلى الأراضى العثمانية . كانت تجرى فى قرم نفس الحوادث التى جرت فى الأندلس . مات أكثر بكثير من نصفهم نتيجة المطاردات والضغوط الروسية او باسباب اخرى كالمرض والجوع والبرد ، وألقى البقية أنفسهم فى البلقان والاناضول وإستانبول . هبط تعداد قرم الكثيف جدا ، إلى الثلث او إلى نسبة قريبة من ذلك (كان يسكن قرم فى ذلك التاريخ ١/٥ مليون تركى وهذا يعنى ٦٠ شخصا كم٢ . وهذه النسبة ، نسبة عالية جدا فى ذلك العصر) .

خصص الروس اولا ، راتبا لشاهين كيراى . ثم اعتبروا هذا الراتب لاداعى له . ولعدم رغبتهم فى تسديده ، اخذوا فى اذلاله بصورة مستمرة . لم يتحمل الشاب الغافل والخائن ذلك وفر إلى تركية . تغاضى الروس عن هروبه . اولا ليتخلصوا من الراتب الذى يدفعونه له ، وثانيا لمعرفتهم ، العاقبة التى تنتظره فى تركية . أعتقل الباب العالى شاهين كيراى فورا ونفاه إلى جزيرة رودس وهناك قطع رأسه (تموز ١٧٨٧) . مجموع مدة جلوسه خانا للمرات الثلاث هو ٥ سنوات . هو الخان الـ ٤٩ لقرم ، وحفيد جنكيز فى البطن ٢١ . هكذا انمحت من التاريخ خانية قرم ، التى دامت ٣٥٦ عاما ولعبت دورا مهما ، فى أوروبا الشرقية . أما حكم العثمانية فى هذه الإيالة فقد دام ٣١٠ سنين و١٠ أشهر و١٦ يوما ، ولو احتسبت حتى معاهدة قاينارجه فتكون ٢٩٩ سنة وشهرا و٢٠ يوما . أما فترة الاستقلال المزعوم المرتبط صوريا بالبادشاه ، فقد دامت ١١ سنة ، ٨ أشهر ، ٢٦ يوما .

اعترفت تركية بانضمام قرم إلى روسيا باتفاقية ٨ ك٢/١٧٨٤ ، وأعتبر نهر كوبان حدودا ، وتركت كامل قفقاسيا الشمالية إلى العثمانية . لكن الباب العالى لم يكن مخلصا فى هذا الاعتراف . وإنما كان يستعد للحرب وينتظر الفرصة المناسبة . أعلن بعد ٤ سنوات و٤ أشهر من الانضمام ، شهباز كيراى ، خانا وكان عمره ٥٥ عاما ،

وهذا الأمير هو الأخ الكبير لدولت كيراى الرابع (آب ١٧٨٧) ، وأبنه حليم كيراى ، مؤلف مهم لتاريخ قرم (بالتركية) . وبعد سنة ونصف (شباط ١٧٨٩) منح الباب العالى لقب الخان الـ ٥٢ إلى بخت كيراى (شباط ١٧٨٩) مكان شهباز كيراى . حمل هذا اللقب حتى آب ١٧٩٢ . يعيش اليوم فى تركية العديد من نسل كيراى . وشغل بعضهم مناصب عالية فى الدولة العثمانية .

جاءت الإمبراطورة فى ١٧٨٧ مع ٦٠٠٠٠ جندى إلى قرم . استقبلها والى إيالة قرم الأمير Potemkin فى ميناء Kherson فى مصب الدنيبر وأمررت من تحت قوس نصر كتب عليه « طريق بيزنط » . مرت من تحت هذا القوس سوية مع حليفها جوزيف الثانى امبراطور ألمانيا الذى حضر لزيارتها . أعلن الباب العالى الذى علم بهذه الصفاقة ، الحرب على روسيا (١٧٨٧/٨/١٣) . مضى على مصالحة قاينارجه ١٣ سنة ، ٢٣ يوما ، لم تتحسن ولالحظة واحدة ، خلال هذه المدة ، العلاقات العثمانية – الروسية . سيمر التاريخان العثمانى والروسى بعد ذلك بحروب تركية – روسية متعاقبة .

٤) الحرب مع روسيا وألمانيا (١٧٨٧ – ١٧٩٢)

بالنسبة للحرب الروسية ١٧٦٨ – ١٧٧٤ ، كان من غير الممكن كسب تعاطف الشعب لتبنى الحرب ، فلقد كان صعبا أن يتفهم الشعب دخول حرب للحفاظ على استقلال بولونيا . أما هذه المرة ، فإن الحرب لا تتعلق ببولونيا وإنما تتعلق بقضية قرم .

كانت روسيا تجرى على مسلمى قرم الانكزسيون (المجازر البشرية) الحديثة . كل عثمانى كان يضمر الحقد الدفين تجاه روسيا . بعد إعلان العثمانية الحرب انتظر الطرفان الربيع للحرب الفعلية ، الا أن ألمانيا ، قدمت مذكرة إعلان الحرب على العثمانية ، بعد إعلان الحرب بـ ٥ أشهر و ٢٨ يوما وقبل حلول الربيع (١٧٨٨/٢/٩) . كان الإمبراطور جوزيف الثانى مبهورا بالفتوحات والانتصارات السهلة التى احرزتها روسيا على العثمانية فى حرب ١٧٦٨ – ٧٤ ، وكان يريد الآن أن يأخذ حصته من سلب جديد . ونظرا لوفاة فريدريك (الكبير) الثانى فى ١٧٨٦ ، فانه لم يعد أمام روسيا ماتخشاه من جهة بروسيا . لكن السويد التى

خشيت من توجه روسيا نحوها بعد انتصارها ثانية على تركيا وسحقها لبولونيا ، أعلنت الحرب على روسيا ، دون ألمانيا (حزيران ١٧٨٨) ، لكن الجيش السويدى تلكأ دون قصد ، وضيع فرصة غزوا العاصمة بطرسبورغ وأسر الإمبراطورة ، وقد كان ذلك ممكنا لكون العاصمة بطرسبورغ على الحدود السويدية ، ولكون بطرسبورغ خالية من الجيش . حيث كانت روسيا ، قد جمعت كل جيشها على الحدود العثمانية .

سار الصدر الأعظم والسردار الأكرم قوجا يوسف باشا من إستانبول قاصدا تنحية ألمانيا أولا (١٧٨٨/٣/٢٥) . كان الإمبراطور جوزيف الثانى قد اتخذ شبش (بالمجرية : Sebes) فى جنوب أردل (ترانسيلفانيا) مقراً لجيشه . اجتاز الجيش العثمانى الحدود الألمانية وبعد أن تقدم مسافة طويلة جدا ، عثر هنا على جيش الإمبراطورية . شتت الجيش العثمانى الجيش الألمانى بعد تكبيده خسائر جسيمة فى معركة شبش الميدانية (١٧٨٨/٩/٢١) . نجا الإمبراطور من الموت صدفة وبتضحيات . اغتنم الأتراك ٨٠ مدفعا وكافة المهمات و ٥٠٠٠٠ أسير . وكأنما انتقم لـ Zenta بعد عصر كامل . خربت Banat وتامشوار من أولها إلى آخرها . وإزاء هذا الانتصار ، منح العلماء ، عبد الحميد الأول ، بصورة رسمية لقب « غازى » .

أمّن انتصار شبش ، بقاء بلغراد والمناطق المجاورة لها ، لدى العثمانية لعصر آخر . كان هدف الإمبراطور ، هو الإلتئام مع الجيش الروسى . زال هذا الهدف ونحيت المانيا . وظلت العثمانية فى المجال وجها لوجه أمام روسيا ، بعد هذه الحركات الخاطفة .

وفى الجبهة الروسية ، جاء الأمير Potemkin مع ٨٠٠٠٠ جندى إلى Özü (بالروسية : Ocszakov) أهم قلعة فى شمال – غرب البحر الأسود ، واحتل هذه القلعة الشهيرة (١٧٨٨/١٢/١٧) . وجرت مجزرة بشرية ذبح فيها ٢٥٠٠٠ جندى تركى ، ونساء وأطفال . عذب جميعهم ولم يترك فردا واحدا على قيد الحياة . ثم سقطت قلعة خوجا باشا الواقعة بالقرب من أوزو ، حاليا أوديسا . وعلى هذا ، انتقل الساحل الشمالى – الغربى من البحر الأسود الذى يبدأ من غرب قرم ، إلى حوزة الروس . وسقطت بعدها قلعة خوتين فى بودوليا .

انتقل الموقف الحربى وهو على هذا الوضع إلى سليم الثالث . هزم جيش الاتحاد الروسى – الألمانى فى الحرب الميدانية فوكشانى (١٧٨٩/٨/١) أمام جيش القائد الوزير كانكش مصطفى باشا البالغ ٣٠٠٠٠ شخص . فى منطقة فوشكانى ، قرب فرع Siret للطونه بين افلاق وبغدان (كان الجنرال Suvarov يقود الروس ، وأمير Sachsen-Koburg يقود الألمان) ، ثم هزم الروس – الألمان ، الصدر الأعظم والسردار الأكرم جنازه حسن باشا (١٧٨٩/٩/٢٢) فى حرب Buzau الميدانية . استشهد ٢٣٠٠٠ تركى وفقد ٦٨ مدفعا . فى ٩ ت٢ احتل الألمان بخارست ، عاصمة الأفلاق ، واحتل الروس ياش عاصمة بغدان . انسحب العثمانيون الذين انقطع ارتباطهم برومانيا ، إلى جنوب ألطونه .

استولى الألمان الذين يقودهم الجنرال Laudon على بلغراد بعد حصار دام ٣ أسابيع (١٧٨٩/١٠/٨) . ساندت بولونيا وبروسيا ، العثمانية بالطرق الدبلوماسية كما فعلت السويد . لم يكونوا يريدون الاشتراك فى الحرب بصورة فعلية . انهزم الألمان فى الحرب الميدانية يركوى (بالرومانية : Giurgiu) فى الافلاق (رومانيا) فى الساحل الشمالى من الطونه . هرب قائد عام الإمبراطورية أمير Sachsen Koburg بعد أن خسر ٥٠٠٠ قتيل و ١٠٠٠ أسير ، وآلاف الجرحى تاركا ٥٠ مدفعا من مجموع ٦٠ من مدافعه ، للعثمانية . اتضح من ذلك ، عدم إمكان اجتياز الألمان ، الطونة نحو الجنوب .

وفى معاهدة بيقوز (١٧٨٩/٧/١١) منح الباب العالى ١ مليار آقجه إلى السويد كاعانه ، مع أن السويد ، لم تساعد العثمانية فى هذه الحرب ، بصورة فعلية ، عدا أنها ثبتت قسما من الجيش الروسى على حدودها . اجتاز الأمير Potemkin ، دنيستر نحو الغرب ودخل بيسارابيا الجنوبية (بالتركية بوجاق) . استولى على قلعتين عثمانيتين مهمتين جدا Akkerman (١٧٨٩/١٠/١١) و Bender (١٧٨٩/١١/١٤) . ونظراً لسقوط قلعتى خوتين وبلطه،اللتين تشكلان سدا لبيسارابيا فى الشمال ، بيد الروس ، أصبحت بيسارابيا فى خطر . إلا أن الروس انهزموا فى معركة إسماعيل الميدانية فى أقصى جنوب بيسارابيا أمام جزائرلى غازى حسن باشا (١٧٨٩/٩/٢٣) .

احتـــــل Suvarov كـــــيلى Kili (١٧٩٠/١٠/٣٠) ، إسماعيـــــل (١٧٩٠/١٢/٢٢) ، Tulca (١٧٩١/١١/١٦) ، ايساكجـــــــــى (١٧٩٠/١١/٢٥) . كانت هذه القلاع الأربع مراكز دفاع عثمانية فى دلتا ألطونة بين بيسارابيا ودوبروجه . فقد بوتمكين ، أمام اسماعيل ١٥٠٠٠ قتيل ، فانتقم لذلك بذبح ٣٠٠٠٠ مسلم بالسيف فى إسماعيل ؛ أكثرهم مدنيون ، ونساء وأطفال . أستولى الجنرال Kutuzov على Maçin (١٧٩١/٧/١٠) . كان كوتوزوف هذا ، الذى صار ماريشالا ثم أميرا ، من أصل تركى وقد انتصر حتى على نابليون فيما بعد .

نتيجة لاجتياح الثورة الفرنسية لأوروبا ، طلبت ألمانيا (النمسا) الصلح على أساس Statu quo (أى عرضت العودة إلى حدود ماقبل الحرب) . وقعت على معاهدة زيشتوفى Zistovi (١٧٩١/٨/٤) وهى قصبة تقع على الساحل الجنوبى من الطونه . أنهت هذه المعاهدة المكونة من ١٤ مادة الحرب الألمانية – العثمانية التى كانت مستمرة منذ ٣ سنوات ، ٥ أشهر ، ٢٤ يوما . انسحب الألمان من بلغراد والافلاق التى سيطروا عليها منذ سنة ، ١٠ أشهر ، ٢٦ يوما والأراضى العثمانية التى استولوا عليها قبل الحرب الأخرى بعد إخلائها ، وأعادوا إلى العثمانية كذلك ، قلعة خوتين التى كان قد استولى عليها الروس خلال الحرب وأعطوها إلى الألمان . كان مكسب الألمان الوحيد ، هو انتقال قصبة اورشوفا Orsova التى تقع بين أردل وأفلاق إلى الألمان ، أثناء إجراء تعديلات الحدود . كانت هذه الحرب هى آخر حرب تركية – ألمانية فى التاريخ . لم تحارب تركية ، أية دولة ألمانية بعد ١٧٩١ .

أخذت روسيا كذلك ، تميل نحو السلم بوساطة انكلترا وبروسيا . وبعد مضى ٦ أيام على مصالحة Zistovi تم التوقيع على مهادنة Kalas (بالرومانية : Galati) . أستمر مؤتمر ياش مدة ٤ أشهر . أنهت معاهدة ياش Yas (١٧٩٢/١/٩) الحرب الروسية – العثمانية ؛ أخليت كل من بغدان ، بيسارابيا ، بودوليا الجنوبية بوجاق وأعيدت إلى العثمانية . أما ساحل البحر الأسود الواقع بين نهرى Bug ودنيستر ، Özü (Oezakov) ، قيلبورون ، خوجا باشا (اوديسا) مع قلاعها فقد انتقلت إلى روسيا . أنقذت الثورة الفرنسية والتوازن الدولى الدقيق فى أوروبا ، العثمانية من خسائر أكبر . ولكن كان يتحتم تجديد الجيش العثمانى وتنظيمه ، حتى لاتتعرض العثمانية لمثل هذه الخسائر فى المستقبل .

٥) جلوس سليم الثالث (١٧٨٩/٤/٧)

أصيب عبد الحميد الأول بنزيف فى المخ ومات ، عند قراءته عريضة الصدارة التى تبين سقوط قلعة اوزو فى اوكراينا وذبح الأهالى المدنيين . بالسيف . تبين ظروف وفاته ، طبيعته ، ومبلغ أصالته وإنسانيته وشعوره بالمسئولية . كان رقيقا ، مؤدبا ، رحيما ، وطنيا متحمسا ، مصلحا باعتدال .

جلس على العرش ابن أخيه سليم الثالث ، الذى كان يشغل منصب ولى العهد طيلة مدة سلطنة عبد الحميد الأول التى استغرقت أكثر من ١٥ عاما . جدد العرش ، شبابه ، فقد كان سليم الثالث أصغر من عمه عبد الحميد الأول بـ ٣٦ سنة ، ٩ أشهر ، ٥ أيام كانت سن سليم الثالث ، الأبن الوحيد لمصطفى الثالث ، يتجاوز الـ ٢٧ عامابـ ٣أشهرو ١٤ يوما ،وكان عمره عندما تولى ولاية العهدإثر وفاة أبيه وجلوس عمه على العرش ١٢ عاما . كان أبوه وهو فى سنه هذه ، يستصحبه معه فى السفرات القريبة والمناورات . أتاح له عمه السلطان عبدالحميد الحر التفكير ، خلال مدة ولاية عهده الطويلة ، حياة حرة واتصالات واسعة ، وحتى بعد المحاولة الانقلابية التى دبرها خليل حميد باشا ، لم يقلص من حرية ولى عهده وابن أخيه ، الا القليل جدا . ويمكننا القول أن سليم الثالث ، هو أرق الخاقانات الذين أتوا بعد السلطان مراد الثالث الذى توفى فى ١٥٩٥ من جهة الثقافة والتحصيل ، وهو كذلك أعظم الخاقانات الذين أتوا بين مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) ومحمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) . وهو كذلك الوحيد من بين سلالة بنى عثمان الذى وصل إلى درجة النبوغ فى أى فرع من فروع الفنون الجميلة ، كان ملحنا نابغاً ، وشاعراً ، وخطاطاً ، وعازفاً على الناى ، ملماً باللغات الشرقية تمام الألمام . مولوليا ، ذكيا ، مجتهدا ، وطنيا ، مصلحاً . ورغم زواجه فى تواريخ مختلفة بـ ١٦ امرأة ، لم يخلف أولاداً ، انقرض فرع مصطفى الثالث واستمر فرع عبد الحميد الأول .

دامت صدارة قوجايوسف مدة ٣ سنوات ، ٤ أشهر ، ١٤ يوما . احتل مكانه حسن باشا ، قائد Vidin (١٧٨٩/٦/٧) ؛ وبعد ٥ أشهر ، ٢٦ يوما جاء القبطان دريا جزائرلى غازى حسن باشا (١٧٨٩/١٢/٣) ، وبوفاته فى Sumnu بعد ٣ أشهر ، ٢٨ يوما (١٧٩٠/٣/٣٠) ، تصدر جلبى - زاده شريف حسن باشا محافظ راخوفا ، أى أن ٣ صدور عظام اسماؤهم حسن باشا تصدروا مددا

قصيرة الواحد تلو الآخر ، ومنهم غازى حسن باشا الاميرال المشهور الذى شغل منصب قبطان دريا (مشير البحر) مدة ١٨ سنة ، وشهرا ، ١٥ يوما ، وقد كانت هذه المدة هى أطول مدة بين كافة الذين شغلوا منصب قبطان دريا فى التاريخ العثمانى (قيليج على باشا هو الثانى فى تسلسل المدد ، داماد بياله باشا الثالث ، بارباروس خير الدين هو الرابع وهؤلاء فى العصر ١٦) أعدم شريف حسن باشا فى Sumnu بعد ١٠ أشهر ، ١٢ يوما (١٧٩١/٢/١٥) . تصدر قوجا يوسف باشا للمرة الثانية وعزل بعد سنة ، وشهرين ، ١٧ يوماً (١٧٩٢/٥/٤) . مجموع صدارتيه الاثنتين ٤ سنوات ، ٧ أشهر ، ويوم . عين داماد ملك محمد باشا ، صدراً أعظم ، وكان عمره ٧٢ عاما وهو أقدم وزير (بالعثمانية شيخ الوزراء) ، وهو ابن فندقليلى سليمان باشا وصهر أحمد الثالث . شغل منصب قبطان دريا لمدة ٤ سنوات ، ٨ أشهر ، ١٧ يوما ، كان واليا على كريت ، جاء من كاندية واحتل منصب الصدارة . كان قد مضى على نيله مرتبة الوزارة مدة ٣٩ عاما . أعلن فى عهدة النظام الجديد (نظام جديد) .

٦) بدء دور النظام الجديد (١٧٩٣/٢/٤)

طلب سليم الثالث فى ت١/١٧٩١ من ١٩ تركيا وأجنبيين أن يقدم كل منهم تقريرا عن أسباب فقدان الإمبراطورية قدرتها السابقة ، واقتراح الإصلاحات التى يلزم إجراؤها حاليا لاستعادتها تلك القدرة (عاصم ، ١ ، ٣٤ ومابعده ؛ جودت ، ٦ ، ٣ ومابعده) . تركز الـ ٢١ تقريرا حول نقطة واحدة : مؤداها أن الدولة العثمانية قد فقدت قدرتها السابقة ، وإن مؤسساتها قد أصبحت فاسدة أو معطلة عن العمل ، وأن الأمر يحتم إجراء إصلاح (Reform) . وكان أصحاب التقارير يبحثون عن العلاج .

كان هناك ٣ جماعات أساسية :

المثاليون المحافظون : كانت العثمانية فى الماضى دولة عالمية ، لم يكن لها منافس ، كانت جميع مؤسساتها فى ذلك العهد قوية تماما . يمكن العودة إلى تلك المؤسسات ولو أمكن إحياؤها لأمكن،بالطبع ، إعادتها إلى قدرتها السابقة .

الرومانطيقيون : « سبقتنا أوروبا فى بعض المجالات منذ مدة . لنأخذ تكنولوجية اوروبا غير الموجودة لدينا ونهضمها دون أن نبدل نظامنا ، ودون استعجال . ولما كان واقع الأمر أن المسافة التى بيننا وبين أوروبا قد انفتحت قبل ٣٠ عاما ، فإنه من الممكن اللحاق بهم بسرعة وعودتنا إلى مركزنا السابق كأكبر دولة » .

الراديكاليون القائلون بتبديل النظام : « من الواضح أن أوروبا الآن قد سبقتنا فى بعض المجالات . ولو بقينا على نظامنا هذا ، لسبقونا فى كافة المجالات . لنغير نظامنا نحن كذلك ونلحق بهم ونسبقهم . ولسنا أقل منهم قدرة أو ذكاء » .

قرأ سليم الثالث ، الـ ٢١ تقريرا . تذكر الإصلاحات التى حققها أسلافه الخاقانات والوزراء ، والتى عزموا على تحقيقها فى السابق قبل مدة ليست بالقصيرة واتخذ قراره دون تردد : سيطبق الشق الثالث . ستطبق الإصلاحات الأساسية (الراديكالية) . سوف يتبدل النظام . ووجد له اسم : النظام الجديد = (بالعثمانية : نظام جديد) .

بعد مضى عصرين ، يمكننا نحن المؤرخين أن نقول : إن البادشاه كان محقا فى ترجيحه ذلك الشق . لكن هناك شيئا غاب عن نظر البادشاه هذا الشىء مهم جدا ، لم يستطع البادشاه أن يراه ، لكننا نستطيع رؤيته اليوم بعد دراستنا للأحداث ، ذلك هو :

أن الراديكاليين الذين رجح البادشاه وجهة نظرهم ، قد يبدون فى ظاهر الأمر متفقين ، لكنهم فى الحقيقة يمثلون ٣ جماعات :

جماعة القائلين بأفضلية كل شىء أوروبى ، وأن كل شىء تركى ، عثمانى ، - ويجوز - إسلامى ، هو فاسد . وهؤلاء ، يعتبرون رومنطيقيين ، كما أنهم يتنكرون للتاريخ التركى والعثمانى والإسلامى .

جماعة المصلحيين الحريصين جدا على الثروة والنفوذ والسلطة، وهؤلاء غايتهم الحصول على المناصب وامتصاص البلاد تحت شعار الإصلاح والتظاهر بالنظام الجديد .

و .. رجال الدولة المخلصون الذين يريدون نهضة تركية بإجراءات أساسية (راديكالية) سريعة .

كانت هذه الجماعة الراديكالية الأخيرة ، مقبولة . ومن الطبيعي أن تكون كذلك ؛ إذ لايمكن الحصول على نتيجة ، إلا بترجيح رؤية هؤلاء . ومن الطبيعي أنه فى حالة تدخل الجماعتين الاخريين ، فان جماعة المخلصين هذه ستكون على مر الزمن ، غير قادرة على العمل .

والحاصل أن السلطان سليم الثالث ، اعتبر الراديكاليين كتلة واحدة . كان هؤلاء من مؤيدى النظام الجديد ، وكان واجبه كسلطان ، الدفاع عنهم تجاه المحافظين ، وحمايتهم من أن يكونوا لقمة سائغة لهم . وعند الشروع فى تطبيق النظام الجديد ، كثر عدد المصلحيين الذين لاهم لهم غير الانتفاع ، ظاهرا : يقولون بالنظام الجديد ، « النظام الجديد » وعملاً يركضون وراء جمع المال والملك ؛ والمناصب والرفعة والشهرة . ولذلك فقد أخذ المحافظون يتساءلون « أهذا هو النظام الجديد ؟ » ، أهؤلاء مرغوب فيهم أكثر منا ؟ « وفى النهاية » لماذا يقدم هؤلاء علينا ؟ . يجب وقفهم عند حدهم . أخذت كتلة رجال الدولة ذوى النيات السيئة الذين همهم الانتفاع بدعوى أنهم المحافظون فى تحريض كتله المحافظين الوطنيين المخلصين حقا . فتر حماس الكتلة الكبرى تجاه النظام الجديد وتجاه موجده وممثله الخاقان ، وامتنعوا عن مساندته بإخلاص . والحقيقة أنه لايمكن تحقيق إصلاح حقيقى ، دون الاستناد إلى الكتلة الكبرى . كان من الممكن إجراء إصلاح فى الجماعات الصغيرة والهبوط تدريجيا من الأعلى إلى القاعدة ، إلا أن هذا ، لايعنى نهضة بالمعنى الصحيح .

فى الديمقراطية الغربية لانجد فرقا بين جوهر أهداف المحافظين والمصلحين من حيث المصالح العليا للدولة،ونشاهد أن كلا من الجماعتين تتولى الحكم ولانلحظ خلافاً كبيراً بين أعمال بعضهم البعض .

سليم الثالث هو أول مصلح ، ورائد حقيقى فى التاريخ العثمانى كله ، فى جميع العالم الإسلامى ، فى كامل آسيا ، يستلهم أوروبا بقصد أخذ تكنولوجيتها العليا . كل الذين جاءوا بعده ، قلدوه .

كان أصحاب التقارير الـ ٢١ ، من أكثرهم تحفظا إلى أكثرهم راديكالية ، متفقين

فى نقطة واحدة هى أن : الإصلاح يجب أن يبدأ فى الجيش أولا ! كان اتفاقا مدهشا . مدهشا بالنسبة إلى تشكيلات الإنكشارية . ترى هل ترضى هذه التشكيلات بالاصلاح ؟ لم يتردد سليم الثالث ابدا : كان هنالك بين اجداده ، وبين الوزراء كثيرون فقدوا رءوسهم القيمة ولكنهم لم يتمكنوا من إصلاح الإنكشارية . كانت هنالك حاجة إلى جيش لايتدخل فى شئون الدولة والسياسة ، ولاينهب الشعب عن طريق تدخله فى السياسة ، ويطيع قيادته طاعة عمياء ويكون ملما الماما جيدا بالعسكرية الحديثة . هذا الجيش سوف لايشتغل بالصناعات ، لايفرض الضرائب ، لايزاول أعمال النهب ، لايرفع السلاح فى وجه وطنه وضابطه ، لاينهزم عند رؤيته العدو . سيكون على النظام والضبط الذى كان عليه الجيش فى عهد القانونى ، لكنه سيكون مجهزا بتكنولوجية العصر . سيكون غذاؤه جيداً ، لباسه جيدا ، راتبه جيداً

تابع السلطان سليم ، بكتبه الهمايونية المستمرة ، حركة التجدد (النظام الجديد) خطوة بخطوة وقام بتوجيهها . نشرت كتبه الهمايونية (الأوامر السلطانية) حول النظام الجديد فقط فى مجلدين . أسست خزينة ودفتر دارية (مالية) خاصة بالنظام الجديد لغرض الاصلاحات . وجعلت كوزارة مالية ثانية للدولة . وشرعت الدولة أولا فى تخريج جيش المشاة الحديث ، المدفعية الأكثر حداثة ، رغم أنها أصلحت مسبقا ، المختصين فى القنابل اليدوية (همباره جى) ، فى الاستحكام (لغمجى) ، فى النقل (عربه جى) . أنشأت معسكرات كبيرة لهذه الأغراض فى مناطق لوند ، اسكدار ، سليمية . ومن ناحية أخرى ، كانت تشكيلات القابوقولو ورؤساؤهم التابعون لهم الإنكشارية ، لاتزال مستمرة . استقدم من أوروبا الضباط ، والمهندسين ، والبحريين . البس الجيش ملابس بطراز مستنبط من اللباس الأوروبى .

لم يكن الاصلاح فى البحرية التركية ، بدرجة الاصلاح فى الجيش البرى . لان سلك البحرية كان سلكاً اكثر استناداً على التكنولوجية ، ولم يكن متخلفا إلى الدرك الذى انحط إليه الجيش . لكن السلطان سليم ، كان يريد بحرية ذات قدرة كذلك . أمر بإنشاء أحدث السفن الكبيرة . عين داماد كوجوك حسين باشا ، قبطان دريا (مشير البحر) (١٧٩٢/٣/١٠) الذى كان شابا فى ٣١ من عمره وأخا فى الرضاعة للسلطان سليم . تطوع لتنمية البحرية حتى وفاته مدة ١١ سنة ، ٨ أشهر ، ٢٨ يوما . ويمكن اعتباره مؤسسا للبحرية التركية الحديثة .

لم يكن الأمر سهلا ؛ لأن كامل الشعب ، كان مؤمنا بصورة عميقة - بأفضلية المدنية والثقافة العثمانية ، على الأوروبية .

أحيل داماد ملك محمد باشا ، الكبير السن إلى التقاعد (١٧٩٤/١٠/١٩) . دامت صدارته مدة سنتين ، ٥ أشهر ، ١٦ يوما . صار عزت محمد باشا بكلربك مصر السابق ، صدرا أعظم . ابن أخ قبطان دريا صفرانبولولو مصطفى باشا وعم القبطان دريا صالح باشا .

أعلن بمرسوم همايونى فى ٢٤ شباط ١٧٩٣ ، نظام حركة التجدد (النظام الجديد) . ضعفت سلطة الباب العالى ولو فى قسم من الايالات ، كان قد مضى النظام القديم الذى كان يدار بشكل مركزى بحت . أصبحت ايالات الجزائر ، تونس ، طرابلس فى افريقيا الشمالية ، كأن لهم استقلالا ذاتيا (Autonomy) . كان بكوات المماليك فى إيالة مصر التى تعتبر الإيالة الأولى فى البروتوكول ، يتمردون على البكلربك - الوزراء الذين ترسلهم إستانبول ، ونشأت بكلر بكوات (ولاة) أرثية ، فمثلا فى سوريا آل العظم ، وفى العراق مماليك الأيوبيين . وتركت اليمن لحالها لإدارة الإمام ، وحصلت عائلات « الأعيان » و « الأشراف » على نفوذ واسع فى منطقتى الأناضول وروملى اللتين تعتبران شريان حياة الدولة . كانوا ينفذون أوامر المركز ، وحتى البادشاه ، فى حدود مايحقق مصلحتهم . يرسل الجيش لتأديب ثلاثة أو خمسة منهم ولكن ، يحتل مكانهم خمسة أو عشرة وهناك من لايقدر عليهم . تفشت حوادث السلب والنهب فى كل مكان واختل الأمن فى المدن وعلى رأسها إستانبول . كانت الإنكشارية ، كأنها مافيا فى إستانبول وخاصة فى روملى ومدن أخرى . كانوا يجمعون الاتاوة من الجميع . كثرت حوادث هتك الأعراض . وبينما كان النظام الجديد فى محاولة تأسيس جيش مقتدر لافشال خطط تقسيم الإمبراطورية التى تحاك لها فى الخارج ، كانت الدولة فى الداخل وجها لوجه أمام هذه المشاكل .

٧) الحرب العثمانية - الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠٢)

كانت أوروبا ، فى هذه الفترة ، تعيش دور الاضطرابات التى سببتها الحروب التى حدثت نتيجة الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ . حدثت الثورة الكبرى فى

نفس السنة التى جلس فيها السلطان سليم ، بعد عدة شهور (نيسان وتموز) . كان الجنرال القدير لفرنسا الثورة – التى أصبحت جمهورية فى ١٧٩٢ – فى أواخر العصر ١٨ ، هو نابليون بونابارت . ومنذ حرب Nigbolu فى ١٣٩٦ أى منذ ٤٠٠ سنة لم تعلن فرنسا ولاتركية الحرب على الأخرى منهما بصورة رسمية . حصلت مناوشات وخلافات كثيرة ولكنها لم تصل إلى درجة القتال العام بين الدولتين . وخلال تلك الفترة ، اثبتت فرنسا أنها أقدر من انكلترا التى سبقتها قدرة عام ١٧٦٣ ، وأصبحت الدولة الأولى فى العالم . قضى الجنرال بونابارت على جمهورية البندقية فى ١٧٩٧ ووضع يده على أراضيها الموجودة فى دالماجيا ، واستولى على جزر ايونيا وأصبحت فرنسا فى وضع محاد لتركية للمرة الأولى . قفز بونابارت إلى الهند ، كان قصده قطع شريان حياة انكلترا أعدى أعداء فرنسا . سار بونابارت ، مع الأسطول وبغارة فجائية ، استولى على مالطه (١٧٩٨/٦/١٢) وأنهى دولة فرسان مالطه . ثم شوهد أمام ميناء الاسكندرية ، دون أن يعلن الحرب على العثمانية (١٧٩٨/٧/١) . لم تستطع أية دولة أن تخمن أن الهدف هو مصر .

الأسطول الفرنسى ، كان يتكون من ٤٥٠ قطعة ، أكثرها سفن نقل . كانت تحمل ٣٥٠٠٠ جندى و ٢٥٠٠٠ من جنود البحرية . كان بونابارت ، أكبر عسكرى فى التاريخ المسيحى ، كان عمره ٢٩ عاما . بقى ١٠ أيام فى الميناء واستولى على المدينة دون أن يمس الأهالى . ذكر فى منشوره الذى اذاعه باللغة العربية ، أنه جاء لمعاقبة بكوات المماليك الذين خرجوا على طاعة البادشاه ، وأنه سوف يترك المكان عند تثبيت سلطة البادشاه ، وأنه يحترم الدين الإسلامى واعرافه وعاداته . جاء مستصحبا معه وفدا كبيرا من العلماء والاخصائيين . دأب هؤلاء على دراسة مدنية وثقافة مصر القديمة والحديثة ، تاريخها وجغرافيتها ، بحماس كبير ونشروا عند عودتهم إلى فرنسا ، كتابهم المشهور Deseription de L'Egypte المكون من ١٩ مجلداً مسلسل (الطبعة الثانية ٢٥ مجلدا) .

تقدم بونابارت من الاسكندرية إلى القاهرة . وفى ١٣ تموز شتت بكل سهولة جنود مراد بك أحد المماليك البالغ عددهم ١٠٠٠٠ ، الذى أراد سد طريق القاهرة (معركة رحمانية الميدانية) . وهزم بونابرت جنود الوزير أبو بكر باشا بكلربك مصر البالغ عددهم ٢٠٠٠٠ فى الحرب الميدانية التى جرت فى الجيزة فى ٢١ تموز ، خلال

وقت يقل عن الساعتين . اشتهرت هذه الحرب باسم « حرب الأهرام » . حيث جرت فى الصحراء فى سفوح الأهرام . وخطاب بونابارت الذى قال فيه لجنده قبل الحرب ؛ « تاريخ ٤٠ قرنا ،ينظر إليكم من خلال هذه الأهرام » ، خطاب مشهور . وفى اليوم التالى ، دخل القاهرة . فرض ضرائب على الاغنياء (أخذ فقط من نفيسه خانم زوجة مراد بك الذى فر إلى الجنوب ١٢٠ ٠٠٠ قطعة ذهبية).

وبعد عدة أيام ، دخل الأميرال نلسون الذى كان يتعقب الأسطول الفرنسى منذ أسابيع ، إلى الاسكندرية وأحرق فى أبى قير الأسطول الفرنسى برمته (١٧٩٨/٨/١) . ظل الجنرال بونابارت الذى أصبح مجردا من الأسطول ، حبيساً فى مصر .

عزل الصدر الأعظم عزت باشا ، على أساس أنه كان قبل تصدره الوزارة بكلربك على مصر وأنه رغم اطلاعه على مصر بصورة جيدة ، لم يتمكن من تجهيز الإيالة ضد الخطر الخارجى (١٧٩٨/٨/٣٠) . لم يكن هذا السبب صحيحا ، إذ إن ماحققه بونابارت من أعمال فى القارة الأوروبية ، كانت أعمالا فوق العادة مثل فتحه مصر . دامت صدارة عزت باشا ٣ سنوات ، ١٠ أشهر ، ١٢ يوما . تصدر الوزير يوسف ضياء الدين باشا بكلربك ارضروم . كان مثقفا ، ورجل دولة قديرا .

أعلن الباب العالى الحرب على الجمهورية الفرنسية (١٧٩٨/٩/٢) . وعلى هذا أصبح حليفا طبيعيا لانكلترا التى تحارب فرنسا . وقعت الاتفاقيتان العثمانية – الروسية (١٧٩٩/١/٣) والعثمانية – الانكليزية (١٧٩٩/١/٥) ، ضد فرنسا .

سار بونابارت ، فى أوائل شباط (١٧٩٩) من القاهرة . احتل غزه فى ٢٥ شباط ودخل فلسطين . وفى (١٣ آذار) جاء إلى يافا وذبح بالسيف مايقرب من الـ ١٠ ٠٠٠ جندى ومدنى عثمانى . اقترف هذا الجرم لإرهاب السكان المحليين والاستيلاء على سورية دون مقاومة . وفى (١٩ آذار) جاء أمام عكا وهى أقوى قلعة محصنة فى المنطقة . كان الوزير جزار أحمد باشا ، هو الذى يدافع عن القلعة . وكان وضعه جيدا لتسلمه الامداد من جنود النظام الجديد من إستانبول قبل فترة وجيزة . قدم الاسطول المشترك التركى – الانكليزى إلى مياه عكا وفتح النار على الفرنسيين ، الا أن هذا القصف لم يكن بالغ التأثير على الفرنسيين ، ولكنه رفع معنويات مدافعى

عكا وزاد من حماسهم . ظل بونابارت دون حراك أمام عكا . كان رجل حرب ميدانية . نفر من حصار القلعة . لكنه كان متورطا فيه ، وعندما قدمت فى ٧ مايس وحدة جديدة من وحدات النظام الجديد المؤلفة من ٣٠٠٠ جندى ووفقوا فى دخولهم قلعة عكا ، أصبح الفرنسيون فى وضع خطر . كان بونابارت قد ترك عدة آلاف من الجند فى القاهرة . وعلى أثر فشله فى عكا ، علم بقيام عصيان فى القاهرة . وفى ٢١ أيار قطع أمله فى الحصار الذى دام شهرين و١٤ يوما ، ودفن بصورة سرية كافة مهماته وانسحب من عكا . وفى ١٤ حزيران ، نجا بنفسه حيث وصل إلى القاهرة بعد أن طاردته وحدات الجيش العثمانى المظفرة . وقال بعدها « لولا أن وقفت عكا فى طريقى ، لاستوليت على الشرق برمته » .

استقبلت أوروبا بسرور هذه الخسارة الأولى لبونابارت . أرسل سليم الثالث ، إلى جزار أحمد باشا اكليلا من الذهب ، ومنح نلسون الذى أحرق الأسطول الفرنسى وساما من الماس . ولم يزج بونابارت نفسه ابدا ، بعد ذلك التاريخ ، وإلى نهاية حياته فى حصار قلعة ، وبحث عن العدو دائما فى الصحراء المفتوحة .

أنزل كوسه مصطفى باشا ، قرب الإسكندرية ٨٠٠٠ جندى بواسطة ٨٠ سفينة . لكن الفرنسيين أسروه . (١٧٩٩/٧/٢٥) . تخلص أكثرية جنوده من الفرنسيين بصعوبة ، بهروعهم إلى الأسطول . سار جيش من إستانبول متوجها إلى مصر . يظهر فى هذا الوضع أن ليس لبونابارت حظ فى الشرق . ترك مصر فى ٢٥ تموز فى سفينتين . وتمكن من الوصول إلى فرنسا ، دون أن تشعر به الأساطيل الإنكليزية والعثمانية . كان يريد إجراء المساومة حول مصر ، فى باريس . كان قد بقى فى مصر مدة سنة ، شهر ، ٢١ يوما . لم يتمكن من نسيان ذكرياته فى الشرق حتى نهاية حياته . عين Kléber اقدر عسكرى بين جنرالاته لقيادة الجيش الفرنسى فى مصر ، وخلال وجود بونابارت فى مصر ، احتل الاتفاق العثمانى – الروسى جزر ايونيا وموانىء أبير الموجودة فى حوزة فرنسا . وبموجب معاهدة ٢١ آذار ١٨٠٠ ، أعيدت إلى تركية الموانىء الأربعة الموجودة فى أبير Epir ، وبضمنها Preveze . وأسست جمهورية الـ ٧ جزر فى جزر ايونيا (كورفو..الخ .) وأعطيت لادارة العثمانية مثل جمهورية Dubrovink . تسدد للباب ضريبة سنوية قدرها ٣ ملايين آقجه .

كانت فترة النصف الأخير لعام ١٧٩٩ ، عام ١٨٠٠ ، النصف الأول لعام ١٨٠١ ، مليئة بالمصاعب المتزايدة بالنسبة لجيش الاحتلال الفرنسى فى مصر. انتخب الجنرال بونابارت فى باريس رئيسا للجمهورية بلقب « القنصل الأول » وكان يستعد لإعلان نفسه إمبراطورا. جاء الصدر الأعظم والسردار الأكرم (القائد الأعلى) يوسف ضياء الدين باشا ، إلى غزة. أراد الدخول إلى القاهرة ، لكنه انهزم أمام Kléber . ومنى عظم - زاده وزير نصوح باشا ، بنفس العاقبة. وفى ١٤ حزيران (١٨٠٠) ، طعن ، تركى عمره ٢٤ عاما أسمه كليسلى سليمان بك ، Kléber بطعنة خنجر اردته قتيلا. قتل سليمان بك شهيدا بعد تعذيبه بالنار وطعنه بالوتد. سار القبطان دريا (مشير البحر) داماد كوجوك حسن باشا إلى الاسكندرية مع ٧٠ قطعة بحرية وحال دون عودة الفرنسيين عن طريق البحر. وعندما قطع الجنرال Bélard القائد العام الفرنسى الجديد ، أمله فى حصوله على مساعدة من فرنسا ، ولمنع وقوع كارثة ، وقع على اتفاق إخلاء مصر (١٨٠١/٦/٢٧). دخل الجيش العثمانى فى ١٠ تموز إلى القاهرة وفى ٢٦ آب إلى الاسكندرية التى يدافع عنها الجنرال Menou . اقيمت فى إستانبول الأفراح لمدة ٤ أيام و٤ ليال. منح سليم الثالث لقب « غازى » بصورة رسمية. كان الانكليز قد أخذوا مالطة من الفرنسيين عام ١٨٠٠.

وقعت معاهدة باريس بين تركية وفرنسا (١٨٠٢/٦/٢٥) وقع المعاهدة باسم فرنسا ، وزير خارجيتها الأمير Talleyrand ، وباسم العثمانية ، سفير باريس وهو من مؤيدى حركة النظام الجديد المشهور غالب أفندى ، الذى صار بعدها الصدر الأعظم غالب باشا. استقال يوسف ضياء الدين باشا ، بعد صدارة دامت ٦ سنوات ، ٧ أشهر ، ٢٥ يوما (١٨٠٥/٤/٢٤). وهذه أطول مدة صدارة ، اعتبار من ١٧٣٠ وحتى نهاية السلطنة. صار ، قبطان دريا حافظ إسماعيل باشا ، البالغ عمره ٤٧ عاما ، صدرا أعظم.

٨) الوهابية ومشاكل البلاد العربية

أخذت الحركة الوهابية التى ظهرت فى البلاد العربية فى التعاظم على مر الزمن واكتسبت درجة من الأهمية. وضع الفقيه الحنبلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

أسس مذهب سنى جديد . تتلخص فلسفة المذهب فى إعادة الاسلام إلى منابعه الصافية فى عهد الرسول (ﷺ) ، وتنقية الدين من البدع . صار أمير نجد محمد ابن السعود صهرا للشيخ ، اتبع مذهبه ووفر له الامكانات المادية لنشر المذهب . استمر أخلاف امير نجد محمد ابن السعود الذى دامت إمارته مدة ٣٩ سنة حتى ١٧٦٦ ، على نشر نفس المذهب .

علم الباب العالى باتباع الأمير محمد فى ١٧٤٥ ، المذهب الوهابى . لم يظهر الباب العالى ، فى السنوات الأولى ، اى رد فعل ، بموجب السياسة العثمانية التى ترى عدم التدخل فى شئون المذاهب . ولكن عندما أخذت الحركة الوهابية فى الانتشار خارج نجد ، ارادت الدولة العثمانية أن تتخذ تدبير لذلك . وسع عبد العزيز ابن السعود بن الأمير محمد والذى احتل مكانه بعده والبالغ عمره ٤٣ عاما ، الدعاية لمذهبه وأخذ أتباعه فى الازدياد ودخل الحجاز فى أوائل عام ١٨٠٣ . وبعد حصار دام شهرا واحدا ، احتل الطائف . وفى ٣٠ نيسان دخل مكة . بقى فى مكة ٣ أشهر ، ٦ أيام . استرجع شريف باشا بكلربك الحجاز ، مكة (١٨٠٣/٨/٦) . لكن مجرد بقاء مكة ، ولو لمدة قصيرة بيد الوهابيين ، أحدث تأثيرا كبيرا فى العالم الإسلامى كافة وعرف العالم الإسلامى بالمذهب الجديد . طعن أحد الشيعه الأمير عبد العزيز بخنجر فى الجامع فى عاصمته درعية ، واستشهد (١٨٠٣/١١/٤) . كان عمره ٨٠ عاما . اكتسب المذهب الوهابى قوة كبيرة من خلال دعوته المتصلة طيلة ٣٧ عاما . ورغم شن ، أمير مكة شريف غالب ، ٣ حملات على نجد ١٧٩٠ ، ١٧٩٥ ، ١٧٩٨ لم يتمكن من القضاء على الوهابيين . أغار الأمير عبد العزيز الذى احتل الاحساء فى ١٧٩٠ على كربلاء (١٨٠٢/٤/٢١) ، وفى ١٨٠٠ و ١٨٠١ جاء إلى مكة متنكرا بغرض الحج ودرس وضع المدينة . احتل مكانه ابنه الأمير سعود ابن السعود البالغ من العمر ٥٥ عاما والذى كان يقوم بإدارة الوهابيين ونجد منذ عام ١٧٨٧ باسم أبيه . احتل عمان مرتين فى ١٨٠٣ و ١٨١١ . حكم المدينة مدة ٧ سنوات ، ٥ أشهر (حزيران ١٨٠٥ - ١٨١٢/١٢/٢) ومكة مدة ٧ سنوات (ك١٨٠٦/٢ - ١٨١٣/١/٢٣) .

وهكذا انتقلت المشكلة الوهابية من عهد سليم الثالث إلى عهد محمود الثانى . كانت تدير البلاد العربية الأصلية فى النظام العثمانى السلالات المحلية التى يترأسها حكام

محليون باسم شيخ أو أمير . ويوجد فى مكة والمدينة أحد شرفاء الهاشميين بلقب أمير . كان يشرف على إدارة القسم الغربى من البلاد العربية ، بكلربك العثمانية الساكن فى جدة ، أما القسم الشرقى فكان يديره بكلربك البصرة أو بغداد ، وفى بعض الأوقات بكلربك الإحساء ، ويدير القسم الشمالى بكلربك الشام . كان البكلربكوات (الذين برتبة فريق) يسعون فى تنظيم علاقات الشيوخ مع الأمراء التى لم تكن جيدة .

ظهر الوضع الذى فتح المشاكل الكبيرة على الباب العالى والدولة العثمانية ، فبينما كان الباب العالى يشك فى بكوات المماليك ، إذ بهذه المصيبة تتطور بالشكل الذى لايؤمل ، وتأتى على يد شخص يأتى من الخارج ، هو محمد على باشا .

عندما دخل محمد على أغا ، مصر فى ١٧٩٩ ، كان عمره ٣٠ عاما . كان أميا ولايجيد العربية أبدا . ولد فى Kavala فى مكدونيا الجنوبية . كان واحدا من ١٧ ولدا لإبراهيم أغا ، أحد الضباط العثمانيين من عائلة جاءت من قونيا وسكنت مكدونيا . جاء محمد على من قاوالا إلى مصر كمساعد لابن عمه خليل آغا الذى عين بأمر الدولة قائدا لسرية مؤلفة تقريبا من ٢٠٠ متطوع اختيارى . كانت مصر لاتزال تحت الاحتلال الفرنسى . وعندما فر خليل آغا إلى قاوالا ، ترأس محمد على السرية . أخذ يكتسب الأهمية بصورة مطردة بعد الاحتلال الفرنسى . سخر الجنود المتطوعون الانكشاريون الموجودون فى مصر ، بكوات المماليك ، ضد البكلربك خسرو باشا (الذى صار صدرا أعظم بعد ذلك) . كان يقبض على بكوات المماليك الذين يخرجون على طاعة الباب العالى ويقطع رءوسهم . جذب انتباه الباب العالى ، هذا الضابط الشاب ، الذى عمل مالم يستطع عمله بكلربك مصر ، فبدأ يعتمد عليه . عرض محمد على على الباب العالى ، أنه سيذهب إلى الجزيرة العربية ويقضى على الوهابية ، فيما إذا منح رتبة البكلربك . أصبح محمد على بكلربك مصر برتبة وزير (١٨٠٥/٧/٨) . وخلال ٦ أشهر احتل مصر ذلك القطر الكبير الذى لم يكن يعرفه من قبل .

٩) الثورة الصربية والحرب مع روسيا (١٨٠٦)

ثار الصرب فى ١٨٠٦ . أحد أسباب الثورة هو فكرة القومية التى نشرتها الثورة الفرنسية فى كافة أوروبا وانتقال شرارتها إلى الأقوام المسيحية للدولة العثمانية . السبب الآخر ، هو معاملة جماعة الإنكشارية بوجه خاص للمسيحين فى البلقان معاملة سيئة ، كان الانكشاريون خلال هذه الأيام ، قد مزقوا محافظ بلغراد حاجى مصطفى باشا . ويمكن أن تتصور زمرة تعامل قائدها بهذا الشكل ، كيف يمكن أن تعامل المسيحيين . وكما هو الحال فى الأناضول ، فان روملى وهى الجناح الآخر للدولة ، كانت كذلك تحت سيطرة الأشقياء الذين يطلق على أكبرهم اسم « أعيان » وكان لبعضهم جيش لايستهان به ؛ فمثلا ، كان لكل من بازفان اوغلو عثمان آغا فى Vidin ، تيرسينيكلى اوغلو اسماعيل آغا فى روسجك قوة كبيرة.. ولسحق أعيان روملى ، استدعى سليم الثالث ، الوزير قاضى عبد الرحمن باشا اشهر قواد حركة النظام الجديد ، من قونية إلى إستانبول . سار الباشا ، مع ٢٤٠٠٠ من جنود النظام الجديد إلى إستانبول (١٨٠٦/٦/٢) . سار فى ١٥ تموز إلى أدرنة وفى الطريق ، قضى على من صادفه من الأعيان ، اقطاعيين ، اشقياء ، جبابرة . شكا اعداء النظام الجديد من رجال الدولة الموجودين فى إستانبول ، الباشا ، إلى السلطان بأنه سفك دماء المسلمين . أمر السلطان سليم ، عبد الرحمن باشا ، بالعودة . وبهذا فقد عرقل عملية تنظيف روملى من الأشقياء الجبابرة ، وإضافة إلى ذلك ، سبب اتساع ثورة الصربيين . ومن ناحية أخرى ، كان ذلك تنازلا كبيرا لأعداء النظام الجديد ومشجعا لهم .

لم يكن كل الأعيان من أعداء النظام الجديد ، بل كان بعضهم من مؤيديه ، وأحد هؤلاء هو أعيان Serez إسماعيل بك . والآخر ، هو علمدار مصطفى آغا ، أعيان روسجك الذى احتل مكان تيرسيتيكلى اوغلو بعد مقتله .

شجعت ألمانيا (النمسا)، الثورة الصربية . كان زعيم الثورة ، قره يوركى صنيعة فينا . وفى ١٨٠٤ ، خان أسياده ، وتقرب إلى روسيا من حيث المذهب والقومية . وبعد كفاح طويل احتل بلغراد وذبح بالسيف كافة المسلمين فى المدينة (١٨٠٦/١٢/١٣) . أعلنت روسيا الحرب على العثمانية ، بغية استمرار الثورة

الصربية وعدم القضاء عليها وعلى أمل الحصول على فتوحات جديدة .

استولى الجنرال **Mihelson** مع ٦٠٠٠٠ جندى على **Bender** (١٨٠٦/١٢/٨) ، وخوتين (١٨٠٦/١٢/١٦) . وبعد استيلائه على **Akkerman** و **KIlye** ، احتل سواحل البحر الاسود لبيسارابيا . انهزم فى اسماعيل ووقف عند دلتا الطونه . بدأت حرب روسية - عثمانية بعد ١٤ سنة ، ١١ شهراً ، و١٤ يوما من معاهدة ياش . انتقلت الحرب من عهد سليم الثالث إلى عهد محمود الثانى .

عزل الصدر الأعظم حافظ اسماعيل باشا ، بسبب تصريحه بعدائه لحركة النظام الجديد بعد سنة ، ٦ أشهر ، ٢٠ يوما (١٨١٦/١١/١٤) . صار ابراهيم حلمى باشا آغا الإنكشارية ، صدرا أعظم وسردارا أكرم . وعندما سار إلى الجبهة ، صار الوزير كوسه موسى باشا قائمقام الصدارة (وكيل رئيس الوزراء) فى إستانبول . وعندما انتصر ، خلال هذه الاثناء ، وإلى سلستره الوزير علمدار مصطفى باشا قرب بخارست ، على الروس للمرة الثانية ؛ هرعت انكلترا لنجدة حليفتها روسيا لانقاذها من وضعها السيىء . سار أسطول البحر الأبيض الانكليزى المكون من ١٦ سفينة حربية بقيادة الفريق البحرى الأميرال **John Dukworth** ، ورغم أنه اجتاز مضيق جناقلعة وجاء أمام إستانبول (١٨٠٧/٢/٢٠) ، إلا أنه خرج مستعجلا من بحر مرمره . وفى هذه المرة ، قرر نفس الاميرال تجربة حظه فى مصر . احتل الإسكندرية (١٨٠٧/٣/٢٠) . لكن بعد عدة شهور ، أخرجه من الاسكندرية قاوالالى محمد على باشا . صنع هذا الانتصار لمحمد على باشا البالغ عمره ٣٨ عاما شهرة كبيرة فى أوروبا . الصدر الأعظم الذى سار فى ١٢ نيسان (١٨٠٧) وصل سلستره فى ٢٤ أيار . ولرفض تشكيلات القابوقولو ، الخروج إلى الحملة سوية مع جنود النظام الجديد ، لم يرسل الجيش الجديد إلى الجبهة . من الواضح أن دولة كهذه ، لايمكنها الانتصار فى حرب كبرى . ولكن عند الوصول إلى سلستره ، رفضت الإنكشارية عبور الطونه ودخول رومانيا خوفا من الروس الذين كانوا قد ضربوهم ضربا مبرحا فى الماضى ، ولان الروس لم يتمكنوا من حشد قوات كبيرة على الجبهة ، خوفا من نابليون ، أنقلبت الحرب إلى حرب تعادل . أخذ الأسطول الروسى بالتجوال حول بوزجه آدا ، لكنه انسحب عندما جاء القبطان دريا (المشير البحرى) جزائرلى

سيدى على باشا . استولى الروس فى قفقاسيا على تفليس . منح يوسف ضياء الدين باشا الصدر الأعظم الأسبق وبكلربك ارضروم لقب السردار (قائد) وانيط به الدفاع عن الجبهة الشرقية .

١٠) ثورة قباقجى (١٨٠٧/٥/٢٥)

عندما كانت الدولة العثمانية فى حالة حرب مع انكلترا وروسيا اللتين كانتا الدولتين العالميتين المقتدرتين الثانية والثالثة بعد الإمبراطورة الفرنسية ، وكان وضعها الداخلى كذلك يرثى له ، وحتى إستانبول كانت بؤرة للإرهاب ، حدثت ثورة تشبه ثورة باترونا التى جرت قبل ٧٧ عاما ، وأكثر منها ضررا من حيث النتائج . كانت حركة رجعية تماما .

كان العلماء فى البداية ، مترددين تجاه حركة النظام الجديد . كان بينهم من يؤيد الحركة . لكن عدم قدرة بعض رجال النظام الجديد ، وسوء تصرفهم شاع بشكل مفضوح . بدأ العلماء فى المعارضة . وعند مجيء اسحق – زاده محمد عبد الله أفندى إلى المشيخة (١٨٠٦/١١/١٤) ، وعلى الرغم من أنه كان من عائلة قره اسحق – زاده التى شرفت التاريخ العثمانى والتى قدمت الكثير من شيوخ الاسلام ، أخذ على عاتقه عملا غير شريف وحرض العلماء على العصيان ضد النظام الجديد وضد مؤسس هذا النظام البادشاه . من ناحية أخرى كان سليم الثالث كثير التنازل ، كان فناناً كبيرا يتحاشى سفك ولو قطرة واحدة من الدماء . لم تكن اخطاؤه قليلة ، كان كأنه يريد هدم آثاره التى أنشأها بيده . ظن أنه إذا قدم تنازلاً ، فإن المعارضين سيلينون ، والحال ، انهم تشجعوا . لم يتمكن رغم محاولاته ، من تصفية تشكيلات القابو قولو . أما هم ، فكانوا يعلمون أنهم يعيشون أيامهم الأخيرة . سواء كانوا الجند المخلصين الذين يؤمنون بأن ابتعادهم عن تقاليدهم ، وتركهم تشكيلات تقلل من شرفهم ، أو الذين يخشون من فقدانهم الكثير من دخلهم حيث سيقتصر الدخل على الراتب فقط فى حالة دخولهم النظام الجديد ، لم يكونوا راغبين فى الانفصال عن تشكيلات القابو قولو وتسجيل أنفسهم

فى حركة النظام الجديد . كان عدد جنرالات الإنكشارية المثقفين الذين يوقنون بعدم إمكان القتال مع الدول الأوربية بواسطة هذه التشكيلات كبيراً ، وكان هؤلاء مقتنعين بانه ليس هنالك حل بغير الغاء هذه التشكيلات ، ولم يكن هؤلاء يخشون فقدان مناصبهم بسبب كونهم من ذوى الرتب العالية ، حيث أنهم بطبيعة الحال سوف ينقلون إلى مناصب أخرى . لكن عدم وجود الشجاعة الكافية لدى البادشاه لالغاء هذه التشكيلات ، زادت من شجاعة المعارضين . كان رجال الدين الجهلة المتعصبون تعصبا أعمى يدعون أن جيش النظام الجديد كافر لانه يرتدى البنطلون (السروال) بدلا من الشالوار (لباس يغطى النصف الأسفل من الجسم عريض وواسع) ، وأن البادشاه سوف يلبسهم القبعات كذلك وكانوا يثيرون الجهلة بمثل هذه الأقوال . خصصت الدولة للنظام الجديد ميزانية ضخمة قدرها ٣ مليارات آقجه . أما زمرة القابو قولو فكانوا يتسلمون رواتبهم التى تسمى علوفه بصعوبة . كانت الدولة تدفع رواتبهم كرها وتتعمد تأخيرها ، لأنها تعلم أنهم جميعا يشتغلون بالصناعات المختلفة ويتسلمون الجزية . لم يكن من السهل إعاشة جيش طفيلى بالاضافة إلى اعاشة جيش نظامى . كانت هذه التغييرات التى من الواضح جدا أنها من النمط الأوروبى ، تستثير المواطن المحافظ . ولم يكن هؤلاء قليلين . كانوا يتساءلون ، بأى جيش ذهبنا إلى فينا ؟ ولم يكن أحد منهم يسأل نفسه بأى جيش دافعت أوروبا عن فيينا . كان سليم الثالث ، يعامل ولى عهد - شهزاده مصطفى الذى كان يعامله أبوه بشفقة كبيرة عندما كان وليا للعهد ، معاملة حسنة جدا . لكن السلطان مصطفى هذا ، كان يحرض معارضى النظام الجديد ضد السلطة فى سبيل اعتلائه العرش ، وحتى ولع سليم الثالث بالفنون الجميلة ، عزفه على الطنبور ، الناى ، غنائه ، تلحينه .. كان موضوع نقد . هل يليق بالخاقان - الخليفة أن ينصرف إلى أعمال غير لائقه كهذه ؟ أخوات البادشاه ، السلطانه بيخان ، والسلطانتان خديجة وأسماء والأخت الكبرى لولى العهد ، كن يعشن حياةً تكاد تكون أوروبية فى السرايات (القصور) الكائنة على المضيق . كن يتقابلن مع رجال الفن الأوروبيين كالمعمار Melling ، ويستمعن بنشوة إلى الاشعار الغرامية كأشعار الشيخ غالب . وصار ذلك موضوعا للقيل والقال فى الأوساط المتعصبة .

وفى ٢٥ أيار ، تمرد مساعدو الانكشارية الموجودين فى فتحة مضيق إستانبول على

البحر الأسود، بتحريض من رجال الدولة السالف ذكرهم ، ونصبوا على رأسهم جنديا اسمه قاسطامونيلي قباقجي مصطفى . رفضوا لبس ملابس النظام الجديد ومزقوها . مزقوا شر ممزق محمود رائف أفندى ناظر المضيق رئيس الكتاب (وزير الخارجية) السابق ، الفنان والعالم المتميز المسمى « انكليزى » لأنه أكمل تحصيله فى انكلترا . عدة مئات من الغوغاء السفلة الذين مزقوا قائدهم خاصكى خليل آغا ، أخذوا ينتظرون الأوامر من رئيسهم الحقيقى كوسه موسى باشا (لغرض إنقاذ الشريعة) ، الذى كان وكيلا للصدر الأعظم الذى ذهب إلى الحرب ، وبعد أن أمر الباشا بعدم خروج جنود النظام الجديد من معسكراتهم ، أقنع البادشاه ، بأنه سوف يتمكن من القضاء على هذه الحفنة من العصاة بواسطة البستانجى لر (محافظى حدائق السراى) ، وأن اقحام وحدات النظام الجديد ، سوف يسبب إثارة أفراد تشكيلات القابوقولو . وبذلك لم يصدر سليم الثالث أمر خروج وحدات النظام الجديد من معسكراتهم .. وهكذا بدأ دور الرجعية المشئوم الذى سيستمر ١٩ عاما ، وسيترتب على هذا أن تعجز تركية عن سد هذه الفجوة الزمنية حتى يومنا هذا

كوسه موسى باشا وطوبال عطاء الله أفندى اللذان أجبرا سليم الثالث على الغاء النظام الجديد فى ٢٨ أيار لتسكين زمرة القابوقولو ، عزلا فى اليوم التالى البادشاه عن عرشه . وهكذا كانت عاقبة أكثر الحكام ثقافه وتقدمية فى الفكر وأقدر حاكم شهدته الدولة العثمانية منذ ١٦٧ عاما . دامت سلطنته ١٨ سنة ، وشهرا و٢٢ يوما . اعتلى العرش مكانه ابن عمه مصطفى الرابع الذى يصغره بـ ١٧ عاما ، و٨ أشهر، ١٥ يوما . فتح الباب لعهد الرجعية لمدة ١٩ عاما ، وهو العهد الذى فقدت فيه الدولة – التى لم تستطع تأسيس جيش حديث – الكثير من أراضيها . والأهم من ذلك ، أن أوروبا ، فى هذا الدور استعملت البخار فى الصناعات وحققت الانقلاب الصناعى .كانت سن سليم الثالث تتجاوز الـ ٤٥ بـ ٥ أشهر و٧ أيام .

١١) الدول العالمية عند حلول القرن ١٩ (١٨٠٠)

تقدر نفوس العالم فى عام ١٨٠٠ بـ ٨٣٩ ٢٠٥ ٠٠٠ نسمة : ٥٤١ ٤٦٠ ٠٠٠ منهم فى آسيا ، ١٨٨ ٩٧٦ ٠٠٠ فى أوروبا ، ٧٦ ٨٥٧ ٠٠٠

فى أفريقيا ، ١٥٩٨٢٠٠٠ فى أمريكا الشمالية ، ١٢ ٩٧٥ ٠٠٠ فى أمريكا الجنوبية ، ٢ ٩٥٥ ٠٠٠ فى اوقيانيا . وتقدر الزيادة فى نفوس العالم خلال ١٧٥٠ - ١٨٠٠ بمقدار ١٤٠ مليون نسمة . وخلال ١٨٠٠ - ١٨٢٥ بمقدار ١١٦ مليون نسمة . ووصل نفوس العالم فى ١٨٣٥ تقريبا ، إلى مليار نسمة ، وللمرة الأولى خلال القرن الجديد تصل نفوس مدينة مسيحية (لندن) إلى مليون نسمة فى ١٨٠٠ تقريبا ، وتجاوزت نفوس ٢٢ مدينة أوروبية ١٠٠ ٠٠٠ نسمة فى كل منها .

كانت فرنسا ، خلال ١٧٩٩ - ١٨١٢ ، أقدر دولة فى العالم . وبعد ١٨١٢ وحتى ١٩٤٠ صارت انكلترا أقدر دولة فى العالم . كانت فرنسا خلال ١٧٩٢ - ١٨٠٤ جمهورية ، وخلال ١٨٠٤ - ١٨١٥ امبراطورية ، ثم ملكية مرة أخرى . تقدر أراضى ونفوس الدول فى عام ١٨٠٠ بالنسبة لتسلسل أهميتها بما فى ذلك مستعمراتها كما يلى :

جمهورية فرنسا ٣٨١٨٨٤٩ كم٢ و ٣١١٣١٠٠٠ نسمة (باريس ٧٠٠ ٠٠٠ ، ليون ١٣٠ ٠٠٠ ، مارسيليا ١١٥٠٠٠ ، نانتس ٩٦٠٠٠ ، بوردو ٩٥٠٠٠) .

ملكية بريطانيا العظمى ١٣٢٤٢٨٦٦ كم٢ و ٧٨٥٥٠ ٠٠٠ نسمة (لندن ١٠٠٠ ٠٠٠ ، دبلن ١١٠ ٠٠٠ ، كلاسكو ١٠٢٠٠٠ ، بريستول ١٠٠ ٠٠٠) .

امبراطورية روسيا ١٧٨٥٠ ٠٠٠ كم٢ و ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة (بطرسبورغ ٢٣٠ ٠٠٠ ، موسكو ٢١٠ ٠٠٠) .

امبراطورية تركية ١٢١٨٧٧٠٥ كم٢ و ٦٣٧٠٠ ٠٠٠ (إستانبول ١٥٠٠ ٠٠٠ (المدينة الأولى فى العالم) القاهرة ٤٠٠ ٠٠٠ ؛ أدرنة ٣٠٠ ٠٠٠ ، الجزائر ١٢٢٠٠٠ ، تونس ١١٢٠٠٠) (لم تحتسب المدن الموجودة فى قارة آسيا) .

الامبراطورية الصينية ١١٧٦٥٠٠٠ كم٢ و ٢٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

الامبراطورية الألمانية ٩٨٠ ٢٣٦ كم٢ و ٤١ ٤٧٠ ٠٠٠ نسمة (فينيا ٢٥٠ ٠٠٠ ، البندقية ١٦٠ ٠٠٠ ، هامبورغ ١٢٠ ٠٠٠) : ألغى الامبراطور

نابليون الامبراطورية الألمانية فى ١٨٠٦ ، وسميت الامبراطورية النمساوية . وقد الغى مايقار ٥٠ دولة ألمانية كانت ضمن الامبراطورية ، وترك مايقارب الـ ٣٠ دولة . وكل هذه الدولة انفصلت عن الامبراطورية النمساوية وشكلت دولا مستقلة .

الملكية الاسبانية ١٤٨٨٧٠٤٨ كم٢ و ٣١١٥٥٠٠٠ نسمة (مدريد ١٦٤٠٠٠ ، المكسيك ١٢٥٠٠٠) .

ملكية بروسيا ٢٨٠٠٠٠ كم٢ و ٩ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة (برلين ١٩٠ ٠٠٠) .

امبراطورية ايران ١٧٣٥٦٥٤ كم٢ و ١٢ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة .

عدا هذه الدول الكبرى ، فان تقديرات أراضي ونفوس بعض الدول الأخرى ، كانت كما يلي : ملكية البرتغال ٨٨٠٢١٩٢ كم٢ و ٨٣٠٠٠٠٠ نسمة (لشبونه ٢٨٠٠٠٠) ، جمهورية هولندا ١٠١١٠٨١ كم٢ و ٨٤١٥٠٠٠ نسمة (امستردام ٢٢٠٠٠٠) ، ملكية السويد ٧٩٤٢٧٨ كم٢ و ٣٧٠٠ ٠٠٠ نسمة ، ملكية الدانمارك ٥٢٨٩٥٧ كم٢ و ٢١٥٨٠٠٠ (كوبنهاكن ٩١٠٠٠) ، البابوية ٣٥٣٣٦ كم٢ و ١٦٠٠٠٠٠ نسمة (روما ١٦٥٠٠٠) ، ملكية الصقليتين ٩٨٩٢١ كم٢ و ٦٣٥٠٠٠٠ نسمة (نابولى ٤٠٠ ٠٠٠ ، باليرمو ١٠٥٠٠٠) ، ملكية ساردونيا ٥٢٧٥٢ كم٢ و ٣١٥٠ ٠٠٠ نسمة (تورينو ٩٢ ٠٠٠) ، جمهورية سويسرا ، ٤١٢٩٥ كم٢ و ١٨٧٥ ٠٠٠ نسمة ، دوقية توسكانا الكبرى ٢١٤٨٫٩ كم٢ و ١١٢٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية ليكوريا (جنويز) ٥٤١٧ كم٢ و ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة ، جمهورية ماوراء الألب ٤١٩٣٤ كم٢ و ٣٥٠٠ ٠٠٠ نسبة (ميلانو ١٤٠ ٠٠٠) ، اتحاد الولايات الأمريكية ١٩٥١٧٨٠ كم٢ و ٤٣٠٨٠٠٠ نسمة .

امبراطورية اليابان ٤٤٤٥٩٩ كم٢ و ٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية الأفغان ٩٢٢٣٢٣ كم٢ و ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية الهند ٢٩٢٨٨٧ كم٢ و ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، خانات تركستان ٣٩٥٢٠٠٠ كم٢ و ١١٠٠٠ ٠٠٠ نسمة ، امبراطورية فاس ٣٠٥١٦٩٩ كم٢ و ٨ ٠٠٠ ٠٠٠

نسمة ، ملكية بورنو ٣٠٤٠٢٦٠ كم^2 و ٧٠٠٠٠٠٠ نسمة .

ممالك الزنوج الأفريقية المجهولة ١٢٣٨٢٢١٢ كم^2 و ٣٥٠٠٠٠٠٠ نسمة ، اوقيانيا المجهولة ٨٢٠٧٢٤٤ كم^2 و ٢٨٠٠٠٠٠ نسمة .

١٢) مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨)

مصطفى الرابع الأبن الكبير لعبد الحميد الأول . أمه ، السلطانة - الوالدة عائشة سينه برور (Sineperver) (١٧٦١ - ١٨٢٨/١٢/١١) . كان السلطان مصطفى وليا للعهد مدة سلطنة ابن عمه السلطان سليم الثالث التى استمرت أكثر من ١٨ سنة . كان عمره عند وفاة والده وشغله منصب ولى العهد ، يتجاوز الـ ٩ سنوات بـ ٧ أشهر . توفيت ابنة السلطان مصطفى الوحيدة التى ولدت بعد وفاته ، بعد ٦ أشهر ، ولم يرزق بأولاد عداها .

ورغم أن السلطان مصطفى وصل إلى العرش مستندا إلى فكرة مخالفته النظام الجديد ، فإنه قتل المتسببين فى ثورة قباقجى فردا فردا .

كان قد قتل فى الثورة ، قسم من رجال النظام الجديد ، وتمكن القسم الآخر من الفرار ، ولجئوا إلى علمدار مصطفى باشا ، أحد مؤيدى النظام الجديد فى روسجك . ويطلق عليهم « روسجك يارانى » (أصحاب روسجك) . وبتشجيع رجال الدولة هؤلاء (الذين أكثرهم شباب) ، قرر علمدار ، إجلاس سليم الثالث على العرش مرة أخرى . ولكن السلطان مصطفى ، الذى مل من تحكم شيخ الإسلام طوبال عبد الله أفندى الذى يعتنق الدكتاتورية ، ويميل إلى تحكم الأشقياء ، استدعى علمدار مع جيشه إلى استانبول . قتل علمدار فى الطريق قاباقجى مصطفى (١٨٠٨/٧/١٣) ووصل إستانبول فى ١٩ تموز . ذهب السلطان مصطفى إلى سراى داود باشا ، خارج إستانبول واستقبل علمدار . عرض « أصحاب روسجك » على علمدار اعتقال البادشاه هنا ، فقال علمدار بأن ذلك يتنافى مع الرجولة ، وهكذا أضاع الفرصة .

عزل ، السلطان مصطفى ، شيخ الإسلام مستندا على علمدار . وفى نفس اليوم ، نفى العلماء الذين تدخلوا فى الحركة الرجعية . شكر البادشاه ، علمدار على خدماته

وأمر بعودته وعدم تركه سواحل ألطونة . تلكأ علمدار مدة أسبوع ، دون قصد . وفى النهاية اقتحم مع ١٥٠٠٠ من جنوده الباب العالى ، وأخذ الختم الهمايونى من الصدر الأعظم عنوة . استمرت صدارة جلبى مصطفى باشا مدة سنة وشهر ، و١٠ أيام . وصار علمدار مصطفى باشا صدرا أعظم بصورة فعلية ، وإن لم يكن بصورة شرعية .

جاء بعد ذلك إلى سراى طوب قابو الذى يبعد عنه قليلا . علم البادشاه بحادث اقتحام الباب العالى ، وعلم بمقصد علمدار ، فاتخذ تدابيره المشئومة . لكن علمدار بدلا من اعتقاله البادشاه أرسل شيخ الإسلام إليه عارضا عليه التنازل عن العرش . أمر السلطان مصطفى الذى لم يستمع حتى إلى أقوال شيخ الإسلام ، بقتل الخاقان السابق سليم الثالث وولى عهد - شهزاده السلطان محمود . وبذلك يبقى هو الوحيد من بنى عثمان على قيد الحياة ، حيث لم يكن هنالك شهزاده (أمير) آخر غيره .

استشهد السلطان سليم بعد مضى ١٨٦ سنة وشهرين ، و٩أيام ، على واقعة « هائله عثمانية » التى استشهد فيها عثمان الثانى . وبامر السلطان مصطفى ، اقتحم ٢٥ شخصا من موظفى السراى ، شقة سليم الثالث ، رئيس الدولة الكبير الذى كان انذاك ينفخ على الناى ، وقتلوه شهيدا بالساطور (١٨٠٨/٧/٢٨)كانت سنة تتجاوز الـ ٤٦ بـ ٧ أشهر و٥ أيام . نقل جثمانه فى اليوم التالى فى حشد غفير إلى مقبرة لاله لى جوار أبيه مصطفى الثالث . لا ولد له .

بعد أن أجهز القتلة على السلطان سليم ، دخلوا شقة ولى العهد . كان ولى العهد ينتظر وبيده السيف . كان رجاله قلائل ، فقضى عليهم أثناء دفاعهم عن ولى العهد . أخرج السلطان محمود بتضحيات كبيرة من نافذة غرفته إلى السطح وأنزل بالسلالم إلى الفناء . كان الفناء فى هذه الاثناء قد امتلأ بجنود علمدار . نجت حياة السلطان محمود .

ولكى يقضى مصطفى الرابع على أمل علمدار ، أمر بنقل جسد سليم الثالث إلى الفناء . وعندما انكب علمدار على النعش باكيا ، جاء السلطان محمود ، وكان أول من بايعه علمدار مصطفى باشا .

دامت سلطنة مصطفى الرابع سنة ، وشهرين . وهى أقصر مدة سلطنة فى التاريخ العثمانى بعد مراد الخامس (١٨٧٦) .

١٣) جلوس محمود الثانى (١٨٠٨/٧/٢٨) .. وشخصيته :

أمر السلطان محمود ، بقتل مايقرب من ١٠٠٠ شخص من الذين قتلوا السلطان سليم ، أو تفرجوا على قتله أو لم يتأثروا لمقتله وكان بينهم ١٠ جوار . ولعدم إمكان إعدام النساء فى النظام العثمانى ، فقد تم خنقهن وإلقاؤهن فى البحر خارج موقع قيز قوله سى .

كانت سن السلطان محمود تتجاوز الـ ٢٣ عاما بـ ٩ أيام . كان تلميذا لابن عمه سليم الثالث الذى يكبره بـ ٢٣ سنة و٧ أشهر ، و٢٧ يوما ووارثا لجميع أفكاره . رباه سليم الثالث الذى لم يكن له اولاد كابنه من صلبه . علمه سليم الثالث ، النفخ فى الناى ، العزف على الطنبور وحتى الموسيقى . أما توصياته السياسية ، فكثفها خاصة خلال الـ ١٤ شهرا الأولى من سلطنة مصطفى الرابع ، حيث كان البادشاه السابق يلتقى بكثرة مع ولى عهد - شهزادة بحجة تعليمه الموسيقى . استفاد السلطان محمود الذى يكن للسلطان سليم حبا عميقا ، من كافة اخطائه . كان يملك الصفات التى تؤهله لتقييم هذه الأخطاء . والحقيقة أن السلطان سليم ، سرد له معظم اخطائه بعد إجباره على التنازل عن العرش ، واوصاه بعدم الوقوع فى الأخطاء التى وقع هو فيها . وازاء الوضع الذى أصبح يتعدى كونه مسألة صيانة شرف سلالة ، إلى كونه مسألة صيانة مستقبل وكيان دولة ، التقت - باقتناع تام - ارادة سليلى بنى عثمان الاثنين : ذو العمر الناضج ، والشاب .

محمود الثانى ، هو الابن الصغير لعبد الحميد الأول وجد جميع بنى عثمان الذين عاشوا حتى يومنا هذا ولايوجد سلالة مستمرة من بادشاه يسبقه . أمه السلطانة الوالدة نقش دل (١٧٦٨ - ١٨١٧/٨/١٨) . لم يكن قد بلغ من عمره الرابعة عند وفاة أبيه . وكان بنفس العمر عندما صار ولى العهد الثانى لسليم الثالث الذى تبناه . كان أخوه الكبير مصطفى الرابع يكبره بـ ٦ سنوات تقريبا . صار وليا للعهد مدة ١٤ شهرا عند جلوس أخيه على العرش .

كان محمود الثانى الذى يسمى كذلك الأدبى « عدلى » ويحمل لقب « غازى » منذ ١٨١٣/٥/٢٨ ، شاعرا ، ملحناً ، نافخا فى الناى ، طنبوريا ، مغنيا ، نقشيا ومولويا وهو خطاط عظيم فى خط الثلث والنسخ والجلى . أعظم بادشاه جاء منذ وفاة السلطان سليمان القانونى فى ١٥٦٦ وحتى نهاية السلطنة ، مؤسس تركية

الحديثة والجيش التركى . من أكبر الشخصيات التاريخية التى أنجبها التاريخ التركى . قامته تكاد تكون أقرب إلى الطول ، موزون الجسم ، جميل الوجه ومستديره تقريبا ، أسود اللحية ، داهية فى السياسة والأمور الإدارية ، ذكي ، وقور فعال ، جسور ، ذو عزم ، صبور . تمكن خلال سلطنته ، من السياحة إلى سواحل الطونة (١٨٣١ - ١٨٣٧) ، وبواسطة يخته البخارى إلى جزر رودس (١٨٢٧) ، ومرتين إلى غاليبولى وبولاير ، وزار فى الأناضول المحلات القريبة كازميت فقط . له المام بعلوم عصره الحديثة ، وتعلم فيما بعد الفرنسية كذلك . له ألمام بالثقافة واللغات الشرقية وإن لم يكن بدرجة سليم الثالث .

١٤) واقعة علمدار (١٨٠٨/١١/١٥) ، انتصار الرجعية الحاسم

استدعى « الأعيان » من الأناضول وروم‌للى إلى استانبول ، وأفهموا أن الدولة فى حالة حرب مع روسيا وحرروا ميثاق الاتفاق المسمى « سند اتفاق » (سند الأتفاق) الذى بموجبه وقعوا على أنهم سيمتثلون لأوامر الدولة (١٨٠٨/٩/٢٩) . ولحاجة الدولة إلى جيش محارب ، تم إحياء النظام الجديد باسم « سكبان جديد » (١٨٠٨/١٠/١٤) . استدعى الوزير قاضى عبد الرحمن باشا من قونية إلى إستانبول وترأس الجيش . وصار أحد أعضاء المجلس الثورى المسمى « روسجك يارانى » (أصحاب روسجك) ، الدفتردار (وزير المالية) السابق ، بهيج أفندى وزيرا للحربية لهذا الجيش بلقب « أمور جهاديه ناظرى » (وزير الأمور الجهادية) .

كان الصدر الأعظم علمدار مصطفى باشا . عسكريا جيداً . لكنه لم يكن الشخصية التى يمكنها القيام بحركة الاصلاح . كان يجهل أمور إدارة الدولة المركزية . لم يكن نظام جيش علمدار الاختيارى الذى جاء إلى إستانبول من سواحل الطونه بأفضل من الجيش الانكشارى ، بدءوا هم كذلك بأمور الشدة والشقاوة . لم يتمكن البادشاه الشاب المدين بعرشه لعلمدار من استجماع نفوذه لمنع هؤلاء . وفى الحقيقة لم يكن راضيا عن علمدار الذى يميل إلى الدكتاتورية . كان الإنكشارية يستعدون للايقاع بعلمدار الذى أخبرهم بأنه سيلغى تشكيلاتهم . وقائد الجيش الحديث ، « سكبان جديد » قاضى عبد الرحمن باشا كذلك غير مقتنع بعلمدار ، ولايعجبه لاوضعه هو ، ولاوضع جيشه . أما رجال النظام الجديد الشباب المثقفون الذين

يسمون « أصحاب روسجك » ، فكانوا مدينين لعلمدار الذى أنقذ حياتهم . لكنهم لم يكونوا يؤمنون بقدرته على تحقيق الاصلاحات التى رسموها وتجمعوا حول الخاقان الذى وجدوه أكثر شبابا منه . وعلاوة على ذلك ، فهم يتهمون علمدار بعدم استماعه لقولهم وتسببه فى استشهاد السلطان سليم .

وفى جو كهذا ، اقتحم الانكشارية فى ليلة ١٤/١٥ ت٢ (١٨٠٨) سراى علمدار . لم يتدخل قاضى عبد الرحمن . دافع علمدار مع رجاله إلى النهاية . وفى آخر الأمر أطلق النار من مسدسه على برميل البارود الموجود فى مخزنه وفجر السراى . مات نتيجة الانفجار مع أكثر من ٥٠٠ من الانكشارية الذين صعدوا على سطح داره ، أثناء محاولتهم ثقبه . دامت صدارته ٣ أشهر و١٨ يوما . صار مميش باشا ، صدرا أعظم لمدة شهر و٩ أيام . ثم أعطى الختم الهمايونى إلى بكلربك حلب الصدر الأعظم الأسبق يوسف ضياء الدين باشا (١٠٨٩/١/١) . وصار قبطان دريا جرخجى على باشا ، قائمقام للصدارة ، لحين وصوله إلى استانبول ، لمدة ٣ أشهر ، و٢٣ يوما .

استشهد علمدار ، فى الساعات المبكرة من صباح يوم ١٥ ت٢ . وفى نفس اليوم ، أصدر شيخ الإسلام ، فتوى قتل البادشاه السابق السلطان مصطفى . تردد السلطان محمود فى قتل أخيه الكبير . الا أن المتمردين أخذوا فى الهتاف باسم السلطان مصطفى . اقنع رجال الدولة البادشاه ، بأن حوادث سيئة جدا سوف تقع . خنق مصطفى الرابع ، بحزام حريرى (١٨٠٨/١١/١٥) . كانت سنه تتجاوز الـ ٢٩ بشهرين و ٢٨ يوما . كان قد مضى على إبعاده عن العرش مدة ٣ أشهر و١٩ يوما . دفن فى مقبرة حميدية فى بقجه قابو جوار أبيه . لم يبد الشعب أى تأثر لمقتل السلطان مصطفى لأنه كان ناقما عليه ، لقتله سليم الثالث شهيدا ، اشتركت جماعة قليلة فى تشييع الجثمان .

وبقتل السلطان مصطفى ، بقى محمود الثانى ، الشخص الوحيد من بنى عثمان . لم يكن هنالك أى شهزاده (أمير) وأى ولى عهد يرث العرش . بقى العرش دون وارث مدة ٣ سنوات وشهر و٩ أيام لحين ولادة أحد شهزادات السلطان محمود . شهدت الدولة والسلالة هذا الوضع للمرة الثانية ؛ الأولى ، الفترة التى تقل عن سنتين تقريبا التى مضت لحين ولادة محمد الرابع الشهزادة الأول لإبراهيم خان الذى جلس

بعد وفاة أخيه مراد الرابع . كان المتمردون قد فقدوا وعيهم . مزقوا مصطفى رفيق أفندى كتخدا الصدارة (وزير الداخلية) من « أصحاب روسجك » . وتمكن البادشاه من إخفاء البقية . ثم سار العصاة بعد ذلك على البادشاه قاصدين قتله ، أى إفناء السلالة . أجابوا أرباب العقول عند سؤالهم عمن سيكون السلطان ؟ بأنهم سيجلسون السلطانة أسماء أخت البادشاه ، الأرملة التى تكبره بـ ٦ سنين . دافع عبد الرحمن باشا عن سراى طوب قابو مع ٤٠٠٠ من جنود سكبان جديد . مات المئآت من كلا الطرفين . أيقن العصاة بعدم إمكان دخولهم السراى عنوة . أخفى عبد الرحمن باشا أثرهم ، وذبح بالسيف ٣٠٠٠ انكشارى . أمر البادشاه ، البحرية أن تقصف سليمانية المحل الموجود فيه سراى إقامة ومقر آغا الإنكشارية . كان يوما عصيبا كأنه من أيام يوم القيامة . شعب إستانبول ، كان تحت نار بحريته . ومن حسن الحظ ، أن جامع سليمانية الفخم الذى كان قريبا جدا من قصر الآغا ، لم يصب يضرر . أيقن العصاه عدم إمكانهم القضاء على البادشاة . لجأ كافة جماعة القابوقولو ، إلى العلماء ، وأقسموا على الإستجابة لأى قرار يصدرونه بشأنهم . أصدر العلماء القرار التالى : يوقف إطلاق النار فورا من كلا الطرفين ، يدخل القابوقولو إلى ثكناتهم ، يلغى البادشاه جيش « سكبان جديد » . وافق السلطان محمود .

لا الرجعيون تمكنوا من القضاء على الخاقان ، ولا الخاقان تمكن من تطهيرهم . بعد هذا ، تمكن الطرفان من الحفاظ على التوزان بالكاد لمدة ١٨ سنة . كان الحفاظ على هذا التوازن ، وتحويله لصالحه ، الشغل الشاغل للسلطان محمود . انتظر لحظة الانطلاق بصبر كبير . أعلن فى ١٨ ت٢ إلغاء جيش « سكبان جديد » . أرسل الجنود إلى بلدانهم ووظف الضباط . كان العصاة قد عمدوا إلى حرق الأسطول ، ميناء صنع السفن ، الطوبخانه (معمل صنع المدافع) ، معسكرات لوند وسليمية (أى مؤسسات الدفاع التى تستند عليها الدولة) وسببوا حرائق كبيرة . شرع فى إصلاحها جميعا . لكن الانكشارية قبضوا فى الأيام التالية على كثير من جنود وضباط « سكبان جديد » وقتلوهم شهداء .

١٥) حـــرب روســـيا (١٨٠٩ - ١٨١٢) ، معاهـــدة بخارست (١٨١٢/٥/٢٨)

وقعت روسيا التى كانت تعانى من نابليون ، على هدنة مع العثمانية فى عهد مصطفى الرابع (١٨٠٧/٨/٢٥) . وعندما اتفق القيصر بعد ذلك مع نابليون وأخذ موافقته على انتقال رومانيا إلى روسيا ، بدأت الحرب مجددا . وازاء اتفاق القيصر مع نابليون ، وقعت انكلترا مع تركية على معاهدة اتفاق (١٨٠٩/١/٥) . غادر الصدر الأعظم يوسف ضياء الدين إستانبول بصفته سردار أكرم (قائد أعلى) (١٨٠٩/٧/٢٣) . جاء إلى سلستره . انهزم الجيش الروسى البالغ ٦٠٠٠٠ شخصا وخسر ١٠٠٠٠ قتيل فى المعركة الميدانية « تاتاريجه » الواقعة جوار تلك المنطقة ، وترك الساحة للعثمانية التى فقدت ١٠٠٠ شهيد (١٨٠٩/١٠/٢٤) . تقدم الروس الذين احتلوا « اسماعيل » فى شهر ك١ و « ابرائيل » فى شهر ك٢ (١٨١٠) وأصبحوا يسيطرون على دلتا الطونة وعلى الأراضى الرومانية ، فى قفقاسيا على امتداد ساحل البحر الأسود .

أرادت روسيا فى ربيع عام ١٨١٠ تكثيف حملتها على العثمانية لإجبارها على الصلح ، حتى تتفرغ لفرنسا . احتل الروس سلستره ودوبروجا ، حاصروا فارنا ، ولكنهم انسحبوا على أثر دخول الأسطول الهمايونى فارنا . أوقف تقدمهم فى حرب شومنو الميدانية ، بعد تكبيدهم ٢٠٠٠٠ قتيل (١٨١٠/٨/٤) . واحتلوا فى ٢٧ أيلول روسجك وثم يركوى الواقعة فى شمال الطونة . مر عام ١٨١١ بتوازن . عزل الصدر الأعظم والسردار الأكرم يوسف ضياء باشا بعد سنتين ، ٣ أشهر ، ٩ أيام (١٨١١/٤/١٠) . مجموع صدارتيه الاثنتين ٨ سنوات ، ١١ شهرا ، ٤ أيام . احتل مكانه ايمراخور أحمد باشا . جاء إلى شومنو وترأس الجيش . استرجع روسجوك بعد حصار ١٢ يوما (١٨١١/٧/٩) . وبسبب حملة نابليون على روسيا ، كانت روسيا تريد الصلح مع العثمانية ومستعدة لاخلاء رومانيا التى صممت على أخذها . كان نابليون ، يعرض بصورة مستمرة على العثمانية ، الاتفاق ضد روسيا ويقول بأنهم سوف يتمكنون من القضاء على روسيا فى الجبهتين . لكن ، الباب العالى لم يعد يعتمد على السياسة النابليونية .

انهت معاهدة بخارست (١٨١٢/٥/٢٨) المكونة من ١٦ مادة ، الحرب الروسية - العثمانية : تركت كامل بيسارابيا ، إلى روسيا (حوالى ٧٠ ٠٠٠ كم[٢]) . ولو أن أهالى بيسارابيا ، كانوا رومانا وقسما منهم اوكرانا ، لكن سكان سواحل البحر الأسود فى الجنوب التى تسمى « بوجاق » كانوا أتراكاً . وهكذا أصبح نهر بروت يشكل الحدود العثمانية - الروسية ، بدلا من دنيستر . تبقى دلتا الطونة ، لدى العثمانية . تنقل القلاع مثل Kilye , Akkerman ، اسماعيل إلى روسيا ، لكن تبقى قالاس ، ابرائيل ، اساكجى ، تولجا لدى العثمانية . يعيد الروس الأراضى الرومانية (افلاق بغدان) والأراضى القفقاسية التى استولوا عليها بعد اخلائها إلى العثمانية . تتأسس إمارة صربية مستقلة استقلالاً ذاتيا فى بلغراد مع شريط من الأراضى يقع فى جنوبها وستكون مستقلة مثل افلاق وبغدان . يستمر الجيش العثمانى فى التواجد فى قلاع بلغراد والقلاع الأخرى . صار استقلال الصرب انموذجا للشعوب البلقانية الأخرى ، وكان سببا فى تحريض اليونان بوجه خاص .

عزل أحمد باشا ، بعد سنة ، ٤ أشهر ، ٢٥ يوماً (١٨١٢/٩/٥) . صار الصدر الأعظم ، قائد صوفيا ، أحمد خورشيد باشا لمدة سنتين ، ٦ أشهر ، ٢٧ يوما . وجاء مكانه بعده محمد أمين رءوف باشا (١٨١٥/٤/١) . ترك منصبه بعد سنتين ، ٩ أشهر ، ٤ أيام إلى محمد باشا والى (بورصه) (١٨١٨/١/٥) . وبعد سنتين ، ويوم ترك منصبه إلى اسبارطه لى على باشا والى خداوندكار (١٨٢٠/١/٥) . على باشا هذا ، فى تلك الحقبة ، هو زوج الأخت الكبيرة لمصطفى رشيد باشا البالغ عمره ٢٠ عاما - « الكبير » فى المستقبل .

استولى الوهابيون الذين قدموا من نجد ، على قسم كبيرا من الحجاز . كلف الباب العالى ، أحد اولاد والى مصر ، قاوالالى محمد على باشا ، والى جدة والحبش (الحجاز واريتره) الوزير محمد طوسون ، لاخراج الوهابيين من الحجاز . استمرت الحركات ضد الوهابيين من ١٨١١ إلى ١٨١٦ . استولى طوسون باشا ، على كل من المدينة (٢/ ١٢ /١٨١٢) ، ومكة (٢٣/ ١ / ١٨١٣) ، الطائف (١٨١٣/١/٢٨) . اكمل حركات طوسون باشا ، اخوه الكبير ابراهيم باشا . وأحتل درعية . ورغم كل ذلك ، استمرت الحركة الوهابية ولم يقض عليها . انتشرت فى الإحساء (١٨٣٠) ، وصلت جزر البحرين (١٨٣٤) ، لكن أصبحت علاقتها مع الدولة العثمانية بعد ذلك اكثر وفاقاً .

كانت المسألة الأخرى التى شغلت العثمانية هى ، تبه دلنلى على باشا . حصل على باشا ، وأولاده وأقرباؤه على الولاية من الدولة وسيطروا على أراض واسعة فى Epir ، والبالنيا ، واليونان ، ومورا . كان مركزه يانيا . على باشا الذى كان من عائلة تركية من كوتاهية ، أخذ يتلكأ فى تنفيذ أوامر إستانبول . سار الصدر الأعظم السابق خورشيد باشا ، على تبه دلنلى . وبعد مقاومته فى يانيا مع ٥٠٠٠ من جنوده ، و٢٠٠ مدفع مدة سنة و٤ شهور ، ٢٥ يوم ، قطع رأسه (١٨٢٢/١/٢٤) . استمرت تبه دلنلى – زاده لر (عائلة تبه دلنلى Tepedelenli) إلى يومنا هذا وانجبوا رجال دولة عديدين للدولة العثمانية .

١٦) الحرب الإيرانية الأخيرة (١٨٢١ – ١٨٢٣)

أراد القاجاريون فى إيران عند بدء الثورة اليونانية ، الاستفادة من الظروف المحيطة بالإمبراطورية العثمانية التى تورطت مع الدول الأوروبية . هجموا على الأناضول الشرقية وعلى العراق (١٨٢١/١١/١٥) . أحتلوا بيتليس وحاصروا بغداد . عقد صلح بعد سنتين على أساس الـ Statu quo أى بقاء الوضع على حاله (١٨٢٣/٧/٢٨) . وهذه آخر حرب تركية – إيرانية جرت فى هذا التاريخ . لم تتمكن الدولتان ، فى أى وقت من الأوقات من الأتفاق ضد روسيا . أخذت روسيا فى استقطاع أقطار كبيرة بهجومها تارة على تركيا وتارة على إيران . وفى معاهدة تركمنجاى ١٨١٣ ، استقطعت من إيران داغستان وشيروان (اذربيجان الشمالية) وفى معاهدة كلستان ١٨٢٨ ، أخذت روان (ارمنستان الحالية) ونهجوان وكانت هذه الأقطار فى التواريخ المذكورة اقطارا تركية بحته . وبمعاهدة ١٨٢٨ خرجت إيران ، لأول مرة فى التاريخ من صفوف الدول العظمى . كانت الدولة العظمى الوحيدة التى بقيت ، هى تركيا . كانت هنالك دولة كبرى غير مسيحية أخرى ، وهى الصين . أصبحت كفة الرجحان والسيطرة بيد الأوروبيين فى القارات الست .

عزل اسبارطه لى على باشا من الصدارة بعد سنة ، وشهرين و٢٤ يوماً (١٨٢١/٣/٢٨) . وأصبح والى جلدر بندرلى على باشا ، صدرا أعظم لمدة شهر ، و٣ أيام (١٨٢١/٤/٣٠) . أعدم بعد ذلك . لم يتمكن ازميرلى صالح باشا من البقاء

فى مقام الصدارة أكثر من سنة ، و٦ شهور ، و١٠ أيام (١٨٢١/٤/٢٩ ــ ١٨٢٢/١١/١٩) . جرى على عهد هذا الصدر الأعظم نفى نيشانجى (وزير الدولة) قرملى هالت افندى ، الذى سيطر على الدولة بصلاحيات واسعة منذ سنين وكان يسمى « مستشار السلطنة » ويستند على تشكيلات الإنكشارية ، إلى قونية واعدامه . وأصبح دلى عبد الله (حمد الله) باشا ، أحد مشيرى البحر السابقين ، صدرا أعظم . عزل بعد ٤ أشهر (١٨٢٣/٣/١٠) . اعتلى مقام السلطة سلاحدار على باشا ، ابن الوزير هزاركرادلى عزت أحمد باشا ، لمدة ٩ أشهر و٤ أيام . عين مكانه محمد سعيد غالب باشا ، أحد رجال النظام الجديد (١٨٢٣/١٢/١٣) . عين واليا على أرضروم بعد ٩ أشهر ، ويومين (١٨٢٤/٩/١٤) . صار والى سلسترة بندرلى سليم سرى باشا ، صدرا أعظم . حدثت الواقعة الخيرية على زمانه .

١٧) بدء الثورة اليونانية (١٨٢١/٢/١٢) ومرحلتها الأولى

بدأت الثورة اليونانية فى ١٢ شباط فى صبيحة يوم دافىء من أيام شتاء عام ١٨٢١ باحتلال مدينة باتراى من قبل ١٠٠٠٠ مسلح مورالى (من جزيرة مورا) بقيادة Germanos رئيس اساقفة Patras . ثم حاصروا قلعة المدينة . كانت هذه إشارة لعصيان مورا كلها . وفى بداية شهر نيسان ، انتقل كامل الجزيرة ليد العصاة عدا Tripolice مركز سنجق (لواء) مورا . أعلن اليونانيون بأن ميناء Nauplion (بالتركية آنابولى) الواقع فى شمال – شرق مورا ، مركزا لقيادة الثورة .

كانت هذه الثورة ، نتيجة استعدادات طويلة الآمد القت بذورها كاترينا الثانية فى الحرب الروسية – العثمانية فى ١٧٦٨ – ٧٤ . لكن العصيان الذى قام به المانيوتيون Manyot فى مورا ، لم يحقق أية نتيجة ، لاخماده فورا وبشكل حاسم على يد محسن – زاده محمد باشا . ونتيجة ذلك ، تم التخطيط لقيام الثورة فى جميع المناطق وباستعدادات أدق ، بدلا من قيامها فى منطقة واحدة . أخمدت حروب الثورة الفرنسية ، هذه المسألة مدة طويلة . وعلى أثر اكتساب أوروبا روحاً جديدة فى مؤتمر

فبينا عام ١٨١٥ ، أخذ اليونانيون ، تحت حماية الروس خاصة ، فى تأسيس جمعيات علمية ، أدبية ، سياسية . ومن بين هذه الجمعيات ، جمعية « Ethniki Hetairia » التى تأسست فى اوديسا عام ١٨١٤ وكانت جمعية سرية . كانت أهدافها إحياء الإمبراطورية البيزنطية ، أخذ إستانبول من الأتراك ، إخراج الأتراك من أوربا ودفعهم إلى آسيا . لم تكن هذه الأفكار ، أفكارا جديدة . كانت مشابهة للخطط الأوروبية الفاشلة وغير المجدية التى سارت عليها أوربا منذ قرون . لكن الفكرة القومية – بالمعنى الحالى – التى أوجدتها الثورة الفرنسية ، كانت تعطى الشجاعة لليونانيين . تقبلت شعوب الدولة العثمانية الناطقة باللغة اليونانية هذه المدنية القديمة ، رغم عدم وجود رابطة دم أساسية بينهم وبين اليونانيين القدامى ، عدا تكلمهم نفس اللغة بلهجة جديدة ، وبدعاياتهم أفهموا أوروبا أنهم ورثة المدنية اليونانية ، وأن المدنية التى أسسها أجدادهم ، تشكل كذلك الأساس للمجتمع الغربى ، وأنهم الآن يسحقون تحت أقدام الأتراك ، وأنهم فى ضوء ذلك كله أصحاب حق فى طلب الحرية . تمكنوا من إقناع أكثرية المثقفين الغربيين . كانت فكرة طلب الحرية على أساس القومية – الطبيعية جدا فى أيامنا هذه – غريبة جدا بالنسبة للعالم فى ذلك العهد . كانت هذه الأفكار من معطيات الثورة الفرنسية ، ولم تكن قد وضعت فى مرحلة التطبيق .

وفى الحقيقة ، فإن الحكام الأوربيين ، لم يتقبلوا هذه الفكرة ؛ ذلك أنه فى حالة تقبلهم مثل هذه الفكرة فإن العديد من الدول الأوربية سوف تتمزق وتصبح قطعا متفرقة . تقبلها القيصر فقط ، رأى اكساندر الأول الذى ورث هذه الفكرة عن ام أبيه ، أن هذه الفكرة فى صالح روسيا . كان يريد أن يثبت أنه هو حامى الأرثوذكس ، بسبب كونه مؤمنا بنفس المذهب الذى تؤمن به اليونان وخاصة أنه فى روسيا أكبر كتلة من أتباع هذا المذهب ، كما أن هذه الفكرة تضعف الدولة العثمانية وتستقطع منها اقطارا واسعة . يضاف إلى ذلك أن الأمير Lspilanti أحد بكوات بطريقية فنار Fener فى إستانبول ، الذى يدير جمعية Herairia ، كان مرافقا للقيصر . كانت الجمعية تحت حماية القيصر . وساندها بشكل كبير وزير الخارجية الروسى Capo d'Istria اليونانى الأصل Grigorios بطريق الأرثوذكس العالمى فى Fener وكان أكثرية أشراف الروم الذين يسمون « فنار بكلرى » « بكوات Fener » فى تعاون مستمر مع تلك الجمعية .

كان الناطقون باللغة اليونانية ضمن الإمبراطورية العثمانية فى مورا ، Attika وجزر إيجه ، يشكلون كثافة سكانية تزيد على ٥٠٪ من مجموع النفوس . فى كريت وقبرص ، كانوا تقريبا بنسبة ٥٠٪ . وكانوا أقلية فى الأقطار الأخرى ، لذلك تقرر بدء الثورة من المنطقة التى يشكلون فيها كثافة سكانية . أتاح إرسال خورشيد باشا ضد تبه دلنلى على باشا وإخلائه مورا بشكل تام وسحبه جنده ، الفرصة لليونانيين . كانت مدن مورا تحتوى على أقلية لابأس بها من الأتراك وفى مدينة او مدينتين ، كانوا يشكلون الأكثرية . لكنه تقرر فى الحال ، إفناؤهم جميعا بالذبح الجماعى .

المسلمون الذين تمكنوا من النجاة من القتل عند اشتعال الثورة فى باتراس (بالتركية ، باليابادرا) وانتقالها إلى كافة مورا ، وصلوا بالكاد إلى تريبوليجه . لكن تريبوليجه سقطت كذلك (١٨٢١/١٠/٥) وقتل بالذبح الجماعى الجيش الموجود فى القلعة و ٨٠٠٠ تركى مدنى ، بمن فى ذلك المواليد الجدد من الأطفال . كان يسكن مورا ٥٠٠٠٠ تركى تقريبا . كان قسم منهم مستوطنا فى مورا منذ ٤٠٠ سنة . قتل القسم الأكبر من سكان مورا الأتراك ، وتمكن قسم قليل من الهروب .

دهش الباب العالى للوهلة الأولى ، ثم غضب غضبا شديدا . الباب العالى الذى حمى اليونانيين منذ عصور ، وحسن حالتهم المادية عن طريق التجارة ، وأعطى أكبر الإمتيازات للبطريق ، والبادشاه هو الذى أعلن أنه بنفسه هو الحامى الرسمى للمذهب الأرثوذكسى ، هذا بالإضافة إلى أن حريتهم الدينية لم تمس ، كما أن الأتراك هم الذين حالوا دون سحق الكاثوليك لهم . وقد تحقق لهم كل ذلك بسفك دماء الكثير من المسلمين . وعندما ثبت اشتراك البطريق غريغوريوس بالثورة بوثائق مكتوبة ، قبض على البطرق العالمى ، وأعدم أمام الباب الوسطى لبطريقية فنار . وشهر لمدة ثلاثة أيام بتعليق لوحة على عنقه تبين خيانته (١٨٢١/٤/٢٢) . وبأمر من البطريق الجديد أغلقت هذه الباب الوسطية منذ ذلك التاريخ وأبطلت وقرر عدم فتحها لحين إعدام رئيس دولة أو حكومة تركية فى نفس المكان ، وحاليا مغلقة ، ولاتزال فى انتظار يوم فتحها .

أعدم كذلك اساقفة قيصرى ، طرابيا ، أدرميت مع عدة بكوات من بطريرقية فنار الذين ثبت اشتراكهم فى الثورة . مرافق القيصر الأمير Lspilanti الذى علم بالعصيان الناجح فى مورا ، جاء من اوديسا إلى ياش مركز بغدان (مولدافيا) مع

٣٠٠٠ رومى متطوع ، واحتلها فى ٥ مارت وفى ١١ منه احتل كالاس ، وفى ٣٠ منه أحتل بخارست مركز افلاق (رومانيا ، رومانيا الجنوبية ، اولاهيا) . استعاد الجيش التركى الذى دخل رومانيا فى الحال جميع هذه المدن وأفنى الروم . ايقن اليونانيون خطأهم الكبير فى اعتقادهم أن الرومانيين سيساندون الثورة لكونهم ارثوذكس مثلهم .

كثف اليونانيون الذين تركوا فكرة إحياء الإمبراطورية على أثر حل مشكلة رومانيا ، جهودهم وعزمهم المتواصل على تأسيس دولة وطنية يونانية فقط . احتج الباب العالى على روسيا . وعلى أثر ذلك ، عزل القيصر ، **Jspilanti** من وظيفته كمرافق له ، وطرد مرافقه الذى يحمل رتبة جنرال من الجيش .

أعلن الثوار تأسيس اليونان التى تضم مورا ، وجزر كيكلاد ، وجزيرة آغرى بوز وشبه جزيرة **Attika** وأن الأقطار اليونانية الأخرى ستنظم إليها وانتخبوا الأمير **Mavrokordato** رئيسا للدولة (١٨٢٢/١/١٣) . كانوا قد احتلوا أكثرية جزر بحر إيجه ، وإحدى هذه الجزر جزيرة سيسام (باليونانية : **Samos**) التى تقع فى خليج جزيرة قوش آداسى للأناضول وبعد أن سيطر ٦٠٠٠ من سكان سيسام على هذه الجزيرة ، صعدوا إلى الشمال الغربى منها ونزلوا فى جزيرة ساقيز الواقعة مقابل ميناء جشمه . كان تعداد ساقيز ٨٠٠٠٠ ، عدة آلاف منهم أتراك . تعدادها آنذاك يزيد على تعدادها حاليا ، كانوا يعيشون فى رفاهية . أثار السيساميون ، أهالى ساقيز وحرضوهم على العصيان . قتلوا بالتعذيب المسلمين الذين ظفروا بهم . لجأ الذين تمكنوا من الهروب ، إلى قلعة ساقيز التى يدافع عنها الوزير وحيد باشا . دخل القبطان دريا (مشير البحر) نصوح – زاده على باشا ميناء ساقيز (١٨٢٢/٤/١١) بعد ١٩ يوما من بدء العصيان فى الجزيرة ومحاصرة قلعة ساقيز . تم افناء وأسر العصاة الذين قاوموامدة أسبوع . ثار المثقفون الأوروبيون الذين سكتوا على القتل العام الذى جرى للأتراك فى مورا . بكى الشعراء مثل لورد بايرون ، فكتور هوغو والموسيقيون مثل بتهوفن ، والرسامون ، والصحفيون على إخماد عصيان ساقيز بمؤلفات محزنة وألفوا الحكايات الخيالية حول وحشية الأتراك فى أوروبا وأخذت تنهال الأسلحة ، والمتطوعون ، والنقود على اليونانيين من كافة أنحاء أوروبا .

لم تتمكن تشكيلات الإنكشارية التى تعيش لحظاتها الأخيرة من إخماد الثورة اليونانية . ولتحقيق ذلك ، كلف الباب العالى الوزير إبراهيم باشا ابن والى مصر محمد على باشا (١٨٢٤/٤/١) . جاء إبراهيم باشا البالغ عمره ٣٥ عاما ، خلال شهر تموز من اسكندرية إلى رودس مع ٣٠ ٠٠٠ جندى . كان قد منح رتبة الولاية على رودس بصورة رسمية . كان الأتراك المصريون ، هم الذين يشكلون الجيش المصرى المدرب تدريبا نظاميا . محمد على باشا الذى نصب الشراك لبكوات المماليك وجمعهم فى قلعة القاهرة وأفناهم ، وضع يده على أراضيهم الواسعة ، وثرواتهم الطائلة وأسس بذلك الجيش والبحرية . الشعب المصرى المحلى ، لم يكن يرغب فى الانخراط فى السلك العسكرى . جمع جيشه من المماليك ومن الأتراك الذين استوطنوا فى مصر فى عهد العثمانيين . كان قسم من جيشه يشكله الألبانيون ، الجراكسة ، والأباضة وهؤلاء يتكلمون اللغة التركية .

التقى قبطان دريا خسرو باشا ، مع إبراهيم باشا فى رودس . قضوا شتاء عام ١٨٢٤ - ٢٥ فى كريت . وفى نهاية الشتاء نزلوا فى ميناء Modon الكائن فى جنوب - غرب مورا (١٨٢٤/٢/٢٤) . تم احتلال ميناء نافارين الكائن قرب مودون (١٨٢٤/٥/١٨) ، بدأت حركات تطهير مورا من العصاة . تم خلال عام ١٨٢٥ احتلال كامل مورا عدا Nauplion التى سبق أن أعلن العصاة أنها عاصمة اليونان . سار محمد رشيد باشا من الشمال وجاء إلى Attika . حوصر العصاة بين نارين . جمعوا كامل قواتهم فى عدة أماكن مثل أثينا و Misolongi . سقطت Misolongi . (١٨٢٦/٤/١٣) بعد محاصرتها مدة سنة واحدة ، واستسلمت أثينا كذلك (١٨٢٧/٦/٥) .

أصبحت الثورة اليونانية ، كأنها لم تكن . كانت قد انتهت من الناحية العسكرية ، لكنها لم تنته من الناحية الفكرية . كان قد انطبع فى مخيلة اليونانى الأوروبى ، خيال دولة يونانية مستقلة . منح ابراهيم باشا رتبة الولاية على كريت . اكد أنتصار جيش إبراهيم باشا المدرب تدريبا نظاميا ، وعزز ، لدى السلطان محمود المجرب إلى الدرجة التى لايمكن معها أن يغتر ويعتقد بأن القضية اليونانية قد أنتهت فى هذه المرحلة ، فكرة عدم تأخير تأسيس الجيش الحديث بعد الآن .

١٨) الواقعة الخيرية (١٨٢٦/٦/١٥)

انتظر السلطان محمود ١٧ عاما بكاملها لالغاء تشكيلات القابوقولو . أن جندا لم يتمكنوا من الوقوف تجاه عصيان يونانى ، ماذا سيكون حالهم فى حرب روسية يحتمل أن تعلن فى أى لحظة . لم يكن هذا الأمر يقلق الخاقان فقط ، بل أخذ يقلق جميع رجال الدولة ، وجنرالات الإنكشارية بالذات . لم يكن بالإمكان تحقيق ذلك بارادة البادشاه الذى كان يعتقد فى وقت ما ، أنها تأتى بعد إرادة الله عز وجل . كانت تشكيلات الإنكشارية قد اثبتت بعمليات عديدة وبإراقة دماء كثيرة ، وباظهارها عدم ترددها فى سحق مصالح الدولة الحيوية .. أنها سوف لاتعترف بمثل هذه الإرادة ، كان يجب البدء فى العمل بتأسيس نواة جيش جديد كما عمل سليم الثالث . كان السلطان سليم ، قد لقن السلطان محمود بشكل جيد أن مستقبل الدولة متعلق بذلك .

السلطان محمود الذى لم يغفل عن أخطاء السلطان سليم ، أدخل بين جنرالات الإنكشارية جنرالات من مؤيديه يؤمنون بفكرة تأسيس جيش حديث . لم يكن ذلك بالأمر الهين أو البسيط . سعى لتحقيق ذلك سنين طوالا وباحتياط وصبر . لجأ إلى الطرق الملتوية حتى لايثير الإنكشارية الذين كانوا حذرين وفى قلق . وفى النهاية تم بصورة رسمية إعلان تأسيس تشكيل جديد فى الجيش باسم « تشكيلات اشكينجى » (١٨٢٥/٥/٢٥) . جند فورا ٧٦٥٠ شخصا وشرع بتدريبهم على الطراز الأوروبى . أختير هؤلاء الأفراد من بين الإنكشارية المتطوعين اختياريا . يبين هذا مقدار الدقة والحساسية فى هذا الشأن . أصدر شيخ الإسلام طاهر أفندى فتواه المشهورة حول تأسيس هذه التشكيلات الجديدة . البس الجند الجدد ، اللباس على الطراز الأوروبى وشرع فى تدريبهم (١٨٢٦/٦/١١) . اتخذت كافة التدابير حيال عصيان انكشارى . كان آغا (رئيس) الإنكشارية جلال الدين آغا وجنرالات الإنكشارية الآخرون ، من رجال البادشاه . عين لمحافظية سواحل المضيق الأناضولى ، عزت أحمد باشا . الصدر الأعظم فى المستقبل ، ولمحافظية سواحل رومللى آغا حسين باشا عدو الإنكشارية اللدود . كان هذان الجنرالان قد جمعا عساكرهما من الأناضول وعنيا بتعليمهم بشكل دقيق . واستنادا لأمر بادشاهى ، أتخذت

الترتيبات لإمكان إرسالهم إلى المدينة فى أية لحظة . لكن الثورة اندلعت حتى قبل الوقت الذى كان يتصوره السلطان نفسه . الانكشارية الذين صبروا على جنود النظام الجديد ١٤ عاما ، عصوا فى هذه المرة بعد البدء بتدريب تشكيلات اشكنجى بـ ٣ أيام فقط ، مساء ١٤ حزيران . نجا بصعوبة جلال الدين آغا ، آخر أغا للانكشارية فى التاريخ ، من الموت بالتمزيق ، وأعلم السلطان محمود بالوضع .

يوم ١٥ حزيران ١٨٢٦ ، من الأيام المعدودة القليلة فى التاريخ التركى . أخرج الانكشاريون قزانهم (قدرهم) المشهور وقلبوه فى أت ميدان(ميدان آقسراى) . أمر ، الصدر الأعظم بندرلى سليم باشا ، كلا من آغا حسين وعزت باشا ، الخروج إلى المدينة مع جنودهم . أمر السلطان محمود ،بتثبيت راية الرسول ﷺ (بالتركية صنجق شريف) فى ميدان سلطان أحمد . وأصدر الإرادة السلطانية بأن يتجمع كل إستانبولى يحب وطنه ، تحت الراية . حضر شيخ الإسلام طاهر أفندى ومعه اثنان من قضاته العسكريين ، قاضى إستانبول ، العلماء ذوو الرتب العالية ، ٣٥٠٠ طالب علم متعصب تعصب أعمى من الذين يدرسون فى القسم العالى من المدرسة العلمية وتجمعوا تحت الراية الشريفة وأخذوا بالقاء الخطب النارية . وإلى ذلك التاريخ ، كان الانكشارية يسحقون ويقضى عليهم فى كل عصيان يقومون به ، دون الاستناد إلى رجال الدين ، أما اليوم ، فكان فى انتظارهم كارثة كبيرة .

خرج إلى الشوارع كافة سكان استانبول . كانوا ناقمين على الانكشارية . لم يبق شىء مناف للاخلاق لم ترتكبه هذه التشكيلات . شوهد خروج النساء وانتشارهن فى الشوارع ، الأمر الذى لم يسبق أن شوهد فى التاريخ العثمانى . تشكيلات قابوقولو الأخرى ، عدا الانكشارية عرضت طاعتها واخلاصها للبادشاه . فتح نقيب المدفعية قره جهنم ابراهيم آغا نار قذائف بطاريته على ثكنات الانكشارية فى اقسراى . لم يسبق ان اقتحمت ثكناتهم فى أية ثورة إنكشارية سابقة . تضعضعت أسوار الثكنة ، وفتحت فيها ثغرة وانهارت . ودفن معهم كذلك ، دور من أدوار التاريخ التركى . إبراهيم أغا ، أول شخص فى التاريخ يدخل عنوة إلى ثكنات الانكشارية دون أخذ الاذن منهم . استمرت قره جهينم – زاده لر (عائلة قرة جهنم) حتى يومنا هذا ، وصار أحد أفرادها داماد « صهرا » للبادشاة ، وأصيب فى عقب قدمه برصاصة من بندقية إنكشارى .

دخل دارنده لى عزت باشا وآغا حسين باشا ميدان آقسراى . كان يتبعهم جمع غفير هائل من الناس . كان أمام جامع طوبخانه حاجى حافظ أحمد أفندى ، أمام الجند يشجعهم . وعند حلول المساء ، لم يبق شيء اسمه صنف الإنكشارية . قتل ٦٠٠٠ انكشارى . أفنى شعب إستانبول بغضب شديد هذه التشكيلات ، التى تركت الأقطار الإسلامية تحت أقدام الروس والروم العصاة ، والتى كانت تتقاضى الخراج . وفى اليوم التالى . تم اعتقال ونفى ٢٠٠٠٠ انكشارى . ألغيت هذه التشكيلات فى كافة انحاء الإمبراطورية . أبيدت كافة علاماتهم . وجرت حوادث غريبة خلال ذلك ، منها : أغلقت تكايا البكتاشية التى ينتسب إليها الإنكشاريون (ستفتح بعد مدة) ، كسرت علامات رءوس الإنكشارية التذكارية المنحوتة على أحجار المقابر ، محيت آثار الإنكشارية ، كما الغيت أيضاً مهترخانه خاقانى (الموسيقى العسكرية الخاقانية) تلك الموسيقى العثمانية العسكرية العظمى التى اعتبرت من تشكيلات الانكشارية . كان انقلابا . لم يدع هؤلاء مجالا ليذرف أحد الدمع على هذا الصنف الذى يملك ماضيا مشرفا .

أحدث إلغاء التشكيلات التى استمرت ٤٦٥ عاما ، صدى كبيرا فى جميع أنحاء العالم . خصصت الصحف الأوروبية عناوين كبيرة لذلك . هنأ السفراء البادشاه ، فى إستانبول باسم حكامهم . أطلق اسم « عساكر منصورة محمدية » (العساكر المحمدية المنصورة) على الجيش الحديث المزمع تدريبه . تم احداث منصب « سرعسكر » ومنحت له صلاحية وزير الحربية إضافة إلى رئيس أركان الجيش . أصبح آغا حسين باشا أول سرعسكر . السراى القديم الموجود فى بيازيد (حاليا البناية المركزية للجامعة) صار مقرا للسرعسكر ، تم تحويل سراى الاغا الموجود فى سليمانية إلى دائرة مشيخة وأعطيت لشيخ الإسلام .

وهكذا أغلق الدور الأول لسلطنة السلطان محمود الذى دام ١٧ سنة ، ١٠ أشهر و١٨ يوما . وفتح الدور الثانى لسلطنته والذى دام ١٣ سنة وشهرا ، و١٦ يوما . كان فى ذلك التاريخ فى سن الـ ٤١ . ومع أن الدور الثانى هو أصعب من الدور الأول ، لكن حجر الأساس لتركية الحديثه سيوضع فى هذا الدور . كانت المؤسسات التى تسلمها محمود الثانى تتماثل من حيث الشكل مع عهد مؤسسات فاتح ، ولكنها فى الوقت الذى كانت فيه مؤسسات عهد فاتح أرقى المؤسسات فى

العالم ، كانت هذه المؤسسات فاسدة بل إنها وصلت إلى شفا هاوية الانهيار ، ومن ثم فإنه كان يجب انشاؤها مجددا . ليس هنالك حق فى الحياة لدولة لاتتجدد . ازال حادث الغاء تشكيلات الانكشارية وتشكيلات القابوقولو الأخرى بشكل جبرى وعدم التردد فى التعرض لحرب داخل المدن والشوارع والتى انتقلت إلى التاريخ باسم « واقعة خيرية » ، المانع الكبير فى تحقيق حركة التجدد دون خشية . الواقعة الخيرية ، حادث من أهم الحوادث القليلة فى التاريخ التركى بأسره . كانت هذه الحادثة أكبر الانقلابات الجذرية . كانت البداية لتركيا الحديثة .

وهكذا فتح الباب أمام عهد التجديد فى تاريخ الدولة العثمانية ...



« إنتهى الجزء الأول من كتاب تاريخ الدولة العثمانية
ويليه بإذن الله الجزء الثانى » .

المحتويات